سلمان رشدي

أطفال منتصف الليل

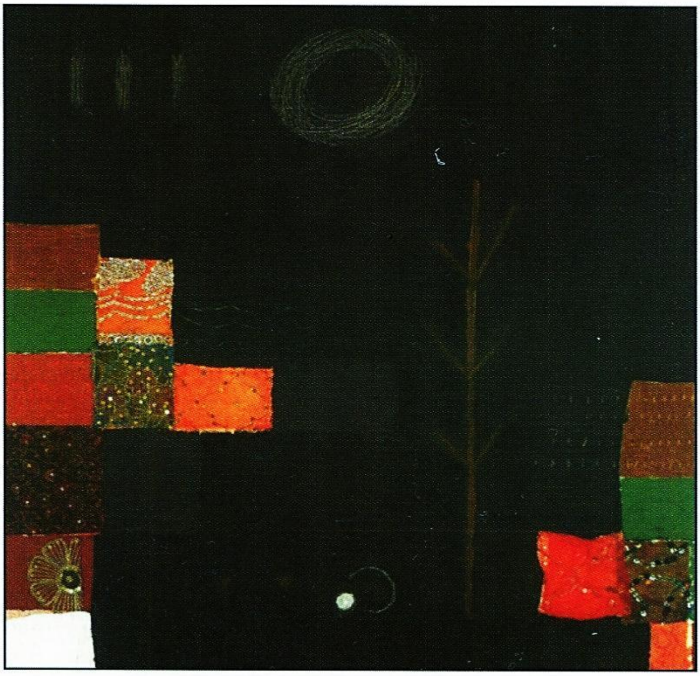

ترجمة: عبد الكريم ناصيف

علي مولا

دار التكوين منشورات الجمل

رواية

١٤٨٨٧٠

سلمان رشدي: **أطفال منتصف الليل**، رواية

سلمان رشدي

أطفال منتصف الليل

رواية

ترجمة: عبد الكريم ناصيف

منشورات الجمل ـ دار التكوين

وُلد **سلمان رشدي** في مدينة بومباي عام ١٩٤٧، وهو بريطاني من أصل هندي تخرّج من جامعة كنج كولج في كامبردج بريطانيا، عام ١٩٨١. حصل على جائزة بوكر الإنجليزية الهامة عن روايته «**أطفال منتصف الليل**». نشر رواية «**آيات شيطانية**» في سبتمبر عام ١٩٨٨ أثار ضجة كبيرة في دول العالم الإسلامي الأمر الذي أدى إلى منع ترجمة وبيع الكتاب في اللغة العربية. في نهاية عام ١٩٩٠ خرج سلمان رشدي باعتذار رسمي للمسلمين في العالم. وفي الرابع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٩٨ أعلنت إيران أنه تم إسقاط الفتوى ضد سلمان رشدي الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى إعادة العلاقات الدبلوماسية بين المملكة المتحدة وإيران. من أعماله الروائية: **غريموس** (١٩٧٥)؛ **أطفال منتصف الليل** (١٩٨٠)؛ **العار** (١٩٨٣)؛ **ابتسامة جكوار** (١٩٨٧)؛ **آيات شيطانية** (١٩٨٨)؛ **هارون وقصص البحر** (١٩٩٠)؛ **مشرد باختيار** (١٩٩٢)؛ **شرق، غرب** (١٩٩٤)؛ **النفس الأخير للجدار** (١٩٩٥)؛ **الأرض تحت أقدامها** (١٩٩٩)؛ **الجنون** (٢٠٠١)؛ **خطوات تقطع الخط** (٢٠٠٢)؛ **شاليمار المهرج** (٢٠٠٥)؛ **عرافة فلورنسا**.

Salman Rushdie: *MIDNIGHT'S CHILDREN*, roman
© 1981 by Salman Rushdie

سلمان رشدي: **أطفال منتصف الليل**، رواية، ترجمة: عبد الكريم ناصيف

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية محفوظة

لـ دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر

تلفاكس: ٢٢٣٦٤٦٨ ١١ ٩٦٣ ٠٠ - ص.ب: ١١٤١٨، دمشق - سوريا

taakwen@yahoo. com

ولـ منشورات الجمل، بيروت - بغداد

تلفون وفاكس: ٦٦٨١١٨ ١ ٩٦١ ٠٠، ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2009
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

الكتاب الأول

الملاءة المثقوبة

ولدت في مدينة بومباي. . . كان يا ما كان في قديم الزمان. لا، ذلك غير مناسب فلا مفر من تحديد التاريخ: لقد ولدت في دار الرعاية التابعة للطبيب نارليكار في الخامس عشر من شهر آب عام ١٩٤٧، لكن في أية ساعة؟ فالساعة مهمة أيضاً. حسن، إذاً: ليلاً. لا، من المهم أن أكون أكثر. . . بالحقيقة. . . ولدت مع دقة منتصف الليل تماماً. كان عقربا الساعة يتعانقان في تحية ملؤها الاحترام حين جئت. لكن أوه! انطقها، انطقها: أجل في اللحظة عينها التي نالت فيها الهند استقلالها. لقد ألقت بي أمي إلى العالم وكانت ثمة شهقات، أما في الخارج فكانت هنالك ألعاب نارية وحشود. بعد بضع ثوان، كسر والدي إبهام قدمه، لكن ذلك كان مجرد حادث تافه إذا ما قورن بما حل بي في تلك اللحظة المشؤومة، ذلك أنه بفضل القوى الطاغية الخفية لتلك العقارب المتعانقة وعناقها الرقيق ذاك، شد وثاقي على نحو غامض إلى التاريخ، ارتبط مصيري ارتباطاً لا فكاك له بمصير بلدي، وطوال العقود الثلاثة التالية، لم يكن ثمة مفر. لقد تنبأ العرافون بمجيئي، احتفلت الصحف بقدومي، صادق السياسيون على شرعيتي، لأظل ولا خيار لي في المسألة كلها. فأنا، سليم سيناء الذي باتت لي ألقاب مختلفة فيما بعد، مثل صاحب الأنف الخرطومي، الوجه الأبقع، الأصلع، المتعجرف، البوذا، بل وحتى فلقة القمر، أنا سليم سيناء، بتُّ متورطاً كل التورط مع القدر وكان في أحسن الأحوال نوعاً خطيراً من التورط، رغم أنني لم أكن قادراً على مسح أنفي في ذلك الحين.

لكن الزمان يجري الآن (ولم يعد لي من فائدة أخرى). سأبلغ الحادية والثلاثين من عمري قريباً. ربما سأبلغها إن سمح لي جسمي المتداعي المنهمك لفرط الاستعمال، فلا أمل لدي بإنقاذ حياتي بل ليس بوسعي الاعتماد على أن لدي ألف ليلة وليلة. علي أن أعمل بسرعة بل أسرع من شهرزاد، إن كنت سأتوصل إلى معنى ـ أجل، معنى ـ شيء ما. وإنني أعترف، فأخشى ما أخشاه هو الوقوع في التفاهة.

أمامي الكثير مما ينبغي أن أرويه، الكثير الكثير، عدد كبير من الحيوات المتشابكة، الأحداث، المعجزات، الأمكنة، الشائعات، خليط كثيف من اللامعقول والمعقول. لقد كنت مستوعب حيوات، ولكي تعرفوني، تعرفوني وحدي فقط، عليكم أن تستوعبوا الكثير أيضاً. الحشود المستوعبة تتزاحم وتتدافع داخلي، تهديها فقط ذكرى ملاءة سرير كبيرة بيضاء في وسطها ثقب دائري تقريباً قطره حوالى سبع بوصات. وهكذا، وأنا أمسك بحلم ذلك المربع الكتاني المشوه، المثقوب الذي هو طلسمي، كلمتي السرية البديلة لـ «افتح يا سمسم» يتعين علي أن أبدأ عملي، أن أصوغ مرة ثانية حياتي من النقطة التي بدأت بها حقاً أي قبل اثنين وثلاثين عاماً من مولدي تقريباً وأبدأها بشيء واضح كالزمن الحاضر، كميلادي الذي تحكمت به عقارب الساعة، ولطخته الجريمة.

لكني بصورة عرضية أقول إن الملاءة ملطخة أيضاً بثلاث نقاط من دم قديم بهتت حمرته وكما يقول لنا القرآن الكريم: (اقرأ، باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق).

ذات صباح كشميري من أيام الربيع الأولى لعام ١٩١٥، اصطدم أنف جدي آدم عزيز بكتلة من التراب تصلبت بفعل الصقيع، وهو يحاول أداء صلاته، فخرجت من منخره الأيسر ثلاث قطرات من الدم تجمدت لتوها على سجادة الصلاة في الهواء اللاذع البرودة، متحولة أمام عينيه إلى أحجار ياقوت. وحين عاد من السجود إلى الركوع مرة أخرى وجد أن الدموع التي تفجرت عيناه بها قد تجمدت هي الأخرى، وللتو صمم، وهو يمسح بازدراء ماسات جفونه، ألا يقبل الأرض من أجل إله أو بشر مرة ثانية. بيد أن هذا

القرار صنع ما يشبه الثقب فيه، فجوة داخلية حيوية تاركة إياه سريع التأثر بالنساء والتاريخ. وهكذا، ودون أن يعي ذلك في البداية، رغم أنه كان قد أكمل دراسته الطبية قبل فترة وجيزة، هب على قدميه، لف سجادة الصلاة على شكل سيجار ثخين ثم أمسك بها تحت إبطه الأيمن ومسح الوادي بعينين نقيتين خاليتين من الماس.

كان العالم قد عاد إلى الحياة مرة أخرى، فبعد أن حمله الشتاء في قشرة من الجليد كقشرة البيضة، نقر الوادي القشرة بمنقاره شاقاً طريقه إلى الفضاء الرحب إلى الأنسام الندية وأشعة الشمس. كان العشب الجديد ينتظر أوانه متململاً تحت الأرض، وكانت الجبال تتراجع إلى محطاتها التلالية بانتظار موسم الدفء (في الشتاء حين ينكمش الوادي تحت الجليد تطبق الجبال على المدينة الواقعة على البحيرة وتتشابك كفكين غاضبين).

في تلك الأيام لم تكن سارية الإذاعة قد نصبت، بل كان معبد سنكارا آشاريا، تلك البثرة الصغيرة السوداء على تل أجرد، لا يزال هو المهيمن على شوارع وبحيرة سرينيغار. في تلك الأيام لم يكن ثمة معسكر للجيش على شاطئ البحيرة ولا أرتال أفعوانية لا نهاية لها من شاحنات وسيارات جيب مموهة تزحم طرق الجبال الضيقة، ولا جنود يختفون خلف ذرى الجبال المارة ببارراامولا وغولمارغ. في تلك الأيام لم يكن هناك من يطلق النار على المسافرين، كما تطلق النار على الجواسيس، إن هم التقطوا صورة لجسر، وباستثناء مراكب الإنكليز المعدة للسكن في البحيرة لم يكن الوادي قد تغير إلا قليلاً مذ كانت هناك إمبراطورية المغول، رغم تجديدات ربيعه كلها، لكن عيني جدي اللتين كانتا، مثل بقية أعضائه كلها، في الخامسة والعشرين من العمر، كانتا تريان الأشياء على نحو مختلف... وكان أنفه قد بدأ يحكه.

لنكشف السر الكامن خلف رؤية جدي المتبدلة. لقد قضى خمس سنوات، خمسة فصول ربيعية بعيدة عن الوطن (فكتلة التراب الحاسمة الأهمية، رغم أنها وجدت بالمصادفة تحت طية من طيات السجادة لم تكن سوى مادة حفازة). وبعد عودته بات يرى بعين المغترب الكثير الأسفار، وبدلاً من أن يرى جمال الوادي الصغير الذي تحيط به أسنان الجبال

الضخمة، لاحظ ضيقه وانسداد آفاقه، وشعر بالأسى على أن يكون في وطنه ويشعر بمثل ذلك الاختناق. . . كما شعر على نحو لا تفسير له ـ وكأن ذلك المكان العتيق يكره عودته بشهاداته العلمية وسماعته الطبية. فتحت الجليد الشتائي، كان يبدو محايد النظرة بارداً، أما الآن وقد جاء الربيع فلم يعد ثمة شك، لقد أرجعته سنوات دراسته في ألمانيا إلى بيئة معادية. وبعد سنوات كثيرة، حين امتلأت الفجوة داخله بكتلة الكراهية، حين جاء كي يضحي بنفسه على ضريح الإله الحجري الأسود في المعبد الواقع على التل، سيحاول استعادة ربيع طفولته في الفردوس، على النحو الذي كان، قبل أن يشوش السفر والكتل الترابية والدبابات العسكرية كل شيء.

في الصباح الذي لطم أنفه فيه الوادي المغطى بسجادة الصلاة، كان قد حاول عبثاً الادعاء بأن شيئاً لم يتغير، فقد نهض من نومه في برد الفجر القارس، وتوضأ وفق الأصول، ثم ارتدى ثيابه واعتمر قبعة أبيه الاستراغانية، بعدئذٍ حمل سجادة الصلاة المدرجة كالسيجار الثخين إلى الحديقة الخضراء الصغيرة الواقعة على شاطئ البحيرة أمام منزله الداكن العتيق، ثم بسطها فوق الكتلة الترابية المترقبة. كانت الأرض تحت قدميه تبدو طرية على نحو مخادع، وذاك ما جعله قلقاً وغير حذر. في الوقت نفسه «بسم الله الرحمن الرحيم. . .» الفاتحة التي بدأ بتلاوتها، ويداه مضمومتان أمامه مثل كتاب، أراحت جزءاً منه لكنها جعلت جزءاً آخر أكبر من الأول يشعر بالقلق. . . «الحمد لله رب العالمين. . .» لكن في تلك اللحظة غزته هايدلبرغ، جاءت إنغريد، حبيبته إنغريد، وفي محياها كل ازدراء له على هذا التكرار الببغاوي الذي يكرره وقد استقبل مكة، ها هما صديقاه أوسكار وإيلس لوبن الفوضويان وهما يسخران من صلاته، ها هما بايديولوجياتهما المضادة. . . «الرحمن الرحيم مالك يوم الدين. . .» هايدلبرغ التي تعلم فيها، فضلاً عن الطب والسياسة، أن الهند ـ مثل الراديوم ـ إنما اكتشفها الأوروبيون، بل حتى أوسكار كان مفعماً إعجاباً بفاسكو دي غاما، وذلك بالذات ما فرق أخيراً بين آدم عزيز وأصدقائه. إن اعتقادهم ذاك بأنه كان، بشكل من الأشكال، من صنع أسلافهم «إياك نعبد وإياك نستعين. . .» إذن ها هو ذا، رغم حضورهم

في ذهنه، يحاول لم شتات نفسه، إعادة ذاته الأولى، تلك التي تتجاهل تأثيرهم إنما تعرف كل ما ينبغي معرفته عن الاقتداء بالمثل، عن كل ما يفعله الآن، ويداه ترشدهما ذكريات قديمة، ترتعشان وهما ترتفعان إلى الأعلى، ثم يضغط الإبهامان على شحمتي الأذنين، وتنبسط الأصابع وهو يركع على ركبتيه. . . «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم» لكن هذا لا يفيد فهو تائه في أرض متوسطة غريبة، ضائعة بين الإيمان والجحود، وهذا هو المأزق بالنتيجة ـ «غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين»، ثم سجد منحنياً بجبهته على الأرض، إلى الأمام انحنى أما الأرض المغطاة بسجادة الصلاة فقد تقوست صعداً نحوه. ثم جاء دور الكتلة، وفي الآن نفسه تقريع ايليس ـ أوسكار ـ إنغريد وهايدلبرغ وكذلك الوادي والله وهكذا لطمته على أرنبة أنفه فسقطت ثلاث قطرات وكان ثمة ياقوت وماس ثم تصميم جدي، الذي ارتد منتصب القامة، على أمر. فقد وقف، درج السيجار ثم حدق إلى البحيرة وألقى به إلى الأبد في ذلك الموقع المتوسط، عاجزاً عن عبادة إله لم يكن ينكر وجوده كلياً. لقد حدث تبدل دائم، حدثت فجوة.

وقف الطبيب الشاب المتخرج حديثاً، آدم عزيز، يواجه البحيرة الربيعية ويستنشق روائح التبدل فيما كان ظهوره (الذي كان في غاية الاستقامة) يدور باتجاه المزيد من التبدلات أيضاً. فوالده كان قد أصيب بسكتة دماغية أثناء غيابه خارج البلاد لكن أمه أبقت ذلك سراً عليه. صوت أمه يتردد في أذنه وهي تهمس برزانة: «ذلك أن دراستك كانت هامة للغاية يا بني» تلك الأم التي قضت حياتها بين جدران المنزل مستترة بالبردة[1]، وجدت نفسها فجأة في غاية القوة والنشاط وهكذا خرجت من المنزل كي تدير محلاً صغيراً للأحجار الكريمة (فيروز ـ ياقوت ـ ماس) محلاً كان قد سمح لآدم بالالتحاق بكلية الطب، تساعده في ذلك منحة دراسية، وهكذا حين عاد آدم وجد أسرته وقد انقلب نظامها رأساً على عقب، فأمه تخرج إلى العمل فيما يرتمي والده خلف الحجاب الذي ألقته السكتة على دماغه. . . في كرسي خشبي وفي

(١) ما تلبسه المرأة الهندية المسلمة.

غرفة معتمة كان يجلس ويقدر أصوات الطيور، إذ كان يزوره ثلاثون جنساً مختلفاً من الطيور، تجثم على الإفريز خارج نافذته ذات المصاريع وهي تتحاور حول هذا الشأن أو ذاك، وكان يبدو سعيداً تماماً.

(. . . لكن بإمكاني تقريباً أن أرى التكرار يبدأ. ترى ألم تتلقّ جدتي صدمة هائلة هي الأخرى؟ والسكة أيضاً، ألم تكن الوحيدة. . . والقردة النحاسية، ألم يكن طيورها. . . اللعنة تبدأ تقريباً ونحن لم نبدأ بعد. .).

لم يعد سطح البحيرة متجمداً فذوبان الجليد حل بسرعة كالمألوف، وكثير من الزوارق الصغيرة، زوارق الصيد لحق بها الذوبان وهي غافلة، وهو أمر مألوف أيضاً. لكن بينما كانت تلك الزوارق الكسلى ترقد على الأرض الجافة وتشخر بسلام بجوار أصحابها، كان أقدم زورق قد شق طريقه في صدوع الجليد كما يفعل كبار السن غالباً، وبذلك كان أول مركب يتحرك عبر البحيرة التي زال جمادها. . . إنه زورق تاي. . . وهذا، أيضاً، مألوف.

لنر كيف ينعم تاي، النوتي العجوز، بوقته على سطح الماء الضبابي، واقفاً، محني الظهر عند مؤخرة زورقه. كيف يغوص مجذافه، ذلك القلب الخشبي المثبت على عصا مصفرة، برشاقة وخفة بين الأعشاب. في هذه الأنحاء يعتبر تاي غريباً وشاذاً لأسباب كثيرة، أحدها أنه يجذف وهو واقف. إن تاي، الذي يحمل دعوة عاجلة للدكتور عزيز، يوشك أن يفك التاريخ من عقاله، أن يطلق حركته. . . بينما يستعيد آدم، وهو يتطلع إلى الماء، ما علمه إياه تاي منذ سنين: «الجليد ينتظر دائماً، بابا[1] آدم، تماماً تحت سطح الماء». عينا آدم زرقاوان، نقيتان، كالزرقة المدهشة لسماء الجبال، تلك التي اعتادت أن تسقط قطرة قطرة في حدقات أهل كشمير، عينا آدم لم تنسيا كيف تتطلعان. إنهما تريان ـ هناك كهيكل شبح من الأشباح تماماً عبر سطح بحيرة دال ـ خطر الأثر الدقيق، التقاطع المعقد لخطوط عديمة اللون، عروق المستقبل المتربة الباردة، فسنواته في ألمانيا، تلك التي طمست أشياء كثيرة أخرى، لم تحرمه من موهبة الإبصار، موهبة تاي. إنه يتطلع. يرى قارب

---

(١) كلمة تحبب تستخدم بالمعنى نفسه الذي تستخدم به كلمة دادا هنا.

تاي المقترب على شكل V فيومئ بيده محيياً. ترتفع يد تاي ـ لكنها ترتفع آمرة: «انتظر» فينتظر جدي، وخلال تلك اللحظة التي يعيش فيها آخر سلام في حياته، ذلك النوع من السلام الموحل والمنذر بالشؤم، يستحسن أن أقوم بجولة قصيرة أصفه فيها.

وهكذا أسجل، محاولاً أن أبعد عن صوتي الحسد الطبيعي الذي يحمله رجل قبيح لرجل مهيب الطلعة، أن الدكتور عزيز كان رجلاً طويلاً، إذا ما وقف قبالة جدار منزله، يوازي طوله خمساً وعشرين آجرة (أي آجرة لكل سنة من سنوات عمره) أو ما يزيد تماماً على ست أقدام وبوصتين، وكان رجلاً قوياً أيضاً. لحيته كثيفة حمراء، وكان ذلك يضايق أمه التي كانت تقول إن حجاج مكة وحدهم من ينبغي أن يربوا اللحى الحمراء غير أن شعره كان أقتم لوناً، وأنت تعرف لون عينيه فقد قالت إنغريد ذات يوم: «لقد أصيبوا بجنون الألوان حين صنعوا وجهك». بيد أن السمة الفارقة لجدي لم تكن لون عينيه ولا طول قامته، لا قوة ذراعيه ولا انتصاب ظهره، بل شيء آخر كان ينعكس في الماء متموجاً وسط وجهه مثل هضبة مائجة... آدم عزيز يراقب، وهو ينتظر تاي، أنفه المتموج، ذاك الذي يطغى بسهولة على وجوه أقل إثارة من وجهه، فحتى في وجهه لا يمكن للمرء أن يراه أول مرة إلا ويتذكر أطول الأشياء. «أنف سيرانو»، قالت إيليس لوبن ذات مرة، فأضاف أوسكار «خرطوم فيل» ثم أعلنت إنغريد «بإمكانك أن تعبر نهراً على ذلك الأنف» (وكانت قنطرته عريضة).

أنف جدي: منخران متسعان تدريجياً عن طرفيهما كالقمع، متقوسان كالراقصتين: بينما ينتفخ قوس الأنف الظاهر إلى الأعلى أولاً ثم إلى الخارج. بعدئذٍ ينتفخ في القاعدة وإلى الأسفل، نازلاً بجلال حتى شفته العليا منتهياً، في تلك اللحظة، بنقرة خفيفة ذات طرف محمر، أنف من اليسير أن تصطدم كتلة ترابية به. على أنني أود أن أسجل أيضاً امتناني لهذا العضو الجبار.

فلولاه من كان سيصدق أنني ابن أمي حقاً، أنني حفيد جدي؟ ـ فهذا العضو الهائل سيكون السمة التي أرثها أيضاً. إن هذا الأنف ـ الذي لا يشبهه

إلا خرطوم الإله غانيش ذي رأس الفيل ـ قد منح الدكتور عزيز وعلى نحو لا جدال فيه، حقه في أن يكون الأب الراعي. وتاي هو الذي علمه ذلك أيضاً. فحين دخل الفتى آدم طور البلوغ قال له النوتي الهرم: «ذلك الأنف تبدأ به سلالة، يا أميري، إذ لن يخطئ أحد فيمن هو صاحب تلك الذرية. ولعل أباطرة المغول كانوا يعطون أيديهم اليمنى مقابل أنوف كهذا الأنف. أنصت إلي. ثمة سلالات تنتظر في داخله». وهنا انتقل تاي إلى الخشونة: «إنه كالخطم».

في محيا آدم عزيز، كان ذلك الأنف يتخذ صفة المهابة، في وجه أمي كان يبدو نبيلاً وطويل المعاناة بعض الشيء، عند خالتي أميرالدا، ميالاً للغطرسة، عند خالتي علياء، ذا صفة تأملية، عند خالتي حنيف، عضو لي عبقرية خائبة، خالي مصطفى جعله متعجرفاً من الدرجة الثانية، أما القردة النحاسية فقد نجت منه تماماً، إنما عندي ـ عندي أنا، فقد كان شيئاً آخر أيضاً. لكن ينبغي ألا أكشف أسراري كلها دفعة واحدة.

(تاي يقترب، تاي، ذاك الذي كشف ما في الأنف من قدرة، والذي يحمل إلى جدي الرسالة التي ستقذفه إلى مستقبله، يجذف بمجذافيه دافعاً زورقه عبر بحيرة الصباح الباكر...).

لا أحد يتذكر متى كان تاي شاباً. فهو يجذف بذلك القارب نفسه، واقفاً وقفته المحنية الظهر نفسها، عبر بحيرتي دال وناغين... منذ الأزل، أو منذ أبعد زمن يتذكره أحد.

كان يعيش في مكان ما من جوف غير صحي لحي من المنازل الخشبية العتيقة وكانت زوجته تربي جذور اللوتس وبعض النباتات الغريبة الأخرى في واحدة من «الحدائق العائمة» الكثيرة والمتحركة بخفة على مياه الربيع والصيف. تاي نفسه كان يعترف باغتباط أنه لا يعرف عمره، وكذلك زوجته ـ فهو كما قالت، كان متيبس الجلد تقريباً حين تزوجا، أما وجهه فكان ما تصنعه الريح بالماء: أمواجاً من جلد. وكان في فمه سنان ذهبيتان ولا شيء سواهما. في البلدة، كان لديه أصدقاء قلة، وكان القلة من النوتيين أو التجار من يدعونه للمشاركة في تدخين نارجيلة حين يعوم ماراً بمواقف الزوارق أو

بواحد من مستودعات المؤن ومحلات الشاي الكثيرة المتداعية المحاذية للشاطئ.

أما رأي الناس بتاي فقد أعلنه، قبل زمن طويل، والد آدم عزيز، تاجر الحجارة الكريمة «لقد ولى دماغه مع أسنانه (لكن في تلك اللحظة كان يجلس السيد عزيز العجوز ضائعاً بين وتوتات الطيور، بينما يستمر تاي في الحياة بكل بساطة وروعة). إنه الانطباع الذي نمته ثرثرة النوتي، تلك الثرثرة الخيالية البالغة الفصاحة والدائمة، والتي لم تكن في معظم الأحيان موجهة إلا لنفسه إذ كانت المياه تنقل الصوت، وكان أهل البحيرة يضحكون على مناجاته لنفسه ضحكات يخالطها شيء من رهبة وحتى خوف، رهبة لأن الخرف العجوز كان يعرف البحيرات والتلال خيراً من منتقصي قدره، وخوف، بسبب مزاعمه عن قدمه الشديدة لدرجة تتحدى الحساب والعد، مع أن هذه القدم كانت تتدلى بخفة من عنقه الدجاجية إلى حد لم يحل بينه وبين الفوز بزوجة مرغوبة للغاية وإنجاب أربعة أبناء منها.

وهناك المزيد، كما يقال، من زوجات الشطآن الأخرى، كما كان الفتيان من النوتيين في مواقف الزوارق مقتنعين بأن لديه كمية من النقود يخفيها في مكان ما ـ بل ربما لديه كنز من أسنان ذهبية لا يقدر بثمن، كنز يخشخش في كيس كالجوز. بعد سنوات، وحين حاول العم بوفز أن يبيعني ابنته عارضاً أن يقتلع أسنانها وأن يستبدل بها أسناناً ذهبية. فكرت بكنز تاي المنسي. . . لكن آدم عزيز كان في طفولته يحبه كثيراً.

كان تاي يكسب رزقه بتشغيل زورقه بالنقل. ورغم إشاعات الغنى كلها، كان تاي ينقل التبن والماعز، الخضروات والأخشاب عبر البحيرات كما كان ينقل الناس أيضاً مقابل أجر وفي هذه الحالة، أي حين كان يعمل كسائق سيارة أجرة، فقد كان ينصب خيمة وسط الزورق، ستائر مطبوعة برسوم الأزهار، داخلها كلة وبعض الوسائد المناسبة كما يزيل روائح زورقه بحرق البخور. كان منظر زورق تاي وهو يقترب متطاير الستائر، يمثل دائماً للدكتور عزيز إحدى الصور المرتبطة بقدوم الربيع. فسرعان ما يأتي السادة الإنكليز وينقلهم تاي إلى حدائق شاليمار وينبوع الملك، مثرثراً، مشيراً بإصبعه، حانياً

ظهره. . . كان تاي هو التجسيد الذي يدحض اعتقاد أوسكار ـ ايليس ـ إنغريد ـ بحتمية التغير. . . إنه روح الوادي المألوفة الأبدية المراوغة. إنه وحش مائي، مولع كل الولع بالبراندي الكشميرية الرخيصة.

ذكرى جدار غرفة نومي الزرقاء: إلى جانب رسالة رئيس الوزراء، علقت لوحة يبدو فيها الصبي رالي وهو يحدق جذلان إلى صياد سمك عجوز يركب ما يشبه زورق صيد أحمر ويجلس على ـ ماذا؟ ـ خشب طوف؟ ويشير باتجاه البحر وهو يروي حكاية عن الأسماك.

لقد أحب الفتى آدم، الذي سيكون جدي، أحب ذلك النوتي تاي حباً جماً لسبب واحد فقط هو هذره الذي لم يكن ينتهي والذي دعا الناس لأن يحسبوه مخبولاً. إنها كلمات سحر تلك الكلمات التي تتدفق منه كنقود الحمقى مارة بسنيه الذهبيتين، موشاة بالحاذوقة والبراندي، محلقة عالياً إلى أبعد ذرى هملايا الماضي، منكفئة بعد ذاك بمهارة شديدة بالغة بعض تفاصيل الحاضر كأنه آدم مثلاً، كي يشرِّح معناه كما تشرِّح فأراً. تلك الصداقة كانت تدفع آدم إلى الماء الحار بانتظام شديد (أو ماء الحمام الغالي بالأحرى، إذ كانت أمه تقول: «سنقتل حشرات ذلك النوتي قبل أن تقتلك»). لكن ذلك العجوز المناجي نفسه ظل يتوانى في زورقه عند أطراف حديقة الشاطئ بينما يجلس عزيز عند قدميه إلى أن تدعوه أصوات إلى الداخل كي يسمع محاضرة عن وساخة تاي ويتلقى التحذيرات من جيوش الجراثيم، التي كانت أمه تتخيلها وهي تثب من ذلك الجسد الهرم المضياف إلى منامة ابنها الفضفاضة المنشاة لكن دائماً كان آدم يعود إلى حافة الماء ليبحث في الضباب عن هيكل محني الظهر لفاسد رث الملابس وهو يوجه زورقه السحري عبر مياه الصباح المسحورة.

«لكن، كم هو عمرك فعلاً يا تاي؟». (والدكتور عزيز البالغ ذو اللحية الحمراء، المندفع نحو المستقبل، يتذكر اليوم الذي طرح فيه ذاك السؤال الذي لا يطرح).

وللحظة من الزمن يخيم سكون أشد صخباً من شلال. الحوار الذاتي ينقطع. المجذاف يخبط في الماء. وقد ركب عزيز زورق تاي، مقرفصاً بين

الماعز على كومة قش، وهو على علم تام أن في انتظاره، حين يعود إلى المنزل، عصا وحوض استحمام. لقد جاء يبتغي قصصاً لكنه بسؤال واحد أخرس راوية القصص.

«لا، قل، يا تاي، كم عمرك حقاً؟». حينذاك تظهر زجاجة براندي لا يعلم أحد من أين أخرجها: شراب رخيص من ثنايا عباءته الدافئة الكبيرة. بعدئذٍ تبدأ ارتعاشة، تجشؤ، فتوهج كتوهج الذهب، وأخيراً كلام. «كم عمري؟ أنت تسأل كم عمري أيها الرأس الصغير الرطب أنت يا ذا الأنف...». ويشير إلى الجبال متنبئاً بوجود صياد سمك على جداري «طاعن في السن يا ذا الأنف الخرطومي»، بينما يتابع آدم ذو الأنف الخرطومي بنظره الإصبع المؤشرة «لقد رأيت الجبال وهي تنشأ، رأيت الأباطرة وهم يقضون نحبهم، اسمع. اسمع. يا ذا الأنف...». وتمتد اليد إلى زجاجة البراندي مرة ثانية، يتبعها صوت البراندي ثم كلمات أكثر تخديراً من شراب مسكر... «رأيت يسوع المسيح حين جاء إلى كشمير. ابتسم، ابتسم. إنني احفظ تاريخك في رأسي، ذلك التاريخ الذي تم تدوينه ذات مرة في كتب عتيقة فقدت. ذات مرة كنت اعرف أين يقوم قبر نقشت على شاهدته قدمان مثقوبتان ظلتا سنة كاملة تنزفان دماً حتى ذاكرتي تخذلني الآن، لكنني أعرف رغم أنني لا أجيد القراءة». وتطير الأمية بإيماءة من تباهٍ، بينما يتهشم الأدب تحت سطوة يده الكاسحة، يده التي تكتسح مرة ثانية عباءته، باحثة عن زجاجة البراندي ثم تمتد إلى شفتيه المتشققتين من البرد. فقد كان لتاي دائماً شفتا امرأة «اسمع، اسمع، يا ذا الأنف الخرطومي، لقد شاهدت الكثير، أوه. كان عليك أن ترى عيسى ذاك حين جاء: لحيته طويلة تمتد حتى حقويه، رأسه أصلع كقشرة بيضة، وكان مسناً، منهك القوى لكنه كان يعرف كيف يتصرف « أنت أولاً يا تاي» قال لي ثم أردف «من فضلك، اجلس». فقد كان دائماً كثير التهذيب والاحترام، إذ لم يدعني بالإناء المتصدع قط، ولم ينادني بصيغة المفرد حتى. دائماً باحترام وتهذيب. فهل ترى؟ لكن أية شهية؟ أي جوع؟ كنت أمسك أذني خوفاً منه... وإنني أقسم، سواء كان قديساً أو شيطاناً، إنه كان بمستطاعه التهام جَدْيٍ كامل في

وجبة واحدة. «إذن، ماذا؟ كل»، قلت له، «املأ بطنك، فالمرء يأتي إلى كشمير كي يستمتع بحياته أو ينهيها أو يفعل الأمرين معاً. لكن عمله كان قد أنجز ولم يأت إلى هنا إلا لكي يستمتع قليلاً.» وكان عزيز، المسحور بهذه الصورة المشربة بالبراندي ليسوع النهم الأصلع، يصغي للعجوز ثم يكرر كل كلمة أمام والديه المندهشين اللذين يتعاملان مع الحجارة الكريمة، وليس لديهما وقت «للغازات» والترهات.

«أوه. أنت لا تصدق؟» ـ يتابع العجوز وهو يلمس شفتيه المتقرحتين مبتسماً، عارفاً أن العكس هو الحقيقة «أنت تشرد بانتباهك عني؟» ـ ومرة ثانية يدرك شدة تعلق عزيز بكلماته «لعل القش ينخس قفاك، ها؟ أنا آسف كل الأسف يا صغيري، آسف أنني لم أقدم لك أرائك حرير موشاة بخيوط الذهب ـ أرائك كتلك التي كان يجلس عليها الإمبراطور جيهانجير. أنت ولا شك ترى الإمبراطور جيهانجير بوصفه جنائنياً فقط»، هكذا اتهم تاي جدي «رجل صنع حدائق شاليمار. ولكنك غبي. ما الذي تعرفه يا ترى؟ جيهانجير يعني «مطوق الأرض». فهل هذا اسم جنائني؟ الله وحده يعلم ماذا يعلمونكم هذه الأيام، أيها الأولاد. بينما أنا...». وهنا ينفخ قليلاً... «كنت أعرف وزن المسيح بالضبط، أعرف وزنه بالتولا[1] ـ فاسألني: كم أقة كان؟ كم رطلاً؟ هو الذي يغدو أثقل حين يشعر بالسعادة، وقد كان في كشمير أثقل من أي مكان آخر. لقد درجت على حمل محمله... لا، لا. انظر إلي، أنت لا تصدقني مرة ثانية، تلك الخيارة الكبيرة في وجهك تتذبذب على غرار تلك الخيارة الصغيرة بين فخذيك. إذن، هيا هيا، اطرح علي أسئلة. افحصني. اسأل كم مرة كانت السيور الجلدية تلتف حول مقابض المحمل ـ الجواب: إحدى وثلاثون مرة. اسألني ما هي الكلمة التي نطقها الإمبراطور وهو يلفظ أنفاسه ـ أقول إنها كشمير». كانت أنفاسه كريهة لكن قلبه طيب. فمن تحسبني يا ترى؟ كلباً أبقع جاهلاً كاذباً؟ اغرب عني، اخرج من هذا القارب الآن، أنفك يجعله أثقل من أن أستطيع تجذيفه، كذلك فإن والدك ينتظرك كي

---

(١) وحدة وزن هندية، حوالى ١١ غراماً.

يدق «غازاتي» هذه، يطردهما منك، أما أمك فستسلخ جلدك».

وفي زجاجة البراندي، التي يحملها النوتي تاي، أرى مسبقاً هوس أبي بالجن. . . كما سيكون هناك أجنبي أصلع آخر. . . وغاز تاي يتنبأ بغاز من نوع آخر صار عزاء لجدتي في شيخوختها، كما علمها القصص أيضاً. . . والكلاب البقعاء ليست بعيدة كثيراً. . . لكن، كفى، إنني أخيف نفسي.

على الرغم من الدق والسلخ، كان آدم عزيز يتابع طوفانه مع تاي في مركبه المرة تلو المرة وسط الماعز، التبن،الأزهار، الأثاث، جذور اللوتس، لكن ليس أبداً مع السادة الإنكليز. وكان يسمع المرة تلو المرة أجوبة عجيبة على ذلك السؤال الوحيد المخيف «بالشرف، تاي، كم عمرك».

من تاي، تعلم آدم أسرار البحيرة ـ أين يمكنك السباحة دون أن تسحبك الأعشاب إلى الأسفل؟ ما هي أنواع حيات الماء، الأحد عشر؟ أين تلقي الضفادع بيوضها وتتكاثر؟ كيف تطهو جذور ـ اللوتس؟ وأين غرقت النسوة الإنكليزيات الثلاث قبل بضع سنوات؟ «ثمة طائفة من نساء الفرنجة يأتين إلى هذه المياه كي يغرقن» قال تاي ذات يوم، «أحياناً يعرفن ذلك وأحياناً لا يعرفن لكنني أعرفه لحظة أشم رائحتهن. إنهن يختفين تحت الماء هاربات مما أو ممن لا يعلم إلا الله ـ. . . لكنهن لا يستطعن الاختفاء عني، بابا» ويضحك تاي ضحكة تبين فيما بعد أنها أصابت آدم بالعدوى ـ قهقهة هائلة مدوية كانت تبدو رهيبة كالموت وهي تصطفق خارجة من ذلك الجسد الذابل العجوز لكنها تبدو طبيعية للغاية وهي تنطلق من جدي العملاق الذي لم يكن أحد يعلم، في الأوقات اللاحقة، أنها بالحقيقة ليست ضحكته (ولقد ورث خالي حنيف تلك الضحكة، وبذلك ظل شيء من تاي حياً في بومباي إلى أن مات ذلك الخال). كذلك سمع جدي من تاي الكثير عن الأنوف.

ذات مرة، نقر تاي منخره الأيسر قائلاً: «هل تعلم ما هذا يا ذا الأنف الخرطومي؟ إنها المكان الذي يلتقي فيه العالم الخارجي بالعالم الداخلي فيك، وحين لا ينسجمان تشعر بذلك في الحال. حينذاك تفرك أنفك بشيء من الضيق لإنهاء الحكة. أنف كهذا هبة عظيمة أيها الإله الصغير، إنني أقول: ثق به. انتبه حين ينذرك أو انتهيت. اتبع نصائح أنفك تحقق الكثير،

بعدئذٍ تنجح». ثم قلب عينيه في جبال الماضي. فاتكأ عزيز إلى الوراء، مستنداً إلى القش «ذات يوم كنت أعرف ضابطاً ـ في جيش الاسكندر الأكبر ذاك، لا تسألني عن اسمه فلا أهمية لاسمه، لكن كانت لديه نبتة بين عينيه كتلك المتدلية من عينيك. حين توقف الجيش في غندارة وقع في غرام بغي هناك. وفي الحال أصيب أنفه بحكة مسعورة. حكه، أجل، هرشه لكن ذلك لم يجد نفعاً. استنشق أبخرة أوراق الأوكالبتوس[1] المسحونة والمغلية، إنما لا فائدة. كادت الحكة تفقده صوابه، لكن الأحمق اللعين ثبت قدميه في الأرض وبقي مع ساحرته الصغيرة حين عاد الجيش إلى الوطن. فأصبح. ماذا؟ شيئاً تافهاً، لا هذا ولا ذاك، نصف مواطن ونصف أجنبي مع زوجة مشاكسة نكدة وحكة في الأنف، وأخيراً انتهى إلى غرس سيفه في بطنه، فما رأيك؟».

. . . الدكتور عزيز عام ١٩١٥، ذاك الذي حوله الماس والياقوت إلى نصف مواطن ونصف أجنبي، يتذكر هذه القصة وتاي يقترب ملوحاً من بعيد. أنفه يحكه أيضاً فيهرشه، ينفضه، يقذف برأسه يميناً وشمالاً، وحينذاك يصرخ تاي.

«هيه أيها السيد الطبيب، ابنة غاني الإقطاعي مريضة».

هكذا تبلغ آدم الرسالة التي هتف بها من فوق سطح البحيرة، وبغير احتفاء، نوتي لم يلتق بالتلميذ منذ خمسة أعوام. هكذا تبلغ الرسالة التي لفظتها شفتان رقيقتان كشفتي امرأة لم تبتسما بتحية مفادها ـ لم أرك ـ منذ ـ زمن ـ طويل، وبذلك انبعثت في الجو هبة من الارتباك والهياج المضطرب المتعجل المدوِّم كالزوبعة. . .

«. . . فكر قليلاً يا بني» تقول أم آدم وهي ترشف الليمون الطازج متكئة على تختها وهي في حالة إنهاك تام. . . «فكر كيف تتغير الحياة. فحتى كاحلاي كانا قبل بضع سنوات سراً لا يمكن الكشف عنه، أما الآن، فلا بدّ من أن يحدق إليهما الغادي والصادي ممن ليسوا من أفراد العائلة حتى».

---

(١) إنه الكينا، لأزهاره وأوراقه استخدامات طبية.

بينما يقف غاني الإقطاعي تحت لوحة زيتية كبيرة لديانا إلهة الصيد مؤطرة بإطار ذهبي صنع بغير إتقان، لابساً نظارتين سوداوين سميكتين راسماً على شفتيه ابتسامته الصفراء الشهيرة مناقشاً الفن، «لقد اشتريتها من إنكليزي مُنِيَ بسوء الحظ، يا سيدي الطبيب. خمسمائة روبية فقط ـ إذ لم أزعج نفسي بمساومته قط. ترى ما الخمسمائة روبية؟ فأنا كما ترى، من عشاق الفن».

«. . . انظر يا بني» تقول أم آدم وقد بدأ يفحصها «أي شيء لا تفعله الأم في سبيل ابنها؟ انظر، كم أعاني! إنك طبيب. . . المس الطفح، هذه البثور المنتفخة واعلم أن رأسي يصاب بالصداع صباحاً وظهراً ومساء. املأ كأسي من جديد يا ولدي». . . لكن الطبيب يكون قد دخل حمى هياج لا علاقة له بأبوقراط لدى سماعه نداء النوتي فيصيح «أنا قادم، للتو. دعني أحضر معداتي». وتلامس مقدمة الزورق حاشية الحديقة. أما آدم فيندفع إلى الداخل، سجادة الصلاة مندرجة كالسيجار تحت إبطه، عيناه الزرقاوان تطرفان بأجفانهما في العتمة الداخلية المفاجئة، ثم يضع السيجار الثخين على رف عال فوق أكداس نسخ من مقدمات ماركس وإنجلز وكتاب لينين «ما العمل؟» وكراسات أخرى هي أصداء مغبرة لحياته الألمانية شبه الذاوية، بعدئذٍ يسحب من تحت سريره حقيبة جلدية مستعملة كانت أمه تدعوها «حقيبة الطبيب» وحين يدفع بها وبنفسه إلى الأعلى خارجاً من الغرفة، تبدو كلمح البرق كلمة «هايدلبرغ» وقد حرقت أحرفها في الجلد عند أسفل الحقيبة، فابنة الإقطاعي شيء حسن يبدأ الطبيب حياته المهنية به، شيء حسن حتى وإن كانت مريضة، لا: بل لأنها مريضة.

. . . وبينما أجلس كمطربان مخللات فارغ في بركة ضوء آتٍ من الزاوية، تزورني رؤيا جدي هذه قبل ست وثلاثين سنة، تلك الرؤيا التي يقتضي تدوينها، مالئة خيشومي بالرائحة اللاذعة لضيق أمه الذي جعلها تغلي وتفور، إضافة إلى رائحة تصميم آدم عزيز القوية كرائحة الخل، وعزمه على أن يشق طريقه بنجاح يمنع أمه من العودة إلى محل الأحجار الكريمة، علاوة على رائحة العفن المنبعثة من بيت كبير لا يرى الشمس يقف فيه الطبيب الشاب، بكثير من القلق، أمام لوحة لفتاة عارية تقريباً ذات عينين وقادتين وقد

انبطح خلفها عند الأفق وعلّ أصابه سهم من قوسها. أهم الأشياء في حياتنا تحدث ونحن غائبون، لكن يبدو أنني اكتشفت من مكان ما خدعة سد الثغرات الموجودة في معلوماتي. فكل شيء موجود في رأسي كل شيء حتى بأدق التفاصيل، مثال على ذلك: الطريقة التي بدا بها الضباب وهو ينحدر في جو الصباح الباكر... كل شيء، وليس فقط المفاتيح الأساسية القليلة التي يقع عليها المرء حين يفتح، مثلاً، حقيبة صفيحية عتيقة عششت عليها العناكب منذ زمن طويل.

... آدم يملأ من جديد كأس أمه ثم يتابع فحصها بشيء من القلق. «ماما ضعي شيئاً من المرهم على هذا الطفح وتلك البثور. فيما يتعلق بالصداع ثمة أقراص، أما الدمامل فيجب شقها بمبضع. لكن ليتك تلبسين البردة حين تجلسين في المحل... بحيث لا تتمكن العيون الوقحة من... فمثل هذه الشكاوى المرضية غالباً ما تبدأ في الذهن..».

خبطة مجذاف في الماء، بصاق ينقذف في البحيرة، تاي ينظف بلعومه ويتمتم غاضباً،... «شيء رائع! ولد ذو أنف خرطومي ورأس رطب[1] يسافر وهو لا يعرف شيئاً أبداً ثم يعود سيداً طبيباً، حقيبته ملأى بأجهزة أجنبية، وهو لا يزال أتفه من بوم! أقسم: إنه لأمر في غاية السوء».

... الدكتور عزيز ينتقل بثقله، وبنوع من القلق، من رجل إلى رجل، تحت تأثير ابتسامة الإقطاعي الذي لا يمكنك بحضوره أن تشعر بالراحة، ثم يرتقب نوعاً من التقلص العضلي اللاإرادي كرد فعل على مظهره الخارجي غير المألوف... لقد اعتاد على ردود الفعل اللاإرادية تلك حين يفاجأ الآخرون بحجمه، بوجهه ذي الألوان العديدة، بأنفه... لكن غاني لا يبدي إشارة على ذلك، فيصمم الطبيب الشاب، بالمقابل، على عدم السماح لقلقه بالظهور. وهكذا يقف متنقلاً بثقله من رجل إلى رجل. يواجه واحدهما الآخر، وكل منهما يكبت (أو هكذا يبدو) نظرته للآخر، واضعاً أساس علاقتهما المقبلة، بعدئذٍ يتغير غاني متبدلاً من عاشق للفن إلى شخص متشدد

(١) أي عفن.

صعب المراس «فرصة كبيرة تسنح لك، أيها الشاب» يقول غاني للطبيب فتشرد عينا هذا إلى ديانا التي ترى العين مساحات واسعة من بشرتها الزهرية الملطخة.

. . . أمه تئن، هازة برأسها «لا، ماذا تعرف يا ولد؟ صحيح أنك صرت طبيباً كبيراً لكن العمل في الحجارة الكريمة أمر مختلف. من تراه يشتري فيروزة من امرأة تختفي خلف حجابها؟ إنها مسألة ثقة، لذا ينبغي أن يتطلعوا إليّ وبالتالي ينبغي أن أصاب بالآلام، والبثور. امض، هيا، لا تقلق بالك بأمك المسكينة».

. . . «لعنة كبيرة» يغمغم تاي وهو يبصق في البحيرة «كبيرة كبيرة. لعنة كبيرة. أف ترى أليس لدينا ما يكفي من الحقائب حتى تأتي بهذا الشيء المصنوع من جلد الخنزير والذي يفسد طهارة المرء مجرد النظر إليه؛ وداخلها. من يعلم ماذا في داخلها؟». وهكذا وجد الدكتور عزيز، وهو يتخذ لنفسه مقعداً بين الستائر المزهرة ورائحة البخور، ان أفكاره تنتزع بعيداً عن المريضة المنتظرة خلف البحيرة. مونولوج تاي اللاذع يقتحم وعيه، يخلف إحساساً بصدمة غامضة، رائحة أشبه برائحة جناح الإصابات في مستشفى تطغى على رائحة البخور. . . من الواضح أن الرجل العجوز ساخط لأمر ما، تتملكه نوبة غضب لا تفسير لها تبدو وكأنها تنصب على مساعده السابق أو، بصورة أكثر دقة وغرابة، على حقيبة مساعده السابق. . . الدكتور عزيز يحاول إجراء محادثة بسيطة معه. . . «زوجتك بخير؟ ألا يزالون يتحدثون عن حقيبتك الملأى بالأسنان الذهب؟». . . يقول ذلك في محاولة منه لاستعادة صداقة قديمة، لكن تاي، يتهرب تماماً منه، ثم يتدفق من فمه جدول قدح لا انقطاع له. الحقيبة الهايدلبرغية تهتز وترتعش تحت تيار الكلمات البذيئة: «حقيبة جلد خنزير فاعلة بأختها تأتي من الخارج ملأى بحيل الأجانب وأحابيلهم. لعنة كبيرة هذه الحقيبة. الآن، إذا ما انكسرت ذراع رجل فإن تلك الحقيبة لن تدع مجبر العظام يجبرها بواسطة العيدان والأوراق. الآن، على المرء أن يدع زوجته تضطجع بجانب تلك الحقيبة ويراقب السكاكين وهي تخرج منها وتشرحها. أشياء رائعة يضعها أولئك الأجانب في أدمغة

شبابنا أقسم: إنه لأمر بالغ السوء. تلك الحقيبة ينبغي أن تحترق بنار الجحيم مع خصي الكفرة».

. . . غاني الإقطاعي يفرقع حمالتي بنطاله بإبهامه: «فرصة كبيرة حقاً. إنهم يقولون أشياء حسنة عنك في البلدة. تدريب طبي جيد. . . جيد جداً. . . وعائلة. والآن يا حكيم، ابنتنا الكريمة مريضة، إذن ها هي ذي فرصتك. تلك المرأة التي تعالجها عادة مريضة دائماً هذه الأيام وهي من النوع العتيق البالي على ما أظن، كذلك لا اطلاع لها على التطورات الأخيرة ماذا ـ ماذا؟ أقول لها: إن كنت طبيبة اشفي نفسك. وإنني أكرر هذا على مسامعك: فأنا موضوعي تماماً في علاقات ـ العمل التي تربطني بالناس. المشاعر، الحب، أمور أدخرها لعائلتي فقط. أما الآخرون فإنني أبعث بهم إلى الجحيم حين لا يؤدي واحدهم عمله على أكمل وجه، أنت تفهمني، أليس كذلك؟ إذن: ابنتي نسيم ليست على ما يرام. وأنت ستعالجها على نحو ممتاز، تذكر أن لي أصدقاء، وأن اعتلال الصحة يصيب مختلف الناس من مختلف الطبقات».

. . . «ألا تزال تخلل حيات الماء بالبراندي كي تمنحك النشاط وتزيد من فحولتك يا تاي؟ ألا تزال تحب أكل جذور اللوتس بلا توابل؟». أسئلة مترددة يطرحها الطبيب فيكتسحها في طريقه سخط تاي المتدفق كالتيار. الدكتور عزيز يبدأ المعاينة. بالنسبة إلى النوتي، الحقيبة تمثل الخارج، إنها الشيء الغريب، الغزو، التقدم، نعم، لقد ملكت بالحقيبة عقل الدكتور الشاب، نعم إنها تحوي فعلاً مشارط وعلاجات للكوليرا والملاريا والجدري، نعم، هي تنتصب بين الطبيب والنوتي، وقد جعلتهما خصمين لدودين. الدكتور عزيز يبدأ القتال ضد الحزن وضد غضب تاي الذي يبدو وكأنما يصيبه بالعدوى، يغدو غضبه، غضبه الذي يتفجر، إنما نادراً، لكنه حين يأتي، يأتي بغير سابق إنذار، على شكل هدير مدوٍ من أعمق أعماقه، مدمراً كل شيء في طريقه، ثم يختفي، ليتركه وهو في غاية التعجب ـ لماذا الكل منقلبو المزاج إلى هذا الحد؟. . . منزل غاني يقترب. . . بواب ينتظر الزورق، وقد وقف مضموم اليدين على حاجز ماء خشبي صغير، عزيز يمركز ذهنه على العمل القادم.

. . . هل وافقت طبيبتك المعهودة على زيارتي يا سيد غاني؟ ومرة ثانية، يلقى السؤال المتردد الإهمال إذ يقول الإقطاعي: «أوه، ستوافق. فاتبعني من فضلك الآن».

. . . البواب ينتظر على حاجز الماء، يمسك بالزورق ويثبته حين يخرج عزيز منه وفي يده حقيبته. آنذاك، يتكلم تاي على نحو مباشر مع جدي. إذ يسأله وازدراء في محياه: «قل لي هذا أيها السيد الطبيب: هل يوجد في تلك الحقيبة المصنوعة من جلود الخنازير الميتة واحدة من تلك الآلات التي يستخدمها الأطباء الأجانب للشم؟» فيهز عزيز رأسه علامة عدم الفهم، صوت تاي يكدس طبقات جديدة من الاشمئزاز «أنت تعرفه يا سيدي، ذلك الشيء، الأشبه بخرطوم الفيل». فيجيب عزيز وقد أدرك مرماه أخيراً: «سماعة؟ طبعاً». فيدفع تاي زورقه بعيداً عن حاجز الماء، ثم يبصق ويبدأ التجذيف مبتعداً «اعرف ذلك. فأنت الآن تستخدم آلة كهذه عوضاً عن أنفك الكبير ذاته».

جدي لا يزعج نفسه في التوضيح للنوتي أن السماعة أكثر شبهاً بالأذن مما هي بالأنف بل يكظم غيظه، الغيظ الحاقد لطفل منبوذ، فرغم كل شيء، ثمة مريضة تنتظر، الزمن يتوقف مركزاً على أهمية اللحظة.

كان المنزل باذخاً لكنه سيئ الإنارة. وكان غاني أرمل ومن الواضح أن الخدم استفادوا من ذلك، فقد كانت هناك أعشاش عناكب في الزوايا وطبقات من الغبار على الرفوف. رأى عزيز ذلك وهم يسيرون به في ممر طويل، أحد الأبواب كان مفتوحاً قليلاً فرأى عزيز عبره غرفة في حالة شديدة من الفوضى. هذه اللمحة، علاوة على لمعة الضوء في نظارتي غاني السوداوين، أخبرت عزيزاً فجأة أن الرجل أعمى، فزاد هذا من إحساسه بعدم الارتياح: أعمى يزعم أنه يقدر اللوحات الأوروبية كل التقدير؟ لكنه تأثر كل التأثر حين رأى غاني يمشي دون أن يصطدم بشيء. . . أخيراً توقفوا أمام باب سميك من خشب الساج، فقال غاني «انتظر هنا لحظة» ثم دلف إلى الغرفة مغلقاً خلفه الباب.

في السنين التالية، كان الدكتور عزيز يقسم إنه خلال تلك اللحظة من

الوحدة، تلك اللحظة التي قضاها في دهاليز قصر الإقطاعي الموحشة الكئيبة الملأى بأعشاش العناكب. شعر برغبة عارمة تقريباً في أن يدور على عقبيه ويولي الأدبار بأسرع ما يستطيع. لقد أفقده رباطة جأشه ذلك اللغز، لغز الأعمى هاوي ـ الفن، فشعر أن داخله يمتلئ بحشرات صغيرة خادشة نتيجة للسم الغادر الذي حملته له غمغمات تاي، وأن منخريه يحكانه إلى درجة أقنعته بأنه التقط، بشكل من الأشكال، مرضاً تناسلياً. كما شعر بأن قدميه تبدآن الدوران ببطء، وكأنهما مسكوبتان في حذاء من رصاص، وأن الدم ينبض بشدة في صدغيه، كذلك سيطر عليه للتو إحساس بأنه يقف في نقطة اللاعودة، إحساس بالغ القوة إلى درجة كاد معها أن يبلل بنطاله الصوفي الألماني. فبدأ، دون أن يعي ذلك، بالاحمرار غضباً، عند هذه النقطة ظهرت أمه أمام عينيه، جالسة على الأرض قبالة مقعد منخفض، رافعة بين أصابعها فيروزة تعرضها للضوء والطفح ينتشر على وجهها مثل حمرة الخجل، كان وجه أمه قد اكتسى ازدراء النوتي تاي كله. «امضِ، هيا، أسرع». قالت له بصوت تاي: «لا تبال بأمك العجوز المسكينة». فوجد الدكتور عزيز نفسه يتلعثم «أي ولد عديم الجدوى لديك يا أماه! ألا ترين أن هناك ثقباً في منتصف جسمي، ثقباً بحجم البطيخة؟». فابتسمت أمه ابتسامة ألم «أنت دائماً هكذا، ولد بلا قلب...». بعدئذٍ تأوهت، ثم تحولت إلى عظاءة لاطئة على جدار الدهليز تخرج لسانها له. كان الدكتور عزيز واقفاً يملؤه شعور بالدوار، ثم غدا غير واثق إن كان قد تكلم بصوت عال أم لا، كما تساءل عما كان يرمي من كلامه حول ذلك الثقب، لكنه وجد أخيراً أن قدميه كفتا عن محاولة الفرار، كما أيقن أنه موضع مراقبة. امرأة مفتولة العضلات كالمصارعين تحدق إليه، تومئ له أن يتبعها إلى الغرفة. حالة ساريها أخبرته بأنها خادم. لكنها لم تكن كالخدم خائفة ذليلة. فقد قالت «تبدو أخضر مثل سمكة. انتم أيها الأطباء الشبان، تقدمون إلى منزل غريب فتصير أكبادكم هلاماً. هيا، هيا، أيها السيد الطبيب، إنهم بانتظارك» وهكذا أمسك حقيبته بإحكام أشد قليلاً ثم تبعها عبر باب الساج القاتم.

... فإلى مخدع فسيح سيئ الإنارة كبقية المنزل، رغم أن حزمة من

أشعة الشمس المغبرة كانت تتسرب إليه عبر نافذة مروحية في مكان عال من الجدار. وكانت الأشعة الفضية تنير مشهداً أكثر لفتاً للنظر من أي شيء سبق للطبيب أن رآه في حياته: لوحة ذات غرابة طاغية إلى درجة شعر معها الطبيب أن قدميه بدأتا تنتقلان صوب الباب مرة أخرى. إذ كانت امرأتان أخريان، لهما بنية المصارعين المحترفين أيضاً، تقفان متصلبتي القامة في النور، وكل منهما تمسك بطرف ملاءة سرير بيضاء كبيرة رافعتين ذراعيهما عالياً فوق رأسيهما إلى درجة تدلت معها الملاءة بينهما كالستارة. أما السيد غاني فقد انبثق من العتمة المحيطة بالملاءة المنارة سامحاً لآدم المرتبك أن يحملق كالأبله باللوحة المتميزة، لنصف دقيقة ربما، نصف دقيقة استطاع الدكتور بعدها، وقبل أن ينبس أحد ببنت شفة، أن يكتشف شيئاً:

ففي المنتصف تماماً، كانت الملاءة قد قطعت على شكل ثقب دائري تقريباً قطره حوالى سبع بوصات.

«اغلقي الباب أيتها المربية» أصدر غاني تعليماته لأولى المصارعات، بعدئذٍ، التفت إلى عزيز وقد غدا ميالاً وحميمياً «في هذه البلدة ثمة الكثير. فمن لا يصلحون لشيء، ممن يحاولون في مناسبات كهذه أن يتسللوا إلى غرفة ابنتي». ثم أضاف وهو يشير برأسه إلى النساء الثلاث ذوات العضلات المفتولة قائلاً: «إنها بحاجة لمن يحميها».

لكن عزيزاً كان لا يزال محملقاً بالملاءة المثقوبة، فقال غاني: «هيا افحص ابنتي نسيم، الآن، في الحال».

حينذاك دار جدي بناظريه باحثاً في الغرفة «لكن، أين هي يا سيد غاني؟».

تمتم متخبطاً أخيراً، فطغت على وجوه المصارعات تعابير تشامخ، كما خيل إليه أنهن شددن عضلاتهن، كي يكن على استعداد، أما خطر بباله أن يقمن بعمل غير معقول.

... «آه، إني أرى ارتباكك». قال غاني وقد اتسعت بسمته الصفراء «أنتم الأولاد، العائدون من أوروبا، تنسون بعض الأشياء أيها السيد الطبيب. ابنتي محتشمة شريفة، بلا جدال. إنها لا تعرض جسدها على رجال غرباء،

وليكن في علمك أنه من غير المسموح لك أن تراها، لا. أبداً. تبعاً لذلك فقد طلبت وضعها خلف تلك الملاءة. إنها تقف هناك كأي فتاة طيبة».

هنا دبت إلى صوب الطبيب نغمة شديدة الاهتياج «لكن أيها السيد غاني، قل لي كيف أستطيع فحصها دون النظر إليها؟». فابتسم غاني «ببساطة، تحدد الناحية التي ينبغي فحصها من ابنتي. حينذاك أصدر تعليماتي بوضع الناحية المطلوبة مقابل ذلك الثقب الذي يتيح لك الرؤية، وبهذا الأسلوب يمكنك القيام بعملك». «لكن، مم تشكو السيدة؟» سأل جدي بنوع من القنوط فأجابه السيد غاني، ومقلتاه ترتفعان صعداً في محجريهما، وابتسامة تتحول إلى تكشيرة حزن، قائلاً: «يا للطفلة المسكينة! إنها تعاني من ألم شديد في المعدة».

فقال الدكتور عزيز، وقد كبح نفسه قليلاً: «إذن سترينى معدتها من فضلك..».

مركوروكروم

بادما ـ بادمانا السمينة ـ عابسة عبوساً رائعاً ـ (فهي تجهل القراءة وتكره، شأنها شأن محبي السمك جميعاً، أن يعرف الآخرون شيئاً لا تعرفه. بادما: قوية، مرحة عادة وهي عزائي في أيامي الأخيرة. لكنها بالتحديد. . .). إنها تحاول أن تتزلف إليّ وأنا في مقعدي «كل الطعام فسد» وبكل عناد أظل منكباً على أوراقي. تعود فتتساءل ويدها اليمنى تضرب الهواء بشيء من القنوط «ليت شعري، ما ذلك الشيء الثمين الذي يحتاج إلى كل هذه الكتابة؟». فأجيب: الآن وقد بدأت تنساب تفاصيل مولدي. الآن وقد باتت الملاءة المثقوبة تنتصب بين الطبيب والمريض، فلا عودة. تطلق بادما نخرة تعجب. تلطم جبينها بمعصمها «حسناً مت جوعاً، مت جوعاً، فمن يهتم مثقال ذرة؟». ثم تلطم جبينها لطمة أخرى أشد دوياً وتطلق نخرة حاسمة. . . لكنني لا أعير موقفها انتباهاً. إنها تحرك قدراً يبقبق طوال النهار كي تعيش، شيء حار وشكس يجعلها تغلي هذه الليلة. يبرز خصرها غير الناحل، زندها المكسو بالشعر، تندفع بعزم مفاجئ، تومئ، ثم تخرج. مسكينة بادما. دائماً تجعلها الأشياء كبش الفداء، ربما حتى اسمها: فقد بات مفهوماً تماماً، مذ أخبرتها أمها حين كانت مجرد طفلة صغيرة، أنها سميت باسمها ذاك تيمناً بإلهة اللوتس، تلك التي تشتهر أكثر ما تشتهر بين سكان القرى بأنها «تلك التي تملك الروث».

في السكون الجديد أعود إلى صحائف الورق التي تنبعث منها رائحة الزنجبيل وكلي استعداد ورغبة لأن أُخرج من قلب بأسائها قصة تركت أمس

معلقة في الهواء ـ تماماً كما اعتادت شهرزاد أن تفعل الليلة تلو الليلة، معتمدة في الحفاظ على حياتها، على إبقاء الأمير شهريار وهو يتحرق شوقاً وفضولاً لمعرفة المزيد. سأبدأ في الحال: بأن أكشف أن هواجس جدي في الممر لم تكن بلا أساس ففي الشهور والسنين التالية، وقع تحت ما يمكنني وصفه بأنه سحر ساحر فرضته عليه تلك القماشة الضخمة المثقوبة ـ إنما غير الملوثة.

«مرة ثانية؟» قالت أم آدم وهي تقلب عينيها «صدقني يا ولدي، تلك الفتاة سقيمة بسبب الدعة وشدة الترف لا غير. كثير من الحلوى والدلال، وليس هنالك أم ذات قبضة صارمة، لكن اذهب، اعتن بفتاتك ذات المرض الخفي فأنا على ما يرام. إنه قليل من الصداع لا غير».

في تلك الأيام، كانت ابنة صاحب الأرض، نسيم غاني، قد تعاقدت مع عدد هائل من الأمراض الصغيرة، وفي كل مرة كانت ترسل خادمها لاستدعاء الطبيب الشاب الطويل ذي الأنف الكبير الذي حقق لنفسه شهرة في الوادي. لقد أصبحت زيارات آدم عزيز لمخدع الفتاة مع أشعة الشمس والوصيفات الثلاث حدثاً أسبوعياً بالحقيقة، وفي كل زيارة يسمح له، عبر ثقب الملاءة بلمحة يرى فيها دائرة أخرى قطرها سبع بوصات من جسد الفتاة. لقد أعقب مرضها الأول الذي حل بمعدتها التواء خفيف للغاية أصاب كاحلها الأيمن، ثم شكوى من ظهر إبهام قدمها اليسرى، فجرح صغير في أسفل ربلة ساقها اليسرى. «الكزاز قاتل أيها السيد الطبيب» قال صاحب الأرض «ابنتي نسيم يجب ألا تموت بسبب خدش». كذلك أصيبت نسيم بتصلب في ركبتها اليمنى وكان على الطبيب أن يعالج الأمر من خلال ثقب الملاءة نفسه... لكن بعد حين بدأت الأمراض تصعد إلى الأعلى، متجاوزة بعض المناطق التي لا يمكن ذكرها، ثم طفقت تتكاثر في أنفها العلوي. لقد كانت تعاني من مرض غامض دعاه والدها باسم «اهتراء الإصبع»، ذلك المرض جعل بشرة يديها تتقشر، كما طفقت تعاني من وهن في عظام الرسغ. فوصف آدم لها أقراص كلس، ومن نوبات إمساك، فأعطاها مجموعة ملينات إذ ليس بموضع بحث أن يسمح له بإعطائها حقنة شرجية. كذلك أصيبت عدة مرات بالحمى كما كانت درجة حرارتها تنخفض على نحو غير عادي. في حالات كهذه كان

الطبيب يضع ميزان حرارته تحت إبطها ثم يشرع بالهمهمة والدمدمة حول سوء تلك الطريقة وعدم فعاليتها. تحت الإبط المقابل، ظهر لديها ذات مرة حالة خفيفة من مرض القوباء فدلك لها المنطقة بمسحوق أصفر بعد تلك المعالجة التي اقتضت منه أن يفرك الجلد بالمسحوق فركاً لطيفاً إنما قوياً، الأمر الذي جعل الجسم المستور الناعم يبدأ بالرجفة والارتعاش وجعل الطبيب يسمع ضحكاً مكتوماً ينبعث من وراء الملاءة، فنسيم غاني شديدة الحساسية تجاه الدغدغة ـ بعد تلك المعالجة انتهت الحكة لكن سرعان ما وجدت نسيم مجموعة أخرى من أسباب الشكوى. ففي الصيف أصيبت بفقر الدم وفي الشتاء بالتهاب القصبات «قصباتها الرئوية بالغة الرقة» شرح والدها غاني. «إنها أشبه بفلوت[١] صغير»).

في مكان بعيد كانت الحرب العظمى تنتقل من أزمة إلى أزمة، أما في البيت المليء بأعشاش العنكبوت فقد كان الدكتور عزيز منهمكاً بحرب شاملة ضد شكاوى مريضته التي لا تنفد. وخلال أعوام الحرب هاتيك، لم يتكرر على نسيم مرض واحد. «الأمر الذي يؤكد» قال له غاني ذات مرة «إنك طبيب ممتاز. فحين تعالجها تشفى تماماً، لكن وا أسفاه!» وضرب جبهته ـ ثم استأنف: «المسكينة تشبه المرحومة أمها، جسمها ضعيف. لكنها طفلة رائعة».

وهكذا تشكلت في ذهن الدكتور عزيز صورة تدريجية لنسيم، صورة ركبت على نحو سيئ من أعضائها التي فحصها واحداً واحداً. تلك الصورة لم تعد تفارقه، لا في اليقظة ولا في المنام. كان خياله يجمع تلك الأجزاء من الصورة معاً، لتصحبه الفتاة في كل غدو له أو رواح. كانت الفتاة تسكن عقله حتى بات في اليقظة والمنام يشعر عبر أطراف أصابعه بنعومة بشرتها الحساسة أو رسغها الدقيق الكامل أو جمال الكاحلين. كان بإمكانه أن يشم رائحتها، رائحة الخزامى و. . . كان بإمكانه أن يسمع صوتها وضحكها المكتوم، صوت فتاة صغيرة، لكن تلك الصورة ظلت بلا رأس، فهو لم ير وجهها قط.

---

(١) آلة نفخ موسيقية تشبه الناي.

كانت أمه تنبطح على سريرها، باسطة ذراعيها ورجليها ثم تقول له «تعال دلكني، بني، أيها الطبيب الذي يمكن لأصابعه أن تريح عضلات أمه العجوز! دلكني، دلكني يا ولدي يا من يذكرني تعبير وجهه بإوزة مصابة بالإمساك». ويدلك لها كتفيها فتتنهد وتتلوى ثم تسترخي «فوق، تحت، إلى اليمين، حسناً يا بني الألمعي الذي لا يستطيع أن يرى ما الذي يفعله غاني صاحب الأرض. ولدي في غاية الذكاء لكنه لا يحزر لم تلك الفتاة دائمة الشكوى والمرض. اسمع يا بني: انظر إلى أنفك مرة: ذلك الرجل غاني، يعتقد أنك لقطة رائعة لها. رجل كامل متعلم في البلاد الأجنبية، أجل يا بني، لقد عملت في الحوانيت. وكثيراً ما كانت نظرات الغرباء تعريني، أجل، عليك أن تتزوج نسيم، طبعاً أنا على صواب، وإلا لماذا يسأل مرتين عن عائلتنا؟» ويستمر عزيز بتدليك أمه «أوه يا إلهي! توقف الآن فلا داعي لأن تقتلني لأنني أقول الحقيقة».

بحلول عام ١٩١٨ بات الدكتور عزيز يعيش بانتظار رحلاته المنتظمة عبر البحيرة وحينذاك بات توقه لها أكثر حدة أيضاً، إذ صار واضحاً بعد ثلاث سنوات أن صاحب الأرض وابنته يرغبان في خفض بعض الحواجز. ففي إحدى الزيارات، قال غاني لأول مرة: «كتلة ناتئة في الجانب الأيمن من الصدر، هل هي مزعجة يا دكتور؟ انظر، انظر جيداً». وهناك، عبر شق الملاءة المؤطر، كانت تبدو كاملة الشكل جميلة على نحو شاعري... «لكن لا بدّ لي من لمسها» قال عزيز مجاهداً لإخراج صوته، فربت غاني ظهره صائحاً «... المسها... المسها... يد الشافي... اللمسة الشافية... إيه هيا يا دكتور؟» ومد عزيز يده... «المعذرة لسؤالي، لكن هل السيدة في دورتها الشهرية؟».

... وارتسمت آثار بسمات خفية على وجوه الوصيفات، أما غاني فقد هز رأسه بدماثة:

«أجل... لكن لا يضايقنك السؤال يا عجوزي... فأنت طبيب العائلة الآن...». حينها قال عزيز: «إذن، لا بأس... ستزول هذه النتوءات بزوال الدورة الشهرية»... لكن في المرة القادمة كانت هناك «عضلة متمزقة في

مؤخرة فخذها»، «انظر يا سيدي الطبيب... إنها مؤلمة للغاية!». وهناك عبر الملاءة، بهرت عيني آدم عزيز إلية رائعة الاستدارة غير معقولة... فقال عزيز: «هل يسمح لي...». وبكلمة من غاني، جاء جواب بالطاعة من خلف الملاءة، وانحلت المنامة لتسقط عن كفل ساحر برز على نحو رائع من فتحة الملاءة. آدم عزيز يقسر نفسه على اتخاذ هيئة الطبيب الذهنية... يمد يده... يتلمس، ويقسم في سره أنه يرى مؤخرة الفتاة تحمر احمرار الخجل.

طوال ذلك المساء، ظل آدم يفكر باحمرارة الخجل تلك. هل فعل سحر الملاءة فعله في كلا الجناحين؟ فقد راح آدم، وبكثير من الإثارة، يتخيل نسيم التي لا رأس لها وهي ترتعش تحت عينيه الفاحصتين وميزان حرارته وسماعه الطبي وأصابعه: كما حاول أن يرسم صورة له في ذهنها. بالطبع كانت نسيم في وضع غير مؤاتٍ، فهي لم تر سوى يديه... وهكذا بدأ آدم يأمل بنوع من اليأس الضمني أن تصاب نسيم بالشقيقة أو بحكة في ذقنها غير المرئية كي يتمكن واحدهما من النظر إلى وجه الآخر. لقد كان يعلم كم تفتقر مشاعره للصبغة المهنية لكنه لم يفعل شيئاً لكبتها. بل لم يكن بمستطاعه فعل شيء. لقد باتت تلك المشاعر حية قائمة بذاتها. أي باختصار: كان جدي قد وقع في الغرام. بات يفكر بالملاءة المثقوبة بوصفها شيئاً سحرياً مقدساً، فمن خلالها كان يرى الأشياء التي ملأت في داخله ذلك التجويف الذي فغر فاه حين أهانه صاحب المركب تاي وضربته كتلة العشب على أنفه. يوم انتهت الحرب العالمية، أصيبت نسيم بالصداع الذي طال انتظاره. مثل هذه المصادفات التاريخية مهدت، وربما لطخت وجود أسرتي في هذا العالم. لكن قلما جرؤ آدم على النظر إلى ما تكشف عنه ثقب الملاءة. ربما كانت بشعة، وربما كان ذلك يفسر هذا السلوك كله... ونظر. فرأى وجهاً ناعماً ليس بشعاً على الإطلاق. إطاراً جميلاً لعينيها الجميلتين البراقتين بلونهما البني الذي تخالطه نثرات من ذهب: عيني نمرة. واكتملت الدائرة على الدكتور عزيز... أما نسيم فقد هتفت: «لكن، يا إلهي! أي أنف لك يا دكتور!». فصرخ غاني مغضباً: «أيتها البنت... فكري..». لكن المريضة وطبيبها كانا يضحكان معاً وكان عزيز يقول «أجل.. أجل.. إنه نموذج

شهير. يقولون إن هناك سلالات تنتظر فيه..» لكنه كبح لسانه فقد كان على وشك أن يضيف... «مثل فنطيسة خنزير».

أما غاني الذي ظل سنوات ثلاثاً طويلة يقف بجانب الملاءة أعمى لا تبصر عيناه وهو يبتسم ويبتسم ويبتسم، غاني هذا بدأ مرة أخرى يبتسم ابتسامته الخفية فانعكست على شفاه الوصيفات.

في تلك الأثناء كان تاي قد اتخذ قراره الذي لا يمكن تفسيره وهو أن يقلع عن الاغتسال. ففي واد غارق ببحيرات المياه العذبة، حيث يمكن لأشد الناس فقراً أن يتباهوا بنظافتهم. اختار تاي أن يكون نتن الرائحة، كانت قد مضت عليه ثلاث سنوات لم يستحم ولم ينظف نفسه بعد قضاء حاجته. كان يرتدي الثياب نفسها دون غسل لمدة عام كامل ثم يتركها عاماً آخر، تنازله الوحيد في الشتاء كان ارتداءه لمعطف فضفاض أشبعه بالعباءة فوق منامته ذات الرائحة النتنة، أما السلة الصغيرة من الفحم التي كان يحملها داخل معطفه ذي الزي الكشميري، بغرض تدفئته في البرد القارس، فلم تكن تفعل شيئاً أكثر من إثارة رائحته الفاسدة وزيادتها. كان تاي يعبر ببطء عتبة منزل عزيز مطلقاً روائح جسده الكريهة عبر الحديقة الصغيرة إلى الداخل، وكانت الأزهار تذبل والطيور تفر من إفريز نافذة عزيز، الوالد العجوز. وبالطبع، خسر تاي عمله. فقد كان الإنكليز بصورة خاصة، يكرهون كثيراً أن تزعجهم تلك الحمأة البشرية. وقد انتشرت قصة في منطقة البحيرة تقول إن زوجة تاي تبحث عن عقلها بعد أن ساقتها إلى الجنون قذارة عجوزها المفاجئة. لكنه كان يجيب: «اسألوا طبيبنا العائد من الخارج، اسألوا صاحب الأنف الخرطومي، ذلك العزيز الألماني» أتراها إذن كانت محاولة للإساءة لخيشومي الطبيب ذوي الحساسية المفرطة (واللذين كانت قد هدأت فيهما حكة الخطر وذلك استجابة لمساعدات الحب التحذيرية)، أم كان ذلك إشارة لعدم التغير في تحدي الغزو الذي يمثله الطبيب القادم من هايدلبرغ؟ ذات مرة سأل عزيز الرجل العجوز مباشرة. «ترى لماذا هذا كله؟». لكن تاي اكتفى بأن نفث نفساً كريهاً عليه ثم جذّف بقاربه مبتعداً، وكاد النفس أن يقطع عزيزاً نصفين، فقد كان حاداً كالفأس.

في عام ١٩١٨، توفي والد الدكتور عزيز وهو نائم بعد أن حرم من طيوره. أما والدته التي باتت قادرة على بيع الأحجار الكريمة بفضل نجاح ابنها في مهنته والتي رأت في وفاة زوجها رحمة وفرصة تتخلص بها من حياة مثقلة بالمسؤوليات، فإنها سرعان ما استلقت على فراش الموت ولحقت بزوجها قبل انقضاء الأربعين. وفي الوقت الذي كانت تعود فيه الأفواج الهندية بعد انتهاء الحرب، كان الدكتور عزيز قد أضحى يتيماً وحراً أيضاً ـ ما عدا أن قلبه كان قد سقط في ثقب قطره حوالى سبع بوصات.

الأثر المدمر الذي تركه سلوك تاي هو أنه خرب علاقات الدكتور عزيز الطيبة بأهل البحيرة فهو الذي كان في طفولته يثرثر بكل انطلاق مع بائعات السمك والأزهار، وجد نفسه موضع ازدرائهم. «اسألوا صاحب الأنف الخرطومي، ذلك العزيز الألماني». كان تاي قد وسمه كأجنبي وبالتالي كشخص لا يمكن الثقة به قط. لم يكن أهل البحيرة يحبون تاي، لكن التغير الواضح الذي أصاب الدكتور كان يزعجهم أكثر حتى. وهكذا وجد عزيز نفسه موضع شك بل ومنبوذاً من قبل الفقراء، الأمر الذي آذاه كل الأذى. حينها أدرك ما يرمي إليه تاي: فالرجل يحاول طرده خارج الوادي.

كذاك انتشرت قصة الملاءة المثقوبة أيما انتشار. فوصيفات السيدة كن أقل حكمة وحصافة مما بدا عليهن. وهكذا بدأ عزيز يلحظ أن الناس يشيرون إليه وأن النساء يخفين ضحكاتهن بأيديهن حين يعبرون به. «لقد قررت أن أحقق لتاي انتصاره» قال عزيز، فأصاخت الوصيفات الثلاث أسماعهن، وكانت اثنتان منهن تمسكان بالملاءة أما الثالثة فتحوم قرب الباب، وكن جميعاً يحاولن سماع ما يقول ـ رغم سدادات القطن في آذانهن. («لقد جعلت والدي يفعل ذلك» أخبرته نسيم «هؤلاء الثرثارات لن نسمح لهن بأن يفعلن شيئاً من ذلك بعد الآن») وكانت عينا نسيم الظاهرتان من خلال الثقب قد باتتا أكثر اتساعاً.

. . . تماماً مثل عينيه حين كان قبل بضعة أيام يسير في شوارع المدينة، ورأى آخر باص من باصات الشتاء يصل وقد كتب على مقدمته ما شاء الله، بأحرف ملونة بالأخضر ومظللة بالأحمر، وعلى مؤخرته الشكر لله بأحرف

صفراء مظللة بالأزرق، كما كتب بلون أحمر كلون الوجنات ـ للأسف وداعاً ـ مثل عينيه حين ميز في ذلك الباص عبر شبكة الحلقات والخطوط الجديدة على وجهها، ايليس لوبن وهي تغادر الباص.

في ذلك الحين بات غاني صاحب الأرض يتركه بمفرده مع الوصيفات اللواتي سدت آذانهن. «كي تتكلما قليلاً، فالعلاقة بين الطبيب والمريض لا يمكن أن تتعمق إلا في أشد الأجواء ثقة، إنني أرى ذلك يا سيد عزيز، وأرجو أن تغفر لي تطفلاتي في السابق». في ذلك الحين بات لسان نسيم أكثر طلاقة وحرية «ما هذا الذي تقوله؟ ما أنت... رجل أم فأر؟ تترك موطنك بسبب نوتي نتن؟». «لقد توفي أوسكار» أخبرته ايليس وهي ترشف عصير الليمون على سرير أمه. «ومثل كوميدي، ذهب إلى الجيش يقول لأفراده «لا تكونوا بيادق». ولحماقته، كان يظن أن الجنود سيلقون ببنادقهم أرضاً ويفرون. كنا نراقبه من النافذة وكنت أدعو الله ألا يطؤوه بأقدامهم، ألا يسحقوه قط. كان الفوج يتدرب على النظام المنضم والسير بحسب الإيقاع الموسيقي، ولم يكن باستطاعتك أن تميز أفراده. وحين وصل إلى زاوية الشارع مبتعداً عن مكان العرض تعثر برباط حذائه فسقط في الشارع وضربته سيارة قيادة فقضى نحبه. لم يكن باستطاعته أبداً أن يعقد رباط حذائه، ذلك المسكين..» هنا.. رأى عزيز ماسات تتلألأ تحت أهدابها... «لقد كان طرازاً من الناس يسيء كل الإساءة للفوضويين». «حسناً»، وافقت نسيم أخيراً «بذلك تحصل على فرصة جيدة للحصول على عمل معتبر، جامعة أغرا... إنها مكان شهير، لا تظن أنني لا أعرف... دكتور جامعة!.. ذلك يبدو جيداً. قل إنك ذاهب من أجل ذلك وإنه عمل مختلف». ثم غابت الأهداب خلف الثقب «سوف أفتقدك بالطبع...»، «إنني عاشق» قال عزيز لإيليس لوبن ذات مرة، وفي مرة أخرى قال... «وهكذا، لم أرها إلا من خلال ثقب في ملاءة. جزء صغير من جسدها كل مرة، لكنني أقسم إن مؤخرتها تحمر خجلاً».

فقالت إيليس «لا بدّ أنهم يضعون شيئاً في الهواء هنا»، «نسيم، لقد حصلت على العمل». قال آدم بكثير من الانفعال: «اليوم وصلتني الرسالة،

ومفعول القرار من نيسان ١٩١٩. والدك يقول إن باستطاعته أن يجد شارياً لمنزلي وللمحل أيضاً».

«رائع» بوزت نسيم شفتيها: «إذن علي الآن أن أجد طبيباً جديداً. أو ربما علي أن أجيء مرة ثانية بتلك العجوز الشمطاء التي لا تفقه شيئاً عن أي شيء».

«باعتباري يتيماً» قال الدكتور عزيز «توجب علي أن أجيء بنفسي بدلاً من أفراد عائلتي، لكنني مع ذلك جئت أيها السيد غاني، وللمرة الأولى دون أن ترسلوا خلفي. فهذه الزيارة ليست زيارة عمل».

«يا ولدي العزيز» قال غاني مربّتاً ظهر آدم «بالطبع، يجب أن تتزوجها، بدوطة من الطراز الأول! وعدم توفير في النفقات! سيكون عرساً لم يشهد هذا العالم مثيلاً له... أجل... بكل تأكيد».

«ليس باستطاعتي أن أدعك هنا حين أذهب» قال عزيز لنسيم، فقال غاني: «كفى، هذا الهراء! لم تعد هنالك حاجة لهذه الملاءة وهذا السخف! اسقطوها أرضاً أيتها النساء فأمامكن الآن عاشقان شابان» فقال آدم عزيز: «أخيراً، أراك كاملة.. لكن علي أن أذهب الآن. فهناك جولاتي وصديقة قديمة تقيم معي... علي أن أخبرها، ولسوف تفرح لنا كلانا. إنها صديقة عزيزة من ألمانيا».

«كلا، بابا آدم» قال له البواب «منذ الصباح لم أر السيدة إيليس. لقد استأجرت ذلك العجوز تاي كي تقوم بجولة في الأماكن الأثرية».

«ما الذي يمكنني قوله يا سيدي؟» غمغم تاي بخنوع. «الحقيقة تشرفت بأن دعيت إلى منزلي شخصية عظيمة مثلك. لقد استأجرتني السيدة في رحلة إلى حدائق المغول يا سيدي على أن أقوم بها قبل تجمد البحيرة. إنها سيدة هادئة، يا سيدي الطبيب، لم تنبس ببنت شفة طوال الوقت. وهكذا تبادر إلى ذهني أن أفكاري الخاصة التافهة ستبدو حمقاء خرفة فالتزمت الصمت وفجأة نظرت فلم أجدها في مقعدها. يا سيدي، أقسم برأس زوجتي إنه لم يكن باستطاعتي رؤية شيء من فوق ظهر المقعد... كيف... ماذا أقول لك؟ صدق نوتياً عجوزاً مسكيناً كان صديقك وأنت فتى..».

لكن البواب العجوز قاطعه: «بابا آدم... اعذرني... فقبل لحظة فقط وجدت هذه الورقة على منضدتها».

«أنا أعرف أين هي» قال الدكتور عزيز وهو يحدق النظر إلى تاي «أنا لا أعلم كيف تحشر نفسك في حياتي لكنك ذات يوم أريتني ذلك المكان... وقلت: بعض الأجنبيات يأتين هنا ليغرقن أنفسهن».

«أنا يا سيدي؟» قال تاي البريء الكريه الرائحة بنوع من الصدمة «لكن لا بأس... الحزن يجعل رأسك يخدعك!».

«لكن بعد أن التقط بعض النوتيين الجثة المنتفخة الملتفة بالأعشاب زار تاي موقف النوتيين ثم قال لهم وهم يرتدون مبتعدين عن أنفاسه، أنفاس ثور مصاب بالزحار: «إنه يلقي اللوم علي تصوروا! يأتي بأوروبياته المنحلات ويقول إنها خطيئتي حين يلقين بأنفسهن في البحيرة! إنني أتساءل، أنى لي أن أعلم أين يمكنني البحث عنها؟ أجل.. اسألوا ذلك.. اسألوا عزيزاً صاحب الأنف الخرطومي ذاك..» وكانت قد تركت ملاحظة تقول: «لم أكن أنوي ذلك».

أنا لا أعلق ولا أحكم، فتلك الأحداث التي تتدفق من شفتي مشوشة، لقدمها وللسرعة والانفعال العاطفي، إنما أتركها للآخرين كي يحكموا عليها. أما الآن فدعني أكن مباشراً، دعني أقل إنه خلال شتاء ١٩١٨ ـ ١٩١٩، ذلك الشتاء القاسي الطويل، سقط تاي طريح الفراش، مصاباً بمرض جلدي شديد أشبه بتلك اللعنة الأوروبية المعروفة باسم «داء الملوك» لكنه رفض أن يراه الدكتور عزيز فعولج من قبل مشعوذ محلي. وفي آذار حين بدأت البحيرة تذوب نُظِّم عرس في سرادق كبير نصب في حدائق منزل غاني صاحب الأرض. وقد ضمن عقد الزفاف لآدم عزيز مبلغاً محترماً من المال يساعده في شراء منزل في آغرا، كما تضمنت الدوطة، بناء على طلب الطبيب الخاص، بعض ملاءات السرير المثقوبة. كان العروسان الشابان يجلسان على منصة، مكللين بالزهر مرتعشين من البرد، والضيوف يمرون بهما وهم يلقون بالنقود في حجريهما. في تلك الليلة فرش جدي ملاءة مثقبة على فراش عرسه وفي الصباح كانت تزدان بثلاث نقاط من الدم تشكل مثلثاً صغيراً.

ووفقاً للتقاليد نشرت الملاءة في الصباح، وبعد احتفال «الدخلة» المعتاد وصلت سيارة ليموزين كان صاحب الأرض قد استأجرها لتنقل جدي وجدتي إلى أمريتسار ـ حيث يستقلان من هناك عربة البريد. كانت الجبال تزدحم بمناكبها حول جدي وتحملق النظر به حين ترك موطنه إلى الأبد (لكنه سيعود ذات يوم عودة لا رحيل بعدها). وقد حسب عزيز أنه رأى نوتياً عجوزاً يقف على البر ويرقبهما وهما يعبران ـ لكن لعله كان مخطئاً، وقد كان تاي مريضاً. عبر جدي وجدتي بمعبد سانكارا اشيري الذي كان المسلمون يدعونه باسم «كرسي سليمان» فلم يعره أدنى اهتمام وكان الخشخاش العاري وحقول الزعفران المغطاة بالثلج تموج حولهما والسيارة تتجه بهما نحو الجنوب ومعهما حقيبة جلدية عتيقة تحوي، فيما تحوي، مسماعاً طبياً وملاءة سرير، وضعت في صندوق السيارة، وكان الدكتور عزيز يشعر في أسفل معدته بإحساس أشبه بانعدام الوزن. أو الانهيار.

(اليوم أعطيت دور شبح. إنني في التاسعة من العمر، الأسرة كلها، أبي، أمي، القردة النحاسية وأنا، نقيم في منزل جدي في آغرا، والأحفاد وأنا منهم طبعاً ـ يتدربون على مسرحية رأس السنة المعتادة ـ أما أنا فأمثل دور الشبح. تبعاً لذلك ـ وبصورة أحافظ بها على أسرار الأحداث المسرحية القادمة ـ فإنني أفتش في المنزل بحثاً عن ثوب يليق بالشبح. جدي خارج المنزل يقوم بجولاته. وهنا في أعلى هذه الخزنة توجد حقيبة عتيقة مكسوة بالغبار وأعشاش العناكب لكنها غير مقفلة. في داخلها، أجد استجابة لصلواتي. ليست ملاءة وحسب، بل ملاءة فيها ثقب كبير أُحدِث من قبل. إنها هنا، داخل هذا الكيس الجلدي المخفي في تلك الحقيبة، تماماً مسماع طبي قديم وأنبوبة جهاز استنشاق متعفن... وكان ظهور الملاءة حدثاً مثيراً، إذ ما إن رآها جدي حتى وثب على قدميه هادراً باتجاه المسرح. وباندفاعة واحدة عراني من لباسي الشبحي أمام الجميع وقد زم شفتيه بإحكام حتى خيل إلينا أنهما ستختفيان إلى الأبد. وهكذا بين هديره علي بصوت نوتي منسي، والتعبير عن سخطه بشفتين مخيفتين، تحول الشبح المرعب الذي كنته قبل قليل إلى حطام يعول باكياً، بعدئذٍ أطلقت ساقي للريح باتجاه حقل الذرة

الصغير، دون أن أعرف ما حدث. ولساعات عدة جلست هناك ـ ربما في النقطة ذاتها التي جلس فيها نادر خان ـ مقسماً أغلظ الأيمان إنني لن أفتح في حياتي حقيبة ممنوع فتحها، يملأني شعور غامض بالسخط لأنني لم أجدها مقفلة بالأصل، فقد أدركت، بسبب غضبهم الشديد أن الملاءة كانت بشكل من الأشكال بالغة الأهمية حقاً).

* * *

هنا قاطعتني بادما التي دخلت علي بالعشاء، ثم ظلت ممسكة به تحاول ابتزازي: «بما أنك ستقضي وقتك كلّه تخرب عينيك بتلك الخربشة، فينبغي أن تقرأها لي على الأقل» وفرحت بعشائي واقتراحها ـ ربما ستكون بادما مفيدة. فمن المحال أن تمنعها من ممارسة النقد. لقد غضبت على نحو خاص من ملاحظاتي المتعلقة باسمها «ماذا تعرف أنت يا ابن المدينة؟» صرخت وهي تقطع الهواء بيدها نصفين ـ «في قريتي لا عيب أن تسمى باسم إلهة الروث. اكتب فوراً أنك مخطئ كل الخطأ» لذا، وطبقاً لرغبات إلهة اللوتس الروثية، فإني أقدم هنا أنشودة تسبيح مختصرة للروث.

الروث الذي يخصب التربة ويجعل الغلال تنمو! الروث الذي يُقرَّص أقراصاً رقيقة طرية أشبه بأقراص العجين ثم يباع إلى بنائي القرية الذين يستخدمونه لضمان وتقوية جدران أبنيتهم الهشة المصنوعة من الطين! الروث الذي يجتاز، بنزوله من مؤخرة الماشية، طريقاً طويلاً لتفسير مكانتها الإلهية المقدسة، أجل... إنني لمخطئ... بل أعترف أنني كنت متحيزاً، وذلك ولا ريب لأن رائحته الكريهة تسيء بشكل ما، إلى أنفي الحساس، لكن كم هو رائع! كم هو جميل إلى حد يفوق الوصف أن يسمى المرء متعهد الروث!

... في السادس من نيسان ١٩١٩، لم يكن في مدينة أمريتسار المقدسة سوى رائحة الروث (ويا لروعتها وسحرها يا بادما) لكن لعل تلك الرائحة (الجميلة) لم تزعج ذلك الأنف في وجه جدي ـ فالفلاحون الكشميريون كانوا، رغم كل شيء معتادين عليه، كما ذكرنا من قبل، باعتباره نوعاً من الجص. بل حتى في سرينغار، كما مشهد الباعة الجوالين، وهم يدفعون العربات الملأى بأقراص الروث، من المشاهد المألوفة تماماً. لكن

الروث هنا جاف مقطع ومفيد. أما روث أمريتسار فهو طري جديد تنبعث منه الرائحة (وذلك أسوأ) ولم يكن كله بقرياً، بل كان بعضه من الخيول المشدودة لأعمدة العربات، والبعض الآخر من البغال والكلاب بل والناس الذين يقضون حاجاتهم الطبيعية في الزوايا، وقد اختلط كله في وحدة عجيبة. لكن كان هنالك بقر أيضاً: نوع مقدس يجوب الطرقات المغبرة، وكل بقرة منها تجوب منطقة نفوذها، تعلِّم حدودها بالروث. والذباب عدو الشعب رقم واحد، يطن فرحاً متنقلاً من كومة روث لا يزال ينبعث منها البخار إلى كومة أخرى محتفلاً بتلك الأعطيات المجانية واضعاً بيوضه فيها. كانت المدينة تعج بالذباب في كل مكان، عاكسة حركته وانتقاله. وكان الدكتور عزيز يتطلع من نافذة فندقه إلى هذا المشهد حين مر ياني[١] مقنع الوجه وهو يكنس الرصيف أمامه بمكنسة كبيرة خشية أن تطأ قدمه نملة أو ذبابة، وكانت أبخرة توابلية عذبة تتصاعد من عربة طعام متنقلة «فلافل ساخنة، ساخنة الفلافل» وكانت امرأة بيضاء تشتري أقمشة حرير من محل في منتصف الشارع والرجال ذوو العمائم يرمقونها بنظرات كلها اشتهاء. أما نسيم ـ التي باتت نسيم عزيز ـ فقد كانت مصابة بصداع حاد، وكانت المرة الأولى التي يعاودها المرض نفسه مرتين. فالحياة خارج واديها الهادئ أتتها كالصدمة. كان إلى جانب فراشها إبريق مليء بشراب الليمون وقد فرغ بسرعة، وكان عزيز يقف إلى النافذة، يستنشق روائح المدينة، وكانت مسلة المعبد الذهبي تتلألأ تحت الشمس. لكنه شعر بحكة في أنفه: فثمة شيء ليس على ما يرام.

وتنقبض يد جدي اليمنى: الأظافر، العقد، الأصابع، كلها أكبر مما تتوقع. كتل من الشعر الأحمر على الحواف الخارجية. الإبهام والسبابة يضغطان معاً ولا تفصلهما إلا سماكة الورق.

باختصار، جدي يمسك بكراسة وضعت في يده حين دخل ردهة الفندق. غلام ينطلق مسرعاً عبر الباب الدوار، منشورات تتساقط في أثره،

---

(١) أحد أتباع المذهب الياني وهو مذهب متشدد في ما يتعلق بالطهارة والضرر والأذى.

بينما ينطلق حارس الفندق خلفه. الاثنان يدوران ويدوران كالمجانين إلى أن تنطبق يد الحارس، تشدد إمساكتها أيضاً، وينضغط الإبهام والسبابة لا يفصل بينهما إلا شحمة أذن الغلام. ويرتمي الفلاح موزع المناشير أرضاً. لكن جدي يظل محتفظاً بالرسالة. الآن، وهو ينظر من نافذته، يرى نسخاً منها على الجدار المقابل، نسخاً على مئذنة المسجد في ذلك النمط الأسود الكبير من المطبوعات الصحافية التي يتأبطها بائع جوال. المنشور، الصحيفة، المسجد، والجدران كلها تصرخ: هرتال! يوم حداد، يوم صمت، يوم سكون. إنها الهند في عز المهاتما، حين كانت حتى اللغة تطيع التعليمات الغاندية وحتى الكلمة تكتسب، بتأثيره، جرساً جديداً. هرتال، ٧ نيسان، يتفق على ذلك المسجد، الصحيفة، الجدار، المنشور، لأن غاندي أمر أن تتوقف الهند في ذلك اليوم، أن تحدّ، بصورة سلمية، على استمرار الوجود البريطاني.

«أنا لا أفهم، حداد ولا ميت!!» صاحت نسيم بصوت رقيق: «لماذا يتوقف القطار؟ كم سننتقع هنا؟».

يلاحظ الدكتور عزيز شاباً ذا هيئة عسكرية في الشارع فيفكر ـ لقد خاض الهنود حروباً من أجل البريطانيين. كثيرون منهم رأوا العالم الآن، وقد ترك هذا العالم بصماته عليهم، فكيف يعودون بسهولة إلى العالم القديم؟ يخطئ البريطانيون حين يحاولون إعادة عقارب الساعة إلى الوراء ثم يغمغم «لقد أخطأوا بإصدار قانون رولات». «أي رولات؟» تصيح نسيم «إنه هراء لا يعنيني» «قانون يمنع التحريض السياسي» يشرح عزيز ثم يعود لأفكاره. ذات مرة قال تاي: «الكشميريون مختلفون. إنهم جبناء، مثال على ذلك: ضع بندقية في يد كشميري ترى ان عليها أن تطلق نفسها بنفسها ـ فهو لا يجرؤ على ضغط الزناد. لا، نحن لسنا كالهنود الذين يخوضون المعارك دائماً». عزيز لا يشعر، وصورة تاي في رأسه، بأنه هندي، فبعد كل شيء، ليست كشمير، إذا أردنا الدقة، جزءاً من الإمبراطورية بل هي إمارة مستقلة. وهو غير متأكد إن كان حداد الكراسة، المسجد، الصحيفة، الجدار يعنيه حتى وإن كان في بلد رهن الاحتلال... وهكذا يشيح ببصره عن النافذة... فيرى

نسيم وهي تبكي على الوسادة. لقد كانت تبكي مذ طلب إليها، في ليلتها الثانية أن تتحرك قليلاً، «أتحرك أين؟» سألته «أتحرك كيف؟». فارتبك وقال: «فقط تحركي... أعني... كامرأة».

لكنها زعقت مذعورة «يا إلهي! ماذا تزوجت؟ أنا أعرفكم أيها الرجال العائدون من أوروبا. تعرفون هناك نساء فظيعات ومن ثم تحاولون أن تجعلونا نحن الفتيات مثلهن. اسمع يا سيدي الدكتور، زوجاً كنت أم غير زوج، أنا لست امرأة... من ذلك النوع». وكانت معركة لم ينتصر فيها جدي قط، بل لقد صبغت بصبغتها الخاصة زواجهما الذي تطور إلى ساحة حرب دائمة ومدمرة، كان من خسائرها أن تحولت الفتاة التي كانت تستر بالملاءة، والطبيب اليساري الفتى بسرعة كبيرة إلى كائنين غريبين «ما الخطب أيتها الزوجة؟» يسأل عزيز فتدفن نسيم وجهها في الوسادة «أي شيء آخر؟» تقول بصوت مكتوم «ما أنت يا رجل؟ تريدني أن أمشي عارية أمام الغرباء (إذ كان قد أمرها بطرح البردة) فيقول: «قميصك يسترك من الرقبة حتى المعصم والركبة. سروالك الفضفاض يحميك في الأسفل حتى الكاحلين فلا يبقى إلا قدماك ووجهك. أيتها الزوجة، هل في إظهار وجهك وقدميك شيء من الفحش؟» لكنها تقول «سيرون أكثر من ذلك! سيرون خجلي العميق ـ العميق».

في تلك اللحظة تحدث حادثة تقذفنا إلى عالم المركوروكروم... إذ يفقد آدم عزيز أعصابه، فينقض على كل ما تحمله امرأته من ستر البردة في حقيبتها ثم يلقيها في سلة مهملات صنعت من الصفيح ورسمٌ على جانبها صورة زعيم ديني ثم يشعل النار فيها. اللهب يشب. يفاجئ آدم بوصوله إلى الستائر فيندفع هذا إلى الباب ثم يصرخ طالباً النجدة في الوقت الذي تبدأ فيه الستائر الرخيصة بالاشتعال... وهكذا يتدفق البوابون، الضيوف، الخدم إلى الغرفة ليخمدوا النار المشتعلة بواسطة المناشف، المساحات وملابس الناس الآخرين، كما تأتي سطول الماء ويخمد الحريق بينما تنكمش نسيم على السرير مرتعدة الفرائص. فحوالى خمسة وثلاثين من السيخ والهندوس والمنبوذين يحتشدون في الغرفة الملأى بالدخان. أخيراً يغادرون فتلفظ نسيم

جملتين قبل أن تطبق شفتيها إطباق الملزمة: «أنت مجنون، أريد مزيداً من شراب الليمون».

يفتح جدي النوافذ، يلتفت إلى عروسه «سيستغرق الدخان وقتاً قبل أن يزول تماماً. سأتمشى قليلاً، هل تأتين؟». لكن الشفتين مطبقتان والعينين مغمضتان إنما تأتي إشارة عنيفة من الرأس تعني كلا، فينطلق جدي إلى الشارع بمفرده بعد أن يسدد طلقته الوداعية بقوله: «انسي أنك فتاة كشميرية بسيطة. انسي ذلك تماماً. وابدئي التفكير بأنك امرأة هندية حديثة»... في تلك الأثناء وفي منطقة الكانتومنت، في مقر قيادة الجيش البريطاني، كان العميد ر. ي. داير يفرك شاربيه بالشمع.

إنه السابع من نيسان، عام ١٩١٩، وفي امريستار حيث تتعرض خطة المهاتما العظيمة للتشويه، المحلات التجارية أغلقت وكذلك محطة السكك الحديد، لكن جماهير حاشدة تنقض عليها الآن، تحطمها. الدكتور عزيز يخرج إلى الشوارع، والحقيبة الجلدية في يده، يقدم المساعدات ما أمكنه. أجساد وطأتها الأرجل ظلت حيث طرحت أرضاً. وهو يضمد الجروح، يلطخها بالمركوروكروم الذي يجعلها تبدو دموية أكثر إنما يطهرها على الأقل. أخيراً يعود إلى غرفته في الفندق وقد تلطخت ثيابه ببقع حمر فتصاب نسيم بنوبة هلع «دعني أساعدك! دعني أساعدك، يا الله! أي رجل تزوجت! رجل يخوض في المجارير كي يقاتل مع الرعاع». ثم تنكب عليه بحشيات من القطن والصوف بللتها بالماء «أنا لا أدري لم لا تظل طبيباً محترماً ككل الأطباء الذي يعالجون الأمراض المهمة وما شابه؟ أوه يا إلهي الدم يلطخك في كل مكان! اجلس، اجلس الآن، دعني أنظفك على الأقل». «هذا ليس دماً أيتها الزوجة».

«تحسب أنني لا أرى بعيني؟ لماذا ينبغي أن تسخر مني حتى وأنت مصاب بأذى؟ هل ينبغي ألا ترعاك زوجتك أيضاً؟». «إنه مركوروكروم يا نسيم، دواء أحمر».

وتتجمد نسيم ـ التي كانت قد تحولت إلى زوبعة نشاط وهي تمسك

بالخرق وتفتح الصنابير ثم تقول: «أنت تفعل ذلك عامداً متعمداً كي تجعلني أبدو غبية. أنا لست غبية. لقد قرأت عدة كتب».

إنه الثالث عشر من نيسان وهما لا يزالان في أمريتسار. «هذه القضية لم تنته» يخبر آدم عزيز زوجته نسيم «ليس باستطاعتنا الذهاب، كما ترين: فقد يحتاجون إلى الأطباء أيضاً» «إذن عليك إذ تجلس هنا أن تنتظر إلى أن تقوم القيامة». فيفرك انفه «لا، ليس طويلاً على ما أظن».

وعند الأصيل، تمتلئ الشوارع فجأة بالناس والكل يتحرك بالاتجاه نفسه، متحدياً أنظمة داير الجديدة وأحكامه العرفية. يقول آدم لنسيم «لا بد من أن يكون هناك اجتماع مخطط ـ في هذه الحالة سيأتي رد من القوات العسكرية. . . فالاجتماعات محظورة».

«ولماذا تذهب؟ لماذا لا تنتظر إلى أن تدعى؟».

. . . الفسحة قد تكون أي شيء بدءاً من القفر وحتى الحديقة وأكبر فسحة في امريستار تدعى جاليانو ألاباغ ولا أثر فيها للعشب. بل في كل مكان منها حجارة، زجاج، علب، وأشياء أخرى. ولكي تصل إليها ينبغي أن تنحدر في زقاق ضيق للغاية يمر بين أبنية على الجانبين. في الثالث عشر من نيسان، آلاف مؤلفة من الهنود تحتشد في هذا الزقاق. «إنه احتجاج سلمي» يقول أحدهم للدكتور عزيز الذي يصل، وقد جرفه الحشد معه، إلى طرف الزقاق. في يده اليمنى حقيبته الهايدلبرغية (اللقطة السينمائية القريبة غير ضرورية!) إنه يشعر بالخوف، أنا أعلم ذلك، ففي انفه حكة أسوأ من كل ما مر به، لكنه طبيب مدرب فيطرد ذلك من ذهنه ويدخل الفسحة.

أحدهم يلقي خطاباً مثيراً. الباعة يتجولون بين الناس يبيعون الحمص والحلوى. الهواء مفعم بالغبار. لا يبدو ثمة وجود للرعاع المرتزقة، مثيري الشغب، بحسب ما يرى جدي. جماعة من السيخ فرشت ثوباً على الأرض وجلست تأكل. وهناك أيضاً رائحة قذارة في الهواء. عزيز يخترق صميم الحشد في اللحظة التي يصل فيها العميد داير إلى مدخل الزقاق يتبعه خمسون من خيرة الجند. إنه الحاكم العرفي لأمريتسار. رجل هام بالنتيجة، طرفا شاربيه المشمعان متصلبان لشدة أهمية صاحبهما. ومع تقدم الرجال الواحد

والخمسين في الزقاق، تحل دغدغة محل الحكة في أنف جدي. يدخل الرجال الواحد والخمسون فسحة الأرض، يتربصون، خمسة وعشرون إلى يمين داير وخمسة وعشرون إلى يساره أما آدم عزيز فيكف عن التركيز على الأحداث حوله مع اشتداد الدغدغة في انفه إلى حد لا يحتمل. ومع إصدار العميد للأمر تهز جدي عطسة بالغة الشدة «يـ... يـ... ياثو... و...» إنه يعطس، يهوي إلى الأمام مختل التوازن، لاحقاً بأنفه وبالتالي منقذاً حياته.

حقيبته الطبية تطير من يده وتنفتح، فتتبعثر زجاجات الأدوية، الشاش، الحقن في كل مكان حوله. يبدأ البحث كالمسعور بين أقدام الناس محاولاً إنقاذ معدّاته قبل أن تنسحق. تحدث طقطقة أشبه باصطكاك الأسنان في الشتاء ثم يهوي أحدهم عليه. مادة حمراء تلطخ قميصه ثم تحدث جلبة وينطلق عويل فيما يستمر الاصطكاك الغريب. المزيد والمزيد من الناس يتعثرون على ما يبدو، يتهاوون فوق جدي، فيتملكه الخوف. قبضة حقيبته تنغرس في صدره، محدثة فيه كدمة شديدة وغامضة ستبقى ما بقي على قيد الحياة بل ولسنوات أخرى في ما بعد. فوق رابية سنكارا اشاريا أو كرسي سليمان أنف محشور في زجاجة من زجاجات الأقراص الحمراء. الطقطقة تتوقف، يحل محلها صخب الناس والطيور. لكن ليس هناك أية جلبة لحركة مرور من أي شكل كان.

رجال العميد داير يعلقون رشاشاتهم على أكتافهم ويمضون. لقد أطلقوا ما مجموعه ألف وخمسمائة وست عشرة طلقة تركت آثارها على الناس قتلاً أو جرحاً، «أحسنتم» يقول داير لرجاله «لقد قمتم بعمل جيد يدعو للبهجة». حين بلغ جدي المنزل تلك الليلة، كانت جدتي تحاول جاهدة أن تكون امرأة حديثة ترضيه. لذلك لم تحرك ساكناً حين رأته بل اكتفت بأن قالت بنوع من التهدئة «أرى أنك أرقت المركوروكروم مرة ثانية أيها الأخرق». لكنه أجابها: «إنه دم» فأغمي عليها للتو. وحين استعادت وعيها بمساعدة قليل من ملح النشادر، قالت: «وهل أصبت بأذى» فأجابها: «لا».

«لكن يا إلهي! أين كنت؟».

«لم أكن في أي مكان» قال ثم بدأ يرتجف بين ذراعيها.

هنا، ولأعترف لكم، بدأت يدي ترتعش هي الأخرى، ليس تماماً بسبب الموضوع الذي تكتب عنه، بل لأن نظري وقع على تشقق دقيق كالشعرة ظهر في معصمي تحت الجلد، لا بأس. كل من عليها فانٍ. لذا دعوني أختم هذا الفصل بالإشاعة غير المؤكدة، تلك الإشاعة التي قالت إن النوتي تاي الذي أبل من مرضه الخنازيري بعد رحيل جدي عن كشمير مباشرة، لم يمت حتى عام ١٩٤٧ حين أسخطه (كما تروي القصة) الصراع الذي دار بين الهند والباكستان على واديه، فمشى إلى تشامب بهدف صريح ألا وهو الوقوف بين القوتين ومصارحتهما برأيه:

«كشمير للكشميريين» ذلكم هو رأيه. وبالطبع أطلقوا عليه النار. ربما كان أوسكار لوبن سيوافقه على حركته البليغة، وربما كان داير سيطري مهارات جنوده.

لكن عليّ أن أذهب إلى الفراش. فبادما تنتظر وأنا بحاجة لبعض الدفء.

لعبة إصابة المبصقة

من فضلك صدقني إنني أتهاوى أشلاء.

فأنا لا أتكلم بالرمز كما أن هذه ليست مناورة استهلاكية لمناشدة وضيعة ميلودرامية أقصد من ورائها استدرار الشفقة. بل إنني أعني، وبكل بساطة، أنني بدأت أتصدع من كل جانب مثل إبريق عتيق ـ أعني أن جسدي المفرد الكريه المثقل بصدمات ماضٍ طويل جداً، والذي تعرض للتجفيف من أعلى ومن أسفل، جسدي الذي بترته الأبواب وسحقت رأسه المباصق بدأ يتصدع من خطوط الالتحام فيه. إنني باختصار أتفكك بكل معنى الكلمة، أتفكك بصورة بطيئة الآن، رغم أن هناك علائم تسارع. وأنا لا أسألك إلا أن تقبل (كما قبلت أنا) أن أتفتت أخيراً (وبصورة تقريبية) إلى ستمائة وثلاثين مليون ذرة من الغبار المجهول الاسم والمنسي بالضرورة. وهذا هو السبب في أنني صممت على أن أبوح بمكنونات صدري للورق، قبل أن أنسى (فنحن أمة النسيان).

تمر لحظات من الرعب لكنها تولي. والهلع شأنه شأن وحش بحري مزبد يصعد إلى أعلى الموج، يرغي ويزبد على السطح لكنه أخيراً يعود إلى الأعماق. لكن من المهم بالنسبة إلي أن تظل هادئاً: إنني أمضغ بذر الفوفل[١] وأتنخم ثم أبصق باتجاه إناء نحاسي رخيص، ألعب اللعبة القديمة، لعبة إصابة المبصقة، إنها لعبة نادر خان التي تعلمها من كبار السن في

(١) نوع من شجر النخليات، ثمره يشبه جوزة الطيب، يستعمل لتطييب النكهة.

آغرا... في هذه الأيام يمكنك أن تشتري البان[١] الصاروخي وكذلك عجينة الفوفل التي تحمر اللثة حيث تجسد الراحة التي يمنحها الكوكائين ملفوفة بالورق، لكن ذلك قد يكون خادعاً.

... أرفع رأسي عن صفحاتي فتأتي هبة من رائحة الصلصة التي لا يخطئها أنفي. لذلك دعوني أخلص من حيرتي: فأنا سليم سيناء صاحب عضو الشم الأعظم كبراً وموهبة في التاريخ، كرست أيامي الأخيرة لإعداد صلصة التوابل على نطاق واسع لكنك قد تقول الآن «طباخ؟»، ثم تشهق مذعوراً «طاه فقط؟ كيف يمكن ذلك؟». وأنا أسلم أن مثل هذا التعدد في المواهب كموهبة الطبخ والتمكن من اللغة أمر نادر بالحقيقة لكني مع ذلك أمتلك هذا التعدد. أنت مندهش لكن بالنتيجة لست، كما ترى، واحداً من طهاتك الذي يعملون براتب مائتي روبية في الشهر بل أنا سيد نفسي أعمل تحت الوميض الأخضر والأصفر لإلهتي النيونية الخاصة كما أن ما أطبخه من صلصة وكازوندي[٢] ذو صلة بخربشاتي الليلية ـ ففي النهار أجد نفسي بين قدور المخللات وفي الليل بين هذه الصحائف وهكذا أمضي وقتي في العمل العظيم: الحفاظ على الذات. فالذاكرة، شأنها شأن الثمار والخضار، يمكن حفظها من فساد الأيام.

لكن ها هي ذي بادما عند مرفقي، تتنمر علي دافعة إياي إلى عالم القصة المتسللة عالم ما ـ حدث ـ بعدئذٍ: «بهذا المعدل» تشكو بادما «ستبلغ المائتي عام قبل أن تنتهي من الكلام عن مولدك»، بعدئذٍ تتظاهر باللامبالاة، مديرة ظهرها لي لكنها لا تخدعني، فأنا أعلم الآن رغم كل اعتراضاتها، أنها علقت. لا ريب في ذلك: فقصتي أمسكت بها من خناقها حتى أنها توقفت كلياً عن مناكدتي والطلب إلي أن أذهب إلى المنزل، أن أستحم أكثر، أن أبدل ملابسي الملطخة بالخل، أن أتخلى ولو لحظة من الزمن عن معمل ـ المخللات المعتم هذا حيث تتصاعد روائح التوابل في الهواء إلى الأبد...

---

(١) نبات يمضغ، ورقه كالقات المستخدم في اليمن، لكنه ذو تأثير منبه كالشاي.

(٢) نوع من المقبلات يشبه الخردل إلى حد ما.

الآن. إلهتي، إلهة الروث هذه، تعد بكل بساطة سريراً صغيراً في زاوية هذا المكتب وتحضر طعامي على موقد غاز صغير مسود ولا تقاطع كتابتي المنارة بمصباح زاوية إلا لكي تجادل «من الأفضل أن تمضي قدماً وإلا مت قبل الانتهاء من قصة مولدك». وبعد أن أتغلب على كبرياء الروائي الناجح، أحاول أن أثقفها فأشرح لها: «للأشياء ـ بل وحتى للناس ـ طرق خاصة في التسرب بعضها إلى البعض الآخر، شأنها شأن نكهة الأطعمة التي تطهينها، مثال على ذلك انتحار ايلس لوبن تسرب إلى أعماق آدم العجوز وأقام هناك في بريكة داخله إلى أن واجه ربه. كذلك»، وهنا أضفي على صوتي صبغة الجد «الماضي يتسرب إلينا قطرة قطرة وبهذا لا يمكننا تجاهله». بيد أن هزة كتفها التي تضفي على صدرها تموجات سارة، تقضي علي قضاء مبرماً إذ تصيح بي «بالنسبة إلي من الجنون أن تروي قصة حياتك إن لم يكن باستطاعتك أن تصل إلى المكان الذي التقى فيه أبوك بأمك».

. . . من المؤكد أن بادما تتسرب إلى داخلي، فبينما يتدفق التاريخ خارجاً من جسدي المتصدع، تدخل زهرتي اللوتسية بهدوء، وقطرة قطرة، بواقعيتها، بأسطوريتها العجيبة، بحبها لكل ما هو خرافي ـ لذا من الملائم أن أقدم الآن على سرد قصة وفاة ميان عبد الله: الطنان المحكوم بالهلاك: أسطورة زماننا.

. . . وبادما امرأة كريمة فهي تقف إلى جانبي هذه الأيام، رغم أنني لا أستطيع أن أقدم لها الكثير، ذلك صحيح ـ ومن المناسب مرة أخرى أن أذكر هذا الأمر قبل الغرق في سرد قصة نادر خان ـ أجل لقد فقدت رجولتي. ورغم مواهب بادما وبراعتها الكثيرة المتنوعة لم أعد قادراً على التسرب إليها حتى حين تضع يدها على يميني أو تلفّ ساقها اليمنى حول خصري أو تميل برأسها على رأسي مطلقة نداءات الغزل، ولا حتى حين تهمس في أذني «والآن، وقد انتهت الكتابة دعنا نرَ إن كان بإمكان قلمك الآخر أن يعمل». ورغم كل ما تبذله من جهد كنت أعجز عن إصابة المبصقة.

لكن، كفى اعترافات! فتلبية لضغوط بادما التي تتعذر مقاومتها والتي ترمي لمعرفة ما ـ حدث ـ بعدئذٍ، ونظراً لتذكري محدودية الوقت المتاح لي،

اقفز بعيداً عن المركوروكروم وأحط في عام ١٩٤٢ (فأنا حريص على أن أجمع والدي بوالدتي أيضاً).

فعلى ما يبدو في أواخر صيف ذلك العام كان جدي، الدكتور آدم عزيز، قد أصيب بعدوى شكل خطير للغاية من أشكال التفاؤل. كان، وهو يمتطي دراجته حول آغرا، يصفر على نحو شديد وسيئ إنما بسعادة بالغة ولم يكن وحيداً في ذلك قط، إذ رغم كل الإجراءات التي بذلتها السلطة للقضاء على ذلك المرض الخبيث، كان التفاؤل قد انتشر في أنحاء الهند كلها ذلك العام وكان ينبغي اتخاذ إجراءات عنيفة للسيطرة عليه. كان الرجال المسنون في حانوت البان الواقع في نهاية شارع كورن واليس يمضغون الفوفل ويشتبهون بوجود خدعة ما، «لقد عشت أكثر مما ينبغي بمرتين» قال الأكبر سناً وصوته يطقطق مثل مذياع عتيق نظراً لأن السنين كانت تحتك بعضها بالبعض الآخر قرب حباله الصوتية «لكنني لم أر مثل هذا العدد من الناس المبتهجين في مثل هذا الزمن الصعب، إنه من عمل الشيطان». والواقع أنه كان فيروساً شديد القدرة على التكيف فالطقس وحده كان قادراً على إعاقة مثل تلك الجراثيم عن التكاثر، وكان من الواضح أن هنالك نقصاً في الأمطار وأن الأرض متشققة. حواف الطرق كانت قد تآكلت متحولة إلى غبار، وفي بعض الأيام كانت تشققات ضخمة تفغر أفواهها وسط الطرق المرصوفة بالحصباء. بدأ ماضغو الفوفل في حانوت البان يتحدثون عن النذر مهدئين أنفسهم بلعبتهم، لعبة إصابة المبصقة، وطفقوا يخمنون الأشياء المجهولة الغريبة التي لا يعلمها إلا الله والتي يمكن أن تخرج من الأرض المتشققة. فأحد السيخ، وهو صاحب محل لتصليح الدراجات كان قد طرح عمامته عن رأسه لشدة الغيظ على ما يبدو فانتصب شعره فجأة وبلا سبب، على أن الأمر الأكثر صلة بالواقع هو أن نقص الماء بلغ حداً بات باعة الحليب عاجزين معه عن إيجاد الماء النظيف الذي يمكنهم غش الحليب به... في البعيد كانت ثمة حرب عالمية تطحن الناس مرة أخرى، وفي آغرا كانت الحرارة تتصاعد، مع ذلك كان جدي لا يزال يصفر، فوجد الرجال المسنون الجالسون في حانوت البان صفيره رديء الإيقاع طبقاً للظروف المحيطة.

(وأنا، مثلهم، أتنخم وأرتفع فوق التشققات والصدوع).

كان جدي يصفر وهو على دراجته وحقيبته الجلدية مربوطة خلفه، ورغم تهيجات الأنف كانت الشفتان تتكوران وتصفران، رغم الكدمة على صدره، تلك الكدمة التي رفضت أن تزول طوال ثلاثة وعشرين عاماً، فإن مزاجه الحسن لم يصب بالوهن ولا الضعف. كان الهواء يعبر شفتيه كي يتحول إلى صوت، وكان يصفر لحناً ألمانياً قديماً: تانينبوم.

أما وباء التفاؤل فقد كان بسبب شخص واحد اسمه ميان عبد الله، ذلك الاسم الذي لم يكن يستخدمه إلا الصحافيون، أما بالنسبة إلى الآخرين جميعاً فقد كان اسمه الطائر الطنان. إنه المخلوق الذي كان كل شيء سيغدو مستحيلاً لو لم يكن موجوداً. «ساحر تحول إلى مشعوذ» كان الصحافيون يكتبون: «من حي السحرة الشهير في دلهي برز ميان عبد الله، أمل مائة مليون مسلم في الهند». فالطنان هو المؤسس والزعيم والموحد وكذلك الروح المحركة للدعوة الإسلامية الحرة، وفي عام ١٩٤٢ كانت السرادقات ومنابر الخطابة قد نصبت في ميدان آغرا حيث كان الاجتماع السنوي الثاني للدعوة سيُعقد، وبدأ جدي، بسنواته الاثنتين والخمسين وشعره الذي شيبته الأيام والأحزان، يصفر وهو يجتاز الميدان. كان يميل على دراجته عند المنعطفات ليقصها قصاً، شاقاً طريقه بين روث البقر والأطفال... وفي مكان وزمان آخر قال لصديقته الراني[١] كوش ناهين: «لقد بدأت حياتي ككشميري لا كمسلم. بعدئذٍ أصبت بكدمة في صدري حولتني إلى هندي، والآن لا أشعر كثيراً بأنني مسلم لكنني بقضي وقضيضي لعبد الله، فهو يخوض حربي أنا». كانت عيناه لا تزالان زرقاوين بلون سماء كشمير... وصل إلى المنزل ورغم أن عينيه احتفظتا ببريق الرضى، فقد توقف صفيره، ذلك أن انتظاره في الساحة الملأى بإوز حاقد إنما هو علامة استنكار من جدتي، نسيم عزيز التي كانت في ذلك الحين قد أصبحت كتلة واحدة متجانسة وتحولت إلى جرم هائل عرف وسيعرف دائماً بذلك اللقب الغريب: الأم المبجلة.

---

(١) الراني: مؤنث الراجا أي الحاكم في الهند.

كانت الأم المبجلة قد أصبحت، قبل أوانها، امرأة ضخمة عجوزاً لها شامتان ضخمتان أشبه بحلمتي ساحرة على وجهها وكانت تعيش ضمن قلعة سرية صنعتها بنفسها، قلعة من التقاليد والأعراف مسورة بالحديد. وفي وقت سابق من ذلك العام ـ كان الدكتور عزيز قد اخذ صوراً فوتوغرافية بالحجم الطبيعي لعائلته بقصد تعليقها على جدران غرفة الجلوس، حينها اتخذت الفتيات الثلاث والغلامان الأوضاع المطلوبة للتصوير بكل طاعة وخضوع، لكن حين جاء دور الأم المبجلة رفضت وثارت، أخيراً، حاول المصور التقاط صورة لها دون أن تعرف لكنها أمسكت بآلته وحطمتها على رأسه، ولحسن الحظ ظل على قيد الحياة، لكن ما من صورة لجدتي ظلت على وجه الأرض. لم تكن جدتي بالشخص الذي يمكن شبكه داخل علبة سوداء صغيرة تمت لأي كان. كان حسبها أن تعيش في حالة من انعدام الحياء سافرة الوجه بلا ملاءة ـ ولا مجال قط للسماح بتسجيل الحقيقة.

لعل الواجب الذي فرض عليها أن تسفر عن وجهها، إضافة إلى مطالب عزيز المستمرة في أن تتحرك تحته، هما اللذان أفضيا بها إلى إقامة المتاريس والحصون، فالقواعد المنزلية التي رسختها لم تكن إلا شبكة دفاع ذاتي يصعب اختراقها بحيث اضطر عزيز، بعد الكثير من المحاولات الفاشلة، لأن يتخلى تقريباً عن محاولة اجتياح خنادقها وحصونها، تاركاً إياها مثل عنكبوت كبيرة معتدة بنفسها، تفرض هيمنتها على منطقة النفوذ التي اختارتها (ولعلها أيضاً لم تكن شبكة دفاع ذاتي على الإطلاق، بل وسيلة للدفاع ضد ذاتها).

من بين الأشياء التي كانت تستنكر إدخالها إنما هي المسائل السياسية كلها، لذا حين كان الدكتور عزيز يرغب في التحدث عن أمور كهذه، كان يمضي إلى صديقته الراني، وكانت الأم المبجلة تتهجم وتقطب لكن ليس كثيراً إذ كانت تدرك أن زياراته إنما تمثل انتصاراً لها.

عرشا مملكتها التوأمان كان مطبخها وغرفة مؤونتها، أنا لم أدخل المطبخ قط لكنني أتذكر التلصص عبر منافذ غرفة المؤونة الشريطية المقفلة إلى العالم الغامض في الداخل، عالم السلاسل المعلقة بالأسلاك والمغطاة بستر من الكتان لإبعاد الذباب عنها، عالم الصفائح التي كنت أعلم أنها ملأى

بالجكر[1] والسكريات الأخرى، عالم الصناديق المقفلة ببطاقاتها المربعة الأنيقة، عالم الجوز واللفت وأكياس الحبوب، عالم بيض الإوز والمكانس الخشب، غرفة المؤونة والمطبخ كانا عالمها الذي لا تشعر فيه بالاغتراب وكانت تدافع عنهما بضراوة، فحين كانت حاملاً بطفلتها الأخيرة، خالتي أميرالدا، عرض عليها زوجها أن يريحها من مشقة الإشراف على الطبخ، ولم تجب، لكنها في اليوم التالي حين اقترب عزيز من المطبخ، اندفعت خارجة وبين يديها قدر معدني تسد عليه الطريق. لقد كانت بدينة وحاملاً أيضاً، وهكذا لم يبق أي فراغ يمكنه العبور منه. تجهم آدم عزيز «ما هذا أيتها الزوجة؟». فأجابته جدتي «هذا، ما اسمه... قدر ثقيل للغاية... وإن امسكتك، ما اسمه، به سأضع رأسك في داخله ثم أضيف شيئاً من خاثر اللبن وأصنع، ما اسمه الكوزرما[2]». أنا لا أدري كيف توصل جدي لتقبل عبارة «ما اسمه» هذه كلازمة تكررها دائماً، لكن مع مرور السنين باتت تلك العبارة تغزو جملها على نحو أكثر وأكثر وإنني لأميل إلى التفكير بأنها نوع من الصرخة اللاشعورية طلباً للنجدة، سؤال مقصود ـ بكل جد. كانت الأم المبجلة تعطينا إيحاء بأنها رغم حضورها الطاغي وحجمها الهائل، تطفو في الوجود كريشة في مهب الريح، ولم تكن تدري، كما ترى ما هو اسمه.

على طاولة الطعام كانت تستمر في فرض سيطرتها بكل مهابة. ما من طعام كان يوضع على الطاولة وما من صحاف تصف. الفضيات كلها كانت ترتب على طاولة بنية واطئة إلى يمينها وكان عزيز والأطفال يأكلون ما تسكب لهم. ومن علائم سيطرة هذه العادة أنها، حتى عندما كان زوجها يصاب بالإمساك، لم تكن تسمح له باختيار طعامه ولم تكن تستمع لأية طلبات أو نصائح، لا يمكن للقلعة أن تتحرك أو تهتز حتى لو أصبحت حركات أتباعها غير نظامية.

خلال الفترة الطويلة لاختفاء نادر خان في المنزل الواقع في شارع

---

(١) الجكر: سكر أسمر غير منقى.

(٢) طعام هندي يصنع من لحم الخروف الصغير ربما يشبه الثريد عند العرب.

كورنواليس وخلال الزيارات التي كان يقوم بها إلى هذا المنزل ذو الفقار الشاب الذي وقع في غرام اميرالدا، وكذلك زيارات تاجر المشمعات والجلود الاصطناعية ذلك التاجر الموسر المدعو أحمد سيناء الذي ألحق الكثير من الأذى بخالتي علياء إلى درجة حملت معها حقداً شديداً على أمي مضت خمس وعشرون سنة قبل أن يزول من نفسها، خلال ذلك كله ظلت القبضة الحديد التي تمسك بها الأم المبجلة بزمام البيت ثابتة لا تهتز. بل لقد حاول آدم عزيز قبل أن يطيح وصول نادر بالهدوء الكبير المهيمن على المنزل، حاول أن يحطم هذه القبضة، واضطر لأن يخوض حرباً مع زوجته (كل هذا يساعد في توضيح: كم كانت إصابته بعدوى التفاؤل شديدة).

في عام ١٩٣٢ أي قبل عشر سنوات كان عزيز هو المشرف على تربية أولاده. الأم المبجلة كانت خائفة، لكن ذلك كان الدور التقليدي للوالد ولم يكن باستطاعتها أن تعترض، كانت علياء في الحادية عشرة والابنة الثانية ممتاز في التاسعة تقريباً، أما الصبيان، حنيف ومصطفى، فقد كانا في الثامنة والسادسة بينما لم تكن أميرالدا الصغيرة قد بلغت الخامسة بعد. بدأت الأم المبجلة تبوح بمخاوفها لطاهي العائلة داوود: «إنه يحشو رؤوسهم، ما اسمه، بما لا أعلم من اللغات الأجنبية وبكثير من الهراء الآخر ولا ريب». وكان داوود يحرك القدور والأم المبجلة تصرخ: «أليس عجيباً، ما اسمه، أن تسمى فتاة باسم اميرالدا؟ بالإنكليزية، ما اسمه؟ ذلك الرجل سيحطم أطفالي. ضع قدراً من الكمون هناك وعليك، ما اسمه، أن تولي اهتماماً أكبر لعملك وأقل للتفكير بشؤون الآخرين».

لقد وضعت شرطاً تربوياً وحيداً: تعليم الدين. وخلافاً لعزيز الذي كان محاطاً بالغموض والشك، ظلت نسيم متدينة، «أنت لديك طنانك» كانت تقول له: «أما أنا، ما اسمه، فلدي نداء الله، نداء أفضل، ما اسمه، من طنين ذلك الرجل». إنه واحد من تعليقاتها السياسية النادرة... بعدئذٍ جاء اليوم الذي ألقى فيه عزيز بمعلم الديانة خارج المنزل. بإبهامه وسبابته أمسك بأذن ذلك المعلم. نسيم عزيز رأت زوجها يقود ذلك التعيس المشعث اللحية إلى بوابة الحديقة، فشهقت ثم ولولت بينما كانت قدم زوجها تدوس على

عظام رجل الدين. وهكذا أطلقت الأم المبجلة صواعقها ودخلت المعركة.

«رجل بلا كرامة» بدأت تشتم زوجها «بلا، ما اسمه، حياء» والأطفال يرقبون المعركة، من مكان أمين في مؤخرة الشرفة. فيرد عزيز «هل تعلمين ما الذي يعلمه هذا الرجل لأطفالك؟» فترد الأم المبجلة بسؤال يقاطع سؤاله «ما تراك لا تفعله كي تجلب الكوارث، ما اسمه، على رؤوسنا؟». ويأتي دور عزيز «تظنين أنه مخطوط أشعار فارسية؟ آ» فتحمى زوجته أكثر وأكثر «أتود أن تأكل، ما اسمه، لحم الخنزير؟ أتود الازدراء بالقرآن؟». ويحتج الدكتور بصوت مرتفع «أم تحسبينها بعض آيات «البقرة» تحسبين ذلك، آ؟». لكن دون أن تعيره أي انتباه، تصل الأم المبجلة إلى الذروة: «ألن تزوج بناتك برجال ألمان؟». ثم تتوقف مبهورة الأنفاس، متيحة الفرصة لجدي أن يوضح: «كان يعلمهم الكراهية أيتها الزوجة. إنه يقول لهم أن يكرهوا الهندوس والبوذيين والسيخ واليانيين وكل من هو نباتي. هل تودين أن يكون لك أبناء حاقدون يا امرأة؟».

«هل تود أن يكون لك أبناء كفرة؟». وتتخيل الأم المبجلة ملائكة جبرائيل وهم يهبطون من السماء ليلاً كي يحملوا أولادها الكفرة الملحدين إلى الجحيم وفي ذهنها صور حية للجحيم. إنها أشد حرارة من راجبوتانا في حزيران وعلى الجميع فيها أن يتعلموا سبع لغات أجنبية... أخيراً تقول جدتي «أقسم، ما اسمه، أغلظ الأيمان ما من طعام ستلمسه شفتاك من مطبخي؛ لا ولا كسرة خبز إلى أن تعيد السيد الشيخ وتقبل ما اسمه، قدميه».

وهكذا فإن حرب التجويع التي بدأت في ذلك اليوم مباشرة غدت منازلة حتى الموت. فالأم المبجلة لم تكن، التزاماً بكلمتها، تقدم لزوجها أثناء الوجبات أكثر من صحاف فارغة. أما الدكتور عزيز فقد قام برد مباشر هو امتناعه عن تناول الطعام في الخارج، ويوماً بعد يوم، راح الأطفال الخمسة يرقبون أباهم وهو يذوي، بينما تحرس أمهم بضراوة أطباق الطعام. «هل ستتمكن من الاختفاء كلية؟».

سألت اميرالدا أباها بجد بالغ، ثم أضافت بنوع من القلق: «لا تفعل ذلك إن لم تكن تعلم كيف تعود ثانية». وهكذا بات في وجه عزيز فوهات

وحفر حتى أنفه بدا وكأنه ينكمش ويرق. أما جسده فقد غدا ساحة معركة وفي كل يوم تطير قطعة منه. ذات يوم قال لعلياء كبرى أولاده وأحكمهم «في أية حرب تلقى ساحة المعركة دماراً أشد مما يلقاه أي من الجيشين وهذا أمر طبيعي». بعدئذٍ طفق يستخدم المحمل للقيام بجولاته، وبدأ حمدان خادم المحمل يقلق عليه. بعدئذٍ بعثت الراني ناهين الرسل يتوسلون للأم المبجلة «ألا يكفي الهند ما بها من جياع؟». كان الرسل يسألون نسيم فترشقهم بنظراتها النارية التي باتت مشهورة للغاية. يداها مشبوكتان في جحرها ومنديل الموسلين مشدود بإحكام حول رأسها، وكانت تكتفي برشق زوارها بعينين لا تنطبق أجفانهما إلى أن يطرقوا هم برؤوسهم أرضاً. كانت أصواتهم تتحجر وقلوبهم تتجمد، وحدها في غرفة لا تضم إلا الرجال الغرباء كانت جدتي تجلس مزهوة بالنصر، محاطة بأعين كثيرة «يكفي تماماً، ما اسمه؟» كانت تصرخ «ربما، أجل، وربما أيضاً لا».

لكن الحقيقة هي أن نسيم عزيز كانت في غاية القلق، فرغم أن موت عزيز جوعاً سيكون إثباتاً جلياً لتفوق فكرتها عن العالم على فكرته هو، إلا أنها لم تكن ترغب في أن تترمل من أجل مبدأ فقط. رغم ذلك لم يكن باستطاعتها أن ترى مخرجاً من الوضع الذي كان يهمها كثيراً ألا تخرج منه متراجعة فاقدة ماء الوجه فهي التي تعلمت أن تسفر عن وجهها كانت تكره كثيراً أن تفقد ماءه.

«امرضي، امرضي، ترى لماذا لا تفعلين؟». بذلك وجدت الحل علياء الابنة الحكيمة فقامت الأم المبجلة بتراجع تكتيكي معلنة عن توجعها «توجع، ما اسمه، قاتل للغاية»، ولزمت فراشها. في غيابها مدت علياء غصن الزيتون لأبيها على شكل زبدية من حساء الدجاج وبعد يومين نهضت الأم المبجلة (وقد رفضت أن يفحصها زوجها للمرة الأولى في حياتها) ثم استعادت سلطاتها. وبهزة كتف منها، علامة الموافقة على قرار ابنتها، مررت الطعام إلى عزيز وكأن الأمر كله كان مجرد تفاهة.

ذلك كان قبل عشر سنوات، لكن حتى في عام ١٩٤٢ كان الرجال المسنون في حانوت البان يثيرهم مشهد الدكتور الصافر الغارق في ذكرياته

المضحكة عن تلك الأيام حين جعلته زوجته يلعب معها لعبة الاختفاء، رغم أنه لم يكن يدري كيف سيعود فيما بعد، وفي أواخر الأماسي كان بعضهم يشاكس البعض الآخر بقوله: «هل تتذكر عندما. . .» أو «المسكين لقد يبس مثل هيكل عظمي منشور على سلك غسيل، لم يعد باستطاعته حتى أن يركب. . .» أو «اسمع بابا، تلك المرأة تفعل أشياء مريعة. لقد سمعت أن بإمكانها أن ترى في حلمها حتى أحلام بناتها، لا لشيء إلا لكي تعلم ماذا ينوين فعله». لكن مع تقدم الليل كانت المشاكسات تتوقف، إذ يأتي دور المباراة، فكوك الجميع تتحرك بصمت وعلى نحو إيقاعي. بعدئذٍ، وبصورة مفاجئة، يحدث زم للشفاه، لكن ما ينبعث منها لا يكون صوتاً من صنع الهواء، لا صفيراً بل نافورة حمراء طويلة من عصير الفوفل تعبر الشفاه الواهية ثم تتحرك بدقة لا تعرف الخطأ نحو مبصقة نحاسية قديمة. كذلك يحدث الكثير من لطم الأفخاذ وتنطلق الكثير من العبارات الدالة على الإعجاب الذاتي مثل «أوه، أوه يا سيد» أو «ضربة معلم». . . وحول العجائز كانت البلدة تختفي في تسليات المساء العابرة. إذ يلعب الأولاد لعبة الطوق والكبادي[1] ويرسمون لحى على صور ميان عبد الله. بينما يبعد هؤلاء الهرمون المبصقة عن مكان اقعائهم في الشارع أكثر وأكثر ليسددوا نفثاتهم إليها أطول وأطول. ويظل السائل يطير بدقة ويصيب الهدف «أوه. . . حسن جداً حسن جداً. فيما يلعب أولاد الشارع لعبة أخرى يروغون فيها تحت سيول النفثات الحمراء، فارضين لعبهم الهزلي هذا على ذلك الفن الجاد، فن إصابة المبصقة. . . لكن تأتي سيارة قيادة عسكرية، فيفرقع الأولاد. . . يأتي العميد دودسون، حاكم البلدة العسكري الذي يكاد يختنق من الحر ويأتي معه مساعده الرائد ذو الفقار حاملاً له منشفة، دودسون يمسح وجهه. الأولاد يتفرقون والسيارة تمر على المبصقة. سائل أحمر قاتم فيه خثرات كالدم يتجمد على شكل يد حمراء في تراب الشارع ويشير باتهام إلى سلطة الراجا المتقهقرة.

---

(١) الكبادي: لعبة ينقسم فيها الأولاد إلى فريقين يحاول أحدهما أسر أعضاء الفريق الآخر وهي أشبه بلعبة «السمركة» عندنا.

ذكرى صورة فوتوغرافية متعفنة (ربما هي من عمل المصور الغبي نفسه ذاك الذي كادت صوره ذات الحجم الطبيعي أن تكلفه حياته): آدم عزيز يشع حمى التفاؤل، وهو يصافح رجلاً في حوالى الستين، من طراز نافد الصبر، مفعم بالحيوية، وخصلة من الشعر الأشيب تقطع جبينه كندبة حسنة الشكل. إنه ميان عبد الله، الطائر الطنان. («كما ترى يا سيدي الطبيب فأنا أحافظ على نفسي بصورة مناسبة. تود أن تضربني في بطني؟ حاول، حاول، فأنا ذو شكل ممتاز»... في الصورة، طيات القميص الأبيض الفضفاض تخفي المعدة وقبضة جدي غير مشدودة بل تملأها يد المشعوذ السابق) وخلفهما يظهر ببراءته الشديدة وجه الراني ناهين الذي أبيضّ من البثور وهو المرض الذي تسرب على نحو غير مرئي في البداية ثم انتشر على نطاق واسع بعد فترة وجيزة من الاستقلال... «أنا الضحية» تهمس الراني بشفتي الصورة اللتين لا تتحركان البتة «الضحية البائسة لاهتماماتي الثقافية المتعددة، جلدي هو التعبير الخارجي لأممية روحي». أجل ثمة حوار يجري في هذه الصورة، ومثلما يلتقي الخبراء في التكلم البطني يلتقي المتفائلون بقائدهم. إلى جانب الراني ـ اصغ بانتباه شديد الآن، فالتاريخ والسلف يوشكان على الالتقاء ـ يقف شخص متميز ناعم الوجه أكرش البطن، عيناه أشبه ببركتين راكدتين شعره طويل كشعر شاعر، إنه نادر خان، السكرتير الشخصي للطائر الطنان. قدماه، لو لم تكن اللقطة قد جمدتهما، لكانتا تتحركان من شدة القلق والضيق. على فمه ترتسم ابتسامة قاسية بلهاء. «صحيح. لقد كتبت أشعاراً...». هنا يقاطعه ميان عبد الله مزدهياً بفمه المفتوح عن ومضات أسنانه الحادة: «لكن أية أشعار؟ فليس هناك قافية واحدة في كل ما كتبت»، وتتدخل الراني بلطف «شاعر حديث إذن؟» فيجيب نادر باستحياء: «أجل أية توترات يمكن رؤيتها الآن في المشهد الساكن الخالي من الحركة يا ترى؟ أي مزاج حاد يمكن أن يتفتق عنه كلام الطنان؟ لا بأس بذلك لكن على الفن أن يرتفع، عليه أن يذكرنا بتراثنا الأدبي المجيد...». لكن ما ذاك الذي أراه على جبين السكرتير؟ أهو ظل أم عبوس؟... صوت نادر... يتصاعد بطيئاً واطئاً من الصورة الباهتة: «أنا لا أؤمن بالفن الرفيع، يا سيد ميان. في هذه

الأيام على الفن أن يتجاوز التصنيفات. شعري ولعبة إصابة المبصقة متساويان». حينئذٍ تمزح الراني، وهي المرأة اللطيفة، قائلة: «حسناً، ربما سأفرد غرفة لمضغ البان ولعبة إصابة المبصقة. لدي مبصقة فضية رائعة مطعمة باللازورد وعليكم جميعاً أن تأتوا وتمارسوا اللعبة. لتلطخ الجدران كلها، ببصاقاتنا سيئة التسديد، فهي ستكون لطخات شريفة على الأقل».

الآن تفلت الصورة من ربقة الكلام. الآن، ألاحظ بعين عقلي أن الطنان كان طوال الوقت يحدق باتجاه الباب الواقع خلف كتف والدي، على حافة الصورة تماماً. وخلف الباب، كان التاريخ ينادي والطنان يتعجل الذهاب... لكنه معنا وحضوره يمد لنا خيطين سوف يلاحقانني ما حييت: الخيط الذي يقود إلى حي السحرة والخيط الذي يروي قصة نادر شاعر اللاأفعال واللاقافية والمبصقة الفضية التي لا تقدر بثمن.

* * *

«أي هراء» تقول فتاتنا بادما «كيف يمكن للصورة أن تتكلم؟ توقف الآن لا بدّ من أنك متعب من التفكير». لكن حين أقول لها إن ميان عبد الله كان يبتسم ابتسامة غريبة هي المهمة بلا توقف، المهمة بطريقة غريبة لا هي موسيقية ولا هي غير موسيقية بل هي بشكل من الأشكال ميكانيكية كدمدمة محرك أو مولد كهربائي، تتقبل ذلك بسهولة تامة قائلة بنوع من الحكمة «حسن، إن كان الرجل مفعماً بالطاقة إلى هذه الدرجة فالأمر لا يدهشني» وتغدو كلها آذاناً صاغية، لذا أشتد حماسة لموضوعي وأقول إن همهمة ميان عبد الله كانت ترتفع وتنخفض بصورة تتناسب تناسباً طردياً مع معدل عمله. إنها الهمهمة التي يمكن أن تنخفض إلى درجة تكفي لإصابتك بوجع الأسنان لكن حين تبلغ ذروتها العليا، الطبقة الأشد حمى، يغدو لديها القدرة على إثارة الابتهاجات لدى كل من في الجوار (فتضحك بادما قائلة: «أوه بابا، لا عجب إذن أنه كان ذا شعبية كبيرة بين الرجال»). وهكذا كان سكرتيره نادر خان موضع هجوم مستمر من قبل هذه الخاصية التذبذبية التي يتمتع بها سيده، فكانت أذناه، فكاه، قضيبه كلها تنحو المنحى الذي يفرضه ما يمليه الطنان وإلا لماذا استمر نادر خان معه رغم الانتصابات التي كانت تحل به

وتضايقه بحضور الغرباء، رغم ألم الأسنان الذي كان يصيبه وبرامج العمل التي كانت غالباً ما تملأ الأربع والعشرين ساعة في كل أربع وعشرين ساعة؟ السبب ـ على ما أعتقد ـ ليس لأنه كان يرغب في أن يكون قريباً من لب الأحداث كي يحولها إلى شعر وأدب وليس لأنه كان يبتغي شهرة لنفسه، كلا، بل لأن نادر هذا كان يتصف بصفة مشتركة مع جدي. . . وكانت تلك الصفة كافية تماماً، فهو أيضاً كان مصاباً بمرض التفاؤل.

كان نادر خان، شأنه شأن آدم عزيز والراني ناهين، يكره «العصبة الإسلامية». («عصبة علاجم») كما كانت تقول الراني بصوتها الفضي وهي تنقض على ثمانياتها الشعرية كما ينقض المتزلجون على الجليد «أصحاب أملاك ومصالح يودون حمايتها، ما علاقتهم بالمسلمين والإسلام؟ إنهم يذهبون إلى البريطانيين كالعلاجم ويشكلون لهم حكومات حين يرفض حتى مجلس النواب تشكيلها». تلك السنة كانت سنة القرار بالتخلي عن الهند «والأنكى من ذلك كله» قالت الراني بصورة نهائية جازمة «إنهم مجانين، وإلا لماذا يريدون تقسيم الهند؟».

كان ميان عبد الله، الطائر الطنان، قد أنشأ حزب الدعوة الإسلامية الحرة بجهده الشخصي تقريباً. وقد دعا عشرات الزعماء من مختلف الفئات الإسلامية لكي يشكلوا بديلاً موحداً نوعاً ما لتعصب العصبة الإسلامية تلك ومصالحها التي تسعى للحفاظ عليها. وقد كانت حيلة كبيرة من حيل السحر، إذ جاؤوا جميعاً، وعقد الاجتماع الأول في لاهور أما الثاني فكان سينعقد في آغرا حيث كانت السرادقات ستمتلئ بأعضاء الحركات الآغرية ونقابات عمال المدن وأعيان الأقاليم والشخصيات الدينية، وحيث كان على هذا الاجتماع أن يثبت ما أقره الاجتماع الأول أي أن العصبة، بمطالبتها بتقسيم الهند، لا تمثل أحداً سوى نفسها. «لقد أداروا ظهورهم لنا» كانت ملصقات الدعوة تقول «والآن، يدعون أننا نقف وراءهم» فميان عبد الله ضد التقسيم.

في ذروة وباء التفاؤل تلك لم تكن الراني ناهين، راعية الطائر الطنان، تذكر شيئاً عن الغيوم التي يتلبد بها الأفق. لم تكن تشير قط إلى أن آغرا معقل للعصبة الإسلامية بل كانت تكتفي بالقول: «آدم يا ولدي، إن كان

الطنان مصراً على عقد الاجتماع هنا لن أقترح عليه أبداً أن يذهب إلى الله أباد». كانت الراني تتحمل نفقات الحدث كلها دون تذمر أو تدخل، لكن بصراحة ليس بدون خلق أعداء لها في البلدة، فالراني لم تكن تعيش كالأمراء الآخرين. إذ بدلاً من تصيد المرائين والمنافقين كانت تمنح بعثات تعليمية، وبدلاً من فضائح الفنادق كانت لديها اهتمامات بعلم السياسة. وهكذا بدأت الأقاويل «يا رجل، الجميع يعلمون أن على علمائها هؤلاء أن يقوموا بمهمات إضافية على المنهاج. إنهم يؤمنون مخدعها في الظلام وهي لا تسمح لهم برؤية وجهها كثير البثور إلا أنها تسحرهم بصوتها، صوت الساحرة المغنية». بيد أن آدم عزيز لم يكن يؤمن بالساحرات بل كان يستمتع بمن حولها من أصدقاء لامعين يتكلمون الفارسية، كما يتكلمون الألمانية، لكن نسيم عزيز التي لم تكن تصدق كثيراً القصص التي تروى عن الراني، لم ترافقه مرة واحدة إلى قصر الراني محتجة: «لو أن الله سبحانه وتعالى يريد من الناس أن يتكلموا عدة ألسن، فلماذا، إذن، لم يضع في رأس واحدنا إلا لساناً واحداً؟».

وهكذا لم يكن أحد من متفائلي الطنان مستعداً لما حدث. لذا، كانوا يلعبون لعبة «إصابة المبصقة» وهم يجهلون التشققات الموجودة في الأرض.

أحياناً تصنع الأساطير الواقع وتصبح أكثر جدوى من الحقائق. وهكذا، طبقاً للأسطورة وللإشاعة المشذبة التي تناقلها المسنون في حانوت البان ـ يعود سقوط ميان عبد الله إلى شرائه، في محطة آغرا للسكك الحديد، مروحة من ريش الطاووس رغم تحذير نادر خان له من أنها تجلب سوء الحظ. والأنكى من ذلك أن عبد الله هذا كان يعمل مع نادر خان في ليالي محاق القمر تلك بحيث إنه حين طلع الهلال الجديد شاهداه عبر الزجاج. فيقول ماضغو الفوفل «هذه أشياء هامة. لقد عشنا طويلاً ونحن أدرى الناس» (فتهز بادما رأسها علامة الموافقة).

كانت مكاتب حزب الدعوة تقع في الطابق الأرضي من مبنى قسم التاريخ في الحرم الجامعي وكان عبد الله ونادر قد أوشكا على إنهاء عملهما الليلي، كانت همهمة الطنان منخفضة الطبقة وكانت أسنان نادر تؤلمه وعلى

جدار المكتب كانت ثمة ملصقة تعبر عن عواطف عبد الله المضادة للتقسيم، إذ تحمل اقتباسات من شعر إقبال:

«أين ترانا نجد أرضاً ليست لله؟» في تلك اللحظة وصل السفاحون إلى الحرم.

الوقائع: كان لعبد الله عدد كبير من الخصوم. الموقف البريطاني تجاهه غامض، العميد دودسون لم يكن يرغب بوجوده في البلدة. سمعت نقرة على الباب فلباها نادر. ستة أقمار جديدة دخلت الغرفة، ستة سكاكين هلالية أشهرها رجال ملثمو الوجوه سود الملابس، اثنان منهم أمسكا بنادر بينما توجه الآخرون إلى الطائر الطنان.

«عند هذه النقطة» يقول ماضغو الفوفل، «ارتفعت همهمة الطنان... أعلى وأعلى، بينما ازدادت أعين السفاحين اتساعاً في محاجرها وهم يشعرون بأعضائهم تصنع قباباً تحت ملابسهم وحينذاك ـ بقدرة الله وحده ـ شرعت السكاكين تغني وشرع عبد الله يغني بصوت أعلى يهمهم عالياً وكأنه لم يهمهم من قبل. كان جسده صلباً وكانت النصال المقوسة منذ زمن طويل تجد صعوبة في اختراق جسده وهكذا انكسرت إحداها على ضلع من أضلاعه، أما الأخريات فسرعان ما تلطخت باللون الأحمر. لكن في تلك اللحظة، اسمعوا، اشتدت همهمة عبد الله حتى تجاوزت قدرة الآذان البشرية على السماع فسمعتها كلاب البلدة. في آغرا ربما يوجد ثمانية آلاف وأربعمائة وعشرون كلباً مختلفة الأنواع والألوان. وفي تلك الليلة من المؤكد أن بعضها كان يأكل والبعض الآخر يقضي نحبه، بعضها يتباضع والبعض الآخر لم يسمع النداء وإذا فرضنا أن هؤلاء حوالى ألفين فإن ما يبقى يشكل ستة آلاف وأربعمائة وعشرين كلباً كلها دارت على أعقابها وجرت باتجاه الجامعة، بل إن كثيراً منها اندفع عبر السكك الحديد من الجانب الخاطئ للبلدة، وهذا صحيح ومعروف جيداً. الكل في البلدة رآه، ما عدا النيام، فقد انطلقت الكلاب بصخب شديد كأنها الجيش، تاركة وراءها أثراً واضحاً من العظام والفضلات ونتف الشعر... وطوال ذلك الوقت كان الحاج عبد الله يهمهم ويهمهم وكانت السكاكين تنشد أغانيها. في تلك اللحظة حدث ما يلي: فجأة

تصدعت عين من عيون القتلة وسقطت من محجرها وفي ما بعد وجدت قطع من الزجاج مسحونة على السجادة.

ويقال إنه حين وصلت الكلاب كان عبد الله يلفظ أنفاسه الأخيرة وكانت السكاكين قد ثلمت فانقضت كوحوش برية، قافزة من خلال النوافذ التي كانت همهمة عبد الله قد حطمت زجاجها كما ارتطمت بالباب إلى أن تحطم خشبه وحينذاك تفرقت في كل مكان يا صاحبي... البعض بلا قوائم والبعض الآخر بلا شعر... لكن لمعظمها بعض الأنياب على الأقل، وبعض هذه الأنياب حادة. والآن لنر ما حدث: لم يكن السفاحون يخشون تدخل أحد لذلك لم يتركوا حرساً، فأخذتهم الكلاب على حين غرة... الرجلان اللذان كانا يمسكان بنادر خان ذلك الرجل الضعيف، وقعا أرضاً تحت وطأة الكلاب المنقضة التي كانت ثمانية وستون منها تنشب مخالبها في رقبتهما... ولقد مزقت الكلاب القتلة وشوهتهم إلى درجة تعذر معها تمييز أي منهم.

«في لحظة من تلك اللحظات» كما يقولون «قذف نادر بنفسه من النافذة وأطلق ساقيه للريح فالكلاب والسفاحون كانوا أكثر انشغالاً من أن يتبعوه».

«الكلاب؟ السفاحون؟»... إن كنت لا تصدقينني فاسألي يا بادما اسألي عن ميان عبد الله وستكتشفين أننا طوينا قصته تحت السجاد.. بعدئذٍ دعيني أخبرك كيف قضى مرافقه نادر خان ثلاث سنوات مختبئاً في كنف أسرتي.

كان نادر، وهو شاب صغير، يعيش في غرفة واحدة مع رسام، لوحاته تكبر وتكبر وهو يحاول أن يسكب روحه كلها في فنه... «انظر إليّ» قال له قبل أن يقتل نفسه «لقد أردت أن أكون رسام صور منمنمة لكنني بدلاً من ذلك أصبحت رسام صور مضخمة»، الأحداث الهائلة لليلة السكاكين الهلالية ذكرت نادر خان بزميل غرفته ذلك أن الحياة كانت مرة أخرى، وبصورة معاكسة لرغباته قد رفضت أن تبقى بحجم الحياة. لقد اتخذت شكلاً مبالغاً به، شكلاً ميلودرامياً، وذلك ما أقض مضجعه.

كيف فر نادر خان عبر البلدة الغارقة في العتمة دون أن يلحظه أحد؟ إنني أعزو ذلك لكونه شاعراً رديئاً ولأنه بالتالي ولد ليبقى. حين كان يجري كان يعتمل في نفسه نوع من الوعي الذاتي وكان جسده يبدو وكأنه يعتذر عن

تصرفه الذي يوحي كما لو أنه، في فيلم إثارة رخيص، واحد من أولئك الباعة الجوالين الذين يبيعون في محطات السكك الحديد أو يوزعون مجاناً زجاجات الدواء الأخضر الذي يشفي كل علة: الزكام، التيفوئيد، العجز الجنسي، الحنين إلى الوطن والفقر... في طريق كورنواليس، كان الليل دافئاً وكان كانون فحم ينتصب فارغاً بجانب رف المعمل المهجور. حانوت البان كان مغلقاً ورواده المسنون كانوا نياماً على السطوح يحلمون بلعبة الغد... بينما كانت بقرة مؤرقة تمضغ بتكاسل علبة سجائر حمراء وبيضاء وهي تتهاوى بجانب رجل متكوم على نفسه نائم على الرصيف، الأمر الذي يعني أنه سيستيقظ في الصباح نظراً لأن البقرة تغفل رجلاً نائماً لكنها لا تغفل رجلاً موشكاً على الموت. إنها تلكزه متأملة إياه متفحصة جسده ذلك أن البقر المقدس يأكل كل شيء.

كان منزل جدي الحجري العتيق الواسع الذي اشتراه من مبيعات حوانيت الأحجار الكريمة وبقايا دوطة غاني الأعمى، ينتصب وسط الظلمة بعيداً قليلاً عن الطريق وكان هناك حديقة مسورة في المؤخرة وبجانب بوابة الحديقة كان هناك البيت الخارجي الواطئ الذي استأجره جدي بسعر رخيص لأسرة حمدان العجوز وابنه رشيد الغلام المكلف بعربة المحمل. قدام البيت الخارجي كانت هناك البئر بدولابها المائي الصغير الذي تحركه الأبقار، وأقنية ريها التي تمتد نزولاً إلى حقل الذرة الصغير الذي يحاذي المنزل والطريق حتى البوابة الواقعة في سور البيت المحاذي لطريق كورنواليس وبين المنزل والحقل كان يمتد ممر صغير للمشاة وعربات المحامل.

ففي آغرا كانت هذه العربات الدائرية الشكل قد حلت مؤخراً محل ذلك النوع من العربات التي يقف فيها رجل ـ الجر بين عمودين خشبيين. وكانت العربات التي تجرها الخيول لا تزال رائجة لكنها كانت تتضاءل... قذف نادر خان بنفسه عبر البوابة ثم أقعى لحظة من الزمن مستنداً بظهره إلى جدار السور محمراً وهو يبول. بعدئذٍ انطلق جرياً وقد ضايقته سوقية قراره، على ما يبدو، إلى حقل الذرة ثم غاص فيه. هناك، حيث أخفته جزئياً سوق الذرة التي أذوتها الشمس، تكوم على نفسه مثلما يتكوم الجنين. كان رشيد، خادم

العربة وابن السابعة عشرة، في طريقه إلى المنزل عائداً من السينما. في ذلك الصباح كان قد رأى رجلين يدفعان عربة يد واطئة لصقت عليها ملصقات ضخمة باليد، ووضعت ظهراً إلى ظهر ملصقات تعلن عن فيلم جديد بعنوان غاي ـ ولاه بطولة «ديف» الممثل المفضل لدى رشيد، وعبارات دعاية تقول «مباشرة بعد عرض خمسين أسبوعاً حافلاً في دلهي». . . «مباشرة بعد ثلاثة وستين أسبوعاً في بومباي»، هكذا كانت الملصقات تصرخ بالناس. «سنة ثانية من الحماس المنقطع النظير»، وكان الفيلم نوعاً من المزيج الغربي الشرقي. فبطله، ديف غير النحيل، يمتطي حصانه بمفرده قاطعاً سهلاً يشبه سهلاً هندياً ـ غانجياً. وعبارة غاي ـ ولاه «تعني راعي البقر».

كما كان ديف يلعب دور نوع من القوة المتيقظة الساهرة على حماية البقر. بغير مساعدة! وبمسدس ذي سبطانتين، كان يطارد قطعان الماشية العديدة التي كانت تساق عبر السهوب إلى المسلخ فيهزم رعاتها ويحرر البهائم المقدسة. (فالفيلم موجه للمشاهدين الهندوس، الأمر الذي أثار اضطرابات في دلهي، ذلك أن أتباع العصبة الإسلامية كانوا يسوقون البقر إلى المسلخ بجانب دور السينما وهذا ما أثار غيظ جماهير الهندوس. (كانت أغاني الفيلم ورقصاته جيدة كما كانت هناك راقصة محترفة جميلة ربما كانت ستبدو أكثر روعة لو لم تؤد رقصتها بقبعة من قبعات رعاة البقر سعتها عشرة غالونات). جلس رشيد على مقعد من مقاعد المقصورات الأمامية وشارك في الصفير والهتاف. كذلك أكل اثنتين من الساموزا[1] وأنفق الكثير من المال. أمه ستشعر بالأذى لكنه قضى وقتاً ممتعاً. وحين أعمل دواسات عربة المحمل عائداً إلى المنزل كان يمارس نوعاً من الركوب الخيالي الذي شاهده في الفيلم، مائلاً بجسمه ميلاً شديداً إلى أحد الجانبين مطلقاً العنان لعربته وهي تنحدر المنحدر، مستخدماً العربة بالطريقة نفسها التي كان يستخدم فيها راعي البقر حصانه كي يخفيه عن أعين الأعداء.

أخيراً وصل، فأدار قضيب المقود. ولإكمال بهجته جعل العربة تنساب

---

(١) فطائر تشبه الـ «سمبوسك» عندنا.

على مهل تعبر البوابة ثم تنحدر مع الممر بحذاء حقل الذرة. كان غاي ـ ولاه قد استخدم هذه الحيلة للتسلل إلى عصابة من رعاة البقر وهم يجلسون في الدغل يشربون ويقامرون.

أخيراً ضغط رشيد على الكوابح ثم قذف بنفسه إلى حقل الذرة جارياً بأقصى سرعته إلى الرعاة المطمئنين كل الاطمئنان، ومسدسه جاهز للإطلاق، وحين اقترب من نار مخيمهم، أطلق «صرخة الكراهية» كي يبث الذعر في نفوسهم. يـ. . . يـ. . . يـ. . . ييـ. . . يـ. . . يـ. . . يا؟ لكن من الواضح أنه لم يطلق صرخة حقيقية قرب منزل السيد الطبيب بل فتح فمه وهو يجري، صارخاً صرخة مكتومة «: ب. . . بـ. . . لام! بـ. . . بـ. . . لام!». في تلك اللحظة كان نادر خان يبحث عن النوم متضرعاً له أن يأتي وفي تلك اللحظة فتح عينيه فرأى مع صرخة: «ب. . . بـ. . . لام! بـ. . . بـ. . . لام،» شخصاً نحيلاً يندفع إليه كقطار سريع صارخاً بأعلى صوته ـ لكن لعله بات أصم إذ لم يكن هناك أي صوت ـ فهب على قدميه، وكادت الصرخة تعبر شفتيه البالغتي الاكتناز حين رآه رشيد وانطلق صوته أيضاً. وهكذا، بصيحة رعب واحدة استدار كل منهما على عقبيه وانطلق يعدو. بعد ذلك توقفا، وقد لاحظ كل منهما فرار الآخر، ثم استرقا النظر واحدهما إلى الآخر عبر قصبات الذرة المتماوجة فعرف رشيد نادر خان، ورأى ثيابه الممزقة فاضطرب أشد الاضطراب.

«أنا صديق» قال نادر بنوع من الغباء، ثم أضاف بعد لأيٍ: «ينبغي أن أرى الدكتور عزيز»، «لكن الدكتور نائم، وهو غير موجود في حقل الذرة». بعدئذٍ خاطب رشيد نفسه «لملم نفسك يا ولد، كف عن هرائك فهذا صديق ميان عبد الله. . .» غير أن نادراً لم يلحظ شيئاً على ما يبدو. كان وجهه يعبر عن الغيظ وهو يحاول النطق ببضع كلمات بدت وكأنها التصقت بأسنانه كنتف من لحم فروج. . . أخيراً تمكن من القول. . . «حياتي. . . إنها في خطر. .».

عند ذاك توصل رشيد، الذي كان لا يزال مفعماً بروح رعاة البقر، إلى طريق الخلاص. فقد قاد نادراً إلى باب في الجهة الجانبية للمنزل، باب مغلق

ومقفل بالمزلاج، لكن رشيداً سحب شيئاً، فانفتح القفل بين يديه. «صناعة هندية» همس وكأن ذلك يفسر كل شيء. وحين خطا نادر إلى الداخل هسهس رشيد قائلاً: «اعتمد عليّ تماماً يا سيدي. الأقحوان هي كلمة السر، وأقسم على ذلك بشعر أمي الأشيب».

ثم وضع القفل من جديد في الجهة الخارجية. فعليه أن ينقذ حياة اليد اليمنى للطائر الطنان... لكن مم؟... ممن؟... على كل حال... حياة حقيقية أفضل من صور فيلم سينمائي أحياناً. وتسأل بادما بشيء من الارتباك: «أهو ذلك الرجل السمين الناعم الرعديد؟

أهو الذي سيكون أباك؟».

تحت السجادة

تلك كانت نهاية وباء التفاؤل. ففي الصباح، دخلت عاملة التنظيف إلى مكاتب الدعوة الإسلامية الحرة لتجد الطائر الطنان ملقى على الأرض محاطاً بنتف ومزق من قاتليه، فامتلأ المكان بصراخها، لكن فيما بعد، وحين جاءت السلطات وذهبت، أتتها الأوامر بأن تنظف الغرفة. وبعد إزالة عدد لا يحصى من شعور الكلاب وقتل عدد لا حصر له من البراغيث وانتزاع بقايا العين الزجاجية المهشمة من السجادة، احتجت لدى المشرف بأنها تستحق علاوة على أجرها إن كان سيحدث مثل ذلك الأمر دائماً ولعل تلك المرأة كانت آخر ضحية لبعوض التفاؤل، لكن في حالة كحالتها لم يدم المرض طويلاً، فقد كان المشرف رجلاً قاسياً لذا سرعان ما رفسها على قفاها.

لم يعرف أحد هوية السفاحين ولم يذكر أحد من كان وراءهم. كل ما في الأمر أن جدي دعي إلى الحرم الجامعي من قبل الرائد ذو الفقار وأركان العميد دودسون كي يحرر وثيقة وفاة صديقه. كذلك وعد الرائد ذو الفقار بأن يطلب الدكتور عزيز لاستكمال بعض النقاط، فنخر جدي نخرة شديدة ثم مضى. أما في الميدان فقد كانت الخيام تهوي أرضاً مثل آمال محبطة. لقد انفض اجتماع الدعوة إلى الأبد. بعدئذٍ لزمت الراني كوش ناهين فراشها. فبعد عمر طويل من الاستخفاف بالمرض، سمحت لهم بأن يعلنوا عن مرضها، كما سمحت لنفسها بأن تستلقي بسكون سنوات طويلة تراقب نفسها وقد تهرأت ملاءات سريرها وحال لونها. أثناء ذلك وفي المنزل الواقع في شارع كورنواليس كانت الليالي حبلى بمن يحتمل أن يكونوا آباء وأمهات.

لكن عليك أن تكتشفي ذلك بنفسك يا بادما.

إنني باستخدام أنفي (رغم أن هذا الأنف قد فقد القدرات التي مكنته مؤخراً من صنع التاريخ إلا انه اكتسب مواهب أخرى تعوضه عن تلك) وبتحويله إلى الداخل، أستطيع شم رائحة الجو الذي كان يسود منزل جدي في تلك الأيام التي أعقبت وفاة أمل الهند: الطنان، إذ تهب إليَّ عبر تلك السنين هبة غريبة من روائح مختلطة مفعمة بالقلق، روائح أشياء سرية هي مزيج من شذا الحب المتبرعم والعفن الحاد لسيطرة جدتي الشديدة وفضولها... ففي الوقت الذي كانت فيه العصبة الإسلامية تبتهج، سراً بالطبع، بسقوط عدوها، كان بإمكانك أن تجد جدي (فأنفي يجده) يجلس كل صباح على مقعد مرحاضه وقد اغرورقت عيناه بدموع ليست بدموع الحزن، فآدم عزيز كان، بكل بساطة، يدفع ثمناً لكونه هندياً ويعاني شر المعاناة من الإمساك.

وبحزن شديد ينظر إلى الحقنة الشرجية الغريبة الشكل وهي معلقة على جدار المرحاض.

ترى لماذا أقحم نفسي في خصوصيات جدي؟ لماذا دفن آدم نفسه بعد موت ميان عبد الله، في عمله وقد آلى على نفسه أن يرعى الفقراء من المرضى سكان الأحياء المدقعة، مخلّصاً إياهم من المشعوذين الذين كانوا يزرقونهم بإبر من ماء الخشخاش ويعتقدون أن العناكب المقلية تشفي من العمى ـ وذلك علاوة على متابعته القيام بواجباته كطبيب في الجامعة. هنا، ربما أسهب في الكلام قليلاً عن الحب الكبير الذي طفق ينمو بين جدي وابنته الثانية، ممتاز التي كانت بشرتها السوداء تقف حاجزاً بينها وبين حب أمها لها، إنما كانت مواهبها من حب ورعاية وفرط إحساس تزيد من غلاوتها لدى والدها بكل ما فيه من تيارات داخلية تطالب بما تمثله ابنته من رقة.

لكن، لماذا أجدني.. حين ينبغي أن أصف حكة أنفه التي باتت ملازمة له في ذلك الحين، راغباً بأن أخوض في أماكن القذارة؟ السبب بسيط، فذلك هو المكان الذي كان فيه آدم عزيز، في ذلك الأصيل الذي أعقب توقيعه لشهادة الوفاة، حين انطلق فجأة صوت ـ ناعم مرتعش مضطرب، صوت

شاعر يكتب شعراً مرسلاً ـ وتكلم إليه من أعماق صندوق عتيق كبير لثياب الغسيل ينتصب في زاوية الحمام، الأمر الذي سبب له صدمة عميقة كانت له بمثابة الملين، ومنعته من استخدام الحقنة الشرجية حينذاك.

كان رشيد، خادم العربة، قد سمح لنادر خان بأن يدخل إلى غرفة الحمام من مدخل الكناسة، وان يتخذ لنفسه ملجأ في صندوق الغسيل. ورغم أن العضلة العاصرة المندهشة لدى جدي استرخت، فإن أذنيه سمعتا طلباً لملاذ، طلباً كتمته ثياب الكتان والملابس الداخلية الوسخة والقمصان القديمة وضيق المتكلم نفسه. وبذلك قرر آدم عزيز أن يخفي نادر خان.

هنا يعبق الجو برائحة شجار، ذلك أن الأم المبجلة نسيم، تفكر ببناتها، علياء ابنة الواحد والعشرين عاماً، ممتاز السوداء ابنة التاسعة عشرة وأميرالدا الظريفة اللطيفة التي لم تكن قد بلغت الخامسة عشرة بعد، إنما كانت في عينيها نظرة أكثر أنوثة مما كانت تملكه أختاها كلتاهما. ففي البلدة بين لاعبي إصابة المبصقة وغلمان عربات المحامل، بين دافعي عربات ملصقات الأفلام وطلاب الجامعة على السواء، كانت الأخوات الثلاث يعرفن باسم «التين باتي» أي «الأنوار المشعة الثلاثة»... ترى كيف تسمح الأم المبجلة لرجل غريب بالسكنى في منزل تسكنه علياء الجذابة وممتاز السوداء وأميرالدا ذات البشرة الناصعة والعينين البراقتين؟...

«لقد فقدت صوابك أيها الزوج: تلك الحادثة أصابت دماغك بالخبل ولا شك» لكن عزيزاً قال مصمماً كل التصميم «سيبقى سيبقى» وبقي. في القبو... ذلك أن الإخفاء مسألة عمرانية حاسمة كانت تؤخذ في الاعتبار دائماً في الهند، فكل منزل يحوي، عادة، غرفاً تحت الأرض واسعة تماماً ويتعذر الوصول إليها إلا عبر أبواب ـ أشراك من ذلك النوع الذي يوجد في أرضية الغرفة ويغطى بالسجاد والبسط.

نادر خان يسمع دمدمة الشجار المكتومة ويخشى سوء المصير. «يا إلهي! (أنا أشتم أفكار الشاعر ذي الراحتين النديتين) العالم أصيب بالجنون... هل نحن رجال أبناء هذا البلد، أم وحوش؟ ترى، إن كان علي أن أذهب فمتى ستنقض السكاكين عليّ؟» وتعبر دماغ الهارب صور للمراوح

المصنوعة من ريش الطاووس والهلال الجديد المرئي عبر الزجاج والمتحول إلى خنجر ملوث بالدم يطعن ويطعن. . . في الطابق الأعلى، تقول الأم المبجلة: «المنزل مليء، ما اسمه، بالفتيات العازبات فهل هذه هي الطريقة التي توفر فيها لبناتك الاحترام؟»حينذاك يفقد عزيز أعصابه ويطلق لغضبه المدمر العنان، وبدلاً من أن يشرح لها أن نادر خان سيبقى تحت الأرض مغطى بالسجاد حيث يتعذر على البنات الوصول إليه، وبدلاً من تقديم الدليل لها على حسن لياقة الرجل وتهذيبه فقد جأر جدي صارخاً «اصمتي يا امرأة. الرجل بحاجة لمأوى لدينا ولسوف يبقى». وبهبة عناد لا يعرف التراجع، تحط سحابة قاتمة من التصميم على جدتي فتقول «حسناً، تطلب إلي، ما اسمه، أن أصمت إذن، ما اسمه، فليكن. قسماً لن تنبس شفتاي بكلمة بعد الآن» فيدمدم عزيز «أوه، يا للعنة! وفري علينا أيمانك الحمقاء يا امرأة».

لكن شفتي الأم المبجلة تنطبقان ويضرب الصمت عليها أطنابه. رائحة الصمت، شأنها شأن بيض الإوز الفاسد، تملأ خيشومي، طاغية على كل شيء آخر. . . إنه يكتسح الأرض كلها وفيما يختفي نادر خان في عالمه السفلي نصف المظلم، تختفي فضيحته أيضاً خلف جدار من الصمت الأصم. في البداية تحرى جدي الجدار، باحثاً عن أي شرخ فيه، لكنه ارتد بخفي حنين. أخيراً أقلع عن محاولاته وانتظر أن تومض جملها بومضات ذاتها، تماماً كما كان ذات مرة يتحرق شوقاً للأجزاء الصغيرة التي يراها من جسدها عبر الملاءة المثقوبة، وهكذا ملأ الصمت المنزل من الجدار إلى الجدار ومن الأرض إلى السقف حتى بدا وكأن الذباب نفسه قد تخلى عن الطنين، البعوض نفسه كف عن الأزيز قبل أن يعض، بل لقد أخرس الصمت هسيس الإوز في باحة الدار. في البداية شرع الأولاد يتكلمون همساً، لكن بعد لأي هيمن عليهم الصمت أيضاً، وحتى في حقل الذرة، طفق رشيد غلام العربة، يصرخ صرخته الصامتة «صرخة الكراهية» وقد حافظ على الوعد الذي أقسمه بأن يصمت. ذلك الوعد الذي أقسم عليه بشعر أمه الأشيب.

في حمأة الصمت تلك، جاء ذات مساء رجل قصير، رأسه مفلطح كالقبعة التي كانت عليه، ساقاه مقوستان كقصبتين في مهب الريح، أنفه يكاد

يلامس ذقنه المعوجة نحو الأعلى، وصوته نتيجة ذلك كله بالطبع رقيق حاد ـ ولا بدّ من أن يكون كذلك إذ كان عليه أن ينضغط عبر الثغرة الضيقة المتبقية بين جهازه التنفسي وفكه. . . رجل أجبره قصر نظره على أن يعيش الحياة خطوة خطوة، الأمر الذي جعله يشتهر بالأناة والتبلد وجعله عزيزاً على قلوب رؤسائه لإتاحته الفرصة لهم أن يشعروا بأن ثمة من يحسن خدمتهم دون أن يشكل أي تهديد.

رجل كانت بذلته المنشاة المكوية تفوح برائحة الخضوع والاستقامة، رجل رغم مظهره، مظهر الشخصية الخارجية لتوها من معرض للدمى، كانت تنبعث منه رائحة النجاح التي لا يخطئها الشم. إنه الرائد ذو الفقار، الرجل ذو المستقبل، وقد جاء وفاء بوعده، كي ينهي بعض النقاط. كان مقتل ميان عبد الله واختفاء نادر خان المريب أكثر ما يشغل ذهنه، وبما أنه كان يعلم بمرض آدم عزيز الذي سببته له بعوضة التفاؤل، فقد فسر، خطأ، الصمت السائد في المنزل بأنه صمت الحداد، فلم يمكث طويلاً (وفي القبو كان نادر خان مختبئاً مع الصراصير). أثناء زيارته كان ذو الفقار يجلس بهدوء في غرفة الضيوف مع الأطفال الخمسة، قبعته وعصاه على جهاز الراديو، وصور بنات عزيز، تلك الصور التي أخذت بالحجم الطبيعي، تحدق إليه من الجدران فسقط صريع الهوى. كان الرجل مصاباً بقصر النظر لكنه لم يكن أعمى، فرأى في النظرة ذات النضج غير المعقول لأميرالدا الفتية، أسطع الأنوار المشعة الثلاثة، رأى أنها تفهم مستقبله وأنها لذلك تسامحه على مظهره، وهكذا كان قد قرر، قبل مغادرته المنزل، أن يبني بها بعد فترة من الزمن. (هي؟ «تخمن بادما» تلك الفتاة الوقحة أمك؟ (لكن ثمة احتمالات أخرى لأمهات وآباء آخرين، تروح وتغدو عبر الصمت).

في ذلك الزمن الآسن بالصمت كانت الحياة العاطفية لعلياء الرزينة، كبرى أخواتها، تتنامى هي الأخرى. وكانت الأم المبجلة، التي حبست نفسها في غرفة المعيشة والمطبخ، والتي أغلقت على نفسها باب الصمت، غير قادرة ـ بسبب القسم الذي أقسمته على الإعراب عن ارتيابها بذلك الشاب تاجر المشمعات والجلود الاصطناعية الذي جاء لزيارة ابنتها (وقد كان آدم

عزيز يصر دائماً على أن يكون لبناته أصدقاء من الذكور) كان أحمد سيناء ـ فتصرخ بادما بانتصار من عرف الحقيقة لتوه «آ. . . ها» قد التقى بعلياء في الجامعة وكان يبدو ذكياً بما يناسب تماماً فتاة حادة الذكاء محبة للكتب يضفي عليها انفها الذي ورثته عن أبيها صبغة الحكمة المفرطة. بيد أن نسيم عزيز شعرت بالقلق تجاهه، فقد كان مطلقاً في العشرين («كل إنسان يخطئ» قال لها عزيز، لكن سرعان ما نشبت معركة، فقد ظنت لوهلة من الزمن أن في نغمة صوته شيئاً شخصياً أكثر مما ينبغي، لكن بعدئذٍ أضاف عزيز «لندع طلاقه هذا سنة أو سنتين إلى أن تمحي آثاره، حينذاك يمكننا أن نهب هذا المنزل عرسه الأول فنقيم سرادقاً كبيراً في الحديقة ونأتي بالمطربين والحلويات وكل شيء». (وأعجبت نسيم، رغم كل شيء، بهذه الفكرة). بعد ذاك بات أحمد سيناء وعلياء، وهما يتجولان في حدائق الصمت المسورة يتواصلان بلا كلام، ورغم أن الجميع كانوا يتوقعون منه أن يتقدم بطلب يدها، إلا أن عدوى الصمت كانت على ما يبدو قد انتقلت إليه أيضاً، وبقي الطلب دون من يطلبه. كان وجه علياء قد اكتسب المزيد من الثقل في ذلك الحين، كان قد اكتسب لغدة توحي بالكثير من التشاؤم، لغدة لم تفارقه بعد ذلك قط. (ليست هذه بالطريقة التي تتحدث بها عن أمك المحترمة).

لكن، ثمة شيء آخر: فعلياء كانت قد ورثت عن أمها ميلها للسمنة. وكانت ستنتفخ كالبالون مع مرور السنين.

وممتاز التي خرجت من بطن أمها سوداء كمنتصف الليل؟ ممتاز هذه لم تكن ذكية ولم تكن جميلة كأميرالدا، بل كانت طيبة مطيعة، تشعر بالوحدة دائماً وكانت تقضي من الوقت مع والدها أكثر مما تقضي مع أخوايها، محصنة إياه ضد تعكر المزاج الذي كان عرضة للتفاقم في ذلك الحين نتيجة الحكة في أنفه، وقد ألقيت على كاهلها مسؤولية رعاية نادر خان وتلبية حاجاته، وهكذا كانت تهبط كل يوم إلى عالمه السفلي حاملة صينيات الطعام والمكانس، بل مفرغة حتى «علبة حاجياته» الشخصية كيلا تتاح الفرصة لأية خادمة في المنزل أن تشك بوجوده. لكن حين كانت تنزل إلى القبو، كانت تخفض عينيها، ولم تكن في ذلك المنزل الأبكم، تتبادل معه كلمة واحدة.

ترى ما الذي كان يقوله هدافو المبصقة عن نسيم عزيز؟ «إنها تتلصص حتى على أحلام بناتها لكي تعرف بالضبط ما ينوين فعله». أجل وليس ثمة تفسير آخر، فمن المعروف أن هناك أشياء أشد غرابة تحدث في بلادنا هذه، ولكي تتأكد بنفسك، خذ أية صحيفة واقرأ تلك الأخبار اليومية التي تتحدث عن العجائب التي تظهر في هذه القرية أو تلك لقد بدأت الأيام المبجلة تحلم بأحلام بناتها وتقبل بادما هذا بغير اعتراض، لكن الأشياء الأخرى التي يمكن لبادما أن تتقبل بغير جهدها كاللادو[1]، فإنها ترفضها بالسهولة نفسها التي تقبلت بها هذا الأمر لكن ما من جمهور ليس له خصائصه في ما يعتقد) إذن: زارت الأم المبجلة وهي غارقة في سباتها ليلاً أحلام أميرالدا فوجدت في ما بينها حلماً آخر ـ الصورة الخاصة للرائد ذو الفقار ولديه منزل حديث كبير، حمامه إلى جانب مخدعه وتلك ذروة أحلام الرائد. وهكذا لم تكتشف الأم المبجلة أن ابنتها كانت تلتقي بـ«ذولفيها» سراً وفي أماكن تثير الأقاويل وحسب، بل اكتشفت أيضاً أن مطامح أميرالدا كانت أكبر من مطامح فتاها. وفي أحلام آدم عزيز (ولم لا؟) رأت نسيم زوجها وهو يصعد، متثاقلاً حزيناً، أحد الجبال في كشمير وفي بطنه ثقب بحجم قبضة اليد، فخمنت أنه أقلع عن حبها، كما تنبأت بوفاته لذا حين سمعت بالخبر بعد سنوات، اكتفت بالقول «أوه... أجل... كنت أعرف ذلك».

كذلك، كانت الأم المبجلة تفكر: لن يمضي طويل وقت حتى تخبر ابنتنا أميرالدا رائدها بكل شيء عن نزيل قبونا، وحينذاك سيكون بإمكاني التكلم ثانية. لكن بعدئذٍ، وفي إحدى الليالي، دخلت الأم المبجلة أحلام ابنتها ممتاز، تلك السوداء التي كانت عاجزة عن حبها بسبب بشرتها، بشرة صيادة السمك الآتية من جنوب الهند، فأدركت أن المشكلة لن تنتهي عند هذا الحد، ذلك أن ممتاز عزيز ـ شأنها شأن المعجب بها، القابع تحت السجاد ـ كانت قد غدت صريعة الحب.

لكن لم يكن ثمة برهان، فغزو الأحلام ـ أو معرفة الأم، أو حدس

---

(١) اللادو: حلويات على شكل أقراص صغيرة أشبه بالغريبة.

المرأة، سمه ما شئت ليس أمراً يعاقب عليه القانون، وكانت الأم المبجلة تعلم أنه أمر خطير أن تتهم ابنة من بناتها بممارسة الاحتيال تحت سقف والدها. إضافة إلى ذلك كان ثمة شيء فولاذي يعيش داخل الأم المبجلة، فقررت ألا تحرك ساكناً، قررت أن تحافظ على صمتها وأن تدع آدم عزيز يكتشف بنفسه سوء أفكاره الحديثة وقدرتها على تدمير أولاده، تدعه يكتشف بنفسه بعد أن قضى عمره وهو يأمرها بأن تطرح جانباً أفكارها العتيقة البالية، «امرأة قاسية» تقول بادما فأوافق على قولها.

ثم تسأل بادما «حسناً وهل كان ذلك صحيحاً؟».

أجل: بشكل ما: صحيح.

«وهل حدث احتيال وخداع؟ في القبو؟ دون حتى من يصاحبها للحفاظ عليها؟» لنلق نظرة على الظروف وإنها لمخففة ـ فالأشياء التي تبدو غير معقولة أو حتى خاطئة في ضوء النهار قد تبدو مسموحة في السر.

«وذلك الشاعر السمين هل فعلها بالسوداء المسكينة؟ فعلها إذن؟».

كان قد مضى عليه في القبو زمن طويل أيضاً ـ طويل إلى حد يكفي لأن يشرع بمحادثة الصراصير الطيارة وأن يخشى مجيء يوم يطلب إليه أحدهم فيه أن يرحل وأن يحلم بالسكاكين الهلالية الشكل والكلاب النابحة وأن يتمنى أن يكون الطنان حياً كي يقول له ما ينبغي فعله، وأن يكتشف أنه بات عاجزاً عن كتابة الشعر في القبو، ثم إن هذه الفتاة تأتي بالطعام ولا تجد بأساً في أن تنظف حتى فضلاتك، وان تخفض عينيك لكنك ترى كاحلاً يبدو وكأنه يتألق بالسحر، كاحلاً أسود كسواد ليالي القبو. . .

«لم أحسب أبداً أن الأمر سيبلغ به ذلك الحد» تقول بادما وقد بدا عليها الإعجاب «ذلك العجوز السمين الذي لا يصلح لشيء».

أخيراً، يجد كل من في المنزل، حتى ذلك الهارب المختفي في القبو عن أعين أعدائه المجهولين، يجد لسانه وهو يتشقق متيبساً ملتصقاً بسقف حلقه، حيث يتعين حتى على أبناء صاحب المنزل أن يذهبوا إلى حقل الذرة لممازحة غلام العربة ببذيء الكلام والفعل وللهمس خفية بأحلامهم في أن يصبحوا مخرجين سينمائيين (أحلام حنيف ترعب أمه غازية الأحلام، تلك

التي تؤمن أن مهنة السينما امتداد لمهنة البغاء) حيث الحياة تحولت إلى شيء غريب مليء بالمفارقات المضحكة نتيجة اقتحام التاريخ لها. أخيراً، وفي عتمة العالم السفلي وسريته لم يستطع الرجل كبح نفسه فوجد عينيه تشردان إلى الأعلى، صعوداً من الصندل الرقيق إلى المنامة الواسعة مروراً بالكورتا[1] الفضفاضة وحتى الدابوتا[2] رمز العفة، إلى أن تلتقيا بعينيها ثم...

«ثم ماذا؟ هلم بابا؟ ثم ماذا؟».

ابتسمت له ابتسامة خجلى.

«ماذا؟»

بعد ذلك، أشرقت ابتسامات في العالم السفلي وبدأ شيء ما.

«أوه، ما هو ذلك الشيء؟ ستخبرني به كله؟».

ذلك كل شيء: إلى أن جاء اليوم الذي طلب فيه نادر خان رؤية جدي، وما نطق به من جمل لم يكن يسمع إلا بالكاد في ضباب الصمت طالباً يد ابنته للزواج. «مسكينة» تستنتج بادما «الفتيات الكشميريات عادة بيضاوات كثلج الجبال، لكنها المسكينة، جاءت سوداء. حسن، حسن لعل بشرتها كانت ستحول بينها وبين إيجاد الرجل المناسب، لكن نادر ذاك ليس بالرجل الأحمق. الآن سيتعين عليهم أن يسمحوا له بالإقامة وأن يطعموه ويؤوه، وكل ما عليه أن يفعله هو الاختباء مثل دودة سمينة تحت الأرض، أجل، أجل، لعل الرجل لم يكن أحمق كثيراً.

حاول جدي جاهداً إقناع نادر بأنه لم يعد عرضة للخطر، فالسفاحون ماتوا ولم يكن هدفهم سوى ميان عبد الله، لكن نادر خان ظل يحلم بالسكاكين التي تنشد الأغاني ويتضرع «ليس بعد، يا صاحبي الطبيب. أرجوك، برهة أخرى من الزمن». وهكذا جاء جدي ذات ليلة من أواخر صيف ١٩٤٣ ـ وكانت الأمطار نادرة مرة أخرى ـ بصوته الذي بدا بعيداً وغريباً في ذلك المنزل الذي لم تكن تدور فيه إلا كلمات قليلة، ثم جمع

(١) يشبه القميص الذي تلبسه المرأة على جذعها.

(٢) منديل للرأس ويغطي حتى الكتفين.

أولاده في غرفة الاستقبال حيث كانت صورهم معلقة على الجدران وحين دخلوا وجدوا أمهم غائبة، فقد اختارت لنفسها البقاء محصنة في غرفتها خلف ستار الصمت، لكن كان ثمة محام وشيخ (رغم كراهية عزيز لذلك، فقد خضع أخيراً لرغبات ممتاز) وكلاهما مرسل من قبل الراني المتوعكة الصحة كوش ناهين، وكلاهما كتوم للسر تماماً. كانت أختهما ممتاز في أبهى حلل الزفاف وإلى جانبهما، على كرسي وضع أمام جهاز الراديو، كان نادر خان بشعره المسترسل ووزنه المفرط وارتباكه وحيرته. وهكذا فقد جرى أول عرس في ذلك المنزل بلا خيام ولا طبول ولا زمور، بل بأقل عدد من الضيوف. وبعد انتهاء الطقوس قام نادر برفع برقع عروسه عن وجهها ـ مما سبب لعزيز صدمة مفاجئة، معيداً إياه إلى عهد الصبا وإلى كشمير ثانية حين كان يجلس على المنصة والناس تلقي النقود في حجره ـ بعدئذٍ جعلهم جدي جميعاً يقسمون الأيمان بألا يبوح أحد بوجود صهره الجديد في القبو وكانت أميرالدا آخر من أقسم، وقد أقسمت مكرهة.

بعد ذلك طلب آدم عزيز إلى أبنائه أن يساعدوه في نقل كل ما تحتاجه الأسرة الجديدة إلى العالم السفلي: مفروشات، مساند، مصابيح، إضافة إلى سرير مريح. وحين انتهوا من ذلك هبط نادر وممتاز إلى القبو، وأغلق الباب المخفي ثم أعيدت السجادة إلى مكانها المعهود تخفي نادر خان الذي انتقل إلى عالمه السفلي مع زوجه التي كان يحبها بكل ما في العالم من رقة وحب.

منذ ذلك اليوم بدأت ممتاز عزيز تحيا حياة مزدوجة فهي في النهار فتاة عزباء، تعيش بكل طهر وعفة بين والديها وتدرس في الجامعة وتنمي مواهب الدأب والنبل والتحمل التي ستتميز بها طوال حياتها وحتى اليوم الذي ستهاجمها فيه صناديق ـ الغسيل الناطقة ثم تصرعها أرضاً كفطيرة أرز مهمشة. أما في الليل فقد كانت تهبط عبر الباب الخفي إلى غرفة زوجها المنارة بضوء المصباح والتي كان زوجها السري اعتاد أن يطلق عليها اسم تاج محل، ذلك أن الناس كانوا يطلقون على ممتاز القديمة اسم تاج بيبي ـ وممتاز محل زوجة الإمبراطور شاه جيهان اسم معناه «ملك العالم». فحين توفيت أنشأ لها

الإمبراطور ذلك الصرح الخالد الذي نرى صوره على بطاقات البريد وعلب الشوكولا والذي تفوح من دهاليزه روائح البول وتغطي جدرانه كتابات أقلام الرصاص ويجرب الأدلة في أفنائه ترداد الصدى للزوار، رغم أن هنالك لوحات كتبت بثلاث لغات تناشد الناس الهدوء. ومثلما كان شأن شاه جيهان وزوجته ممتاز، فقد كان نادر وزوجته السوداء يستلقيان واحدهما بجانب الآخر وإلى جانبهما شيء مرصع باللازورد لأن الراني كوش ناهين التي نزعت من فراش الموت، كانت قد أرسلت لهما، كهدية زفاف، مبصقة فضية رائعة النقش، مرصعة باللازورد ومطعمة بالحجر الكريم، وفي معتزلهما المريح شبه المعتم كان العروسان يلعبان لعبة العجائز.

كانت ممتاز تعد البان لنادر لكنها هي نفسها لم تكن تحب مذاقه بل كانت تفضل عصير الليمون الممدد، وهكذا كانت نفثاته تخرج حمراء أما نفثاتها فكلسية بيضاء، وكانت تلك أسعد أيام حياتها، لقد قالت في ما بعد، لدى انتهاء الصمت الطويل، «سنرزق بأطفال آخر المطاف أما الآن، فالأمر غير مناسب. . .، هذا كل شيء». غير أن ممتازاً كانت تعشق الأطفال طيلة حياتها.

في تلك الأثناء كانت الأم المبجلة تتحرك بتثاقل ملفوفة بالصمت الذي بات مطلقاً إلى حد بات معه حتى الخدم يتلقون تعليماتهم بلغة الإشارات. فذات مرة كان الطاهي داود يحملق بها النظر محاولاً أن يفهم إشاراتها المسعورة التي تبعث على الحذر، ونتيجة لذلك كان قد ابتعد بنظره عن قدر الحساء وهو يفور فسقط على قدمه وسلقه كبيضة ذات خمس أصابع، حينها فتح فمه صارخاً لكن الصوت لم ينطلق ومنذ تلك اللحظة بات مقتنعاً كل القناعة أن للعجوز الشمطاء قوة السحر كما بات أشد هلعاً من أن يتخلى عن خدمتها، وهكذا بقي، إلى أن وافته المنية يعرج من مكان إلى آخر في باحة المنزل عرضة لأن يهاجمه الإوز.

تلك السنوات لم تكن سنوات سهلة ـ فقد أدى القحط إلى التقنين، ومع تزايد الأيام التي لم يكن يُطهى فيها أوز أو يُقدم لحمٌ، بات من الصعب إطعام فم خفي إضافي. كانت الأم المبجلة مرغمة على أن تنبش عميقاً في غرفة

مؤونتها، الأمر الذي زاد من استعار غضبها وشدته وجعل الشعر ينمو على شامات وجهها.

لاحظت ممتاز بشيء من الهم أن أمها تنتفخ شهراً بعد شهر. الكلمات المكتومة في داخلها كانت تنتفخ وتكبر... وهكذا تشكل انطباع لدى ممتاز بأن جلد أمها يتمدد تمدداً خطيراً.

كان الدكتور عزيز يقضي أوقاته خارج المنزل، بعيداً عن الصمت القاتل. وهكذا لم تكن ممتاز، التي تقضي لياليها في عالمها السفلي، ترى والدها في تلك الأيام إلا لماماً، والدها الذي أحبته حب العبادة، بينما حافظت أميرالدا على وعدها ولم تفش للرائد بسر العائلة، كذلك لم تقل لعائلتها شيئاً عن علاقتها به، تلك العلاقة التي كانت حسنة، حسب تقديرها. أما في حقل الذرة فقد كان مصطفى وحنيف ورشيد خادم العربة قد أصيبوا بعدوى التكاسل الذي حل في تلك الأيام وعلى هذا المنوال مرت الأيام بمنزل كورنواليس إلى أن جاء التاسع من آب عام ١٩٤٥ وتغيرت أشياء.

كان لتاريخ العائلة بالطبع، قوانينه الغذائية الخاصة. فمن المفترض ألا يتناول المرء إلا الأجزاء الحلال من اللحم وأن يأخذها بعد أن يُصفي دمها وتجف. ولسوء الحظ، فإن هذا يجعل القصة أقل عصارة ومتعة، لذا فإنني على وشك أن أصبح الفرد الأول والوحيد في عائلتي الذي ينتهك قوانين الحلال والحرام، فأنا بمنعي تسرب أي دم من جسد القصة أصل إلى الجزء الذي لا يمكن الكلام عنه. وبغير رهبة أو خوف، أضغط عليه وأضغط.

ماذا حدث في عام ١٩٤٥؟ في ذلك التاريخ لاقت الراني كوش ناهين وجه ربها. لكن ليس ذلك ما يعنيني، رغم أنها حين قضت كانت قد باتت شاحبة كالملاءة، شاحبة إلى حد بات من الصعب تمييزها من أغطية سريرها، وبما أنها كانت قد أنهت دورها حين تركت لقصتي هذه مبصقة فضية، فقد بات من المستحسن أن ترحل عنها بسرعة... كذلك في عام ١٩٤٥، لم تفشل رياح الخماسين في الإتيان بالمطر. ففي الدغل البورمي، كان اللورد وينغيت وجنده، شأنه شأن جيش سبهاس شاندرا بوز الذي كان يخوض المعركة إلى جانب اليابان، يغرق بالأمطار العائدة. كما كان متظاهرو

ساتيغراها في جلندور الذين كانوا يتمددون بحسب أسلوب اللاعنف على خطوط السكك الحديد، يتبللون هم أيضاً حتى العظم. كانت تشققات الأرض التي ابتليت بالجفاف الطويل قد بدأت تلتحم وكانت هنالك مناشف تحشى في نوافذ منزل كورنواليس وأبوابه، وكان لا بدّ من أن تعصر وتستبدل باستمرار، وكان البعوض يترامى ميتاً في برك الماء القاتمة على جوانب الطرقات. أما القبو ـ تاج محل ممتاز ـ فقد اشتدت رطوبته إلى أن سقطت ممتاز أخيراً صريعة المرض. ولعدة أيام ظلت صامتة لا تبوح بشيء عن مرضها لكن حين غدت محمرة الأجفان وطفقت ترتعش من الحمى، خشي نادر خان أن تصاب بنزلة صدرية حادة فتوسل إليها أن تطلب إلى والدها معالجتها، وهكذا قضت أسابيع عديدة تالية وهي تصارع المرض قابعة في فراشها الضيق بينما كان آدم عزيز يجلس بجوارها، يضع الكمادات الباردة على جبينها وهي ترتجف وتصطك. في السادس من آب انكسرت شوكة المرض وفي صباح التاسع من آب كانت حالة ممتاز قد تحسنت إلى حد استطاعت معه تناول الطعام.

في ذلك الصباح، أحضر جدي معه حقيبة جلدية عتيقة، وقد نقشت في أسفلها كلمة هايدلبرغ بعد أن كتبت أحرفها بالنار على الجلد، ذلك لأنه قرر وقد ضعفت ابنته كثيراً، أن يجري لها فحصاً طبياً شاملاً، لكنه ما إن بدأ بفتح الحقيبة حتى شرعت ابنته بالصراخ.

(والآن نحن هنا ـ يا بادما: هذا هو بيت القصيد).

فبعد عشر دقائق انقضى عهد الصمت الطويل إلى الأبد وذلك بظهور جدي وهو يهدر من غرفة المريضة. كان يصيح منادياً زوجته، أولاده، بناته. وكانت رئتاه قويتين إلى حد وصلت معه الضجة إلى نادر خان في القبو. ولم يكن من المتعذر عليه أن يخمن أسباب تلك الضجة.

اجتمعت العائلة في غرفة الاستقبال حول جهاز الراديو، وتحت الصور الفوتوغرافية التي لا يقدر لها عمر، كان عزيز قد حمل ابنته ممتازاً إلى داخل الغرفة ووضعها هناك على مقعد، وكان وجهه يبدو مذعوراً، بادما هل يمكنك تخيل الأحاسيس التي كانت تطوف بباطن أنفه؟ أوه، لقد كانت لديه

قنبلة وكان على وشك إلقائها. فابنته بعد سنتين من الزواج، كانت لا تزال عذراء.

كان قد مضى على الأم المبجلة ثلاث سنوات لم تنطق بحرف واحد لكنها لم تستطع التماسك فصرخت: «أحقاً ما يقول يا بنتي؟». وهكذا تحطم أخيراً الصمت الذي عشش في زوايا البيت وأركانه كأعشاش العنكبوت، لكن ممتازاً اكتفت بإيماءة من رأسها: أجل، صحيح.

بعدئذٍ تكلمت مفصحة عن أنها تحب زوجها وأن ذلك الشيء سيحدث في الوقت المناسب. إنه رجل طيب وحين يغدو بالإمكان إنجاب أطفال سيكون بإمكانه فعل ذلك بالتأكيد. كذلك قالت إنها ترى أن الزواج يجب ألا يقوم على ذلك الأمر، لذا لم ترغب في الإتيان على ذكره، ولم يكن من الصواب أن يخبر والدها أفراد العائلة جميعاً به. وكان من المحتمل أن تقول المزيد لولا أن الأم المبجلة انفجرت.

ثلاث سنوات من الكلام تدفقت من فمها دفعة واحدة (غير أن جسدها الذي تمدد بمستلزمات اختزانه تلك المدة الطويلة لم يتضاءل) أما جدي فقد كان يقف بلا حراك والعاصفة تكتسحه. فكرة من كانت؟ خطة من، تلك الخطة الحمقاء المجنونة في أن تدع، ما اسمه، ذلك الجبان الذي يفتقر حتى للرجولة في المنزل؟ أن يقيم هنا طليقاً، ما اسمه، كالطير، طعامه ومسكنه مؤمنان لثلاث من السنين. ترى ما كان همك في الأيام، ما اسمه، التي لا لحم فيها؟ ماذا كنت تعلم عن ثمن الأرز الباهظ؟ من هو الضعيف، أجل، الضعيف، ما اسمه، الأشيب الشعر الذي سمح بهذا الزواج الجائر؟ من وضع، ما اسمه، ابنته في فراش ذلك الوغد؟ رأس من كان مليئاً بالأشياء الملعونة الحمقاء غير المفهومة؟ رأس من تراه قد أفسدته الأفكار الأجنبية الدخيلة التي يمكن أن تصل بابنة المرء إلى مثل هذا الزواج غير الطبيعي؟ من قضى حياته يجدف على الله، ومن على رأسه نزل، ما اسمه، هذا الحكم... من جلب المصائب على هذا المنزل؟... لقد تكلمت ضد جدي ساعة وتسع عشرة دقيقة، وحين انتهت كانت السحائب قد سكبت كل ما فيها من مطر وكان المنزل قد بات مليئاً بالبرك، لكن قبل أن تنتهي، كانت

البنت الصغرى، أميرالدا، قد أقدمت على أمر شديد الغرابة.

فيدا أميرالدا ارتفعتا إلى صدغيها، مضمومتين على شكل قبضتين، ما عدا السبابتين اللتين انبسطتا، ثم دخلتا الأذنين، وبدا وكأنهما ترفعان أميرالدا من كرسيها وتدفعانها إلى الجري، والسبابتان تسدان الأذنين. . . وهكذا شرعت تجري بأقصى سرعتها بلا منديل رأس، راحت تجري في الشوارع، عبر برك الماء، عبر موقف العربات، عبر حانوت البان حيث كان كهول البلدة قد خرجوا لتوهم إلى الهواء المنعش بعد المطر. فأدهشت سرعتها أولاد الشارع الذين كانوا في أماكنهم ينتظرون ابتداء لعبة الزوغان داخل وخارج بصقات الفوفل كما أدهشهم منظرها إذ ما من أحد من قبل كان قد شاهد فتاة تجري بغير منديل، وعلى الأخص فتاة من «الأنوار المشعة الثلاثة». وحيدة، ذاهلة عبر الشوارع الغارقة بمياه الأمطار وأصابعها في أذنيها وبلا منديل على رأسها. في هذه الأيام، المدن ملأى بأوانس عصريات متبرجات بغير منديل رأس، لكن في ذلك الحين كان الأمر مختلفاً، وهكذا شرع الكهول يفرقعون بألسنتهم أسى وأسفاً، ذلك أن امرأة بغير منديل هي امرأة بغير شرف، ترى لماذا اختارت أميرالدا بيبي أن تترك شرفها في المنزل؟ ووقع الكهول في أشد حالات الحيرة، لكن اميرالدا لم تكن كذلك قط. بل كانت ترى بوضوح وبصورة جديدة تماماً، في هواء ما بعد المطر، أن علة العلل ومنبع المشكلات لأسرتها، إنما هو ذلك السمين الرعديد (أجل، بادما) ذلك الذي كان يعيش في القبو. فإذا ما استطاعت التخلص منه، ستعود السعادة إلى الجميع. . . وهكذا جرت أميرالدا بلا توقف إلى منطقة الكانتومنت حيث كانت هنالك قيادة للجيش وحيث يحتمل أن يكون الرائد ذو الفقار، وحين وصلت إلى مكتبه كانت قد قررت أن تحنث بيمينها.

ذو الفقار اسم مشهور بين المسلمين. إنه اسم السيف ذي الشعبتين الذي كان لعلي بن أبي طالب، صهر الرسول محمد وابن عمه. إنه السلاح الذي لم يكن العالم قد رأى مثله حتى ذلك الحين.

أوه، أجل: شيء آخر حدث في العالم ذلك اليوم. سلاح آخر لم يره العالم من قبل أسقط من السماء على الشعب الياباني الأصفر. لكن في آغرا،

كانت أميرالدا تستخدم سلاحاً سرياً خاصاً بها، سلاحاً متقوس الساقين، قصيراً مفلطح الرأس، أنفه يكاد يلامس ذقنه ـ سلاحاً يحلم بمنزل عصري كبير يقع حمامه تماماً بجوار المخدع.

لم يكن الرائد ذو الفقار متأكداً مما إذا كان عليه أن يعتقد أن نادر خان وراء مقتل الطنان أم لا، لكنه كان متلهفاً لأن يجد الفرصة لذلك. وحين أخبرته أميرالدا عن تاج محل آغرا الواقع تحت الأرض، اشتد به الانفعال إلى حد نسي معه أن يغضب، ثم اندفع إلى منزل كورنواليس بحمية ابن الخامسة عشرة، وهكذا وصلوا إلى غرفة الاستقبال وعلى رأسهم أميرالدا، خالتي: الخيانة بوجه جميل، وبلا منديل أو منامة زهرية فضفاضة. فراح عزيز يراقب، وقد أخرسته المفاجأة، جنود ذو الفقار وهم يطوون سجادة غرفة الاستقبال ويفتحون الباب السري بينما طفقت جدتي تواسي ابنتها ممتاز «النساء ينبغي أن يتزوجن، ما اسمه، رجالاً لا فئراناً، وليس هناك، ما اسمه، من عار قط في ترك تلك الدودة». بيد أن ابنتها ظلت تنتحب وتنتحب.

أما نادر فقد غاب في عالمه السفلي. لقد نبهته همهمة عزيز الأولى، ثم طغى عليه الضيق الذي اكتسحه بسهولة أشد من أمطار الخماسين، وهكذا اختفى. كان ثمة باب سري مشرع على مصراعيه في أحد المراحيض ـ أجل، الباب نفسه، ولم لا؟ ذاك الذي خاطب منه الدكتور عزيز حين كان مختبئاً في صندوق الغسيل. وهناك كانت «علبة الحاجيات» الخشب وقد انقلبت على جانبها كما كان ثمة وعاء فارغ مطلي بالمينا متدحرج على الحصير الليفي. كان للمرحاض باب خارجي يؤدي إلى الممشى المجاور لحقل الذرة، وكان ذلك الباب مفتوحاً. لقد كان في السابق مقفلاً من الخارج إنما بقفل من صنع الهند، وهكذا كان من السهل كسره... وفي المعتزل الرطب شبه المعتم الذي كان يشكله تاج محل، كانت هناك مبصقة تلمع، وملاحظة موجهة إلى ممتاز موقعة من قبل زوجها وقد خطت عليها ثلاث كلمات بستة مقاطع طويلة وثلاث علامات تعجب:

طالق! طالق! طالق!

لقد فعل نادر خان ما كان ينبغي فعله. لكن أي هياج فظيع حل بالرائد

«ذلفي» حين وجد أن طائره قد أفلت! هذا هو اللون الذي كان يراه: الأحمر. أي غضب يشبه إلى حد بعيد غضب جدي رغم تعبيره عنه بحركات دقيقة! في البداية، شرع الرائد ذلفي ينط إلى الأعلى والأسفل في نوبات من العصبية واليأس، لكنه في النهاية، سيطر على نفسه، ثم اندفع عبر الحمام، فالباب الخلفي فحقل الذرة ليخرج أخيراً من بوابة السور. لا أثر للشاعر السمين الهارب ذي الشعر الطويل، إلى اليمين لا أحد، إلى اليسار: لا شيء. وبسرعة بالغة اتخذ ذلفي المشتعل غضباً قراره فانطلق عبر ساحة العربات ـ الدائروية. كان ثمة كهول يلعبون لعبتهم الشهيرة، لعبة إصابة المبصقة وكانت ثمة مبصقة في الشارع، والأولاد يروغون بين جداول عصير ـ الفوفل، وكان الرائد ذلفي يعدو ويعدو. لكن حين مر بين الكهول ودريئتهم، كان يفتقر لمهارة الأولاد، ويا لها من لحظة عابرة الحظ. بصقة لزجة واطئة من سائل أحمر لحقت به تماماً عند منشعب الرجلين، لطخة أشبه بيد مشدودة القبضة في أسفل سترته العسكرية، ولشدة انزعاجه، أوقف اندفاعته، أجل توقف الرائد ذلفي وقد تملكه الغضب كلية، ويا لسوء الحظ الأشد أيضاً! فقد افترض لاعب ثان أن الهندي المجنون سيتابع جريه، لذا أطلق بصقة ثانية، فالتصقت قبضة حمراء ثانية بالقبضة الأولى وأكملت يوم الرائد ذلفي... وهكذا مضى الرائد ببطء وترو إلى المبصقة ثم قلبها في التراب بعدئذٍ وثب عليها مرة، مرتين، ثلاثاً، مسطحاً إياها، رافضاً أن يظهر عليه أنه ألحق الأذى بقدمه. بعد ذاك، وبشيء من الترفع، انسحب مبتعداً، عائداً إلى السيارة التي كانت تقف أمام منزل جدي، أما الكهول فقد استعادوا مبصقتهم المهشمة وشرعوا يطرقون جوانبها آملين أن يعيدوا لها شكلها القديم.

«الآن، وأنا على وشك الزواج» قالت أميرالدا لممتاز: «سيكون من الغباء بمكان كبير ألا تحاولي الاستمتاع بوقتك. كما أن عليك أن تقدمي لي النصيحة حول كل شيء». ورغم أن ممتازاً ابتسمت لأختها الصغرى إلا أنها في تلك اللحظة اعتبرت ذلك التلميح الذي أدلت به أميرالدا شديد الوقاحة وزادت، ربما عن غير عمد، من الضغط على القلم الذي كانت ترسم به

خطوط الحنة على أخمصي أختها، فصرخت أميرالدا «هيه. . . لا داعي لأن يصيبك الجنون. ظننت فقط أننا ينبغي أن نكون صديقتين».

كانت العلاقة بين الأختين قد أصيبت ببعض الشوائب منذ اختفاء نادر خان، إذ بدا على ممتاز أنها كرهت الأمر كله، مذ جاء الرائد ذو الفقار (الذي لم يشأ أن يحمِّل جدي مسؤولية إيواء رجل مطلوب، وأنهى الأمر مع العميد دودسون) ثم طلب يد أميرالدا وتلقى الموافقة. «إنه نوع من الابتزاز» كانت تفكر «وماذا بشأن علياء؟ فالأخت الكبرى ينبغي ألا تكون آخر من تتزوج، ثم انظروا كم تبدو متعبة مع صديقها التاجر؟». إلا أنها لم تقل شيئاً، بل كانت تبتسم ابتسامتها المتسامحة وتكرس موهبتها في الجد والدأب لتحضيرات الزفاف، كما وافقت على أن تحاول الاستمتاع بوقتها، في حين ظلت علياء تنتظر أحمد سيناء (ولسوف تنتظر إلى الأبد، تخمن بادما: بصورة صحيحة).

كانون الثاني ١٩٤٦. سرادقات، حلويات، ضيوف، أغانٍ، عروس متصلب القامة استعداداً، عروسة تصاب بالإغماء: إنه عرس جميل وفي ذلك العرس وجد تاجر المشمعات والجلود الاصطناعية أحمد سيناء نفسه غارقاً في الحديث مع ممتاز المطلقة حديثاً: «أتحبين الأطفال؟ أية مصادفة؟ أنا أيضاً أحبهم». «لم تنجبي أطفالاً؟ يا لك من فتاة مسكينة، حسناً، حقيقة الأمر زوجتي لم تكن تستطيع». «أوه، كلا، شيء محزن بالنسبة إليك، وقد كانت سيئة المزاج ولا بد؟». «أوه، مثل جهنم. . . المعذرة، شدة انفعالي حملتني بعيداً». «تماماً صحيح. . . لكن لا تهتم بالأمر. أتراها كانت تلقي بالصحون وكل شيء؟». «تلقي بالصحون؟ في شهر واحد اضطررنا لأن نأكل بصحاف من جرائد». «لا، يا إلهي، أي هول هذا؟». «أوه، لقد كانت علاقة سيئة. أنت ذكية جداً بالنسبة إلي، أما هي فقد كانت تحطم الأطباق وكل شيء»، «أنت مسكين، رجل مسكين». «لا، أنت مسكينة، أنت مسكينة» ثم فكرت في سرها: «شاب ساحر للغاية. لكنه مع علياء يبدو دائماً مضجراً». وفي ما بعد فكر هو: «هذه الفتاة لم أنظر إليها قط، لكن يا إلهي!»، أما هي فقد فكرت. «يمكن القول إنه يحب الأطفال، لذلك يمكنني. . .». بينما فكر هو «حسناً. البشرة ليست بذات شأن. . .». وحين جاء وقت الغناء لوحظ أن

ممتازاً وجدت من الحماسة ما جعلها تشارك فيه، أما علياء فقد ظلت صامتة. لقد أصيبت بجروح أشد سوءاً من تلك التي أصابت والدها في جليانو الاباغ، لكن دونما أثر ظاهر.

في تموز من ذلك العام ـ تزوجت ممتاز من جديد. أما أختها التي ورثت الطبع عن أمها فقد رفضت التكلم إليها بذلك الشأن واستمرت كذلك إلى أن توفيتا كلتاهما، وقد رأت في ذلك فرصتها للانتقام. لقد حاول آدم عزيز والأم المبجلة أن يقنعا علياء بأن مثل هذه الأمور تحدث وأنه خير لها أن تكتشف الأمر الآن من أن تكتشفه في ما بعد وأن ممتازاً كانت في وضع سيئ وأنها بحاجة لرجل يساعدها على تجاوز حالتها تلك، إلا أنهما لم يفلحا في إقناعها. . . لكن دماغ علياء حسن ولسوف يصل بها إلى بر الأمان.

«لكن، لكن» قالت علياء: «ما من أحد يتزوج كتاباً أبداً».

«غيّري اسمك» قال احمد سيناء «هذه المرة من أجل بداية جديدة. ألقي بممتاز ونادرها من النافذة وسأنتقي لك اسماً آخر. أمينة، أمينة سيناء هل يعجبك؟».

«ما الذي تقوله أيها الزوج؟» قالت أمي، لكن علياء، البنت العاقلة، كتبت في مذكرتها «على أي حال، من يرغب في أن يبتلى بزواج كهذا؟ لست أنا، لا، أبداً».

لقد كان ميان عبد الله بداية زائفة لعدد كبير من الناس المتفائلين، أما مساعده (الذي حرم النطق باسمه في منزل والدي) فقد كان نقطة التحول الخاطئة في حياة أمي. بيد أن تلك السنوات كانت سنوات عجافاً، فكثير من النباتات التي كانت تزرع في ذلك الحين كانت تنتهي إلى العدم.

هنا، تسأل بادما بعصبية واضحة «وماذا حدث للسمين؟ أنت لا تنوي إخفاء أخباره عني؟ أليس كذلك؟».

إعلان عام

أعقب ذلك كانون ثان مخادع. فترة من الزمن ساكنة السطح إلى درجة بدا معها وكأن عام ١٩٤٧ لم يبدأ على الإطلاق (رغم أنه بالحقيقة، طبعاً...). في تلك الفترة من الزمن رأت البعثة الوزارية ـ بيتيك لورنس العجوز، كريمز البارع والجنرال ألكساندر ـ أن خطتها لنقل السلطة قد منيت بالفشل (لكن طبعاً، بالواقع، لن يستغرق الأمر أكثر من ستة أشهر إلى أن...) وفي تلك الفترة كان نائب الملك، ويفيل، قد أدرك أنه انتهى، قضي أمره (الأمر الذي لم يفعل، بالطبع والحقيقة، سوى أنه سرّع الأحداث وخدع آخر نواب الملك) وفي تلك الفترة كان السيد أتلي يبدو مشغولاً للغاية بتقرير مصير بورما مع السيد أونغ سام (رغم أنه، بالطبع والحقيقة، كان يعطي تعليماته النهائية لآخر نواب الملك، قبل أن يحدد الموعد ويعلن عنه، إذ كان على نائب الملك الأخير أن يزور مليكه مطالباً بمنحه سلطات مطلقة حتى يتمكن سريعاً، سريعاً..) وفي تلك الفترة كانت الجمعية التأسيسية قد فضت اجتماعاتها دون التوصل إلى دستور (لكن، بالطبع والحقيقة، كان إيرل مونباتن، آخر نائب للملك، سيقف معنا ذات يوم بتكتكة ساعته الكبيرة التي لا ترحم، وسكين جنده التي ستقطع شبه القارة إلى ثلاثة أقسام، وزوجته التي تأكل صدور الدجاج سراً خلف باب مرحاضها المقفل).

ذات صباح، وفي وسط السكون المطلق الذي كان من المحال على المرء أن يرى عبره كيف كانت الآلات الكبيرة تتطاحن، استيقظت أمي التي بات اسمها الجديد أمينة سيناء، والتي بدت هي الأخرى ساكنة لا تتغير رغم

الأشياء الكبيرة التي كانت تحدث تحت جلدها، استيقظت وفي رأسها طنين من الأرق وعلى لسانها طبقة كثيفة من الرقاد الذي لم يجد له طريقاً إلى عينيها كما وجدت نفسها تتكلم بصوت عال دون أن تقصد ذلك البتة «الله! ماذا تفعل الشمس هنا؟ لقد أشرقت من مكان غير مكانها».

. . . لكن لا بدّ لي من مقاطعة نفسي. فأنا لم يكن في نيتي الوصول إلى هنا هذا اليوم. غير أن بادما بدأت تثور كلما غدت قصتي واعية ـ ذاتياً، تثور، وكما هو شأن محرك الدمى الفاشل، في أية لحظة، أكشف فيها اليدين اللتين تمسكان بالخيوط، لكن لا بدّ لي، وبكل بساطة، من تسجيل احتجاج. لقد أقحمت نفسي في فصل، أطلقت عليه بمحض المصادفة اسم «إعلان عام» لذا أطلق (وبأقوى العبارات الممكنة) التنبيه الطبي التالي: أود أن أعلن من فوق السطوح ومن مكبرات المآذن الدكتور ن. ل. باليجا مشعوذاً ينبغي الحجر عليه، ضربه، إلقاؤه من النافذة. بل أسوأ من ذلك، ينبغي أن يخضع لشعوذته ذاتها، أن يصاب ببثور الجذام، أن يتناول الأقراص التي يسيء وصفها ذلك الأحمق اللعين» ثم أُشدد على نقطتي هذه: «ذلك الطبيب لا يرى أبعد من أنفه».

وبما أنني ابتعدت عن مجرى الأحداث، لا بدّ لي من أن أدع والدتي تقلق فترة أطول من الزمن حول سلوك الشمس الغريب، كي أوضح أن فتاتنا، بادما، التي أخافتها إشاراتي، كانت تثق كل الثقة بهذا الباليجا ـ هذا الرجل المشعوذ، هذا الغر خادم الطب الساذج. ونتيجة لذلك، فقد جاء ذلك الدجال، الذي لن أتنازل فأمنحه شرف الوصف، لزيارتنا. وبكل براءة، ومن أجل خاطر بادما، سمحت له بأن يفحصني، وكان علي أن أخشى الأسوأ، فالأسوأ هو ما فعله. وصدق ذلك إن استطعت: فقد حكم الدجال عليّ كلياً إذ قال بصوت حزين: «لا أرى أي خلل». وكان في ذلك يختلف عن نيلسون كوبنهاغن في أنه لا يملك عيناً ترى، وأن عماه ليس من خيار العبقرية العنيدة بل من لعنة حماقته التي لا مفر منها. وبعمى كامل، طعن بحالتي العقلية، ملقياً الشكوك على صلاحيتي كشاهد وأشياء أخرى لا يعلمها إلا الله: «لا أرى أي خلل».

في النهاية، بادما نفسها طردته. «لا بأس يا سيدي الطبيب» قالت له بادما «نحن سنرعاه بأنفسنا» وعلى محياها رأيت نوعاً من الاعتراف بذنبها الغبي... إذاً انصرف يا باليجا ولا تعد أبداً إلى هذه الصفحات. لكن يا الله! كيف انحدرت مهنة الطب إلى هذا الدرك؟ إلى حضيض باليجا هذا؟ إن صح ذلك، فالجميع في النهاية سيطببون أنفسهم بأنفسهم... الأمر الذي يعيدني إلى الأسباب التي جعلت أمينة سيناء تستيقظ ذات صباح والشمس على شفتيها.

... «لقد أشرقت من مكان غير مكانها»، صرخت بمحض المصادفة ثم أدركت عبر الطنين لرقادها الليلي السيئ كم كانت في ذلك الشهر المخادع تسقط ضحية الخداع، ذلك أن كل ما كان قد حدث هو أنها استيقظت في دلهي، في منزل زوجها الجديد الذي كان يواجه مشرق الشمس. أي، الأمر وما فيه، أن الشمس أشرقت من مكانها الصحيح، وأن مكان أمينة هو الذي تغير... لكن حتى بعد أن خطرت لها هذه الفكرة البدائية واختزنتها إلى جانب أخطاء مشابهة كثيرة ارتكبتها منذ مجيئها هنا (ذلك أن حيرتها في ما يتعلق بشروق الشمس كانت حدثاً يقع بانتظام، وكأن عقلها يرفض قبول التغير في ظروفها، يرفض الموقع الجديد لسريرها في مكان فوق الأرض). حتى بعد ذلك فقد ظل شيء من تأثيره المحير في ذهنه، شيء منعها من الشعور بالراحة التامة.

«في النهاية، يمكن للجميع أن يعيشوا بلا آباء» قال الدكتور عزيز لابنته حين الوداع. أما الأم المبجلة فقد أضافت: «يتيم آخر من العائلة، لكن ما اسمه، لا تبالي، محمد كان يتيماً أيضاً، وبوسعك أن تقولي هذا لأحمد سيناء، فهو على الأقل، ما اسمه، نصف كشميري»، بعدئذٍ حمل الدكتور عزيز، بيديه، حقيبة صفيحية خضراء إلى مقصورة القطار حيث كان أحمد سيناء ينتظر عروسه. «الدوطة ليست ضئيلة ولا هي ضخمة» قال جدي لأحمد «فنحن لسنا من أصحاب الملايين، كما تعلم، لكننا أعطيناك ما فيه الكفاية، أما أمينة فسوف تعطيك أكثر» وفي داخل الحقيبة الصفيحية الخضراء كان هنالك: سماورات فضية، ثياب من البروكار، نقود ذهب كان الدكتور

عزيز قد حصل عليها من مرضى شديدي الامتنان، أي كان هنالك متحف كل ما فيه من معروضات يمثل أمراضاً شفيت وأرواحاً أنقذت. بعدئذٍ رفع آدم عزيز ابنته (بين ذراعيه) مسلماً إياها، إثر الدوطة، إلى رعاية ذلك الرجل الذي أعاد تسميتها وأعاد إبداعها، وبذلك غدا، بمعنى من المعاني، والدها مثلما هو زوجها... ثم سار (بقدميه) على طول الرصيف بينما كان القطار يقلع أشبه بعداء سباق في آخر رمق له. وهناك وقف ملفوفاً بالدخان غارقاً في خضم متلاطم من باعة الكتب الهزلية ومراوح ريش الطاووس وباعة الشطائر الساخنة والحمالين والمشردين والعربات والملصقات. أما في المقصورة فقد جلست أمينة سيناء (في حالتها الجديدة) وقدماها على الحقيبة الصفيحية الخضراء التي كانت أعلى بكثير من أن تدخل تحت المقعد. وهكذا، بصندلها المتربع على المتحف المقفل على إنجازات والدها، كانت أمينة تغذ الخطا إلى حياتها الجديدة، وقد خلفت وراءها آدم عزيز الذي سيكرس نفسه لمحاولة يدمج فيها ما بين مهارات الطب الغربي والحكمة الشعبية، محاولة ستبليه تدريجياً مقنعة إياه بأن سيطرة الخرافة والجدل وكل ما هناك من سحر وشعوذة في الهند لن يمس أبداً، لا لشيء إلا لأن (الحكماء) يرفضون التعاون، وهكذا مع تقدمه في السن وتحول العالم إلى عالم أكثر وهمية، بدأ آدم عزيز يشك بمعتقداته ذاتها. لذا حين جاء اليوم الذي رأى فيه الله، ذاك الذي لم يكن قادراً على الإيمان أو الكفر به، فإنه لم يفاجأ.

* * *

مع خروج القطار من المحطة قفز أحمد سيناء إلى باب المقصورة فأقفله بالمزلاج ثم أغلق مصاريع النافذة، الأمر الذي أصاب أمينة بما يشبه الذهول، لكن في تلك اللحظة، وعلى نحو مفاجئ، كانت هناك خبطات في الخارج وأيد تحرك قبضة الباب وأصوات تنادي: «دعنا ندخل يا مهراجا! وأنت يا مهراجية، قولي لزوجك أن يفتح». وكما هو الأمر دائماً، في جميع القطارات التي تمر في هذه القصة، ثمة أصوات وقبضات كهذه تدق وتصيح: في قطار بريد الحدود الذاهب إلى بومباي كما في جميع القطر السريعة على مدى السنين، وهي دائماً تخيف الآخرين، إلى أن جاء يوم كنت أنا فيه الوحيد

القابع في الخارج، متمسكاً بالحياة الغالية، متوسلاً «هيه... مهراجا! دعني أدخل يا سيدي العظيم».

«وداعاً أيها المراوغون» قال أحمد سيناء لكنهم كانوا أكثر من ذلك. كانوا نبوءة... وكانت ثمة نبوءات أخرى ستأتي.

... والآن ها هي ذي الشمس تشرق من مكان غير مكانها. ها هي ذي أمي، مستلقية، في سريرها تشعر بكثير من القلق، لكنها أيضاً مبتهجة لما حدث في داخلها ذاك الذي كان حتى ذلك الحين سراً خاصاً بها. إلى جانبها أحمد سيناء يشخر شخيراً حاداً، لا أرق بالنسبة إليه، لا شيء. رغم المضايقات التي جعلته يأتي بمحفظة رمادية ملأى بالنقود ويخفيها تحت سريره وهو يعتقد أن أمينة لا تراها، رغم كل شيء كان والدي يستغرق في سباته، يلفه غلاف مهدئ من موهبة أمي العظمى، التي تبين أنها تستحق أكثر بكثير من محتويات الحقيبة الصفيحية الخضراء. لقد قدمت أمينة سيناء لزوجها أحمد موهبتها المتميزة: قدرتها التي لا تنفد على رعايته والاهتمام به.

ما من أحد كان يتحمل الآلام بالطريقة التي تتحملها أمينة. فهي ببشرتها السوداء، وعينيها المتألقتين، وبالفطرة، كانت أشد الناس وسوسة على وجه الأرض. لذا وبمواظبة شديدة، كانت ترتب الأزهار في الممرات وغرف المنزل الواقع في دلهي القديمة. حيث اختير السجاد بعناية لا محدودة وكان باستطاعة أمينة أن تخصص خمساً وعشرين دقيقة لوضع كرسي في مكانه الصحيح.

وحين تنتهي من ترتيب منزلها، بإضافة لمسة صغيرة هنا، وإجراء وتعديلات طفيفة هناك، كان أحمد سيناء يجد مسكنه، مسكن اليتيم ذاك، وقد تحول إلى منتجع لطيف ظريف، فأمينة تنهض قبله، تدفعها مواظبتها لأن تمسح كل شيء حتى أقفاص الكتاكيت المصنوعة من القصب، لكن ما لم يعرفه أحمد هو أن مواهب زوجته لم تكن مكرسة كل ذلك التكريس وبكل ذلك التصميم للأشياء الخارجية من حياتهما وحسب، بل كانت مكرسة أيضاً لأحمد سيناء نفسه.

ترى هل تزوجته بغية السلوان والأطفال؟ لكن في البداية وقف الأرق

الذي تلبس دماغها عائقاً أمام هدفها الأول، أما الأطفال فإنهم لا يأتون على الفور دائماً. وهكذا وجدت أمينة نفسها تحلم بشاعر لا يمكن الحلم به، وتستيقظ وعلى شفتيها اسم لا يمكن البوح به. وقد تسأل: لكن ماذا فعلت بهذا الخصوص؟ فأجيب: كانت تصرف بأسنانها وتعمل على تقويم نفسها. وهذا بعض ما كانت تهمس به في سرها «أنت أيتها الحمقاء الجاحدة الكبيرة، ألا ترين من هو زوجك الآن؟ ألا تعرفين ما يستحقه الزوج؟». ولتجنب الجدل العقيم حول الأجوبة الصحيحة لأسئلة كهذه، دعوني أقل، طبقاً لرؤية أمي، إن الزوج يستحق الإخلاص الذي لا يرقى إليه الشك، والحب النابع من القلب الخالي من كل تحفظ، لكن كانت ثمة صعوبة: فأمينة التي كان ذهنها ممتلئاً حتى الحافتين بنادر خان والأرق، وجدت أنها عاجزة عن توفير هذه المتطلبات لأحمد على نحو طبيعي. وهكذا شرعت، موظفة كل ما لديها من مواهب المواظبة والدأب، تدرب نفسها على حبه. ولكي تفعل هذا، قسمته، ذهنياً، إلى الأجزاء التي يتكون منها، جسدياً وسلوكياً أيضاً، مجزئة إياه إلى شفاه وأصوات ونزعات وما شابه... أي باختصار، وقعت المرأة تحت سحر الملاءة المثقوبة، ملاءة أبويها، فقد صممت على أن تقع في غرام زوجها عضواً عضواً. في كل يوم كانت أمينة تنتقي عضواً من أحمد سيناء، تركز كيانها بأسره عليه إلى أن يغدو أليفاً تماماً. ثم تتابع تركيزها إلى أن تشعر بالود ينمو في داخلها فيصبح تعلقاً ومن ثم حباً. بهذه الطريقة توصلت لأن تعبد صوته الجهوري والطريقة التي يثقب بها طبلتي أذنيها ويبعث في جسدها الرجفة: ثم صفته المميزة دائماً وهي أن يبقى في مزاج حسن حتى موعد حلاقته. فبعد ذاك، وفي كل صباح، كان سلوكه يغدو صارماً قاسياً بارداً كسلوك رجال الأعمال ـ ثم عينيه بغطائهما الأشبه بغطاء عين النسر اللتين كانتا تخفيان طيبته الداخلية التي كانت واثقة منها، خلف نظرة سديمية غامضة، كما توصلت لأن تعبد الطريقة التي تنقلت بها شفته السفلى تحت شفته العليا، وقصر قامته الذي أدى لحرمانها من الكعب العالي... «يا إلهي» كانت تخاطب نفسها «يبدو أن في كل رجل مليون شيء مختلف يمكن للمرأة أن تحبه». لكنها مع ذلك لم تضعف ولم تهن عزيمتها، بل كانت تحاكم

الأمور محاكمة منطقية في سرها «بالنتيجة، من تراه يعرف أي كائن بشري معرفة كاملة؟». ثم تتابع تعلم الإعجاب بشهيته تجاه الأطعمة المقلية، وقدرته على اقتباس الأشعار الفارسية، وأخدود الغضب الذي ينحفر بين حاجبيه... وكانت تفكر... طبقاً لهذا المعدل، سيكون فيه دائماً شيء جديد أحبه، وبذلك لن يصاب زواجنا بالسأم قط. «بهذه الطريقة، وبروح المواظبة التي تميزت بها، وطنت والدتي نفسها على الحياة في المدينة القديمة. وظلت الحقيبة الصفيحية الخضراء في الخزانة القديمة دون أن يمسها أحد. ودون أن يعرف أحمد أو يشك. وجد نفسه وحياته تصاغان وفق ما ترغب زوجته به إلى أن غدا شيئاً فشيئاً، يشابه رجلاً لم يعرفه قط ـ ويعيش في المكان الذي يشابه قبواً لم يكن قد رآه قط. وبتأثير سحر المعاناة، ذلك السحر الغامض الذي كانت أمينة تمارسه، ربما عن غير وعي منها، وجد أحمد سيناء شعره يتساقط، وما تبقى منه يغدو مسترسلاً زيتياً، كما اكتشف أنه كان يرغب في تركه ينمو إلى أن يلتف حول أذنيه. كذلك شرعت معدته بالتمدد إلى أن باتت ذلك الكرش الرخو المتهدل الذي كان بإمكاني غالباً أن أختبئ فيه والذي لم يقارنه أي منا، عن وعي على أية حال، بقصر نادر خان وسمنته». وهكذا قالت له ابنة عمه البعيدة زهرة ذات مرة بشيء من الغنج: «يجب أن تطبق حمية غذائية يا ابن العم، وإلا لن نتمكن من الوصول إليك كي نقبلك». لكن ذلك لم يجد نفعاً. كذلك شادت أمينة لنفسها في دلهي القديمة شيئاً فشيئاً عالماً من الأرائك الوثيرة وستائر النوافذ التي لا تسمح إلا بالقليل من النور... وقد ساعدها ذلك كله على أداء مهمتها الجبارة، مهمة القبول، شيئاً فشيئاً، بحب رجل جديد. (لكنها ظلت عرضة لرؤى ـ الحلم المحرقة... وظلت دائماً يجذبها الرجال ذوو الخصور الضامرة والشعور الطويلة المسترسلة).

ليس باستطاعتك أن ترى المدينة الجديدة وأنت في القديمة. ففي المدينة الجديدة، شادت مجموعة من الغزاة الورديين قصوراً من الحجر الوردي، أما منازل الأزقة الضيقة التي تمت للمدينة العتيقة فقد كانت تتكوم بعضها فوق البعض الآخر وترص وتتزاحم ليحجب واحدها عن الآخر منظر الصروح

الوردية، صروح السلطة والنفوذ. لكن مع ذلك، ما من أحد كان ينظر أبداً في ذلك الاتجاه. ففي الأحياء الإسلامية التي تتجمع حول شاندني تشوك كل الناس يقنعون بالنظر داخلاً إلى باحات منازلهم المحجوبة المجللة بالستائر، وأن يرخوا الستائر الخارجية على نوافذهم وشرفاتهم. وفي الأزقة الضيقة، كان المتسكعون من الشبان يتأبط بعضهم أذرع البعض ويمسك بعضهم بأيدي البعض الآخر ويتبادلون القبل حين يلتقون وقد وقفوا في حلقات تتجه نحو الداخل. لم يكن هنالك مروج خضراء وبالتالي ظل البقر بعيداً، وهو يعلم أنه غير مقدس في هذه الأماكن كما كانت أجراس الدراجات ترن باستمرار وبين أنفاسها المتنافرة كان يعلو صياح باعة الفواكه المتجولين «هيا جميعاً أيها الكبار ـ تناولوا شيئاً من الثمار..». علاوة على ذلك كله، جاء في ذلك الصباح الكانوني الذي كان فيه كل من والدي ووالدتي يخفي أسراراً عن الآخر، الوقع العصبي لخطا السيد مصطفى كمال والسيد س. ب. بوت وكذلك الدوي الشديد لطبل ليفافا داس.

حين بدأت أولى الخطوات تقعقع في أزقة الحي الضيقة، كان ليفافا داس، مع عرضه وطبله لا يزال على مسافة بعيدة. لقد خرجت الأقدام المقعقعة من سيارة صغيرة واندفعت باتجاه الأزقة الضيقة. في تلك الأثناء كانت أمي وهي في منزلها الواقع على الزاوية تقف في مطبخها تحرك الكشري[1] من أجل الفطور وتسترق السمع لحديث والدي وابنة عمه البعيدة زهرة، وكانت الأقدام تقعقع وهي تجتاز باعة الفواكه والمتسكعين الممسكين بعضهم بأيدي البعض الآخر، فسمعت أمي:

«.. أنتما عروسان جديدان، لكنني لم أستطع كبح نفسي عن المجيء لرؤية عروسك. كذلك ليس باستطاعتي أن أخبرك كم فوجئت يا عزيزي؟» وهكذا بينما كانت الأقدام تقترب، كان والدي يحمر خجلاً بالفعل. ففي تلك الأيام كان في ميعة صباه وذروة فتنته، شفته السفلى لم تكن قد نتأت كثيراً بالحقيقة، والخط بين حاجبيه كان لا يزال أثراً ضئيلاً وحسب.. وسمعت

(١) طعام هندي من أرز وحمص مسحوقين يمزجان معاً ويطبخان.

أمينة، وهي تحرك الكشري، زهرة وهي تزقو: «أوه انظر إلى لونك الوردي! انظر، كم أنت ساحر يا ابن العم!». بعدئذٍ سمح لها بالإصغاء إلى إذاعة عموم الهند من المذياع الرابض على الطاولة، الأمر الذي لم يكن قد سمح به لأمينة. كانت لا تاما نجيشكار تغني أغنية حب نادبة في حين تابعت زهرة «تماماً مثلي. ترى ألا تظن أنه سيكون لنا أطفال جميلون ورديو البشرة؟ إننا نناسب بعضنا تماماً، أليس كذلك يا ابن العم؟ زوجان أبيضان جميلان» وكانت الأقدام لا تزال تقعقع وما في المقلاة يُحرك وزهرة مستمرة «كم هو كريه أن تكون زوجتك سوداء يا ابن العم! أن تستيقظ كل صباح لتراها محملقة بك، برهان يعكس دونيتك. بالطبع، هم يعلمون. أجل، حتى السود يعلمون أن البيض خير منهم، ألا تظن ذلك؟». «الأقدام تقترب الآن، وأمينة تدخل غرفة الطعام والقدر في يدها، جاهدة كل الجهد أن تكبح جماح غضبها، مفكرة في نفسها، «لماذا أتت اليوم بالذات ولدي من الأخبار ما ينبغي أن أبوح به؟ كما أنني مضطرة لطلب النقود أمامها». فقد كان أحمد سيناء يحب كثيراً أن تطلب امرأته منه النقود، أن تنالها منه بالتملق المرفق بالمداعبات والكلمات العذبة إلى أن يشرع غطاء الطاولة بالارتفاع في حجره وكأن شيئاً تحرك في سرواله، ولم تكن تجد في ذلك بأساً، فقد تعلمت بدأبها ومواظبتها، أن تحب ذلك أيضاً وحين كانت تحتاج للنقود، كانت تقوم بالمداعبات فتبدأ:

«جانوم[1]، حياتي، من فضلك..»؛ أو «أيها الرجل السخي أعطني ما تشاء فأنا أعلم أنه سيكون كافياً..»، إلى آخر ما هنالك من أساليب شحاذي الشوارع، وكان عليها أن تفعل ذلك أمام تلك المرأة ذات العينين الأشبه بصحن الفنجان وذلك الصوت الجعجاع والثرثرة العالية عن السود والسواد. الأقدام وصلت إلى الباب تقريباً وأمينة في غرفة الطعام تحمل الكشري الساخن جاهزاً قريباً جداً من رأس زهرة السخيف. في تلك اللحظة تصرخ زهرة «باستثناء الحضور بالطبع» وهي غير واثقة مما إذا كانت قد سمعتها أم

(١) سيد.

لا، ثم تتابع «أوه، أحمد، يا ابن العم، أنت ستكون مريعاً حقاً إن فكرت أنني أقصد أمينتنا الحلوة التي ليست سوداء تماماً بل هي أشبه بسيدة بيضاء تقف في الظل». في حين تقف أمينة وقدرها في يدها تنظر إلى الرأس الجميل وتفكر: هل ينبغي؟ و. . . هل أجرؤ؟ ثم تهدئ نفسها بـ: إنه يوم عظيم بالنسبة إليّ، ثم إنها على الأقل أثارت مسألة الأولاد، وهكذا سيكون من السهل عليّ الآن أن. . . لكن يكون الوقت قد فات، فعويل الخادم العجوز، وهو يرد على الطارق. صوت لاتا يحجب أيضاً وقع الأقدام المضطربة المقعقعة وهي تصعد الدرج، لكن بغتة، تظهر أقدام السيد مصطفى كمال، والسيد س. ب. بوت وبنوع من التخبط تتوقف.

«الأوغاد يثيرون الشغب» يبدأ السيد كمال، الذي لم تر أمينة سيناء رجلاً أنحف منه في حياتها، بعبارات منمقة غريبة (مستمدة من ولعه بالمقاضاة، التي كان من نتيجتها إصابته بعدوى النغمة السائدة في المحاكم). ثم يضيف الضئيل الضعيف ذو الصوت الحاد س. ب. بوت، بشيء من التأني، هذه الكلمات الثلاث: «أجل، بق النار». في تلك اللحظة، وبرد فعل انعكاسي غريب، تضم زهرة المذياع إلى صدرها، كاتمة صوت لاتا بين نهديها، صارخة «يا إلهي، يا إلهي! أين البق هذا؟ في هذا البيت؟ أوه يا إلهي! أكاد أشعر بالحرارة». وتقف أمينة متجمدة والكشري في يدها محملقة بالرجلين في بزتهما الرسمية بينما ينهض زوجها، وقد ذهبت جلسته الحميمية إلى الجحيم، واثباً على قدميه، حليق الذقن لكن بغير بزة الخروج، ثم يسأل «مستودع البضائع؟» ما إن سأل أحمد سيناء سؤاله ذاك حتى خيم صمت كصمت القبور على الغرفة ولم يبق سوى صوت لاتا، بالطبع، وهو ينبعث من فتحة صدر زهرة، فأولئك الرجال الثلاثة كانوا شركاء في صرح كبير من تلك المستودعات المنتشرة في المنطقة الصناعية الواقعة في أطراف المدينة.

«لا، ليس مستودع البضائع، حماه الله». وفي الحال ابتهلت أمينة بالصلاة لله سراً، فتجارة الجلود والمشمعات كانت تدر ربحاً وفيراً ـ إذ كان أحمد سيناء من خلال الرائد ذو الفقار الذي أمسى معاون قائد في القيادة العسكرية في دلهي، قد وقع عقداً يقدم بموجبه سترات جلدية ومشمعات

طاولات للجيش نفسه ـ وكانت كميات كبيرة من المواد التي تتوقف عليها حياتهم ومعيشتهم مخزونة في ذلك المستودع. «لكن من تراه يفعل شيئاً كهذا؟» ولولت زهرة بصورة تتناغم مع نهديها المنطلقين بالغناء «أي مجانين أفلتوا في العالم هذه الأيام؟». وعلى هذا النحو سمعت أمينة، وللمرة الأولى، الاسم الذي كان زوجها قد أخفاه عنها، والذي كان في تلك الأيام يثير الهلع في كثير من النفوس «إنها الرافانا» قال بوت. . «لكن الرافانا اسم شيطان كثير الرؤوس، إذاً، هل خرجت الشياطين إلى الأرض؟ أي هراء هذا؟» تتكلم أمينة بكل ما أورثها والدها من كره للخرافات والأساطير، طالبة جواباً فيقدمه لها السيد كمال: «إنه اسم عصابة إرهابية، يا مدام، عصابة من الأوغاد الذين يحرقون ممتلكات الآخرين. هذه أيام كثيرة الاضراب والقلاقل يا مدام، كثيرة الاضطراب والقلاقل».

في مستودع البضائع، كدسة فوق كدسة من الأقمشة الجلدية، والبضائع التي يتعامل بها السيد كمال: أرز، شاي، عدس ـ إنه يجمعها من أنحاء البلاد بكميات كبيرة ويختزنها كشكل من أشكال الوقاية ضد الوحش كثير الرؤوس كثير الأفواه، ذلك الوحش الجشع المفترس الذي يدعى الشعب، والذي قد يفرض، إن كان الأمر بيده، أسعاراً منخفضة في أيام الوفرة إلى درجة تجعل تجاراً يخافون الله كهؤلاء يموتون جوعاً بينما يرتع ذلك الوحش ويسمن. . !! «الاقتصاد يقوم على الندرة» يبدأ السيد كمال المناقشة «لهذا السبب فإن مخزوناتي لا تبقي الأسعار في مستوى معقول وحسب بل تثبت بنية الاقتصاد ذاتها». ـ إذاً، هناك في مستودع البضائع، بضاعة السيد بوت المكدسة والمعلبة في كرتون يحمل عبارة «ماركة آ آ جـ» ولا حاجة بي لأن أقول لكم أن آ آ جـ تعني النار. فالسيد هو صاحب مصنع للكبريت.

«معلوماتنا» يقول السيد كمال «تكشف فقط عن حقيقة واحدة هي أن هناك حريقاً في المنطقة. المستودع نفسه لم يذكر بالتحديد».

«لكن لماذا ينبغي أن يكون مستودعنا؟» يقول أحمد سيناء «لماذا، طالما أن أمامنا وقتاً للدفع؟».

«دفع؟» تتدخل أمينة فجأة «دفع لمن؟ أيها الزوج، يا سيدي وحياتي، قل

لي ماذا يجري هنا؟». لكن السيد بوت يقول على عجل: «علينا أن نذهب». فيغادر أحمد سيناء بسرواله الليلي المجعد وما يلبسه في المنزل فقط، وتندفع معه الأقدام المقعقعة، مخلفاً وراءه الكشري الذي لم يمسه أحد والنساء الجاحظات الأعين ولاتا المكتومة الأنفاس وقد علق في جو الغرفة اسم الرافانا.. «عصبة الأشرار، قاطعي الطرق السفاحين» وكلمات السيد بوت المرتعشة، الأخيرة «بقات نار من الهندوس الملونين، أيتها السيدة البيجوم[1]، فماذا يسعنا، نحن المسلمين، أن نفعل؟».

ما الذي كان معروفاً عن عصبة الرافانا؟ المعروف هو أنها حركة متعصبة معادية للمسلمين، وفي الأيام التي سبقت اضطرابات التقسيم، حين كانت رؤوس الخنازير تلقى في باحات المساجد أيام الجمعة ولا يعاقب فاعليها أحد، لم يكن وجود عصبة كهذه أمراً غير عادي. لقد كانت ترسل أزلامها في حلكة الليالي كي يكتبوا الشعارات على جدران المدينة القديمة والجديدة: لا تقسيم! المسلمون يهود آسيا! وهلم جرّاً. والمعروف أيضاً أنها كانت تحرق مصانع المسلمين وحوانيتهم ومستودعاتهم. لكن ثمة ما هو أكثر من ذلك، وهذا ما لا يعرفه عامة الناس: فخلف هذه الستارة من الكراهية العرقية، كانت عصبة الرافانا مشروعاً تجارياً تم التخطيط له بذكاء، إذ كانت تأتي هواتف من مجهولين وتكتب رسائل بكلمات قصت من الجرائد إلى رجال الأعمال المسلمين يخيرون فيها بين أن يدفعوا مبلغاً نقدياً لمرة واحدة فقط أو أن تلتهم النيران معاملهم أو حوانيتهم ومستودعاتهم. وكان معظم الناس يدفعون مفضلين ذلك على التعرض لخطر البديل الآخر ألا وهو تسليم أمرهم للشرطة. ففي عام ١٩٤٧ لم يكن المسلمون يثقون كثيراً بالشرطة: إذ يقال (رغم أنني لست متأكداً كثيراً من هذا الأمر) إنه حين كانت تصل رسائل الابتزاز، كانت تأتي مع قائمة «بالزبائن الطيبين» الذين دفعوا وحافظوا على أعمالهم. فعصبة الرافانا ـ شأنها شأن كل المحترفين ـ كانت تقدم المراجع.

رجلان في بزة العمل وآخر منامة، راحوا يجرون عبر أزقة الحي

(١) لقب يطلق على السيدات ذوات المقام الرفيع في الهند.

الإسلامي الضيقة، متوجهين إلى السيارة الصغيرة التي كانت تنتظرهم عند شاندني تشوك، لافتين إليهم النظرات المستغربة: ليس بسبب ملابسهم المتباينة وحسب، بل لأنهم كانوا يحاولون ألا يركضوا. «لا تدع الهلع يظهر عليكم» قال السيد كمال «تظاهروا بالهدوء». لكن أقدامهم كانت تخرج أحياناً عن سيطرتهم فيندفعون. وهكذا، بخطوات مسرعة أحياناً وخطوات مشي منتظمة أحياناً أخرى، غادر الرجال الثلاثة المحلة عابرين بشاب يدفع صندوقاً معدنياً أسود، صندوق فرجة ذا عجلات، شاب يمسك بطبلة في يده ويدق: إنه ليفافا داس، وهو في طريقه إلى مكان الإعلان الهام الذي يستمد منه هذا الفصل اسمه. فقد كان ليفافا داس يدق بطبلته وينادي: «تعالوا، تفرجوا على كل شيء تعالوا وانظروا، تعالوا انظروا، تفرجوا على دلهي. تفرجوا على الهند، تعالوا وانظروا، تعالوا وانظروا!».

غير أنه كان لدى أحمد سيناء أشياء أخرى ينبغي النظر إليها. وكان لأولاد المحلة أسماؤهم الخاصة التي يطلقونها على معظم السكان المحليين، فهناك مجموعة من ثلاثة جيران تعرف باسم «أصحاب الديكة المتصارعة»، نظراً لأنها تضم عائلة سندية وأخرى بنغالية يفصل بينهما منزل أحد الهندوس القلائل في المحلة. لم يكن بين السندي والبنغالي من أشياء مشتركة إلا ما ندر، فهما لا يتكلمان اللغة نفسها ولا يطهوان الطعام نفسه، لكن كليهما كان مسلماً وكان كلاهما يكره الهندوسي الدخيل. لذا كانا يلقيان بالفضلات على منزله من فوق السطوح. وكانا يقذفانه بشتى أنواع المسبات من نوافذهما كما كانا يلقيان بقطع اللحم على بابه... أما هو، فكان يستأجر أولاد الشارع كي يقذفوهما بالحجارة، الحجارة التي كانت تخترق نوافذهما ملفوفة برسائل تقول «مهلاً... سيأتي دوركم».. ولم يكن أولاد المحلة ينادون أبي باسمه الحقيقي... إذ كانوا يعرفونه باسم «الرجل الذي لا يستطيع اللحاق بأنفه».

كان أحمد سيناء ذا حس ضعيف بالاتجاه إلى درجة لو ترك معها وشأنه لأضاع نفسه في أزقة حيه الكثيرة الالتفافات والتعرجات. وكثيراً ما كان يلتقي به أولاد الشارع في أحد الأزقة وهو يطوف على غير هدى، فيعرض على أحدهم قطعة نقود مقابل إيصاله إلى البيت. إنني أذكر هذا لأنني أعتقد أن

موهبة والدي في فقدان اتجاهه لم تؤثر فيه طيلة حياته وحسب بل كانت أيضاً سبباً في جذبه لأمينة سيناء (فهي أيضاً، والفضل لنادر خان بالطبع، كانت قد أبدت قدرة واضحة على إضاعة اتجاهها أيضاً) لكن الأنكى من ذلك أن عجزه عن اللحاق بأنفه انتقل إلي، وإلى حد أضاع ما ورثته من قوة حاسة الشم من جهات أخرى، وجعلني سنة بعد سنة عاجزاً عن التعرف إلى الطريق الصحيح. . لكن حسبنا ذلك الآن، فقد أعطيت رجال الأعمال الثلاثة من الوقت ما يكفي للوصول إلى المنطقة الصناعية. لكنني سأضيف فقط أن والدي (نتيجة لافتقاره لحس الاتجاه الصحيح برأيي) كان رجلاً ينبعث منه حتى في لحظات انتصاره، رائحة الفشل المستقبلي، رائحة التوجه الخاطئ الذي كان ينتظره لدى أول منعطف، تلك الرائحة التي لم تكن تزيلها كل حماماته. أما السيد كمال، الذي كان يشتم تلك الرائحة، فكان يقول في جلساته الخاصة مع السيد س. ب. بوت: «هذه النماذج، هؤلاء الكشميريون يا عجوزي: من المؤكد أنهم لا يغتسلون قط».

هنا تقوم الصلة بين والدي وذلك النوتي تاي. . . تاي الذي دفعه الغضب المدمر لذاته لأن يمتنع عن تنظيف نفسه.

في المنطقة الصناعية كان الحراس الليليون ينامون بهدوء في قلب الضجة التي تثيرها آلات الإطفاء. كيف؟ لماذا؟ لأنهم عقدوا صفقة مع الرافانا: يأخذون علماً بوصول العصابة الخطرة، فيلجأون إلى النوم، ساحبين أسرتهم الخفيفة بعيداً عن أبنية المنطقة. بهذه الطريقة كانت العصابة تتفادى العنف، وكان الحراس الليليون يزيدون من أجورهم الهزيلة، وكان ذلك ترتيباً مستحسناً لا يخلو من الذكاء.

بين الحراس الليلين النائمين، راح أبي والسيد كمال والسيد بوت يرقبون الدراجات المحترقة وهي تنقذف في الجو تلفها سحابات كثيفة من الدخان. كانوا يقفون إلى جانب سيارات الإطفاء، والانتعاش يغمر قلوبهم، فقد كان مستودع آرجونا أنديابيك هو الذي يحترق ـ وآرجونا هذا اسم بطل من أبطال الأساطير الهندوسية، لكنه فشل في إخفاء الحقيقة وهي أن الشركة من ممتلكات المسلمين. وهكذا، وقد غسل أنفسهم الانتعاش، راح أبي،

كمال، بوت يتنشقون الهواء المفعم بالدراجات المحترقة، ويسعلون ويجمجمون بينما كان دخان العجلات المرمدة، والذرات المتبخرة من السلاسل، الأجراس، الأسرجة، المقاود، الهياكل المشوهة لدراجات آرجونا أنديابيك، تدخل رئاتهم وتخرج منها. وكان قد سمِّر على عمود التلغراف أمام مستودع البضائع الملتهب قناع من الكرتون القاسي ـ قناع كثير الأوجه ـ قناع شيطاني ذو أوجه عديدة متداخلة لها شفاه عريضة منقلبة ومناخير حمراء لامعة: أوجه الوحش ذي الرؤوس الكثيرة، رافانا ملك الشياطين، وهو ينظر غاضباً من عليائه إلى أجسام الحراس الليليين الغارقين في سباتهم إلى درجة لم يجد معها أحد من الإطفائيين أو كمال أو والدي أو بوت الشجاعة الكافية لإقلاقهم في الحين الذي كان فيه رماد الدواسات والأطر الداخلية يتساقط عليهم من السماء.

«عمل سيئ لعين» قال السيد كمال. ولم يكن ذلك من باب المشاركة الوجدانية والتعاطف مع أصحاب شركة آرجونا أنديابيك، بل من باب اللوم والانتقاد. انظروا: سحابة الكارثة (التي كانت بمثابة إنعاش أيضاً) تتصاعد وتتجمع مثل كرة في سماء الصباح الباهتة الألوان، انظروا كيف تندفع باتجاه الغرب إلى قلب المدينة القديمة، كيف تشير، يا الله! مثل إصبع مؤشرة إلى محلة المسلمين قرب شاندني تشوك! حيث... كان ليفافا داس في تلك اللحظة تماماً ينادي على صندوق دنياه: في زقاق سيناء نفسه.

«تعالوا تفرجوا على كل شيء، تفرجوا على العالم كله، تعالوا تفرجوا!».

لقد حان الوقت تقريباً للإعلان العام، ولا أنكر أنني منفعل مضطرب، فقد طوفت طويلاً في الدروب الخلفية لقصتي، ورغم أنه لا يزال ثمة بعض الوقت قبل الخوض في الأمر، إلا أن من المستحسن إلقاء نظرة إلى الداخل. وهكذا أتتبع بإحساس من التوقع الرفيع، الإصبع المشيرة في السماء، ثم أتطلع إلى الأسفل، إلى حي والدي، ناظراً إلى الدراجات والباعة المتجولين في الشوارع الذين يلفّون غراماً من اللحم المشوي في لفات من الورق، ناظراً إلى متسكعي الشوارع، الممسكين بعضهم بأيدي البعض الآخر، البارزة

أكفالهم إلى الخارج وإلى قصاصات الورق المتطايرة وأسراب الذباب المتجمعة حول أكشاك الحلويات. . . وقد رسمت كلها بخطوط بارزة أمام عيني الناظرة من السماء كما ترى عيني أولاداً، أسراباً منهم، تجذبهم إلى الشارع الدقات السحرية لطبل ليفافا داس وصوته المنادي «ديلي ديخو» تعالوا تفرجوا على العالم كله، وترى أولاداً بلا سراويل قصيرة، فتيات بلا قمصان، وآخرين: أطفالاً أرقى بصديرياتهم المدرسية البيضاء، وسراويلهم القصيرة المشدودة بأحزمة مطاطية ذات بكلات أفعوانية الشكل، وصبياناً صغاراً سماناً ذوي أصابع ثخينة قصيرة، والكل يندفع إلى صندوق الدنيا الأسود ذي الدواليب ومن بينهم تلك الفتاة المتميزة، تلك الفتاة ذات الحاجبين الكثين الطويلين المتصلين اللذين يظللان عينيها، ابنة الثماني سنوات وذلك السندي الجلف نفسه الذي يرفع على سطح منزله علم باكستان تلك البلاد التي لا تزال من صنع الخيال، والذي يقذف بأقذع الشتائم، في حين تندفع ابنته إلى الشارع، على وجهها ملكة قزمة وخلف شفتيها تماماً تختفي جريمة قتل. ما اسمها؟ لا أعرف. . . لكنني أعرف هذين الحاجبين. ليفافا داس: الذي كان بمصادفة سيئة قد نصب صندوق دنياه على جدار رسم عليه أحدهم صليباً معقوفاً (وفي تلك الأيام كنت ترى الصلبان المعقوفة في كل مكان. فحزب الـ«ر.س.س.» المتطرف كان يرسمها على كل جدار، ليس الشعار النازي الذي كانت أطراف صليبه تنعقف بطريقته الخاصة تلك، بل ذلك الصليب الهندوسي القديم الذي يرمز للقوة). . . وليفافا داس ذاك الذي احتفلت بمقدمه كثيراً هو شاب من المتعذر رؤيته إلى أن يبتسم، وحين يصبح جميلاً أو يخشخش بطبلته يغدو من الصعب أن يقاومه الأطفال. ورجال الدقدقة: في كل أنحاء الهند يصيحون بعالي أصواتهم «ديلي ديخو»: «تعالوا تفرجوا على دلهي» لكن لفافا داس في دلهي، لهذا كان عليه أن يبدل نداءه تبعاً للموقف فبدله، «تعالوا تفرجوا على العالم كله. . . تعالوا تفرجوا على كل شيء»، وبعد حين، تبدأ صيغ المبالغة بافتراس ذهنه، المزيد والمزيد من الصور يمر في صندوق دنياه، وهو يحاول يائساً أن يقدم ما وعد به، أن يضع كل شيء في صندوقه (وفجأة يذكرني ذلك بصديق نادر خان الرسام: أهو

مرض هندي ذلك التلهف لاحتواء الحقيقة كاملة؟ والأسوأ: هل أصبت بعدواه أيضاً؟).

داخل صندوق ليفافا داس كانت ثمة صور لتاج محل، معبد ميناكشي، والغانج المقدس، لكن إضافة إلى تلك المشاهد الشهيرة كان صاحب صندوق الدنيا يشعر باللهفة لتقديم صور أكثر عصرية ـ ستافورد كريبز وهو يغادر منزل نهرو، أشياء لا تلمس وقد غدت في متناول اليد، أشخاص متعلمون وهم ينامون بأعداد كبيرة على خطوط السكك الحديد، ممثلة أوروبية شهيرة وجبل من الفواكه على رأسها ـ كان ليفافا يدعوها كارمن فيراندا، بل كان هنالك أيضاً صورة فوتوغرافية من إحدى الصحف لحريق في المنطقة الصناعية. لم يكن ليفافا داس يؤمن بأن يحجب عن أعين جمهوره معالم العصر غير ـ السارة أحياناً. . . وحين كان يأتي إلى تلك الأزقة، غالباً ما كان يأتي الكبار كالصغار تماماً لرؤية ما يعرضه صندوقه ذو الدواليب، ولعل أكثر زبائنه الكبار تردداً إنما كانت البيجوم أمينة سيناء.

لكن في هذا اليوم، ثمة شيء هستيري في الجو، شيء مشؤوم ينذر بالخطر، خيم بجناحيه على المحلة كسحابة أنديابيك المحترقة «المعلقة في السماء». . . وها هو ذا ينطلق من عقاله في الوقت الذي ترفع فيه تلك الفتاة ذات الحاجبين الكثين المتصلين، بصوتها الطفولي المفتقد للبراءة «أنا أولاً. . . ابتعدوا عن طريقي. . . دعوني أرَ! أنا لا أستطيع الرؤية!». نظراً لأن أعيناً أخرى كانت قد سبقتها إلى ثقوب الصندوق، وأطفالاً آخرين كانوا مستغرقين في مراقبة سيرورة الصور، وليفافا داس يقول (بلا توقف في عمله ـ فهو يستمر وعلى نحو صحيح بتدوير القبضة التي تجعل الصور تتحرك داخل الصندوق): «بضع دقائق يا صغيرتي، كلكم ستتفرجون، انتظري فقط»، وتجيب الملكة القزمة ذات الحاجب المتصل «لا. . لا. . . أريد أن أتفرج أولاً». ويكف ليفافا عن التبسم ـ يغدو متعذر الرؤية ـ يرتجف. ويظهر سخط لا يمكن كبحه على وجه الملكة القزمة. ثم تندلع شتيمة، شعرة قاتلة ترتعش على شفتيها «تتجرأ وتأتي إلى هذا الحي؟ أنا أعرفك: والدي يعرفك: الجميع يعرفون أنك هندوسي».

يقف ليفافا صامتاً، يدير مقابض صندوقه، لكن الفتاة ذات الحاجبين المتصلين تكون قد بدأت بالهتاف مشيرة بأصابع قصيرة سمينة، وقد انضم إليها الصبية بصديرياتهم المدرسية البيضاء وبكل أحزمتهم الأفعوانية «هندوسي، هندوسي»، فترتفع ستائر النوافذ الخارجية ويمد والد الفتاة جسمه من نافذته مشاركاً في الهتاف، قاذفاً هدفه الجديد بأقذع السباب كما ينضم البنغالي مشاركاً بلغته البنغالية. . . «يا مغتصب أمه، يا منتهك أعراضنا»، وتتذكر أخرى ما كتبته الجرائد عن الهجمات على أولاد المسلمين، فيزعق، فجأة، صوت امرأة لعله صوت زهرة السخيفة: «المغتصب! فضاح الأعراض! يا إلهي! لقد وجدوا الرجل الفاسد! ها هو ذا»، ويطغى على المحلة كلها جنون سحابة الدخان المنطلقة في السماء كإصبع مشيرة وكذلك أوهام الزمن المفككة كلها، وتتردد أصداء الصرخات من كل صوب ويبدأ تلاميذ المدارس بالهتاف «سفاح النساء، سفاح النساء!!» دون أن يعرفوا المعنى الحقيقي لما يهتفون به. الأولاد يبتعدون عن ليفافا داس وهو يتحرك أيضاً، جاراً صندوقه ذا الدواليب، محاولاً الابتعاد لكنه في تلك اللحظة يجد نفسه محاطاً بأصوات مشبعة برائحة الدم، متسكعو الشوارع يتحركون باتجاهه، رجال عابرون ينزلون عن دراجاتهم وقدر تطير في الهواء ثم ترتطم بجدار إلى جواره، فيستند بظهره إلى بوابة منزل بينما يكشر رجل، ذو شعر مشبع بالزيت، في وجهه وهو يقول: «هكذا يا سيد، أنت إذاً؟ أيها السيد الهندوسي، أنت من يفضح أعراضنا، أنت السيد الوثني الذي ينام مع أخته؟» فيرد ليفافا داس «لا، حباً بـ. .» وهو يبتسم كالأحمق. . . ثم ينفتح الباب خلفه فيهوي إلى الوراء، إلى ممر بارد مظلم بجانب أمي أمينة سيناء.

كانت أمينة قد قضت الصباح وحيدة مع زهرة المقهقهة وأصداء اسم الرافانا دون أن تعرف ما حدث في المنطقة الصناعية، تاركة ذهنها يجتاز على مهل الطريق الذي بدا وكأن العالم كله يجتازه إلى الجنون، وحين بدأ الصراخ والزعيق وشاركت فيه زهرة ـ قبل أن يكون بالإمكان إيقافها ـ شعرت أمينة بشيء ما في داخلها، يقين ما بأنها ابنة أبيها، ذكرى ما لشبح نادر خان وهو يهرب بجلده من السكاكين الهلالية مختفياً في حقل ذرة، تهيج ما في مجاريها

الأنفية، وهكذا نزلت إلى الطابق السفلي لتكون المنقذة رغم صراخ زهرة بها «ماذا تفعلين يا أختاه؟ ذلك الوحش المسعور، بحق الله، لا تدعيه يدخل هنا. يا إلهي! هل جننت؟». . . لكن أمي فتحت الباب، فهوى ليفافا داس إلى الداخل.

أتصورها ذلك الصباح، ظلاً قاتماً بين الغوغاء وفريستها، رحمها يتفجر بسرها الخفي الذي لا يباح: «واه! واه!» هتفت بالجمهور «يا لكم من أبطال! صناديد! أقسم إنكم لصناديد، خمسون واحداً فقط ضد هذا المسكين؟ الله! إنكم تجعلون عيني تتألقان، كبراً واعتزازاً».

. . . وتصرخ زهرة «ارجعي يا أختاه» بينما يصرخ ذو الشعر الزيتي «لماذا تدافعين عن هذا الوغد أيتها السيدة؟ هذا ليس عملاً صحيحاً» فترد أمينة: «أنا أعرف هذا الرجل إنه إنسان عفيف، هيا، اخرجوا ليس لكم ما تفعلون هنا. أفي حي مسلم تمزقون رجلاً إرباً إرباً؟ هيا. . . ابتعدوا من هنا». لكن سرعان ما تزول عن الحشد صدمة المفاجأة فيتحرك إلى الأمام كرة ثانية وحينذاك يأتي الحدث. ففي تلك اللحظة صرخت أمي. . «اسمعوا، اسمعوا جيداً. إنني امرأة حامل، أم ستنجب ولداً قريباً وإنني أبسط حمايتي على هذا الرجل. فهلموا. . تعالوا، إن شئتم أن تقتلوه فاقتلوا أماً وبينوا للعالم رجولتكم!».

تلكم هي الكيفية التي تم بها الإعلان عن مجيئي ـ أنا المدعو سليم سيناء ـ لجماهير الناس المحتشدة قبل أن يسمع والدي به. فمنذ اللحظة التي حملت أمي بي كانت لي، على ما يبدو، ميزة الشهرة بين الناس.

لكن رغم أن أمي كانت على صواب في إصدارها ذلك الإعلان العام، إلا أنها كانت على خطأ أيضاً، وإليكم السبب: فالصبي الذي وضعته لم يثبت أنه ابنها.

لقد جاءت والدتي إلى دلهي، عملت بمواظبة شديدة على أن تحب زوجها، منعتها زهرة والكشري والأقدام المقعقعة من أن تنقل لزوجها الخبر، ثم سمعت صراخاً فأعلنت إعلانها العام، وقد فعل ذلك فعله، فالإعلان عن مجيئي أنقذ روحاً من الهلاك.

بعد تفرق الحشد، ذهب موسى، الخادم العجوز، إلى الشارع وأنقذ صندوق ليفافا داس أيضاً، في حين قدمت أمينة للشاب مع ابتسامة جميلة كأساً تلو الأخرى مع شراب الليمون الطازج إذ بدا وكأن محنته لم تمتص كل ما في جسمه من سوائل وحسب بل ومن سكر أيضاً، فقد كان يضع أربع ملاعق من السكر في كل كأس، بينما كانت زهرة تتكوم على «الصوفا» غارقة في نوع من الهلع. أخيراً قال ليفافا (الذي استعاد مائية جسمه بما تناول من شراب الليمون، وسكرياته بما أخذ من سكر):

«سيدتي البيجوم، أنت امرأة عظيمة، إنني، إن سمحت، أبارك منزلك وكذلك جنينك. لكنني ـ واسمحي لي من فضلك ـ سأفعل شيئاً آخر من أجلك». «أشكرك» ردت أمي «لكن ليس عليك أن تفعل شيئاً على الإطلاق».

لكنه تابع (فحلاوة السكر كانت تغطي لسانه): «ابن عمي، شرى رامرام سيث، هو عراف عظيم يا سيدتي البيجوم، يبصر بالكف، ينجم بالفلك، يتنبأ بالمستقبل، من فضلك، تعالي إليه، ولسوف يكشف لك عن مستقبل ابنك».

عرافون ينبئون بمجيئي. . . في كانون الثاني ١٩٤٧، عرض على والدتي أمينة سيناء هبة نبوءة مقابل هبة الحياة التي قدمتها ورغم اعتراض زهرة وقولها «من الجنون أن تذهبي مع هذا الرجل، يا أخت أمينة، فكري قليلاً بالأمر يا أمينة، فالمرء يجب أن يكون حذراً في مثل هذه الأوقات»، ورغم ذكرياتها عن تشكك والدها بمثل هذه الأمور وإمساكه بين الإبهام والسبابة بأذن الملا معلم الديانة، فقد مس العرض والدتي في الصميم، الأمر الذي جعلها تجيب بالإيجاب، وهكذا، وقد وجدت نفسها مفعمة بدهشة لا منطقية عن أمومتها الجديدة التي لم تكن قد تأكدت منها إلا في تلك اللحظة، قال له أخيراً: «ليفافا داس، من فضلك قابلني بعد أربعة أيام عند البوابة المؤدية إلى القلعة الحمراء حيث نذهب من هناك إلى ابن عمك».

«لأنتظرنك كل يوم» قال الرجل وهو يضم راحتيه معاً، ثم غادر المنزل، ولقد تملكت زهرة الدهشة إلى درجة لم تستطع معها، حين عاد أحمد سيناء إلى المنزل، إلا أن تهز رأسها قائلة: «أنتما أيها العروسان الجديدان، أيها المجنونان كبومتين، ينبغي أن أدعكما الواحد للآخر».

أما موسى، الخادم العجوز، فقد أبقى فمه مقفلاً أيضاً. وقد ظل كذلك في خلفية حياتنا بصورة دائمة، ما عدا مرتين... مرة حين غادرنا ومرة حين عاد ليدمر العالم بمحض المصادفة.

وحوش متعددة الرؤوس

ما لم يكن هنالك، بالطبع، شيء اسمه المقدور وفي هذه الحالة، يكون موسى بكل شيخوخته وخنوعه، أشبه بقنبلة موقوتة، تتكتك تكتكتها الخفية بانتظار موعدها المحتوم ويتعين علينا في هذه الحالة أيضاً، أن ننهض ونهتف وكلنا تفاؤل. ذلك أنه كان كل شيء مخططاً سلفاً، فحينذاك سيكون لنا كلنا معنى ما، وسنوفر على أنفسنا هول معرفتنا بأننا سدى، عبث، بلا داع أو سبب. أقول ما لم يكن هنالك مقدور، فإنه لن يبقى هناك سوى الحظ والمصادفة، وفي هذه الحالة علينا... بكل تشاؤم، أن نتوقف هنا، في هذه اللحظة تماماً، ونحن ندرك عقم التفكير والقرار والفعل. نظراً لأنه ما من شيء نفكر به سيؤدي إلى حدوث أي اختلاف في مجريات الأمور. فكل شيء سيجري طبقاً لقوانين الحظ والمصادفة. أين، إذاً، هو التفاؤل؟ في الإيمان بالقدر أم بالفوضى؟ هل كان والدي متفائلاً أم متشائماً حين نقلت له أمي نبأها (بعد أن سمع به كل من في الحي) وأجابها: «ألم أقل لك إنها مسألة وقت لا غير»، كان حمل والدتي بي، على ما يبدو، من صنع القضاء والقدر، كما أن مولدي يدين بقدر كبير للمقدور على أي حال.

«لقد كانت مسألة وقت لا غير» قال والدي وعليه كل مظاهر السرور، لكن الزمن قضية لا يركن إليها، شيء لا يعتمد عليه، بحسب تجربتي. إذ يمكن حتى تقسيمه والتلاعب به فتسبق الساعات في الباكستان نظيراتها في الهند نصف ساعة... والسيد كمال الذي لم يرغب يوماً في أن يكون له شأن بالتقسيم، كان مولعاً بالقول: «هذا برهان على سخف الخطة. لقد خطط

رجال العصبة الإسلامية أولئك لاختلاس ثلاثين دقيقة كاملة. لكن الزمن لا يقبل التقسيم والتلاعب»، عندها صرخ السيد كمال «ذلك ضرب من التذكرة» فقال السيد بوت: «إن كان باستطاعتهم التلاعب بالزمن على هذا النحو، فما هو الحقيقي بعد ذلك؟ أنا أسألك: ما هو الصحيح؟».

وأجيب عبر السنين التي لا يمكن الاعتماد عليها، أجيب على السيد بوت، الذي انشقت حنجرته في مظاهرات التقسيم وفقد الاهتمام بالزمن: ما هو حقيقي وما هو صحيح ليسا الشيء ذاته حكماً. فالصحيح، بالنسبة إلي، كان منذ أيامي الأولى، يكمن في القصص التي حكتها لي ماري بيريرا: ماري مربيتي التي لم تكن أمي ولكنها أكثر من أمي في الوقت نفسه، ماري التي كانت تعرف كل شيء عنا جميعاً. الصحيح هو شيء مخفي تماماً خلف الأفق الذي كانت تشير إليه إصبع صياد السمك في الصورة المعلقة على جداري، حيث يصغي رالي الشاب إلى حكاياته، الآن، وأنا أكتب هذا في بركة ضوئي الركني أحسب ما هو صحيح بالقياس لتلك الأشياء الأولى:

فهل هذه هي الكيفية التي كانت ستحكيها بها؟ إنني أتساءل: هل هذا ما كان سيقوله ذلك الصياد؟... وطبقاً لتلك المقاييس، فإن الصحيح صحة لا يمكن نكرانها أن أمي، في يوم من أيام كانون الثاني ١٩٤٧، سمعت كل ما يتعلق بي قبل ستة أشهر من ظهوري إلى عالم النور، في حين كان والدي يجابه ملك الشياطين.

انتظرت أمينة اللحظة المناسبة لقبول العرض الذي قدمه ليفافا داس، لكن أحمد سيناء، ظل يومين بعد احتراق مصنع أنديابيك مقيماً في المنزل لا يفارقه، منقطعاً عن مكتبه في مركز كونوت، وكأنما ينأى بنفسه عن مواجهة غير سارة. لمدة يومين، ظلت حقيبة النقود الرمادية ممددة، خفية، كما كان يظن في مكانها تحت الفراش، دون أن تبدو عليه أية رغبة في الكلام عن أسباب وجودها، وهكذا قالت أمينة لنفسها: «.. ليكن ما يشاء، فما يعنيني؟». إن لها سرها أيضاً، سرها الذي ينتظرها بفارغ صبر قرب بوابات القلعة الحمراء في أطراف شاندني تشوك.

لقد احتفظت أمي بليفافا لنفسها، مقطبة حاجبيها بنوع من المشاكسة

السرية، مناقشة الأمر في سرها. «إن لم يقل لي ما الذي حصل له، وإلى أن يقوله ليس عليّ أن أخبره أنا، بل لماذا أخبره؟».

بعدئذٍ وفي إحدى ليالي كانون الثاني الباردة، قال أحمد سيناء: «عليّ أن اخرج هذه الليلة». ورغم اعتراضاتها بأن الطقس بارد وأنه سيصاب بالزكام فقد ارتدى بزة عمله وارتدى معطفاً أخفى تحته الحقيبة الرمادية الغامضة التي برزت على شكل كتلة واضحة تدعو للضحك: «لف نفسك كيلا تبرد». قالت هي مرسلة إياه حيث كان ذاهباً، سائلة إياه: «هل ستتأخر؟»، فأجاب: «أجل، بالتأكيد». وهكذا بعد خمس دقائق من مغادرته، انطلقت أمينة نفسها على القلعة الحمراء، ملقية بنفسها في خضم الخطر والمغامرة، رحلة بدأت في القلعة وأخرى كانت ستنتهي عندها، لكنها لم تنته. واحدة تنبأت بالمستقبل، والأخرى حددت موقعه الجغرافي. في الرحلة الأولى، كانت القردة ترقص على نحو مسلٍ، ورغم أن قرداً ثانياً كان يرقص في المكان الآخر، إلا أن رقصته كانت ذات نتائج مفجعة. وفي كلتا المغامرتين، لعبت النسور دوراً وكانت الوحوش المتعددة الرؤوس تختفي في نهاية كلا الطريقين.

في لحظة من الزمن إذاً... كانت هناك أمينة سيناء تقف تحت أسوار القلعة الحمراء العالية حيث كان المغول يحكمونها في يوم من الأيام، وحيث سيتم الإعلان عن مولد أمة جديدة... لم تكن أمي حاكمة أو رسولاً، لكنها مع ذلك تلقى استقبالاً ملؤه الحرارة (رغم برودة الطقس) إذ يهتف ليفافا داس، مع آخر ضوء للنهار «سيدتي البيجوم أوه، شيء رائع أنك جئت». فتومئ إليه مسربلة بسار أبيض على بشرة سوداء، مشيرة إلى سيارة الأجرة فيتوجه إلى الباب الخلفي لكن السائق ينهره: «ماذا تظن؟ من تحسب نفسك؟ تعال هنا، اصعد إلى المقعد الأمامي أيها اللعين، ودع السيدة تجلس في الخلف». وهكذا تقتسم أمينة مقعدها الخلفي مع صندوق الدنيا ذي الدواليب في حين يعتذر ليفافا داس «.. آسف يا سيدتي البيجوم.. ليس حسن النية بالمسيء».

لكن ثمة سيارة أجرة أخرى، ترفض انتظار دورها، تتوقف خارج قلعة

أخرى لتفرغ حمولتها المؤلفة من ثلاثة رجال ببزات عمل، وكل منهم يحمل حقيبة رمادية منتفخة تحت معطفه... واحد منهم طويل كعمر مديد ونحيف ككذبة، والثاني يبدو وكأنه بلا عمود فقري، أما الثالث فشفته السفلى ناتئة وكرشه يميل للاندلاق وشعره رقيق ولزج يلتف كالديدان حول أذنيه وبين حاجبيه أخدود محمل بالأسرار طفق مع تقدم الزمن يتعمق ويتعمق ليعطي الرجل انطباع رجل غاضب عنيف. سائق السيارة يغلي غلياناً رغم البرد «بورانا كيلا» يصرخ السائق «من فضلكم، انزلوا جميعاً. هذه هي القلعة القديمة»... فهناك مدن كثيرة تتكون منها دلهي والقلعة القديمة، تلك البقايا الأثرية المسودة، هي دلهي العتيقة التي تبدو مدينتنا القديمة إلى جانبها مجرد طفل تحمله بين ذراعيها، وإلى البقايا الأثرية الغارقة في القدم جاء بالسيد كمال وبوت وأحمد سيناء هاتف من مجهول أمرهم قائلاً: «هذه الليلة. القلعة القديمة بعد غروب الشمس تماماً. لكن بلا شرطة... وإلا طار مستودعكم». وهكذا تحرك الرجال الثلاثة وهم يقبضون على حقائبهم الرمادية، داخل ذلك العالم المتقوض العتيق.

* * *

تجلس أمي، وهي متشبثة بحقيبة يدها، إلى جانب صندوق الدنيا، في حين يركب ليفافا داس في المقدمة إلى جانب السائق الغضوب المحتار، ويوجه السيارة داخل الشوارع إلى أن يصل إلى الجانب الآخر من مكتب البريد العام، وحين تدخل تلك الممرات التي أكل فيها الفقر الإسفلت كالقحط، والتي يعيش فيها الناس حياة خفية تعجز العين عن رؤيتها (فهم يشاركون ليفافا داس لعنة السرية لكن ليس لأحد منهم ابتسامته الجميلة)، حينها يبدأ شيء ما بمراودة خاطرها. فتأثير وضغط تلك الشوارع التي تضيق دقيقة بعد الأخرى وتزداد ازدحاماً شبراً بعد شبر، أضاعت أمي «بصرها المديني»، وحين يكون لديك «البصر المديني» هذا يتعذر عليك أن ترى الناس الخفيين، كما يتعذر على المصابين بتضخيم جلود أقدامهم والشحاذين الملتجئين إلى الشاحنات الصندوقية أن يمسوك مساً وثيقاً، كذلك يستحيل على المقاطع الاسمنتية التي ستكون أنابيب مجارير في المستقبل أن تبدو لك

مهاجع للنوم. فقدت أمي عينيها المدينيتين فأضفت عليها غرابة ما ترى حمرة الخجل: أولئك الأطفال الساحرون لهم أسنان سوداء، هل يصدق أحد؟... فتيات صغيرات يمشين عاريات الصدور، كم هو شيء فظيع، حقاً! ونساء يكنسن الشوارع، ليحمنا الله، ليحمنا الله. ـ لا.. لا... كم هو مريع ـ واحدتهن ليست أكثر من عمود فقري متداع، حزمة عيدان، ولا أثر لأي لباس... منبوذون أيها الإله الرحيم... ومقعدون في كل مكان شوههم آباؤهم المحبون كي يضمنوا لهم دخلاً من التسول مدى الحياة... أجل متسولون في شاحنات صندوقية، رجال كبار لهم أرجل أطفال تحملهم ألواح خشب ذات دواليب مصنوعة من صناديق المانغا والزلاجات التي لم تعد صالحة للاستعمال وتصرخ أمي «ليفافا داس ارجع»، لكن يبتسم ابتسامته الجميلة ويقول: «هنا ينبغي أن نمشي» وحين ترى أنه لا مفر من الاستمرار تقول لسائق السيارة أن ينتظر فيرد السائق ذو المزاج السيئ: «أجل طبعاً، بالنسبة إلى سيدة عظيمة ماذا تراني أفعل سوى الانتظار؟ وحين تعودين يتوجب علي أن أسوق الطريق كله راجعاً بالسيارة إلى الوراء حتى الطريق الرئيسي، إذ لا توجد مساحة تسمح لي بالدوران». أولاد يسحبون طرف ساريها، رؤوس من كل مكان تحملق بأمي، وهي تفكر: «كأن المرء محاط بوحش هائل، مخلوق له ألف رأس ورأس»، لكنها تصحح غلطها. لا، طبعاً، ليسوا وحوشاً هؤلاء الناس المدقعون، فما هم إذن؟ قوة من نوع ما، قوة لا تعرف ماهيتها، قوة ربما تحللت وتحولت إلى عجز كامل بسبب عدم الاستعمال... لا، هؤلاء ليسوا أناساً فاسدين، رغم كل شيء وحين تلمس إحدى الأيدي ذراعها تجد أمي بعض الأفكار تراودها رغماً عنها: «إنني خائفة». وحين تلتفت، تجد نفسها وجهاً لوجه ـ شيء كالمستحيل ـ أمام رجل أبيض، يمد لها ذراعاً رثة الملابس ويقول بصوت أشبه بأغنية أجنبية راقية «أعطيني شيئاً يا سيدتي...». ثم يكرر ويكرر كأسطوانة خربة بينما تحدق هي بكثير من الضيق إلى وجه أبيض ذي أهداب طويلة وأنف أرستقراطي مقوس ـ كثير من الضيق، لأنه أبيض والتسول ليس للبيض... «ماشياً على قدمي جئت من كلكوتا». يقول الأبيض: «مغطى بالرماد، كما

ترين، يا سيدتي البيجوم، خجلاً لأنني كنت هناك للقتل ـ ففي آب الماضي، تتذكرين يا سيدتي، ذبح آلاف الناس بالسكاكين في أربعة أيام من الهياج والفوضى». . . ويقف ليفافا داس إلى جانبهما عاجزاً عن التدخل، لا يعلم كيف يتصرف إزاء رجل أبيض، حتى وإن كان شحاذاً يسأل: «هل سمعت بالأوروبي؟. أجل. بين القتلة، يا سيدتي البيجوم، أوروبي يمشي في شوارع المدينة ليلاً وقميصه ملطخ بالدماء، رجل أبيض أصابه بالخبل مجيء أبناء جنسه العقيم، هل سمعت؟». ويتوقف لحظة من الزمن ذلك الصوت الأشبه بأغنية محيرة، بعدئذٍ يستأنف «ذلك كان زوجي». في تلك اللحظة فقط رأيت أمي الثديين المختفيين تحت الأسمال. . . «أعطيني شيئاً يستر عاري». . . وتشد بذراعها. بينما يشد ليفافا داس بالطرف الآخر من صديريتها، هامساً لها: «حاجة، هلمي بنا، هيا، يا سيدتي». لكن أمينة تقف دون حراك والطرفان يشدانها باتجاهين متعاكسين. أخيراً تقول: «انتظري أيتها المرأة البيضاء، فقط دعيني أنهي عملي ولسوف آخذك معي إلى المنزل أطعمك وأكسوك، وأعيدك إلى عالمك مرة أخرى». لكن ما إن تكمل أمينة كلامها حتى تهز المرأة كتفيها وتبتعد خاوية الوفاض منحدرة في الزقاق الذي يضيق ويضيق، متضائلة إلى أن تبلغ نقطة تختفي عندها في ثنايا الزقاق البعيد القميء عندئذٍ يقول ليفافا داس، وسيماء الاستغراب على محياه «إنهم مخبولون. كل شيء انتهى. قريباً سيذهبون وحينذاك سنغدو أحراراً في أن نقتتل» ثم يمشي تتبعه أمينة بعد أن تلمس بطنها لمسة خفيفة. بعدئذٍ تعبر المدخل المظلم ووجهها يكاد يشتعل اشتعالاً.

. . . في تلك الأثناء. . . وعند القلعة القديمة كان أحمد سيناء ينتظر الرافانا. أبي عند غروب الشمس: يقف في المدخل المظلم لما كان ذات يوم غرفة ضمن أسوار القلعة الخربة، شفته السفلى أكثر بروزاً، ويداه مشبوكتان خلف ظهره ورأسه مليء بهموم المال. لم يكن أحمد سيناء رجلاً سعيداً في حياته، فقد كانت تنبعث منه دائماً رائحة الفشل المستقبلي، وكان يسيء معاملة الخدم، وبما كان يود، بدلاً من أن يرث عن المرحوم أبيه تجارة الجلود الاصطناعية والمشمعات، أن تتوفر له القوة لأن يحقق طموحه

الأصلي، وهو إعادة ترتيب القرآن وفق التسلسل الزمني الدقيق لنزول سوره (فقد قال لي ذات مرة: «حين كان ينزل الوحي على محمد كان الناس يدونون ما ينطق به على سعف النخل وكان ذلك يحفظ في صندوق. وبعد أن وافته المنية، حاول أبو بكر والآخرون أن يتذكروا التسلسل الصحيح، لكن ضعف ذاكرتهم خذلهم». وهنا انعطاف خاطئ آخر إذ بدلاً من إعادة ترتيب الكتاب المقدس، كان والدي يختفي في خربته الأثرية، ينتظر الأبالسة. إذاً لا عجب أنه لم يكن سعيداً، وأنا لن أشكل عوناً له، فيوم خرجت إلى هذه الدنيا انكسر إبهام قدمه).

. . . والدي التعيس، وأكرر ذلك، يفكر متعكر المزاج بالنقود، بزوجته التي تسلبه ما له بالتملق نهاراً وتفتيش جيوبه ليلاً، بزوجته السابقة التي توفيت أخيراً في حادثة، حين كانت تتجادل مع سائق عربة يقودها جمل فعضها الجمل من رقبتها (تلك الزوجة التي كتبت له رسائل لا عد لها تشحذ فيها مالاً رغم الطلاق الذي يفرق بينهما)، ويفكر بابنة عمه البعيدة، زهرة، التي تطلب منه مالاً ليكون دوطة لها، وبذلك يمكنها أن تنجب أولاداً يتزوجون أولاده في المستقبل، وتنشب مخالبها في نقوده أكثر وأكثر. أخيراً يفكر والدي بوعود الرائد ذو الفقار بالمال (في تلك المرحلة، كانت العلاقات بين والدي وذو الفقار على ما يرام).

فالرائد كان قد أرسل رسائل تقول: «يجب أن تقف إلى جانب الباكستان حين يحين الأوان، ولسوف يحين الأوان بالتأكيد. فهي ولا شك ستكون منجم ذهب لأناس مثلنا، رجاء، دعني أقدمك إلى محمد علي جناح نفسه». . . لكن أحمد سيناء لم يكن يثق بمحمد علي جناح ولم يقبل أبداً عرض ذو الفقار. لذا حين أصبح جناح رئيس الباكستان، كان هناك انعطاف خاطئ آخر يستدعي التفكير به وفي نهاية المطاف يقوده تفكيره لتلك الرسائل التي وردت من صديقه القديم، الطبيب النسائي نارليكار في بومباي. «البريطانيون يغادرون البلاد أفواجاً أفواجا يا سيناء بك، الممتلكات رخيصة كالزبل. بع كل شيء لديك وتعال إلى هنا. اشتر ممتلكات وعش بقية حياتك مترفاً باذخاً». إذاً، لا مكان لآيات القرآن في رأس مليء بالنقود. . . إنه هنا

جنباً إلى جنب مع س. ب. بوت الذي سيقضي نحبه في قطار ذاهب إلى الباكستان ومصطفى كمال الذي سيموت قتلاً على أيدي محترفين في منزله الفخم الواقع في شارع فلاغستان وقد كتبوا على صدره بدمه ذاته: «الفاعل - بأمه، خازن المال».

... وإلى جانب هذين الرجلين اللذين كتب عليهما الهلاك ينتظر والدي في الظلال الخفية للقلعة الأثرية كي يتجسس على المبتز القادم لسلب ماله. «الزاوية الجنوبية الغربية» كانت أوامر الهاتف قد حددت «البرج. بعدئذٍ في الداخل، المدرج الحجري، اصعدوه وفي أعلى منبسط للدرج ضعوا النقود مفهوم... هيا». لكن ها هم يختفون، تحدياً للأوامر، في الغرفة الخربة وفي مكان ما فوقهم، على المنبسط الأعلى لدرج البرج تقبع الحقائب الرمادية الثلاث في الظلام الكثيف.

... وفي الظلام الكثيف لسلم مخنوق الهواء، تصعد أمينة سيناء باتجاه النبوءة، ليفافا داس يطمئنها، إذ كانت قد جاءت برجليها، أدخلت نفسها في زجاجة رحمته: وقد أحس بتغير ما يطرأ عليها، ندم على قرارها، فيطمئنها وهي تصعد الدرج. منطقة السلم المظلمة ملأى بالعيون، عيون تلمع عبر الأبواب المطبقة المصاريع لمشهد امرأة شديدة السمرة تصعد الدرج، عيون تلفها كألسنة هررة فظة لامعة، وبينما يتكلم ليفافا، مهدئاً، تشعر أمي بإرادتها تنحسر وتتضاءل «ليكن ما يكون» قالت في نفسها وهي تشعر أن حدة ذهنها وإمساكها بالقبضة الحديد على العالم تتسربان منها لتمتصها الإسفنجة السوداء المحيطة بها: هواء الدرج. بتراخ، كانت قدماها تتابعان قدميه، صاعدة إلى أعلى البناية الضخمة الكئيبة المتهدمة التي كان ليفافا داس وابن عمه يستأجران ركناً صغيراً على سطحها.. هنا، قرب السطح، ترى ضوءاً قاتماً يتسرب من مكان ما ثم يسقط على رؤوس هياكل بشرية تصطف بالرتل. فيقول ليفافا داس مفسراً «ابن عمي رقم ٢ مجبِّر عظام». وتصعد أمينة مجتازة رجلين مكسوري الأذرع ونساء التوت كواحلهن كما تعبر بمنظفي نوافذ سقطوا من نوافذهم وبنائين محطمين. ابنة الطبيب تلج عالماً أقدم من أبر الحقن والمستشفيات إلى أن يقول ليفافا أخيراً: «لقد وصلنا يا سيدتي». ثم يقودها عبر غرفة يثبت فيها

مجبر العظام عيداناً وأوراقاً على أطراف بشرية مهشمة، ويلف الرؤوس المفلوعة بسعف النخل، إلى أن يغدو مرضاه أشبه بأشجار اصطناعية وقد تفتقت جروحهم عن أشكال شتى من النبات... ومن هناك يخرجان إلى فسحة السطح الاسمنتي، فتطرف أمينة بأجفانها محاولة أن تتبين شيئاً على ضوء المصابيح الباهت، فتلوح لها أشكال غير معقولة على السطح: قردة ترقص، نموس تتواثب، ثعابين تتمايل في سلال، وعلى سور البناء، ترى ظلال طيور كبيرة، أجسامها معقوفة وقاسية كمناقيرها: إنها نسور.

فتصرخ أمينة: «أوه، بابا، إلى أين تأخذني؟».

«لا تخشى شيئاً يا سيدتي»، يقول ليفافا «ها هنا ابنا عمي رقم ٣ ورقم ٤. هذا الأخير يرقِّص قروداً...».

ويهتف صوتٌ: «مجرد ممارسة أيتها البيجوم. انظري: القرد يذهب إلى الحرب ويموت من أجل بلاده...».

«أما الأول فحاوي أفاعٍ ونموس».

... «انظري إلى النمس وهو يرقص يا سيدتي، انظري إلى رقصة الكوبرا».

«... لكن... الطيور...؟».

... «لا شيء يا مدام: فقط يوجد قريباً من هنا برج الصمت البارسي[1] وحين لا يكون هنالك موتى تأتي النسور إلى هنا... والآن، هي نائمة. أما في النهار فأعتقد أنها تميل لمراقبة أبناء عمي وهم يمارسون مهنتهم».

أخيراً يصلان إلى غرفة صغيرة، في الجانب القصي من السطح. الضوء يتسرب من شقوق بابها وحين تلجها أمينة تجد في داخلها رجلاً بعمر زوجها، ضخم الجثة له عدة ذقون يرتدي بنطالاً أبيض قذراً وقميصاً ذا مربعات حمر، حافي القدمين يمضغ بذر اليانسون ويرشف الشراب من زجاجة «فيمتو» وقد جلس متصالب الساقين في غرفة علقت على جدرانها

(١) زرادشتي متحدر من أصلاب اللاجئين الفرس المقيمين في الهند (وبرج الصمت يعني المقبرة).

صور الفيشنو[1] في كل ركن من أركانها، وكذلك لافتات كتب عليها «تعلم الكتابة» و«البصاق أثناء الزيارة عادة بغيضة تماماً». لكن لم يكن في الغرفة قطعة أثاث واحدة. . . فالرجل، شري رامرام سيث، يجلس متصالب الساقين، فوق الأرض بست بوصات.

هنا لابد لي من الاعتراف: فلشدة خجلها، صرخت أمي. . .

. . . في تلك الأثناء وفي القلعة القديمة، كان ثمة قردة تصرخ بين الأسوار.

فالمدينة القديمة الخربة، باتت، بعد أن هجرها الناس، مسكناً للسعادين. . . سعادين طويلة الأذناب سود الوجوه، يتملكها إحساس طاغ بالنشاط. وهكذا تقفز إلى الأعلى والأعلى، تثب إلى أعلى ذروة في الخراب، تستكشف مناطق جديدة، ومن ثم تكرس نفسها لتمزيق أوصال القلعة حجراً حجراً. وهذا صحيح يا بادما: فأنت لم تذهبي إلى هناك أبداً، لم تقفي عند المغيب تراقبين تلك المخلوقات الفرائية النحيلة المتوفرة وهي تعمل في الحجارة تسحب وتهزهز وتسحب، جاعلة الحجارة تتخلخل كلها في وقت واحد. . . وفي كل يوم تدحرج القردة الحجارة إلى أسفل الأسوار مكومة إياها في الزوايا أكواماً أكواماً، مالئة بها الخنادق في الأسفل.

وذات يوم لن تكون هناك قلعة قديمة، لن يكون هناك في النهاية سوى كومة من الأنقاض تعلوها قردة تزقو زقاء الانتصار. الآن ثمة قرد واحد، يعدو على طول الأسوار ـ سأدعوه هانومان، وذلك تيمناً باسم إله القردة الذي ساعد الأمير راما في دحر الرافانا الأصلي، هانومان العربات الطائرة. . . راقبه الآن وهو يصل إلى هذا البرج ـ منطقة نفوذه. راقبه وهو ينط، يتذبذب يميناً وشمالاً، يجري من زاوية إلى أخرى في مملكته، يحك مؤخرته بالحجارة، ثم يتوقف، يشم رائحة شيء ما ينبغي أن يكون هنا. . . هانومان يعدو إلى الملتجأ، هنا، إلى منبسط الدرج الأعلى، حيث ترك ثلاثة رجال ثلاثة أشياء رمادية غريبة ملساء. وبينما ترقص القردة على السطح خلف مكتب البريد،

---

(١) أحد آلهة الهندوس الأساسيين، يعبده الهندوس باعتباره حامي الكون وراعيه.

يرقص القرد هانومان بنوع من الاهتياج. ينط على الأشياء الرمادية. نعم، إنها سائبة تماماً. . . لا تحتاج لكثير من الهزهزة والسحب، السحب والهزهزة. راقب هانومان الآن. إنه يسحب الأشياء الرمادية الملساء إلى طرف المنحدر الطويل لسور القلعة الخارجي. انظر إليه وهو يمزق فيها: ريب، راب، روب. . انظر كيف ينبش بمهارة فائقة أوراقاً داخل الأشياء الرمادية، يلقي بها إلى الأسفل كرذاذ المطر ليغسل الحجارة الساقطة في الخندق. . . أوراق تتهاوى بتوانٍ وروعة تدعو للعجب، غارقة مثل ذكرى جميلة في لجة الظلمة، والآن ها هو ذا يرفس، يخبط، يرفس، يخبط مرة ثانية. وتهوي الأشياء الرمادية الثلاثة من فوق الحافة. . إلى الأسفل، إلى الأسفل، في قلب العتمة، وأخيراً تسمع خبطة ناعمة يتفطر لها القلب حزناً. ثم يفقد هانومان، وقد أنجز عمله، اهتمامه بالأمر كله، فيعود أدراجه مسرعاً إلى زاوية ثانية من زوايا مملكته ويبدأ هزهزة حجر من الحجارة.

. . . في غضون ذلك، كان والدي من مكانه في الأسفل قد رأى شخصاً غريب المظهر ينبثق من الغبشة، ودون أن يعرف شيئاً عن الكارثة التي حلت في منبسط الدرج الأعلى، راح يراقب الوحش من ظل غرفته الخربة: مخلوق يرتدي سروالاً رثاً وعلى رأسه قناع شيطاني، قناع من الورق المعجن في كل جانب من جوانبه، وجه ذو تكشيرة مرعبة. . . إنه المندوب المحدد لعصابة الرافانا، جابي الأموال. تدق القلوب بشدة. . . والرجال الثلاثة يراقبون الشبح وهو يدخل بيت السلم المؤدي إلى منبسط الدرج الأعلى، بعد لحظة وفي هدأة الليل يسمعون الشيطان وهو يلعن ويشتم شتائم بشرية تماماً. . . «الفاعلون ـ بأمهاتهم! الخصيان، السفلة!» ودون أن يفهموا شيئاً، يرون معذبهم غريب الشكل يظهر من جديد، ثم يندفع في قلب الظلمة ويختفي، فيما تظل لعناته: «أبناء الخنازير. الأرذال الفاسدون، أكلة برازهم» تتردد أصداؤها في القلعة الخربة. بعدئذٍ يصعدون إلى الأعلى والحيرة تقتل أنفسهم، فيجد بوت مزقة من القماش الرمادي وينحني مصطفى كمال فوق قطعة نقدية مكرمشة وربما ـ أجل ولم لا؟ ـ ربما يرى والدي بريق عيني قرد في زاوية من الزوايا. . . فيخمنون.

بعد ذلك تنطلق دمدماتهم ولعنات بوت الشديدة، أصداء للعنات الشيطان، ثم تدور معركة صامتة حامية في رؤوسهم جميعها، المال أم مستودع البضائع؟ مستودع البضائع أم المال؟ رجال الأعمال يفكرون، في رعب صامت، بهذه الأحجية الخطيرة ـ لكن في تلك اللحظة، حتى ولو تخلوا عن النقود لبراثن الكلاب والبشر التي تكتسح كل شيء، أنى لهم أن يوقفوا مشعلي النيران؟ أخيراً، وبلا كلمة واحدة، تطغى عليهم القاعدة التي لا ترحم، تلك القاعدة التي تقول: «عصفور باليد ولا عشرة على الشجرة»، فيندفعون نازلين السلم الحجري ثم يجتازون المرج الأخضر فالأبواب المهدمة ويصلون ـ وقد اختلط حابلهم بنابلهم إلى الخندق، ثم يبدأون بجمع النقود وحشو جيوبهم بها، جارفينها جرفاً، عاملين بها إمساكاً وكرمشة، متجاهلين برك البول وأكوام الثمار المهترئة وهم على يقين كامل أن العصابة ستنفذ وعيدها في هذه الليلة تماماً، لكن بالطبع...

... لكن، بالطبع، لم يكن رامرام يسبح فعلاً في الهواء، على ارتفاع ست بوصات من الأرض. لقد ركزت أمي عينيها، بعد تلاشي صرختها فلاحظت الرف الصغير الناتئ من الجدار. «خدعة مبتذلة» قالت في سرها «لكن ما تراني أفعل في هذا المكان اللعين حيث تأوي النسور والقردة؟ هل أنتظر أن ينبئني بما يعرفه ذلك العراف الأحمق الذي يسبح في الهواء بجلوسه على رف؟».

لكن ما لم تكن أمينة تعرفه هو أنني كنت وللمرة الثانية في التاريخ، على وشك أن أثبت حضوري (لا، ليس حضور ذلك الشرغوف المحتال القابع في بطنها: بل أعني حضوري أنا نفسي، بدوري التاريخي الذي كتب عنه رؤساء الوزارات... «ستكون حياتك، بشكل من الأشكال، مرآة لحياتنا جميعاً». في تلك الليلة كانت القوى العظمى تعمل كلها، وكان الموجودون جميعاً يوشكون أن يشعروا بقواها ويخافوا).

أبناء العم ـ من واحد إلى أربعة ـ يتجمعون في المدخل الذي اجتازته السيدة السمراء، منجذبين إلى صرختها انجذاب الفراش إلى النور... يراقبونها بهدوء وهي تتقدم في أعقاب ليفافا داس، إلى العراف الذي لا نظير

له. . . لقد كانوا جميعاً هناك: مجبر العظام، الحاوي ومرقص القرود. تتصاعد همسات التشجيع (لكن هل كان ثمة قهقهات تكتمها الأيدي الخشنة أيضاً) «سيخبرك عن حظ رائع يا سيدتي» قال أحدهم ثم ثنّى الثاني: «تعال يا ابن العم، السيدة تنتظر» لكن ما عساه هذا الرامرام؟

بائع جوال، قارئ كف رخيص، مشعوذ يبصر للنساء السخيفات؟ ـ أم أنه المادة الخالصة، الرجل الذي يمسك بكل المفاتيح؟ وليفافا داس: هل رأى، في والدتي، امرأة يمكن أن يرضيها رجال بروبيتين، أم تراه رأى أعمق من ذلك، في صميم ضعفها الخفي؟

ـ وحين جاءت النبوءة، هل دهش أبناء العم أيضاً؟ والزبد على الفم؟ ما كان ذلك يا ترى؟ أصحيح أن أمي، وتحت التأثير المشوش لتلك الليلة الهستيرية، أفلتت الزمام التي كانت تمسك به نفسها عاجة ـ فشعرت بأن ذاتها تنزلق منها بعيداً إلى الاسفنجة الماصة التي يشكلها السلم المعتم ـ ثم دخلت حالة ذهنية يمكن فيها لأي شيء أن يحدث، لأي شيء أن يصدق؟ لكن هناك شيئاً آخر، احتمالاً أكثر فظاظة أيضاً، دائماً قبل أن أتلفظ بشكوكي، علي أن أصف، بحسب الإمكان ورغم تلك الغشاوة من الأشياء المبهمة الغامضة، ما حدث فعلاً: ينبغي أن أصف أمي، راحتها المنبسطة الممتدة نحو قارئ الكف المتقدم نحوها، عينيها الجاحظتين الجامدتين كعيني سمكة بومفريت ـ وأبناء العم (الكاتمين ضحكاتهم) وهم يقولون لها «أية قراءة للكف ستجدين عنده يا سيدتي» و«تكلم. . . تكلم، يا ابن العم». لكن الغشاوة تهبط ثانية، لذا أجدني غير واثق ـ هل بدأ كما يبدأ بصارو السيركات متفوهين بتخمينات تافهة عن خط القلب وخط العمر وعن الأولاد الذي سيكونون من أصحاب الملايين، بينما كان أبناء العم يهتفون فرحاً «واه. واه» و«قراءة رائعة يا معلم». أم تغير بعد ذلك يا ترى؟ هل تصلب رامرام فجأة؟ ـ عيناه جحظتا إلى الخارج إلى أن أصبحتا كبيضتين في محجريهما ـ هل سأل بصوت غريب قاس كالبلور «هل تسمحين يا مدام أن ألمس ذلك المكان؟» في حين كان يخيم على أبناء العم صمت كصمت النسور النائمة ـ وهل أجابت بصوت غريب كصوته أيضاً: «أجل، أسمح لك». وبذلك غدا العراف ثالث رجل

يمسها في حياتها، خلا أفراد عائلتها؟ هل مرت في تلك اللحظة بالذات شرارة كهربائية سريعة بين الأصابع القصيرة الثخينة وجلد الأم؟ كل ما أنا واثق منه أن وجه أمي، المذعور كوجه الأرنب، كان يراقب العراف بقميصه ذي المربعات الحمر، عيناها جاحظتان كبيضتين في وجهه وهو يدور ويدور ثم تتملكه ارتعاشة مفاجئة وينطلق الصوت الرفيع الغريب مرة ثانية لتلفظ شفتاه كلمة واحدة: «غلام».

أبناء العم يصمتون ـ القردة في مقاودها توقف تأرجحها وذبذبتها ـ أفاعي الكوبرا تلتف على نفسها في السلال، وقارئ البخت الذي يدور ويدور، يجد قصة تتلفظها شفتاه مبتدئاً بـ «غلام. . . وأي غلام؟». ثم يتابع «غلام يا سيدتي، لن يكون أكبر سناً من وطنه ـ لا أكبر ولا أصغر». وفي تلك اللحظة يطغى خوف حقيقي على أبناء العم جميعاً، فهم لم يروا رامرام في مثل تلك الحال من قبل، لم ينطق أمامهم بشيء كهذا قط، بينما يتابع بصوته ذي الطبقة العالية كأصوات الغناء: «سيكون هناك رأسان، لكنك لن تري سوى رأس واحد ـ سيكون هناك ركب وأنف، أنف وركب». أنف وركب، ركب وأنف، اسمعي يا بادما اسمعي جيداً، فذلك الرجل لم يخطئ في شيء. «صحف تثني عليه، أمان اثنتان تنشئانه، أصحاب دراجات يحبونه ـ لكن حشوداً ستدفعه، أخوات سيندبنه، كوبرا ستزحف. . .». ويدور رامرام أسرع وأسرع، بينما يغمغم أبناء العم الأربعة «ما هذا، بابا» «ليحرسنا الإله. .». لكن رامرام يتابع: «غسيل سيخفيه ـ أصوات ستهديه ـ أصدقاء سيبترونه ـ دم سيفشي سره». فتصرخ أمينة سيناء: «ما قصده يا ترى؟ أنا لا أفهم شيئاً ـ يا ليفافا داس ـ ما الذي دهاه؟» لكن، وبلا رحمة يستمر رامرام سيث بعينيه الجاحظتين كبيضتين في وجهه، يدور ويدور ثم يستأنف «مباصق ستسحق جمجمته ـ أطباء سيجففون عروقه. غاب سيدعوه إليه ـ سحرة سيردونه إلى طريق الصواب، جند سيحاكمونه. طغاة سيشوونه. . .». وفيما تتوسل أمينة طالبة تفسيراً لهذا الكلام ويسيطر على أبناء العم جميعاً خوف شديد لاعتقادهم أن شيئاً ما حل برامرام سيث ولا أحد يجرؤ على الاقتراب منه، يتابع الرجل الدوران على نفسه كالزوبعة إلى أن يبلغ ذروته: «وسيكون له

أولاد دون أن ينجب أولاداً. سيكون شيخاً قبل أن يبلغ الشيخوخة. ولسوف يموت... قبل أن يموت».

هل هكذا كان الأمر؟ هل حدث فعلاً أن رامرام، وقد أخمده مرور قوة عبره أعظم من طاقته، هوى فجأة على الأرض والزبد على شفتيه؟ هل أدخل أبناء العم عصا صاحب النموس بين أسنانه المصطكة؟ هل قال ليفافا داس «سيدتي البيجوم، رجاء، غادري المكان، ابن عمنا سقط مريضاً؟».

هل قال الحاوي أخيراً؟ ـ أو ربما صاحب القرد أو مجبر العظام أو ليفافا داس صاحب صندوق الدنيا ـ محتجاً: «لقد أكثرت من النبوءات يا رجل. أجل... ابن عمنا تنبأ كثيراً هذه الليلة».

بعد سنوات كثيرة حين أصاب أمي خرف سابق لأوانه وبدأت جميع أنواع الأشباح تنسل خارجة من ماضيها متراقصة أمام عينيها، رأت أمي مرة ثانية صاحب صندوق الدنيا الذي أنقذته ذات يوم بإعلانها عن قدومي فخاطبته وجهاً لوجه قائلةً بلا حقد: «إذاً ها قد عدت... حسناً دعني أقل لك هذا: أود لو فهمت ما كان يقصده ابن عمك ـ بخصوص الدم والركب والأنف... فمن يعلم؟ ربما كنت سأنجب ابناً مختلفاً».

فأمي، شأنها شأن جدي في البداية وهو في الممر المليء بأعشاش العنكبوت في منزل الرجل الضرير، وشأنه أيضاً في النهاية، أقول أمي، مثلها مثل ماري بيريرا بعد أن فقدت «يوسفها» وكذلك مثلي أيضاً، كانت بارعة في رؤية الأشباح.

... لكن الآن، إذ لا يزال الكثير من الأسئلة والنقاط الغامضة، أجدني مضطراً للبوح ببعض الشكوك: أحد هذه الشكوك يتعلق بالوحش المتعدد الرؤوس، لماذا، إذاً، لا أستطيع منع نفسي من إطلاق هذه التسمية على أمي؟... ما تراه سيكون وصفاً حسناً لبطن العراف؟ فتجيب الذاكرة ـ ذاكرتي الجديدة التي تعرف كل شيء والتي تحتوي على معظم ما في حياة أمي، أبي، جدي، جدتي وكل إنسان آخر ـ هذه الذاكرة تجيب: ذلك البطن طري متهدل كفطيرة مصنوعة من طحين الذرة. ومرة أخرى أتساءل بشيء من النفور: ما تراها كانت حالة فمه؟ ويأتي الرد الذي لا مناص منه؛ فمه ممتلئ،

مكتنز الشفتين، شاعري. وفي المرة الثالثة تتحرك ذاكرتي هذه: ماذا عن شعره؟ ويأتي الجواب: خفيف، أسود، مسترسل، يلتف حول الأذنين. والآن تدور شكوكي غير المعقولة حول السؤال الأخير... هل قامت أمينة، تلك النقية الطاهرة فعلاً... نظراً لضعفها تجاه الرجال الذي يشبهون نادر خان... هل قامت وهي في حالتها العقلية الغريبة بعد أن أثارها مرض العراف... هل قامت... لكن بادما تصرخ كالمجنونة: «لا. كيف تجرؤ على الشك فيها، هي المرأة الطيبة؟ هي أمك؟ هل يعقل أن تفعل ذلك؟ إنك لا تعرف شيئاً مع ذلك تتكلم؟» وبادما على حق بالطبع كما هو شأنها دائماً... بل لو كانت تعلم لقالت إنني أنفس عن رغبتي في الانتقام لا غير، الانتقام لذاك الذي رأيت أمينة تقوم به فعلاً بعد سنوات، عبر النوافذ المعتمة، نوافذ مقهى الرائد، ولعل ذلك المكان هو الذي شهد مولد فكرتي المجنونة، فكرتي في أن أعود مع الزمن إلى الوراء وأتوصل بصورة واضحة تماماً إلى المغامرة الأبكر، تلك المغامرة البريئة بالتأكيد. أجل هكذا ينبغي أن يكون الأمر. لكن الوحش لا يهدأ له بال فيقول «آه، وماذا عن حقيقة حردها ـ ذلك الحرد الذي أعلنته يوم أعلن أحمد سيناء عن انتقالهم إلى بومباي؟». هنا أجده يسخر منها إذ تقول: «أنت دائماً، أنت الذي تقرر لكن ماذا بشأني؟ افرض أنني لا أريد... الآن فقط بات هذا المنزل جاهزاً مجهزاً..». إذاً يا بادما: هل كانت تلك حماسة ربة بيت أم قناعاً؟

شكوك غير جديرة بالاهتمام... وعليّ أن أطردها. علي أن أوفر انتقاداتي القاسية لوقت لاحق، حين قدمت لي، بلا لبس أو غموض، وبلا ستر تحجب، براهين ثابتة واضحة لا مجال لدحضها قط.

لكن بالطبع، حين عاد والدي إلى المنزل في وقت متأخر من تلك الليلة، تنبعث منه رائحة الخندق التي طغت على رائحة فشله المستقبلي المألوف، كانت عيناه ووجنتاه مخططة بدموع من رماد وكانت هنالك رائحة كبريت في منخريه، وكانت الذرات الرمادية للجلود الاصطناعية المدخنة على رأسه... ذلك بالطبع لأنهم أحرقوا مستودعه. «والحرس الليليون؟» ـ نيام يا بادما، نيام. فأولئك الأبطال الشجعان، أولئك الأفغانيون المقاتلون الذين

ولدوا في المدينة ولم يشهدوا «خيبر» قط. لم يفعلوا شيئاً بعد أن جاءهم الإنذار بأن يأخذوا جرعاتهم المنومة مباشرة، سوى انهم فتحوا علباً ورقية صغيرة وصبوا مسحوقاً صدئي اللون في إبريق شايهم وهو يفور، ثم سحبوا أسرتهم الصغيرة بعيداً عن مستودع والدي لتفادي الدعائم الساقطة والشرارات المتطايرة واستلقوا على أسرتهم المصنوعة من الحبال، بعدئذٍ رشفوا شايهم على مهل وأسلموا أنفسهم لعالم المخدر الجميل. في البداية غدت أصواتهم خشنة جشاء وهم يكيلون الأماديح لعاهراتهم المفضلة في بوشتو، بعدئذٍ غرقوا في نوع من القهقهة الجنونية، بينما كانت أصابع المخدر الناعمة تدغدغ أضلاعهم.. إلى أن حل محل القهقهة أحلام شرعت تطوف بهم في مسارب المنحدر الأمامية وقد امتطوا متن المخدر، إلى أن بلغوا أخيراً أرض النسيان التي لا تعرف الأحلام ولا يستطيع شيء في الدنيا أن يعيدهم منها قبل أن ينهي المخدر مساره. وصل أحمد، بوت، وكمال في سيارة أجرة ـ سيارة أثيرت أعصاب سائقها وهو يرى رجالاً ثلاثة يمسكون بأيديهم أكداساً من الوراق النقدية المكرمشة التي تنبعث منها رائحة أسوأ من رائحة الجحيم بسبب ما صادفته من مواد مزعجة في الخندق، ولم يكن هذا السائق لينتظر لولا أنهم رفضوا الدفع له: «دعوني أذهب أيها السادة الكبار»، راح يتوسل إليهم: «أنا رجل مسكين... لا تتركوني هنا». لكن مع كلامه هذا، كانت ظهورهم تتحرك بعيداً عنه باتجاه الحريق. فراقبهم وهم يجرون، ممسكين بنقودهم التي لطختها البندورة وبراز الكلاب وراح يحملق، فاغر الفم، بالمستودع الذي تشتعل فيه النيران، بسحاب الدخان المتصاعد في عتمة السماء، وكان عليه، شأنه شأن كل من كان في ذلك المكان حينها، أن يتنفس الهواء المليء بروائح الأقمشة الجلدية المحترقة وعيدان الكبريت والأرز المشتعل. ورأى ذلك السائق المسكين ذو الشاربين الهزيلين، من بين أصابعه التي تغطي عينيه، السيد كمال، ذلك الرجل النحيل كقلم رصاص، وهو يرفس كالمعتوه أجسام الحراس الليليين النائمين بل كاد يتخلى عن أجرته ويسوق مبتعداً في اللحظة التي رأى فيها والدي يصرخ «انتبهوا...». ورأى ذلك السائق، الذي بقي ينتظرهم رغم كل شيء، مستودع البضائع متناثراً

بفعل الألسنة الحمراء الملتهبة، كما رأى حمماً تتدفق من المستودع، حمماً لا يمكن مقاربتها من الأرز ـ العدس ـ الحمص ـ السترات المانعة للماء ـ علب الكبريت ـ المخللات. ورأى أيضاً كتلاً نارية حمراً تنفر في السماء، بينما كانت محتويات المستودع تندلق على الأرض الصفراء الصلبة كيد اليأس المفحمة السوداء. نعم لقد احترق المستودع، تساقطت على رؤوسهم من السماء ذرات رماد، كما اندفع في أفواه الحراس المفتوحة المكدمة وهم لا يزالون يشخرون. . . «لينقذنا الله» قال السيد بوت لكن مصطفى كمال أجاب بذرائعية أكبر. . . «الحمد لله أننا قمنا بالتأمين».

«في تلك اللحظة تماماً» أخبر أحمد سيناء زوجته في ما بعد، «في تلك اللحظة بالضبط قررت التخلي عن تجارة الجلود الاصطناعية كما قررت بيع الكتب، الاسم التجاري ونسيان كل ما أعرفه عن تجارة المشمعات، وفي تلك اللحظة بالضبط حزمت أمري أيضاً على عدم التفكير بذلك الهراء الذي كان يحدثني به زوج أختك أميرالدا عن الباكستان». وهكذا في حمى تلك الحماسة أعلن والدي ـ غير مبال بحرد زوجته: «لقد قررت الرحيل إلى بومباي وممارسة تجارة العقارات. فالعقارات هناك رخيصة للغاية هذه الأيام» ثم اخبرها قبل أن تتاح لها إمكانية الاحتجاج «نارليكار يعرف ذلك جيداً» (لكن سيجيء يوم يدعو فيه ناليكار هذا خائناً).

المعروف في أسرتي أننا ننطلق دائماً حين تأتينا دفعة من الخلف ـ وجمود الـ ١٩٤٨ هو الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة. فالنوتي تاي دفع جدي من كشمير، المركوروكروم طرده من أمريتسار، انهيار الحياة التي كانت تحياها والدتي في العالم السفلي أدى مباشرة إلى رحيلها عن آغرا والوحوش المتعددة الرؤوس دفعت والدي إلى بومباي، لكي أولد هناك.

ففي نهاية كانون الثاني ذاك، وبسلسلة من النقلات، وصل التاريخ أخيراً إلى نقطة كان على أتم الاستعداد فيها لإخراجي إلى عالم النور. وهناك بعض الأسرار والنقاط الغامضة التي لم يكن بإمكاني استجلاؤها قبل دخولي هذا العالم. مثال على ذلك، ملاحظة شري رامرام الأشد إيهاماً، حين قال في نبوءته: «سيكون هناك أنف وركب، ركب وأنف». أموال التأمين جاءت،

كانون الثاني انتهى، وفي الوقت الذي قرروا فيه إيقاف عملهم في دلهي والانتقال إلى المدينة التي كانت فيها العقارات رخيصة كالزبل ـ كما كان نارليكار الطبيب النسائي يعلم، في ذلك الوقت كانت والدتي قد ركزت على خطتها التجزيئية في أن تتعلم حب زوجها. لقد توصلت لأن تشعر بتعلق عميق بعلامتي الاستفهام اللتين تشكلهما أذناه وبالعمق الملحوظ لسرته التي كان بإمكانها أن تدخل إصبعها فيها حتى نهاية سلاميتها الأولى دون أي جهد، كما غدت تحب الشكل الأعجر لركبتيه، لكن رغم كل المحاولات التي بذلتها (وبما أنني أضع بعض إشارات الاستفهام فإنني لن أقدم هنا أية أسباب معقولة) فقد ظل جزء واحد منه لم تستطع أن تحبه رغم أنه الشيء الوحيد العامل تماماً الذي يمتلكه والذي كان نادر خان يفتقر إليه بالتأكيد. ففي تلك الليالي التي كان يلقي فيها بنفسه فوقها ـ حين كان الجنين في رحمها لا يزيد على حجم الضفدع ـ لم تكن الأمور تسير على ما يرام البتة.

. . . «لا، ليس بهذه السرعة ـ جانوم، حياتي، أطول قليلاً من فضلك» كانت تقول له، فيحاول أحمد، كي يطيل قليلاً، أن يعود بفكره إلى الحريق، إلى الشيء الأخير الذي حدث في تلك الليلة اللاهبة، حين كان يدور على عقبيه هاماً بالذهاب. ففي تلك اللحظة سمع زعقة كريهة في السماء وحين تطلع إلى الأعلى كان لديه الوقت لأن يرى أن نسراً ـ في الليل ـ نسراً من برج الصمت كان يطير فوق رأسه وأنه أسقط يد بارسي جردت من لحمها، يداً يمنى، اليد نفسها التي صفعته على وجهه تماماً حين هوت، بينما توبخ أمينة نفسها وهي تحته في الفراش قائلة في سرها: «لماذا لا يمكنك الاستمتاع؟ أنت امرأة غريبة. من اليوم فصاعداً عليك أن تحاولي فعلاً».

في الرابع من حزيران، رحل والداي غير المتجانسين إلى بومباي بقطار بريد الحدود (وكانت هنالك دقات، أصوات تتشبث بالحياة الغالية، قبضات تصرخ: «مهراجا، افتح، لحظة واحدة فقط. أوه، من الحليب الذي رضعته! أيها السيد العظيم، منَّ علينا بفضلك». وكانت هنالك أيضاً ـ مخفية تحت دوطة في حقيبة صفيحية خضراء ـ مبصقة فضية متقنة الصنع مطعمة بحجر اللازورد ومحظر ظهورها إلى النور).

في ذلك اليوم بالذات، عقد الإيرل مونباتن حاكم بورما مؤتمراً صحافياً أعلن فيه تقسيم الهند مبتدئاً بذلك العد التنازلي في تقويمه المعلق على الجدار: «سبعون يوماً ثم تنتقل السلطة... تسعة وستون... ثمانية وستون... تِك... تَك...».

ميثولد

في البدء كان الصيادون. هنا كانوا قبل تكتكة ساعة مونباتن، قبل الوحوش والإعلانات العامة، حين كانت زيجات العالم السفلي لا تزال صعبة التخيل وكانت المباصق مجهولة، قبل المركوروكروم بكثير، وأقدم بكثير من الزمن الذي كانت فيه وصيفات السيدة يمسكن عالياً بالملاءة المثقوبة، أقدم وأقدم حتى من دلهوزي وإلفينستون، من شركة الهند الشرقية حين شادت قلعتها، من وليام ميثولد الأول، في فجر الزمان، حين كانت بومباي جزيرة على شكل الجرس تنخمص في وسطها، إلى شريط ضيق يمكن أن يرى المرء في ما وراءه أكبر وأروع مرفأ طبيعي في آسيا، حين كانت مازاغون وورلي، ماتونغا وماهيم، ساليت وكولاب جزراً أيضاً ـ أي باختصار قبل الاستصلاح، وقبل أن تحوّل رباعيات الأرجل والأكوام الغارقة في قاع البحر الجزر السبع إلى شبه جزيرة طويلة تشبه يداً مشدودة القبضة ممتدة على طولها، تصل غرباً إلى بحر العرب. في هذا العالم البدائي الذي لم يكن يعرف أبراج الساعات، كان الصيادون ـ وكان يومها يدعون باسم الكوليين ـ يبحرون في زوارق عربية، ينشرون أشرعتهم المحمرة بأشعة شمس المغيب، وكانوا يصطادون البومفريت[١] والسرطان ويجعلوننا جميعاً مولعين بالسمك (أو معظمنا بالأحرى. فقد استسلمت بادما لشعوذاتهم السمكية. لكن في بيتنا، كنا مصابين بغربة الدم الكشميري، بالتحفظ الجليدي الذي تتميز به السماء الكشميرية، وبقينا من أكلة اللحوم بالقياس إلى الناس).

---

(١) نوع من السمك المفضل لدى الهنود.

كذلك كان ثمة جوز هند وأرز، وفوق ذلك كله، كانت هناك عين ترعى، عين الإلهة مومباديفي التي أصبح اسمها ـ مومباديفي، مومبابي، مومباي ـ اسماً للمدينة. لكن بعدئذٍ أطلق البرتغاليون اسم بوم باهيا على مرفأها، ولم يكن ذلك حباً بإلهة صيادي البومفريت... فالبرتغاليون كانوا الغزاة الأول، وقد استخدموا المرفأ ملجأ لسفنهم التجارية وبحارتهم المحاربين، وذات يوم من أيار ١٦٣٣، رأى موظف في شركة الهند الشرقية يدعى ميثولد، رؤيا ـ أو حلماً ببومباي بريطانية محصنة تدافع عن الغربيين في الهند ضد جميع القادمين ـ وكان لتلك الرؤيا من القوة ما جعل الزمن يتحرك، التاريخ يتحرك إلى الأمام. توفي ميثولد، وفي سنة ١٦٦٠، خطب تشارلز الثاني، ملك انكلترا، كاترين سليلة بيت براغانزا البرتغالي ـ كاترين نفسها تلك التي ستلعب طوال حياتها دوراً ثانوياً بالنسبة إلى «نيل»، بائع البرتقال. لكن كان لها هذا العزاء ـ فدوطة زواجها هي التي جعلت بومباي تنتقل إلى السيادة البريطانية، ربما في حقيبة صفيحية خضراء، وهي التي جعلت رؤيا ميثولد أقرب إلى الواقع. بعد ذلك، وقبل انقضاء زمن طويل، أي في الحادي والعشرين من أيلول ١٦٦٨، وضعت الشركة يدها على الجزيرة... منذئذٍ ظل الانكليز هناك، بقلعتهم واستصلاحهم للأراضي، لكن بمثل لمح العين، قامت في ذلك المكان مدينة بومباي، تلك التي قالت عنها الأغنية القديمة:

الأولى في الهند
بوابة الهند
نجمة الشرق
المتطلعة إلى الغرب

مدينتنا بومباي، يا بادما! كانت مختلفة حينذاك، إذ لم يكن هناك نوادٍ ليلية أو معامل مخللات أو فنادق شيراتون ـ أو بيروي، أو دور سينما، لكن المدينة نمت بسرعة هائلة، أقيمت فيها كاتدرائية وتمثال فروسي للمهراتا، الملك المحارب سيفاجي، ذلك التمثال الذي (كنا نعتقد أيام طفولتنا) أنه

يبعث إلى الحياة في حلكة الليل ويبدأ العدو عبر شوارع المدينة ـ تماماً بحذاء الممر البحري، على رمال تشوباتي! مروراً بالمنازل الفخمة الواقعة على رابية مالابار، وحول منعطف كيمب، منزلقاً إلى شاطئ البحر وحتى نقطة سكاندال. ثم يمضي ويمضي... نزولاً إلى شارعي نفسه، شارع واردن، محاذياً تماماً لأحواض السباحة المنفصلة الواقعة في منطقة البريتش كاندي ثم صاعداً إلى معبد مهالا كسمي الضخم ونادي ولينغتون العتيق... إبان طفولتي، وبحسب ما كانت تمر بومباي بأيام عصيبة، كان بإمكان المتسكع الليلي المؤرق أن يسجل أنه شاهد التمثال يتحرك، فالكوارث، في مدينة صباي تلك، كانت ترقص على أنغام الموسيقى الخفيفة التي توقعها حوافر ذلك الحصان الحجري الرمادي.

لكن أين تراهم السكان الأوائل الآن؟ جوز الهند فعل خيراً من الجميع. فرؤوس جوز الهند لا تزال تقطع يومياً على خليج تشوباتي، وفي خليج جوهو، وتحت أبصار نجوم السينما في فندق «الشمس والرمال»، لا يزال الصبية الصغار يتسلقون شجر جوز الهند ويقطفون الثمار ذات اللحى ـ بل إن لجوز الهند مهرجاناً خاصاً هو عيد جوز الهند الذي يحتفلون به قبل بضعة أيام من مولدي إذ يتوافق زمنياً معه. غير أن الأرز لم يكن له مثل هذا الحظ، فمزارع الأرز تقبع اليوم تحت الاسمنت. أبنية عالية تقوم الآن حيث كان الأرز ينمو على مد النظر من البحر. لكننا، في المدينة، لا نزال نأكل الأرز. فأرز بانتا، والأرز البصماتي والكشميري ينقل إلى المدينة يومياً، إذاً، أرز أور الأصلي ترك بصمته علينا جميعاً، وليس بإمكان أحد أن يقول إنه قضى نحبه سدى. أما مومباديفي ـ وليس لها الكثير من الشعبية هذه الأيام ـ فقد حل محلها في عواطف الشعب الإله غانيش ذو رأس الفيل، والتقويم الخاص بالمهرجانات يكشف عن سقوطها، ذلك أن غانيش ـ غانباتي بابا ـ صار له عيده، عيد غانيش تشاتورثي، حين تم الاستيلاء على الممتلكات الضخمة لمومباديفي، وحين حملت المسيرة إلى تشوباتي تماثيل الإلهة الجصية كي تقذفها في البحر. عيد غانيش هو الاحتفال الذي يجري للاستسقاء، فهو يجعل رياح الخماسين ممكنة، وهو أيضاً العيد، الذي كان يجري الاحتفال به

في الأيام التي سبقت مولدي، عند انتهاء العد التنازلي ـ لكن أين هو عيد مومباديفي؟ إنه غير مدرج في التقويم. أين يا ترى صلوات قوم البومفريت، ابتهالات صيادي السرطان؟ من بين السكان الأوائل، تبين أن الصيادين الكوليين هم أسوأ الجميع. فهم، الذين ينحشرون الآن في قرية صغيرة عند إبهام شبه الجزيرة التي تشبه اليد، كانوا قد أعطوا اسمهم، وعلى نحو لا يمكن إنكاره، لمنطقة كاملة ـ منطقة كولابا. لكن، سر في طريق كولابا حتى نهايته ـ مروراً بحوانيت الثياب الرخيصة والمطاعم الإيرانية وشقق المعلمين والصحافيين والموظفين ذات الدرجة الثانية ـ تجدهم هناك، محشورين بين القاعدة البحرية والبحر. أحياناً تتزاحم النسوة الكوليات، ورائحة أمعاء البومفريت ولحم السرطان تنبعث من أيديهن، يتزاحمن بتكبر شاقات طريقهن إلى رأس الرتل عند موقف باص كولابا، وقد حشرن سواريهن القرمزية أو الأرجوانية بين سيقانهن، تلمع أعينهن الجاحظة والسميكة بشكل من الأشكال ببريق الهزائم والتجريدات من الملكيات التي حلت بهن. فقد احتلت أرض الكولي في البداية قلعة ومن ثم مدينة، واختلس سائقو شاحنات الركام (وكذلك رباعيات الأرجل) أجزاء من بحرهم. لكن لا يزال ثمة زوارق عربية، تنشر كل صباح أشرعتها باتجاه الغرب. في آب عام ١٩٤٧، كان البريطانيون، الذين أنهوا من قبل سيطرة شباك الصيد وجوز الهند والأرز ومومباديفي، كانوا هم أنفسهم على وشك الرحيل والانتهاء، فليس ثمة من سيطرة دائمة.

في التاسع عشر من حزيران، وبعد أسبوعين من وصولهما بواسطة القطار، أبرم صفقة غريبة من نوعها مع أحد الانكليز الراحلين في ذلك الحين، واسمه وليام ميثولد. الطريق إلى أرض ميثولد (وكم أشعر بغصة في حلقي الآن ونحن ندخل مملكتي، نتغلغل إلى صميم طفولتي!) يتفرع عن طريق واردن بين موقف باص وصف قصير من الحوانيت. حانوت تشيماكر لبيع الدمى، فردوس القارئ، مخزن فاتيهوي للمجوهرات وقبل كل شيء، محل بومبيلي للحلويات بما فيه من كعك رائع وشوكولا فاخرة! ثمة أسماء يمكنني أن أخمنها تخميناً، لكن ليس لدي الوقت الآن. بعد أن تعبر مصبغة

باندبوكس، يقودك الطريق إلى المنزل. في تلك الأيام لم يكن أحد قد فكر بناطحة السحاب القرمزية التابعة لنساء نارليكار (وهي صدى كريه لسارية إذاعة سريناغار)، بل كان الطريق يصعد رابية منخفضة ليست أعلى من مبنى بطابقين، ثم يلتف فيواجه البحر ويشرف على نادي بريتش كاندي للسباحة، حيث كان بإمكان الناس ذوي الجلود الوردية أن يسبحوا في حوض على شكل خارطة الهند البريطانية دون خوف من أن يحتكوا بجلد أسود، وحيث كانت تقوم قصور ميثولد المرتبة ترتيباً راقياً حول طريق ملتوية قصيرة، تلك التي علقت عليها لافتات ستعود ـ بفضلي ـ إلى الظهور بعد سنوات كثيرة، لافتات تحمل كل منها كلمتين: «برسم البيع». كلمتين فقط، لكنهما أغرتا والديّ غير الفطنين وأوقعتهما في شراك ميثولد.

أرض ميثولد: أربعة منازل متشابهة وفق طراز يناسب سكانها الأصليين (منازل محتلين، طراز روماني، ثلاثة أدوار، أشبه بمنازل آلهة تقوم على جبل أولمبي بارتفاع دورين). منازل قوية البنيان رحبة المساحة ذات سقوف من القرميد الأحمر وأبراج تزيينية في كل زاوية، بيضاء كالعاج تكللت رؤوسها بقبعات مستدقة الرأس من القرميد الأحمر (أبراج مناسبة لإيواء أميرات في داخلها) ـ منازل ذات شرفات يتم الوصول منها إلى مساكن الخدم عن طريق سلالم حديد حلزونية مخفية في الخلف ـ منازل كان صاحبها وليام ميثولد قد دعاها، وبكل مهابة، بأسماء من أوروبا: فيلا فرساي، فيلا باكنغهام، فيلا اسكوريال وفيلا سان سوسي. كان نبات البوغنفلية يعرش عليها، وكانت الأسماك المذهبة في أحواضها ذات الزرقة الشاحبة، كما كان الصبار ينمو في الحدائق الصخرية ونبات المستحي الدقيق يجثم تحت أشجار التمر الهندي، وكانت ثمة فراشات وورود وكراسٍ من قصب على المروج. في ذلك اليوم الواقع في منتصف حزيران، باع السيد ميثولد قصوره الخاوية مقابل ثمن بخس إلى حد مضحك ـ لكن كانت ثمة شروط. لذا، وبلا كثير من الجعجعة، أقدمه لكم الآن، كاملاً مع شعره ذي الفرق النصفي.. إنه رجل طويل تربو قامته على المائة والثمانين سنتمتراً، وجهه بلون الورود وشبابه من ذلك النوع الخالد. رأسه ذو شعر أسود كثيف يدهنه بالزيت اللماع، ويفرقه في

المنتصف، ولسوف نتكلم مرة ثانية عن هذا الفرق النصفي الذي كان من الدقة بحيث جعل ميثولد رجلاً لا يمكن أن تقاومه النساء اللواتي كن يشعرن بأنهن عاجزات عن كبح الرغبة لديهن في تشويشه... وللفرق النصفي في شعر ميثولد شأن كبير ببداياتي. فقد كان واحداً من الخطوط الشعرية التي تحرك عليها التاريخ والشهوة الجنسية معاً، كالحبال التي يمشي عليها البهلوانات.

(لكن رغم كل شيء، فإنني أنا، الذي لم تقع عيناي على أسنانه البراقة أو شعره ذي التسريحة المدمرة، أجدني عاجزاً عن حمل أي غل له). وأنفه؟ ما كان يشبه يا ترى؟ بارز؟ نعم، بل ينبغي أن يكون كذلك، فهو سليل جدة فرنسية ـ من برجراك ـ كان دمها يجري أزرق مخضراً في عروقه مظللاً سحره الملكي بشيء أشد قسوة، بظل الأفسنتين[(١)] العذب المهلك.

ممتلكات ميثولد بيعت بشرطين: الأول هو أن تشترى المنازل بكل ما فيها وأن يحتفظ المالكون الجدد بمحتوياتها كاملة، والثاني هو ألا يتم نقل ملكيتها الفعلي حتى منتصف الخامس عشر من آب.

«كل شيء؟» سألت أمينة سيناء «لا يمكنني أن ألقي بملعقة؟ الله! ومصباح ـ الزاوية ذاك!... ترى ألا يمكنني التخلص حتى من مشط؟».

«كل شيء، كل شيء» قال ميثولد «هذه شروطي... إنها نزوة يا سيد سيناء. ولسوف تسمح لمستعمر راحل بأن يلعب لعبة صغيرة؟ فلم يبق لنا، نحن البريطانيين سوى أن نلعب مثل هذه الألعاب».

«اسمعي الآن، اسمعي يا أمينة» يقول أحمد في ما بعد «هل تودين أن تقيمي في غرفة الفندق هذه إلى الأبد؟ إنه سعر خيالي، خيالي تماماً. ترى ماذا يمكنه أن يفعل بعد أن يوقع صك البيع؟ إذاً، حينذاك، يمكنك أن تلقي خارجاً بكل ما تريدين. وليس ثمة إلا شهران...».

«ستأخذون الكوكتيل في الحديقة» يقول ميثولد «الساعة السادسة مساء... إنها ساعة الكوكتيل، لم تتغير طوال عشرين عاماً».

«لكن يا إلهي! الدهان!! والخزائن الملأى بالثياب العتيقة، جانوم!

---

(١) نوع من الأعشاب الطبية يستخدم للهضم والإدرار.

لسوف يتعين علينا أن نبقي ملابسنا في الحقائب، فليس هناك مكان لحقيبة واحدة!» «عمل سيئ يا سيد سيناء» يقول ميثولد وهو يرشف وسكيه الاسكتلندي بين الصبار والورد. «عمل لم أرَ مثيلاً له. مئات السنين، وفي البلاد حكم نزيه، ثم فجأة، يطير كل شيء. أنت تعترف ولا شك أننا لم نكن سيئين جميعاً: فقد شققنا لكم الطرق، بنينا المدارس، سكك الحديد، النظام البرلماني وكلها أشياء جديرة بالاعتبار تاج محل نفسه كان يتداعى إلى أن بات الانكليزي نفسه يكره النظر إليه. والآن، فجأة يأتي الاستقلال. سبعون يوماً ونخرج. إنني ضد ذلك حتى الموت لكن ماذا يسعني فعله؟».

. . . و . . . «انظر إلى البقع الموجودة على السجاد، جانوم! شهرين كاملين يتعين علينا أن نعيش كهؤلاء البريطانيين؟ هل رأيت غرف الحمام؟ لا ماء قرب المرحاض. يا إلهي! أنا لم أصدق أبداً أنهم لا يمسحون مؤخراتهم إلا بالورق فقط. . . لكن ذلك صحيح. . !».

«قل لي يا سيد ميثولد» يقول أحمد سيناء وقد تغير صوته، ففي حضور رجل إنكليزي يغدو صوته تقليداً مضحكاً للنبرة الأكسفوردية لماذا تصر على المهلة؟ البيع المباشر أفضل أنواع البيع. فلننه الأمر كله».

و . . . «صور نساء إنكليزيات في كل مكان، بابا! لا يوجد مكان أعلق فيه صورة والدي على الحائط! . . .».

«يبدو يا سيد سيناء» يقول السيد ميثولد وهو يملأ الكؤوس مرة ثانية والشمس تغوص في مياه بحر العرب خلف أحواض بريتش كاندي «يبدو أنه، تحت هذا المظهر الخارجي الانكليزي القاسي الذي تراني عليه يختفي ذهن فيه توق هندي للرمز والغموض».

«والإفراط في الشراب، جانوم. . . أمر في غاية السوء».

«أنا غير متأكد ـ سيد ميثولد، آه ـ ما تعني تماماً بـ . . .».

«أوه، أنت تعلم: فأنا طبقاً للطراز القائم، سلطة في طور الانتقال. لذا أرغب بنقل ملكيتي هذه في الوقت نفسه الذي يقوم به الحاكم بذلك، وكما قلت: هي لعبة. فسايرني سيد سيناء. . . ألا تفعل؟ ثم إن السعر جيد، وقد اعترفت بذلك».

«هل فقد عقله جانوم؟ ما رأيك: هل هو أمر سليم أن تعقد صفقة معه إن كان مخبولاً؟».

«الآن اسمعي يا امرأة» يقول أحمد سيناء «لقد طال الأمر بما فيه الكفاية. السيد ميثولد رجل حسن التربية، شريف، لن يكون لي اسمه... علاوة على ذلك، فإن المشترين الآخرين لن يثيروا مثل هذه الضجة، أنا واثق من ذلك... وعلى أي حال، فقد أعطيته كلمة، قلت نعم. وهذا ينهي كل شيء».

«خذ بسكويتة» يقول السيد ميثولد، مقدماً له طبقاً من البسكويت «هيا، سيد سيناء. أجل، قضية غريبة، لم أر ما يشبهها قط. العاملون لدي ـ وأكثرهم هنود، ـ يتخلون فجأة عن كل شيء ويذهبون. حالة سيئة. لقد فقدوا لقمة عيشهم من اجل الهند. هكذا، فجأة، بين عشية وضحاها. أمر محير بالنسبة إلى شخص بسيط مثلي. لقد بدوا وكأنهم يغسلون أيديهم ـ رفضوا أن يأخذوا أي شيء معهم. خالصين، نظيفين عادوا إلى أوطانهم، لا يملكون قرشاً واحداً، كلهم، أتفهم؟ لذلك خطرت لي فكرتي هذه».

«... أجل... أجل.. قرر» تقول أمينة بروح معنوية مرتفعة «إنني أجلس هنا متكومة على نفسي وجنين في بطني، ماذا ينبغي أن أفعل به؟ أينبغي أن أعيش في بيت من بيوت الغرباء والجنين ينمو في أحشائي؟ قل، ماذا؟... أوه! أية أشياء تجعلني أفعلها..؟؟».

«لا تصرخي» يقول أحمد وهو يطوف في غرفة الفندق «إنه منزل جيد. أنت تعلمين أن البيت أعجبك... وماذا هناك.. شهران.. أقل من شهرين.. ماذا؟ هل الجنين يرفس؟ دعيني أتلمس.. أين؟ هنا؟».

«هناك» تقول أمينة وهي تمسح أنفها «رفسة كبيرة تماماً».

«فكرتي» يشرح السيد ميثولد وهو يحدق إلى الشمس الغاربة «هي أن أنقل ممتلكاتي على مراحل، أترك كل شيء تراه عيناك، اختار أشخاصاً مناسبين ـ مثلك أنت، سيد سيناء ـ أسلم كل شيء سليماً تماماً في حالة ممتازة. انظر حولك: كل شيء في حالة رائعة، ألا توافقني؟ جاهز تماماً.. ممتاز». «أناس حسنون يشترون المنازل» يقول أحمد وهو يقدم لأمينة منديله

«جيران جدد رائعون. . . السيد هومي كاتراك في فيلا فرساي وهو رجل فارسي، صاحب خيول سباق يعمل في إنتاج الأفلام وما إلى ذلك، وآل ابراهيم في سان سوسي، الزوجة نوسي ابراهيم حامل أيضاً وبإمكانكما أن تصبحا صديقتين. . . والرجل العجوز ابراهيم، صاحب مزارع السيزال(١) الكبيرة في أفريقيا إنها عائلة جيدة».

«في ما بعد، هل يمكنني أن أفعل ما أشاء بالمنزل؟».

«أجل. . في ما بعد. . طبعاً، فهو سيذهب. . ».

«. . . كل شيء على ما يرام». يقول السيد ميثولد وقد انتهى كل شيء، «هل تعلم أن جدي البعيد هو الرجل الذي خطرت له فكرة بناء هذه المدينة بكاملها؟ نوع من بيع بومباي باليانصيب وباعتباري حفيده، وفي هذه اللحظة التاريخية الحاسمة أشعر، لا أدري لماذا، بنوع من الحاجة لأن أؤدي دوري، أجل. . على نحو رائع. . فمتى تنتقل؟ قل كلمتك ولسوف أنتقل إلى فندق تاج. غداً؟ رائع. سابكوش، تيكتوك، هاي(٢)».

* * *

أولئك هم الناس الذين قضيت بينهم طفولتي: السيد هومي كاتراك قطب من أقطاب السينما وصاحب خيول سباق، مع ابنته البلهاء توكسي التي كان عليه أن يحبسها في المنزل مع مربيتها، باي آبا، أرهب امرأة رأتها عيني، وكذلك آل ابراهيم في سان سوسي حيث كانت تتألف الأسرة من ابراهيم الشيخ العجوز بعثنونه وسيزاله، وولديه اسماعيل واسحق إضافة إلى زوج اسماعيل الرقيقة المرتبكة سيئة الطالع نوسي، التي كنا نسميها نوسي ـ البطة بسبب مشيتها المتمايلة، والتي كانت تحمل في أحشائها صديقي سوني الذي كان حتى ذلك الحين يدنو ويدنو من مغامرته السيئة مع ملقط الطبيب النسائي. . . أما فيلا اسكوريال فقد قسمت إلى طابقين. . . في الأرضي كان يقطن السيد دوباش، وهو عالم فيزياء أصبح في ما بعد علماً من أعلام قاعدة

---

(١) هو الليف الأبيض.
(٢) كل شيء على ما يرام.

الأبحاث الذرية في ترومبي، مع زوجته، وهي امرأة تافهة كان يختفي تحت تفاهتها تزمت ديني حقيقي ـ لكنني سأدع ذلك جانباً، ولن أذكر إلا انهما كانا والدي سيروس (الذي ستحمل به أمه بعد بضعة أشهر).

سيروس. ناصحي الأول الذي كان يقوم بأدوار البنات في التمثيليات المدرسية وكان يشتهر باسم سيروس العظيم. علاوة على هؤلاء جميعاً كان هناك صديق والدي الدكتور مارليكار الذي اشترى طابقاً هو الآخر. . . ورغم أنه كان أشد سواداً من أمي فقد كان يتصف بالقدرة على التألق في أي وقت يُثار فيه أو ينفعل، كما كان يكره الأطفال رغم أنه هو الذي كان يأتي بهم إلى هذا العالم، نارليكار الذي سيبعث إلى المدينة، لدى وفاته، بتلك القبيلة من النساء اللواتي كان باستطاعتهن أن يفعلن أي شيء دون أن يقف أي عائق في طريقهن. أخيراً، وفي الطابق العلوي، كان هناك المقدم سبرماتي ـ سبرماتي الذي كان أحد أشهر الطيارين في الأسطول ـ وزوجته ليلى ذات الميول الباهظة التكلفة، سبرماتي الذي لم يكن قادراً على أن يصدق أن حظه واتاه أخيراً فابتاع له منزلاً بمثل ذلك الثمن البخس. كان لديهما صبيان، أولهما في شهره الثامن عشر والثاني في الشهر الرابع، وهما الطفلان اللذان سيصبحان في المستقبل بليدين وصخابين وسيحملان اسمين مستعارين هما سلايس آيز «أبو نصف عين» وهير أويل «زيت الشعر» ولا يعلمان (وأنى لهما ذلك؟) أنني سأدمر حياتهما. . . هؤلاء الناس، الذين اختارهم وليام ويثولد والذين سيشكلون الدائرة المركزية لعالمي، انتقلوا إلى ممتلكات ميثولد وقبلوا نزوات الرجل الانكليزي الغريبة ـ فقبل كل شيء، كان السعر مناسباً تماماً.

. . . ثلاثون يوماً ويتم نقل السلطة، وليلى سبرماتي على الهاتف: «كيف يمكنك تحمل ذلك يا نوسي؟ في كل غرفة ببغاء تتكلم وفي الخزائن ثياب أكلها العث ومناهد مستعملة!». . . ونوسي تخبر أمينة «سمك ذهبي، يا إلهي! أنا لا أستطيع تحمل هذه المخلوقات، لكن السيد ميثولد يأتي بنفسه لإطعامها. . . كما توجد أواني بوفريل[1] نصف فارغة يقول إنني لا أستطيع

---

(١) نوع من الشراب.

التخلص منها... إنه جنون، يا أخت أمينة، فكيف نتصرف على هذه الشاكلة؟». والعجوز ابراهيم يرفض أن يشغل مروحة السقف في غرفة نومه، مغمغماً: «لسوف تقع تلك الآلة... لسوف تشطر رأسي شطرين ـ ليت شعري كم من الزمن يمكن لشيء ثقيل كهذه المروحة أن يبقى معلقاً بالسقف؟».

... وهومي كاتراك، الذي كان أشبه بالزاهد، يضطر لأن يستلقي على فراش رحب وثير، يشكو من وجع الظهر والأرق، والحلقات السود المنتفخة حول عينيه بينما يقول له خادمه «لا عجب أن السادة الأجانب ذهبوا جميعاً يا سيدي، فلا بدّ من أنهم كانوا يموتون كي يحصلوا على قسط من النوم».

لكنهم جميعاً تمسكوا بما حصلوا عليه، فقد كان هناك حسنات كما كان هنالك سيئات. اسمعوا ليلى سبرماتي (تلك المرأة التي كانت أجمل من أن تكون صالحة ـ كما كانت تقول أمي) وهي تقول: «بيانو. أخت أمينة! بيانو! وهو شغال.. إنني أجلس طوال النهار أعزف وأعزف... ما لا يعلم إلا الله!». «الأيدي الشاحبة التي أحببت بجوار الشاليمار». «شيء رائع... رائع كثيراً. يكفي أن تدوسي على الدواسات فقط..»... أما أحمد سيناء فيجد خزانة كوكتيل في فيلا باكنغهام (التي كانت منزل ميثولد الخاص قبل أن تصبح منزلنا) ثم يكتشف مباهج الوسكي الاسكتلندي اللطيف ويهتف «ماذا إذاً؟ السيد ميثولد رجل غريب الأطوار.. هذا كل ما في الأمر، ترى ألا يمكننا أن نسايره؟ ألا يمكننا، نحن أصحاب الحضارة القديمة، أن نكون متحضرين مثله؟».. ثم يعب كأسه عبة واحدة. حسنات وسيئات: «تلك الكلاب التي تنبغي العناية بها جميعاً، يا أخت نوسي». تتذمر ليلى سبرماتي: «إنني اكره الكلاب، كل الكراهية، وقطتي الصغيرة شوشي، إنها رائعة تماماً، أقسم على ذلك، شوشي مذعورة تماماً»... والدكتور نارليكار المتوهج غضباً يصرخ: «صور أطفال فوق فراشي! يا أخ سيناء! ماذا أقول؟ أطفال سمان! ورديو البشرة! ثلاثة أطفال! هل هذا معقول؟»... ثمة عشرون يوماً على الموعد المضروب. الأمور تستقر، تتثلم أطرافها الحادة، وهكذا يعجزون جميعاً عن ملاحظة ما يحدث: الأرض، أرض ميثولد وفيلاته،

تغيرهم، ففي السادسة من كل مساء يخرجون إلى حدائقهم، يحتفلون بساعة الكوكتيل، وحين يمر بهم وليام ميثولد يجدون أنفسهم، بصورة لا إرادية، يحاكون نبرة أكسفورد. . . كما أنهم يتعلمون، يتعلمون كل شيء عن مراوح السقف وأفران الغاز والنظام الغذائي الصحيح لطيور الببغاء، بينما يشرف ميثولد بنفسه على تحولهم، مغمغماً بكلام لا يفهمه أحد. اصغوا بشدة، ما تراه يقول؟ أجل. . . هذا ما يقول «سبكوش تكتوك هاي» يغمغم وليام ميثولد: «كل شيء على ما يرام».

حين أعلنت جريدة «التايمز الهندية»، طبعة بومباي الباحثة عن زاوية تثير اهتمام الناس باحتفالات الاستقلال القادمة، أنها ستقدم جائزة لأي أم من بومباي تلد طفلاً في اللحظة ذاتها التي تتم فيها ولادة الأم الجديدة، حينها أصبحت أمي سيناء، التي كانت قد أفاقت لتوها من حلم غامض يدور حول ورق الذباب، غير قادرة على الابتعاد عن صفحة الجريدة، وهكذا ألقت بها تحت أنف أحمد سيناء، بينما أشارت إصبعها إلى مكان الخبر وأعلن صوتها بكثير من اليقين والثقة بالنفس «انظر جانوم؟. . . هذه الأم ستكون أنا».

وانتصبت أمام أعينهما رؤيا لعنوان رئيسي ذي أحرف كبيرة يقول: «وقفة ساحرة للطفل سيناء ـ طفل الساعة المجيدة هذه!». رؤيا للقطات ـ طفل صغير على الصفحة الأولى، غير أن أحمد بدأ يناقش: «لكن، فكري بكل ما هو ضد هذا الاحتمال يا بيجوم». إلا أنها زمت شفتيها زمة الإصرار ثم ردت: «بالنسبة إلي، ليس هناك لكن. فأنا تلك الأم. . . إنني متأكدة من ذلك. . لكن لا تسألني كيف تأكدت؟».

ورغم أن أحمد كرر نبوءة زوجته لوليام ميثولد، كمزحة من مزح ساعة الكوكتيل، إلا أن قناعة أمينة بقيت راسخة لا تتزعزع، إذ رغم ضحك ميثولد وقوله: «حدس امرأة ـ شيء رائع يا سيدة سيناء! لكن بالحقيقة لا يمكنك أبداً أن تتوقعي منا أن. . .». ورغم ضغط النظرة البلهاء لجارتها نوسي ـ البطة التي كانت حاملاً هي الأخرى والتي قرأت «التايمز الهندية» أيضاً، فقد ظلت أمينة متمسكة بموقفها لأن نبوءة رامرام كانت قد غاصت في أعماق نفسها. فالحقيقة أن أمينة وجدت مع تقدم حملها، أن كلمات العراف كانت تحط

بثقل أكبر وأكبر على كاهلها، رأسها، بطنها المنتفخ، إلى درجة ألفت نفسها تخشى كل الخشية أن تلد غلاماً ذا رأسين، وراحت بشكل من الأشكال تهرب من سحر أرض ميثولد كي تبقى بمنجاة من عدوى ساعات الكوكتيل وطيور الببغاء والبيانو، والنبرة الانكليزية. . . إذاً، في البداية كان ثمة ارتياب يحمل معنيين بالنسبة لتيقنها من أنها ستفوز بجائزة التايمز، إذ كانت مقتنعة تماماً أنه إذا ما صح هذا الجزء من النبوءة فإن البقية ستصح، أياً كان معناها. لذلك لم يكن ما قالته أمي حينذاك يحمل نغمة الكبرياء والحدس الخالصين «دعك من الحدس يا سيد ميثولد. . . هذه حقيقة مؤكدة».

ثم أضافت لنفسها: «ولسوف أنجب صبياً أيضاً. لكن سيكون بحاجة للكثير من الرعاية، أو ما شابه».

ففي أعماق شرايين أمي، وربما أعمق مما تستطيع معرفته كما يخيل إليّ، كانت التصورات الغريبة لنسيم عزيز قد بدأت تؤثر في أفكارها وسلوكها ـ تلك التصورات التي أقنعت الأم المبجلة بأن الطائرات من صنع الشيطان، وأن آلات التصوير تسلب الإنسان روحه، وأن الأشباح هي جزء لا يتجزأ من الواقع مثلها مثل الجنة، وإنه ما من شيء أشد إثماً من أن تفرك أذناً مقدسة بين إيهامك وسبابتك. تلك التصورات ذاتها كانت قد بدأت تطوف في رأس ابنتها المظلم، «حتى وإن كنا نقيم بين هذه القمامة الانكليزية كلها» شرعت أمي تفكر: «فهذه لا تزال الهند، وأناس مثل رامرام سيث يعرفون ما يعرفون». بهذه الطريقة حل محل ريبية والدها الحبيب إيمان جدتي ويقينها، وفي الوقت نفسه بدأ يحل محل حب المغامرة الذي ورثته أمينة عن والدها شيء آخر له الثقل نفسه تماماً.

حين بدأت الأمطار تهطل في نهاية حزيران، كان الجنين داخل رحمها قد تشكل تماماً، الركب والأنف كانت قد تشكلت كلها، وكذلك الرؤوس التي كان بإمكانها أن تنمو. وما كان (في البداية) لا يزيد في حجمه على النقطة أصبح فاصلة فجملة ففقرة ففصلاً. ثم طفقت تعقيدات أكثر تدخل عليه كي يصبح، كما يمكن للمرء أن يقول، كتاباً ـ وربما موسوعة ـ بل حتى لغة كاملة. . . وهكذا فإن الكتلة التي كانت ترقد في أحشاء أمي، نمت وكبرت

إلى أن أصبحت ثقيلة تماماً، وحين هطلت الأمطار الغزيرة على الرابية ذات ارتفاع الدورين وبدأت الباصات الملقاة على الشاطئ تصدأ والأولاد يسبحون في برك الوحل على الطرقات والجرائد تتبلل تحت السطوح. وجدت أمينة نفسها في غرفة دائروية من غرف الطابق الأول، تنوء تحت ثقل بالونها الرصاصي.

مطر لا ينتهي. الماء يتسرب إلى الداخل من النوافذ التي كان زجاجها الملون برسوم مختلفة يتراقص على الألواح المثبتة. والمناشف المحشوة في فجوات النوافذ، تبتل بالماء إلى درجة تغدو فيها ثقيلة، مشبعة، لا تصلح لشيء. والبحر: رمادي ثقيل الوطأة يمتد ليلتقي عند الأفق القريب بالسحاب الماطر. والمطر يدق في أذني أمي، مسبباً مزيداً من الإرباك الذي أحدثه العراف والسذاجة الأمومية وأشياء الغرباء المزعزعة للثقة. . . ليجعلها هذا كله تتخيل كل ما في الكون من غرائب. كانت أمينة، وقد وقعت في شرك جنينها النامي، تتصور نفسها قاتلة مدانة في أيام المغول، حين كانت عقوبة الموت بالسحق تحت صخرة كبيرة عقوبة شائعة. . . وفي السنوات التالية، حين كانت تعود بذاكرتها إلى ذلك الزمن الذي سبق إنجابها لطفلها الأول، ذلك الزمن الذي كانت فيه تكتكة العد التراجعي تدفع كل شيء باتجاه «١٥» آب، فإنها كانت تقول: «لا أعرف شيئاً عن ذلك. بالنسبة إلي، كان ذلك الزمن أشبه بزمن توقف تماماً. فالجنين في أحشائي كان قد أوقف الزمن. أنا واثقة من ذلك، لكن لا تضحكوا مني: ترى هل تتذكرون ساعة البرج في طرف الرابية؟ أقول لكم، بعد أمطار الخماسين تلك لم تعمل قط».

أما موسى، الخادم العجوز، الذي رافق الزوجين إلى بومباي، فقد انطلق يخبر الخدم الآخرين، في مطابخ القصور ذات الآجر الأحمر وفي الأكواخ الواقعة في المناطق الخلفية من فيلات فرساي واسكوريال وسان سوسي: «لسوف يكون طفلاً حقيقياً غالياً! أجل، يا سادة! لسوف ينتزع الجائزة. انتظروا تروا!». سر الخدم كثيراً، ذلك أن مولد طفل أمر رائع ومولد طفل غير عادي أروع وأروع. . .

. . . فيما كانت أمينة التي أوقف بطنها الزمن، تجلس بلا حراك في

إحدى غرف البرج وتقول لزوجها: «ضع يدك هنا. تلمسه.. هنا، هنا، هل تشعر به؟ غلام قوي كبير تماماً... طفلنا الصغير فلقة من القمر».

وهكذا، لم تنته الأمطار حتى كانت أمينة قد أصبحت ثقيلة إلى درجة بات يتعين معها على اثنين من الخدم أن يرفعاها، وحين جاء «وي ويلي وينكي» كي يغني في حلقة السيرك المقامة بين المنازل الأربعة، حينها فقط أيقنت أمينة أنها ليست الوحيدة التي تنافس على جائزة التايمز بل هناك اثنتان أخريان (اثنتان تعرفهما) وأن المنافسة، سواء كانت هناك نبوءة أم لم تكن، باتت وشيكة النتائج. «وي ويلي وينكي هو اسمي، أن أغني من أجل لقمتي هي صنعتي».

مشعوذون سابقون، أصحاب صناديق دنيا، مغنون... كل شيء كان قريباً... وكان ذاك كله قبل أن أولد إذ كان المشتركون في الحفلة العامة سيعزفون موسيقى مولدي.

«آمل أن تأتي إلى المائدة»!... أو: «هل أنت آت لتناول الشاي؟» أو: «نكتة ـ نكتة، سيداتي سادتي... فلتضحكوا الآن».

وكان ذلك هو المهرج الذي يحمل أكورديوناً ويقف في حلبة السيرك. أما في حدائق فيلا بكنغهام، فقد كان إبهام والدي يتمشى (مع زميلاته التسع الأخريات في القدمين) إلى جانب الفرق النصفي لوليام ميثولد لكن على مستوى أدنى منه... إبهام مصندل بارز غير مدرك لساعة هلاكه القادمة. أما وي ويلي وينكي (الذي لا يعرف اسمه الحقيقي أحد) فقد كان يطلق النكات ويغني. ومن شرفة الطابق الأول، كانت أمينة ترقب وتصغي، ومن الشرفة المجاورة كانت تشعر بوخز النظرات الحاسدة المنافسة التي كانت ترقبها بها نوسي ـ البطة.

... بينما أشعر، وأنا إلى طاولتي، بوخزات نفاد صبر بادما التي تقول: «لا أريد معرفة شيء عن هذا «الوينكي» الآن. لقد انتظرتك الأيام والليالي وأنت لم تولد بعد». لكنني أستلهمها الصبر، فلكل شيء أوانه. صحيح أنني أزعج إلهتي، إلهة اللوتس، لكن لوينكي زمانه ومكانه. إنه يضايق السيدات الحوامل وهن في شرفاتهن، حين ينتقل من الغناء إلى القول: «هل سمعتن

بالجائزة أيتها السيدات؟ زوجتي، أيضاً، فنيتا، سيحين موعد ولادتها سريعاً. . . سريعاً، وربما هي، لا أنتن، من ستنشر صورتها على صفحات الجرائد». . . فتقطب أمينة جبينها بينما يبتسم ميثولد (أهي ابتسامة مغتصبة؟ ولماذا؟) تحت فرقه النصفي، أما شفة والدي فتبرز أكثر وأكثر بينما يطوف إبهامه الكبير، وهو يقول: «إنه شخص صفيق. . . يتجاوز الحد كثيراً» لكن في تلك اللحظة، وفيما يبدو نوعاً من الانزعاج ـ وحتى الإثم ـ يقرّع ميثولد أحمد سيناء «هراء أيها العجوز. . . إنك تعلم تقاليد الحمقى المهرجين. . . من المسموح لهم أن يشاكسوا ويناكدوا، إنهم صمام أمان هام في المجتمع». ويهز والدي كتفيه مهمهماً «هـ. . . م. . . . . م. . . م. . لكنه من النوع الذكي هذا الوينكي، نظراً لأنه يصب الزيت على الماء في تلك اللحظة إذ يقول: «ولادة طفل شيء رائع وولادة طفلين أروع بمرتين! رائع جداً أيتها السيدات، إنها نكتة أترون؟». ثم يحدث تغير في الجو كله حين يقدم فكرة مثيرة، فكرة طاغية القوة.

«سيداتي سادتي، كيف يمكنكم أن تشعروا بالراحة هنا في خضم الماضي الطويل للسيد ميثولد؟ أنا أقول لكم؛ إنه مكان غريب ولا شك مكان غير حقيقي، إنه الآن مكان جديد، واعلموا سيداتي، سادتي، إنه ما من مكان جديد يغدو حقيقياً إلى أن يشهد ولادة ما. فأول ولادة تجعلك تشعر بأنك في بيتك»، ثم يغني أغنية «ديزي. . . ديزي. . ». . ويشارك السيد ميثولد في الغناء، لكن رغم ذلك يظل هناك شيء أسود يلطخ جبينه. . . .

هنا نصل إلى بيت القصيد: أجل، إنها جريمة، فصاحبنا وينكي قد يكون ذكياً ومضحكاً لكنه ليس ذكياً بما فيه الكفاية، والآن آن الأوان لكشف أول سر من أسرار الفرق ـ النصفي للسيد وليام ميثولد. لقد انحدرت منه قطرات لطخت وجهه: فذات يوم، وقبل زمن طويل من تكتكة موعد الاستقلال وصفقة بيع المنازل بما فيها، كان السيد ميثولد قد دعا وينكي وزوجته فنتا كي يغنيا له، وحده، في الغرفة التي باتت غرفة الاستقبال الرئيسية في منزل والدي. وبعد حين قال: «اسمع، وي ويلي. . . اعمل معروفاً يا رجل: أنا بحاجة لهذه الوصفة، إنني أعاني من صداع فظيع. . .

خذها إلى صيدلية كيمب كورنر، دع الصيدلي يعطيك الدواء. فالخدم جميعاً مصابون بالزكام». ولأن وينكي رجل فقير مسكين، فقد قال: «نعم يا سيدي، في الحال يا سيدي». ثم غادر، وعند ذاك باتت فنيتا وحيدة مع الفرق الرئيسي، فشعرت بأنه يمارس نوعاً من الجذب لأصابعها التي كان من المتعذر عليها أن تقاومه، وبما أن ميثولد كان يجلس بلا حراك في كرسي من القصب، مرتدياً بدلته الطحينية الخفيفة التي شكل وردة وحيدة في عروتها، فقد وجدت نفسها تدنو منه، وأصابعها تمتد، كما شعرت بأصابعها تتلمس شعره، تبحث عن الفرق النصفي فيه ثم تبدأ بتشويشه.

وهكذا، بعد تسعة أشهر، كان وي ويلي وينكي ينكت حول طفل زوجته الوشيك المجيء وكانت قطرة عرق تظهر على جبين الرجل الانكليزي.

«هكذا؟» تقول بادما: «لكن ما شأني بوينكي وزوجته التي لم تخبرني شيئاً عنها حتى الآن؟».

بعض الناس لا يقنعون أبداً، لكن بادما ستقتنع حالاً.

إنها الآن على وشك أن تلقى المزيد من الإحباط، وهي تنقذف في حلزون صاعد طويل بعيداً عن الحوادث التي وقعت في أرض ميثولد ـ بعيداً عن السمك المذهب والكلاب ومنافسات الإنجاب والفروق النصفية، بعيداً عن إبهامات الأقدام الكبيرة وسقوف القرميد ـ فأنا أطير عبر المدينة الجديدة النظيفة التي غسلتها الأمطار، تاركاً أحمد وأمينة لأغاني ويلي وينكي، متجهاً نحو منطقة القلعة القديمة، ماراً بنبع فلورا، واصلاً إلى مبنى كبير يعبق بضوء خافت رخيص ورائحة مباخر تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال... وهنا، في كاتدرائية القديس توماس، أجد الآنسة ماري بيريرا، تأخذ درساً عن لون الرب. «أزرق» كان الكاهن الشاب يقول بجدية تامة: «إن كافة الدلائل المتوفرة، يا ابنتي، تدل على أن سيدنا يسوع كان أجمل ظل بلوري لزرقة السماء الشاحبة». عند ذاك خيم الصمت للحظة من الزمن على المرأة الضئيلة الحجم الجاثمة خلف نافذة غرفة الاعتراف، تلك النافذة الخشبية المشبكة. وكان صمتاً ملؤه القلق والتفكير العميق، بعدئذٍ قالت: «لكن كيف ذلك يا أبتِ؟ فالناس ليسوا زرقاً. ليس هنالك من شخص أزرق في العالم كله!».

فطغت على الكاهن حيرة توازي دهشة المرأة الضئيلة. . . ذلك أن ردها لم يكن بالرد المتوقع. لقد قال الأسقف «المشكلة هي مع المهتدين حديثاً إلى الدين. . . فحين يسألون عن اللون يكونون دائماً على وشك أن. . . لذا، من الأمور الهامة أن تقيم جسوراً يا بني. تذكر ذلك». هكذا قال الأسقف: «الرب هو المحبة، وإله المحبة الهندوسي، كرشنا، يصفونه دائماً بأنه ذو بشرة زرقاء. إذاً، قل لهم أزرق، وسيقوم نوع من الجسور بين الديانتين، بل سوف تقوم دون أن يراها أحد، علاوة على ذلك فإن الأزرق نوع محايد من الألوان، تتحاشون به مشاكل اللون المعتادة، يبعدكم عن الأبيض والأسود. أجل، بالإجمال، أنا واثق من أنه اللون الذي ينبغي أن تختاره». حتى الأساقفة يمكن أن يكونوا على خطأ، يفكر الكاهن الشاب، لكنه في تلك الأثناء كان محتاراً تماماً، فالمرأة الضئيلة التي بات من الواضح أنها دخلت حالة من الحالات، شرعت بإطلاق تعنيف حاد من خلال الشبك الخشبي، «أي جواب أجبته بقولك أزرق يا أبتِ؟ كيف تؤمن بشيء كهذا؟ عليك أن تكتب إلى الحبر الأعظم في روما، ومن المؤكد أنه سيهديك إلى الصواب، لكن ليس على المرء أن يكون حبراً أعظم كي يعرف أن لون الرجال ليس بالأزرق». يتلعثم الكاهن «فالبكتيون مثلاً وأعراب البوادي كلهم ذو جلود زرق مع زيادة معرفتك يا بنتي، سترين. . .». لكن، يوقف استرساله إصدار نخرة عنيفة ترتطم بكرسي الاعتراف: «ماذا يا أبتِ؟ أتشبه سيدنا يسوع بأناس همج متوحشين؟ يا إلهي! ينبغي أن أسد أذني خجلاً واستحياء». ثم تتحدث وتتحدث، بينما يشعر الكاهن الشاب، الذي تتشنج معدته فجأة بأن هناك شيئاً أكثر أهمية يختفي خلف قضية الزرقة هذه، فيسأل سؤالاً ينفرط التعنيف به إلى دموع، عندها يقول الكاهن الشاب بشيء من الذعر «هيا، هيا من المؤكد أن الألق المقدس لسيدنا الرب مسألة خضاب محض؟» فيتسرب صوت عبر الماء المالح «أجل، يا أبت، فأنت، رغم كل شيء لست شيئاً سيئاً كثيراً. لقد قلت له ذلك الشيء تماماً، لكنه تلفظ بكثير من الكلمات البذيئة ولم يصغ. . .». هو ذا الأمر إذاً، لقد دخل «هو» في القصة. الآن يتضح كل شيء، فالآنسة ماري بيريرا، العذراء الدقيقة الضئيلة الحجم، تعترف اعترافاً يقدم لنا المفتاح

البالغ الأهمية لفهم دوافعها حين قامت، ليلة مولدي، بآخر وأهم مساهمة في تاريخ هند القرن العشرين بكامله، منذ اللحظة التي تلقى فيها جدي خبطة الأنف وحتى بلغت رشدي.

اعتراف ماري بيريرا: فهي، شأن كل ماري، كان لها يوسفها، يوسف ديكوستا الذي كان حاجباً في مستوصف شارع بيدرو يدعى «دار الرعاية للدكتور نارليكار» («أوه!» تهتف بادما وقد رأت الصلة أخيراً) وهناك كانت تعمل ماري كقابلة. كل شيء كان على ما يرام في البداية، إذ كان يدعوها لتناول كأس من الشاي أو عيران اللبن، أو الفالوذج ويحكي لها أشياء حلوة عذبة. كانت له عينان كمثاقب الطرق، حادة قاسية، تقرّع لكنه كان يتكلم كلاماً عذباً لطيفاً. وكانت ماري الضئيلة الحجم، المكتنزة، العذراء تبتهج لاهتمامه بها، لكن كل شيء كان قد تغير في تلك الآونة.

فجأة، فجأة بات يشمخ بأنفه طوال الوقت. بطريقة مضحكة يرفع أنفه في السماء، فأسأله: «أأنت مصاب بالزكام، يا جو، أم بشيء آخر» لكنه يقول: «لا، لا» ثم يشمخ بأنفه أكثر وأكثر. لكنني أقول له: جو، الريح في بومباي تهب من البحر، من الغرب، فلم تتنشق الهواء من الشمال يا جو؟...». وبصوت هش تصف ماري بيريرا ثورات يوسف ديكوستا بعد ذلك، إذ يقول لها: «أنت لا تفهمين شيئاً يا ماري. الريح تهب من الشمال الآن، وهي مشبعة برائحة الموت. هذا الاستقلال للأغنياء فقط، أما الفقراء فسيجعلهم الأغنياء أولئك يقتلون بعضهم بعضاً كالذباب. في البنجاب، في البنغال، اضطرابات، اضطرابات، فقراء ضد فقراء. رائحة ذلك في ثنايا الريح». فتقول ماري: «إنك تتكلم كالمجانين يا جو، ترى لماذا تزعج نفسك بأمور كهذه؟ بإمكاننا أن نعيش بسلام تماماً، أليس كذلك؟»، «لا عليك، فأنت لا تفقهين شيئاً».

«لكن... يوسف، حتى لو كان ما تقوله صحيحاً، فالأمر سيقتصر على الهندوس والمسلمين. إذاً لماذا يزج المسيحيون الصالحون أنفسهم في مثل ذلك وهم يعلمون أن أولئك الناس سيظلون في حالة اقتتال أبد الدهر؟».

«آه منك ومن مسيحك! ألا تستطيعين أن تفهمي أن ذلك الدين هو دين

الرجل الأبيض؟ إذاً، دعي الآلهة البيض للناس البيض. في هذه اللحظة شعبنا يموت، وعلينا أن نرد، أن نري الناس من ينبغي أن يقاتلوا بدلاً من أن يقاتلوا بعضهم بعضاً، هل ترين؟».

بعدئذٍ تقول ماري: «ذلك هو السبب الذي دفعني للسؤال عن اللون يا أبت... فقد قلت ليوسف المرة تلو الأخرى إن الاقتتال عمل سيئ، انزع من رأسك هذه الأفكار الوحشية، لكنه امتنع عن التحدث معي وشرع يتعلق بأنماط خطرة، الأمر الذي جعل الإشاعات تنطلق حوله يا أبت... كيف يقذف السيارة الكبيرة أمام الناس جميعاً بالآجر، بالزجاجات الحارقة. لقد جن يا أبت، فهم يقولون إنه يساهم في حرق الباصات وتفجير الحافلات وما إلى ذلك. وما فعلته يا أبت أنني أخبرت أختي عن ذلك كله. وأختي «أليس» فتاة طيبة فعلاً. لقد قلت لها: «يوسف ذاك. إنه يعيش قرب المسلخ، ولعل رائحة المسلخ هي التي سكنت أنفه وجعلته يشيل برأسه هكذا». وهكذا ذهبت أليس تبحث عنه. «سأكلمه من أجلك» قالت، ولكن بعد ذاك، أوه يا إلهي! ماذا حدث للعالم؟ «أقول لك الحقيقة يا أبتِ، أوه يا إلهي!..». وتفيض سيول تغرق كلماتها، تجعل أسرارها تتسرب مالحة المذاق من عينيها، فقد عادت أليس كي تقول: «إن ماري هي الملومة، بحسب رأيها، ذلك لأنها ضايقت يوسف إلى أن جعلته يكرهها، بدلاً من أن تقدم له الدعم والمؤازرة في قضيته الوطنية، قضية إيقاظ شعبه». كانت أليس أصغر من ماري سناً وأكثر جمالاً، بعد ذلك بدأت إشاعات أخرى، إشاعات حول يوسف وأليس، فطفح الكيل بماري، «تلك الفتاة» قالت ماري «ما تراها تفقه في السياسة؟ إنها، لكي تنشب مخالبها في عنق يوسف، قد تكرر أي هراء يقوله لها، تماماً كما تفعل الببغاء. أقسم على ذلك يا أبت...».

«انتبهي يا ابنتي! أنت توشكين أن تكفري...».

«كلا يا أبت... أقسم بالرب، أنا لا أعلم ما الذي لا أفعله لاستعادة ذلك الرجل. أجل: رغم كل شيء... بغض النظر عما هو...». وتنفجر ماري معولة... فيغسل الماء المالح أرض كرسي الاعتراف... والآن... هل هناك مأزق جديد أمام الكاهن الشاب؟ هل تراه، رغم آلام معدته، يوازن

بموازين خفية بين قداسة الاعتراف وخطورة رجل كيوسف على مجتمع متمدن؟ أتراه يسأل ماري عن عنوان يوسف، ومن ثم يبوح... قصارى القول، هل تصرف هذا الكاهن الشاب المضطرب المعدة، المسكون بأسقفه، على غرار مونتغومري كليفت أم خلافاً له في فيلم «أنا أعترف»؟ (لكن ليس بوسعي البت بذلك وقد رأيت ذلك الفيلم في سينما «الامبراطورية الجديدة» قبل بضع سنوات) ـ لكن، لا، مرة ثانية ينبغي أن أكتم شكوكي التي لا تقوم على أساس.

ما حدث ليوسف ربما كان سيحدث بشكل من الأشكال، وعلاقة الكاهن الشاب بقصتي لا تعدو أنه كان أول غريب يسمع بكراهية يوسف الشديدة للأغنياء وبحزن ماري بيرييرا اليائس. غداً سأستحم وأحلق ذقني، ولسوف أرتدي قميصاً جديداً، منشىً لامعاً وسروالاً يناسبه. كما سأحتذي خفاً مصقولاً كالمرآة معقوفاً في المقدمة وسوف أرجل شعري ترجيلاً بالغ الأناقة (لكن دون أن أفرقه في المنتصف ولسوف ألمع أسناني... أي بوجيز العبارة، سأسعى كي أبدو في أبهى صوري فتصدر عن بادما المتجهمة عبارة «شكراً لله»).

غداً، أخيراً، سأضع نهاية للقصص التي كان علي (نظراً لعدم وجودي عند مولدها) أن أستجرها من تجاويف ذاكرتي المدوِّمة، إذ لم يعد بالإمكان تجاهل موسيقى بندول العد التنازلي في تقويم مونباتن، أما في أرض ميثولد فقد كان موسى يتكتك مثل قنبلة موقوتة، لكن ما من أحد كان يمكنه سماعه، ففي تلك اللحظة كان صوت آخر يرتفع، صوت ملحٌّ يصم الآذان، صوت الثواني وهي تمر، صوت منتصف الليل المقترب، الحتمي كالقدر.

تكتكة

بوسع بادما أن تسمعها: ليس هنالك مثل عد تنازلي في جو من الترقب والقلق. لقد راقبت زهرتي الروثية وهي تعمل هذا اليوم، تحرك قدوراً كأنها الزوبعة، لكأن ذلك يجعل الزمن يمضي بسرعة أكبر، (ولعله يفعل، فالزمن، بحسب خبرتي، هو متغير ومتقطع كالتيار الكهربائي في بومباي. وما عليك، إن كنت لا تصدقني، إلا أن تتصل هاتفياً بالساعة الناطقة ـ فهي المتصلة بالكهرباء، يكون الخطأ فيها بضع ساعات عادة. وما لم نكن نحن المخطئين. . . فإنه ما من شخص، كلمة «الأمس» عنده مثل كلمة «غداً»، يمكن القول عنه إنه يمسك الوقت بقبضة راسخة).

لكن في هذا اليوم، سمعت بادما تكتكة مونباتن. . . صناعة انكليزية، دقة لا نظير لها. والآن، المصنع خال، الدخان يتصاعد، لكن القدور لا تزال وأنا عند وعدي، لابساً أبهى حللي، أحيي بادما وهي تندفع إلى مكتبي وتنطرح على الأرض بجانبي، تقول آمرة: . . . «أبداً» فأبتسم ابتسامة رضى خفيفة، ثم أتلمس «أطفال منتصف الليل» وهم يصطفون في ذهني رتلاً واحداً متدافعين متزاحمين مثل صيادات السمك الكوليات، آمرهم أن ينتظروا، فليس عليهم أن ينتظروا كثيراً بعد الآن، ثم أتنحنح، أنفض قلمي نفضة صغيرة وأبدأ.

قبل ثلاثين سنة من انتقال السلطة، كان جدي قد صدم أنفه بالتراب الكشميري، حيث كان هنالك ياقوت وألماس وحيث كان جليد المستقبل ينتظر تحت وجه الماء، وحيث أقسم قسمه الخالد «ألا ينحني لإله أو بشر»

ذلك القسم الذي أوجد فجوة كانت ستمتلئ بامرأة تتستر بملاءة مثقوبة، وحيث تنبأ نوتي ذات مرة أن سلالات تتوارى في أنف جدي ستنقله مغضبة عبر بحيرة: كما كان هناك أصحاب أراض عميان ووصيفات سيدات، وكذلك ملاءة في غرفة معتمة. ففي ذلك اليوم، بدأ تراثي يتشكل ـ زرقة السماء الكشميرية التي تسربت إلى عيني جدي، العناءات الطويلة التي تحملتها جدتي الكبرى والتي غدت تحملاً لدى أمي وقسوة فولاذية لدى جدتي نسيم عزيز، موهبة جدي الأكبر في محاورة الطيور التي ستتحدر عبر خطوط الدم المتمعجة إلى عروق أختي، القردة النحاسية، الصراع بين ريبية أجدادي وسذاجة جداتي، وقبل كل شيء ذلك الجوهر الشبحي لتلك الملاءة المثقوبة التي حتمت على والدتي أن تتعلم كيف تحب رجلاً بالتقسيط والتي حكمت علي أن أرى حياتي الخاصة ـ معنى ومبنى ـ بالتقسيط أيضاً، وعلى شكل فتات كذلك، كيلا أفهمها إلا بمرور الزمن، وبعد فوات الأوان.

السنون تمضي ـ وتراثي يتنامى، فأنا الآن لي أسنان ذلك النوتي تاي، أسنانه الذهب الأسطورية، وزجاجة براندیه التي تنبأت لوالدي بجنونه الكحولي، ولدي أيضاً شيء من إيلس لوبن في ما يتعلق بالانتحار، والأفاعي المخللة في ما يتعلق بالرجولة، في داخلي تاي ـ رمز ـ التقدم، وفي داخلي، أيضاً، روائح النوتي الذي لا يغتسل، تلك الروائح التي ساقت جدي إلى الجنوب وجعلت بومباي أحد الاحتمالات لمكان وجودي.

. . . والآن، أتحرك، مدفوعاً ببادما والتكتكة، متجاوزاً المهاتما غاندي وإضرابه السلمي، متخطياً حادث الإبهام والسبابة، متعدياً اللحظة التي لم يعرف فيها آدم عزيز ما إذا كان كشميرياً أم هندياً. والآن هاأنذا أتشرب المركوروكروم ولطخ اليدين التي ستتكرر على شكل عصارة فوفل تبصق ليبتلعها «داير» بشاربيه وكل ما فيه.

وينجو جدي بسبب أنفه بينما تظهر كدمة على صدره، لا تزال مدى الحياة. وهكذا نجد، أنا وهو، في حمى الهياج الدائم، وجواباً على ذلك السؤال: «أهندي أم كشميري؟» أننا نلقي بثقلنا إلى جانب الهند، وقد تركت قبضة حقيبة هايدلبرغ كدمة على الصدر، لكن غربة العينين الزرقاوين تبقى.

تاي يقضي نحبه لكن سحره يظل محوماً فوق رؤوسنا، يباعد في ما بيننا.

. . . ومع الاندفاعة السريعة، أتوقف كي ألتقط لعبة إصابة المبصقة. فقبل خمس سنوات من مولد أمتي، ينمو تراثي ليتضمن مرض التفاؤل الذي قد يتفشى مرة ثانية في زماني، والتشققات في الأرض التي سيكون عليها أن تولد مرة ثانية في جلدي والطنانين المشعوذين السابقين الذين يشكلون بداية الخط الطويل لممارسي تسليات الشوارع التي تسير في خط متوازٍ مع حياتي، وكذلك شامات جدتي التي تشبه حلمات أثداء الساحرات وكراهيتها للصور الفوتوغرافية ولازمتها التي لا تفارقها «ما اسمه»، وحروب التجويع والصمت وحكمة خالتي علياء التي تحولت إلى عنوسة ومرارة وتفجرت أخيراً على شكل انتقام قاتل، وحب أميرالدا وذو الفقار الذي سيتيح لي أن أشعل ثورة، والسكاكين الهلالية والأقمار المهلكة التي تردد أصداؤها أسماء التحبب التي أطلقتها أمي علي. . . إنني، وأنا أنمو، أكبر وأكبر الآن، عائماً في سائل الماضي النخطي، أتغذى على الهمهمة التي تصاعدت أعلى وأعلى إلى أن انطلقت الكلاب لإنقاذه، وعلى ذلك الفرار إلى حقل الذرة وذلك الإنقاذ الذي قام به غلام ـ العربة رشيد حين ركض مقلداً رعاة البقر ـ وبكامل سرعته ـ صارخاً صراخاً مكتوماً وكذلك حين كشف أسرار الأقفال المصنوعة في الهند وأدخل نادر خان إلى حمام يحوي صندوق غسيل. أجل، إنني أزداد ثقلاً يوماً بعد يوم، أسمن لحظة بعد لحظة بسبب صناديق الغسيل وحب ممتاز الذي يجري تحت السجاد لذلك الشاعر ذي الشعر المرسل، أزداد ضخامة وأنا أبتلع حلم ذو الفقار بحمام يقع إلى جانب مخدعه، حلم سواه بتاج محل يقع تحت الأرض، بمبصقة فضية مرصعة بحجر اللازورد، بزواج يتفكك فيغذيني، بخالة تجري وفي عروقها الخيانة مخترقة شوارع آغرا، بلا منديل يغطي رأسها وكتفيها، بلا شرف، فيغذيني ذلك أيضاً. الآن تنتهي البدايات، إذ لم تعد أمينة تلك الفتاة التي كانت تدعى «ممتاز»، كما غدا احمد سيناء، بشكل من الأشكال، والدها مثلما هو زوجها. . . تراثي يتضمن هذه الموهبة، موهبة اختراع أبوين جديدين لنفسي حين تقضي الحاجة، القدرة على إنجاب آباء وأمهات: ذلك الشيء الذي كان أحمد يبتغيه ولم يحدث قط.

عبر حبلي السري، أتشرب مراوغات المراوغين وأخطار شراء مراوح من ريش الطاووس، دأب أمينة يسقيني نسغه، وأشياء مشؤومة أخرى ـ الخطا المقعقعة، اضطرار أمي لأن تتوسل من أجل المال إلى أن يبدأ غطاء الطاولة الذي يغطي حجر أبي بالارتعاش وصنع قبة صغيرة ـ رماد حريق آرجونا أنديابيك، صندوق الدنيا الذي حاول ليفافا داس أن يحشوه بكل شيء في العالم، الأوغاد الذين أثاروا الشغب والاضطرابات، الوحوش ذات الرؤوس العديدة التي تتضخم في داخلي ـ عصابات الرافانا المقنعة، فتيات الثامنة من العمر بلثغهن وحواجبهن المقرونة المتصلة، والحشود التي تصرخ: «مغتصب نساء، مغتصب نساء»، الإعلانات العامة تعذبني وأنا أنمو منتظراً موعدي وليس هناك سوى سبعة أشهر كي أنطلق. ترى كم من أشياء وأناس وأفكار نأتي بها معنا إلى العالم!! كم من احتمالات وحدود احتمالات! ـ فهذه كلها هي التي أنجبت طفلاً ولد في منتصف الليل ذلك، وكل طفل من أطفال منتصف الليل لديه مثل ذلك أو أكثر بكثير. فمن بين آباء منتصف الليل هناك: فشل خطة البعثة الوزارية، قرار م. ع. جناح الذي كان على فراش الموت والذي كان يريد أن تقوم باكستان وهو على قيد الحياة وكان مستعداً لأن يفعل أي شيء لتحقيق تلك الأمنية. إنه جناح نفسه الذي رفض والدي، بحكم إضاعته الاتجاه الصحيح كالعادة، أن يقابله، ومونباتن بسرعته الخارقة للعادة وزوجته آكلة صدور ـ الدجاج، وهناك آخرون وآخرون ـ القلعة الحمراء والقلعة القديمة، القردة والنسور التي تهوي منها الأيدي وكذلك العرافون، مجبرو العظام، مدربو النموس وشري رامرام سيث الذي كان يتلفظ بالكثير من النبوءات. وعلاوة على ذلك حلم والدي في إعادة ترتيب القرآن وحرق المستودع الذي حوله إلى صاحب ممتلكات عقارية وليس أقمشة جلدية، وذلك الجزء من أحمد الذي لم تستطع أمينة أن تحبه. فلكي تفهم حياة إنسان واحد فقط عليك أن تستوعب العالم. ولقد قلت لك ذلك.

كذلك هناك صيادو السمك، كاترين براغانزا، مومباديفي، جوز الهند والأرز، تمثال سيفاجي وأراضي وممتلكات ميثولد، حوض السباحة المصنوع على شكل خارطة الهند البريطانية والرابية ذات ارتفاع الدورين، الفرق النصفي

والأنف المتحدر من برجراك، ساعة البرج العاطلة وحلقة السرك الصغيرة، تعلق رجل انكليزي بالرمز الهندي وإغواء زوجة عازف أكورديون. طيور الببغاء، مراوح السقوف، التايمز الهندية، كلها، كلها جزء من المتاع الذي جئت به إلى هذا العالم. فهل تعجب بعدئذٍ أنني كنت طفلاً ثقيلاً؟ يسوع الأزرق تسرب إلى داخلي وكذلك يأس ماري وقنوطها، وحشية يوسف الثورية وطيش أليس بيريرا وتقلب نزواتها... كل هذا ساهم في صنعي، أيضاً.

فإذا ما بدوت غريباً بعض الشيء، تذكر وفرة تراثي العجيبة... ولعلك، إذا ما رغبت في أن تبقى فرداً في خضم الحشود المحتشدة، ستكون مضطراً إلى أن تطبق القاعدة القائلة «خالف تعرف».

«أخيراً»، تقول بادما برضى واضح: «لقد تعلمت كيف تقول الأشياء بسرعة فعلاً».

* * *

الثالث عشر من آب، ١٩٤٧: سخط في السماوات. المشتري، زحل والزهرة في حال من الشؤم، والأكثر من ذلك أن الكواكب الثلاثة المنذرة بالشؤم تنتقل إلى المنزلة الأشد سوءاً وعدم ملاءمة. منجمو بيناريسي يدعونها، وملؤهم الخوف: «كرامستان! إنها تدخل كرامستان!».

وبينما يقوم المنجمون بتقديم تشبيهات مذعورة لرؤساء حزب المؤتمر، كانت أمي تستلقي في قيلولتها المعتادة بعد الظهر. وبينما كان الإيرل مونباتن يشكو من الافتقار للمؤمنين بالقوى الخفية، المدربين من بين أركانه ومساعديه، كانت الظلال الدائرة دوراناً بطيئاً لمروحة السقف تداعب أمينة الغارقة في النوم.

وبينما كان م. ع. جناح، المطمئن إلى أن باكستانه ستولد خلال إحدى عشرة ساعة فقط، أي قبل يوم كامل من حصول الهند على استقلالها الذي كان سيحدث بعد خمس وثلاثين ساعة من تلك اللحظة، بينما كان يسخر من احتجاجات المتاجرين بخرائط الأبراج، هازاً رأسه بارتياح، كان رأس أمينة يتحرك هو الآخر من جانب إلى آخر.

إنها راقدة، وفي تلك الأيام من حملها الذي جعل بطنها أشبه بالصخرة كان حلماً محيراً، حلمها بورق الذباب، يقض مضجعها دائماً. . . إنها تطفو في هذا الحلم الآن، وكما شأنها في أحلام مماثلة من قبل، كانت ترى نفسها وهي تطوف في عالم بلوري مليء بشرائط متدلية من مادة بنية لزجة تلتصق بملابسها وتمزقها إرباً إرباً وهي تتخبط في تلك الغابة من الأوراق المتعذرة على النفاذ، والآن ها هي ذي تكافح، تمزق الورق، لكنه يشدد من قبضته عليها إلى أن تجد نفسها عارية والجنين يرفس داخل أحشائها واستطالات طويلة من ورق الذباب تمسكها من رحمها المتموج، والورق يلتصق بكل ما فيه من صمغ على شعرها، أنفها، أسنانها، صدرها، فخذيها، وحين تفتح فمها وتهم بالصراخ تشعر بحشوة لاصقة بنية اللون تسقط بين شفتيها المنفرجتين فتكتم صراخها. . .

«بيجوم أمينة» يقول موسى «أفيقي! أفيقي! إنه حلم سيئ يا سيدتي البيجوم؟». أحداث تلك الساعات القليلة الأخيرة ـ أو الحثالة الأخيرة لتراثي: حين كان لا يزال هناك خمس وثلاثون ساعة على مجيئي، كانت أمي تحلم بأنها ملتصقة بورق بني وكأنها ذبابة. وفي ساعة الكوكتيل (أي قبل ثلاثين ساعة من مجيئي) قام وليم ميثولد بزيارة أبي في حديقة فيلا باكنغهام. الفرق ـ النصفي ينحشر بجانب الإبهام الكبير وفوقه، السيد ميثولد مستغرق في الذكريات.

حكايات ميثولد الأول الذي حلم بإقامة مدينة، كان يعبق بها جو المساء عند ذلك الغروب. وكان والدي ـ المقلد لنبرة أكسفورد، والمتشوق لترك انطباع ما على الانكليزي الراحل ـ يجيب بـ: «فعلاً أيها الصديق العجوز، عائلتنا عائلة متميزة تماماً هي الأخرى». ويصغي ميثولد: برأس مرفوع ووردة حمراء في عروة بدلته الطحينية وقبعة واسعة الأطراف تخفي فرق شعره النصفي ولمحة ارتياح خفية في عينيه. . . ويتابع أحمد سيناء، مدفوعاً بنشوة الويسكي وشعوره بالأهمية، يتابع موضوعه بحماسة أكثر: «دم مغولي بالحقيقة»، فيرد «لا، حقاً؟ أنت تسخر مني». ويضطر أحمد، الذي تجاوز نقطة اللاعودة، لأن يتابع: «بصفة غير شرعية طبعاً، لكن، مغولي بالتأكيد».

تلك كانت، وقبل ثلاثين ساعة من مولدي، الكيفية التي بيّن بها والدي أنه، هو الآخر، يتوق لأن يكون له أسلاف خياليون... الكيفية التي عمل بها على اختراع نسب لعائلة سيعمل، في سنين لاحقة، حين يكون الويسكي قد ثلَّم ذاكرته وزجاجات الجن قد توصلت لتشويشه تماماً، سيعمل على محو كل أثر للحقيقة... وكذلك الكيفية التي أدخل فيها إلى حياتنا فكرة اللعنة التي حلت بالعائلة من قبل.

«أوه، نعم» يقول والدي بينما يميل ميثولد برأسه الرصين المفكر «كثير من العائلات القديمة حلت بها لعنات كهذه. لكن في سلالتنا، تنتقل هذه اللعنة من الابن الأكبر إلى الابن الأكبر ـ بصورة كتابية فقط ذلك أن مجرد التكلم عنها يعني إطلاق قوتها، كما تعلم»، فيرد ميثولد «مدهش! وهل تعرف الكلمات؟». فيهز والدي رأسه علامة الإيجاب، وتبرز شفته أكثر، وإبهام القدم يسكن بينما ينقر جبهته بحثاً عن تأكيد «كل شيء هنا، محفوظ في الذاكرة. لم يستخدم منذ اشتبك جدي في شجار مع الإمبراطور بابار وألقى هذا اللعنة على ابنة هايمون... قصة مرعبة تلك القصة ـ يعرفها كل تلميذ».

ولسوف يأتي الوقت الذي يحبس والدي فيه نفسه، وهو في ذروة ابتعاده عن الواقع، في غرفة زرقاء محاولاً أن يتذكر اللعنة التي حلم بها ذات مساء في حدائق منزله وقد وقف ينقر بإصبعه على صدغه وإلى جانبه حفيد وليم ميثولد.

وهكذا، مثقلاً بأحلام ورق الذباب وقصص الأسلاف الوهميين، كان لا يزال أمامي أكثر من يوم كامل لكي ترى عيناي النور... بينما التكتكة التي لا ترحم تطمئن ذاتها: تسع وعشرون ساعة، ثمان وعشرون، سبع وعشرون...

ما الأحلام التي طافت في رأس أمينة في ليلتها الأخيرة تلك؟ هل رأت ـ أجل، ولم لا ـ أن الدكتور ناريلكار، الجاهل بالدراما التي كانت على وشك أن تحدث في مستشفاه قد حلم أولاً برباعيات الأرجل؟ هل حدث في تلك الليلة ذاتها ـ حين كانت الباكستان تخرج إلى النور شمال بومباي وغربها أن

خالي حنيف الذي جاء (مثل أخته) إلى بومباي، والذي وقع في غرام الملكة «بيا» المقدسة (التي قالت عنها المجلة الأسبوعية المصورة أن «وجهها هو ثروتها»)، هل حدث أن تخيل أولاً الجهاز السينمائي الذي كان سيقدم له قريباً أول فيلم من أفلامه الناجحة الثلاثة؟... يبدو ذلك محتملاً؛ فالجو كان مفعماً بالأساطير والكوابيس والخيالات، لكن المؤكد تماماً هو هذا: في الليلة الأخيرة تلك كان جدي آدم عزيز، الذي بات وحيداً في المنزل العتيق الكبير الواقع في شارع كورنواليس ـ باستثناء زوجة كانت قوة إرادتها في ازدياد على ما يبدو بينما كان الزمن يهدده أكثر وأكثر وباستثناء ابنة، هي علياء التي سيلازمها شعورها بمرارة عنوستها إلى أن تشطرها قنبلة شطرين بعد ثماني عشرة سنة ونيف ـ أقول كان جدي قد وجد نفسه فجأة أسير أنشوطات معدنية كبيرة من الحنين إلى الوطن، وكان يستلقي بكامل يقظته وهي تضغط وتضغط على عنقه إلى أن اندفع أخيراً من السرير في الساعة الخامسة من صباح الرابع عشر من آب ـ أي قبل تسع عشرة ساعة من مجيئي ـ وكأنما تدفعه قوة خفية باتجاه حقيبة عتيقة خضراء. فتحها فوجد: نسخاً قديمة من مجلات ألمانية، كتاب لينين «ما العمل؟» سجادة صلاة مطوية. وأخيراً وجد الشيء الذي كان يشعر بدافع لا يقاوم لرؤيته مرة أخرى ـ شيئاً أبيض مطوياً يتألق على نحو باهت في ضوء الفجر ـ وهكذا سحب جدي من حقيبة ماضيه الصفيحية، ملاءة ملطخة ومثقبة فاكتشف أن الثقب قد كبر وأن هناك ثقوباً أخرى أصغر منه في النسيج المحيط نفسه، ومضى، وقد طغى عليه ثوران حنين عنيف إلى الوطن، يهز زوجته، موقظاً إياها، مسبباً لها الدهشة بصراخه وهو يلوح بتاريخها أمام عينيها:

«أكلها العث! انظري يا بيجوم! أكلها العث! فقد نسيت أن تضعي النفتالين!» غير أن العد التنازلي لا يمكن إهماله الآن... ثماني عشرة ساعة، سبع عشرة ساعة، ست عشرة... وبإمكانك الآن تقريباً أن تسمع، في مستشفى الدكتور نارليكار، صراخ امرأة في المخاض. وي ويلي ويلكي هنا، وزوجته فنيتا التي لا تزال تعمل منذ ثماني ساعات عملاً مطولاً مضنياً. آلام المخاض الأولى جاءتها في اللحظة التي أعلن بها م. ع. جناح وعلى بعد

مئات الأميال منها، عن ميلاد أمة مسلمة، ميلاد منتصف ليل... مع ذلك كانت لا تزال تتلوى على السرير «في جناح الإحسان» في مستشفى نارليكار (المخصص لأطفال الفقراء)... وقد جحظت عيناها حتى كادتا تخرجان من محجريهما، جسدها يتصبب عرقاً، إنما دون أن تبدو علامة واحدة على خروج الجنين ولا على حضور والده، إنها الساعة الثامنة صباحاً، لكن لا يزال ثمة احتمال في أن الطفل قد ينتظر حتى منتصف الليل.

ـ في المدينة شائعات: «التمثال كان يعدو الليلة الماضية»... «النجوم في منزلة شؤم». لكن رغم علائم الفأل السيئ تلك، فقد كانت المدينة تنتصب وبريق أسطورة جديدة في عينيها. آب في بومباي: شهر المهرجانات، شهر ميلاد كريشنا وعيد جوز الهند، وهذا العام ـ قبل أربع عشرة ساعة من مجيئي، ثلاث عشرة، اثنتي عشرة، كان هنالك مهرجان إضافي قد أدرج في التقويم، أسطورة جديدة سيحتفى بها، نظراً لأن دولة لم يسبق لها أن ظهرت إلى حيز الوجود كانت ستنال حريتها في ذلك اليوم قاذفة إيانا إلى عالم خيالي تماماً، رغم أن عمر ذلك العالم يمتد خمسة آلاف عام من التاريخ ورغم أنه ابتكر لعبة الشطرنج وتبادل التجارة مع مصر القديمة في عهد المملكة الوسطى، قاذفة إيانا إلى أرض أسطورية لم تكن لتوجد أبداً لولا جهود الجماعة وإرادة الجماعة الهائلة ـ ما عدا في الحلم الذي اتفقنا على أن نحلمه، الحلم الذي كان أحد التخيلات الجماهيرية التي شارك في صنعها، وبدرجات متفاوتة، البنغالي والبنجابي، المدراسي والجاتي، والذي كان من حين إلى آخر يحتاج إلى المصادفة والتجديد اللذين لا توفرهما إلا الطقوس المعمدة بالدم. إنها الهند، الأسطورة الجديدة ـ القصة الجماعية التي كان كل شيء ممكناً فيها. إنها الخرافة التي لا تنافسها إلا خرافتان قويتان أخريان: المال والله.

ولقد كنت، في حيني، البرهان الحي على الطبيعة الخرافية لهذا الحلم الجماعي، لكنني في الوقت الحاضر، سأبتعد قليلاً عن هذه الأفكار التعميمية الكونية الكبرى كي أركز على طقس أكثر خصوصية. إنني لن أصف اندفاع الجماهير واقتحامها الدموي لحدود البنجاب المقسَّمة (حيث الدولتان

المقسِّمتان تغتسل واحدتهما بدم الأخرى، وحيث يشتري رائد ذو وجه كركوزي، هو الرائد ذو الفقار ممتلكات أحد اللاجئين بأسعار بخسة إلى حد لا يصدق ويضع حجر الأساس لثروة ستنافس ذات يوم ثروة نظام حيدر آباد). كما أنني سأغض الطرف عن العنف الذي نشب في البنغال ومسيرة التهدئة الطويلة التي دعا إليها المهاتما غاندي. أناني؟ ضيق الأفق؟ حسناً، ربما، لكنني معذور أيضاً. فرغم كل شيء، لا يولد المرء كل يوم.

اثنتا عشرة ساعة على مجيئي. فأمينة سيناء، التي أفاقت مذعورة من كابوسها، كابوس ورق الذباب، لن تغمض عيناها ثانية إلى أن... رامرام سيث يملأ رأسها، إنها تتحرك في بحر مضطرب. تتناوبه أمواج الانفعال والابتهاج ومهاوٍ مائية مظلمة سحيقة تصيب بالدوار، مهاوٍ للذعر والخوف. لكنْ، ثمة شيء آخر لا يكف عن العمل أيضاً، راقب يديها وهما تضغطان باللاشعور ضغطاً شديداً متواصلاً على أحشائها، أنظر إلى شفتيها وهما تتمتمان عن غير علم منها «هيا، أيها المحرك البطيء، أنت لا تبتغي أن تتأخر عن موعد الصحف!» ثماني ساعات وأجيء... في الساعة الرابعة من ذلك العصر، ويليام ميثولد يسوق سيارته السوداء طراز ١٩٤٦ صاعداً الرابية ذات ارتفاع الدورين. يوقفها عند حلقة السيرك بين الفيلات الرائعة الأربع، لكنه في هذا اليوم لن يزور بركة السمك الذهبي ولا حديقة الصبار ولن يحيي ليلى سبرماتي بتحيته المعهودة: «كيف البيانو يا ترى؟ كل شيء على ما يرام؟». كما أنه لن يحيي العجوز ابراهيم الذي يجلس في ظل شرفة الطابق الأرضي متأرجحاً في كرسيه الهزاز، مفكراً بالسيزال، كذلك لن ينظر باتجاه كاتراك ولا سيناء، بل سيقف في منتصف حلقة السيرك تماماً، وردة في عروة بدلته، قبعة طحينية يمسكها بشدة إلى صدره، والفرق النصفي يلمع في ضوء الأصيل، هكذا يقف وليام ميثولد ثم يحدق إلى الأمام مباشرة، متجاوزاً ساعة البرج وشارع واردن، متجاوزاً حتى حوض بريتش كاندي الذي يشبه شكل خارطة الهند، عابراً أمواج الساعة الرابعة المذهبة ليحيي، وقد انتصبت هناك فوق الأفق، الشمس التي بدأت انحدارها الطويل نحو البحر.

ست ساعات وأجيء. إنها ساعة الكوكتيل. كل خلف لوليام ميثولد في

حديقته ـ باستثناء أمينة، تلك التي تجلس في غرفتها البرجية، متجنبة نظرات المنافسة اللطيفة التي ترسلها في اتجاهها جارتها نوسي التي ربما كانت هي الأخرى تستعجل طفلها «سوني» أن ينزل أيضاً، وباستغراب شديد يراقبون جميعاً الرجل الانكليزي وهو يقف ساكناً دون حراك، متصلباً كقضيب تنظيف البندقية يشبه أيضاً فرقه النصفي، ويبقون هكذا إلى أن يشغلهم عنه قادم جديد:

رجل طويل نحيل، حول عنقه ثلاثة عقود من الخرز وحول خصره حزام من عظام الدجاج. بشرته السوداء ملطخة بالرماد وشعره منفوش طويل، لا يستر جسمه سوى الخرز والرماد. هكذا يوسع الزاهد الناسك خطاه صاعداً الطريق بين المنازل ذات الآجر الأحمر. ينحدر موسى، الخادم العجوز، إليه كي يبعده، لكنه ينكفئ وهو لا يعلم كيف يوجه أمراً إلى رجل من القديسين، وهكذا يدخل الناسك، عبر شرخ في الحجب صنعه تردد موسى، إلى حديقة باكنغهام ثم يسير بخط مستقيم ماراً بوالدي المنذهل حيث يتخذ لنفسه مقعداً ويجلس متقاطع الساقين، تحت صنبور الحديقة الذي يقطر ماء.

«ماذا تبتغي أيها الناسك؟». يسأل موسى وهو عاجز عن تلافي الإذعان، فيجيبه الناسك وهو هادئ كسطح بحيرة بلا ريح: «جئت أنتظر قدوم الآتي، ذلك المبارك، ولسوف يحدث ذلك قريباً... قريباً جداً».

إذاً صدق أو لا تصدق: لقد تنبأوا بي مرتين! ففي ذلك اليوم الذي كان كل شيء فيه موقتاً توقيتاً رائعاً، لم يخذل أمي إحساسها بالتوقيت، إذ لم تكن آخر كلمة قد غادرت شفتي ذلك الناسك حتى انطلقت من غرفة برجية في الطابق الأول صرخة ثاقبة، كوكتيل من الصرخات يحوي نسباً متساوية من الخوف والانفعال والنصر... «أوه أحمد!» صرخت أمينة سيناء «جانوم، هوذا الطفل! إنه قادم ـ وفي الموعد المحدد تماماً».

وتنطلق موجات كهربائية في أرض ميثولد وممتلكاته كلها... بعدئذٍ يأتي هومي كاتراك بعينيه الغائصتين، يخب خباً ثم يقول عارضاً خدماته: «سيارتي تحت تصرفك سيد سيناء، خذها الآن اذهب في الحال». وحينما يبقى أمامها خمس ساعات وثلاثون دقيقة فقط يمضي أحمد سيناء وزوجته

منحدرين بالسيارة المستعارة على سفح الرابية ذات ارتفاع الدورين. إبهام أبي الكبير يضغط على دواسة البنزين ويدا أمي تضغط على بطنها المستدير كالقمر، ثم يغيبان عن النظر، يدوران حول المنعطف يعبران الحوانيت القليلة القريبة ومن هناك يتجهان إلى مستشفى الدكتور نارليكار حيث كانت فنيتا زوجة وي ويلي لا تزال، في جناح الإحسان، تشد وتدفع، وقد تقوس عمودها الفقري وجحظت عيناها، بينما كانت قابلة تدعى ماري بيريرا تنتظر أيضاً اللحظة التي يأتي بها الفرج. . . وهكذا، حين أفلت شمس ذلك اليوم لم يكن موجوداً في إقطاعة ميثولد لا احمد سيناء ذو الشفة الناتئة والكرش المتهدل والأسلاف الخرافيين ولا أمينة سيناء ذات البشرة الداكنة التي طغت عليها النبوءات. . . وفي لحظة أفولها الأخير بالذات ـ أي قبل خمس ساعات ودقيقتين من مجيئي ـ كان وليام ميثولد يرفع ذراعاً بيضاء طويلة فوق رأسه لتسترخي كف بيضاء فوق الشعر الأسود المدهون بزيت الشعر، وتتحرك أصابع بيضاء مستدقة الأطراف باتجاه الفرق النصفي ثم تكتشف السر الثاني والأخير، ذلك أن الأصابع التفت وأمسكت بالشعر، مبعدة إياه عن الرأس، عاجزة عن إفلات فريستها، وفي اللحظة التي أعقبت غروب الشمس كان السيد ميثولد يقف في غبشة المساء في منتصف إقطاعته وشعره المستعار في يده. .

«أصلع!» تصرخ بادما «شعره المنمق ذلك. . . كنت أعلم أنه أكثر جودة من أن يكون حقيقياً!».

ذو الرأس الأصلع، اللامع! لقد انكشف: انكشفت الخدعة التي لعبها على زوجة عازف الأكورديون! فقوة وليام ميثولد، شأنه شأن شمشون، كانت تكمن في شعره. لكنه الآن، بصلعته اللامعة في غبشة الغسق، يقذف بشعره المستعار عبر نافذة سيارته، يوزع، بما يشبه اللامبالاة، صكوك ملكية قصوره الموقعة، ثم يمضي بسيارته. ما من أحد في إقطاعة ميثولد رآه بعد تلك اللحظة، أما أنا الذي لم تره عيناي قط، فإنني أجد أن من المحال أن أنساه.

فجأة، كل شيء يبدو زعفرانياً أخضر. أمينة سيناء في غرفة ذات جدران زعفرانية وأبواب خضر. وفي غرفة مجاورة، هناك فنيتا زوجة وي ويلي

وينكي ذات البشرة المخضرة وبياض العينين الذي أصبح كالزعفران، وقد بدأ وليدها أخيراً رحلة انحداره عبر ممرات داخلية، هي الأخرى، ذات ألوان مشابهة ولا شك. الدقائق الزعفرانية والثواني الخضر تدقها ساعات الجدران. وخارج مستشفى نارليكار، ثمة حشود وألعاب نارية، هي الأخرى تتطابق مع ألوان الليل. صواريخ زعفرانية، مطر من الشرارات الخضر، رجال في قمصان من خضاب كالزعفران، ونساء في ساريات ليمونية. وعلى سجادة من الزعفران والخضرة، يتحدث الدكتور نارليكار مع احمد سيناء «سأتولى أمر زوجتك شخصياً» يقول بنغمة لطيفة لها لون المساء «لا شيء يثير القلق، فانتظرها، حيث يتوفر مقدار كبير من الفراغ تذرعه». إنه الدكتور نارليكار الذي يكره الأطفال، مع ذلك فهو طبيب نسائي بارع. في أوقات فراغه، يحاضر، يكتب المؤلفات، يوبخ، يقرع الأمة حاثاً إياها على ضبط النسل. إنه يقول: «ضبط النسل ينبغي أن يحظى من الجمهور بالأولوية رقم واحد. ولسوف يأتي اليوم الذي أستطيع إدخال ذلك في رؤوس الناس السميكة، حينذاك أكون قد أديت مهمتي» فيبتسم أحمد سيناء بقلق وعصبية، ثم يقول: «هذه الليلة فقط، انس المحاضرات وخلص طفلي».

إنه منتصف الليل إلا تسعاً وعشرين دقيقة. مستشفى نارليكار في حالة من استنفار كامل فهناك الكثير من المتغيبين، الكثير من المستخدمين الذين آثروا الاحتفال بمولد الأمة الوشيك، دون أن يبالوا بمن سيولد من أطفال في تلك الليلة. إنهم، ببشراتهم المخضرة وقمصانهم الزعفرانية، يتزاحمون في الشوارع المنارة، تحت شرفات المدينة التي لا نهاية لها والتي صفّت عليها مصابيح ألماسية خزفية صغيرة ملئت بزيوت غريبة غامضة، فالفتائل تعوم في المصابيح التي تمتد على كل شرفة وطارف سطح، وهذه الفتائل تتطابق هي الأخرى مع مخطط اللون ذي الصبغتين: فنصف المصابيح، يتوهج بلون الزعفران، والنصف الآخر يشع باللون الأخضر.

وعبر الوحش ذي الرؤوس الكثيرة الذي يدعونه الجمهور، كانت سيارة شرطة تشق طريقها، وقد حولت أضواء المصابيح السماوية بدلات راكبيها الزرق والصفر إلى اللون الزعفراني والأخضر، (إننا الآن في شارع «كولبة»

وسنبقى لحظة واحدة فقط، كي نكشف أنه في الدقيقة السابعة والعشرين قبل منتصف الليل، كانت الشرطة تتعقب مجرماً خطراً يدعى يوسف ديكوستا. فهذا الحاجب غائب وقد مضت عدة أيام على غيابه في المستشفى وعن غرفته قرب المسلخ وعن حياة ماري العذراء المنكوبة).

وتمضي عشرون دقيقة على آهات أمينة سيناء التي باتت تشتد دقيقة بعد دقيقة، تتسارع اللحظة بعد الأخرى وعلى أنات فنيتا الضعيفة المتعبة من الغرفة المجاورة، كان الوحش في الشوارع قد بدأ الاحتفال من قبل، الأسطورة الجديدة تجري في عروقه، مستبدلة بدمه جسيمات من الزعفران والخضرة. وفي دلهي، يجلس رجل نحيل رزين في قاعة المؤتمرات، يستعد لإلقاء خطبة، وفي إقطاعة ميثولد يتوقف سمك مذهب عن الحراك في الأحواض بينما يمضي سكان الفيلات من فيلا إلى أخرى حاملين معهم الحلويات معانقين بعضهم بعضاً متبادلين القبل. في الوقت نفسه يشق طفلان طرقاً سرية لهما، وفي آغرا يجلس طبيب طاعن في السن مع زوجته، تلك التي لها شامتان على وجهها كحلمات أثداء الساحرات، وفي وسط الإوز الهاجع والذكريات التي التهمها العث يجدان نفسيهما وقد خيم عليهما الصمت، إذ لا يجدان ما يقولانه.

وفي كل المدن والبلدان والقرى تتوهج مصابيح ألماسية صغيرة على شرفات النوافذ وأقواس المداخل بينما تحترق قطارات في البنجاب بلهيب الدهان الأخضر وزعفران الوقود المتوهج اللامع كأكبر ماسات في العالم.

مدينة لاهور متوهجة هي الأخرى.

الرجل النحيل الرزين ينهض على قدميه، معمداً بالماء المقدس الذي جيء به من نهر تانجور، ينهض، وجبينه ملطخ بالرماد المقدس، يتنحنح، وبلا ورقة مكتوبة في يده، وبلا استذكار لأي كلام معد من قبل، يبدأ جواهر لال نهرو «... منذ سنين طويلة ونحن على موعد مع القدر، وها قد آن الأوان الذي يتحقق فيه هذا الموعد ليس كلياً أو على نحو تام بل بصورة جوهرية للغاية...».

إنها الساعة الرابعة والعشرون إلا دقيقتين. في مستشفى نارليكار يعمل

الدكتور الداكن البشرة المتألق الوجه وبصحبته قابلة تدعى فلوري وهي سيدة لطيفة رقيقة لا أهمية لها، على تشجيع أمينة سيناء «طلقة أخرى! أشد! أشد! إنني أرى الرأس. . .»، بينما يشرف في الغرفة المجاورة طبيب يدعى بوس ـ وماري بيريرا إلى جانبه ـ على المرحلة الأخيرة من كد فنيتا الذي مضى عليه أربع وعشرون ساعة. . . «أجل. الآن. . . محاولة أخيرة فقط، هيا، للمرة الأخيرة وسوف ينتهي كل شيء!». نساء تولول وتصرخ بينما ينتظر رجال في غرفة أخرى صامتين قلقين. وي ويلي وينكي ـ العاجز عن الغناء في تلك اللحظة ـ يقرفص في إحدى الزوايا مهتزاً إلى الأمام والوراء، إلى الأمام والوراء. . . وأحمد سيناء يبحث عن كرسي، لكن لا توجد كراسٍ في هذه الغرفة، إنها غرفة مصممة لأن يذرعها الناس جيئة وذهاباً، وهكذا يفتح أحمد سيناء باباً فيجد كرسي طاولة الاستقبال المهجورة فيرفعه ويحمله عائداً إلى غرفة الجيئة والذهاب حيث يهتز وي ويلي وينكي ويهتز، عيناه خاويتان كعيني ضرير. . . أتراها تعيش؟ أخيراً ها هو ذا منتصف الليل تماماً.

الوحش في الشوارع يهدر بينما يقول الرجل الناحل في دلهي: «. . . مع دقة منتصف الليل، وبينما يرقد العالم نائماً. تهب الهند لتستقبل الحياة والحرية» وفي خضم هدير الوحش تنطلق في مكان ما زعقتان ثم صراخ وجؤار، وزعقات أطفال قدموا إلى العالم، لتختلط احتجاجاتهم غير المجدية بهدير صوت الاستقلال الذي يحلق أخضر زعفرانياً في سماء الليل ـ «وتجيء اللحظة، التي لا تأتي في التاريخ إلا ما ندر، اللحظة التي نعبر فيها من العالم القديم إلى الجديد، ينتهي فيها عصر ويبدأ آخر، تجد فيها روح أمة عانت الكبت زمناً طويلاً متنفسها أخيراً. . .». وفي غرفة ذات سجاد زعفراني وأخضر كان أحمد سيناء لا يزال يمسك بكرسيه حين دخل إليه الدكتور نارليكار بالخبر «. . مع دقة منتصف الليل، أخ سيناء، وضعت امرأتك غلاماً سليماً كبير الجسم»، في تلك اللحظة والدي يفكر بي (غير عارف. .) وصورة لوجهي تملأ خياله إلى حد نسي معه الكرسي، لقد تملكه حبي، ملأه من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، فترك الكرسي يسقط.

نعم، إنه خطأي (رغم كل شيء). . . فقوة وجهي الطاغية (ولا شيء

آخر) هي التي جعلت يدي أحمد سيناء تفلتان الكرسي، مما جعله يهوي بتسارع يبلغ اثنتين وثلاثين قدماً في الثانية، وحين كان جواهر لال نهرو يقول في قاعة المؤتمرات: «إننا في هذا العالم ننهي مرحلة الحظ ـ العاثر»، وكانت قذائف الألعاب النارية تنفجر في الخارج حاملة أنباء الحرية والاستقلال، كان والدي، وبسببي أنا، يصرخ محدثاً ضجة هو الآخر، ذلك أن الكرسي الذي سقط كان قد هرس إبهامه.

الآن نصل إلى نقطتنا الرئيسية: فالضجة جعلت الجميع يركضون، وهكذا واجه والدي وإبهامه المهروس لحظة عابرة من الأضواء القادمة من جهة الوالدتين المتألمتين الخارجتين من ولادتي منتصف الليل المتزامنتين ذلك أن فنيتا وضعت أخيراً طفلاً ذا حجم مرموق، «لا يمكنك تصديق ذلك» قال الدكتور بوس «لقد استمر في النزول طويلاً. استمر المزيد والمزيد منه يشق طريقه خارجاً، إن له جسماً رائعاً». «وهكذا غلامي» قال الدكتور نارليكار وهو يغسل يديه ـ لكن الحوار جرى في وقت لاحق قليلاً ـ أما في تلك اللحظة فقد كان نارليكار وبوس ينحنيان كلاهما على إبهام أحمد سيناء بعد أن أعطيا تعليماتهما للممرضات بغسل وتقميط المولودين الجديدين. هنا تقوم ماري بيريرا بتقديم مساهمتها الغريبة.

«اذهبي، اذهبي» قالت ماري لفلور المسكينة، «انظري إن كان بإمكانك تقديم أية مساعدة هناك، أما هنا، فإنني قادرة على أن أجعل كل شيء على ما يرام».

وحين غدت بمفردها وفي يديها طفلان، روحان تحت رحمتها، قامت بفعل ما كان في نفسها أن تفعله من أجل يوسف، قامت بعملها الثوري الخاص وهي تفكر «بالتأكيد سيحبني من أجل هذا». لقد غيرت بطاقتي ـ أسماء الطفلين الضخمين، واهبة الطفل الفقير المسكين حياة الترف والامتيازات، حاكمة على الطفل الغني بالفقر وحياة الاكورديونات... «أحبني يا يوسف» هذا ما كان في ذهن ماري، ثم فعلت ما فعلته. على كاهل الطفل الرائع الجسم ذي العينين الزرقاوين كسماء كشمير واللتين كانتا تشبهان أيضاً عيني ميثولد ـ الطفل ذي الأنف الضخم كأنف جدي الكشميري ـ

والذي كان يشبه أيضاً أنف جدة من فرنسا ـ وضعت ماري هذا الاسم: سيناء.

ثم قمطوني بالزعفران حين أضحيت، بفضل جريمة ماري بيرييرا، طفل منتصف الليل المختار الذي لم يكن أبواه أبويه ولن يكون ابنه ابنه... فيما أخذت ماري الطفل الذي نزل من رحم أمي، والذي لن يكون ابنها، ذلك الطفل الضخم ذا العينين البنيتين تقريباً والركبتين العجراوين كركبتي أحمد سيناء ثم لفته بالأخضر وأخذته إلى وي ويلي وينكي ـ الذي كان يحملق فيها ذاهل اللب، والذي كان من المتعذر عليه أن يرى ابنه الجديد، ذاك الذي لم يعرف شيئاً عن الفروق النصفية... وي ويلي وينكي الذي علم لتوه أن فنيتا لم تستطع تجاوز ولادتها والبقاء على قيد الحياة. ففي الدقيقة الثالثة بعد منتصف الليل وبينما كان الأطباء منشغلين بإبهام قدم مهروس، كانت فنيتا قد نزفت دمها كله وقضت نحبها.

بعدئذ جيء بي إلى أمي التي لم تشك لحظة واحدة بصحة نبوءة رامرام لها. أما أحمد سيناء، بإبهامه المهروس، فقد كان يجلس على سريرها حين قالت: «انظر جانوم، مسكين هذا الغلام لقد ورث أنف جده». ثم راحت تتلمسه كالمسحورة كي تتأكد أن له رأساً واحداً فقط، وحين تأكدت استرخت تماماً وقد أدركت أن أعظم العرافين في الدنيا لا يملكون إلا مواهب محدودة.

«جانوم» قالت أمي مبتهجة: «عليك أن تتصل بالصحف. عليك أن تتصل بجريدة التايمز. ماذا قلت لك؟ لقد فزت».

«... ليس هذا أوان النقد الهدام أو ضيق الأفق». كان جواهر لال نهرو يقول للمؤتمر: «... لا مجال لإرادة الشر. فعلينا أن نبني صرح الهند الحرة المستقلة حيث يمكن لأطفالنا جميعاً أن يحيوا برغد وأمان». ومع تلك الكلمات طفق يرفرف علم ذو ألوان ثلاثة: زعفراني أبيض أخضر.

«انكليزي!» تصرخ بادما مذعورة «ما الذي تقوله؟ أنت هندي ـ انكليزي؟ اسمك ليس اسمك؟».

فأجيبها: «أنا سليم سيناء ذو الأنف الشامخ، الوجه المبقع، المتعجرف الأصلع، فلقة القمر، ماذا تعنين بقولك ـ ليس اسمي؟».

فتعول بادما غاضبة: «لقد خدعتني طيلة هذا الوقت. أمك التي تدعوها كذلك ليست أمك. أبوك، جدك، خالاتك.. أوه ما أنت يا ترى كي لا تهتم بقول الحقيقة عمن هما أبواك؟ ألا تبالي بأن أمك قضت نحبها وهي تهبك الحياة؟ وأن أباك ربما لا يزال حياً في مكان ما، فقيراً معدماً؟ أنت وحش أم ماذا؟».

كلا، أنا لست وحشاً. وليس لي ذنب بالخدعة التي حدثت. لقد قدمت مفاتيح... لكن، ثمة ما هو أهم من ذلك/ فحين اكتشفنا أخيراً جريمة ماري بيريرا وجدنا جميعاً أن اكتشافنا لم يُحدِث أي فارق! فقد ظللت ابنهما: كما ظلا والدي. لقد تعلمنا بنوع من القصور الجماعي عن التخيل أننا، وبكل بساطة، لا نستطيع أن ننسلخ عن ماضينا... فلو سألت أبي (حتى أبي ذاته، ورغم كل ما حدث) عمن هو ابنه، لوجدت أن ما من شيء على وجه الأرض يدفعه لأن يشير إلى غلام عازف الأكورديون الوسخ ذي الركبتين العجراوين حتى ولو كان ذلك الغلام، الذي يدعى شيفا، سيكبر ويصبح ذات يوم بطلاً.

وهكذا: كان هناك ركب وأنف، أنف وركب. والواقع أنه في جميع أنحاء الهند، ذلك الحلم الذي اشتركنا به جميعاً، كان ثمة أطفال يولدون وهم ليسوا من ذرية آبائهم إلا جزئياً ـ فأطفال منتصف الليل كانوا أيضاً أطفال الزمان: أبوهم التاريخ، كما تعلمون. وذلك أمر ممكن الحدوث، خاصة في بلاد هي نفسها نوع من الحلم.

«كفى» تقول بادما متجهمة «لا أريد أن أسمع». لقد غيظت، هي التي كانت تتوقع طفلاً ذا رأسين، فقدمت لها طفلاً آخر. لكن رغم ذلك، وسواء أصغت أم لم تصغ. فإن لدي أموراً لا بدّ من تسجيلها.

بعد ثلاثة أيام من مولدي، كانت ماري تتأكل ندماً. فيوسف ديكوستا، بهروبه من سيارات الشرطة الباحثة عنه، كان قد تخلى تماماً عن أختها أليس كما تخلى عنها من قبل، فأيقنت المرأة المكتنزة الصغيرة ـ العاجزة عن الاعتراف بجريمتهاخوفاً وهلعاً ـ من أنها ستجن. «حمارة لا تعرف رأس أبيها»، كانت تشتم نفسها لكنها مع ذلك كتمت سرها وقررت أن تصلح

خطيئتها بشكل من الأشكال. فاعتزلت عملها في مستشفى نارليكار وتقربت إلى أمينة سيناء بقولها: «سيدتي، لقد رأيت طفلك مرة واحدة فقط وقد أحببته. فهل أنت بحاجة إلى مربية؟». عندها ردت أمينة بعينيها المشعتين أمومة: «أجل». ومنذ تلك اللحظة كرست ماري بير («يمكنها أن تدعوها أمك» تتدخل بادما، مقدمة البرهان على أنها لا تزال مهتمة «فهي التي صنعتك، كما تعلم»). أقول كرست حياتها لتربيتي، وبذلك ربطت بقية أيامها بذكرى جريمتها.

في العشرين من آب لحقت نوسي ابراهيم بأمي في مستشفى شارع بيدرو، وجاء سوني الصغير إلى العالم ـ لكنه كان كارهاً أن يخرج إلى العالم، فاضطر الطبيب لاستخدام الملقط وإخراجه، وفي حمى اللحظة التي كان يمر بها الدكتور بوس ضغط بشيء من الشدة، فجاء سوني وأثلام صغيرة على صدغيه كليهما، فجوات ملقط قليلة العمق ستجعله جذاباً على نحو لا يقاوم مثلما صنع الشعر المستعار بذلك الرجل الانكليزي. فالفتيات (ايفي، القردة النحاسية والأخريات) كن يسعين لمداعبة أخاديده الصغيرة... ولسوف يؤدي ذلك إلى قيام إشكالات في ما بيننا.

غير أنني تركت أشد النقاط إثارة إلى النهاية. لذا دعوني أكشف لكم أنه في اليوم الذي أعقب ولادتي، جاء لزيارتي أنا وأمي في الغرفة الزعفرانية ـ الخضراء شخصان من جريدة التايمز (طبعة بومباي) فشرعت، أنا المستلقي في سرير أخضر والمقمط بالزعفران، أتطلع إليهما، كان أحدهما محرراً صحافياً، قضى وقته كله وهو يجري حواراً مع أمي، أما الثاني فقد كان مصوراً طويلاً أعقف الأنف كرس كل اهتمامه لي، وفي اليوم التالي، ظهر كلام وصور في الجريدة المطبوعة...

منذ وقت قريب تماماً، قمت بزيارة لحديقة صبار كنت ذات مرة قد دفنت فيها لعبة كروية من الصفيح، فانتزعت من داخلها أشياء سبق لي أن وضعتها فيها منذ سنين كثيرة. إن بوسعي، وأنا أمسكها بيدي اليسرى وأنا اكتب، أن أرى حتى الآن ـ رغم اصفرارها وتعفنها ـ أن من بين الأشياء التي تحويها تلك اللعبة الكروية رسالة، رسالة شخصية لي موقعة من قبل رئيس

وزراء الهند، لكن هناك شيئاً آخر هو قصاصة من جريدة فيها عنوان رئيسي يقول: «طفل منتصف الليل». وحاشية تحت صورة تقول: «وضع ساحر للطفل سليم سيناء الذي ولد الليلة السابقة في لحظة استقلال أمتنا تماماً ـ إنه الطفل السعيد لتلك اللحظة المجيدة؟». وصورة كبيرة: طفل من طراز رفيع بحجم الجامبو يملأ الصفحة الأولى، صورة لا يزال بإمكانك أن تتبين منها وجه طفل لا تزال آثار الولادة تطبع وجنتيه وأنفه اللامع الكثير الارتشاح.

لكن رغم العنوان الرئيسي والحاشية والصورة، أجد أن لا مفر من أن أتهم زائرينا بتهمة التفاهة. فهما، كصحافيين فقط لا يتعدى نظرهما صحيفة اليوم التالي، لم تكن لديهما أية فكرة عن أهمية الحدث الذي كانا يغطيانه. فهو بالنسبة إليهما، لم يكن أكثر من دراما تثير اهتمام البشر.

لكن أنى لي معرفة ذلك؟ لأعرف ذلك لأن المصور قدم، في نهاية المقابلة، شيكاً لوالدتي بقيمة مائة روبية.

مائة روبية! أمن الممكن تصور مبلغ أكثر سخفاً وإثارة للسخرية؟ إنه مبلغ يمكن للمرء، إن كان عقله من النوع الذي يفعل ذلك، أن يشعر بالإهانة بسببه. لكنني مع ذلك، سأكتفي بتوجيه الشكر إليهما لاحتفائهما بقدومي، سأغفر لهما افتقارهما للحس التاريخي الخالص.

«لا تكن سخيفاً» تقول بادما بنوع من المناكدة؛«مائة روبية ليست مبلغاً ضئيلاً. فرغم كل شيء الجميع يولدون، وولادة طفل مثلك ليس أمراً عجباً إلى هذه الدرجة».

الكتاب الثاني

إصبع الصياد المؤشرة

أتراها تغار من كلمات مكتوبة؟ تكره خربشات كتابة ليلية وكأنها منافسة لها من لحم ودم؟ إنني لا أستطيع التفكير بسبب آخر لسلوك بادما الغريب، ولهذا التفسير، على الأقل، صفة الغرابة التي اتصف بها ما تملّكها من غضب حين أخطأت هذه الليلة وكتبت (ثم قرأت بصوت عال) كلمة لا يجوز النطق بها. . . فمنذ القصة التي رويتها عن زيارة الطبيب الدجال، شعرت باستياء غريب يعتمل في صدر بادما وينشر رائحته المبهمة من غددها الإفرازية، فهي، مصدومة ربما بعقم محاولاتها الليلية في أن تبعث إلى الحياة «قلمي الآخر» تلك القثاءة عديمة الجدوى المختبئة في سروالي، باتت كثيرة المناكدة والمشاكسة (أضف إلى ذلك رد فعلها السيئ ـ المزاج تجاه كشفي لحقيقة مولدي، وثورانها تجاه احتقاري لمبلغ المائة روبية). وإنني لألوم نفسي: فأنا الغارق في مشروع سيرتي الذاتية، قصرت كل التقصير في تقدير مشاعرها وبدأت هذه الليلة بتدوين ملاحظات زائفة أنكد حظاً أيضاً.

فقد كتبت وقرأت «بصوت عالٍ» إنني وقد حكم علي، من خلال ملاءة مثقوبة، أن أحيا حياة النتف، لم أفعل أفضل مما فعل جدي، إذ بينما ظل آدم ضحية الملاءة طوال حياته، غدوت أنا سيدها ـ وبادما هي المرأة التي تخضع الآن لسحرها. فأنا، الجالس في ظلالي المسحورة، أتعطف عليها بلمحات يومية مني ـ بينما هي، القرفصة الناظرة إليّ، أسيرة، عاجزة كنمس جمدته بلا حراك عينان متذبذبتان لا تطرفان لأفعى ذات غطاء ـ أجل ـ هي تقبع وقد شلها الحب.

تلك هي الكلمة: الحب. حين كتبتها ونطقت بها، رفعت بادما صوتها إلى درجة حادة غير اعتيادية، ثم انطلق من شفتيها عنف، ربما كان سيجرحني لو أنني كنت ما أزال أتأثر بالكلمات. «أحبك؟» صرخت بادما باحتقار: «لماذا، بالله عليك؟ ما الفائدة منك أيها الأمير الصغير» ـ ثم جاءت ضربتها القاصمة ـ «كعشيق؟» وبذراع ممتدة يلمع شعرها على ضوء المصباح، مدت سبابتها المفعمة ازدراء باتجاه حقوي المعطلين تماماً، إصبعها الطويلة الثخينة المتصلبة بالغيرة والتي لم تفعل، لسوء الحظ، سوى أنها ذكرتني بإصبع أخرى فقدت منذ زمن طويل.

وهكذا، وقد رأت سهمها يخطئ مرماه، صرخت قائلة «مجنون ضائع! ذلك الطبيب كان محقاً!» ثم اندفعت خارجة من الغرفة ذاهلة تماماً. بعدئذٍ طرق مسمعي وقع خطا تهبط السلم المعدني إلى أرض المعمل ثم أقدام تندفع بين رواقيد المخلل المغطاة بالسواد وأخيراً سمعت باباً يحرر مزلاجه ومن ثم يصفق.

وهكذا عدت إلى عملي، وقد هجرتني بادما، دون أن يكون لدي خيار آخر. إصبع صياد السمك المؤشرة: نقطة مركزية لا يمكن نسيانها في صورة علقت على جدار بزرقة السماء في فيلا بكنغهام، وذلك مباشرة فوق المهد الأزرق كالسماء الذي قضى سليم سيناء، طفل منتصف الليل أيامه الأولى فيه. كان رالي الصغير ـ ومن غيره يا ترى؟ ـ يجلس ضمن إطار من خشب الساج عند قدمي بحار عجوز يصلح شبكة كثيرة العقد ـ ترى هل يشبه شارباه شاربي حيوان الفظ؟ ـ بحار امتدت ذراعه اليمنى منبسطة تماماً باتجاه أفق مائي، في حين كانت أمواج حكاياته اللزجة تلطم أذني رالي المسحورتين ـ ومن غيره يا ترى؟ ذلك أنه كان هناك ولا شك طفل في اللوحة، طفل يجلس متقاطع الساقين يرتدي سترة قصيرة مزررة حتى أسفلها، ذات أهداب مكشكشة. وكان خياط يجلس في غرفة زرقاء بلون السماء، تحت الإصبع المؤشرة يستنسخ ملابس السادة الانكليز. . . «انظر! كم هو حلو؟» هتفت ليلى سبرماتي كي تزيد من ضيقي الأبدي «يبدو وكأنه خرج في هذه اللحظة من اللوحة!».

وفي لوحة أخرى معلقة على الحائط، كنت أنا أجلس بجانب ولتر رالي وألاحق إصبع الصياد المؤشرة بعيني: عيني طفل مشدودتين إلى الأفق الذي يكمن خلفه ـ ماذا؟ ـ مستقبلي، ربما، وربما هلاكي الخاص الذي كنت عارفاً به منذ البداية، وأنا أراه حضوراً رمادياً متلألئاً في تلك الغرفة الزرقاء كالسماء، غير متميز تماماً في البداية إنما يستحيل تجاهله... ذلك أن الإصبع كانت تشير إلى ما هو أبعد من ذلك الأفق المتألق، كانت تشير إلى ما خلف الإطار الخشبالمصنوع من الساج مجتازة الامتداد الصغير الذي يشكله الجدار الأزرق كالسماء، دافعة عيني باتجاه إطار آخر علق فيه قدري الذي لا مفر منه، قدري المثبت تحت البلور إلى الأبد، فهناك كانت صورة طفل بحجم الجامبو وتحت الصورة تلك الحاشية التنبؤية، وإلى جانبها، رسالة مكتوبة على ورق فاخر وممهورة بخاتم الدولة ـ رسالة رئيس الوزراء التي وصلت بعد أسبوع من ظهور صورتي على الصفحة الأولى من جريدة التايمز الهندية.

الصحف احتفت بي، السياسيون صادقوا على منزلتي. فقد كتب جواهر لال نهرو: «عزيزي سليم الصغير، تهاني الحارة لتلك المصادفة السعيدة، لحظة مولدك! إنك أحدث حامل لذلك الوجه القديم للهند الفتية دائماً. إننا سنولي حياتك أشد الاهتمام، فهي ستكون بشكل من الأشكال مرآة لحياتنا».

وتقول ماري بيريرا، وقد تملكها الذعر... الحكومة يا مدام؟ الحكومة بنفسها سترعى الغلام، لكن لم يا مدام؟ هل أصابه شيء؟ فترد أمينة دون أن تدرك نغمة الذعر في صوت مربيتها: «إنه نوع من المجاملة يا ماري، فهو لا يعني ما يقوله حقاً». لكن ماري تظل مشدودة الأعصاب، تظل عيناها دائماً، وكلما دخلت؛ غرفة الطفل، تطرفان باتجاه الرسالة المعلقة ضمن إطارها، عيناها تدوران حولها، محاولة أن ترى ما إذا كانت الحكومة تراقب، عيناها تطوفان: ما تراهم يعرفون؟ هل رأى أحد شيئاً؟... أنا نفسي لم أقبل، وأنا أنمو، تفسير أمي، لكنه هدهدني، نقل إلي الإحساس بالأمان الزائف، وهكذا، رغم أن بعضاً من شكوك ماري كان قد تسرب إلي، كنت ما أزال مندهشاً حينما...

لعل إصبع الصياد لم تكن تشير إلى الرسالة المعلقة في الإطار، إذ لو أن المرء تابعها أبعد من ذلك، لقادته عبر النافذة ثم هبطت به الرابية ذات ارتفاع الدورين فشارع واردن ومن ثم إلى احواض سباحة بريتش كاندي فبحر آخر ليس هو البحر الموجود في الصورة، بحر تتألق فيه أشرعة زوارق الكولي التي تتوهج قرمزية في ضوء الشمس الآفلة... إصبع اتهام، إذن، هي التي اجبرتنا على النظر إلى المنبوذين المبعدين عن المدينة.

أو لعلها إصبع تحذير ـ وهذه الفكرة تجعلني أشعر بقليل من الارتعاش رغم الحر ـ هدفها أن تجذب الانتباه إلى ذاتها، أجل، ولم لا، فقد تكون نبوءة بإصبع أخرى، إصبع لا تختلف عنها هي ذاتها، إصبع قد تكشف بدخولها إلى قصتي كل شيء... يا إلهي! أية فكرة هذه! إلى أي حد كان مستقبلي معلقاً فوق سريري، بانتظار أن أفهمه؟ كم من تحذيرات وجهت إلي ـ وكم تحذيرات تجاهلت؟ لكن، لا... لن أكون «مجنوناً ضائعاً» بحسب عبارة بادما البليغة، لن أخضع للإحباط والتثبيط، أبداً لن أخضع ما دامت لدي القوة التي أقاوم بها الإحباط. حين وصلت أمينة سيناء وولدها إلى المنزل في سيارة جارهما، كان أحمد سيناء قد جاء معه بمغلف من الورق المقوى حمله معه طوال الطريق. في داخل المغلف كان هنالك: مرطبان مخلل، أفرغ من محتوياته الكلسية، ثم غسل بالماء المغلي المعقم ـ وأعيد ملؤه. مرطبان مختوم جيداً، على غطائه الصفيحي غشاء مطاطي مثبت في مكانه برباط مطاطي ملتف. ما الذي كان هنالك تحت المطاط، محفوظاً داخل الزجاج، مخفياً في مغلف الورق المقوى؟ إنه هذا: لقد انتقلت إلى المنزل، مع الوالد والوالدة والطفل، كمية من الماء المالح الذي كان يعوم فيه عوماً لطيفاً ذاك الحبل السري المعلق (لكن أكان هو حبل سرتي أم حبل سرة الآخر؟ ذلك ما لا أستطيع قوله). وفي الوقت الذي كانت فيه المربية المسأجرة ـ حديثاً، ماري بيرييرا، تشق طريقها إلى إقطاعة ميثولد، كان حبل سري آخر ينتقل بصورة مكشوفة إلى مكان آخر.

وبينما كان الطفل سليم ينمو غاذاً خطاه نحو الرجولة، كان الحبل السري لا يزال معلقاً دون أن يغير ماؤه المالح المحفوظ داخل الزجاج، في مؤخرة

الخزانة المصنوعة من خشب الساج. وبعد سنوات، حين دخلت عائلتنا منفاها في أرض النقاء والطهارة حين كنت أكافح للحفاظ على نقائي وطهارتي، كانت ثمة حبال سرية تشهد يومها.

ما من شيء ألقي به، لقد تم الاحتفاظ بالطفل والمشيمة كليهما، كما أن كليهما وصل إقطاعة ميثولد، وكليهما كان ينظر حينه.

لم أكن طفلاً جميلاً. فصوري وأنا طفل، تبين أن وجهي الذي يشبه البدر كان كبيراً جداً، مستديراً جداً. كان هناك نقش ما في منطقة الذقن. الجلد الناعم كان يتطوى عبر معالم وجهي ـ لكن آثار الولادة كانت تشوهه، فنقاط داكنة تنتشر على خط شعري الغربي وبقعة داكنة تلون أذني الشرقية. وصدغاي: بارزان تماماً: قبتان بيزنطيتان منتفختان (لقد ولدنا أنا وسوني ابراهيم لنكون أصدقاء ـ فحين كان يصطدم رأسانا الواحد بالآخر كانت تجاويف سوني التي تركها الملقط في صدغه تسمح لنتوءات صدغي بالاستقرار فيهما براحة تامة كمفصلات الباب). لكن أمينة سيناء، التي سبب لها رأسي المفرد راحة لا توصف، كانت تحدق إلي بولع أمومي مضاعف، ناظرة عبر غشاوة تزيدني جمالاً، متجاهلة الغرابة شبه ـ الجليدية التي كانت تتصف بها عيناي الزرقاوان كالسماء، وصدغاي اللذان يشبهان قرنين توقفا عن النمو، بل وحتى أنفي الذي يشبه خيارة منتصبة. أنف الطفل سليم: إنه هائل، وهو يمتد ويمتد.

علائم بارزة في باكورة حياتي! لقد كنت كبيراً وغير جميل ولم أكن راضياً عن نفسي على ما يبدو. لذا شرعت منذ أيامي الأولى ذاتها، بتطبيق برنامج لتكبير الذات (كما لو أنني كنت أعلم أنه لا بدّ لي، لكي أحمل أعباء حياتي في المستقبل، من أن أكون ضخم الجثة تماماً). وهكذا لم يأت منتصف أيلول حتى جففت ثديي أمي من الحليب رغم أنهما كانا ثديين حافلين. وسرعان ما جيء لي بمرضعة لكنها هربت بعد أن جعلتها هي الأخرى خواء بعد أسبوعين لا غير، هربت، متهمة الطفل السليم بأنه يحاول عض حلمتيها بلثتيه الدرداوين. وهكذا انتقلت إلى الزجاجة لأستهلك كميات هائلة من مركب الحليب: ولقد عانت حلمات الزجاجات أيضاً مثبتة دعوى

المرضعة وتذمراتها، كذلك حفظوا لي تسجيلات دفتر ـ الطفل (السجل الصحي) بكل ما فيها من اهتمام بالدقائق والتفاصيل، وهي تكشف أنني كنت أنمو بصورة تكاد العين تراها. كنت أكبر يوماً بعد يوم، لكن، ما من أحد فكر لسوء الحظ في أن يأخذ قياساً لأنفي، لذا لا يمكنني القول: هل كان عضو الشم لدي يكبر بنسبة نمو جسدي ذاتها أم بنسبة أسرع؟ لكن لا بدّ من القول إنني كنت اتمتع بجهاز هضمي سليم يتم فيه استقلاب سليم. ورغم أنني أطرح الكثير من المفرزات من مختلف فوهات جسمي إلا أن عينيَّ كانتا جافتين تماماً. وكانت ماري بيرييرا تقول: «طفل صالح تماماً يا مدام... لا تذرف عيناه دمعة واحدة».

فالطفل الصالح سليم كان طفلاً هادئاً، وغالباً ما كان يضحك إنما بلا صوت. ولحين من الزمن شعرت أمينة وماري بالخوف من أن يكون الغلام أصم، لكن في اللحظة التي همتا فيها بمفاتحة والده بالأمر (الوالد الذي كانا يخفيان مخاوفهما عنه ـ فما من والد يريد لولده أن يكون معوقاً) انفجر بالصراخ، وغدا في تلك الناحية على أي حال، عادياً تماماً. حينها همست أمينة لماري «يبدو وكأنه قرر إراحة بالنا».

لكن كانت ثمة مشكلة خطيرة أخرى مرت عدة أيام على أمينة وماري قبل أن تلاحظاها. فهما المشغولتان بالإجراءات المعقدة الكثيرة بغية تحويل نفسيهما إلى أم واحدة ذات رأسين، هما اللتان كان يغشى بصرهما ضباب اللفائف ذات البخار المتصاعد، لم تستطيعا ملاحظة جمود الجفنين. فأمينة التي كانت تتذكر كم كان جنينها ثقيل الوطأة، أثناء حبلها به، وكم من الوقت ظل ساكناً دون حراك كبركة آسنة، طفقت تتساءل ما إذا كان العكس لن يحدث الآن ـ ما إذا كان للطفل قوة سحرية على كل ما يجاوره مباشرة، وما إذا كانت هذه القوة تتسارع إلى حد لا تجد معه الأم والمربية ما يكفي من الوقت للقيام بكل ما ينبغي القيام به، إلى حد كان الطفل معه ينمو بمعدل خيالي واضح تماماً. وهكذا لم تستطع، هي الغائبة في أحلام يقظة تاريخية كهذه، أن تلاحظ مشكلتي. لكن حين طردت تلك الفكرة بعيداً، حين قالت لنفسها إنني طفل طيب صالح ذو شهية طيبة، أنام بصورة مبكرة، حينها فقط

انقشعت غشاوة الحب الأمومي عن عينيها وعن عيني ماري فصرختا معاً: «انظري.. إإإ... إ... انظري يا مدام! انظري يا ماري! الطفل الصغير لا تطرف عيناه!». وكانت العينان شديدتي الزرقة: زرقة كشميرية، زرقة متماوجة، زرقة ناجمة عن ثقل دموع لا تذرف، زرقة أشد من أن تجعل العينين تطرفان. فحين كانتا تطعمانني لم تكن أجفاني ترف، وحين كانت ماري العذبة تحملني على كتفها وتصرخ «أوف يا يسوع العظيم، إنه لثقيل جداً!» كنت أتجشأ دون أن تطرف عيناي. وحينما كان أحمد سيناء يعرج بإبهامه المهروس إلى سريري كنت أسلم نفسي لشفتيه الناتئتين دون أن يرف لي جفن... «لعله خطأ يا مدام» أدلت ماري باقتراحها... «لعل السيد الصغير يقلدنا ـ يطرف بعينيه حين نطرف نحن». حينها قالت أمينة «إذاً سنطرف بالتناول ونراقبه». وهكذا شرعتا تفتحان أعينهما وتغمضانهما بالتناوب. تراقبان زرقة عيني الجلدية، لكن دون أن تلحظا رعشة في رموش عيني، واستمرتا هكذا إلى أن تولت أمينة الأمر بنفسها فمدت يديها إلى المهد تطبق بهما أجفاني. انطبقت الأجفان وفي الحال تبدل تنفسي متخذاً إيقاع النوم الهنيء. بعد ذلك، ولأشهر عدة، كانت الأم والمربية تعملان، بالدور، على فتح وإغماض عيني. «سوف يتعلم يا مدام» كانت ماري تطمئن أمينة «فهو طفل طيع صالح ولسوف يعتاد على ذلك بالتأكيد» وهكذا تعلمت الدرس الأول في حياتي: لا أحد يستطيع مواجهة العالم وعيناه مفتوحتان طوال الوقت.

الآن، وأنا أنظر إلى الوراء بعيني طفولتي، يمكنني أن أرى كل شيء تماماً ـ وإنه لأمر مدهش كم تستطيع أن تتذكر حين تحاول. فما يمكنني أن أراه هو: المدينة وهي تتشمس مثل عظاءة مصاصة للدماء تحت أشعة الشمس الحارة، مدينة بومباي: وهي تبدو أشبه بيد إنما هي بالحقيقة فم، فم مفتوح دائماً؛ جائع دائماً، يلتهم الطعام والهبات من كل مكان آخر في الهند، طفيلية ساحرة لا تنتج سوى الأفلام والقمصان والأسماك... وفي الفترة التي أعقبت التقسيم أرى فيشوانات، صبي البريد، وهو يتجه نحو رابيتنا ذات ارتفاع الدورين وفي جعبته مغلف من الورق المقوى، راكباً دراجته المصنوعة في

معمل آجوانا أنديابيك ماراً بباص صدئ ـ مهجور رغم أنه ليس موسم الخماسين ذلك أن سائقه قرر أن يرحل إلى الباكستان، فأطفأ المحرك وانطلق، مخلفاً وراءه حمولة باص الركاب المتزاحمين، المتعلقين بالنوافذ، الممسكين بقضبان السقف، المنبثقين من الأبواب... باستطاعتي أن أسمع لعناتهم، «ابن الخنزير، أخو الكلبة»، لكنهم سيظلون متشبثين بأماكنهم طيلة ساعتين قبل أن يسلموا الباص إلى قدره. كما أرى هناك: سباح الهند الأول، قاهر القنال الانكليزية، السيد بوشبا روي لحظة وصوله إلى بوابات أحواض السباحة في بريتش كاندي، على رأسه قبعة استحمام زعفرانية، وجذعه الأخضر ملتف بمنشفة لها ألوان العلم ذاتها. لقد أعلن هذا البوشبا الحرب على تعليمات أحواض السباحة، تلك التعليمات القاضية بقصرها على البيض فقط. إنه يحمل صابوناً وصندلاً خشبياً يندفع باتجاه الأحواض، يتقدم عبر البوابات... هناك يقبض عليه حجاب أفغانيون وهنود يخلصون الأوروبيين من تمرد هندي كما هي العادة، ثم يمضون به، وهو يناضل عبثاً، محمولاً كالضفدع إلى شارع واردن حيث يلقونه أرضاً. سباح القنال يغوص في تراب الشارع، تكاد تدهسه الجمال، الدراجات، السيارات، (أما فيشواناث فينحرف بدراجته كي يتجنب صابونه)... لكن عزيمته لا تثبط، بل يهب على قدميه، ينفض التراب عن نفسه مقسماً إنه سيعود غداً. وابان سنوات طفولتي كلها، كانت إحدى علائم الأيام التي تمر باستمرار هي مشهد بوشبا السباح، بقبعته الزعفرانية ومنشفته الملونة بألوان العلم، وهو يغوص رغماً عن أنفه في تراب شارع واردن إلى أن حققت حملته العنيدة في النهاية شيئاً من النصر، ذلك أن الأحواض هذه الأيام تسمح لبعض الهنود ـ «الصنف الأفضل منهم» ـ بالدخول إلى مياهها ذات الشكل الخرائطي. لكن بوشبا، العجوز المنسي الآن، لا يمت إلى الصنف الأفضل، لذا فإنه يراقب الأحواض من بعيد... والآن أجد المزيد والمزيد من الحشود تتدفق إلى داخلي ـ مثل بانوديفي، المصارعة الشهيرة في تلك الأيام، التي لم تكن تصارع إلا الرجال مهددة بأنها ستتزوج من يهزمها وهو التهديد الذي جعلها تربح كل مباراة، كما أجد (قرب منزلنا) ذلك الزاهد الجالس تحت صنبور

حديقتنا واسمه بورروشوتام إنما كنا (أنا وسوني وآيسلايس وهيرويل وسيروس) ندعوه دائما بورو ـ غورو ـ فهو لشدة إيمانه بأنني شخص مبارك، كان قد كرس حياته لرعايتي، مالئاً أيامه بتعليم والدي قراءة الكف، قارئاً سحره على ثآليل أمي، إضافة إلى ذلك أجد التنافس بين الخادم والعجوز موسى والمربية الجديدة ماري، ذلك التنافس الذي سيشتد إلى أن ينفجر! قصارى القول إن الحياة في بومباي، في نهاية ١٩٤٧، كانت صاخبة، متعددة الجوانب، شديدة الاحتشاد، عديمة الشكل كما كان شأنها دائماً... باستثناء قدومي أنا. إذ كنت قد شرعت باتخاذ مكان لي في مركز الكون ولن يأتي الوقت الذي أنتهي فيه من ذلك حتى أعطي للكون كله معناه. بادما، أراك لا تصدقينني؟ إذا اسمعي، فإلى جانبي، وأنا في السرير، كانت ماري تغني أغنية صغيرة:

ما تبتغي أن تكون، سوف تكون
ولسوف تكون كل ما تود أن تكون

وهكذا حين تم ختاني على يد حلاق مشوه جاء به والدي من شارع غوالياتانك (وأنا في حوالى الشهر الثاني من العمر) كنت قد بت مطلوباً كثيراً في أرض ميثولد. (بالمناسبة، وفي ما يتعلق بالختان: ما أزال أقسم إن بإمكاني أن أتذكر الحلاق العابس الذي أمسك بي من قلفتي بينما راح عضوي ينكمش مذعوراً كثعبان ينزلق مختفياً في جحره، كما أتذكر الموسى وهي تنزل عليه، والألم، لكنهم أخبروني أنني في ذلك الحين لم أكن أعرف كيف أتذكر بل لم تكن عيناي تطرفان).

نعم، إنني طفل مشهور: لي أمان اثنتان، أمينة وماري ولم يكن باستطاعتهما الحصول على كفايتهما مني. ففي المسائل العملية كلها، كانتا أكثر من حليفتين حميمتين. إذ كانتا، بعد ختاني تحممانني معاً، وتقهقهان معاً، وهما تريان عضوي المختون يرتعش غضباً في الماء الساخن. «من الأفضل أن نراقب هذا الغلام يا مدام» قالت ماري ببذاءة «فلعضوه حيويته الخاصة تماماً!». لكن أمينة ردت: «هش... ش، ماري، أنت مخيفة

فعلاً . . ». غير أن ماري تابعت من بين شهقات الضحك الشديد فقط: «انظري يا مدام، انظري إلى عضوه الصغير المسكين». ذلك أنه كان قد عاد إلى الاهتزاز والتذبذب ثانية مثل فروج مذبوح . . . هما، معاً، كانتا تعتنيان بي كل العناية، لكن في ميدان العاطفة، كان بينهما تنافس قاتل. ذات مرة، وكانتا قد أخذتاني في نزهة بالعربة إلى الحدائق المطلة على رابية مالابار، سمعت أمينة ماري وهي تقول لمربيات أخريات، «انظرن: هذا هو ولدي الرائع» فشعرت على نحو غريب بالتهديد. بعد ذلك، بات الطفل سليم ساحة معركة لحبهما، فكل منهما تسعى للتفوق على الأخرى في إبداء مختلف أشكال العاطفة بينما كان هو الذي بات يطرف بعينيه في ذلك الحين، ويناغي بصوت عال، يتغذى على عواطفهما، مستخدماً، لكي يعجل في نموه، كل ما يزودانه به من احتضانات وقبل وملاطفات ومداعبات لا نهاية لها، مندفعاً باتجاه اللحظة التي سيكتسب فيها الميزة الجوهرية التي تتميز بها الكائنات البشرية عادة. ففي كل يوم، وفي اللحظات النادرة التي كنت أرى نفسي فيها وحيداً مع إصبع الصياد المؤشرة، كنت أحاول أن أنتصب في سريري.

(وفي الوقت الذي كنت أقوم فيه بمحاولات عقيمة للوقوف على قدمي كانت أمينة هي الأخرى أسيرة قرار عقيم ـ فقد كانت تحاول أن تطرد من ذهنها حلم زوجها، ذاك الذي لا يسمى. إنه الحلم الذي حل محل حلم ورق الذباب في ليلة مولدي، الحلم الذي كان له من القوة ما جعله يبقى معها طوال ساعات يقظتها. في ذلك الحلم، كان نادر خان يجيء إلى فراشها ويجعلها تحبل، وكان إلحاح ذلك الحلم على معاودته لها فظيعاً إلى حد جعل أمينة ترتاب بأبوة ابنها، الأمر الذي زودني، أنا طفل منتصف الليل، بأب رابع فضلاً عن وينكي وميثولد وأحمد سيناء. في ذلك الحين، بدأت أمي، بكل اضطرابها ويأسها وهي في قبضة ذلك الحلم، تشكل ضباب الإثم الذي سيلف رأسها في وقت لاحق من عمرها، بإكليل أسود قاتم).

أبداً لم أسمع ويلي وينكي وهو يغني في عزه. ورغم أن بصره عاد إليه تدريجياً، بعد أن فقده إلا أن شيئاً حاداً أجش زحف إلى صوته فقال الناس إن ذلك هو الربو، وقد ظل يقصد أرض ميثولد مرة واحدة كل أسبوع يغني

أغنياته التي كانت، كما كان هو نفسه، من بقايا عصر ميثولد. كان يغني أغنيات مفعمة بالحنين، وهو يضع طفلاً كبير الحجم، له ركبتان عجراوان إلى درجة تهدد بالخطر، على حصيرة صغيرة بجانبه في حلقة السيرك، ولم يكن أحد يملك الشجاعة على صرفه بعيداً. وينكي وإصبع الصياد من البقايا القليلة التي ظلت من أيام وليام ميثولد، ذلك أنه ما إن اختفى ذلك الرجل الانكليزي حتى أفرغ خلفاؤه من السكان قصوره من كل شيء. ليلى سبرماتي احتفظت بالبيانو، أحمد سيناء أبقى لديه خزانة الوسكي، والعجوز ابراهيم توصل إلى نوع من التقبل لمراوح السقف، لكن السمك الذهبي لاقى حتفه، البعض جوعاً، والبعض الآخر لفرط التغذية، أما الكلاب فقد أمست برية لا أصحاب لها، وأخيراً كفت عن التجوال في الإقطاعة، بينما وزعت الثياب البالية التي كانت تمتلئ بها الخزائن على الخادمات وعاملات الكناسة في الإقطاعة، إلى حد أن ورثة وليم ميثولد، ولسنوات عديدة من ذلك الحين، كان يخدمهم رجال ونساء يرتدون قمصان وملابس سادتهم التي كانت قد ازدادت رثاثة وبلى. لكن بقي وينكي واللوحة المعلقة على الحائط، فغدا المغني والصياح علامات بارزة في حياتنا، شأنهما شأن ساعة الكوكتيل، التي أمست عادة أقوى من أن ينتهكها أحد. كان وينكي يغني «كل دمعة حزن تجعله أقرب إلى نفسي»... وكان صوته يسوء ويسوء إلى أن يغدو أشبه بصوت قيثار أكلت جلده الفئران ثم يعتذر بإصرار عنيد «إنه الربو» وهكذا لم يمت إلا وقد فقد صوته كلية. لقد عزا الأطباء ذلك إلى سرطان الحنجرة، لكنهم كانوا على خطأ أيضاً، ذلك أن وينكي لم يقض لعلة في جسمه بل لشدة المرارة التي أحسها إثر فقدان زوجته التي لم يشك يوماً بخيانتها له. أما ابنه، الذي سماه شيفا تيمناً باسم إله الخلق والتدمير، فقد كان يجلس عند قدميه في تلك الأيام، صامتاً ينوء كاهله بعبء ذنب كبير هو أنه كان السبب في انهيار أبيه التدريجي (أو هكذا كان يظن)، وعلى مر السنين، وبصورة تدريجية كنا نرى عينيه تمتلئان بغضب مكتوم، كنا نرى قبضتيه تطبقان على الحصى وتقذفه، على غير هدى بادئ الأمر، ثم على الفراغ المحيط به، بعد أن كبر وازداد غضبه خطورة. وحين بلغ ابن ليلى سبرماتي عامه الثامن، بدا

وكأنه، قد أخذ على نفسه عهداً بأن يشاكس شيفا الصغير بسبب تهجمه الدائم وبنطلونه غير المكوي وركبتيه العجراوين، الأمر الذي حدا بالغلام، الذي حكمت عليه جريمة ماري بالفقر وحمل الأكورديون، لأن يقذفه بحجر مسطح، له حد قاطع كحد الموسى، أصابه في عينه اليمنى ففقأها. بعد هذه الحادثة بات ويلي وينكي يجيء إلى إقطاعة ميثولد بمفرده، تاركاً ابنه يدخل المتاهات المظلمة التي لن ينقذه منها إلا الحرب.

ترى لماذا ظلت إقطاعة ميثولد تتحمل ويلي وينكي رغم تلف صوته وعنف ابنه؟ السبب، ببساطة: أنه، ذات يوم، قدم لهم مفتاحاً هاماً من مفاتيح حياتهم حين قال: «مولد أول طفل سيجعل منازلكم منازل حقيقية».

ففي أيامي الأولى، وكنتيجة مباشرة للمفتاح الذي قدمه وينكي، كنت مرغوباً إلى حد لا يطاق. تحت تصرفي، كانت هنالك أمينة وماري، لكن في كل منزل من منازل الإقطاعة كان ثمة أناس يبتغون معرفتي، الأمر الذي جعل أمينة، وقد سمحت لزهوها بشعبيتي أن يطغى على كرهها لغيابي، توافق أخيراً على أن تعيرني، وبصورة دورية، لمختلف عائلات الرابية. وهكذا بدأت، وأنا في عربة زرقاء بلون السماء تدفعها ماري بيريرا، جولتي الظافرة في قصور الرابية ذات الآجر الأحمر، مضفياً على كل منزل وبصورة دورية شرف حضوري، جاعلاً تلك المنازل تبدو حقيقية لأصحابها. وهكذا يمكنني، وأنا أنظر إلى ذلك الماضي بعيني سليم الطفل، أن أكشف معظم أسرار جيراني. ذلك لأن الكبار كانوا يعيشون حياتهم بحضوري، دون خوف من رقيب، غير عارفين أن شخصاً ما سيعاود النظر، بعد سنين، من خلال عيني ذلك الطفل ويقرر إخراج الهررة من أكياسها.

وهكذا أرى أمامي العجوز ابراهيم، وهو يكاد يموت حنقاً لأن الحكومات الأفريقية شرعت بتأميم مزارعه، مزارع السيزال، كما أرى ابنه الأكبر اسحق وهو ينشق غيظاً من عمله في الفندق الذي أغرقته الديون إلى درجة اضطر معها لأن يستدين المال من رجال عصابات محليين. ها هي ذي أمامي عينا اسحق وهما تلتهمان زوجة أخيه، علماً أن قدرة نوسي ـ البطة على إثارة الاهتمام الجنسي لدى كل من يراها لا تزال سراً بالنسبة إلي، ها

هو ذا زوج نوسي، اسماعيل المحامي الذي تعلم درساً هاماً من ولادة ابنه بواسطة الملقط، يقول لزوجه البطة: «لا شيء يتم بصورة صحيحة في هذه الحياة ما لم يفرض بالقوة» وبتطبيقه هذه الفلسفة على حياته المهنية، يبدأ حياة ملؤها رشوى القضاة وشراء ضمائر المحلفين، جميع الأطفال يملكون القدرة على تغيير آبائهم، ولقد غيّر سوني أباه جاعلاً منه محتالاً ناجحاً كل النجاح. وإذا ما انتقلنا إلى فيلا فرساي أرى، يعيني ذلك الطفل، السيد دوباش والمقام المقدس الذي خصصته للإله غانيش في ركن من أركان شقة كانت من الفوضى والاضطراب ما جعل كلمة «دوباش» تعني في منزلنا، «الفوضى والاضطراب». «أوه سليم، لقد «دوبشت» غرفتك مرة ثانية، أيها المنحوس!» كانت ماري تصرخ بي. لكن ما هو سبب هذه الفوضى يا ترى؟ إنه آدى دوباش عالم الفيزياء وعبقري الذرة والفوضى. أما زوجته التي سبق وحملت سيروس العظيم في أحشائها فإنها تبقى في الظل، تربي ولدها، وشيء مجنون يلمع في الزوايا الداخلية لعينيها، ينتظر حينه، ولا يظهر إلى أن يموت السيد دوباش، هو الذي قضى حياته في معالجة أخطر المسائل في العالم، نتيجة غصة ببرتقالة نسيت زوجته أن تنزع منها بذورها. منزل الدكتور نارليكار لا أعرفه، فما من أحد دعاني إلى ذلك المنزل الذي يكره صاحبه الأطفال، لكن في منزل ليلى سبرماتي وهومي كاتراك أصبحت طرفاً رئيسياً في حياة ليلى وزوجها وخياناتها له، كما بت أخيراً شاهداً على بدايات العلاقة بين زوجة ضابط الأسطول وقطب الإنتاج السينمائي صاحب خيول السباق، تلك العلاقة التي ستخدمني جيداً في الوقت المناسب وذلك حين أخطط لعمل من أعمال الانتقام في ما بعد.

حتى الطفل تواجهه مشكلة تحديد ذاته، وأنا مضطر لأن أقول إن شعبيتي المبكرة كان لها جوانبها الإشكالية، إذ كنت عرضة لوجهات نظر كثيرة مربكة حول الموضوع، فأنا طفل مبارك بالنسبة إلى الزاهد الدرويش الذي جلس تحت الصنبور. وأنا مختلس النظر بالنسبة إلى ليلى سبرماتي، أما في عيني نوسي البطة فقد كنت المنافس، والمنافس الأنجح لابنها سوني (رغم أنها، والحق يقال، لم تظهر نفورها مني البتة، بل حاولت استعارتي تماماً مثلما

فعل الآخرون). في حين كنت بالنسبة إلى أمي المزدوجة أمثل كل ما هو طفولي ـ فكانتا تدعوانني جونو ـ مونو، بوطش ـ بوطش وفلقة القمر.

لكن ما عساه يفعل طفل كهذا سوى تلقي ذلك كله والأمل في أن يفيد منه في ما بعد؟ وهكذا تشربت، بصبر شديد وعين لا تعرف الدموع، رسالة نهرو ونبوءة رامرام، لكن الانطباع الأشد الذي تلقيته حدث في ذلك اليوم الذي بعثت فيه ابنة هومي كاتراك المعتوهة أفكارها، عبر حلقة السيرك، إلى رأس الطفل.

إذ إن توكسي كاتراك صاحبة الرأس الضخم والفم ذي اللعاب السائل، توكسي التي كانت تقف في نافذة مشبكة بالقضبان من نوافذ الطابق العلوي، عارية تماماً تمارس العادة السرية بحركات تثير الاشمئزاز، والتي غالباً ما كانت تبصق، قاذفة بصاقها من خلال قضبان نافذتها، وغالباً ما كانت تضربنا على رؤوسنا... توكسي تلك كانت في الحادية والعشرين من العمر، شبه مخبولة، نتاج زمن طويل من التزاوج بين الأقرباء، لكنها رغم كل شيء، كانت في نظري جميلة، إذ لم تكن قد فقدت المواهب التي تولد مع كل طفل والتي تعمل الحياة على القضاء عليها. ورغم أنني لا أستطيع تذكر شيء مما قالته توكسي حين أرسلت أفكارها إلي، تلك الأفكار التي لم تكن تتعدى في الغالب الغرغرات والبصاق، إلا أنها لطمت باباً في ذهني لطمة خفيفة، وحين وقعت حادثة صندوق الغسيل، ربما كانت توكسي هي السبب.

لكن حسبنا الآن كلاماً عن الأيام الأولى للطفل سليم ـ فحضوري نفسه كان قد ترك آثاراً على التاريخ، والطفل سليم كان فعلاً يحدث تغييرات على كل من حوله، أما في ما يتعلق بوالدي فقد كنت مقتنعاً بأنني أنا الذي دفعته إلى الإفراط في الشراب، الأمر الذي أفضى به، وبصورة حتمية إلى عهد من الجمود والرعب.

لم يغفر أحمد سيناء لابنه قط انه كان السبب في هرس إبهام قدمه، إذ حتى بعد إزالة الجبيرة عنه بقي يعرج منه قليلاً. وكان أبي ينحني فوق سريري ويقول: «هكذا يا ولدي، لقد بدأت ما تنوي الاستمرار به، أجل، لقد بدأت بسحق أبيك الكهل المسكين!». وبحسب رأيي، لم يكن ذلك القول إلا

خليطاً من المزاح والجد. ذلك أنه مع مولدي، تغير كل شيء بالنسبة إلى أحمد سيناء. فمنزلته في المنزل تدنت وغدت ثانوية مقارنة بمنزلتي. كما أن مثابرة أمينة اكتسبت فجأة أهدافاً مختلفة، فهي لم تعد تتملقه من أجل المال ولم يعد غطاء الطاولة فوق حجره يصنع قبباً وخياماً. «ابنك بحاجة لكذا وكذا» هذا ما باتت تقول له، أو «جانوم، عليك أن تدفع المال من أجل كذا وكذا» وكان أحمد سيناء يفكر بسوء الحال الذي وصل إليه. فوالدي كان رجلاً معتداً بنفسه.

إذاً، بسبب ما فعلته به، سقط أحمد سيناء في الأيام التي أعقبت مولدي، أسير خيالات مزدوجة قذفت به شيئاً فشيئاً إلى العوالم الوهمية للجن وقيعان البحار.

إنني أتذكر والدي وهو يجلس في أمسية من أماسي الفصل البارد، على حافة سريري (وكنت حينها في السابعة من العمر) ليحكي لي، بصوت خشن قليلاً، حكاية صياد السمك الذي وجد الجني في زجاجة لفظها البحر إلى الشاطئ... «لا تصدق وعود الجن يا بني! أخرج الجن من الزجاجة ولسوف يلتهمك في الحال!». فرددت، مرتعداً بعض الشيء، إذ كنت أشم رائحة الخطر من أنفاس والدي: «لكن، بابا، هل الجني يعيش في زجاجة حقاً؟». حينذاك، وبتغير زئبقي في مزاجه، رد والدي بقهقهة صاخبة ثم غادر الغرفة ليعود بزجاجة خضراء قاتمة عليها بطاقة بيضاء ثم قال بصوت جهوري رنان «انظر! هل تريد أن ترى الجني هنا؟» فزعقت مرتعداً خوفاً، «نعم»... ثم تكومنا خائفين واحدنا إلى جانب الآخر نراقبه وهو يرفع غطاء الزجاجة ثم يغطي بصورة مسرحية عنق الزجاجة براحة كفه، وقد حمل باليد الأخرى ولاعة سجائر مشتعلة «فتهلك كل جنيات الشر» صرخ والدي مقترباً بلهب الولاعة من عنق الزجاجة، مبعداً راحته. بينما رأينا، أنا والقردة النحاسية، وقد أخذ الرعب بلبينا، لهباً غريباً أصفر، أزرق، أخضر وهو ينتقل على شكل حلقة بطيئة إلى داخل الزجاجة هابطاً مع جوانبها إلى أن وصل إلى القعر فتوهج لحظة من الزمن ثم خمد. في اليوم التالي أثرت عاصفة من الضحك حين أخبرت سوني وأيسلايس وهيرويل أن «والدي يحارب الجن

وأنه يهزمهم»... ولقد كان صحيحاً فعلاً. فأحمد سيناء، الذي وجد نفسه محروماً من التملق والإطراء والاهتمام، بدأ، بعد مولدي مباشرة، صراعاً مدى الحياة مع زجاجات الجن لكنني أخطأت في شيء واحد فقط: إنه لم ينتصر ولم يهزمهم.

كانت خزائن الكوكتيل تشحذ شهيته، بيد أن قدومي هو الذي دفعه إليها... ففي تلك الأيام، كانت بومباي ولاية يمنع فيها تداول المشروبات الروحية. وكانت الطريقة الوحيدة للحصول على مشروب هو أن يثبت المرء بشهادة مصدقة أنه مدمن على الكحول، وهكذا ظهر إلى الوجود صنف جديد من الأطباء، أطباء ـ الجن، وكان احدهم الطبيب شرابي الذي قدمه إلى والدي جاره هومي كاتراك. بعد ذلك، وفي الأول من كل شهر، كان والدي والسيد كاتراك وكثير غيرهما من رجال المدينة المحترمين يصطفون رتلاً طويلاً خارج عيادة الطبيب شرابي ثم يدخلون ليخرجوا بالوثائق الزهرية الصغيرة الخاصة بالإدمان على الكحول. غير أن التعيين المسموح به كان أقل من احتياجات أبي، لذلك بدأ يرسل خدمه أيضاً، وبوابيه وحدائقييه وسائقيه (إذ كنا قد اشترينا سيارة في ذلك الحين، روفر طراز ١٩٤٦، تماماً مثل سيارة وليام ميثولد)، بل حتى الخادم العجوز موسى وماري بيريرا كانا يأتيان إلى والدي بالمزيد والمزيد من الوثائق الزهرية التي كان يأخذها إلى مخزن فيجي ليستبدل بها أكياساً ورقية بنية خاصة بالكحوليين، في داخلها زجاجات خضر رنانة ملأى بالجن، والوسكي أيضاً: لقد قضى أحمد سيناء على نفسه بتناوله لكل ما في الزجاجات الخضر التي كان يأتي بها خدمه، أولئك المساكين الذين كانوا يبيعون ذواتهم هم الذين لا يملكون شيئاً آخر يبيعونه، بواسطة قطع صغيرة من الورق الزهري، كان والدي يحيلها إلى سائل يشربه حتى الثمالة.

في السادسة من كل مساء. كان أحمد سيناء يلج عالم الجن، وفي كل صباح كان يأتي بعينيه الحمراوين ورأسه المرهق من معارك ليله الطويل، إلى طاولة الإفطار، دون أن يحلق ذقنه، وبمرور الزمن حل محل المزاج الحسن الذي كان يظهر به عادة قبل الحلاقة، ذلك الإرهاق والتوتر الشديدان اللذان

تتركهما عليه حربه مع الأرواح المحبوسة في الزجاجات.

بعد الإفطار، كان ينزل إلى الطابق السفلي، حيث أفرد غرفتين هناك لتكونا مكتباً له، فإحساسه بالاتجاه كان ضعيفاً في بومباي وهو في طريقه إلى العمل. منهكاً، مثلّماً، كان أبي يعقد صفقاته العقارية وكان غضبه المتزايد من انشغال أمي بابنها قد وجد منفذاً له خلف باب مكتبه ـ فقد شرع أحمد سيناء يغازل سكرتيراته. كما شرع بعد الليالي التي يشتد عراكه فيها مع الزجاجات، يتفتق عن كلام فظ مثل: «أية زوجة تزوجت! كان ينبغي أن أشتري لنفسي ولداً وأستأجر مربية ـ فما الفرق؟». فترد أمينة دامعة العينين: «أوه، جانوم! لا تعذبني!»، الأمر الذي كان يثيره أكثر وأكثر «أعذب قدمي! ترى هل تظنين أنه تعذيب أن يطلب الرجل من امرأته أن توليه بعض الاهتمام؟ لينقذني الله من النساء الغبيات!». بعد تلك الليالي كان والدي ينزل إلى الطابق السفلي كي يلتهم بنظراته فتيات كولابا. فبعد حين من الزمن، بدأت أمينة تلاحظ كيف أن سكرتيراته لا يبقين طويلاً لديه، وكيف أنهن يتركنه فجأة، ويغادرن منزلنا دون أن ينظرن خلفهن وعليك أن تحكم فيما إذا كانت قد اختارت أن تغض النظر أو أنها اعتبرتها بمثابة العقوبة، لكنها لم تحرك ساكناً تجاه الأمر كله، بل استمرت تكرس وقتها لي، وكل ما فعلته لإظهار معرفتها هي أنها كانت تطلق على الفتيات اسماً واحداً. «أولئك الانكليزيات» قالت ذات مرة لماري وفي صوتها لمسة من غطرسة «بأسمائهن المضحكة، فرناندا، ألونسو وما إلى ذلك! وكِناهن المضحكة أيضاً! يا إلهي! ماذا؟ سولاكا وكولاكو وما لا أدري من الأسماء... ماذا يهمني منهن؟ إنهن إناث من نوع رخيص... إنني أسميهن جميعاً فتيات الكولاكولا ـ فهذا يبدو أنهن يشبهنه تماما!».

وبينما كان أحمد يقرص مؤخرات، أمست أمينة شديدة المعاناة، لكنه كان سيسعد أكثر لو أنها أظهرت قدراً أكبر من الاهتمام.

«ليست أسماء مضحكة يا مدام» ردت ماري بيريرا «بل أستميحك المعذرة. فهي أسماء مسيحية صالحة». وتتذكر أمينة زهرة ابنة عم أحمد وهي تسخر من بشرتها الداكنة، فتهم بالاعتذار، وتقع في خطيئة زهرة نفسها: «أوه! لست أقصدك يا ماري! بل كيف ببالك أنني أسخر منك؟».

وكنت أنا بصدغيّ ـ القرنين وأنفي ـ الخيارة، أستلقي في سريري وأسمع. فكل ما حدث، إنما حدث بسببي. . . ذات يوم من أيام كانون الثاني عام ١٩٤٨، وفي الساعة الخامسة عصراً، كان لدى والدي زائر هو الدكتور نارليكار. وكالعادة جرى عناق وتربيت ظهور بينهما. «قليلاً من الشطرنج» سأله والدي بصورة طقسية، ذلك أن تلك الزيارات كانت قد غدت عادة، إذ كانا يلعبان الشطرنج بحسب الطريقة الهندية القديمة، كي يتحررا بفضل لوح الشطرنج وبساطته من توترات وتعقيدات حياتهما. فأحمد يمكن أن يغرق لساعة كاملة في حلم من أحلام يقظته حول إعادة ترتيب القرآن، وحين تدق الساعة السادسة، يكون قد حان موعد الكوكتيل، جاء دور الجن. . . لكن، في ذلك المساء، قال نارليكار «كلا»، فرد أحمد «كلا؟ ما هذه الكلا؟ هيا. اجلس يا رجل، العب، ثرثر. . ». قاطعه نارليكار: «هذه الليلة، يا أخ سيناء، ثمة أمر ينبغي أن أعرضه عليك» وهكذا انطلقا في سيارة الروفر ١٩٤٦، على طول شارع واردن، مروراً بمعبد مهالاكسمي الواقع إلى اليسار ونادي ولينغتون الواقع إلى اليمين، تاركين مضمار السباق خلفهما، سائرين على طول الكورنيش المحاذي للبحر، ثم اجتازا ستاد فلابهاى باتل، فبانو ديفي فدار اسينغ. . . وهناك وجدا الباعة التشانيين[(١)] ومنزهي الكلاب وهم يتنزهون بجانب البحر. «قف». أصدر نارليكار أمره، ثم خرجا من السيارة ليقفا في مواجهة البحر. . أنامل البحر تلامس وجهيهما برعشة البرودة، وهناك، في نهاية ممر إسمنتي ضيق يمتد وسط الأمواج، تنتصب الجزيرة التي يقوم عليها ضريح الحاج علي الصوفي، والحجاج يتمشون بين المنارة والضريح.

«هناك» أشار نارليكار «ماذا ترى؟»، فأجاب أحمد متحيراً «لا شيء، ضريح، أناس. . . ما الأمر أيها الكهل؟». فقال نارليكار: «لا أقصد ذلك. . . بل هناك! هناك!» حينها رأى أحمد أن إصبع نارليكار المؤشرة مسددة باتجاه الممر الإسمنتي. فسأله: «المنتزه؟ وماذا يعني بالنسبة إليك؟

---

(١) شعب من شعوب الهند المتعددة.

خلال بضع دقائق سيرتفع المد ويطغى عليه... الجميع يعرفون..». لكن نارليكار، وقد تألقت بشرته كمنارة، غدا فلسفي المظهر «هكذا تماماً يا أخ أحمد، هكذا تماماً. بر وبحر، بحر وبر، صراع أبدي، أليس كذلك؟» فظل أحمد صريع الحيرة، لا ينبس ببنت شفة. إلى أن ذكره نارليكار «ذات مرة كان هنالك سبع جزر: وارلي، ماهيم، سالسيت، ماتونغا، كولابا، مزاغون، بومباي. ثم وصل البريطانيون في ما بينها، فأضحى البحر براً يا أخ أحمد. ارتفع البر ولم تعد تغرقه أمواج المد». هنا بدأت شفة أحمد، وقد اشتد شوقه للويسكي، بالبروز أكثر بينما كان الحجاج يسرعون عابرين الممر الذي يزداد ضيقاً شيئاً فشيئاً. أخيراً سأله: «ما الغاية؟». فرد نارليكار باهر الألق: «الغاية يا أحمد بيك، هي هذه!» ثم أخرج من جيبه ملصقة صغيرة من طراز باريسي بارتفاع بوصتين: رباعية القوائم[١]! مثل علامة المرسيدس ذات الأبعاد الثلاثة، كانت القوائم الثلاث تنتصب على راحته أما القائمة الرابعة فكانت تنتصب كقضيب الذكر[٢] في هواء المساء، وتسحر عيني والدي فيسأل: «ما هذا؟». فيرد عليه نارليكار: «هذا هو الوليد الذي سيجعلنا أكثر غنى من حيدر آباد يا بيك!». ويشير إلى البعيد حيث أمواج البحر تغسل الممر الإسمنتي المهجور... «تحت البحر يوجد أرض يا صديقي! وعلينا أن نصنع هذه بالآلاف ـ بعشرات الآلاف! كذلك علينا أن ندخل مناقصات للحصول على عقود استصلاح، الثروة بانتظارنا، فلا تضعها يا أخ! إنها فرصة العمر!».

ترى لماذا وافق والدي على مشاركة ذلك الطبيب النسائي التعهدات والمشاريع؟ لماذا بات، شيئاً فشيئاً، يرى صورة رباعيات القوائم بحجمها الكامل وهي تجتاز أسوار البحر، تغزوه بقوائمها الأربع وتنتصر عليه؟ لماذا سحرته تلك الصورة كما سحرت الطبيب المتألق البشرة؟ وفي السنوات التالية

---

(١) كتلة من الإسمنت المسلح رباعية الأسطح تستخدم خصيصاً لحماية حواجز الماء من تأثير الأمواج.

(٢) رمز الفحولة والحيوية والقوة الخلاقة وهي العلامة المميزة للإله شيفا في الديانة الهندوسية.

لماذا كرس أحمد نفسه لتخيل كل ساكن للجزيرة ـ لماذا كرسها لأسطورة غزو الأمواج؟ ربما لأنه كان يخشى أن تضيع من يده نقطة انعطاف أخرى، وربما بسبب زمالة الشطرنج أو ربما كان الأمر كله بسبب قدرة نارليكار على الإقناع. «برأسمالك وعلاقاتي الشخصية، يا أحمد بيك، أية مشكلة ستواجهنا؟ كل رجل محترم في هذه المدينة جاء أبناؤه إلى هذا العالم على يدي، لذا ما من باب سيغلق في وجهنا. أنت تقوم بالتصنيع وأنا أحصل على العقود! والأرباح مناصفة!!» لكن بحسب وجهة نظري هناك تفسير أبسط. فوالدي، المحروم من العناية الزوجية، والذي حل ابنه محله واستنزفه الويسكي والجن، كان يحاول استعادة مركزه في العالم، وقد قدمت رباعيات القوائم هذه الفرصة. فقذف نفسه، قلباً وقالباً، في الحماقة الكبيرة، وهكذا بدأ كتابة الرسائل وقرع الأبواب ورشوة المسؤولين، وذلك كله بغية جعل أحمد سيناء اسماً معروفاً في دهاليز ساشيفالايا ـ سرايا الحكومة ـ حيث شموا رائحة مسلم ينثر روبياته أرضاً كأنها الماء. ولم يكن أحمد سيناء الذي لا ينام قبل أن يثمل تماماً، مدركاً الخطر الذي ألقى نفسه فيه.

في تلك المرحلة، كانت المراسلات هي الإطار الذي يحتوي حياتنا. فرئيس الوزراء كتب إلي حين كنت في اليوم السابع من عمري ـ وقبل أن يكون باستطاعتي مسح أنفي ـ كنت أتلقى رسائل من قراء التايمز الهندية، لكن ذات صباح من أيام كانون الثاني، تلقى أحمد سيناء رسالة لن ينساها ما دام على قيد الحياة.

لقد توجه إلى الإفطار بعينيه الحمراوين كالعادة، ثم تلا ذلك حلاقة ذقنه استعداداً ليوم العمل، فنزول إلى الطابق السفلي، وقهقهات حذرة من فتاة كولاكولا. بعد ذلك انطلق زعيق كرسي كان يجر إلى مكتب مغطى بقماش جلدي أخضر، فصوت معدني لقطاعة ورق رفعت ثم ارتطمت في تلك اللحظة بهاتف، بعدئذٍ خشخشة قصيرة لمعدن يفتح مغلفاً وبعد دقيقة واحدة، أحمد يعود إلى الطابق العلوي جارياً، منادياً أمي، صارخاً:

«أمينة، تعالي هنا، أيتها الزوجة! أولاد الزنى! لقد وضعوا خصيتي في ثلاجة!».

وفي الأيام التي أعقبت تلقي أحمد للكتاب الذي أعلمه بتجميد جميع ممتلكاته، كان العالم كله يتكلم دفعة واحدة. . .

«بحق الله يا جانوم! ما هذه اللغة؟» تقول أمينة محتجة ـ لكن أهو من صنع خيالي أم أن الطفل سليم كان يحمر خجلاً في مهد أزرق بلون الماء؟

أخيراً يصل نارليكار وهو يتصبب عرقاً «إنني ألوم نفسي كل اللوم. . . أجل. . لقد جعلنا من أنفسنا أناساً مشهورين للغاية، وهذا وقت عصيب يا سيناء بيك ـ يجمدون ممتلكات مسلم فيجعلونه يفر إلى الباكستان، مخلفاً وراءه كل ما يملك. أمسك بذنب السحلاة تجده ينقطع في يدك! هذه الدولة العلمانية، كما يقال، لديها بعض الأفكار اللعينة!».

فيقول أحمد سيناء: «كل شيء، حسابي المصرفي، سندات التوفير، أجور عقارات كورلار، الكل احتجزوه، جمدوه. وبحسب ما يقول الكتاب فإن هذا الأمر لا يسمح لي بسحب قرش واحد، قرش واحد أتفرج به على صندوق الدنيا».

وتصدر أمينة حكمها: «إنها صور الجرائد تلك. . . وإلا كيف تسنى لأولئك أن يعرفوا بك ويصادروا أملاكك؟ يا إلهي! إنه خطأي يا جانوم. .».

فيضيف أحمد سيناء، «ولا قرش. . . تصوري. . ولا قرش واحد يمكنني أن أتصدق به على متسول. جمدوا كل شيء ـ كما لو أنه في ثلاجة».

«الخطأ خطأي» يقول إسماعيل إبراهيم «لقد كان عليّ أن أحذرك يا سيناء بيك. لقد سمعت عن هذه التجميدات ـ وهم بالطبع يختارون المسلمين الميسورين لكن عليك أن تكافح. .».

«بأنيابك وأظفارك» يصر هومي كاتراك «كأسد هصور، كجدك أورانجزيب، أليس كذلك؟ مثل الراني جانسي! ولنر بعد ذلك أي بلد بات هذا البلد!».

«هناك قانون ومحاكم في هذه الدولة» يضيف اسماعيل ابراهيم، فتبتسم نوسي ـ البطة ابتسامة بقرية وهي ترضع ابنها سوني، محركة أصابعها شاردة اللب، تداعب فجوات صدغيه، هنا وهناك، تتحرك في كل مكان بإيقاع منتظم ثابت. . «عليك أن تتقبل خدماتي القانونية» يقول اسماعيل لأحمد «بلا

أي مقابل يا صديقي الطيب... لا لا.. لن أسمع كلمة واحدة عن هذا الموضوع، نحن جيران يا رجل».

فيقول أحمد «تحطمت.. تجمدت كالماء».

لكن أمينة تقاطعه، وقد ارتقى حبها للتضحية بنفسها إلى آمال جديدة، فتقوده باتجاه مخدعها قائلة: «تعال الآن، جانوم، أنت بحاجة لأن تستريح قليلاً». فيرد أحمد: «ما هذا أيتها الزوجة؟ في وقت كهذا ـ أجد نفسي فيه مجرداً من كل شيء، منتهياً، مسحوقاً كالجليد ـ وأنت تفكرين بـ..» لكنها تكون قد أغلقت الباب، ألقت بالخف جانباً وأحاطته بذراعيها، ثم لا تمر لحظات من الزمن حتى تكون يداها قد امتدتا إلى الأسفل فالأسفل، ثم تقول: «يا إلهي، جانوم! لقد حسبته مجرد كلام... لكن الأمر حقيقي!! إنه بارد جداً... يا الله! بارد للغاية لكأنه قطعة من جليد!».

هكذا حدثت الأمور! فبعد أن جمدت الدولة ممتلكات أبي، بدأت زوجته تشعر بأنهما يغدوان أبرد وأبرد. لكن في اليوم الأول، حبلت بأختي «القردة النحاسية» ـ تماماً في الوقت المناسب، فبعد ذلك، ورغم أنها كانت تضطجع كل ليلة إلى جانب زوجها كي تدفئه، ورغم أنها كانت تنكمش على نفسها وتتكور حين تشعر به وهو يرتعش مع امتداد أصابع الغضب والعجز الجليدية من حقويه إلى الأعلى، لم يعد باستطاعتها أن تتحمل مد يدها إليه، ذلك أن قطعته الجليدية كانت قد باتت أشد برودة من أن يلمسها المرء.

لكن، كان علينا جميعاً أن نعرف أن شراً سيقع. ففي كانون الثاني ذاك، كان بإمكان المرء أن يرى خلجان تشوباتي وجوهو وترومباي وقد تناثرت عليها، هنا وهناك، الجثث المشؤومة لأسماك بومفريت ميتة، منقلبة على بطونها، كأصابع حرشفية، وقد لفظها البحر، دونما تفسير، إلى شطآنه.

أفاعٍ وسلالم

وكانت هناك نذر شؤم أخرى: فقد شوهدت شهب تنفجر فوق خليج باك، كما قال البعض أنهم شاهدوا أزهاراً تنزف دماً حقيقياً أحمر، وفي شهر شباط شوهدت أفاع تفرُّ بجلودها من معهد شابستيكر. كذلك انتشرت إشاعة تقول إن توبريوالا، ساحر الأفاعي البنغالي المجنون، كان يجوب البلاد ساحراً الأفاعي مخلصاً إياها من الأسر في مزارع الأفاعي (كمعهد شابستيكر مثلاً، حيث كانت تجرى دراسة لسموم هذه الأفاعي بغية الوصول إلى مضاداتها الطبية) وذلك رداً على تقسيم بنغاله الذهبية الحبيبة وبفضل سحر شبابته، وهو عازف الشبابة ذو الثياب العديدة الألوان. بعد حين من الزمن أضافت الشائعات أن طول توبريوالا كان يبلغ السبع أقدام وأن بشرته زرقاء لامعة. إنه كريشنا يقوم أخيراً لتطهير شعبه، إنه يسوع المسيح الملون بلون السماء.

وفي الفترة التي أعقبت مولدي، حامل التغيرات، حين كنت أنمو بسرعة هائلة، كان كل شيء من المحتمل أن يسير في المسار الخاطئ يبدو وكأنه بدأ يفعل ذلك. ففي شتاء الأفاعي ذاك من عام ١٩٤٨، وكذلك في الفصول الحارة والماطرة التي أعقبته، تكدست أحداث بحيث لم يحن موعد ولادة أختي في أيلول حتى كنا جميعاً قد استنزفنا تماماً وغدونا على أتم استعداد لراحة تمتد بضع سنوات.

فأفاعي الكوبرا الفارة كانت تختفي في مجارير المدينة، وأفاعي الكرايت كانت تشاهد مجتمعة في الباصات. وقد وصف رجال الدين ذلك الفرار بأنه

ضرب من التحذير ـ إذ أطلقها الإله ناغا على البلاد، عقاباً للأمة على إنكارها الرسمي لآلهتها (فقد أعلن نهرو «نحن دولة علمانية»)، ووافقه على ذلك المهراجا وباتيل ومينون جميعاً، لكن أحمد سيناء كان لا يزال يرتعد بتأثير التجمد). وذات يوم، حين كانت ماري تسأل: «كيف سنعيش الآن يا مدام؟». جاء إلينا هومي كاتراك بالدكتور شابستيكر نفسه. كان هذا الدكتور في الحادية والثمانين من عمره، لسانه يخفق باستمرار داخلاً وخارجاً بين شفتيه الورقيتين وكان مستعداً لأن يدفع أجرة نقدية مقابل شقة الطابق العلوي المطلة على بحر العرب. كان أحمد سيناء، في تلك الأيام، قد لزم فراشه، فبرودة التجمد الجليدية كانت قد ألقت بذورها في ملاءات سريره، وكان يستهلك مقادير كبيرة من الويسكي لأغراض طبية، لكنها رغم ذلك عجزت عن تدفئته... وهكذا، كانت أمينة هي التي وافقت على أن تؤجر الطابق العلوي من فيلا باكنغهام لطبيب الأفاعي العجوز. وفي نهاية شباط، كان سم الأفاعي قد دخل حياتنا.

كان الدكتور شابستيكر رجلاً تُحكى عنه الحكايات الغريبة. فالعاملون الأكثر ميلاً للخرافة في معهده كانوا يقسمون إنه قادر على أن يحلم كل ليلة بأن الأفاعي تلدغه وبذلك يبقى منيعاً عليها لا يؤثر سمها فيه. بينما كان أناس آخرون يهمسون أنه هو نفسه نصف أفعى، نتاج جماع غير طبيعي بين امرأة وثعبان كوبرا. كان هوسه بسم أفعى الكرايت، قد غدا أسطورياً. فليس هناك من ترياق مضاد للدغة الكرايت هذه، لكن شابستيكر كرس نفسه لإيجاد مثل هذا الترياق. وهكذا راح يشتري خيولاً مُبعدة من حظائر كاتراك (وسواه) ويحقنها بجرعات خفيفة من السم، غير أن الخيول كانت تعجز، لسوء الحظ، عن تطوير جسيمات مضادة للسم فتقضي نحبها وهي واقفة يغطي الزبد أفواهها وبذلك يتعين تحويل عظامها إلى غراء. كذلك كان يقال إن الدكتور شابستيكر قد باتت لديه القدرة على قتل الخيول بكل بساطة وذلك بمجرد حقنها بحقنة تحت الجلد.

لكن أمينة لم تعر انتباهها لتلك القصص جميعاً، بل قالت لماري برييرا: «إنه سيد هرم، فلماذا نهتم بالناس الذين يسلقونه بألسنتهم؟ إنه سيدفع إيجاره

ويتيح لنا إمكانية العيش». وكانت أمينة شديدة الامتنان لطبيب الأفاعي الأوروبي، خصوصاً في أيام التجمد تلك حين كان أحمد يبدو وكأنه فقد كل قدرة على الكفاح.

«والديّ الحبيبين» كتبت أمينة: «أقسم بضوء عيني وأحلف برأسي أنني لا أعلم لماذا تحدث أمور كهذه لنا. . . فزوجي أحمد رجل طيب، لكن ضربات موجعة تكال له. وإذا ما رغبتما بتوجيه نصيحة لابنتكما فاعلما أنهما بأمس الحاجة إليها». بعد ثلاثة أيام من استلام رسالتها هذه، وصل آدم عزيز والأم المبجلة إلى المحطة المركزية في بومباي بقطار بريد الحدود. وحين نظرت أمينة، وهي تقود بهما سيارتنا الروفر طراز ١٩٤٦ إلى المنزل، من النافذة الجانبية إلى مضمار السباق ماهالكسمي ورأت ما فيه، نشأت في ذهنها البذرة الأولى لفكرتها المتهورة.

«هذه الزخرفة الحديثة تناسبكم أنتم، ما اسمه، شبان هذه الأيام»، قالت الأم المبجلة «أما أنا فأريد تختاً قديم الطراز أجلس عليه. هذه الكراسي، ما اسمه، طرية للغاية إلى حد أشعر معه وكأنها ستهوي بي».

«أهو مريض؟» سأل آدم عزيز: «هل ينبغي أن أفحصه وأصف له دواء؟». أما الأم المبجلة فقد صرحت بـ: «ليس هذا بالوقت المناسب للاختباء في الفراش. الآن يجب أن يبرهن، ما اسمه، عن رجولته وأن يتصرف تصرف الرجال».

«كم تبدوان في حالة حسنة يا والديّ؟» قالت أمينة وهي تفكر أن والدها يسير بخطا حثيثة نحو الشيخوخة وأنه يبدو وكأنما بات أقصر قامة بمرور السنين، في حين أن الأم المبجلة باتت ضخمة الجثة إلى درجة ناءت معها الكراسي، رغم طراوتها، بعبئها الثقيل. . . كما طفقت أمينة تعتقد أنها في بعض الأحيان ترى، بسبب خداع البصر والضوء، ظلا قاتماً أشبه بالثقب، في منتصف جسم والدها.

«ماذا تبقّى في الهند هذه؟» سألت الأم المبجلة، وهي تشطر الهواء بيدها «هيا. اترك كل شيء وامض إلى الباكستان. انظر ما يفعله ذو الفقار وثق أنه سيؤمن لك الانطلاقة. كن رجلاً يا ولدي ـ انهض وابدأ من جديد».

لكن أمينة قالت: «عبثاً يا أماه، فهو يرفض الكلام الآن. ينبغي أن يستريح». «يستريح؟» صرخ آدم عزيز هادراً «الرجل كتلة هلام!».

ثم قالت الأم المبجلة: «حتى علياء ذهبت، ما اسمه، وبمبادرتها الخاصة، إلى الباكستان ـ وهي تعيش عيشة معقولة، تعلم في مدرسة حسنة. ويقال إنها ستصبح مديرة لها في القريب العاجل».

«هـ... ش... ماما. الرجل يود أن ينام.. فلنذهب إلى الغرفة المجاورة». «هنالك وقت، ما اسمه، للنوم، ووقت لليقظة!؟ اسمعي، مصطفى يكسب، ما اسمه، مئات الروبيات كل شهر من عمله في الخدمة المدنية. فما حال زوجك؟ هل يصلح للعمل؟».

«ماما، الرجل متقلب المزاج. معنوياته في الحضيض..».

«ماذا تطعمينه؟ من اليوم فصاعداً سأتولى بنفسي، ما اسمه، الإشراف على مطبخك. أبناء هذه الأيام، ما اسمه، مثل الأطفال!».

«كما تشائين يا أماه!».

«إنني، ما اسمه، أقول لك السبب. إنها تلك الصور التي نشرت في الجرائد. لقد كتبت لك ـ أليس كذلك؟ إذ لا خير يأتي منها، بل إن الصور تأخذ بعضاً منك. يا إلهي! حين نظرت، ما اسمه، إلى صورتك، رأيت أنك شفافة إلى درجة كنت أستطيع معها أن أرى الكتابة من الجانب الآخر وهي تدمغ وجهك تماماً».

«لكن تلك فقط...».

«لا تحكي لي قصصك! أنا، ما اسمه، أشكر الله على أنك شفيت من بلوى الصور تلك!».

منذ ذلك اليوم، تحررت أمينة تماماً من واجبات إدارة منزلها، فقد تبوأت الأم المبجلة كرسي الرأس على المائدة، توزع منه الطعام؛ وكانت أمينة تأخذ الأطباق إلى أحمد الذي ظل في فراشه يئن وينوح بين الفينة والفينة «تحطمنا أيتها الزوجة، تهشمنا! كقطعة الجليد!». بينما تعهدت ماري بيريرا أن تحضر في المطبخ، من أجل زوارهم، بعضاً من أفضل وأرق مخللات المانغا والخيار وصلصة الليمون والكازوندي في العالم. وهكذا بدأت أمينة،

وقد عادت تأخذ دور الابنة في منزلها نفسه، تشعر وكأن طعام شخص آخر يسري في داخلها ـ ذلك أن الأم المبجلة كان تقتر بالبهار واللحم، وكانت أطباق الطعام تصطبغ بشخصية من تصنعها، وهكذا باتت أمينة تأكل أسماك السالان والبرياني متبّلة بالعناد والتصميم. وعلى الرغم من أن مخللات ماري كان لها تأثير معاكس ـ إذ كانت تحرك في داخلها إثمها السري وخشيتها من افتضاح أمرها، ورغم أنها كانت ذات طعم ومذاق جيدين إلا أن تأثيرها كان ينحصر في جعل من يتناولها عرضة لشكوك لا يعرف مصدرها أحد ولأحلام ملأى بأصابع اتهام لا عد لها ولا حصر.

وهكذا أفعم الطعام الذي كانت تقدمه الأم المبجلة، ابنتها أمينة بضرب من الغضب كما ترك علائم تحسن طفيفة على زوجها المنهزم. . . إلى أن جاءت أمينة ذات يوم إلى الحمام حيث راحت تراقبني وأنا ألعب لعب الأخرق بدمى الخيول الخشب. هناك استنشقت الروائح العذبة لخشب الصندل التي يطلقها الماء الساخن ـ فاكتشفت في داخلها فجأة ذلك الخيط من حب المغامرة الذي ورثته عن والدها الذابل، ذلك الخيط الذي أنزل آدم عزيز من واديه الجبلي إلى المدينة، فالتفتت أمينة إلى ماري قائلة «لقد طفح الكيل، لذلك، إن لم يعمل أحد في هذا المنزل على وضع الأمور في موضعها الصحيح فسأفعل ذلك بنفسي!».

وهكذا كانت الخيول تتراكض أمام عيني أمينة حين تركت ماري تجففني ومضت إلى مخدعها، تطوف في رأسها لمحات من مضمار سباق مهالاكسمي وهي تزيح جانباً ثيابها من ساريات وسترات. لقد ألهبت حمى خطة متهورة وجنتيها وهي ترفع غطاء حقيبة صفيحية عتيقة. . . وتملأ محفظتها بنقود معدنية وأوراق مالية صغيرة بقيت من مرضى ممتنين وضيوف عرس، ثم تمضي إلى السباق.

شرعت أمي، وهي حامل بأختي، «القردة النحاسية»، تطوف بميادين السباق المسماة بأسماء آلهة الثروة، متحدية مرض الصباح الباكر وعروق الدوالي، ثم وقفت في الرتل المصطف أمام شباك «توت» مراهنة على ثلاثة خيول. لقد راهنت، وهي تجهل ألف باء المراهنات، على خيول لا يعرف

أحد إن كان من المحتمل أن تفوز بالسباقات الطويلة، كما راهنت على فرسان سباق لا لشيء إلا لأنها أعجبت بابتساماتهم. كانت في قبضتها محفظة ملأى بالدوطة التي لم يمسها أحد منذ وضعتها أمها في تلك الحقيبة الصفيحية، وراهنت بحماسة شديدة على خيول بدت مناسبة لمعهد شابستيكر... لكنها طفقت تربح المرة تلو المرة.

«أخبار جيدة» يقول اسماعيل ابراهيم: «لقد كنت أعتقد دائماً أنك ستواجهين أبناء الزنى أولئك. إذاً، سأبدأ الإجراءات القانونية في الحال... لكن الأمر يتطلب مالاً نقدياً يا أمينة، فهل لديك ذلك المال النقدي؟».

«المال موجود».

فيصعِّد اسماعيل شكواه: «ليس من أجلي. فخدماتي كلها، كما قلت من قبل، مجانية تماماً. لكن اعذريني، لا بدّ من أن تعرفي كيف تجري الأمور، إذ إن على المرء أن يقدم بعض الهدايا لأناس يمهدون له الطريق...».

«خذ» تقول أمينة وهي تقدم له ظرفاً «هل يكفي هذا الآن؟».

«يا إلهي!» يقول اسماعيل، وقد سقط الظرف من يده لهول المفاجأة فتناثرت الأوراق النقدية في أرجاء الغرفة «من أين أتيت بـ...». فترد أمينة: «خير لك ألا تسأل ـ أما أنا فلن أسألك عن كيفية إنفاقها».

وهكذا باتت نقود شابستيكر تدفع لقاء فواتير طعامنا، أما الخيول فكانت تخوض معركتنا. خيط الحظ الذي رافق أمي في مضمار السباق كان طويلاً جداً... عِرْق المعدن غني جداً ولو لم يكن كذلك لبات الأمر غير معقول... وهكذا، شهراً بعد شهر راحت أمي تراهن على حصان دقيق حسن، الغرة، أو حصان أجرد جميل الألوان، ولم تكن تفارق المضمار إلا وغلاف كبير متخم بالأوراق النقدية في حقيبتها..

«كل شيء على ما يرام» أخبرها اسماعيل ابراهيم «لكن يا أخت أمينة، الإله وحده يعلم إلى أين ستنتهين. أهو مال شريف؟ أهو قانوني؟» فردت أمينة: «لا تقلق بالك. فما لا يمكن شفاؤه ينبغي تحمله. وأنا أفعل ما ينبغي فعله». لكن ما من مرة واحدة في تلك الفترة كلها، استمتعت أمي بانتصاراتها

الباهرة إذ كان يثقل كاهلها ما هو أكثر من طفلها ـ فتناولها لبهارات الأم المبجلة كان قد ملأها بأهواء قديمة وكانت مقتنعة قناعة تامة بأن المراهنة أسوأ عمل على وجه الأرض، بعد الإدمان على الكحول بالطبع، وهكذا، رغم أنها لم تكن آثمة، كانت تشعر بأن الإثم ينهشها نهشاً.

كانت قدماها قد ابتليتا بالثآليل والمسامير، رغم أن بورشوتام الناسك الذي ظل يجلس تحت صنبور حديقتنا إلى أن حفرت قطرات الماء النازلة على رأسه بقعة وسط شعره المتلبد كالحصير، كان أعجوبة في قدرته على إزالة مثل تلك الثآليل، لكن طوال شتاء الثعابين ذاك وموسم الحر الذي تلاه كانت أمي تخوض معركة زوجها.

إنك تسأل: هل ذلك معقول يا ترى؟ كيف تستطيع ربة بيت، مهما تكن دؤوبة مصممة، أن تكسب ثروة من رهان الخيول، يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر؟ وقد تقول في نفسك: آه! إنه هومي كاتراك، صاحب الخيول، والجميع يعلمون أن معظم السباقات متفق عليها، إذاً فقد كانت أمينة تسأل جارها مقابل عمولة محترمة! فكرة معقولة! بيد أن السيد كاتراك نفسه كان يخسر بقدر ما يربح، وكان يرى أمي في مضمار السباق ويذهله فوزها الدائم.

كذلك كانت أمينة تقول له: «رجاء يا سيد كاتراك. دع الأمر سراً بيننا. فالمراهنة أمر فظيع، ولسوف يجللني العار إن عرفت أمي بذلك» فيقول كاتراك، هازاً رأسه منذهلاً «كما تشائين»). إذاً لم يكن وراءها ذلك الفارسي ـ بل ربما يمكنني أن أقدم تفسيراً آخر: في سرير أزرق بلون السماء داخل غرفة زرقاء بلون السماء ومع إصبع صياد مؤشرة على الجدار، كان هناك، في أي وقت تذهب فيه أمه بعيداً وفي قبضتها محفظة ملأى بالأسرار، الطفل سليم الذي كان لوجهه أشد التعابير تركيزاً، سليم الذي سيطرت على عينيه وحدانية هدف له من القوة ما جعل زرقتهما تشتد حتى لتصبح بلون أعماق البحر، سليم الذي كان أنفه يلتف على نحو غريب حين يبدو عليه وكأنه يراقب حدثاً بعيداً كي يتحكم به من بعيد تماماً كما يتحكم القمر بالمد والجزر.

«جلسة المحكمة في القريب العاجل» قال اسماعيل ابراهيم ذات يوم

«أظن أن بإمكانك أن تكوني على ثقة تامة... يا إلهي! أمينة، هل وقعت على كنوز الملك سليمان؟».

حين بلغت من العمر ما يسمح لي بممارسة ألعاب النرد، وقعت في هوى لعبة «الأفاعي والسلالم». أي توازن رائع بين الثواب والعقاب! أية خيارات اعتباطية في الظاهر يضعها الزهر المتدحرج! لقد قضيت بعضاً من أسعد أيام حياتي، وأنا أتسلق السلالم، وأزلق الأفاعي إلى الأسفل. وحين آن أوان تجربتي، وتحداني والدي في أن أتعلم لعبة الشطرنج، أغضبته بقولي إنني أفضل دعوته، بدلاً من ذلك، لتجريب حظه بين السلالم والأفاعي التي تقضم قضماً رفيعاً.

لكل لعبة من الألعاب قواعدها الأخلاقية، ولعبة «الأفاعي والسلالم» تتضمن، كما لا يمكن لأية فعالية أخرى أن تتضمن، الحقيقة الأبدية في أن كل سلم تتسلقه تجد أفعى تنتظر عند الزاوية تماماً، ومقابل كل أفعى يعوضك سلم. لكن ثمة ما هو أكثر من ذلك، فهي ليست مجرد جزرة ـ عصاة، ذلك أن جوهر اللعبة هو الثنائية الأبدية للأشياء، ثنائية الفوق ضد التحت، الخير ضد الشر، المعقولية المتصلة للسلالم مقابل التوائية الأفعى، وفي تضاد السلم والكوبرا يمكننا أن نرى، جميع التضادات المحتملة، الألف مقابل الياء، الأب مقابل الأم، وكذلك الحرب بين ماري وموسى والتناقض بين الركب والأنف... لكنني اكتشفت، وفي وقت مبكر من حياتي، أن اللعبة تفتقر لبعد حاسم، بعد الغموض والالتباس ـ ذلك أنه يحتمل أيضاً، وكما ستتكشف الأحداث في ما بعد، أن تنزلق على سلم وتهوي إلى الأرض كما يحتمل أن تتسلق إلى النصر بواسطة سم أفعى... لكنني، ولكي أبقي الأمور بعيدة عن التعقيد في اللحظة الراهنة، أسجل أنه ما أن اكتشفت أمي السلم المؤدي إلى النصر ممثلاً بحظها في مضمار السباق حتى تذكرت أن مجارير المدينة لا تزال محشوة بالأفاعي.

لم يكن حنيف شقيق أمينة قد ذهب إلى الباكستان، بل قدم إلى بومباي، مقتفياً أثر حلم الذرة في آغرا، وسعى لإيجاد عمل من كبريات الاستديوات السينمائية. وبثقته الناضجة قبل الأوان، لم ينجح حنيف في أن غدا أصغر

مخرج في تاريخ السينما الهندية وحسب، بل نجح أيضاً في الزواج من إحدى ألمع نجوم السماء السيلولوزية، بيا المقدسة التي كان «وجهها هو كل ثروتها» والتي كانت سارياتها تصنع من نسيج يبذل مصمموه كل ما في وسعهم كي يبرهنوا على أن بالإمكان إدخال كل لون معروف في العالم في ثوب واحد. لم تكن الأم المبجلة قد وافقت على زواج ابنها من بيا المقدسة، غير أن حنيف كان، من بين أفراد عائلتي جميعاً، هو الوحيد الذي لا يخضع لتأثيرها المقيد، فهو رجل مرح، ضخم الجثة ذو قهقهة مدوية كقهقهة النوتي تاي، وغضب أبيض سريع الانفجار كأبيه آدم عزيز، وقد أخذها ليعيشا، بكل بساطة، في شقة صغيرة غير سينمائية، في الشارع البحري: «لدينا وفرة من الوقت للعيش كأباطرة بعد أن أثبت وجودي في عالم السينما» قال لها فأذعنت للأمر. لقد قامت بدور البطولة في فيلمه الأول الذي قدم جزءاً من تمويله هومي كاتراك والجزء الآخر استديو راما ـ وكان الفيلم يدعى «عشاق كشمير». ذات مساء، وفي غمار أيامها السباقية تلك، ذهبت أمينة سيناء إلى العرض الأول للفيلم. والداها لم يأتيا، وذلك لاشمئزاز الأم المبجلة من السينما، ولفقدان آدم عزيز كل قدرة على الوقوف في وجهها ـ هو الذي خاض المعركة إلى جانب ميان عبد الله ضد الباكستان والذي لم يعد يتجادل معها حين تثني على دولة الباكستان ـ لكنه احتفظ بما يكفي من القوة لأن يثبت قدميه في الأرض ويرفض الهجرة من البلاد، لكن أحمد سيناء الذي أعادته إلى الحياة طيبات الطعام التي كانت تقدمها حماته، والذي، رغم ذلك كان يكره وجودها الدائم لديهم، هب على قدميه ورافق زوجته. هناك، جلسا إلى جانب حنيف وبيا وبطل الفيلم م. س. نايار، وهو واحد من ألمع الممثلين في الهند. ورغم جهلهم بذلك، فقد كان ثمة ثعبان ينتظر في السلة. . . لكن حتى يحين ذلك دعونا نتح لحنيف عزيز الاستمتاع بلحظته، ذلك أن استديو «عشاق كشمير» كانت لديه فكرة وهي أن يوفر لخالي فترة رائعة، وإن تكن قصيرة، من النصر. في تلك الأيام، لم يكن يسمح للممثلين والممثلات بأن يلمسوا بعضهم بعضاً على الشاشة، خشية أن تفسد قبلاتهم الجيل الصاعد. . . لكن بعد ثلاث وثلاثين دقيقة من ابتداء فيلم «العشاق»

شرع المشاهدون يطلقون أزيزاً منخفضاً، أزيز صدمة، ذلك أن بيا ونايار بدأا يقبلان ـ لا واحدهما الآخر ـ بل يقبلان الأشياء.

قبلت بيا تفاحة، بصورة ملتوية وبكل الامتلاء الثر لشفتيها المصبوغتين بأحمر الشفاه، ثم أعطتها إلى نايار الذي كان يزرع أمام وجهها فماً مفعماً بالهوى والرجولة. وكان ذلك مولداً لما بات يعرف باسم القبلة غير المباشرة ـ ويا لها من فكرة مهذبة مصقولة أكثر من أي شيء في سينمانا الراهنة! يا لها من قبلة مترعة بالشوق والشهوة! كان جمهور السينما (الذي يمكنه في هذه الأيام، أن يهتف صاخباً لمشهد فتى وفتاة يختفيان خلف شجيرة، ثم ينتفض بعدئذٍ ساخراً) ذلك الجمهور يراقب، وهو مسمر النظر على الشاشة، بينما يعبّر حب بيا ونايار، وخلفهما بحيرة دال وسماء كشمير الزرقاء ـ الجليدية، عن نفسه بقبل تُمنح لأكواب الشاي الكشميري الوردية، وكذلك قرب ينابيع شاليمار، بضغط الشفاه على سيف. . . لكن في تلك اللحظة وفي ذروة انتصار حنيف عزيز، أبى الثعبان أن ينتظر، فاشتعلت بتأثيره أضواء الدار. وخلف شخصي بيا ونايار الأكبر من الحجم الحقيقي، بيا ونايار اللذين كانا يقبلان ثمار المنغا بصورة تتوافق مع الموسيقى، ظهر إلى العيان رجل هياب ذو لحية غير مناسبة يتقدم على خشبة المسرح وفي يده مكبر فالثعبان يمكنه أن يتخذ أشد الأشكال غرابة، وهكذا، في تلك اللحظة، وفي زي مدير الدار غير الفعال، أطلق اسمه. شرع ظل بيا ونايار يشحب شيئاً فشيئاً إلى أن اختفى ثم جاء صوت الرجل الملتحي عبر المكبر. «سيداتي سادتي، معذرة لكم، لكن، ثمة خبر فظيع» وانقطع صوته ـ فنشيج الثعبان يزيد أنيابه قوة! ـ ثم استأنف بعد لأي: «عصر هذا اليوم، وفي دار بيرلا في دلهي، قتل مهاتمانا المحبوب. شخص مجنون أطلق عليه النار في بطنه، سيداتي سادتي ـ أبونا قضى نحبه!».

وكان الجمهور قد بدأ الزعيق قبل اكتمال الخبر. سم كلماته كان قد سرى في عروقه ـ وكان هناك رجال كبار ينقلبون على أنفسهم في ممرات السينما وهم يمسكون ببطونهم، لا ضحكاً بل بكاء، صارخين: «يا للهول! يا للهول!» ـ ونساء ينتفن شعورهن «أحسن حلاقي المدينة يسقطون أرضاً عند آذان السيدات المسمومات ـ وكان ثمة نجمات سينمائيات يصرخن كصيادات

الأسماك وقد عبق الجو بشيء مريع ـ فهمس حنيف «لنخرج من هنا، يا أختاه ـ فالقيامة ستقوم إن كان الفاعل مسلماً».

مقابل كل سلم، ثمة أفعى... ولمدة ثمان وأربعين ساعة بعد النهاية المجهضة لفيلم عشاق كشمير، ظلت عائلتنا ضمن جدران فيلا باكنغهام لا تبدي حراكاً. «ضعوا الأثاث، ما اسمه، خلف الأبواب!» أصدرت الأم المبجلة الأوامر «وإذا كان هناك خدم من الهندوس، أرسلوهم إلى منازلهم» ولم تجرؤ أمي على التوجه إلى مضمار السباق في تلك الأيام.

لكن، مقابل كل أفعى سلم، لقد أذاع المذياع أخيراً اسم القاتل، ناتورام غودس، فهتفت أمينة «حمداً لله... إنه ليس مسلماً».

فقال آدم، الذي ألقى نبأ مقتل غاندي على كاهله عبئاً جديداً من أعباء الشيخوخة «ليس هنالك ما تحمدينه على هذا الغودس».

غير أن أمينة انتعشت، امتلأت، رغم كل شيء، خفة وراحة ثم اندفعت بطيش شديد تتسلق سلم الانتعاش... «ولم لا؟ فهذا الغودس أنقذ حياتنا!».

استمر أحمد سيناء، بعد إبلاله من مرضه المزعوم، يتصرف تصرف العاجز، كما استمر؛ بصوت أشبه بزجاج معتم، يقول لأمينة «إذاً، طلبت من اسماعيل أن يرفع دعوى، حسناً، حسناً... لكننا سنخسر... ففي تلك المحاكم عليك أن تشتري القضاة..». أما أمينة فتقول، وهي تندفع إلى اسماعيل: «أياً كانت الظروف عليك ألا تخبر زوجي بشيء عن المال.. أبداً.. أبداً. فالرجل ينبغي أن يحافظ على كبريائه، ثم تقول لزوجها في ما بعد «لا، جانوم. أنا لست ذاهبة إلى مكان. الطفل غير متعب على الإطلاق، فارتح أنت، أما أنا فينبغي أن أذهب إلى السوق ـ وربما أزور حنيفاً، فنحن النساء، كما تعلم، ينبغي أن نسد فراغنا».

ثم تعود إلى المنزل بمغلفات ملأى حتى الحافة بأوراق الروبيات... «خذ، اسماعيل، فعلينا، وقد استعاد أحمد صحته الآن، أن نسرع وأن نكون حذرين أيضاً». ثم تقول لأمها في الأماسي وهي تجلس إلى جانبها بكل طاعة وخضوع: «أجل، أنت على صواب، لكن أحمد سيغدو غنياً في القريب العاجل، سترين!».

وفي المحكمة تأجيل بعد تأجيل، وتفريغ للمغلفات بعد تفريغ، بينما ينمو الجنين مقترباً من النقطة التي لا تسمح لأمينة بأن تحشر نفسها خلف مقود الروفر طراز ١٩٤٦، وهل يمكن لحظها أن يدوم؟ أما موسى وماري فإنهما يتعاركان كنمرين مسنين لكن ما أسباب القتال يا ترى؟

أية بقايا للإثم، الخوف، العار، وقد خللها الزمن في أحشاء ماري، كانت تقودها عن عمد؟ أو غير عمد؟ لاستثارة الخادم الهرم بمختلف الأساليب والطرق: بالشموخ بأنفها دلالة على موقعها الأرفع، بالعد العدواني الاستفزازي لحبات المسبحة تحت عين المسلم المتمسك بأهداب دينه، بتقبل لقب ماوزي، الأم الصغرى، يطلقه عليها خدم الإقطاعة الآخرون والذي يرى فيه موسى تهديداً لمركزه، بالألفة الزائدة التي تعامل بها السيدة البيجوم ـ بالقهقهات والهمسات الخافتة في الزوايا العالية إلى حد يكفي لأن يسمعها موسى الرسمي المتصلب المنتصب القامة ويشعر بأنه ضحية خدعة ما؟

أية حبات دقيقة من الرمل، في بحر الشيخوخة الذي طغت أمواجه على الخادم العجوز، كانت تمكث بين شفتيه لتتكلس على شكل حجر أسود من الكراهية؟؟ ـ في خضم أي خدر غير معروف هوى موسى، فغدا ثقيل اليدين والقدمين إلى حد تتحطم معه مزهريات وتسقط منافض سجائر، ويلوح أمام عينيه شبح طرد قادم ـ شبح نما حتى تحول إلى خوف مستبد بكلكله على الشخص الذي بدأ حياته مع تلك العائلة؟؟

ما هو يا ترى التأثير الفظيع (هذا دون أن نحذف العوامل الاجتماعية الأخرى) لمكان خادم، لغرفة خدم تقع خلف مطبخ ذي موقد مسود، وجد موسى نفسه مضطراً لأن ينام فيها، وجنباً إلى جنب، مع جنائني وعتال وصبي يقوم بالأعمال التافهة، بينما تنام ماري وفق أحسن طراز بجانب طفل وليد؟

هل كانت ماري ملومة أم لا؟ هل عجزها عن الذهاب إلى الكنيسة ـ الكنيسة التي يواجه المرء فيها أماكن الاعتراف، وفي أماكن الاعتراف لا يمكن للأسرار أن تبقى مختبئة ـ هل عجزها ذاك تحول إلى قرحة مؤلمة في داخلها جعلتها حادة بعض الشيء ميالة للإيذاء قليلاً؟

أم ينبغي النظر إلى ما وراء علم النفس ـ بحثاً عن الإجابة في أقوال من قبيل أنه كان هناك أفعى متمددة بانتظار ماري وأنه كان محتماً على موسى أن يتعلم شيئاً حول غموض السلالم؟ أم أن الأمر أبعد من ذلك، أبعد من لعبة السلالم والأفاعي، بحيث نرى يد القدر في الشجار ـ ونقول إنه لكي يعود موسى كشبح قابل للانفجار، ولكي يقوم الرجل بدور القنبلة في بومباي، فقد كان من الضروري تدبير أمر رحيله. . . أم أنه بالانحدار من ذراه إلى موضع مثير للسخرية، كان أحمد سيناء ـ الذي أثاره الويسكي أيضاً والذي قاده الجن إلى الإفراط في الوقاحة ـ قد أثار سخط الخادم العجوز إلى درجة قام معها بارتكاب جريمته تلك التي جعلته يتساوى مع ماري والتي دفعه إليها كبرياؤه الجريح: كبرياء الخادم العجوز ـ وليس لماري شأن بذلك البتة؟

مع انتهاء التساؤلات، أسلم نفسي للحقائق: لقد كان موسى وماري في حالة شجار دائم. كذلك، كان أحمد قد أهانه ولم تكن جهود أمينة الرامية لتهدئته قد أتت أكلها، علاوة على ذلك، فإن ظلال الشيخوخة المشوشة كانت قد أقنعته بأنه سوف يطرد دون سابق إنذار وفي أية لحظة، وهكذا، نهضت أمينة ذات صباح من صباحات آب لتكتشف أن المنزل قد تعرض للسطو.

جاءت الشرطة، فذكرت أمينة كل ما فقدته: مبصقة فضية مطعمة بحجر اللازورد، نقوداً ذهباً، سماوراً مطعماً بالجواهر، وفضيات شاي، أي محتويات حقيبة صفيحية خضراء. بعدئذٍ يصف الخدم في القاعة ويخضعون لتهديد المفتش جوني فاكيل. «هيا، اعترفوا الآن» يصرخ بهم وهو يلوح بعصاه «أو سترون ما يمكنني فعله بكم؟ هل تريدون أن تقفوا على رجل واحدة طوال الليل والنهار؟ هل تريدون أن أصب عليكم الماء، حاراً حيناً ومتجلداً حيناً آخر؟ لدينا أساليب كثيرة نحن الشرطة. .» فتختلط أصوات الخدم وهم يصرخون معاً، «لست أنا أيها السيد المفتش، أنا غلام شريف، بحق الله، فتش أمتعتي يا سيد!». وتقول أمينة: «هذا كثير يا سيد، إنك تتجاوز الحدود كثيراً. فأنا أعلم أن ماري بريئة بشكل ما. وأنا لن أسألها أو أفتشها»، فيكظم ضابط الشرطة غيظه. ثم يوافق على إجراء تفتيش لأمتعة

الخدم ـ «ثمة حالة واحدة يا مدام وهي أن يكون هؤلاء الأشخاص ذوي ذكاء محدود ـ وأن تكوني قد اكتشفت السرقة بصورة أسرع من أن يتمكن اللص من إخفاء الغنيمة!».

وينجح التفتيش، ففي فراش موسى المطوي يجدون: مبصقة فضية وفي صرة ثيابه الصغيرة يكتشفون: نقوداً ذهباً وسماوراً فضياً وقد لفها كلها بالثياب. وتحت سريره الخشب يجدون فضيات الشاي المفقودة وقد أخفيت هناك. حينذاك يلقي موسى بنفسه على قدمي أحمد سيناء متوسلاً: «المغفرة يا سيدي، لقد جننت، ظننت أنكم ستلقونني إلى الشارع!». لكن أحمد سيناء لا يسمع، التجمد يسري إليه فيقول: «أشعر أنني واهن القوى». ثم يغادر الغرفة فتسأل أمينة، وقد تملكها الذعر: «لكن، يا موسى، لماذا أقسمت تلك اليمين المخيفة».

... ذلك أنه في الفترة الفاصلة بين الاصطفاف في الممر واكتشاف المسروقات بين حاجيات الخادم، كان موسى قد قال لسيده: «لست أنا يا سيدي، إن كنت أنا السارق فلأصب بالجذام! ليغدُ جلدي كله قروحاً!».

وتنتظر أمينة جواب موسى، وجهها ينضح بالرعب، لكن وجه الخادم العجوز يكتسي بقناع من الغضب، ثم تندفع من فمه الكلمات «سيدتي البيجوم، أنا لم آخذ إلا ممتلكاتك الثمينة، لكن، أنت وزوجك وأبوه أخذتم حياتي كلها، في شيخوختي تركتم مربية مسيحية تذلني».

ويخيم الصمت على فيلا باكنغهام. بعد ذلك ترفض أمينة أن تقيم دعوى لكن موسى يرحل. بفراشه المطوي على ظهره، يهبط الدرج الحديد الحلزوني مكتشفاً أن السلالم تنزل بك كما تصعد تماماً ثم يهبط الرابية ولعناته تنصب على المنزل. وتوشك ماري بيريرا (ترى هل كان ذلك بسبب اللعنة؟) أن تكتشف أنك حتى عندما تربح معركة، حتى عندما يدور الدولاب لصالحك، فإنك لا تستطيع أن تتجنب الأفعى. «لن أستطيع أن أدفع لك نقوداً أخرى يا اسماعيل، فهل نلت ما يكفيك؟»، تقول أمينة. فيرد اسماعيل: «آمل ذلك ـ لكن أنت لا تعرفين ـ ربما هناك فرصة...؟»، لكن أمينة تقول: «لا... المشكلة أني كبرت كثيراً ببطني هذا. ولم يعد

باستطاعتي أن أقود السيارة أكثر من ذلك، إذاً ينبغي أن يكون ما أخذته كافياً».

. . . ويكون الزمن حاسماً بالنسبة إلى أمينة مرة أخرى. إذ تنظر عيناها مرة ثانية عبر زجاج ذي إطار رصاصي يتراقص فيه التوليب الأحمر ذو السوق الخضر في وحدة واحدة، ولثانية من الزمن تتوقف نظراتها على ساعة البرج التي توقفت منذ أمطار ١٩٤٧. لقد عاد المطر مرة ثانية وولى موسم السباق.

ساعة البرج زرقاء باهتة الزرقة: خفيضة، متقشرة، معطلة. تنتصب فوق كتلة اسمنتية مطلية بالقطران الأسود تقع في طرف حلقة السيرك ـ سطحاً مستوياً لطابق علوي من الأبنية الممتدة على طول شارع واردن الذي ينخفض عن رابيتنا ذات ارتفاع الدورين، وهكذا كنت ترى، إذا ما صعدت سور فيلا باكنغهام، القطران الأسود المسطح تحت قدميك تماماً. كما كنت ترى بعد القطران الأسود، مدرسة بريتش كاندي التي يتصاعد منها، كل عصر من أيام الفصل الدراسي، موسيقى رنانة لبيانو الآنسة هاريسون وهي تعزف ألحان الطفولة الخالدة، وراء ذلك كانت هناك الحوانيت، فردوس القارئ، مجوهرات فاتبوي، ألعاب تشيمالكر ومانرت بومبيلي بواجهته الملأى بأصابع الشوكولا وكان الجميع يفترضون أن باب برج الساعة مقفل لكنه كان قفلاً رخيصاً من ذلك الصنف الذي ميزه نادر خان: صنع الهند. وفي الأماسي الثلاث المتتالية التي سبقت الذكرى الأولى لميلادي مباشرة، لاحظت ماري بيريرا، وهي بجوار مافذتي ليلاً، خيال شخص يطفو على السطح، يداه مليئتان بأشياء لا شكل لها، خيالاً ملأها بخوف لا تعرف كنهه. بعد الليلة الثالثة، قالت لوالدتي، فاستدعيت الشرطة وعاد المفتش فاكيل إلى إقطاعة ميثولد تصحبه زمرة من المخبرين السريين ـ «دعوا كل شيء لنا يا سيدتي البيجوم!» ثم لبسوا زي كناسين، وقد أخفوا مسدساتهم تحت أسمالهم، وشرعوا يراقبون برج الساعة وهم يكنسون الغبار في حلقة السيرك.

حل الليل. ومن خلف الستائر ومصاريع النوافذ، راح سكان إقطاعة ميثولد يختلسون النظر خائفين باتجاه برج الساعة. وعلى نحو آخر، مضى الكناسون يكنسون في الظلام. أما جوني فاكيل فقد اتخذ موقعاً له في شرفتنا، مخفياً بندقيته عن الأنظار. . . عند منتصف الليل، قفز الخيال على

الجدار الجانبي لمدرسة بريتش كاندي ثم شق طريقه باتجاه البرج وقد علق كيساً على إحدى كتفيه... «يجب أن يدخل» قال فاكيل لأمينة، «ينبغي أن نتأكد أننا وقعنا على الشخص ذاته» ووصل الشخص، مجتازاً السطح المستوي المطلي بالقطران، إلى البرج ثم دخل.

«أيها السيد المفتش، ماذا تنتظر؟».

«هـ ـ ش.. بيجوم.. هذا من شأن الشرطة، الرجاء ادخلي. سنلقي القبض عليه حين يخرج، ثقي بكلامي... بالجرم المشهود، وبكثير من الرضى الذاتي تابع فاكيل: «سنمسك به كجرذ وقع في فخ».

«لكن من هو يا ترى».

فهز فاكيل كتفيه «من يعلم؟ رجل شرير بالتأكيد. والأشرار في كل مكان هذه الأيام».

... بعدئذٍ تشق سكون الليل صرخة حادة وحيدة، ثم يقذف امرؤ بنفسه داخل برج الساعة فينفتح، ويسمع صوت ارتطام ثم يندفع شيء ما إلى الطريق الاسفلتي الأسود. فيهب المفتش فاكيل إلى العمل، معلقاً بندقيته إلى كتفه، مطلقاً النار منها مثل جون واين. في الوقت نفسه ينتزع الكناسون أسلحتهم من أمكنتها ويندفعون... تنطلق معهم زعقات نساء مضطربات وصرخات خدم... ثم يسود الصمت.

ما الذي يتمدد، أسود بنياً، مزيناً بأطواق ثعبانية على الإسفلت الأسود؟ أي دم أسود نازف يثير الدكتور شابستيكر فيصرخ من نقطته المشرفة في طابقه العلوي. «أنتم أيها الحمقى، يا أخوة الصراصير! يا أبناء المخنثين؟؟» من الذي يلفظ أنفاسه، منتفض اللسان، بينما يجري فاكيل إلى السطح المطلي بالقطران؟ وداخل برج الساعة؟ أي ثقل وقع حتى صنع ذلك الارتطام الشديد؟ من الذي فتحت يده الباب بشدة؟ من ذاك الذي يمكن رؤية ثقبين أحمرين متدفقين في عقبيه يملأهما سم لا ترياق له، سم أنهى حظائر ملأى بخيول أكل عليها الزمان وشرب؟ من الذي ينقل جسده ـ خارج البرج ـ رجال بزي كناسين ثم يتقدمون بمسيرة صامتة، وبلا كفن، مقلدين من يحملون بساط الرحمة في جنازة؟ وحين يقع ضوء القمر على الوجه الميت،

لماذا تسقط ماري بيريرا ككيس من البطاطا على الأرض وقد برزت مقلتاها من محجريهما، مغشياً عليها فجأة؟

وعلى طول الجدران الداخلية لبرج الساعة: ما تلك الأجهزة الغريبة المربوطة إلى ساعات توقيت رخيصة ـ لماذا يوجد الكثير من الزجاجات التي حشيت أعناقها بخرق من القماش؟

«حظ رائع أنك دعوت رجالي يا سيدتي البيجوم» يقول المفتش فاكيل «فهذا هو يوسف ديكوستا ـ أخطر شخص في قائمة المطلوبين لدينا. إننا نلاحقه منذ عام ونيف، شرير، أسود القلب تماماً. يجب أن تري الجدران داخل البرج! رفوف ملأى من الأرض إلى السقف بقنابل من صنع محلي. قنابل لها من القوة ما يكفي لتفجير هذه الرابية وقذفها إلى البحر».

ميلودراما فوق ميلودراما، الحياة تتلون بلون فيلم من إنتاج بومباي، أفاعٍ تقتفي أثر السلالم، وسلالم تلحق بأفاعٍ في غمار حدث بالغ الخطورة: الطفلُ سليم طريح الفراش. وكما لو أنه بات عاجزاً عن تمثل المجريات الكثيرة للأمور فقد أغمض عينيه وأصبح أحمر ملتهب الوجنتين. وبينما كانت أمينة تنتظر نتائج الدعوى التي رفعها اسماعيل ضد السلطة، والقردة النحاسية تنمو في أحشائها، وماري تدخل حالة من الصدمة لن تخرج منها إلا حين يعود شبح يوسف ليسكنها، بينما كان الحبل السري لا يزال معلقاً في مرطبان المخللات وصلصة ماري تملأ أحلامنا بالأصابع المؤشرة، والأم المبجلة تشرف على أعمال المطبخ، كان جدي يفحصني ويقول: «المسكين مصاب بالتيفوئيد ولا شك».

«يا إله السماء!» صرخت الأم المبجلة «أي شيطان زنيم حل، ما اسمه، بهذا البيت؟» هذه هي الكيفية التي سمعت بها قصة المرض الذي كاد ينهيني قبل أن أبدأ: ففي أواخر آب ١٩٤٨ وطوال الليل والنهار كانت أمي وجدي يكلآنني بعنايتهما، أما ماري فقد كانت تجر نفسها جراً من عقدة الذنب لتضع الكمادات الباردة على جبيني. بينما كانت الأم المبجلة تهدهدني بأغانيها الطفولية وتلقمني الطعام في فمي، بل حتى والدي نسي همومه مؤقتاً، وراح يقف عند المدخل يضرب كفاً بكف. وهكذا كان الليل قد حل، حين قال

الدكتور عزيز وهو يبدو محطماً كحصان هرم: «لم يعد في اليد حيلة. أجل، ما احسب أن الصباح سيأتي إلا وهو ميت». وفي غمار ولولة النساء والعمل البدائي الذي دفع امي إليه حزنها الشديد وتنتيف ماري بيرييرا لشعرها، سمع أحدهم طرقة على الباب ثم أعلن أحد الخدم عن قدوم الدكتور شابستيكر الذي سلم لجدي زجاجة صغيرة قائلاً: «أنا لا أتردد في استخدامها: فهذه تقتل أو تشفي. نقطتان بالضبط، ثم انتظر النتيجة».

فسأله جدي، وقد جلس ممسكاً رأسه بين يديه على حطام معرفته الطبية «ما هذا؟». فأجاب الدكتور شابستيكر الذي كان يبلغ الثانية والثمانين تقريباً ويرتعش لسانه بين شدقيه: «سم ممدد مأخوذ من أفعى الكوبرا... مشهور بفعاليته». باستطاعة الأفاعي أن تقود إلى النصر، تماماً كما باستطاعة السلالم أن تقود إلى الانحدار: وقد قام جدي، وهو على علم تام بأنني قد أموت، بإعطائي سم الكوبرا. ثم وقفت العائلة وعلى رأسها الطير تراقب الطفل والسم ينتشر في جسده... بعد ست ساعات عادت درجة الحرارة إلى حالتها الطبيعية، لكن، بعد ذلك، فقد معدل نمو الطفل جوانبه غير المألوفة، إنما أعطي مقابلاً لما فقده: الحياة والوعي المبكر لما تمثله الأفاعي من غموض.

حين باتت درجة حرارتي عادية تماماً. ولدت أختي في مستشفى نارليكار في الأول من أيلول تماماً، وقد تمت الولادة بلا جهد وبلا أحداث مرافقة إلى درجة مرت معها فعلاً دون أن تثير اهتمام أحد في إقطاعة ميثولد. في اليوم نفسه قام اسماعيل ابراهيم بزيارة والديَّ في المستشفى معلناً لهما أنه تم كسب القضية... وحين كان اسماعيل يحتفل، كنت أنا أمسك بقضبان سريري، وبينما كان يهتف: «لا تجميد بعد اليوم!.. ممتلكاتك عادت إليك ثانية! بأمر المحكمة العليا!» كنت أنا أنهض محمر الوجه باتجاه مضاد للجاذبية الأرضية، وبينما كان اسماعيل يعلن منبسط السرائر: «سيناء بيك، لقد حقق القانون نصراً باهراً» متجنباً عيني أمي المغمضتين ببهجة النصر، كنت أنا، الطفل سليم، بعمري البالغ سنة وأسبوعين ويوماً واحداً بالتمام والكمال أنتصب، على قدمي في السرير.

أحداث ذلك اليوم كانت ذات آثار مزدوجة: فقد كبرت بساقين مقوّستين على نحو لا يمكن إصلاحه، نظراً لأنني انتصبت على قدمي قبل الأوان، بينما تعلمت القردة النحاسية (وقد دعيت كذلك بسبب غطاء رأسها الكثيف الذي كان يشكله شعرها الأحمر الذهبي والذي لن يسود قبل أن تبلغ التاسعة) تعلمت أنها إذا ما أرادت يوماً من الأيام أن تثير الاهتمام بها، فعليها أن تثير الكثير من الضجة.

حادثة في صندوق الغسيل

مضى يومان كاملان على خروج بادما من حياتي ذلك الخروج العاصف، فحلت، خلال ذينك اليومين إلى جانب راقود المنغا، امرأة أخرى محلها ـ امرأة نحيفة الخصر مثلها شعراء الزند مثلها، لكن بالنسبة إلي لم تحل البتة! ـ بينما اختفت زهرتي ـ زهرة الروث، حيث لا يعلم إلا الله. التوازن انقلب رأساً على عقب، وأنا أشعر أن الشروخ الممتدة على طول جسمي تتسع وتتسع، ذلك أنني بت فجأة وحيداً، بلا تلك الأذن الصاغية التي لا غنى لي عنها. وفجأة يشد الغضب قبضته عليّ: لماذا ينبغي أن تعاملني حواريتي الوحيدة على ذلك النحو غير المعقول؟ ثمة آخرون يسردون قصصهم أمامي، ولا أحد يهجرهم بمثل هذا العنف. ترى، حين قام فالميكي، كاتب «الرامايانا»[1]، بإملاء رائعته على غانيش ذي رأس الفيل، هل خرج الإله وتركه في منتصف الطريق؟ لا، بالتأكيد (لاحظ ذلك فأنا، رغم خلفيتي الإسلامية، مشبع بجو بومباي إلى حد أفيض معه بالقصص الهندوسية، وإنني بالفعل مولع بصورة غانيش ذي الأذنين المرفرفتين والأنف الخرطومي وهو يكتب ما يملى عليه برزانة تامة!).

كيف تراني أستغني عن بادما؟ كيف أتخلى عن جهلها وخرافيتها، وهما الثقلان المضادان الضروريان لموازنة معرفتي الكلية الشاملة، المحملة بالأعاجيب؟ كيف تراني أعمل من غير نزعة روحها الأرضية المثيرة للمفارقة

(١) الرامايانا: ملحمة الهند تنسب إلى الشاعر فالميكي. بدأت في القرن الخامس قبل الميلاد وانتهت في القرن الثاني قبل الميلاد... تتألف من ٢٤٠٠٠ مزدوجة شعرية وتنقسم إلى سبعة كتب.

والتي تبقي ـ أو أبقت؟ ـ قدمي على الأرض؟ إنني، كما يخيل إلي، رأس مثلث متساوي الساقين يقوم على إلهين توأمين متماثلين، إله الذاكرة الوحشي وإلهة الحاضر اللوتسية. . . ولكن هل يتعين عليّ الآن أن أكيف نفسي مع أحادية ـ البعد الضيقة، التي يتصف بها الخط المستقيم؟

ربما كنت أختفي خلف هذه الأسئلة جميعاً. نعم، ربما كان ذلك صحيحاً. فعلي أن أتكلم على نحو صريح ومباشر بلا تلك العباءة التي تشكلها علامة الاستفهام: لقد ذهبت فتاتنا بادما وأنا أفتقدها. أجل، تلك هي الحقيقة.

لكن لا يزال ثمة عمل ينبغي إتمامه: مثال على ذلك:

في صيف ١٩٥٦ حين كانت معظم الأشياء في العالم لا تزال أكبر مني، فإن أختي، «القردة النحاسية»، تعودت عادة غريبة وهي إشعال النار في الأحذية، إذ بينما كان عبد الناصر يغرق السفن في قناة السويس، فيبطئ بذلك حركة العالم بإرغام السفن على أن تدور حول الرجاء الصالح، كانت أختي أيضاً تحاول إعاقة تقدمنا. فهي التي كانت مضطرة لأن تكافح كي تجذب الانتباه إليها، والتي كانت تشعر بأمس الحاجة لأن تضع نفسها في مركز الأحداث، حتى وإن كانت أحداثاً مزعجة (فهي أختي رغم كل شيء، لكن لا رئيس وزراء كتب رسائل لها، ولا نساكاً كانوا يراقبونها من أمكنتهم تحت صنابير الحدائق، وهي التي لم يتنبأ بها أحد ولم يلتقط لها صوراً فوتوغرافية أحد، كانت حياتها كفاحاً منذ البداية) وهكذا نقلت حربها إلى عالم ملبوسات الأقدام، آملة، ربما، بأنها، من خلال إشعال النار في الأحذية ستجعلنا نتوقف برهة من الزمن تكفي لأن نلاحظ وجودها. . . ولم تكن تحاول إخفاء جرائمها. فحين دخل والدي إلى غرفته ووجد حذاءه الأكسفوردي الأسود يشتعل ناراً، كانت القردة النحاسية تنتصب فوقه والكبريت في يدها. وكانت رائحة جلد الحذاء المشتعل والمختلطة برائحة الطلاء تغزو خيشوميه حين أسرعت القردة إليه وقالت له بنغمة ساحرة: «انظر، بابا انظر كم هي رائعة ـ إنها بلون شعري تماماً».

ورغم كل الاحتياطات، فإن الأزهار الحمر البهيجة لهاجس أختي ظلت

تزهر في الإقطاعة طوال ذلك الصيف، متفتحة في صنادل نوسي ـ البطة وأحذية القطب السينمائي هومي ماتراك، كما أن اللهب الملون بلون شعرها وصل إلى نعال السيد دوباش وكنادر ليلى سبرماتي. ورغم إخفاء الكبريت عنها وسهر الخدم عليها، فقد كانت القردة النحاسية تجد الطريق إليه، لا يردعها عن ذلك عقاب أو تهديد. ولمدة سنة، مذ ركبها ذلك الهاجس، ظل دخان الأحذية المحترقة يغزو إقطاعة ميثولد إلى أن تحول شعرها إلى اللون البني غير المتميز، وبدا وكأنها فقدت اهتمامها بالكبريت.

كانت أمينة سيناء، وهي المرأة الكارهة لفكرة ضرب أطفالها كل الكره، العاجزة مزاجياً عن رفع صوتها، قد وصلت إلى آخر حدود اهتمامها، فراحت تحكم على القردة بالصمت يوماً بعد يوم. والحكم بالصمت هو الأسلوب النظامي الذي كانت أمي تختاره: فهي لعجزها عن ضربنا، كانت تأمرنا بإقفال أفواهنا. لا شك أن احد أصداء الصمت الشديد الذي كانت أمها تعذب به أباها، آدم عزيز، كان لا يزال يتردد في أذنيها ـ ذلك أن للصمت صدى أيضاً، وصدى أشد تجوفاً وطولاً من اهتزازات أي صوت ـ فكانت بكلمة «صه» مشددة ووضع إصبع على شفتيها تعقل ألسنتنا تماماً. وقد كان ذلك عقاباً لم يفشل أبداً في إخضاعي، لكن القردة النحاسية كانت مصوغة من مادة أقل مرونة. فهي، بلا صوت ومن وراء شفتيها المزمومتين بإحكام كشفتي جدتها، كانت تخطط لحرق الجلود ـ تماماً مثلما قام قبل زمن طويل قرد آخر من مدينة أخرى بالعمل الذي جعل حرق مستودع الأقمشة الجلدية أمراً لا مناص منه. . .

ولقد كانت القردة جميلة (وإن كانت مهزولة قليلاً) بقدر ما كنت أنا بشعاً، لكنها كانت منذ البداية شريرة كزوبعة ريح صاخبة، كحشد من المشاغبين. احسب النوافذ والمزهريات التي كسرتها عن قصد أو غير قصد، عدّ، إن استطعت، وجبات الطعام التي طارت، بشكل من الأشكال، من طباقتها الغدارة، لتلوث السجاد العجمي الثمين! والحقيقة، كان الصمت هو أسوأ عقوبة يمكن إنزالها بها، لكنها، رغم ذلك، كانت تتحمله بابتهاج، وتقف، صورة للبراءة، وسط بقايا من كراس محطمة وتزيينات مهشمة.

ذات مرة قالت ماري بيريرا «تلك المخلوقة! تلك القردة! كان ينبغي أن تولد بأربع قوائم!» لكن أمينة التي كان لا يزال يملأ ذهنها ذكرى نجاتها بأعجوبة من ولادة غلام برأسين، تلك الذكرى التي ترفض أن تغيب، صرخت صائحة: «ماري ماذا تقولين؟ لا تفكري أبداً بأمور كهذه!..» لكن رغم احتجاجات أمي، فقد كان صحيحاً أن القردة النحاسية كانت حيوانية أكثر مما هي بشرية، إذ كانت، وكما يعرف جميع الخدم والأطفال في إقطاعة ميثولد، تمتلك موهبة مخاطبة الطيور والقطط والكلاب أيضاً، لكن بعد أن عضها، وهي في سن السادسة، أحد الكلاب الضالة على ما يظن، واضطروا لأن يجروها وهي ترفس وتزعق إلى مستشفى بريتش كاندي، عصر كل يوم ولمدة ثلاثة أسابيع لإعطائها حقنة في البطن، بدت وكأنها نسيت لغتها مع الكلاب أو أنها باتت ترفض أي تعامل معها. لقد تعلمت، من الطيور أن تغني، ومن القطط شكلاً من أشكال الاستقلال الخطر، ولم تكن القردة النحاسية تثور مثلما تفعل حين يوجه أي امرئ إليها كلمات حب، فهي المتعطشة للعاطفة، المحرومة منها بسبب ظلي الطاغي، كان لديها استعداد لأن تنقض على كل من يقدم لها ما هي بأمس الحاجة إليه وكأنما كانت تدافع عن نفسها ضد أي احتمال في أن تكون عرضة للخداع.

... مثال على ذلك، تلك المرة التي استجمع فيها سوني ابراهيم شجاعته ليقول لها «هيه... اسمعي، يا أخت سليم ـ أنت نمط متصلب.. اللعنة عليك»... وفي الحال انطلقت القردة إلى حيث كان أبوه وأمه يرشفان عيران اللبن في حدائق سان سوسي لتقول: «خالة نوسي، لا أدري ما حصل لابنك سوني. لكن في هذه اللحظة تماماً رأيته هو وسيروس خلف شجرة يقومان بأعمال مضحكة.. يفركان أشياءهما... الواحد بالآخر..».

وكان للقردة النحاسية سلوك خاص على مائدة الطعام، كما كانت تدوس أحواض الأزهار، وكانت قد اكتسبت لقب الطفلة المشاغبة، لكنني كنت وإياها متقاربين تقارباً حميمياً رغم الرسائل المؤطرة التي جاءت من دلهي ورغم الناسك الموجود تحت الصنبور. ذلك أنني منذ البداية، قررت أن أعاملها كحليف، لا كمنافس، ونتيجة لذلك، لم تضع عليّ اللوم مرة واحدة

لطغياني على كل من في البيت، إذ كانت تقول «وعلام ألومك؟ أهو خطأك أنهم يحسبونك عظيماً؟ (لكن بعد سنوات، وحين ارتكبت الخطأ الذي ارتكبه سوني، عاملتني بالطريقة عينها تماماً).

على أن القردة النحاسية هي التي استهلت، بإجابتها على اتصال هاتفي خاطئ الرقم، سيرورة الأحداث التي أدت إلى وقوع حادثتي في صندوق الغسيل الأبيض المصنوع من قدد الخشب.

في سن التاسعة تقريباً كنت قد عرفت هذا حسناً: الجميع ينتظرونني. فمنتصف الليل ولقطات الصور، المتنبئون ورؤساء الوزارات كانوا قد خلقوا حولي هالة متألقة من الرجاء والأمل... من خلالها كان والدي يسحبني إلى كرشه المتهدل وهو يجلس في ساعة الكوكتيل الباردة الأنسام ليقول: «شأن عظيم،! ولدي: ما الذي لا ينتظرك من شأن عظيم وحياة عظيمة؟!». بينما أتلوى أنا بين شفته السفلى الناتئة وإبهامه الكبير، ملوثاً قميصه بسوائل أنفي المتسربة وأغدو قرمزياً تماماً وأنا أصرخ: «دعني أذهب، بابا! الجميع سيرون!» فيجأر وهو يضايقني فوق كل احتمال «دعهم يروا! دع العالم كله يرَ كم أحب ولدي!».

... وذات شتاء زارتنا جدتي، فنصحتني هي الأخرى: «فقط، ما اسمه، ارفع جواربك، ولسوف تكون خيراً من أي امرئ في العالم الواسع كله»... وهكذا، منجرفاً بموجة الحدس هذه، شعرت في داخلي بالتحركات الأولى لذلك الوحش عديم الشكل الذي لا يزال، في هذه الليالي الخالية من بادما، ينهش في أحشائي: فقد أصبحت، أنا الذي انصبت عليه لعنة الكثير من الآمال والأسماء المستعارة (إذ بات لي منها اسم التغطرس والتكبر أيضاً) أخشى أن يكون الجميع على خطأ ـ وأن يكتشف وجودي، الذي طبلوا له كثيراً، عن أنه عديم الجدوى تماماً، خاوٍ تماماً لا معنى له ولا هدف. ولكي أهرب من ذلك الوحش كنت أعمد منذ طفولتي الباكرة، إلى إخفاء نفسي في صندوق أمي، صندوق الغسيل الأبيض الكبير. إذ رغم أن ذلك المخلوق كان في داخلي، فإن الوجود المريح للثياب الوسخة المحيطة به كان على ما يبدو، يهدهده فينام.

وخارج صندوق الغسيل، بين الناس الذين كانوا يمتلكون، على ما يبدو، حساً واضحاً تماماً بالغرض من حياتهم، كنت أدفن نفسي في حكايا الجن والغيلان ولقد ساعدني حاتم الطائي والخفاش والسوبرمان والسندباد في رحلتي حتى بلغت التاسعة من العمر. وهكذا، حينما كنت أذهب إلى السوق مع ماري ـ التي كانت تخيفني بمقدرتها على معرفة عمر الدجاجة من النظر إلى عنقها، وبتصميمها الشديد الذي كانت تحدق به إلى أعين البومفريت مباشرة ـ كنت أغدو علاء الدين الراحل في قلب مغارة خرافية، وحين كنت أراقب الخدم وهم ينفضون غبار الزهريات باهتمام مهيب بقدر ما هو غامض، كنت أتخيل علي بابا والأربعين حرامي وهم يختبئون في الجرار المغبرة، وفي الحديقة وأنا أحدق النظر إلى بورشوتام الناسك، والماء يتآكله، كنت أتحول إلى جني مصباح وبذلك أتحاشى، إلى أكبر حد، الفكرة المخيفة وهي أنني، أنا الوحيد في هذا الكون، الذي ليس لديه فكرة عما سيكون أو كيف ينبغي أن يتصرف، أما فكرة الهدف: فقد زحفت إليّ من الخلف حين كنت أقف محدقاً من نافذتي إلى الفتيات الأوروبيات وهن يتواثبن مرحاً في حوض السباحة المجاور للبحر والذي يشبه شكله شكل الخارطة، «أنى تصل إليه؟» صرخت بصوت عال، فقفزت القردة النحاسية التي كانت تشاركني غرفتي الزرقاء كلون السماء، وهي تكاد تخرج من جلدها. يومها كنت في حوالى الثامنة وكانت هي في السابعة تقريباً. وكان عمري لا يزال أصغر بكثير من أن يحيرني معنى وجودي.

لكن الخدم لا يقتربون من صناديق الغسيل، كما أن باصات المدارس مفقودة أيضاً. في عامي التاسع تقريباً بدأت أذهب إلى مدرسة جون كونون للصبيان الواقعة في شارع أوترام في منطقة القلعة القديمة. نظيفاً، مسرح الشعر كل صباح كنت أقف عند أسفل رابيتنا ذات ارتفاع الدورين، ببنطالي القصير الأبيض وحزامي المطاطي المخطط بالزرقة ذي البكلة الأفعوانية، على كتفي حقيبتي، وأنفي الهائل الأشبه بالخيارة يسيل كالعادة، ومعي آيسلايس وهيرويل وسوني ابراهيم وسيروس العظيم الناضج قبل أوانه ينتظرون أيضاً. ففي باص تلامذة، وبين صرير المقاعد وزقزقة ألواح النوافذ، ما عساها تكون

أوجه اليقين؟ ما هي أشكال التأكد التي يمكن لطفل في التاسعة من العمر أن يعرفها عن مستقبله؟! لكن يأتي تبجح من سوني: «سأغدو مصارع ثيران، اسبانيا! تشيكيتا... هيه.. تورو! توررور[1]!». وهو يمسك بحقيبته المدرسية أمامه كقطعة القماش الأحمر التي يلوّح بها المصارعون في وجه الثور، محدداً بذلك شكل مستقبله والباص يمر ويخشخش دائراً حول منعطف كيمب، ماراً بشركة توماس كيمب وشركاه عابراً بلوحات الإعلانات الضخمة عن شركات الطيران وكولينوس وكوكاكولا... ثم يقف غلاندي كيش كولاكو، وهو ولد تفتق الشعر فوق شفتيه تقريباً، ولد كبالون درقي تقريباً، ليقول: «سأدير صالات السينما التي يملكها والدي، أنتم يا أولاد الزنى ستضطرون لمشاهدة الأفلام ولسوف تأتون إلي متوسلين أن أدبر لكم مقاعد..». ثم ينتصب بيرس فيشوالا البدين الذي لم يكن هناك سبب لبدانته سوى الإفراط في الطعام والذي كان يحتل، شأنه شأن غلاندي كيث، المركز المتميز «لقبضاي» الصف: «باه! هذا لا! أما أنا فسيكون لدي جواهر وزمرد وياقوت! ولؤلؤ بحجم خصيتي!». وبما أن والد بيرس البدين كان يدير تجارة المجوهرات في المدينة، فقد كان عدوه اللدود هو ابن السيد فاتبولي الذي كان، لصغر حجمه وذكائه، يخرج من حرب الأولاد ذوي الخصى اللؤلؤية، في أسوأ حال... أما أيسلايس فيعلن أنه سيكون في المستقبل لاعب كريكيت، وذلك بغض النظر عن محجره الخاوي، بينما يقول هيرويل، النحيل الهزول كأخيه، ذو الشعر الأجعد الأشعث: «يا لكم من أولاد أنانيين! أنا سأحذو حذو أبي وأنتسب إلى البحرية! ولسوف أدافع عن وطني!». وحينذاك تنهمر عليه المساطر، المحابر، الفرجارات... في باص المدرسة، وهو يقعقع ماراً بتشوباتي بيتش، منعطفاً إلى اليسار ماراً بجوار شقة خالي المفضل حنيف، متجهاً إلى شارع فكتوريا فنبع فلورا، فمحطة تشير تشجيت وسوق كروفورد، كنت أحتفظ بهدوئي، «كلارك كينت» آخر بسلوكي اللطيف أحمي هويتي الخفية، لكن ما تراها كانت تلك الهوية؟ «هيه يا ذا الأنف

(١) ألفاظ يستخدمها مصارعو الثيران، مشتقة من أصل عربي كما هو واضح.

المتكبر!» كان غلاندي كيث يصرخ: «ماذا تنوي أن تكون؟». ويأتي الجواب صيحة من بيرس فيشوالا البدين: «فيلوذج» ثم ينضم البقية إليه ليشكلوا جوقة تغني بصوت أجش «ليس لي أوتار»... بينما يجلس سيروس العظيم هادئاً هدوء العباقرة ويخطط لأن ينشئ في المستقبل مؤسسة الأبحاث الذرية الرئيسية في البلاد.

أما في المنزل فقد كانت هناك القردة النحاسية وحرقها للأحذية، كما كان هنالك والدي الذي خرج من أعماق الهوة التي سقط فيها إلى حماقة رباعيات القوائم... «أين تجدها يا ترى؟». كنت أتساءل عن هويتي، متضرعاً إلى النافذة وكانت إصبع الصياد تشير، بصورة مضللة، إلى البحر.

في مخبأي كانت تدوي صرخات «فيلوذج!! يا انف الخيارة!! يا صاحب الوجه ـ اللزج!» لكنني أشعر بأنني في مأمن من ذكرى الآنسة كباديا، المعلمة في حضانة بريتش كاندي التي التفتت لتحيتي يوم دخلت المدرسة أول مرة، وحين رأت أنفي، سقطت مساحة اللوح من يدها أرضاً، فهرست ظفر إبهامها، لقد صرخت صرخة مدوية لكنها كنت أقل دوياً من صرخة والدي يوم حادثه المشهور، في مخبأي ذاك كنت أدفن نفسي بين الشراشف الوسخة والمنامات المكرمشة، ولحين من الزمن كنت أتمكن من نسيان قبحي.

التيفوئيد هاجمني، سم الكوبرا أنقذني، بعدها خفّ معدل نموي المفرط في باكورة حياتي. وحين بلغت التاسعة كان سوني ابراهيم يزيدني بأكثر من بوصة ونصف البوصة طولاً. لكن قطعة واحدة من الطفل سليم بدت وكأنها منيعة على المرض ومستخلصات الأفاعي. لقد كانت بين عيني تبرز كالفطر نحو الخارج والأسفل، وكأن جميع قواي التوسعية، مدفوعة من بقية أعضاء جسمي، قد قررت أن تركز على ذلك البروز الفريد من نوعه... فبين عيني وفوق شفتي، كان أنفي يبرز كثمرة كوسا حصلت على الجائزة الأولى.

ماذا في الأنف؟ ويأتي الجواب العادي: «الأمر بسيط، جهاز التنفس، بصيلات الشم، وبعض الشعيرات». لكن في حالتي، كان الجواب أبسط حتى، رغم أنه، وأنا مضطر للاعتراف، أكثر مدعاة للنفور: فما كان في أنفي هو الضخامة والبشاعة. ومع اعتذاراتي، لا بدّ لي ولسوء الحظ، من أن أصر

على بعض التفاصيل: ذلك أن التخثرات الأنفية كانت ترغمني على التنفس من فمي، مما يعطيني هيئة سمكة ذهبية تشهق، كما أن الانسدادات الدائمة حكمت علي بطفولة بلا عطور، بأيام تجهل روائح المسك والعنبر، رائحة المنغا والبوظة المنزلية الصنع وكذلك رائحة الغسيل الوسخ. فنقطة الضعف التي كنت مصاباً بها في العالم الواقع خارج صندوق الغسيل، كانت تتحول إلى نقطة إيجابية، نقطة قوة، حين ادخل إليه، إنما لفترة بقائي فيه لا غير.

كنت قلقاً بخصوص أنفي، وقد تملكني هاجس ـ الهدف. كنت أرتدي الملابس الدالة على الأسى والتي كانت تصلني بانتظام من خالتي علياء مديرة المدرسة، ألعب الكريكيت بالطريقة الفرنسية، أقاتل الآخرين، أدخل عالم حكايا الجن... وأقلق وأتضايق. (في تلك الأيام، بدأت خالتي علياء ترسل إلينا سيلاً من ملابس الأطفال، التي كانت درزاتها تبدو وكأنها خيطت على مرارة مديرتها العانس. وكنت أنا والقردة النحاسية نرتدي مما تهبنا إياه، ملابس الأطفال الصغار في البداية، تلك الملابس الدالة على الأسى، ومن ثم الدشداشات المثيرة للنفور. ثم كبرت لألبس البنطال القصير الأبيض المنشى بنشاء الغيرة والحسد بينما ظلت القردة النحاسية ترتدي الفساتين المزهرة الجميلة المفعمة بحسد علياء الذي لم تنقصه الأيام... ودون أن ندري أن خزانتنا تلفنا بشباك انتقامها، كنا نلبس خير لباس ونظهر به على الناس) أنفي: فيلي كخرطوم غانيش، وقد ظننت أنه سيكون عضو تنفس رائعاً، عضو شم لا نظير له، لكن، بدلاً من ذلك، كان متورماً منتفخاً باستمرار، عديم الجدوى «كسيخ كباب»[1] خشبي.

كفى. لقد جلست في صندوق الغسيل ونسيت انفي، نسيت كل ما يتعلق بتسلق قمة إيفرست عام ١٩٥٣، حين قهقه آيسلايس الوضيع قائلاً: «هيه، أيها الرجل! أوتحسبون أن تنزينغ ذاك قادر على تسلق أنف المتعجرف؟» نسيت كل ما يتعلق بالمشاجرات التي كانت تقوم بين أبوي حول أنفي، الذي لم يكن أحمد سيناء يتعب أبداً من لوم والد أمينة عليه:

(١) هكذا في النص، بأصله العربي.

«أبداً لم يوجد في عائلتي أنف كهذا الأنف من قبل! إن لنا أنوفاً رائعة، أنوفاً يفخر بها الناس، أنوف ملوك أيتها الزوجة!». في ذلك الحين، كان أحمد سيناء قد بدأ يؤمن بالأسلاف الخياليين الذين اخترع قصتهم ذات يوم كي يرويها لوليام ميثولد، من نسل الجن كان يرى نفسه، إذ يرى الدم المغولي يجري في عروقه... ونسيت أيضاً تلك الليلة، وأنا في الثامنة والنصف، حين جاء والدي إلى غرفة نومي، وأنفاسه تفوح برائحة الجن، ثم ألقى بغطائي جانباً وهو يسأل: «أنت بحق الله! خنزير! خنزير مجهول المنشأ؟». وحين تظاهرت بالنعاس والبراءة والدهشة، صرخ مزمجراً: «تشي.. شي. وسخ! قذر! والله يعاقب الأولاد الذي يفعلون ذلك! ولقد عاقبك فعلاً، جعل أنفك بحجم شجرة الخشخاش. ولسوف يوقف نموك ويجعل قضيبك يذبل بل يمحي حتى!». عندما جاءت والدتي إلى الغرفة المضطربة وهي بقميص نومها «جانوم بحق الله، الغلام نائم» لكن الجني هدر من خلال شفتي أبي وقد تملكه الجنون تماماً: «انظري إلى وجهه! ترى من صار له أنف كهذا بسبب النوم؟».

في صندوق الغسيل لا توجد مرايا، كما لا تدخل النكت الصفيقة ولا الأصابع المؤشرة، بينما تكتم سخط الآباء الملاءات المستعملة والمناهد المنبوذة. صندوق الغسيل هو وجر من أوجار العالم، مكان تضع الحضارة نفسها خارجه، ما وراء الحدود، وهذا ما يجعله أحسن المخابئ في العالم. في صندوق الغسيل، كنت أشبه بنادر خان في عالمه السفلي، في مأمن من الضغوط، بعيداً عن طلبات الوالدين والتاريخ...

... والدي يسحبني إلى كرشه المتهدل، ثم يخاطبني بصوت أبح نتيجة انفعال اللحظة: «حسناً... حسناً.. أنت غلام طيب.. بإمكانك أن تكون كما تريد... لكن عليك أن تريده إلى حد كافٍ! نم الآن..». وتردد ماري بيريرا كلامه كالصدى في أغنيتها الصغيرة: «ما تبتغي أن تكون سوف تكون ولسوف تكون كل ما تبتغي أن تكون». لقد حدث لي فعلاً أن عائلتنا كانت تؤمن ضمناً بمبادئ الشغل الجيد. لذا كانوا يتوقعون مردوداً حسناً لما وظفوه بي من استثمارات. يحصل الأطفال على الطعام، المأوى، مصروف

الجيب، العطل والحب، كل ذلك مجاناً وبلا مقابل، ومعظم الحمقى الصغار يعتقدون أن كل ذلك ضرب من التعويض عن الإتيان بهم إلى هذه الدنيا. «ليس لي أوتار!» يغني رفاقي وهم يشاكسونني، لكنني، أنا الفيلوذج كنت أرى الأوتار. فالوالدان يدفعهما دافع المنفعة ـ لا أكثر ولا أقل ـ وقد كانوا يتوقعون مني، مقابل اهتمامهم، أن أكون شيئاً هائلاً عظيماً، لا، لا تسيئوا فهمي. فأنا لم أنته. في ذلك الحين كنت طفلاً مطيعاً، أتوق لأن أعطيهم ما يبتغون، ما وعدهم به العرافون والرسائل المؤطرة، لكنني لم أكن أعرف كيف، أو من أين تجيء العظمة؟ كيف يحصل المرء على بعض منها؟ ومتى؟... حين كنت في السابعة من العمر جاء آدم عزيز والأم المبجلة لزيارتنا. وفي عيد ميلادي السابع سمحت لنفسي بكل طواعية وخضوع أن ألبس كما كان يلبس الصبيان في لوحة صياد السمك، وشرعت، يكاد يقتلني الحر والضيق في بزتي الغريبة، أبتسم وأبتسم «انظروا، فلقة قمري الصغيرة» هتفت أمينة وهي تقطع قرص الكعك المغطى بحيوانات أهلية من الحلوى: «طيب عذب! أبداً لم يذرف دمعة واحدة!». وبعد أن حبست سيول الدموع الكامنة تماماً خلف عيني، دموع الحر والضيق وافتقادي لأصابع الشوكولا بين هداياي الكثيرة، أخذت شريحة من الكعك ومضيت إلى الأم المبجلة، التي كانت لا تزال في الفراش. كان من بين هداياي سماعة طبيب وكنت أضعها حول عنقي. فأذنت لي بأن أفحصها، وبعد أن فعلت ذلك وصفت لها مزيداً من الحركة: «عليك أن تسيري في الغرفة، ذهاباً وإياباً إلى الخزانة، مرة واحدة كل يوم وبإمكانك أن تتكئي علي، أنا الطبيب»، أطاعت، فقدتها، لورداً انكليزياً صغيراً حول عنقه سماعة وعلى كتفه تتكئ جدة لها شامة كشامة الساحرات وهي تقطع الغرفة عارجة ومفاصلها تصرّ صريراً.

شفيت الأم المبجلة شفاء تاماً بعد ثلاثة أشهر من هذا العلاج. فجاء الجيران يحتفلون حاملين معهم مختلف أنواع الحلويات. يومها أعلنت الأم المبجلة، وهي تجلس كالملكة على تخت في غرفة المعيشة: «أترون حفيدي؟ لقد شفاني. إنه، ما اسمه، عبقري، نابغة، ما اسمه: موهبة من

الله!». فهل كان الأمر كذلك حينذاك؟ هل كنت سأكف عن القلق والضيق! هل النبوغ شيء منفصل تماماً عن إراحتك؟ هل هو في أن تكون قادراً على فعل شيء من الأشياء منفصل تماماً عن تعلمك كيف تفعله أو معرفتك كل ما يتعلق به؟ هل يمكن، في الساعة المحددة، أن يحط على كتفيك مثل شال صوفي كشميري رائع الرسم متقن الصنعة؟ عظمة تحط مثلما تهوي ستارة: ولا ضرورة أبداً لإرسالها إلى الغسال. المرء ليس بحاجة لأن يضع النبوغ على المحك... فذلك الدليل، جملة جدتي التي نطقتها في إحدى الفرص، كانت أملي الوحيد، وكما تبين فإنها لم تكن مخطئة كثيراً (الحادثة توشك أن تمسك بخناقي وأطفال منتصف الليل ينتظرون). في الباكستان، رأت أمينة سيناء بعد سنوات، وفي الليلة نفسها التي أوشك السقف أن يهوي عليها ويسطحها أكثر من كعكة أرز، رأت صندوق الغسيل القديم في الحلم، وحين برز إلى ناظريها حيته كما تحيي قريباً لا يحتاج إلى ترحيب خاص. «إذاً، ها أنت ذا ثانية!» قالت له أمينة «لكن، لم لا؟ أشياء كثيرة تعود إليّ هذه الأيام. وأنت، على ما يبدو، لا تستطيع أن تترك شيئاً وراءك». كانت أمينة قد هرمت قبل أوانها، شأن كل نساء عائلتنا، وكان الصندوق يذكرها بالسنة التي بدأت فيها الشيخوخة ترجع إليها أول مرة. كما أن الحر الشديد الذي تميزت به سنة ١٩٥٦ ـ والتي قالت لي ماري بيريرا إنه ناجم عن قدوم حشرات لاهبة صغيرة لا تراها العين ـ عاد يئز في أذنيها مرة ثانية «مسامير قدمي تؤلمني ألماً شديداً» قالت بصوت عال، فابتسم ضابط الدفاع المدني، الذي جاء إلى المنزل لتطبيق تعليمات التعتيم، على شفتيه ابتسامة حزينة وهو يفكر: «كبار السن يكفنون أنفسهم بالماضي حين تنشب حرب من الحروب وبتلك الطريقة يكونون على استعداد للموت حين يطلب منهم ذلك». ثم مضى عابراً بتلال المناشف الوبرية التي كانت تملأ معظم المنزل تاركاً أمينة كي يناقش مسألة غسيلها الوسخ في سره... أما نوسي ـ ابراهيم ـ البطة فقد كانت تعجب بأمينة عادة «أي وضع اتخذته يا عزيزتي! أية نبرة صوت! أقسم إن هذا ليثير العجب: إنك تنزلقين وكأنك على قاطرة خفية!» لكن في صيف حشرات القيظ ذاك، خسرت أمي الرائعة معركتها مع الثآليل بصورة نهائية، ذلك أن

الناسك بورو شوتام أضاع سحره فجأة. فالماء كان قد حفر رقعة من الصلع في رأسه وسقوط الماء الدائم قطرة قطرة كان قد أبلاه. هل كان وهمه قد زال يا ترى في ما يتعلق بطفله المبارك؟ هل كان الخطأ خطأي في أن تعاويذه وطلاسمه فقدت قوتها؟ لقد قال لوالدتي بهيئة من يواجه مشكلة خطيرة «لا تبالي. انتظري فقط ولسوف أشفيك بالتأكيد». لكن مسامير قدمي أمينة باتت أسوأ وأسوأ فذهبت إلى الأطباء الذين عالجوها بأن جمدوا تلك المسامير بثاني أكسيد الكربون إلى درجة الصفر المطلق. لكن ذلك لم يفعل شيئاً سوى أنه أعادها مضاعفة القوة، وهكذا بدأت تعرج، تنزلق في سيرها انزلاقاً باستمرار ولقد عرفت في ذلك قدوم الشيخوخة الذي لا يخطئه الإنسان. (أما أنا المفعم بالخيال فقد حولتها إلى قصة مجنحة ـ «ماما، ربما كنت حورية بحر فعلاً، وقد اتخذت شكل البشر حباً برجل ـ وهكذا كل خطوة تخطينها تشبه السير على نصال السكاكين» فابتسمت أمي لكنها لم تضحك). عام ١٩٥٦: أحمد سيناء والدكتور نارليكار يلعبان الشطرنج ويتناقشان ـ أبي خصم لدود لعبد الناصر، بينما الدكتور نارليكار معجب به كل الإعجاب. «الرجل لا يصلح كسياسي» كان أحمد يقول فيرد نارليكار متألقاً حماسة: «لكن له أسلوبه وما من أحد يستطيع اللف عليه». في الوقت نفسه كان جواهر لال نهرو يستشير المنجمين حول الخطة الخمسية للبلاد كي يتجنب كرامستان[١] أخرى. وبينما كان العالم يجمع بين العدوان والعبادة السرية كنت أتمدد مختفياً في صندوق الغسيل الذي لم يعد كثيراً إلى حد يكفي لتأمين راحتي وكانت أمينة سيناء قد باتت مفعمة بالشعور بالإثم.

كانت من قبل قد حاولت أن تطرد من ذهنها مغامرتها في مضمار السباق. لكن الشعور بالإثم الذي سببه لها طهو أمها لم يكن بالإمكان الفرار منه، وهكذا كان من المتعذر عليها ألا تفكر بأن الثآليل ليست إلا عقاباً لها... ليس فقط على تسللها ذاك الذي كانت تقوم به قبل سنوات من الزمن إلى مهالاكسمي بل على إخفاقها في إنقاذ زوجها من طغيان الإدمان على

(١) منزلة الكوارث والشؤم التي تمر بها النجوم.

الكحول، وعلى الطرق الشرسة اللاأنثوية التي كانت تتصرف بها القردة النحاسية وكذلك حجم أنف ابنها الوحيد. وإذا ما عدت بنظري إليها الآن، يخيل إلي أن ضباب الإثم بدأ يتشكل حول رأسها ـ كما أن بشرتها الداكنة بدأت تنشر غيوماً سوداً تتكاثف حول عينيها (وبادما تصدق ذلك، بادما تعرف قصدي!). ومع تعاظم ذنبها كان الضباب يتكاثف ـ أجل، ولم لا ـ إلى حد لم تكن في بعض الأيام تستطيع رؤية رأسها فوق عنقها إلا بالكاد!... لقد غدت أمينة واحدة من أولئك الناس النادرين الذي يحملون أعباء العالم كله على كواهلهم، وبدأت تنشر حولها مغناطيس الإثم عن قصد منذ تلك اللحظة فصاعداً، بات كل من يحتك بها يشعر بأشد الدوافع لأن يعترف بما ارتكبته من ذنوب وآثام. وحين كانوا يخضعون لقوى أمي تلك، كانت تبتسم لها ابتسامة حزينة ضبابية عذبة، فيمضون وقد تخففوا من أعبائهم بعد أن ألقوها على كاهلها هي، كما يشتد ضباب إثمها. لقد استمعت أمينة لخدم يُضرَبون ومواطنين يرتشون وحين كان خالي حنيف وزوجته، بيا المقدسة، يمران لزيارتها كانا يرويان لها شجاراتهما بأدق تفاصيلها، كما كانت ليلى سبرماتي تسر بما ترتكبه من خيانات لأذن أمي الصاغية الرقيقة ذات المعاناة ـ الطويلة، وكان على ماري بيريرا أن تكافح كفاح المستميت ضد الإغراء الذي لا يقاوم، ذاك الذي كانت تشكله أمي والذي كان يدفعها للاعتراف بجريمتها.

كانت أمي، وهي تواجه آثام العالم، تبتسم ابتسامتها الضبابية وتطبق عينيها بإحكام شديد، وحين سقط السقف على رأسها كان بصرها قد شح كثيراً لكنها كانت لا تزال قادرة على رؤية صندوق الغسيل.

لكن ما الذي كان يشكل قاعدة الإثم لدى أمي حقاً؟ أقصد حقاً، أي ما الذي كان يكمن تحت التآليل والجن والاعترافات؟ إنها علة لا يمكن التكلم عنها، لا يمكن تسميتها حتى، إصابة لم تعد تقتصر على الحلم بزوج في العالم السفلي... فوالدتي (وكذلك والدي بعدها) كانت قد وقعت تحت سحر الهاتف.

في أصائل ذلك الصيف، الأصائل الحارة كالمناشف الساخنة، كان الهاتف يرن. وحين كان أحمد سيناء ينام في غرفته، ومفاتيحه تحت وسادته

والحبال السرية في خزانته، كان رنين الهاتف يطغى على أزيز حشرات الحر، فكانت أمي تأتي، وهي تعرج بمسامير قدميها، لترد عليه في الصالة. حينذاك، أي تعبير يا ترى ذاك الذي كان يلون وجهها بلون الدم الجاف؟... ودون أن تعرف أن هناك من يراقبها، أية ارتعاشات كارتعاشات الأسماك كانت ترتعشها شفتاها، وأية غمغمات مكتومة؟... ولماذا تقول يا ترى بعد أن تصغي خمس دقائق كاملات، وبصوت أشبه ببلور مكسر «آسفة: الرقم غلط؟». «لماذا كان يشتد ألق الماس بين أجفانها..؟».. والقردة النحاسية همست في أذني: «حينما يرن في المرة القادمة، دعنا نكتشف الحقيقة». بعد خمسة أيام، تأتي المرة القادمة ويكون الوقت عصراً أيضاً، بيد أن أمينة ليست في المنزل، إنها تزور نوسي البطة، والهاتف يرن طالباً من يرد عليه. «أسرعي! أسرعي وإلا استيقظ من نومه» فتهب القردة النحاسية برشاقة سمياتها القرود تلتقط السماعة قبل أن يتسنى لأحمد سيناء أن يغير حتى نمط شخيره... «آلو؟ نعم؟ هنا سبعة صفر خمسة ستة واحد، آلو؟». ونصغي، بأعصاب مشدودة، ولوهلة من الزمن لا نسمع صوتاً على الإطلاق. بعد ذلك وحين نهم بإغلاق الهاتف يأتي الصوت، «أوه... نعم... آلو». فترد القردة النحاسية صارخة: «.. آلو، من يتكلم؟ رجاء؟». لكن الصمت يخيم مرة ثانية، والصوت الذي لم يستطع كبح نفسه عن الكلام يقلب الفكر بإجابته، ثم يجيب: «آلو، هنا شركة شانتي برازاد لتأجير الشاحنات، من فضلك؟» فترد القردة النحاسية بسرعة البرق: «نعم، ماذا تريد؟». وبعد وقفة قصيرة يعود الصمت وقد بدا عليه الضيق، فيقول شبع معتذر: «أريد أن أستأجر شاحنة».

يا للعذر الواهي لصوت الهاتف! يا لهراء الأشباح الفارغ! فالصوت في الهاتف لم يكن صوت مستأجر شاحنات، بل كان صوتاً طرياً ندياً قليلاً، صوت شاعر... لكن عدا ذلك، كان الهاتف يرن بانتظام، وكانت أمي ترد عليه أحياناً، وتصغي بصمت بينما تقوم شفتاها برسم حركات سمكية. ثم تقول أخيراً، وبعد كثير من التأخر: «آسفة، الرقم غلط». لكن في أحيان أخرى، كنت أنا والقردة النحاسية نجتمع حوله، واضعين أذنينا معاً على

السماعة، بينما تتلقى القردة طلبات الشاحنات. يومها كنت أتساءل: «هيه، قردة، ما رأيك؟ ترى ألا يتساءل الرجل لم لا تصل الشاحنات؟». فترد بصوت مرتعش وعينين جاحظتين: «لكن لعلهم يريدونها فعلاً!». ودون أن أعرف كيف، راحت بذرة شك صغيرة تنمو في داخلي، قبس بعيد لفكرة ما تدل على أن أمنا لديها سر ـ أمنا! تلك التي كانت تقول دائماً «اكتموا أسراركم تفسد داخلكم. لا تحكوا أموركم تصيبكم بقرحة المعدة!». ثم جاءت شرارة لدقيقة واحدة وأنا في صندوق الغسيل فكانت كافية لنشر الحريق في الغابة (ذلك أنها في هذه المرة، وكما سترون، قدمت لي البرهان).

لقد كان ذلك وقت الغسيل الوسخ، وكانت ماري بيريرا مولعة بالقول لي: «دادا، إن أردت أن تكون رجلاً كبيراً، عليك أن تكون في غاية النظافة». ثم تبدأ النصائح: «بدل ملابسك، خذ حمامات منتظمة، هيا، دادا أو أرسلتك إلى الغسال الذي يفركك على حجره». كما كانت تهددني بالبعوض أيضاً: «حسناً، ابق وسخاً، فإنك بذلك لن تجد من يحبك سوى الذباب. إنه سيقف عليك وأنت نائم، أو سيبيض بيوضه تحت جلدك!». وبصورة جزئية، كان اختياري لمخبأي ذاك عملاً من أعمال التحدي. فقد كنت، وبنوع من التحدي للطفيليات والذباب، أخفي نفسي في مكان غير نظيف، وكنت أستمد القوة والراحة من الملاءات والشراشف والمناشف. كما كان أنفي يسيل على راحته ملوثاً البياضات المحكوم عليها بالفرك بالحجر، وحينما كنت أخرج إلى العالم من بطن حوتي الخشبي، كانت الحكمة الناضجة الحزينة التي يطبعني بها الغسيل الوسخ تظل معي، ملقنة إياي فلسفتها الخاصة بالبرود والترفع رغم كل شيء وبحتمية استخدام الصابون، تلك الحتمية المرعبة.

في عصر يوم من أيام حزيران، سرت على أطراف أصابعي عابراً ممرات غرف النوم نازلاً باتجاه ملجأي المحبب، ثم تسللت ماراً بأمي النائمة على صمت حمامها المغطى بالآجر الأبيض. هناك رفعت غطاء صندوقي وغصت في أحشائه الطرية من ملابس ومنسوجات (كانت بمعظمها بيضاً) كما كانت ذكرياتي الوحيدة عنها تعود إلى زياراتي الأقدم عهداً. وبعد أن أخذت نفساً

عميقاً، أنزلت الغطاء فوقي، تاركاً السراويل والقمصان الداخلية تمسح آلامي لكوني غلاماً حياً في التاسعة من العمر وبلا هدف أو معنى.

في الجو كهرباء، والحرارة تئز أزيز النحل. وفي مكان ما من الجو ثمة ستار معلق، ينتظر ان ينزل بلطف على كتفي... وفي مكان ما، إصبع تمتد نحو قرص هاتف. القرص يدور ويدور، الذبذبات الكهربائية تنطلق في السلك، سبعة، صفر، خمسة، ستة، واحد. الهاتف يرن. صوت الجرس المكتوم يخترق صندوق الغسيل الذي يختبئ فيه غلام حوالى التاسعة بكثير من الضيق... وفجأة غدوت، أنا سليم سيناء متصلباً تماماً خشية أن يكشفني أحد، إذ إن أصواتاً أخرى ولجت الصندوق: زقزقة نوابض سرير، طقطقة ناعمة لخف يمشي في الممر، والهاتف وقد صمت في منتصف الرنة، ثم ـ أم ترى هذا من صنع الخيال؟ هل كان صوتها أنعم من أن أسمعه؟ ـ لكن، بعد لأي جاءت الكلمات التي تلفظها متأخرة كثيراً كالعادة: «آسفة. الرقم غلط». بعد ذاك، خطاً تتمايل عرجاً عائدة إلى غرفة النوم، ويصاب الطفل المختبئ بأشد أشكال الخوف. قبضات أبواب تدار، تحذيرات صارخة تأتي إليه، وخطوات كحد الموسى تخترقه حتى الأعماق وهي تجتاز الآجر الأبيض البارد. فيقطع أنفاسه جامداً كالجليد، ساكناً كالعصا، ومن أنفه تسيل المفرزات بكل هدوء، إلى الملابس الوسخة. خيط من خيوط بيجاما ـ كأفعى تنذر بالهلاك ـ يدخل في منخره الأيسر. أن يعطس يعني أن يموت: ويرفض التفكير بذلك.

ثم يجد عينه، هو الذي تعصره قبضة الخوف، تنظر عبر فرجة في الغسيل الوسخ... ويرى امرأة تبكي في الحمام، مطراً ينهمر من سحابة سوداء مدلهمة، ثم مزيداً من الصوت ومزيداً من الانفعال: صوت أمه بدأ يتكشف عن لفظ.. مقطعين يتكرران المرة تلو المرة ويداها تتحركان. بينما تصيخ الأذنان المحجوبتان خلف الألبسة الداخلية، سمعهما لالتقاط الصوت ـ إنه: دير؟ بير؟ ديل؟ والصوت الآخر: ها؟ را كلا ـ نا، وليس أو را. كذلك لم يكن صوت المقطع الأول ريل أوبير. وهكذا يسمع الغلام الاسم الذي لم تنطقه شفتان مذ أضحت ممتاز عزيز أمينة سيناء. إنه: نادر. نادر.

نا.. در.. نا.. وتتحرك يداها، وهي تائهة في فيافي ذكرياتها عن الأيام الخوالي، ذكريات ما كان يحدث بعد ممارستها للعبة إصابة المبصقة في قبو منزل آغرا، فينعكس ذلك سروراً في وجنتيها، انتصاباً في النهدين تعجز المنهدة عن صنعه، ثم تداعب الذكريات جذعها العاري، بعد ذلك تشرد نحو الأسفل والأسفل... أجل.. هذا ما اعتدنا أن نفعله يا حبيبي، وقد كان ذلك كافياً بالنسبة إلي، لكن رغم اكتشاف والدي لأمرنا، ورغم أنك فررت، الآن يأتي هذا الهاتف، نادر نادر نادر نادر... اليدان اللتان كانتا تمسكان بالهاتف تمسكان باللحم الآن، لكن في مكان آخر، ماذا تفعل يد أخرى يا ترى؟ إلى أين تمتد يد أخرى بعد أن تعيد السماعة؟... لا يهم، هنا وفي محرمها الخاص المكشوف لعين جاسوس، تكرر أمينة سيناء، اسماً قديماً، المرة تلو المرة، إلى أن تنتهي أخيراً إلى الصراخ بصوت واضح «عجباً نادر خان، من أين جئت الآن؟». أسرار. اسم رجل. حركات يدين لم يرهما الصبي من قبل، ويمتلئ ذهنه بأفكار، لا شكل لها، تعذبه. أفكار ترفض التبلور بكلمات، بينما في منخره الأيسر، ينسل خيط البيجاما، يصعد كالأفعى إلى الأعلى والأعلى، رافضاً أن يظل موضع تجاهل. والآن ـ يا أماً بلا حياء! يا كاشفة عن ازدواجية في العواطف لا مكان لها في الحياة العائلية! والأنكى من ذلك: يا كاشفة صفيقة عن منجا سوداء! ـ فأمينة سيناء، وهي تكفكف دموعها تشعر بحاجة أكثر تفاهة، وبينما تختلس عين ابنها اليمنى النظر من خلال الشقوق الخشب في أعلى صندوق الغسيل، تفك الأم ساريها! فيصرخ الغلام بلا صوت داخل صندوق الغسيل: «لا.. لا تفعليها! لا... لا». لكن الصبي لا يستطيع إغماض عينه. وهكذا يتلقى البؤبؤ الذي لا يطرف له جفن صورة مقلوبة لسارٍ يهوي على الأرض، صورة يقلبها الذهن كالعادة، وعبر عين زرقاء كالجليد، أرى قطعة قماش تنزلق إثر الساري ومن ثم تنحني الأم فأرى... شيئاً أسود كالمانغا! في صندوق الغسيل، وقد أذهلتني الصورة، أدخل في عراك مع نفسي... ضبط النفس يصبح إلزامياً ومستحيلاً في الوقت نفسه... فبالتأثير الصاعق للمانغا السوداء تتصدع أعصابي، ويحقق خيط البيجاما نصره، وحين تجلس أمينة على مقعد المرحاض أبدأ أنا... ماذا؟ لا

عطسة بل ما هو أقل من عطسة. ولا انتفاضة ألم أيضاً بل ما هو أكثر من ذلك. أجل لقد حان الوقت لأن أتكلم بصراحة: فأنف سليم الذي هشمه الصوت ذو المقطعين ودمرته ارتعاشة اليدين والمانغا السوداء، هذا الأنف، ورداً على الدليل القاطع لازدواجية الأم، زلزلت أقدامه لمنظر كفل الأم فاستسلم لخيط البيجاما وانتابته نشقة لأراد لها، نشقة جائحة ـ تغير العالم. وهكذا يرتفع الخيط في المنخر نصف بوصة أخرى، وعلى نحو مؤلم، لكن ثمة أشياء أخرى ترتفع أيضاً. فالسوائل الأنفية، التي رفعتها النشقة المحمومة، ينشقها الصبي بلا رحمة، فتتدفق السوائل نحو العلى، ضد الجاذبية، ضد الطبيعة. وهكذا تخضع الجيوب الأنفية لضغط لا يحتمل... ضغط يتزايد داخل رأس ابن التاسعة تقريباً، إلى أن ينفجر شيء ما. الخطم يقذف صواريخه عبر ثغرة السد إلى قنوات جديدة مظلمة. والمخاط يرتفع أكثر بكثير مما قدر لأي مخاط أن يرتفع. ربما يصل السائل الفائض إلى حدود الدماغ، فتحدث صدمة. مجرى تيار كهربائي حلت به رطوبة.

وينبعث ألم.

بعد ذلك ترتفع ضجة، ضجة أصوات عديدة مخيفة تصم الآذان، ترتفع داخل رأسي!... وأدخل صندوق الغسيل الخشبي الأبيض، داخل بهو جمجمتي المعتم، بدأ أنفي يشدو أغانيه.

لكن في تلك اللحظة تماماً لم يكن ثمة وقت للإصغاء، ذلك انه كان هناك صوت بالغ القرب بالحقيقة. فقد فتحت أمينة سيناء الباب السفلي لصندوق الغسيل، ووجدت نفسي أتدحرج ملفوفاً بثياب الغسيل إلى الأرض. خيط البيجاما ينقذف خارجاً من أنفي، وحينذاك يبرق البرق في سماء الغيوم المدلهمة حول أمي ـ وأخسر الملجأ إلى الأبد.

«أنا لم أتطلع!» زقوت من خلال الجوارب والملاءات. «أنا لم أر شيئاً ماما! أقسم على ذلك!».

لكن بعد سنوات، وفي كرسي من قصب، بين مناشف مهملة ومذياع يعلن عن انتصارات حربية مبالغ بها، تتذكر أمينة كيف قادت ابنها وأذنه بين إبهامها وسبابتها، إلى ماري بيريرا التي كانت نائمة كالعادة على حصير من

القش في الغرفة الزرقاء بلون السماء، وكيف قالت لها: «هذا الحمار الصغير، هذا الولد الذي لا يصلح لشيء يجب ألا يتكلم مدة يوم كامل»... وقبل أن يهوي السقف على رأسها، في تلك اللحظة تماماً قالت: «الخطيئة خطيئتي، فقد ربيته تربية فاسدة»، وبينما كانت شظايا القنبلة تنتشر في ثنايا الجو، أضافت بصوت لطيف، إنما جازم تماماً. موجهة آخر كلمات لها على الأرض إلى شبح صندوق الغسيل ذاك: «ابتعد عني الآن. لقد رأيت منك ما فيه الكفاية».

على جبل الطور في سيناء سمع النبي موسى أوامر الرب، إلهه. وفي جبل حراء خاطب الرسول محمد رئيس الملائكة جبرائيل. وعلى مسرح مدرسة جون كونون للصبيان وتحت رعاية الجمعية التعليمية الاسكتلندية، سمع صديقي سيروس العظيم الذي كان يؤدي دوراً أنثوياً كالعادة، صوت القديس يوحنا وهو ينطق بكلمات برنارد شو. لكن سيروس هو الوحيد المستثنى. فخلافاً ليوحنا الذي كان صوته يأتي من حقل، كنت أنا. شأني شأن محمد وموسى، أسمع أصواتاً على رابية.

لقد سمع محمد (عليه الصلاة والسلام) صوتاً يقول: «اقرأ» فظن انه أصيب بمس من جنون. أما أنا فقد سمعت حفنة من ألسنة تبربر كمذياع مشوش وبما أنني كنت ممنوعاً عن الكلام بحسب أوامر والدتي، فقد كنت عاجزاً عن توجيه سؤال يريحني. محمد، وهو في سن الأربعين، مضى إلى زوجه وأصدقائه سعياً وراء الطمأنينة فقالوا له مطمئنين: «هو أنت، رسول الله». أما أنا، ابن التاسعة الخاضع للعقاب، فلم يكن باستطاعتي أن أبحث عن العون لدى القردة النحاسية ولا أن أسعى للراحة لدى ماري بيريرا. بل كنت في أغوار صمتي، طيلة المساء والليل والصباح، أكافح بمفردي كي أفهم ما الذي حدث لي، إلى أن رأيت أخيراً شال النبوغ يرفرف خافقاً مثل فراشة زاهية الألوان، رداء العظمة يحط على كتفي.

(لقد فرض علي الصمت. لكن في الخارج، كان للبحر حفيف كحفيف أوراق بعيدة وكان البوم ينعب وهو في حمى كوابيسه المجنحة، كما كانت هناك ضجة السيارات المتحركة على طريق واردن، بينما كانت القردة

النحاسية، قبل أن تستغرق في النوم وقد كسا وجهها قناع من الاستغراب والفضول، تتضرع متوسلة: «هيا، سليم، لا أحد يسمع. ماذا فعلت؟ احك، احكِ، احك!». . . أما في داخلي فقد كانت الأصوات ترتد أصداء على جدران جمجمتي). في حر الليل الساكن كانت تقبض علي أصابع القلق الساخنة ـ فحشرات القلق والانفعال المضطربة كانت تتراقص في جوفي ـ ذلك أن الباب الذي كانت توكسي كاتراك قد دفعته مرة بقصد فتحه في ذهني، والذي لم أكن حينذاك قادراً تماماً على معرفة كنهه، انفتح على مصراعيه أمام ناظري، واستطعت أن ألمح من خلاله ـ وإن كان بصورة غائمة غير محددة المعالم ـ السبيل الذي عبرته لكي ترى عيناي النور.

يوم نزل الوحي على محمد قال له جبريل: «اقرأ» ثم بدأت الآيات تترى إلى أن أصبحت قرآناً: «اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق». وكان ذلك على جبل حراء قرب مكة المكرمة. أما على الرابية ذات ارتفاع الدورين والمقابلة لأحواض بريتش كاندي للسباحة فقد كانت أصوات تأمرني بأن «اقرأ» أيضاً ففكرت بانفعال «غداً، غداً».

مع شروق الشمس اكتشفت أن في الإمكان التحكم بالأصوات ـ فقد كنت مستقبلاً إذاعياً، وكان بإمكاني أن أرفع الصوت أو أخفضه وبإمكاني أن أقفل أذني الداخلية التي اكتشفتها حديثاً. وإنه لأمر مدهش كم كانت السرعة التي تحللت بها من خوفي كبيرة ففي الصباح كنت أفكر يا رجل هه خير من إذاعة عموم الهند، خير من إذاعة سيلان!».

ولتبيان وفاء الأخوات وإخلاصهن: فإن القردة النحاسية جرت، حين انتهت مدة الأربع والعشرين ساعة تماماً، إلى مخدع أمي (وأظن أنه كان يوم أحد: لا مدرسة. أو ربما لم يكن كذلك ـ ربما كان صيف المسيرات والتظاهرات إذ غالباً ما كانت المدارس تغلق أبوابها، خشية العنف والهجوم على طرق الباصات) ثم هتفت هازة أمي، موقظة إياها «لقد انتهى الوقت! ماما، استيقظي: لقد أكمل مدة العقوبة: هل يستطيع التكلم الآن؟».

فردت امي وقد جاءت إلى الغرفة ذات اللون الأزرق كالسماء، معانقة إياي: «حسناً، لقد سامحتك الآن. لكن لا تختبئ هناك مرة أخرى..».

فقلت بلهفة: «مامي، مامي... أرجوك اسمعيني. يجب أن أخبرك شيئاً، شيئاً كبيراً. لكن من فضلك، من فضلك، أيقظي أبي قبل كل شيء».

وبعد فترة من التساؤلات «لماذا؟ ماذا؟ بالتأكيد لا؟». رأت أمي أنه يقبع في عيني أمر خارق للعادة فمضت توقظ أحمد سيناء قلقة مضطربة: «جانوم، من فضلك، تعال، لا أدري ما الذي دهى سليم؟».

في حجرة الجلوس اجتمع أفراد الأسرة والمربية. ووسط المزهريات الزجاجية المنقوشة والمساند المكتنزة، فوق سجادة عجمية وتحت ظلال مروحة السقف الدائرية، طفقت أبتسم لأعينهم القلقة وأستعد للبوح بما لدي، وهذا هو: بداية قطافهم لما وظفوه من استثمارات. قسطي الأول ـ فقبل كل شيء، كنت متأكداً كثيراً من... أما أمي السوداء وأبي ذو الشفة الناتئة وأختي القردة النحاسية والمربية، كاتمة الجريمة، فقد كانوا جميعاً ينتظرون بفارغ الصبر.

تكلم. بصراحة، وبلا زخرفات. «أنتم، يجب أن تكونوا أول من يعرف» بدأت كلامي، محاولاً أن أضفي على حديثي نبرة الرجولة. ثم تابعت «أمس، سمعت أصواتاً، أصواتاً تخاطبني من داخل رأسي. وأظن، ماما، بابا، أظن بالحقيقة ـ أن الملائكة بدأت تكلمني».

عند هذه النقطة فكرت: الآن ستجري تربيتات على الظهر، توزيع حلويات، إعلانات وربما صور فوتوغرافية أيضاً، الآن ستنتفخ صدورهم كبرياء! آه يا لبراءة الطفولة الساذجة! لكن، للأمانة، انكب الجميع علي من كل الجهات. حتى القردة هتفت: «أوه سليم! كل هذا الجمود والكآبة! كل هذا التمثيل من أجل لغوك الباطل»، لكن الأسوأ من تعليق القردة كان تعليق ماري بيرييرا: «يا يسوع المسيح! انقذنا يا رب! يا أبا ذلك المقدس في روما، أي تجذيف أسمعه اليوم!». غير أن الأشد سوءاً كان تعليق أمي: فهي، بمانغاها السوداء المختفية الآن، وبالأسماء السرية الخاصة التي لا تنطق بها شفتاها والتي ما تزال آثار حرارتها عليهما، صاحت هاتفة: «ليحمنا الله! هذا الطفل سيجعل السقف ينزل على رؤوسنا!»(أكانت تلك خطيئتي؟) بعدئذٍ تابعت أمينة: «أنت أيها الغلام الأسود، سليم! أيها الأحمق؟ هل أصبت

بالجنون؟ يا إلهي ماذا حدث لابني العزيز ـ هل سيجن؟». على أن الأسوأ من صراخ أمينة كان صمت والدي، الأسوأ من خوفها كان الغضب الشديد الذي كان جبينه ينضح به، الأسوأ من كل شيء كانت يد أبي التي امتدت فجأة، بأصابعها الغليظة وعقدها السميكة، يده القوية كيد ثور، لتوجه إلي ضربة على صدغي، ضربة أتت من الشدة بحيث انقلبت أرضاً عبر الغرفة المرتجفة عبر الهواء المشبع بالفضيحة فحطمت في طريقي لوح طاولة من البللور الأخضر الشفاف ثم غصت، وأنا متأكد مما أقول للمرة الأولى في حياتي، في عالم أخضر ذي غيوم بلورية ملأى بالحواف القاطعة، عالم لم أستطع فيه بعد ذلك أن احكي للناس الذين يهمونني أكثر من كل الناس عما يجري في داخل رأسي، فالقطع الخضر جرحت يدي وأنا أدخل ذلك الكون الفتال الذي حكم علي فيه، وحتى وقت متأخر كثيراً، بأن أبتلى بالشكوك الدائمة حول سبب وجودي ومعناه.

بعدئذٍ، في حمام غطيت جدرانه بالآجر الأبيض وإلى جانب صندوق الغسيل، أغرقت أمي جروحي بالمركوروكروم ثم ضمدتها بالشاش، بينما جاء صوت أبي عبر الباب آمراً: «أيتها الزوجة! لا تطعموه هذا اليوم. أتسمعينني؟ دعيه يستمتع بمزحته على بطن خاوية!».

في تلك الليلة، حلمت أمينة برامرام سيث الذي كان يطفو فوق وجه الأرض بسبع بوصات، ومحجرا عينيه مليئان بآح البيض وهو ينغم صوته: «الغسيل سيخفيه... الأصوات ستهديه»... لكن بعد عدة أيام وحين بات الحلم أشبه بالكابوس الذي لا يفارقها، استجمعت شجاعتها ثم سألت ابنها المجلل بالخزي بعض الأسئلة عن دعواه الخيالية، فأجابها بصوت مكتوم كدموع طفولته التي لم يذرفها: «لقد كانت مجرد مزحة، يا اماه! مزحة غبية كما قلتم».

وقد توفيت بعد تسع سنوات، دون أن تعرف الحقيقة.

إذاعة عموم الهند

الحقيقة مسألة نسبية، لذا بقدر ما تنأى عن الماضي، يبدو لك هذا الماضي محسوساً ومعقولاً أكثر، وبقدر ما تقترب من الحاضر، يبدو لك أبعد وأبعد عن المعقولية. افترض أنك في دار كبيرة للسينما، تجلس بادئ ذي بدء في آخر صف، ثم تتحرك تدريجياً من صف إلى صف إلى أن تصبح أمام الشاشة مباشرة حينذاك ترى أن أوجه الممثلين تتحلل تدريجياً إلى ذرات متراقصة، تفاصيل دقيقة لها نسب غريبة الشكل! الوهم يتحلل، أو بالأحرى، تغدو حقيقة الوهم واضحة... لقد انتقلنا من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩٥٦، وبذلك بتنا أقرب كثيراً إلى الشاشة... إذاً، وأنا أتخلى عن استعارتي، سأعمل، من غير إحساس بالخجل البتة، على تتبع أثر دعواي التي لم يؤمن بها احد: فبعد الحادث الغريب الذي وقع لي وأنا في صندوق الغسيل، بت نوعاً من الإذاعة.

... لكنني اليوم أشعر بضرب من الحيرة والارتباك، فبادما لم ترجع ـ هل ينبغي أن أعلم الشرطة؟ هل تعتبر مفقودة؟ ـ وكل ما أوقن به يتداعى في غيبتها؟ حتى أنفي يمارس الخداع علي ـ ففي النهار وأنا أتمشى بين رواقيد المخللات التي يشرف عليها حشد من نسائنا الكفؤات القويات ذوات الأذرع الشعراء، أجدني أفشل في التمييز بين رائحة الليمون والكلس. والعاملات يقهقهن قهقهات مكتومة: يا للسيد المسكين لقد وقع في ـ ماذا؟ بالتأكيد ليس في الغرام... بادما واللغو المحيط بي، تمتد شعاعاته من سرتي كنسيج العنكبوت، والحر..! إذاً، من المؤكد أنه يضفي شيئاً من الارتباك في مثل

هذه الظروف. فقد اكتشفت وأنا أعيد قراءة ما كتبت، خطأ في تاريخ الأحداث. ذلك أن اغتيال المهاتما غاندي يحدث على هذه الصفحات في تاريخ خاطئ. لكنني لا أستطيع أن أقول الآن، ما التسلسل الفعلي للأحداث الذي كان من المحتمل أن يقع في بلادي، الهند، حتى يلاقي غاندي مصرعه في التاريخ الخاطئ.

ترى هل يبطل خطأ واحد عملاً بكامله؟ أم هل تراني نأيت كثيراً، في بحثي اليائس عن المعنى، إلى درجة بت معها على استعداد لأن أشوه كل شيء - لأن أعيد كتابة تاريخ أيامي برمته، لكي أعطي لنفسي دوراً رئيسياً؟ الآن، وأنا في حيرتي وارتباكي، لا أستطيع التحكم، بل علي أن أترك ذلك للآخرين. أما بالنسبة إلي، فليس هناك من عودة، بل ينبغي أن أكمل ما بدأت، حتى ولو تبين أخيراً أن ما أنهيه ليس هو الذي بدأته...

«بي أكشفاني هاي»: هنا إذاعة عموم الهند.

بعد أن خرجت إلى الشوارع التي تغلي من الحر لتناول وجبة سريعة في مطعم إيراني قريب، عدت فجلست في بحيرتي الليلية من الضوء الركني ولا صاحب لي سوى مذياع ترانزستور رخيص. الليل حار، والهواء الساخن مشبع بما تبقى من روائح قدور المخللات الساكنة الآن، وفي الظلمة أصوات. أبخرة المخللات التي تضغط بشدة في الحر، تحرض عصارة الذاكرة، مثيرة نقاط التشابه والاختلاف بين الماضي والحاضر... فحينذاك كان الجو حاراً أيضاً (وبشكل غير معقول). وحينذاك، مثلما هو الآن، كان ثمة شخص مستيقظ في الظلمة يسمع ألسنة لا وجود لها تتكلم. وحينذاك كالآن، بالأذن التي أصيبت بالصمم. والخوف المشتد في الحر... لكن ليست الأصوات (في الماضي أو الحاضر) هي التي تخيفه. بل إن سليم - الصغير حينذاك كان يخشى فكرة - هو أن غضب والديه عليه قد يؤدي إلى إلغاء حبهما له، وأنهما حتى لو بدأا يصدقانه، فقد يريان في موهبته نوعاً من التشوه المشين... بينما أرسل الآن، أنا المحروم من بادما، هذه الكلمات إلى الظلمة وكلي خوف من ألا يصدقني أحد. هو وأنا، أنا وهو... فأنا لم يعدلي موهبته، وهو لم يكن لديه موهبتي. بل تمر أحايين يبدو لي فيها غريباً

تقريباً. . . فهو لم يكن يثرثر ويلغو، ولم تكن أعشاش العناكب تمتد على صدره في الحر.

بادما قد تصدقني، لكن ليس هناك بادما. وفي الماضي كالحاضر، ثمة جوع، لكنه جوع من نوع مغاير: فهو الآن، ليس جوع ذلك الحين وقد حرمت من الطعام، بل إنه جوع الحرمان من الجنس.

وهنالك نقطة اختلاف أخرى أكثر وضوحاً: حينذاك لم تكن الأصوات تصل عبر صمامات الترانزستور الاهتزازية وحينذاك لم يكن ابن التاسعة تقريباً بحاجة إلى أجهزة وآلات. مختلفين ومتشابهين يلفنا كلانا الجو بسديم حر متوهج، حينذاك والآن يندغم وقته ذاك بوقتي. . . وحيرتي، الراحلة عبر أمواج الحر، هي أيضاً حيرته.

لكن ثمة أشياء تنمو على أفضل نحو في الحر، إنها: قصب السكر، شجر جوز الهند، وبعض أنواع الدخن كالذرة الصفراء والبيضاء والدخن اللؤلؤي وبذر الكتان والشاي والأرز (إن توفر لهما الري). كذلك فإن بلادنا الحارة هي ثاني بلد منتج للقطن في العالم ـ هكذا كانت الإحصاءات، على الأقل، حين درست الجغرافيا تحت بصر السيد إميل زاغالو المستعر جنوناً وتحت النظرة الأكثر فولاذية للفاتح الإسباني الذي أطرت صورته. لكن في الصيف المداري تنضج ثمار أكثر غرابة أيضاً: تنضج ثمار أكثر غرابة أيضاً: تنضج أزهار الخيال الغريبة لتملأ الليالي الحميمة المتصببة عرقاً بروائح ثقيلة، كرائحة السمك، تجعل الناس يحلمون أحلاماً سوداء مزعجة. . . فحينذاك كالآن، كان القلق في الجو. والمتظاهرون يطالبون بتقسيم ولاية بومباي وفق حدود لغوية ـ حلم مهاراشترا يقود بعض المسيرات، وسراب غوجارات يقود مسيرات أخرى. فالحر، وهو ينهش فواصل الذهن التي تفصل ما بين الخيال والحقيقة، جعل أي شيء يبدو محتملاً، فوضى قيلولات بعد الظهر شبه المستيقظة، شبه النائمة جعلت أدمغة الناس غائمة ضبابية والجو يتشبع بلزوجة الرغبات المستثارة.

ما ينمو أفضل في الحر إنما هو: الخيال، القلق، الشهوة.

حينذاك، أي في عام ١٩٥٦، كانت مسيرات اللغات تنطلق في نضالها

عبر الشوارع نهاراً، أما ليلاً فقد كانت تحتشد في رأسي. سوف نولي حياتك أشد الاهتمام فهي، بشكل من الأشكال، ستكون مرآة لحياتنا.

وقد حان الوقت للتحدث عن الأصوات.

لكن، لو أن بادما هنا، لو أنها موجودة فقط...

لم تكن صحيحة قصة الملائكة، بالطبع. ويد والدي ـ وهي تصفع أذني مقلدة (عن وعي؟ أو غير وعي؟) يداً أخرى انفصلت عن جسدها حين صفعته ذات مرة في وجهه ـ إنما كان لها أثر واحد من آثار التحية على الأقل: فقد أجبرتني على إعادة النظر ومن ثم التخلي عن موقفي الأصلي، موقف تقليد ـ النبي.

في تلك الليلة، ليلة خزيي، كنت وأنا في الفراش، أنكمش على نفسي، أتكور وأتكور رغم كل المضايقات التي راحت القردة النحاسية تملأ بها غرفتنا الزرقاء «لكن... لماذا فعلت ذلك؟ أنت الذي كنت دائماً طيباً، حسن السلوك..؟». وظلت كذلك إلى أن استغرقت في نوم قلق لم يحمل الهواء إلى شفتيها اللتين ظلتا تتحركان، لأظل بمفردي مع أصداء العنف الذي عاملني به والدي، تلك الأصداء التي كانت تطن في أذني اليسرى هامسة: «لا ميكائيل ولا إسرافيل ولا جبرائيل. انس كاسبائيل وساشيائيل وسمائيل فالملائكة لم تعد تخاطب البشر. الوحي تم واكتمل في شبه الجزيرة العربية منذ زمن طويل، آخر الرسل لن يأتي إلا لإعلان يوم القيامة». تلك الليلة، وقد فهمت أن الأصوات التي تطن في رأسي تفوق أعداد الملائكة بمختلف مراتبها، قررت، فأنعشني قراري قليلاً، أنني لست أنا الشخص المختار للإشراف على نهاية العالم. كما تبين أن الأصوات التي كنت أسمعها، تلك الأصوات البعيدة عن أن تكون سماوية مقدسة، إنما هي أصوات دنيوية كثيرة كذرات الغبار. إنه التخاطر إذاً، ذلك النوع الذي تقرأ عنه دائماً في مجلات الأنباء المثيرة لكنني أسألكم الصبر ـ انتظروا. فقط انتظروا. أجل لقد كان تخاطراً، إنما هو أكثر من تخاطر أيضاً... فلا تشطبوا عليّ بسرعة.

تخاطر إذاً: حوارات داخلية لكل ما يدعى بالملايين المحتشدة. الجماهير والطبقات كذلك وهي تتزاحم بحثاً عن مكان لها في رأسي. في

البداية، وحين كنت قابعاً بدوري كمتفرج ـ قبل أن أبدأ التمثيل ـ كانت هنالك مشكلة اللغة. ذلك أن الأصوات كانت تبربر بكل اللهجات بدءاً من لهجة الملايالم وحتى لهجة الناغا، من أوردية اللوكنو الضيقة وحتى لكنة التاميل الجنوبية. ولم أكن أفهم سوى جزء يسير مما يقال داخل جدران جمجمتي. لكنني علمت، في وقت لاحق فقط، حين بدأت التحري والبحث، أنه تحت موجات البث السطحية ـ وهي المادة الرئيسية التي التقطتها أصلاً ـ كانت تزول معالم اللغة ليحل محلها صيغ ـ تفكير مفهومة عالمياً، صيغ تتجاوز الكلام وتسمو عليه. . . لكن ذلك كان بعد أن سمعت، بتأثير الحمى المسعورة للغات العديدة في رأسي، تلك الإشارات النفيسة الأخرى، المغايرة لكل شيء آخر، والتي كان معظمها ضعيفاً بعيداً كدقات طبول بعيدة والتي تحولت أخيراً إلى ما يشبه جلبة متنافرة النغمات من أصوات سوق السمك. تلك النداءات الليلية الخفية كانت أشبه بصراخ. . . أشبه بمنارات لا شعورية لأطفال منتصف الليل، تطلق إشارات لا تدل على أكثر من وجودها، تبث ببساطة: «أنا هنا من مكان بعيد في الشمال، أنا هنا». ومن الجنوب الشرق الغرب «أنا هنا أنا هنا أنا هنا». لكن ينبغي ألا أستبق الأحداث. ففي البداية، وقبل أن أنفذ إلى ما هو أكثر من التخاطر، كنت أرضي نفسي بالإصغاء، وسرعان ما صار باستطاعتي أن «أولّف» أذني الداخلية على تلك الأصوات التي كنت أستطيع فهمها، ولم يمضِ طويل وقت حتى تمكنت من أن ألتقط، بين زحمة الأصوات كلها، أصوات أفراد عائلتي وكذلك صوت ماري بيريرا وأصوات أصدقائي، زملائي ومعلمي مدرستي. وفي الشارع تعلمت كيف أتعرف إلى التيارات الذهنية للمارة الغرباء ـ فقوانين دوبلر في انتقال الأصوات وحركتها ظلت تنطبق على تلك العوالم نظيرة العادية، إذ كانت تشتد الأصوات وتضعف طبقاً لمرور أولئك الغرباء بقربي أو ابتعادهم عني.

وبشكل من الأشكال، احتفظت بذلك كله سراً في نفسي. فقد قررت (يذكرني بذلك يومياً طنين أذني اليسرى المشؤومة) قررت، خشية غضب والدي، ولهفة على إبقاء أذني اليمنى في حالة سليمة، أن أبقي شفتي

مطبقتين. لكن بالنسبة إلى غلام في التاسعة من العمر، فإن إخفاء ما يعرفه أمر متعذر بالغ الصعوبة. لكن لحسن الحظ أن أعز وأقرب الناس إلي كانوا راغبين في أن ينسوا تفجر طاقتي بقدر ما كنت أنا نفسي راغباً في إخفاء الحقيقة.

«آه منك يا سليم! أية أشياء قلتها بالأمس! اخجل من نفسك يا ولد: بل الأفضل أن تذهب فتغسل فمك بالصابون!». . كان ذلك في الصباح الذي أعقب يوم خزيي، وكانت تلك ماري بيريرا، تهزني بشيء من السخط وكأنني كتلة من كتلها الهلامية، مقترحة علي الوسيلة الكاملة لتطهير نفسي. وهكذا، حانياً رأسي بخضوع كامل، ودون أن أنبس ببنت شفة، مضيت إلى الحمام، وهناك، تحت نظرات المربية والقردة المندهشة، دلكت أسناني، لساني، سقف حلقي، لثتي بفرشاة أسنان عليها طبقة لاذعة الطعم من صابون قطران الفحم. وبسرعة هائلة انتشر نبأ تكفيري العجيب عن خطأي في أرجاء المنزل، إذ نقلته ماري والقردة، فاحتضنتني أمي قائلة: «لا عليك، يا بني الطيب، فنحن لن نأتي على ذكر ذلك». كذلك هز أحمد سيناء رأسه مقطب الجبين وهو على مائدة الإفطار ثم قال: «على الأقل، الولد يعرف حين يتجاوز الحد».

ومع اندمال جروحي التي تركها بلور الطاولة وزوال آثارها بدأ وكأن إعلاني قد زالت آثاره هو الآخر، وهكذا لم يأت عيد ميلادي التاسع حتى كان الجميع، باستثنائي أنا نفسي، قد نسوا كل ما يتعلق بذلك اليوم الذي تطرقت فيه للملائكة عبثاً. لكن ظل طعم المنظف عالقاً على لساني أسابيع طويلة، يذكرني دائماً بضرورة الكتمان.

حتى القردة النحاسية كانت راضية بما أبدو عليه من خضوع وطاعة ـ ففي رأيها، كنت قد عدت إلى جادة الصواب، رجعت مرة أخرى ابن العائلة الصالح المطيع. ولكي تبرهن عن رغبتها في إعادة النظام القديم، أشعلت النار في خف أمي المفضل واحتفظت بمكانها المناسب في بيت الكلاب في الحديقة. لكن العجيب في الأمر أنها ـ هي المتكشفة عن نزعة للمحافظة يندر أن تراها لدى فتاة صخابة ذات ميول صبيانية مثلها ـ كانت قريبة الشبه

بوالدي، وقد احتفظت بسر الخطيئة التي أخطأتها فلم تبح به لأحد من أصدقائها أو أصدقائي.

ففي بلاد يعد أي شيء خاص بالطفل جسدياً كان أم عقلياً، مصدراً من مصادر العار والوصمة للعائلة، كان والداي اللذان باتا معتادين على علامات الولادة الوجهية وعلى الأنف الأشبه بالخيارة والسيقان المتقوسة، يرفضان أن أتكشف لهما عن أشياء مزعجة أخرى، ومن جهتي أنا، فإنني لم أذكر مرة واحدة أصوات الطنين في أذني، ورنين أجراس الصمم الذي كنت أسمعه بين الفينة والفينة، ولا الألم الذي كان ينتابني من حين إلى آخر. فقد تعلمت أن كتمان السر ليس دائماً بالأمر السيئ.

لكن، تخيل التشويش الذي كان داخل رأسي! حين كان يكمن، خلف الوجه القبيح، وفوق اللسان المشبع بطعم الصابون، ذهن ليس رقيقاً جداً، يعاني سمعه من طبلة أذن مثقوبة ويمتلئ بما هب ودب كجيوب طفل في التاسعة من عمره. تخيل نفسك بشكل من الأشكال داخل رأسي، تنظر إلى العالم بعيني وتسمع الضجة والأصوات بأذني، وفوق ذلك كله يترتب عليك ألا تدع الناس يعرفون، فإن أصعب دور هو أن تمثل الاندهاش والمفاجأة، مثلما كانت الحال حين قالت أمي ذات مرة «هيه سليم! احزر ماذا سنفعل في نزهة إلى مستعمرة آري ميلك» واتخاذي أنا موقف المفاجأة حين قلت: «آو. . . وه! رائع!». إذ كنت قد عرفت كل شيء عن النزهة نظراً لأنني كنت قد سمعت صوتها الداخلي الذي لم يتكلم. وفي عيد ميلادي كنت قد رأيت كل الهدايا في أذهان أصحابها قبل أن تشتري وحتى قبل أن تلف، كما كنت قد كشفت سر صندوق الخزنة، ذلك انه كان هناك في رأس والدي، مكان كل رقم منه، كل رمز، وكنت أرى شيئاً أكثر صعوبة أيضاً كتلك التي كانت تجري في مكتب والدي في طابقه الأرضي. ففي اللحظة التي أكون فيها هناك أجد رأسي مليئاً بما لا يعرفه إلا الله، ذلك أن والدي يفكر بسكرتيرته، أليس أو فرناندا، بآخر فتاة من فتياته الكوكاكولا، يعريها في ذهنه شيئاً فشيئاً، فأراها في ذهني أيضاً، وهي تجلس عارية تماماً على كرسي من القصب. ثم تنهض، وعلامات متقاطعة تغطي كفلها كله، إن والدي يفكر، والدي الآن

يتطلع إلي بصورة ساخرة تماماً «ما بك يا ولد؟ لست على ما يرام؟»، «بلى. أنا بخير يا أبي»، «يجب أن تذهب الآن». وتنهض، ثم تبتعد، «فعليك أن تعمل الوظيفة يا أبي»، بعدئذٍ تخرج وتجري مبتعداً قبل أن يرى الدليل على وجهك (إذ كان والدي يقول دائماً إنني حين أستلقي يومض نور أحمر على جبهتي)... إذاً أنت ترى كم هو الأمر شاق! خالي حنيف يأتي كي يأخذني إلى المصارعة، لكن قبل أن نصل ملعب فالابهباني باتيل في شارع هورنبي فيلارد أشعر بالأسى ونحن نمشي مع الحشود المزدحمة مارين بالصور الضخمة لدار سينغ وتاغرابابا وسواهما. كما أشعر بحزنه، حزن خالي الحبيب، يتسرب إلى داخلي، حزنه ذاك الذي يعيش، كما تعيش السحلاة، مختفياً تحت سياج مرحه الظاهري، تحت ضحكاته المدوية التي تشبه ضحكة النوتي تاي، ثم نجلس في مقاعد ممتازة بينما تتراقص الأنوار الباهرة على ظهري المتصارعين المتشابكين. وأشعر بقبضة حزن خالي التي لا فكاك لها تشد على خناقي، ذلك الحزن النابع من فشل حياته السينمائية، المرة تلو الأخرى، فهو قد لا يحصل على فرصة لإخراج فيلم مرة أخرى، لكن علي ألا أدع الحزن يتسرب من عيني. إنه يدخل إلى تفكيري، «هيه.. هيه أيها المصارع الصغير، لماذا تطأطئ رأسك. إنها تبدو أطول من فيلم سيئ. أتريد حمصاً؟ فلافل؟ ماذا تريد؟ فأهز له رأسي: لا، لا شيء، خالي حنيف. وهكذا ترتاح أعصابه، يسترخي، يلتفت بعيداً ويبدأ الصراخ: «أوه! هيا! دارا، ها هي ذي الفرصة. أقذف به إلى الجحيم، دارا، هيا!». وحين أعود إلى المنزل أجد أمي تجلس القرفصاء في الممر على جانب حوض المثلجات، فتقول لي بصوتها الخارجي الحقيقي: «ينبغي أن تساعدني في إعدادها يا ولدي، نكهتك الفستقية المفضلة» فأدير المقبض، لكن صوتها الداخلي يثب داقاً جوانب رأسي الداخلية، بإمكاني أن أرى كيف تحاول ملء كل واحدة من تلافيفها الدماغية بأمور الحياة اليومية، سعر البومفريت، جدول الأعمال المنزلية، ضرورة الاتصال بالكهربائي لإصلاح مروحة السقف في حجرة الطعام. كما أرى كيف تحاول يائسة أن تركز على أعضاء جسم زوجها عسى أن تحبها، بيد أن الكلمة المحرم ذكرها لا يزال لها مكانها، المقطعان

اللذان تسربا من فمها في الحمام ذلك اليوم «نادر، نادر، نادر»، ويغدو من الصعب عليها أكثر وأكثر أن تقفل الهاتف حين تأتي رنة «الرقم الخاطئ»، وإنني أقول لك يا أمي إنه حين تدخل أفكار الكبار إلى ذهن صبي يمكنها أن تشوشه تشويشاً حقيقياً، إذ حتى في الليل، لم أكن أجد راحة، فأستيقظ على دقة منتصف الليل لأجد أحلام ماري بيريرا داخل رأسي، ليلة بعد ليلة ودائماً في ساعة ـ سحري الشخصية التي كانت دائماً ذات معنى بالنسبة إليهما، فأحلامها مبتلاة بصورة الرجل الذي قضى منذ سنوات، صورة يوسف ديكوستا، الحلم يخبرني بالاسم. إنه مغلف بإثم لا أدرك كنهه، الإثم نفسه الذي يسري فينا جميعاً كل مرة نأكل فيها صلصته. ثمة سر هنا نظراً لأن السر ليس في القسم الأمامي من ذهنها فإنني لا أستطيع تبينه. في تلك الأثناء كان يوسف يأتي إليها كل ليلة، أحياناً بشكله لكننا (هي ـ الحالة وأنا ـ الناظر إلى داخل ذهنها) كنا نعلم أنه هو الذي يأتي، متهماً حاقداً لا يعرف الصفح، صاباً اللعنات عليها بلغة الشكل الذي يتجسد فيه فهو يعوي في وجهها حين يكون بهيئة الذئب ويغطيها بآثار دبقة حين يأتي بهيئة الحلزون، ويضربها بعصا المكنسة، حين يأتي بهذه الهيئة... وفي الصباح حين تأمرني بأن أغتسل وأنظف نفسي استعداداً للمدرسة أجدني أضغط على نفسي كي أحول دون خروج الأسئلة من شفتي، فأنا ابن التاسعة من العمر، ضائع في زحمة شؤون الآخرين وحيواتهم التي تندغم معاً في شدة الحر.

ولكي أنهي هذا الوصف للأيام الأولى من التحول في حياتي، لا بدّ لي من أن أضيف اعترافاً واحداً مؤلماً: فقد تهيأ لي أنني أستطيع تحسين رأي والديّ بي من خلال استخدام مقدرتي الجديدة لرفع سويتي في أعمالي المدرسية ـ أي باختصار، بدأت أغش في الصف، بمعنى أنني بت أولّف على الأصوات الداخلية لمعلمي صفي وكذلك على زملائي الأكثر ذكاء ومهارة، لألتقط المعلومات من أذهانهم، فاكتشفت أن القلة القليلة من أساتذتي يمكنهم أن يجروا اختباراً دون أن يكرروا الأجوبة المثالية في أذهانهم ـ كما علمت أيضاً، في المناسبات النادرة، تلك التي يكون فيها المعلم منشغل البال بأمور أخرى، كحياته الغرامية الخاصة أو مصاعبه المالية، أن

بالإمكان دائماً إيجاد الحلول لدى نابغة صفنا، سيروس العظيم، صاحب الذهن الاستثنائي المدهش الناضج قبل أوانه. وهكذا بدأت درجاتي المدرسية تتحسن تحسناً مثيراً للاستغراب ـ لكن ليس بصورة فاضحة، ذلك أنني أوليت عنايتي كلها لأن اجعل ما أكتبه مغايراً للنسخ الأصلية التي أنقل عنها، إذ حتى عندما كنت انقل بالتخاطر مقالة انكليزية كاملة عن سيروس، كنت أضيف بعض اللمسات والادخالات الخاصة بي، وهدفي أن أتفادى إثارة الشك، ولم يتحقق لي ذلك فحسب بل إنني نجوت من أن يكشفني أحد. فتحت أنظار إميل زاغالو المستفسرة الغاضبة كنت أبقى بريئاً كالملاك، وبوجود السيد تاندوم مدرس الانكليزية الحائر كثير التأمل الذي يهز رأسه دائماً كنت أقوم بأعمالي الخيانية بهدوء تام ـ وأنا أعلم أنهم لن يصدقوا الحقيقة حتى ولو قلتها لهم بنفسي، مصادفة أو نتيجة حماقة.

والآن دعني أجمل الأمر كله: في نقطة حرجة من تاريخ أمتنا الوليدة، وفي الوقت الذي كانت فيه الخطة الخمسية توضع والانتخابات تقترب والمشتركون في مسيرات اللغات يشتبكون ويتعاركون من أجل بومباي، كان هناك طفل في التاسعة من العمر يدعى سليم سيناء قد منح موهبة عجيبة. ورغم الفوائد الحيوية الكثيرة التي يمكن لبلده الفقير المتخلف أن يحصل عليها باستخدام إمكاناته، فقد اختار أن يخفي موهبته تلك، مبدداً إياها في مجالات التلصص العقيم وأعمال الغش التافهة. هذا السلوك ـ واعترف أنه سلوك بطل ـ كان نتيجة مباشرة لتشوش ذهنه ذلك الذي يخلط باستمرار بين الأخلاق ـ أي الرغبة في فعل ما هو صحيح ـ وبين الشهرة ـ أي الرغبة المريبة نوعاً ما في أن تفعل ما يرغب به الناس. وخشية أن ينبذه أبواه، فقد كتم عنهما خبر تحوله، وسعياً وراء مباركتهما فقد أساء استخدام موهبته في المدرسة. هذا العيب في شخصيته يمكن الصفح عنه جزئياً، بناء على ماضيه السابق لكن جزئياً فقط رغم ان التفكير المضطرب سيترك آثاره الشيطانية على جوانب كثيرة من حياته المسلكية.

ما الذي كان يقف على السطح المنبسط لحضانة أطفال بريتش كاندي، وأنت تتذكر ذلك السطح الذي لا يمكن الوصول إليه من حديقة فيلا

باكنغهام، وذلك ببساطة من خلال التسلق على الجدار الفاصل بينهما؟ ما الذي كان يراقبنا، هو الذي لم يعد قادراً على أداء الدور الذي أوكل إليه، في ذلك العام الذي نسي شتاؤه أن يكف برده عنا؟ ما الذي كان يرصد سوني ابراهيم، أيسلايس، هيرويل وأنا نفسي ونحن نلعب لعبة «الكبادي» والكريكيت الفرنسية والآجرات السبع بمشاركة سيروس العظيم أحياناً وبعض الأصدقاء الزائرين أحياناً أخرى: بيرس فيشوالا البدين مثلاً وغاندي كيث كولاكو؟ ما الذي كان يتواجد في المناسبات الكثيرة التي كانت ممرضة توكسي كاتراك تصرخ بنا من الطابق العلوي لمنزل هومي: «أيها الأطفال المزعجون! أيها الصخابون، يا من لا تصلحون لشيء! كفوا عن ضجيجكم!..» بحيث نهرب جميعاً ثم نعود (حين تكون قد غابت عن أنظارنا) لكي نكشر عن أسناننا ونحن نحدق النظر إلى النافذة التي كانت تقف فيها؟ باختصار، ما ذلك الطويل، الأزرق والمتقشر الذي كان يطل علينا والذي بدا لحين من الزمن وكأنه يضع علامات الزمن، ليس منتظراً الوقت القريب الذي سنلبس فيه البنطلونات الطويلة وحسب، بل ربما منتظراً أيضاً قدوم ايفي بيرنز؟ لكن لعلك تحب مفاتيح الألغاز فأقول متسائلاً: ما المكان الذي كانت تختفي القنابل فيه ذات مرة؟ في أي مكان لاقى يوسف ديكوستا مصرعه من لدغة أفعى؟... بعد بضعة أشهر من العذاب الداخلي، وجدت أخيراً ملاذاً لي من أصوات الكبار، وكان ذلك في برج ساعة قديم، لم يزعج أحد نفسه في إقفال بابه. هناك في عزلة الزمن الصدئ، خطوت، وعلى نحو يدعو للمفارقة، خطواتي التجريبية الأولى نحو الانشغال بالأحداث الخطيرة والحياة العامة لن يتاح لي بعدئذٍ أن أخلص منها أبداً حتى ظهور الأرملة...

فبعد حرماني من صناديق الغسيل، بدأت، كلما اتيح لي ذلك، أتسلل في غفلة من أعين المراقبين إلى برج الساعة المعطلة حين تكون حلقة السيرك فارغة بسبب الحر أو الحظ أو غياب العين المتجسسة، حين يكون أحمد وأمينة قد ذهبا إلى نادي ولينغتون لقضاء الأمسيات في لعب الكنستة (إحدى ألعاب ورق اللعب). وحين تكون القردة النحاسية في مكان بعيد تحوم حول

بطلاتها التي كسبتهن حديثاً، من فريق السباحة والغوص في مدرسة والشينغهام للبنات... أي بعبارة أخرى، حين كانت تسمح الظروف كنت أمضي إلى مخبئي السري، أتمدد على حصيرة القش التي سرقتها من جناح الخدم ثم أغمض عيني وأدع أذني الداخلية التي تيقظت مجدداً (أذني تلك المتصلة، ككل الآذان، بأنفي) تطوف بحرية تامة في شوارع المدينة ـ بل أبعد من ذلك، إلى الشمال والجنوب، الشرق والغرب ـ منصتة لكل أنواع الأشياء. ولكي أهرب من الضغوط التي لا تحتمل لاستراق السمع على أناس أعرفهم، كنت أمارس فني على الغرباء. وهكذا فإن دخولي ساحة القضايا العامة للهند حدث لأسباب وضيعة تماماً ـ فأنا الذي كانت تسبب لي الحميمية الزائدة كل الضيق، استخدمت العالم الواقع خارج رابيتنا للحصول على شيء من الراحة.

وهاكم العالم كما اكتشفته من برج الساعة المتداعي: في البداية، لم أكن اكثر من سائح، طفل يتلصص عبر الثقوب العجيبة لآلة ديلي ـ ديخو[1] خاصة. لقد دقت الطبول في أذني اليسرى (المعطوبة) مع حصولي على اللمحة الأولى لتاج محل عبر عيني سيدة انكليزية بدينة تعاني من الإسهال.

بعد ذاك ولكي اوازي بين الجنوب والشمال، قفزت إلى معبد ميناكشي في مادورا وعششت بين التصورات الصوفية الغامضة لكاهن يرتل الترانيم. ثم طفت بقصر كونون في دلهي الجديدة بزي سائق سيارة شاكياً مر الشكوى لزبوني غلاء أسعار البنزين، وفي كلكوتا نمت بالعراء في أحد أنابيب الصرف الصحي. حينذاك، كانت بعوضة الترحال قد لدغتني في كل مكان، فشددت الرحال إلى رأس كومورين وتحولت إلى صيادة سمك، ساريها مشدود على جسمها بقدر ما أخلاقها فضفاضة... وعلى الرمال الحمر التي تغتسل بأمواج البحار الثلاثة، وقفت أغازل رواد الشاطئ الدرافيدي بلغة لا أستطيع فهمها، بعدئذٍ صعدت جبال الهملايا إلى كوخ من أكواخ قبيلة غوجار، يغطيه الطحلب وربما يعود تاريخه لعهد النياندرتال ففتن ناظري قوس قزح دائري

(١) صندوق فرجة.

تماماً وما يتساقط من الركام والحجارة مع نهر كولاهوي الجليدي. وفي قلعة جيسالمار البراقة وفي خاجوراهو اتخذت هيئة مراهق ريفي فضايقني كل الضيق ما شاهدته من نقوش جنسية في معابد شاندلا المنتصبة في الحقول إنما كنت عاجزاً عن إبعاد عيني عنها... لقد استطعت أن أجد في مجالات الترحال وغرائبه، وسيلة للسلام. لكن أخيراً كفت السياحة عن أن تحمل الراحة إلي، بل بدأ حب الاستطلاع ينكد عيشي فقلت لنفسي: «دعنا نكتشف ما يجري هنا في الخفاء».

وهكذا، وثبت بكل ما يتميز به ابن التاسعة من نشاط وحيوية، إلى رؤوس أبطال السينما ولاعبي الكريكيت ـ فعلمت الحقيقة الكامنة خلف إشاعة «أجرة الفيلم» المتعلقة بالراقصة فيجايانتيمالا وكنت على خط الاتصال ببولي أمريغار في ستاد برابورن، كما تحولت إلى لاتامانجيشكار المطربة الشهيرة، وبوب المهرج الذي يعمل في السرك متنقلاً خارج المدينة... وكان لا بدّ لي، عبر العمليات العشوائية لوثباتي ـ الذهنية، من أن أكتشف السياسة.

فذات مرة أصبحت إقطاعياً في «أوتار براديش»، كرشي يندلق فوق بنطالي وأنا أوجه الأوامر إلى رقيق أرضي لكي يشعلوا النار في فائض حبوبي... وفي لحظة أخرى وجدت نفسي أموت جوعاً في أوريسا، حيث كان هنالك نقص في المواد الغذائية كالعادة، فقد تحولت إلى طفل في شهره الثاني جف ثدي أمه. كذلك شغلت لفترة وجيزة ذهن عامل من حزب غاندي ونهرو في حملة الانتخابات القادمة. كما شغلت ذهن فلاح كيرالي قرر أن يصوت لصالح الشيوعيين. بعدئذٍ تنامت جرأتي: ففي عصر يوم من الأيام غزوت عامداً متعمداً رأس رئيس وزراء ولايتنا، وبذلك اكتشفت، قبل عشرين سنة من تحول ذلك إلى نكتة على مستوى البلاد، أن المهراجا ديساي يتناول «ماءه الخاص» يومياً... لقد غصت إلى داخله، وشعرت بطعم السخونة وهو يجرع كوباً مزبداً من البول. أخيراً ضربت ضربتي الكبرى: أصبحت جواهر لال نهرو، رئيس الوزراء وكاتب الرسائل المؤطرة، فقد جلست مع الرجل العظيم بين حفنة من المنجمين شعث اللحى، درد الأفواه،

ثم عدلت الخطة الخمسية بصورة تتلاءم مع طوالع الأفلاك. . . وحياة الرفعة شيء مسكر. لذا بت أخاطب نفسي بشيء من النشوة والزهو «انظروا إلي! إن بوسعي أن أذهب حيثما أشاء». وفي ذلك البرج الذي كان يمتلئ ذات مرة حتى حافته بأدوات التفجير التي اخترعتها كراهية يوسف ديكوستا، كانت عبارة واحدة (تصحبها آثار تكتكة مناسبة) تملأ ذهني كله، إنها العبارة التالية: «أنا القنبلة في بومباي. . . انتظروا إلى أن أنفجر».

وبما أن الشعور الذي تملكني هو أنني كنت أخلق العالم بشكل من الأشكال، وأن الأفكار التي كنت ادخل إليها هي أفكاري والأجسام التي أحتلها تعمل بأمرتي وأن جميع القضايا الراهنة من فنون ورياضة ومختلف أنواع المواد التي تذيعها محطة إذاعية من الصنف الأول تنصب في داخلي، فقد بت أجعل هذه الأشياء تحدث بشكل من الأشكال. . . أي بعبارة أخرى، كنت أدخل إلى مخيلة الفنان وأفكر بالوقائع الكثيرة التي تعج بها الأرض باعتبارها المادة الطبيعية الخام لموهبتي.

فكنت أقول لنفسي مزهواً بالنصر: «يمكنني أن اكشف أي شيء خفي، وليس هنالك من شيء لا يمكنني معرفته».

الآن، وبما يمكنني أن ألقيه من ضوء على تلك السنين الضائعة المبددة، بوسعي القول إن روح تضخيم ـ الذات التي سيطرت علي حينذاك لم تكن إلا رد فعل، نتج عن غريزة حفظ ـ الذات. فلو لم أكن أؤمن أنني في موقع التحكم والسيطرة على الحشود المتدفقة، لكانت ذاتياتها الحاشدة قد قضت على ذاتيتي. . . لكن هناك في برج الساعة، يملؤني زهو فرحي: تحولت إلى إله القمر القديم، سين، (ليس الإله الهندي سين: بل إله استوردته من حضرموت القديمة) ذاك الإله القادر على التأثير من بعيد وتغيير المد والجزر في العالم.

غير أن الموت الذي زار إقطاعة ميثولد، كان لا يزال يعمل على اقتناصي على حين غرة.

ورغم أن تجميد ممتلكات أحمد سيناء كان قد انتهى منذ سنين، إلا أن المنطقة الواقعة تحت خصره كانت قد ظلت متجمدة كطبقة من صقيع. فمنذ

اليوم الذي صرخ فيه احمد: «أولاد الزنى، إنهم يضعون خصيتي في سطل ثلج» وأخذتهما أمينة بين يديها كي تدفئهما، هجع كل ما يتعلق بالجنس لدى أحمد، تحول الرجل إلى فيل كثير الوبر في جبل جليدي، كذاك الذي اكتشفوه في روسيا عام ١٩٥٦. أما أمينة التي تزوجت حباً بالأطفال، فقد باتت تشعر بتلك الكائنات تقتل في أحشائها، تتفسخ وتتفسخ، فتنحو باللائمة على نفسها لأنها لم تعد تجذبه، بسبب ثآليلها ومسامير أقدامها. وذات يوم بحثت مع ماري بيريرا حالتها البائسة، لكن المربية اكتفت بالقول إن ما من سعادة يمكن الحصول عليها من «الرجال»، كانت المرأتان تصنعان المخللات. معاً ومع الحديث كانت أمينة تحرك خيبات أملها في الصلصة الليمونية الحارة التي لم تخفق يوماً في إغراق العيون بالدموع.

ورغم أن الساعات التي كان يقضيها أحمد سيناء في مكتبه كانت ملأى بخيالات السكرتيرات وهن يتلقين ما يمليه عليهن عاريات، ملأى بـ «فرناداته» و«بوبياته»، وهن يتمشين في الحجرة ببدلات أعياد ميلادهن وآثار قصب الكراسي المتقاطع على أردافهن إلا أن جهازه كان يأبى أن يستجيب. وذات يوم، حين كانت فرناندا أو بوبي الحقيقية قد ذهبت إلى منزلها، وكان هو يلعب الشطرنج مع الدكتور نارليكار، وقد أرخى الشراب لسانه (كما فعل بلعبه أيضاً)، أسر صاحبه بشيء من الضيق «نارليكار، يبدو أنني فقدت الاهتمام بذاك ـ الذي ـ تعلمه».

وفي الحال شعت ومضة سرور من مقلتي الطبيب النسائي المتألق، تواثب منهما مباشرة هوس تحديد النسل القابع في أعماقه فنتج الحديث التالي: «مرحى» صرخ الدكتور نارليكار «مرحى أخ سيناء، عرض رائع تماماً! فأنت ـ وربما أنا نفسي ـ أجل، أنت وأنا يا سيناء بيك، شخصان لهما قيمة روحية نادرة، ليس لأن همنا ـ وبالمناسبة أسألك: أليس رائعاً أن نتجنب الإنجاب؟ ـ أقول ليس لأن همنا هو أننا نتحاشى إضافة روح بشرية يائسة أخرى إلى تلك الحشود الهائلة التي تفقر بلادنا حالياً ـ بل لأننا نوجه طاقاتنا لمهمة إعطائهم مزيداً من الأرض يقفون عليها. وإنني أقول لك يا صديقي: أنت وأنا ورباعيات القوائم التابعة لنا سنعمل معاً لاستخراج التربة من أعماق

المحيط». ولكي يؤكد قدسية هذه المقولة، فقد صب أحمد سيناء الشراب وشرب هو والدكتور نارليكار نخب حلمهما بكتل الاسمنت ذات القوائم الأربع.

«أرض، نعم! حب، لا!!» قال الدكتور نارليكار وهو مضطرب قليلاً، فعاد والدي يملأ كأسه.

في الأيام الأخيرة من عام ١٩٥٦، كان حلم استصلاح الأرض على حساب البحر وبمساعدة الآلاف من رباعيات الأرجل الاسمنتية الكبيرة ـ ذلك الحلم الذي كان سبب تجميد أمواله ـ والذي غدا الآن، في عين والدي، ضرباً من التعويض، بديلاً عن النشاط الجنسي الذي حرم منه بعد التجميد ـ كان ذلك الحلم يبدو فعلاً وكأنه على وشك أن يؤتي أكله. لكن هذه المرة، كان احمد سيناء سينفق ماله بحذر، هذه المرة ظل مختفياً في الظل، اسمه لم يظهر على أية مستندات. هذه المرة كان قد اتعظ من عبرة التجميد فقرر ألا يلفت من الانتباه إلا أقل قدر ممكن، وهكذا حين خانه الدكتور نارليكار بموته فجأة دون أن يخلف وراءه أية وثيقة تثبت علاقة والدي بمخطط رباعيات الأرجل، وجد احمد سيناء (الذي يميل بالفطرة، كما رأينا، لأن يستسلم في وجه المصائب) وجد نفسه وقد ابتلعته هوة انهيار متلوية طويلة لم يخرج منها حتى آخر أيامه، حين وقع أخيراً في غرام زوجته.

وتلكم هي القصة التي تعود لأيام إقطاعة ميثولد: فقد كان الدكتور نارليكار يزور بعض الأصدقاء قرب ممر البحرية، وحين أنهى زيارته، قرر أن يتمشى على طريق تشوباتي بيتش وأن يشتري بعض المواد الغذائية وحليب جوز الهند. وبينما كان يتمشى برشاقته المعهودة على طول الرصيف المحاذي لسور البحر، لحق بطرف مسيرة من مسيرات اللغات تلك، مسيرة كانت تتحرك ببطء وتهتف هتافات سلمية. اقترب الدكتور نارليكار من المكان الذي كان قد رتب، بإذن من سلطات البلدية، أن يضع فيه رباعية أرجل رمزية على سور البحر، وذلك بوصفها نوعاً من الأيقونة التي تدل على طريق المستقبل، وللتو لاحظ شيئاً جعله يفقد صوابه. إذ كانت زمرة من المتسولات قد تجمعن حول رباعية الأرجل، يؤدين طقس البوجا (البوجا: أحد طقوس

الديانة الهندوسية) فقد أشعلن مصابيح وقود في القاعدة، كما كانت إحداهن قد رسمت رموز تعويذة هندوسية على طرفها المنتصب، وكن يرتلن الصلوات وهن يقمن بغسل رباعية القوائم غسلاً متعبداً شاملاً. المعجزة التكنولوجية كانت قد تحولت إلى رمز الإله شيفا، الأمر الذي دفع بالدكتور نارليكار، عدو الخصب اللدود، إلى الجنون إذ خيل إليه أن القوى التناسلية الحيوانية الجاهلة التي تتصف بها الهند القديمة الكثيرة الإنجاب قد أطلقت من عقالها لتنقض على جمال اسمنت القرن العشرين العاقر... وهكذا اندفع مسرعاً ثم بدأ يسب النساء المتعبدات ويشتمهن، مستعر الغضب، وحين بلغهن، رفس مصابيحهن محطماً إياها، بل يقال إنه حاول أن يدفع النسوة وحينذاك وقعت عليه أعين المشتركين في المسيرة.

كذلك سمعت آذانهم سلاطة لسانه، فتوقفت أقدام المشاركين في المسيرة وارتفعت همهمات التوبيخ من حناجرهم. ثم اهتزت قبضات الأيدي وانطلقت الشتائم. عندها التفت الدكتور الطبيب الذي كان الغضب قد أعماه، التفت إلى الجمهور، محقراً قضيته، لاعناً تربيته شاتماً أخواته، ثم خيم سكون طغى على كل شيء. بعد ذلك قاد السكون خطا المسيرة باتجاه الطبيب النسائي المتألق، الذي كان يقف بين رباعية القوائم والنساء المولولات. وبصمت كامل امتدت أيدي المسيرة إلى نارليكار الذي تعلق، دونما صوت، بالاسمنت رباعي القوائم وهم يحاولون سحبه باتجاههم. وبالصمت المطبق نفسه، شحن الخوف الدكتور نارليكار بقوة البطلينوس إذا التصق بشيء، فقد التصقت ذراعاه برباعية القوائم بحيث تعذر فصلهما عنها. وهكذا أطبق المتظاهرون على رباعية القوائم... وبصمت كامل بدأوا يهزهزونها، ودون أن ينبسوا بحرف تمكنت قوتهم وكثرة عددهم، من التغلب على وزنها. وفي مساء ساده هدوء شيطاني، بدأت رباعية القوائم تميل وتميل متهيئة لأن تغدو الأولى من نوعها التي تدخل المياه وتبدأ المشروع العظيم، مشروع استصلاح الأرض. وبفيه المفتوح على آه مكتومة، كان الدكتور نارليكار يتعلق بها مثل رخوي فوسفوري... ثم هوى من قلب الصمت رجل ورباعية قوائم بدد بعدها رشاش المياه أثر السحر.

ويقال إنه حين سقط الدكتور نارليكار في الماء وسحقه، حتى الموت، ثقل هاجسه المحبوب، لم يزعج أحد نفسه في تحديد مكان الجثة نظراً لأنها كانت ترسل وهجاً من أعماق المياه إلى السطح وكأنها جذوة نار.

«أتدري ما حدث؟» «هيه، يا رجل، قل ما حدث» ـ وكان أطفال، من بينهم أنا نفسي، قد تجمعوا حول سياج حديقة ايسكوريال حيث كانت شقة الدكتور نارليكار الأعزب، فيما كان خادم من خدم ليلى سبرماتي، وقد اتخذ هيئة الرفعة والجد، يخبرنا: «لقد جاؤوا به ميتاً إلى المنزل، ملفوفاً بالحرير».

لم يسمحوا لي برؤية جثة الطبيب التي كانت ممددة على سريره المفرد القاسي مكللة بأزهار الزعفران، لكنني تمكنت من معرفة كل شيء عنها بشكل من الأشكال، ذلك أن أخباره كانت قد انتشرت أبعد بكثير من حدود الحجرة التي كان ممدداً فيها. لقد سمعت عنها من خدم الإقطاعة الذين وجدوا أنه أمر طبيعي تماماً أن يتكلموا بصراحة عن الموت، إنما نادراً ما كانوا يتكلمون عن الحياة، ذلك ان كل شيء في الحياة واضح. وهكذا علمت من خادم نارليكار الخاص، أن الجثة، وقد ابتلعت كمية كبيرة من البحر، اتخذت صفات الماء: إذ باتت رجراجة مائعة كما كانت تبدو أحياناً سعيدة وأحياناً حزينة وأحياناً أخرى لا هذه ولا تلك، وذلك طبقاً للحالة التي تتلقى فيها الضوء لكن جنائني هومي كاتراك تدخل مقطعاً من الخطر الشديد أن تتطلع طويلاً إلى ميت، إذ إنك ستمضي عنه وفي داخلك شيء منه. ستكون هناك آثار. فسألنا نحن الأولاد، «آثار؟ آثار ماذا؟ أية آثار؟ كيف، فقال بوروشوتام، الناسك الذي غادر مكانه تحت صنبور الحديقة في فيلا بكنغهام للمرة الأولى منذ سنين: «الموت يجعل الإحياء يرون أنفسهم بوضوح تام، وبعد أن يكونوا في حضرته من التضخم». والحقيقة أن هذا الزعم غير المألوف أيدته الأحداث، ذلك أن ممرضة توكسي كاتراك التي ساعدت في غسل الجثمان وتنظيفه، أضحت بعدئذٍ أكثر حدة وسلاطة وإرعاباً، كما بدا أن كل من رأى جثة الدكتور نارليكار، وهي مسجاة في نعشها، قد تأثر. نوسي البطة غدت أشد تفاهة وأقرب إلى البطة، ليلى سبرماتي التي كانت تقطن في الطابق العلوي

من مكان الجثة والتي ساعدت في ترتيب حجرتها، أسلمت نفسها بعد ذلك إلى علاقات جنسية غير شرعية كان الاستعداد لإقامة مثلها يكمن دائماً في قرارة نفسها وسارت في طريق يوجد في نهايته رصاص وزوجها القائد سبرماتي وهو يرشد حركة المرور في كولابا بهراوة شرطي تعد من أغرب الهراوات...

غير أن أسرتنا بقيت بعيدة عن الجثة، فقد رفض والدي أن يذهب أو يقدم لها فروض الاحترام الواجبة، كما انه منذ ذلك الحين لن يذكر صديقه المتوفى بالاسم بل سيكتفي بتسميته «ذلك الخائن».

بعد يومين اثنين، وحين نقلت الصحف خبر موته، ظهر فجأة للدكتور نارليكار أقارب لا عد لهم ولا حصر وكلهم من النساء. فهو الذي عاش عازباً معادياً لإنجاب الأطفال طوال حياته، ابتلعه، لدى موته، بحر من النساء العملاقات الصاخبات كليات القدرة جئن زاحفات إليه من أركان المدينة الأربعة، من أعمال الحلب في مزارع أبقار أمول ومن شبابيك قطع التذاكر في دور السينما، من أكشاك البيع في الشوارع ومن زيجات تعيسة بائسة، حتى لقد شكلت نساء نارليكار، يوم الجنازة، موكباً خاصاً بهن فكان جدولاً هائلاً من أنوثة فائقة الحجم تدفق على رابيتنا ذات ارتفاع الدورين ليملأ شقة الدكتور نارليكار إلى درجة كان بإمكانك معها أن ترى وأنت على الطريق في الأسفل مرافقهن تبرز من النوافذ ومؤخراتهن تفيض على الشرفات. ولأسبوع كامل لم يعرف الرقاد سبيله إلى أحد نظراً لأن عويل نساء نارليكار كان يملأ كل مكان، لكن تحت ستار عويلهن طفقن يبرهن على أنهن كفؤات بالقدر الذي ظهرن عليه. فقد تولين إدارة «دار الرعاية» كما تحرين جميع الصفقات التجارية التي عقدها نارليكار، وأخرجن والدي من قضية رباعيات القوائم بكل هدوء وبرودة أعصاب. لقد وجد والدي نفسه، بعد تلك السنوات جميعها، وليس له سوى ثقب في جيبه، بينما أخذت جثة نارليكار إلى بينارز كي يحرقنها هناك، وهمس خدم الإقطاعة في أذني أنهم سمعوا كيف أذري رماد الدكتور على نهر الغانج المقدس في مانيكارنيكاغات عند الغسق، فلم يغرق بل طفا على وجه الماء كحباحب صغيرة متألقة،

جرفها التيار إلى البحر حيث انتشر ألقها الغريب الذي أخاف، ولا بد، ربابنة السفن.

أما احمد سيناء: فأقسم أغلظ الأيمان إنه بعد وفاة نارليكار وقدوم النسوة بدأ يذوي ويذوي... لقد شحبت بشرته تدريجياً ثم فقد شعره لونه، ولم تمر بضعة أشهر حتى غدا كل شيء فيه أبيض باستثناء سواد عينيه. (وقد قالت ماري بيريرا لأمينة: «ذلك الرجل برد دمه إلى درجة باتت معها بشرته تصنع جليداً، جليداً أبيض كذاك الذي تصنعه الثلاجة). وينبغي أن أقول، بكل أمانة: إنه رغم ادعائه الانزعاج لتحوله إلى رجل مبيض ورغم مراجعته الأطباء بشأن ذلك، فقد كان يسر في قرارة نفسه حين يخفقون في معرفة العلة أو وصف الدواء، ذلك أنه كان منذ زمن طويل يحسد الأوروبيين على لون جلودهم. وذات يوم، حين سمحوا له بالتنكيت مرة ثانية، (وقد حدث ذلك بعد وفاة نارليكار بفترة من الزمن) أخبر ليلى سبرماتي وقت الكوكتيل: «أفضل الناس جميعاً من كانوا بيضاً تحت جلودهم، وكل ما فعلته أنني أقلعت عن الادعاء». فضحك جيرانه الذين كانوا جميعاً أغمق لوناً منه، ضحكوا بأدب جم وهم يشعرون بنوع غريب من الخجل.

على أن الدليل الظرفي يبين أن الصدمة التي تلقاها بوفاة نارليكار هي المسؤولة عن إعطائي والداً أبيض كالثلج ليكون مع أمي الأبنوسية على طرفي نقيض لكنني سأغامر (رغم أنني لا أعرف مدى استعدادكم لاستيعاب ذلك) بتقديم تفسير بديل، نظرية طورتها وأنا في وحدتي المطلقة في برجي... ذلك أنني، خلال تنقلاتي النفسانية الكثيرة، اكتشفت أمراً غريباً تماماً: فخلال السنوات التسع التي أعقبت الاستقلال، أصاب عدداً كبيراً من رجال الأعمال في البلاد اضطرابات لونية مشابهة (يمكن اعتبار ضحيتها الأولى الراني كوش ناهين). ففي جميع أرجاء الهند، كنت ألتقي برجال أعمال من الهنود الطيبين، ممن ازدهرت ثرواتهم بفضل الخطة الخمسية الأولى التي ركزت كل التركيز على إقامة دعائم التجارة... رجال أعمال أصبحوا أو كانوا في طريقهم لأن يصبحوا في غاية الشحوب فعلاً! إذ يبدو أن الجهود الهائلة (بل حتى البطولية) التي بذلوها كي يتسلموا زمام الأمور من البريطانيين ويصبحوا

سادة أقدارهم قد امتصت كل لون من وجناتهم... وهي حالة واسعة الانتشار، ربما كان والدي آخر ضحاياها. مع ذلك، كان القليل من الناس من لاحظ تلك الظاهرة، ظاهرة تحول رجال الأعمال في الهند إلى اللون الأبيض.

وبالمناسبة: في يوم من أيام نهاية ١٩٥٦، وعلى نحو مقبول تماماً، قضى المغني الديوث وي ويلي وينكي نحبه أيضاً.

حب في بومباي

في شهر رمضان كنا نذهب إلى السينما أكبر قدر ممكن. ففي الساعة الخامسة صباحاً توقظنا أمي وهي تهزنا بيد لا تكل ولا تمل وبعد أن نتناول سحورنا من البطيخ وشراب الليمون المحلى، كنا، خاصة في صباحات أيام الآحاد، نأخذ على نفسينا أنا والقردة النحاسية، بصورة دورية أحياناً (وأحياناً بصوت واحد معاً) أن نقول لأمينة من باب التذكير «عرض العاشرة والنصف صباحاً! إنه يوم الصغار في سينما ميترو، يا ماما إن تكرمت!». بعد ذلك تسوق بنا السيارة إلى السينما حيث لا يمكننا أن نذوق طعم الكوكاكولا ولا رقائق البطاطا، لا البوظة ولا الفطائر الملفوفة بالورق الدهني، لكن على الأقل كنا نحظى بالتكييف الهوائي كما كان شعار السينما يعلق على ملابسنا، وكانت تحدث منافسات وإعلانات عن أعياد ميلاد يقوم بها شريك متواطئ ذو شارب غير ملائم، ثم يأتي الفيلم أخيراً بعد تقديم صور من عروض قادمة ورسوم متحركة بعناوين تمهيدية مثل «العرض القادم»، أو «قريباً جداً، أو حالاً» الفيلم الكبير، إنما الأول. «كنتين ديروارد» أو ربما «سكاراموش». فيقول بعضنا للبعض الآخر في ما بعد، وهو يقوم بدور الناقد السينمائي «في الفيلم كثير من التبجح» أو «الفتاة لعوب فاسقة» رغم أننا لم نكن نفقه معنى التبجح أو الفسق. في أسرتنا لم تكن تقام الكثير من الصلوات (ما عدا أيام الفطر حين كان والدي يأخذني إلى المسجد لأداء صلاة العيد فأحتفل بالعطلة بعقد منديل حول عنقي والسجود على الأرض)... لكننا كنا نود دائماً أن يأتي شهر الصوم لأننا نحب السينما.

كنا أنا وايفي متفقين: فأعظم نجوم السينما في العالم هو روبرت تايلور، كذلك كنت معجباً بالممثل جي سيلفر هيلز في دور تونتر أما كلايتون مور الذي كانت معجبة به في دور كيموس هاي فقد كنت أراه أكثر بدانة من أن يناسب جوالاً وحيداً.

وايفلين ليليث بيرنز هذه فتاة أمريكية قدمت في عيد رأس السنة من عام ١٩٥٧ كي تقيم لدى والدها الأرمل في شقة تقع في أحد المبنيين الاسمنتيين القبيحين اللذين قاما وكبرا عند الأطراف الدنيا لرابيتنا دون أن يلحظهما أحد تقريباً، واللذين كانا منفصلين انفصالاً غريباً: ففي فيلا نور كان يقطن فيها محدثو نعمة هنود. ومن أعالي إقطاعة ميثولد كنا نطل عليهم جميعاً، البيض والسمر على السواء، لكن ما من أحد استطاع الإطلال على ايفي بيرنز ـ ما خلا مرة واحدة فقط استطاع واحد منا أن يطل عليها من علٍ.

لقد وقعت في غرام ايفي وأنا لم أرتدِ بنطلوناً طويلاً بعد، وكان الحب شيئاً غريباً ذا ردود فعل متسلسلة ذلك العام. ولتوفير الوقت سأعمد لوصفنا جميعاً في صف المقاعد نفسه في سينما ميترو حيث ينعكس روبرت تايلور في أعيننا ونحن نجلس بنوع من الحذر الراعش ـ وسيكون الوصف وفق تسلسل رمزي:

سليم سيناء يجلس إلى جانب من وقع في غرامها: إيفي بيرنز التي تجلس إلى جانب من وقعت في غرامه: سوني ابراهيم، وهذا يجلس إلى جانب من وقع في غرامها: القردة النحاسية التي تجلس على طرف الممر وتشعر بأنها تكاد تموت جوعاً... لقد أحببت ايفي ربما لستة أشهر في حياتي، لكنها بعد سنتين أعيدت إلى أمريكا حيث طعنت بالسكين امرأة عجوزاً فأرسلت إلى مدرسة إصلاحية. هنا أجد على وجهي أمارات الامتنان والشكر إذ لو لم تعش ايفي بيننا، فربما لم تكن قصتي ستتجاوز حدود التطواف والسياحة في برج الساعة والغش في الصف.. ومن ثم لم يكن سيحدث تصعيد حتى الذروة في نزل الأرملة، ولا برهان واضح على المعنى من وجودي ولم تكن ستأتي الخاتمة في مصنع متصاعد الدخان يشرف عليه من علٍ التمثال الأبيض المتراقص والملون بالزعفران والأخضر لإلهة النيون

مومبا ديفي. لكن ايفي بيرنز (ترى هل كانت أفعى أم سلماً؟ الجواب واضح: كانت كلاهما معاً). ايفي جاءت، كاملة مكملة مع الدراجة الفضية التي لم تتح لي الفرصة لأن أكتشف أطفال منتصف الليل وحسب بل أتاحت لي الفرصة لأن أضمن أيضاً تقسيم ولاية بومباي.

لكن لنبدأ من البداية: كان شعرها مصنوعاً من قش الفزاعة، جلدها مرشوشاً بالنمش وأسنانها مؤطرة في قفص معدني. وقد كانت تلك الأسنان على ما يبدو الشيء الوحيد في الأرض التي لا تملك أية ـ سيطرة عليها ـ إذ نمت نمواً شديداً وبطريقة جعلتها تبرز خارج الشفتين وتخزها وخزاً مخيفاً حين تأكل المرطبات (هنا أسمح لنفسي بهذا التعميم «لقد سيطر الأمريكيون على الكون غير أنهم لم يستطيعوا السيطرة على أفواههم، في حين أن الهند ضعيفة غير انه يغلب على أطفالنا أن يكون لهم أسنان رائعة).

وكانت ايفي، المعذبة بآلام الأسنان، قد سمت فوق الألم. كما كانت، برفضها أن تخضع لتحكم العظام واللثات، تأكل الكعك وتشرب الكولا في أي وقت تصادفهما دون أن تتذمر، فتاة شديدة المراس، ايفي بيرنز: إنها بسيطرتها على المعاناة أكدت سيطرتها علينا جميعاً. ومن الملاحظ أن جميع الأمريكيين بحاجة إلى حد: وقد كان الألم حدها، وكانت قد صممت على تخطيه.

ذات مرة قدمت لها وأنا أذوب خجلاً، طوقاً من الأزهار (أزهار ملكة الليل لزنبقتي المسائية) وكنت قد ابتعته بمصروفي الخاص من بائعة أزهار في منطقة سكاندال. فقالت ايفلين ليليث: «أنا لا أضع أزهاراً»، ثم قذفت بالطوق المرفوض في الهواء، ومزقته قبل أن يسقط على الأرض بطلقات مسدسها الذي لا يخطئ. وبتدميرها للأزهار بمسدسها ذاك، جعلتنا ندرك أنها ترفض القيد حتى ولو كان ذلك القيد طوقاً. لقد كانت زنبقة رابيتنا الدائمة الحركة، الكثيرة النزوات، وكانت كذلك حواء، تفاحة آدم في عيني.

كيف وصلت: كنت وأنا وسوني ابراهيم، آيسلايس وهيرويل سبرماتي، سيروس دوباش والقردة النحاسية نلعب جميعاً الكريكيت الفرنسية في حلقة السيرك القائمة بين القصور الأربعة. لعبة رأس السنة: توكسي تصفق بيديها

عند نافذتها المشبكة بالقضبان، حتى الممرضة باي آبا كانت في مزاج رائق، وللمرة الوحيدة لم تكن تشتمنا. الكريكيت ـ حتى الكريكيت الفرنسية وحتى حين يلعبها أطفال ـ هي لعبة هادئة هدوءاً مزيتاً بزيت بذر الكتان. تقبيل الجلد والصفصاف، التصفيق المتناثر، الصرخة بين الحين والحين «ارم، ارم يا سيد! ـ هيا، هيا!!» لكن ايفي الممتطية دراجتها لم يكن لها شأن بذلك كله.

«هيه! أنت! الله! أنت! هيه! ما مشكلتك؟ هل أنت صماء أم ماذا؟».

وكنت أنا أهيم على غير هدى حين كانت تصعد الرابية بدراجتها ذات الدولابين وقد تطاير شعرها الأشبه بالقش، وتوهج حب النمش في وجهها، وراح معدن فمها يطلق إشارات في ضوء الشمس، فزاعة تمتطي دراجة فضية... «هيه، أنت أيها الأنف النزاز! أيها التافه، كف عن مراقبة الآخرين أو أريتك شيئاً يستحق المراقبة!».

على أنه من المحال أن نصور ايفي دون أن نستحضر إلى ذهننا صورة دراجة، لا أية دراجة بالطبع، بل واحدة من دراجات آرجونا أنديابيك في حالة حسنة، ذات مقود ملفوف بشريط واق وخمس مبدلات للسرعة ومقعد مصنوع من جلد الفهد المغطى بالمشمع... وهيكل فضي... وهكذا فإن آيسلايس الأخرق وهيرويل الأنيق، سيروس العبقري والقردة النحاسية، سوني ابراهيم وأنا نفسي ـ نحن أفضل الأصدقاء، أبناء إقطاعة ميثولد الحقيقيين وورثتها الشرعيين بحكم مولدنا فيها ـ أجل.. جميعنا نحن مصارعي المستقبل وضباط البحرية وما إلى ذلك ـ جميعنا وقفنا فاغري الأفواه بينما كانت ايفي بيرنز تقود دراجتها أسرع وأسرع تدور وتدور قائلة: «انظروا إلي الآن: راقبوني وانا أنطلق، أنتم أيها البلهاء!».

فوق المقعد المصنوع من جلد الفهد، كانت ايفي تؤدي الدور: إحدى قدميها على المقعد والقدم الأخرى ممتدة خلفها، وكانت تدور حولنا، تزيد وتزيد من سرعتها، أخيراً وقفت ورأسها على المقعد! كان باستطاعتها أن توجه العجلة الأمامية ووجهها إلى الخلف كما كانت تحرك الدواستين بالاتجاه المعاكس... الجاذبية كانت عبدة لديها، السرعة جوهرها، فأدركنا أن قوة ما حلت بيننا، ساحرة على عجلات غزتنا فألقت أزهار الأسيجة

وريقاتها عليها كما ارتفع غبار حلقة السيرك في الجو سحابات من الترحيب لأن حلقة السيرك وجدت سيدتها.

كذلك غدا قماش اللوحة تحت فرشاة عجلتها الدائرة.

في تلك اللحظة لاحظنا أن بطلتنا تعلق مسدساً هوائياً من نوع ديزي على جانبها الأيمن «المزيد سيأتي! أنتم أيها الأصفار» صرخت ثم سحبت المسدس، وراحت طلقاتها تعطي الحجارة موهبة الفرار. كنا نقذف قطع النقد في الهواء فترميها برصاص مسدسها وتسقطها أرضاً. «أهداف! المزيد من الأهداف!» أخيراً أسلم آيسلايس ورق لعبه المحبب دون احتجاج، وهكذا طفقت ترمي رؤوس الملوك «آني أوكلي» في مشد أسنان ـ بعد ذاك لم يتجرأ أحد على تحدي مهارتها في الرمي، ما عدا مرة واحدة كانت فيها نهاية سيطرتها، وكان ذاك خلال غزو القطط العظيم، حين كانت هنالك ظروف مخففة.

بعد ذلك نزلت ايفي بيرنز عن الدراجة، محمرة تتصبب عرقاً ثم أعلنت: «من الآن فصاعداً، ثمة زعيم كبير جديد لكم. موافقون أيها الهنود؟ أية اعتراضات؟».

لا اعتراضات. فقد أدركت آنذاك أنني وقعت في الغرام.

على شاطئ جوهو مع ايفي: لقد فازت بسباق الإبل واستطاعت أن تشرب من حليب جوز الهند أكثر من أي واحد منا. كما كان باستطاعتها أن تبقي عينيها مفتوحتين تحت مياه البحر العربي اللاذعة الملوحة.

ترى هل باستطاعة ستة أشهر أن تصنع تغيراً كهذا؟ (فقد كانت ايفي أكبر مني بنصف عام). هل تخولك أن تحدث الكبار حديث الند للند؟ فقد شوهدت ايفي وهي تثرثر مع العجوز ابراهيم ابراهيم. كما زعمت أن ليلى سبرماتي تعلمها كيف تتبرج، كذلك كانت تزور هومي كاتراك تتجاذب معه الحديث حول الأسلحة والمسدسات. (والسخرية المأسوية في حياة هومي كاتراك أنه، هو الذي ستسدد عليه بندقية ذات يوم، كان هاوياً حقيقياً متحمساً للأسلحة النارية)... وقد وجد ايفي زميلة ممتازة، ايفي الطفلة اليتيمة التي كانت، خلافاً لابنته توكسي، حادة كالموسى لامعة كالبللور. وبالمصادفة لم

تكن ايفي بيرنز تغدق أياً من عواطفها على توكسي المسكينة أو تبدي شيئاً من التعاطف معها «دماغ فاسد» كانت تصرخ بآرائها أمامنا بلا مبالاة تامة: «يجب أن تسحق كالجرذان» (لكن يا ايفي: الجرذان ليست ضعيفة! ففي معالم وجهك من الشبه بالقوارض ما يزيد عما في جسم توكسيك المحتقرة كله).

تلك كانت ايفلين ليليث، وخلال أسابيع من قدومها، بدأ لدي رد الفعل التسلسلي الذي لن أنجو من آثاره أبداً

لقد بدأ الأمر بسوني ابراهيم، سوني جاري المباشر، سوني ذي الأخاديد الملقطية الذي يقبع صابراً في زوايا قصتي، منتظراً لحظته. في تلك الأيام كان على سوني من الكدمات ما هو اكثر من آثار ملقط طبي. وأن يحب القردة النحاسية (حتى بالمعنى الذي تحمله الكلمة حين تتعلق بابن التاسعة) أمر لم يكن يسيراً عليه أن يفعله.

فكما قلت، كانت أختي التي جاءت بعدي وبلا ضجة أو بشائر، قد بدأت ترد رداً عنيفاً على أي تقرب منها باسم العاطفة والمودة. ورغم أنه كان يعتقد أنها تتكلم لغات الطيور والقطط، إلا أن كلمات المحبين الناعمة كانت تستفزها أيما استفزاز. لكن سوني كان أبلد بكثير من أن يعرف الحذر وكان قد مضى عليه أشهر وهو يزعجها بأقوال مثل: «أخت سليم، أنت نوع صلب جميل!»، أو «اسمعي! هل تقبلين أن تكوني فتاتي؟ بإمكاننا أن نذهب إلى السينما مع مربيتك، وربما. . .». وطوال تلك الأشهر، تركته القردة النحاسية يقاسي بسبب حبه هذا ـ قاصة القصص لأمه، دافعة إياه إلى خضم المواحل بصورة متعمدة لها شكل المصادفة، بل إنها ذات مرة هاجمته بيديها، تاركة على وجهه آثار خرمشات طويلة واضحة، وفي عينيه تعبير كلب حزين تعرض للأذى، لكنه لم يتعلم. لذلك، خططت أخيراً لانتقامها الأشد هولاً.

كانت القردة النحاسية تذهب إلى مدرسة والينغهام للبنات في شارع فيبيان، وهي مدرسة ملأى بالأوروبيات الطويلات الناميات العضل اللواتي كن يسبحن كالسمك ويغصن كالغواصات. في أوقات الفراغ كان في الإمكان مشاهدتهن من شباك غرفتنا وهن يتواثبن في حوض السباحة ذي شكل الخارطة التابع لنادي بريتش كاندي والذي كنا محرومين منه بالطبع. . . وحين

اكتشفت أن القردة قد ألحقت نفسها بشكل من الأشكال بأولئك السابحات المعزولات عنصرياً، باعتبارها نوعاً من الأشخاص الذين يجلبون الحظ، فقد شعرت بالأسى الخالص عليها، ربما للمرة الأولى... لكن لم يكن ثمة مجال لمناقشته، إذ كانت قد شقت طريقها، وكانت فتيات بيضاوات سمينات في الخامسة عشرة من العمر يسمحن لها بالركوب معهن في باص مدرسة والينغهام وكانت تقف ثلاث من هؤلاء معها كل صباح بانتظار الباص وذلك في المكان نفسه الذي كنا ننتظر فيه باص مدرستنا، أنا وسوني وآيسلايس وهيرويل وسيروس العظيم.

ذات صباح، ولسبب لم أعد أذكره، كنت أنا وسوني الغلامين الوحيدين في الموقف، وربما كان هنالك شخص مجهول أو شيء من هذا القبيل يتحرك قريباً، فانتظرت القردة إلى أن تركتنا ماري بيريرا لعناية السابحات السمينات، وفجأة لمعت في رأسي حقيقة ما كانت تخطط له. إذ إنني، وبغير سبب محدد، ولفت أفكاري على أفكارها فصرخت «هيه!» لكن كان الأوان قد فات، إذ زعقت القردة: «ألن تكف عن هذا؟» ثم انقضت هي والسابحات السمينات الثلاث على سوني ابراهيم، بينما شرع مفترشو ـ الشوارع والشحاذون والموظفون الممتطون دراجاتهم يرقبون المشهد بسرور واضح، ذلك أنهن كن يمزقن ثيابه شر تمزيق... «يا للعنة يا رجل! هل تنوي أن تظل واقفاً تراقب!». كان سوني يصرخ طلباً للنجدة لكنني ظللت واقفاً بلا حراك، إذ كيف يمكنني أن أحدد موقفي والنزاع بين أختي وصديقي المفضل، بعدئذٍ جاء تهديده وعيناه تذرفان الدموع «لسوف أخبر والدي عنكم»، بينما ردت القردة: «هذا سيعلمك كيف تتكلم كلاماً وسخاً، أيها القذر ـ ذلك سيعلمك» حينها كان قد بات بلا حذاء، بلا سترة، بلا قميص داخلي. ثم بدأت واحدة منهن مشهورة بالغوص تجره «هذا سيعلمك كيف تكتب رسائل حبك القذرة». هنا كان قد غدا بلا جوارب، ودموع مدرارة تنهمر من عينيه فصرخت القردة «انتبهن!» ذلك ان باص والينغهام كان قد وصل، فانفضت المهاجمات عن سوني وأسرعن إلى الباص قافزات إليه قفزاً وهن يصرخن « تا... تا.. با... تا... ولد ـ عاشق... تا... تا». أما سوني فكان قد

ظل مرمياً في الشارع، على الرصيف المقابل لحانوت تشيمالكر وفردوس القارئ، عارياً كما ولدته أمه، والأخاديد ـ الملقطية تلمع مثل أحواض صخرية ذلك أن مرهم الفازلين كان قد انحدر إليها قطرات قطرات من شعره، وكانت عيناه دامعتين أيضاً حين قال: «لماذا ذلك؟ لماذا، أنا الذي لم أقل لها سوى أنني معجب؟..».

فقلت، دون أن أعرف أين أتوجه بناظري: «اسألني... إنها تفعل أشياء غبية، وهذا كل ما في الأمر». قلت دون أن أعرف أيضاً أنه سيأتي يوم تفعل بي ما هو أنكى وأشد سوءاً.

لكن ذلك بعد تسع سنوات... أما في تلك الأثناء، أي في مطلع ١٩٥٧، فقد كانت الحملات الانتخابية في بدايتها: جان سانغ كان يدعو لتأمين بيوت راحة للبقر المقدس الطاعن في السنن وفي كيرالا، كان نامود يرياد يزجي الوعود بأن الشيوعية ستوفر الغذاء والعمل للجميع، وفي مدراس كان حزب إنودوري يؤجج لهب الإقليمية، وكان حزب المؤتمر يرد بمراسيم إصلاحية لمرسوم الإرث الهندوسي، الذي منح النساء الهندوسيات حقاً بالوراثة مثل حق الرجال، وباختصار، كان الجميع مشغولين، والكل ينافح عن قضيته، مع ذلك، كنت أجد نفسي معقود اللسان أمام ايفي بيرنز وهكذا قررت التقرب من سوني ابراهيم طالباً إليه أن ينافح عني.

نحن، في الهند، ضعاف دائماً إزاء الأوروبيين... فايفي لم تقم معنا إلا بضعة أسابيع، وقد كنت بالحقيقة غارقاً تماماً في خضم تقليد غريب الشكل للأدب الأوروبي (إذ كان لدينا في المدرسة، «سيرانو دي بيرجراك»، بنسخته المبسطة كما كنت قد قرأت أيضاً كتاباً ساخراً بعنوان «الكُلاسيكيات المصورة») ولعل من المستحسن القول إن أوروبا تكرر نفسها في الهند، لكن على شكل مسخرة... وايفي أمريكية لكن لا فرق.

«لكن يا رجل... هذا أمر غير حسن، لماذا لا تفعل ذلك بنفسك؟».

«اسمع سوني!» قلت متوسلاً: «أنت صديقي أليس كذلك؟».

«إي... لكن أنت لم تساعدني حتى......».

«تلك كانت أختي يا سوني، فكيف تريدني أن أساعدك؟».

«لذلك أقول كلا، وعليك أن تفعل قذارتك...».

«هيه... سوني... فكر... فكر فقط. هؤلاء الفتيات بحاجة للحيطة والحذر يا رجل. انظر كيف أفلتت القردة من القبضة! لقد خضت تجربة، أجل، باتت لديك خبرة. ولسوف تعرف كيف تعاملهن بلطف هذه المرة... أما أنا فماذا أعلم؟ ربما هي لا تحبني حتى! فهل تريد أن أعود بثياب ممزقة أيضاً؟ كما أن ذلك سيجعلك تشعر بالعزاء، أليس كذلك؟».

ويرد سوني البريء، طيب السريرة «..... حسناً.. لا..».

«إذاً.. تذهب.. تنقل لها شيئاً من إعجابي، تقول لها ألا تولي اهتماماً لأنفي. صفاتي الشخصية هي ما يهم. أيمكنك أن تفعل ذلك؟».

«حسناً.. موافق.. لكن شريطة أن تتحدث إلى أختك أيضاً».

«سأتحدث إليها، أعدك بذلك، لكن أنت تعرف من أي صنف هي، إلا أنني سأتحدث إليها بالتأكيد».

إن باستطاعتك أن تضع جميع الخطط التي تشاء وبكل ما لديك من دقة وعناية، لكن المرأة تبطلها بضربة واحدة. فمقابل كل حملة انتخابية ناجحة، ثمة حملتان فاشلتان أو أكثر، وهكذا من شرفة فيلا باكنغهام، وعبر شقوق ستارة النافذة، رحت أتجسس على سوني ابراهيم وهو يعرض قضيتي على جمهوري الانتخابي المختار... كما سمعت صوت الناخبة، خنة ايفي بيرنز البارزة، وهي تنفخ الهواء ازدراء: «من؟ هو؟ لماذا لا تقول له أن يعمل فقط على الإطاحة بأنفه؟ هو صاحب الأنف الخرطومي ذاك؟ إنه لا يستطيع حتى امتطاء دراجة!».

ذلك صحيح.

لكن كان سيأتي ما هو أسوأ، ذلك أنني في تلك اللحظة (رغم أن ستارة النافذة الخارجية كانت تقسم الهند إلى شرائح ضيقة) لم أر التعبير على وجه ايفي وقد بدأ يرق ويتغير، هل رأيته يا ترى؟ ألم تمتد يد ايفي (المقطعة طولياً بواسطة الستارة) باتجاه وكيلي الانتخابي؟ ـ أليست أصابع ايفي (وقد تآكلت الأظافر حتى الصميم) تلامس أخاديد سوني الصدغية، وأطراف الأصابع تغطى بالفازلين المتقطر؟ ـ هل قالت ايفي أم لم تقل: «الآن، مثلاً: أنت

جذاب». لكن علي أن أؤكد بأسى شديد. . . أنني سمعتها، أجل، قيلت تلك العبارة، قالتها ايفي.

سليم سيناء يحب ايفي بيرنز، ايفي تحب سوني ابراهيم، سوني مهووس بالقردة النحاسية، لكن ماذا قالت القردة؟

«الله! لا تسبب لي المرض»، قالت أختي حين حاولت ـ بشيء من النبل بالحقيقة ـ رغم معرفتي بالطريقة التي خذلتني بها ـ أن أناقش قضية سوني. لكن الناخبين اقترعوا ضدنا نحن الاثنين.

غير أنني لم ألق السلاح. فالإغراءات الفاتنة التي كانت تجذبني إلى ايفي بيرنز ـ ايفي التي ينبغي أن أعترف أنها لم تهتم بي أدنى اهتمام ـ قادتني، وعلى نحو يتعذر الرجوع عنه، نحو سقوطي (لكنني لا احمل غلاً لها، ذلك أن سقوطي أدى إلى نهوض).

في برجي، برج الساعة ذاك، وحيداً لا يعرف بي أحد، كنت أقضي الوقت وأنا أقوم بجولاتي العابرة لشبه القارة متأملاً كيف أخطب ود حوائي ذات النمش. «دعك من الوسطاء» نصحت نفسي أخيراً «فعليك أن تفعل ذلك بنفسك»، وهكذا وضعت خطتي التي تقتضي: «أن أشاركها اهتماماتها وأن اجعل ميولها ميولي. .». لكن المسدسات لم تكن تروق لي، فصممت أن أتعلم ركوب الدراجة.

في تلك الأيام، كانت ايفي قد قبلت كثيراً من الطلبات التي وجهها إليها أطفال الرابية في أن تعلمهم فنونها في ركوب الدراجة، وهكذا لم يكن الأمر بالنسبة إلي يتعدى الالتحاق بالركب وتلقي الدروس. كنا نجتمع في حلقة السيرك، حيث كانت ايفي، سيدة الحلقة بلا منازع، تقف وسط خمسة من ركاب الدراجات المرتعدين المركزين كل انتباههم، بينما أقف إلى جانبها، بلا دراجة. ذلك أنني قبل مجيء ايفي لم أبد أي اهتمام بالعجلات، لذلك لم يقدم لي أحد أياً منها. . . وكنت باتضاع أتحمل لسان ايفي وهو يجلدني بسياطه.

«أين كنت تعيش، يا ذا الأنف الضخم؟ أعتقد أنك تريد أن تستعير دراجتي؟». «كلا» كذبت وكلي ندم فأشفقت علي «حسناً، حسناً» قالت وهي تهز كتفيها «امتط السرج ودعني أرَ أية نوعية أنت».

هنا دعوني أوضح في الحال أنني حين صعدت على الدراجة الفضية صنع آرجونا اندیابیك، ملأني زهو لا مثيل له، زهو بأن ايفي وهي تمسك بالمقود، كانت تدور بي وتدور، هاتفة: «هل تستطيع أن تحقق توازنك؟ كلا؟ انظر، لا أحد يحقق توازنه» ـ ولقد شعرت بينما كنا نطوف أنا وايفي... بماذا... ما هي الكلمة الصحيحة؟.. شعرت بأنني سعيد.

درنا ودرنا ودرنا... أخيراً، ولكي احمل إلى نفسها السرور قلت متلعثماً: «حسناً، أظن أنني... دعيني» وعلى الفور بت على الدراجة بلا عون، فقد دفعتني دفعة وداع ليطير ذلك المخلوق الفضي متألقاً جامحاً عبر حلقة السيرك... وسمعتها تصرخ: «الكابح! استخدم الكابح اللعين، أنت أيها الأبله!» لكن يدي لم تستطيعا الإتيان بحركة، إذ كنت قد تصلبت كلي كدف من خشب، وسمعت: «انتبه!» فقد كانت أما عجلة سوني ابراهيم الزرقاء، ثم جاءت صرخة أخرى «ابتعد عن طريقي أيها الأحمق!». بينما كان سوني في سرجه يحاول أن ينحرف ويتفاداني، كانت الدراجة الزرقاء تشق طريقها باتجاه الدراجة الفضية، فمال سوني إلى اليمين لكنني مضيت في الطريق نفسه وسمعت صرخة «يا إلهي! دراجتي!». ثم لامست الزرقاء الفضية، قبّل هيكل واحدتهما الأخرى، ثم وجدتني أنقذف من فوق المقود نحو سوني الذي كان هو الآخر قد انقذف بحركة مماثلة نحوي وحدث اصطدام هوت به الدراجتان على الأرض متشابكتين في عناق حميم، كما حدث اصطدام آخر في الأعلى، التقيت فيه بسوني، وحيا رأسه رأسي... كنت قبل تسع سنوات قد ولدت بصدغين ناتئين بينما حصل سوني على أخاديد في صدغيه من ملقط الطبيب، ولكل شيء سبب، كما يبدو، ذلك أن صدغيَّ الناتئين وجدا في تلك اللحظة طريقهما إلى أخاديد سوني. فركب واحدهما الآخر تماماً. ثم بدأنا، ورأسانا متراكبان معاً، انحدارنا نحو الأرض، بعيداً عن الدراجتين لحسن الحظ، ثم حدثت خبطة وللحظة من الزمن بدا العالم وكأنه غاب عن أنظارنا.

حينذاك كانت ايفي، والنمش على وجهها، تستعر غضباً «أنت أيها الكسيح الحقير! أنت يا ذا الأنف الضخم! يا من حطمت درا..». لكنني لم

أسمع، ذلك أن حادث حلقة السيرك كان قد أكمل ما بدأته كارثة صندوق الغسيل، فشعرت أن في رأسي ضجة لم ألاحظها من قبل، فكل ما فيها من أصوات يبث إشارات تقول: «أنا هنا. . .أنا هنا» من الشمال، الشرق، الجنوب، الغرب. . . أصوات الأطفال الآخرين الذين ولدوا خلال ساعة منتصف الليل تلك والكل ينادي «أنا أنا أنا أنا».

«هيه!! هيه! يا ذا الأنف ـ الخطم! هل أنت بخير؟. . . هيه. . أين أمه؟».

مداخلات، لا شيء سوى المداخلات! فالأجزاء المتباينة من حياتي المعقدة بشكل من الأشكال ترفض، وبعناد غير معقول على الإطلاق، أن تبقى بعيدة عن بعضها في مقصوراتها المنفصلة. أصوات تنسكب من أبراجها كي تغزو حلقة السيرك التي يفترض أنها منطقة نفرذايفي. . . والآن في اللحظة نفسها التي ينبغي عليّ أن أصف فيها الأطفال الخرافيين للتكتكة، أجدني وقد خطفني بعيداً قطار بريد الحدود ـ منتقلاً إلى عالم جدي الفاسد، وعلى نحو يعترض فيه آدم عزيز طريقي ويحول دون إكمال حياتي إلى نهايتها الطبيعية. لكن، لا بأس، فما لا يمكنك علاجه عليك تحمله.

في كانون الثاني ذاك، وخلال نقاهتي من ارتجاج الدماغ الحاد الذي أصبت به في حادث الدراجة، أخذنا والداي إلى آغرا لجمع شمل العائلة، فتبين أنها أسوأ من حفرة كلكوتا السوداء ذات السمعة السيئة (والخيالية بشكل من الأشكال). هناك، وطوال أسبوعين وجدنا أنفسنا مضطرين لأن نصغي لإميرالدا وذي الفقار ـ (الذي أصبح عميداً في الجيش لكنه كان يصر على مناداته باللواء) وهما يذكران أسماء وتلميحات عن ثروتهما الخيالية التي أضحت في ذلك الحين سابع ثروة يملكها شخص في الباكستان، بينما راح ابنهما ظافر (إنما لمرة واحدة فقط) يسحب ظفائر القردة الباهتة الحمرة. وكنا مضطرين لأن نراقب بنوع من الهلع الصامت خالي مصطفى، الموظف المدني وزوجته نصف الإيرانية وهما يضربان ويجلدان توائمهما الكثر الذين لم يكن بالإمكان تمييز أسمائهم أو جنسهم، كما كان علينا أن نشم رائحة العفونة اللاذعة التي كانت تنشرها خالتي علياء حولها فتفسد حتى طعامنا،

وكذلك اعتزال أبي باكراً كي يبدأ معاركه الليلية السرية ضد الجن، وما هو أسوأ وأسوأ وأسوأ.

ذات ليلة أفقت على دقة منتصف الليل لأجد حلم جدي داخل رأسي، وهكذا لم أعد قادراً على تجنب رؤيته بالطريقة التي يرى بها نفسه ـ عجوزاً متداعياً، يمكنك أن ترى في وسطه، حين يكون الضوء مناسباً، ظلاً ضخماً. فمع زوال القناعات التي كانت تعطيه القوة أيام شبابه، وذلك بفعل الشيخوخة والأم المبجلة وغياب الأصدقاء ذوي العقول المماثلة، كانت الفجوة القديمة قد عادت إلى الظهور مرة ثانية في منتصف جسمه، محيلة إياه إلى مجرد شيخ خاوٍ مرتعش، كما بدأ الإله (الذي كان قد قاومه إضافة إلى الأساطير الأخرى) ردحاً طويلاً من الزمن، يعيد تأكيد هيمنته عليه... في تلك الفترة، كانت الأم تقضي الليالي بطولها باحثة عن الأساليب الخفية التي يمكنها بها الإساءة لزوجة خالي حنيف، ممثلة السينما المحتقرة. وفي تلك الفترة أيضاً أخذت دور الشبح في تمثيلية للأطفال واكتشفت، في حقيبة جلدية قديمة مرمية في أعلى خزانة جدي، الملاءة التي أكلها العث، غير أن الثقب الأكبر فيها كان من صنع إنسان: وهو الاكتشاف الذي تلقيت عليه (ولعلكم تتذكرون ذلك) أمواجاً هادرة من غضب جديَّ وسخطهما.

لكن كان ثمة إنجاز واحد. فقد كسبت صداقة رشيد، خادم العربة، (وهو الشخص نفسه الذي زعق في شبابه زعقته المكتومة تلك في حقل الذرة وساعد نادر خان في دخوله مرحاض آدم عزيز) لقد بسط عليّ جناحيه وشرع ـ دون أن يخبر والديَّ اللذين كانا سيمنعانه بسبب حادثتي السابقة ـ يعلمني ركوب الدراجة. وهكذا حين غادرنا آغرا، كنت أطوي هذا السر جنباً إلى جنب مع كافة أسراري الأخرى: لكن بفارق وحيد هو أنني لم أكن انوي الاحتفاظ به زمناً طويلاً.

... في قطار العودة، كانت ثمة أصوات تدق على الجدران الخارجية للمقصورة: «أوه، مهراجا! أيها السيد العظيم!» أصوات متهربين من الأجرة تتصارع مع الأصوات التي كنت أبغي الاستماع إليها، الأصوات الجديدة التي كانت داخل رأسي ـ بعد ذلك تم الوصول إلى محطة بومباي الرئيسية،

وركوب السيارة إلى المنزل مروراً بمضمار السباق والمعبد، ومن ثم ايفلين ليليث بيرنز وهي تطلب أن أكمل قصتها أولاً قبل التركيز على أمور أخرى.

«ها قد عدنا إلى الوطن ثانية... ها يـ. قد عدنا إلى بومباي!».

(صرخت القردة وكانت مجللة بالعار ففي آغرا كانت قد حرقت حذاء الجنرال العسكري.

لكن عليّ أن أسجل أن لجنة إعادة تنظيم الولايات كانت قد قدمت تقريرها إلى نهرو منذ تشرين الأول ١٩٥٥ وأنه بعد عام من ذلك التاريخ،تم تنفيذ توصياتها، إذ قُسِّمت الهند مجدداً إلى أربع عشرة ولاية وستة أقاليم ذات إدارة مركزية. غير أن حدود هذه الولايات لم تكن تشكلها أنهار أو جبال أو أية تضاريس طبيعية، بل كانت، بدلاً من ذلك حدوداً من كلام. اللغة قسمتنا: كيرالا للناطقين بالملايالم وهي اللغة الوحيدة على وجه الأرض التي يقرأ اسمها طرداً أو عكساً، وفي كرناتاكا، كان يفترض بك أن تتكلم الكناريزية وهكذا الأمر في مدراس وسواها... لكن، بفضل شيء من بعد النظر، لم يتخذ أي إجراء في ما يتعلق بولاية بومباي، لذلك كانت مسيرات اللغة في مدينة بومباديفي، تتزايد طولاً وعرضاً وصخباً ثم تحولت أخيراً إلى أحزاب سياسية، كل منها يحمل لواء لغة من اللغات، كلغة الماراشي ولغة الغوجاراتي.. وكل منها يحلم بحصته من ولاية بومباي... إنني هنا أعيد تسخين ذلك التاريخ البارد، كشف تلك الصراعات القديمة المفترضة لكي أفسر لماذا كانت إقطاعة ميثولد، وفي ذلك اليوم من أيام شباط ١٩٥٧ الذي أعقب عودتنا من آغرا، منقطعة عن المدينة بجدول متدفق من البشرية المترنمة التي تدفقت على طريق واردن على نحو أكمل وأشد من مياه الأمطار الخماسينية، موكب طويل إلى درجة استغرق معها يومين قبل أن ينتهي، موكب قيل عنه إن تمثال سيفاجي عاد إلى الحياة ليحتل مقدمته على صورة حجر. وقد حمل المتظاهرون الرايات السود وكان كثيرون منهم أصحاب حوانيت أقفلوا حوانيتهم، وعمال نسيج مضربين جاؤوا من مازاغون وماتونغا، لكننا، من فوق رابيتنا، لم نكن نعرف شيئاً عن أعمالهم. بالنسبة إلينا، نحن الأطفال، بدا لنا خط ـ النمل الذي لا نهاية له في شارع واردن

بالغ الروعة والسحر كما يبدو مصباح كهربائي لفراشة. لقد كانت تظاهرة ضخمة شديدة الحماسة إلى درجة مسحت جميع المسيرات الأخرى من الأذهان وكأنها لم تحدث قط ـ وقد كان محظراً علينا جميعاً أن نهبط إلى أسفل الرابية، حتى لو كان ذلك لمجرد النظر. لكن من تراه كان أجرأنا جميعاً؟ من دفعنا لأن نزحف نازلين نصف الطريق على الأقل، إلى النقطة التي كان فيها منتصف طريق ـ الرابية يلتف فيواجه شارع واردن مشكلاً منعطفاً شديد الانحدار؟ من الذي قال: «مم الخوف؟ إننا ننزل إلى منتصف الطريق لإلقاء نظرة فقط؟» ـ. . ثم تبع الهنود العصاة بأعينهم الجاحظة زعيمتهم الأمريكية ذات النمش («لقد قتلوا الدكتور نارليكار ـ أجل، المتظاهرون قتلوه» حذرنا هيرويل بصوت مرتعش، فبصقت ايفي عند قدميه).

غير أنني، أنا سليم سيناء، كان لدي سمكة أخرى أقليها. فقد قلت بصورة ارتجالية هادئة «ايفي، ما رأيك أن تريني وأنا أركب دراجة؟» لكن لا جواب. فقد كانت ايفي مستغرقة في المشهد. . . ترى هل كانت آثار أصابعها على أخاديد الصدغ الأيسر لسوني ابراهيم المتشربة بالفازلين واضحة لكل عين؟ وللمرة الثانية قلت بتوكيد أشد قليلاً: «أنا أستطيع ذلك يا ايفي، سأنفذه على دراجة القردة. فهل ترغبين بمراقبتي؟». حينذاك ردت ايفي بقسوة بالغة: «أنا أراقب هذا؟ حسن والله! لماذا أريد أن أراقبك؟» فرددت، وأنا أشرق مخاطي قليلاً: «لكنني تعلمت ايفي، وعليك أن. . .».

بيد أن الضجة القادمة من شارع واردن أغرقت كلماتي. ظهرها وظهر سوني إلي وكذلك ظهرا آيسلايس وهيرويل والقفا الذكي لسيروس العظيم. . . أما أختي التي شاهدت آثار الأصابع، أيضاً والتي بدت منزعجة، فقد راحت تحثني: «هيا. . هيا. . أرها ركوبك على الدراجة. ثم من تظن نفسها يا ترى؟» فأمتطي دراجتها. . . «سأركب الدراجة يا ايفي. . انظري» ثم أرسم بالدراجة دوائر دوائر وأنا أدور حول جمع الأطفال الصغير «أترين؟ هل ترين؟». ولحظة من النشوة، ثم تصرخ ايفي، وقد نفد صبرها، فلم تستطع الاستمرار بلا مبالاتها: «ابتعد عن طريقي بحق الله؟ أنا لا أريد رؤيتك!». ثم تشير الإصبع، التي قُضِم ظفرها حتى الصميم، باتجاه مسيرة اللغة. لقد

ألغتني لصالح موكب ساميوكتا ماهارشتراساميتي! ورغم قول القردة بكل إخلاص وصدق «ذلك غير لائق!! إنه يركب الدراجة بصورة جيدة؟». ورغم فرحة الشيء - بذاته - أشعر بشيء من القلق في داخلي فأسوق الدراجة حول ايفي أسرع وأسرع وأسرع ثم أصرخ وقد خرجت عن طوري: «ما قصتك يا ترى؟ ما ينبغي أن أفعل كي...» حينئذٍ يطغى علي شيء آخر، وأوقن أن علي ألا أسألها، بل أدخل ذلك الرأس ذا النمش ومعدن الفم وأكتشف بنفسي، وفي الحال أتمكن فعلاً من الدخول إلى هناك ومعرفة ما يجري... ثم أمضي إلى الداخل وأنا ما أزال على دراجتي لكنني أجد مقدمة ذهنها ملأى تماماً بمتظاهري - مسيرة الماراثي كما أجد أغاني شعبية أمريكية عالقة في زوايا تفكيرها، إنما لا أجد شيئاً أهتم به. حينذاك فقط، وللمرة الأولى، أبدأ البحث والتنقيب مدفوعاً بدوافع حب من طرف واحد... وأجد نفسي أندفع، أغوص، أشق طريقي بين خنادقها الدفاعية... إلى ذلك المكان السري حيث توجد صورة أمها وهي ترتدي فستاناً مكشكشاً زهرياً وتمسك عالياً بسمكة صغيرة من ذيلها، ثم أغوص أعمق أعمق أعمق حيث يقع هناك ما يجعلها تتكتك، ما يصيبها بنوع من الانتفاضة فتلتفت حولها محدقة إليّ وأنا أدور بدراجتي، أدور، أدور، أدور...

«ابتعد!» تزعق ايفي بيرنز وقد رفعت يديها إلى جبهتها، لكنني... أتابع ركوب دراجتي بعينين مغرورقتين، أغوص أعمق، أعمق، أعمق: حيث أرى ايفي وهي تقف في مدخل غرفة نوم مكسوة بألواح خشب ممسكة بشيء حاد لامع يقطر منه سائل أحمر، يا إلهي! في مدخل غرفة النوم، وعلى السرير امرأة، امرأة بثوب زهري، يا الله! ايفي بيدها ذلك الشيء، والأحمر يلطخ الزهري، ورجل قادم، يا إلهي!! لا لا لا لا لا...

«ابتعد! ابتعد! ابتعد!» تزعق ايفي تحت بصر الأطفال المندهشين، وينسى الجميع المسيرة، لكن فجأة يتذكرونها ثانية إذ تمسك ايفي بسرج دراجة القردة فأصرخ: «ماذا تفعلين يا ايفي» بينما تدفعها هي بكل ما تستطيع من قوة صارخة «هناك، اذهب إلى هناك أيها الولد الشرير، اذهب إلى الجحيم!» فأندفع على المنحدر الشديد إلى نهاية المنعطف الأشبه بحرف U وأنحدر، يا إلهي!

بعدئذٍ أعبر بمصبغة باندبوكس، أجتاز فيلا نور وفيلا لاكسمي، آآآآآ ثم أنحدر إلى أول المسيرة، رؤوس، أقدام، أجسام، أمواج المسيرة تفترق لدى قدومي، جريمة قتل قد تحدث، دراجة فتاة صغيرة تصطدم بتاريخ على طريق الهروب.

أيد تقبض على مقود الدراجة وقد خفض سرعتها الحشد المشحون.. ابتسامات مفعمة بأسنان صالحة تحيط بي. لكنها ليست ابتسامات ودية «انظروا انظروا! غلام صغير من السادة يأتي للانضمام إلينا من رابية الأغنياء الكبار». يقول أحدهم باللغة الماراثية التي لا أفهمها إلا بالكاد، فهي أسوأ مادة لدي في المدرسة. وتتساءل الابتسامات... «تود الانضمام إلينا، أيها الأمير الصغير؟» فأرد، أنا الذي لم يكن يعرف إلا بالكاد ما يقال والذي داخ إلى درجة الاستعداد لقول الحقيقة، هازاً رأسي نفياً. فتعود الابتسامات «أوه! الفتى لا يحب لساننا! ماذا يحب؟». ثم تقول ابتسامات أخرى «ربما لسان غوجاراتي! أنت تتكلم الغوجاراتي يا سيدي؟». غير أن معرفتي بالغوجاراتي لم تكن تقل سوءاً عن الماراثي إذ لم أكن اعرف إلا شيئاً واحداً من لغة الكاثياوار المستنقعية، فتلح علي الابتسامات وتهتز في وجهي الأصابع «انطق أيها السيد الصغير! انطق بعض الغوجاراتي!» ـ وهكذا أفصحت عما كنت أعرف: مقطوعة تعلمتها في المدرسة من غلاندي كيث كولاكو، كان يستخدمها حين يود مشاكسة أحد أبناء الغوجاراتي، مقطوعة مصممة للسخرية من قوافي اللغة.

سوتشي؟ ساروتشي!
داندالي كي ماروتشي!

كيف الحال؟ أحسن حال؟ ـ سأجلدك بالعصا حتى الجحيم أيها المحتال! هراء لا شيء، بضع كلمات بلا معنى... لكن حين رددتها تحولت البسمات إلى ضحك. بعدئذٍ ارتفعت أصوات قريبة مني، ثم أبعد عني، أصوات تردد أغنيتي: «كيف الحال ـ أحسن حال»، ثم فقد المتظاهرون اهتمامهم بي «اذهب اذهب بدراجتك أيها الصغير!». قالوا وهم يردونني بعيداً ثم تابعوا: «سأجلدك بالعصا حتى الجحيم أيها المحتال» بينما

طرت عائداً إلى الرابية وأصداء أغنيتي تتردد إلى الأمام والخلف، تمتد حتى مقدمة موكب طوله مسيرة يومين وحتى مؤخرته أيضاً وفد صارت أنشودته الحربية.

ذلك العصر، اصطدمت مقدمة موكب ساميوكتاساميتي، عند زاوية كيمب، بمقدمة مسيرة الغوجارات، وكانت أصوات المسيرة الأولى تردد «كيف الحال؟ أحسن حال»، فانفتحت حناجر المسيرة الثانية على أشد اتساع لها، وتحت إعلانات شركة الطيران الهندية ومعجون كولينوس، انقض الطرفان واحدهما على الآخر بقدر غير ضئيل من الحماسة وعلى أنغام مقطوعتي الصغيرة بدأت مسيرات اللغات أعمال شغبها الأولى فقتل خمسة عشر وجرح أكثر من ثلاثمائة.

بهذه الطريقة أصبحت مسؤولاً مباشرة عن إشعال نار العنف، ذلك الذي لم ينته إلا بتقسيم ولاية بومباي، وكانت النتيجة أن أمست المدينة عاصمة للمهاراشترا ـ وهكذا كنت في الجانب المنتصر على الأقل.

ما الذي كان في رأس ايفي؟ جريمة أم حلم؟ ذلك ما لم أكتشفه، لكنني اكتشفت شيئاً آخر: فأنت عندما تلج رأس أحد الناس. عندما تدخل أعماقه، يمكنه أن يشعر بك هناك.

بعد ذلك النهار رفضت ايفلين ليليث بيرنز أن يكون لها أية علاقة بي، لكن يا للغرابة! وجدتني أشفى من حبها. (ودائماً تغير النساء حياتي: ماري بيريرا، ايفي بيرنز، جميلة المغنية، بارفاتي الساحرة وعليهم جميعاً أن يجبن على سؤال واحد: «من أنا؟». كما على الأرملة أيضاً، تلك التي أحتفظ بها حتى النهاية، وبعد النهاية بادما، فتاتي، إلهة الروث. صحيح أن النساء كن يثبتنني، لكن لعلهن لم يكن أساسيات ـ لعل المكان الذي كان ينبغي أن يملأنه، الفجوة الموجودة في وسط بطني والتي ورثتها عن جدي آدم عزيز كانت ولفترة طويلة من الزمن تشغلها أصواتي. أو لعلهن ـ وعلى المرء أن يأخذ جميع الاحتمالات في الاعتبار كن دائماً يجعلنني أشعر بشيء من الخوف).

عيد ميلادي العاشر

«أوه يا سيدي ماذا أقول؟ كل ذلك بسبب خطأي البغيض».

لقد رجعت بادما. وبما أنني شفيت من السم وعدت إلى مكتبي ثانية فإنها تبدو أشد عصبية وضيقاً من أن تتحمل الصمت. المرة تلو المرة، توبخ زهرتي اللوتسية العائدة نفسها، تدق على صدرها المكتنز، تقول بأعلى صوتها (وهو أمر فظيع بالنسبة لما أنا عليه من هشاشة وضعف لكنني لا ألومها البتة):

«صدقني يا سيدي. صدقني أنني أتمنى سعادتك من صميم قلبي، ترى أية مخلوقات، نحن النساء، حتى لا نهدأ لحظة واحدة إذا ما مرض رجالنا أو انخفضت..؟؟ أنت لا تعلم مقدار سعادتي لأنك بت على ما يرام».

وقصة بادما (إذا ما قدمناها بكلماتها ذاتها مرفقة بما يؤيدها من جحظات عيون وولولات عالية وخبطات على الصدر) هذه القصة كما يلي: إنني بسبب غرورك وتكبرك الأحمق، يا سيد سليم، هربت منك، رغم أن العمل هنا جيد ورغم أنك أنت بحاجة ماسة لمن يرعاك إنما لم يمض طويل وقت حتى كدت أموت شوقاً للعودة إليك.

حينذاك فكرت. كيف تراني أرجع إلى ذلك الرجل الذي لا يحبني ولا يفعل شيئاً سوى بعض الكتابة الحمقاء (اعذرني بابا سليم، لكن علي أن أقول لك الحقيقة. فالحب بالنسبة إلينا نحن النساء، أعظم ما في الوجود).

وهكذا ذهبت إلى رجل من رجال الدين علمني ما ينبغي أن افعل. حينذاك، وبدريهماتي القليلة، استقللت حافلة عامة واتجهت إلى الريف بحثاً

عن بعض الأعشاب، التي يمكن بواسطتها إيقاظ رجولتك من رقادها... تصور يا سيدي، لقد قرأت سحراً على العشب بهذه الكلمات: «أنت أيها العشب الذي اجتثتك النيران». بعدئذٍ طحنت العشب وعجنته بالماء والحليب ثم قلت: «أنت يا عشب الفحولة والقوة، أنت أيها النبات الذي بحثت عنه غاندرافا[1] من أجل فارونا[2] اعطِ قوتك لسليمي. اعطه حرارة كحرارة نار إندرا[3]. اجعله كذكر الوعل، أنت أيها العشب، الذي تملك كل ما في الكون من قوة، أنت الذي تملك قوى إندرا وشهوانية البهائم».

«بهذا المستحضر عدت لأجدك وحيداً مثلما أنت دائماً ومثلما هو الأمر دائماً، انفك بين الأوراق، لكنني إقسم أنني وضعت الغيرة خلفي، فهي تشد بقبضتها على الوجه وتجعله يهرم. أوه يا إلهي! اغفر لي. لقد وضعت المستحضر بكل هدوء في طعامك... بعدئذٍ، هاي! هاي! لعل الإله يغفر لي، لكنني مجرد امرأة بسيطة وإذا ما قال لي رجال الدين شيئاً أنى لي أن أناقش؟... لكن الآن على الأقل، أنت أحسن حالاً والحمد لله، فأرجو ألا تكون غاضباً مني».

ذلك أنني بتأثير مستحضر بادما ظللت أهذي مدة أسبوع. وزهرتي لوتس ـ الروث، تقسم (عبر أسنان تصرف بشدة) أنني كنت متصلباً مثل لوح من الخشب ورغوة الزبد على شدقي. كذلك كان هنالك حمى. وأثناء هذياني كنت أرغي بأشياء وأشياء حول الأفاعي. لكنني أعلم أن بادما ليست أفعى ولم تكن تنوي بي شراً.

«هذا الحب يا سيدي»، تقول بادما وهي تعاود عويلها، «إنه يقود المرأة إلى الجنون» فأكرر: «أنا لا ألومك». ذلك انه عند منحدرات الناتز الغربية، بحثت بادما عن عشبة الرجولة موكونا بروريتوس، وعن جذور نبتة الفيرونيا اليفانتوم، ومن يعلم ماذا وجدت؟ من يعلم ما ذاك الذي مزجته بالحليب وخلطته بطعامي، فقذف أحشائي، في تلك الحالة من «المخض» الذي، كما يعرف جميع دارسي علم الكون الهندي، استطاعت أندرا بواسطته أن تخلق

---

(١) (٢) (٣) من آلهة الهندوس.

المادة، وذلك بتحريك السائل الكوني الأول حركة عظيمة أشبه بمخض اللبن؟ لكن لا بأس. لقد كانت محاولة نابعة عن حسن نية. وقد خلقت من جديد لتفعل الأرملة فعلها بي. إنما لم يكن باستطاعة حتى «الموكونا» الحقيقية أن تضع نهاية لعجزي ولم يكن بمقدور أي «فيرونيا» أن تهبني «شهوانية البهائم».

والآن أعود إلى طاولتي مرة ثانية. ومرة ثانية تجلس بادما عند قدمي، تحثني وتشجعني. لقد أعيد إلي توازني مرة أخرى ـ قاعدة مثلثي المتساوي الساقين وأنا أحوم عند الذروة، فوق الحاضر والماضي وأشعر بالانسياب يعود إلى قلمي.

نوع من السحر قد حدث إذاً. فرحة بادما بحثاً عن أدوية للحب وصلتني في الحال بعالم المعرفة القديمة وفنون السحر ذلك العالم الذي يحتقره معظمنا هذه الأيام، لكنني (رغم تشنجات المعدة والحمى والزبد على الشدقين) أجدني مسروراً لاقتحامها عالمي في الأيام الأخيرة، إذ إنني ما إن أتأملها حتى أستعيد قليلاً من إحساسي الضائع بالتناسب.

فكر بهذا: التاريخ، عندي، دخل طوراً جديداً في الخامس عشر من آب ١٩٤٧ ـ لكن عند أناس آخرين، ليس ذلك التاريخ أكثر من لحظة عابرة في عصر الظلام، عصر الكالي ـ يوغا، العصر الذي انخفضت فيه بقرة الأخلاق إلى مرتبة تقف فيها، وبصورة متأرجحة، على قائمة واحدة ـ الكالي يوغا أو الرمية الخاسرة في لعبتنا الوطنية، لعبة النرد. إنه العصر الأسوأ، العصر الذي يكسب المرء فيه قيمته مما يملك وتكون الثروة فيه بمرتبة موازية للفضيلة، وتغدو الشهوة هي الرابطة الوحيدة بين النساء والرجال، ويأتي الزيف والخداع بالنجاح (فهل تعجب، في زمن كهذا، إن كنت في غاية الحيرة والاضطراب في ما يتعلق بالخير والشر؟)... يوم الجمعة الثامن عشر من شباط عام ١٣٠٢ قبل الميلاد، بدأ هذا العصر ولسوف يستمر /٤٣٢٠٠٠/ عام فقط. لكن علي أن أضيف، وقد شعرت بنوع من التقزم فعلاً، إن عصر الظلمة هذا ليس إلا الطور الرابع من دور، الماها ـ يوغا الحالي الذي يساوي، بمجمله، عشرة أضعاف هذا الطور وإذا علمت أن كل ألف ماها ـ يوغا لا تساوي إلا

يوماً واحداً من أيام براهما، فإنك سترى ما أعني تماماً بالنسبة والتناسب.

ذلك أنني عند هذه النقطة (حيث ارتعشت وأنا على وشك تقديم الأطفال)، أشعر بأن بعض التواضع ليس خطأ.

هنا تنقل بادما ثقلها من جهة إلى أخرى، بشيء من الضيق «عم تتحدث؟» تتساءل وقد احمرت قليلاً «ذلك كلام براهامي فما شأني به؟».

... لكن، رغم أنني ولدت ونشأت بحسب التقاليد الإسلامية، أجد نفسي، وقد طغت علي فجأة تعاليم الزمن الأقدم، إذ أجد إلى جانبي بادماي التي كنت أتلهف لعودتها كل اللهفة... بادماي، إلهة اللوتس، تلك التي تملك كل الروث، تلك الأشبه بالعسل، المصنوعة من الذهب، تلك التي لها ولدان: الرطوبة والوحل...

«لعلك لا تزال محموماً»، تفترض بادما مقهقهةً «مصنوعة من الذهب، يا سيدي، كيف ذلك؟ ثم أنت تعلم أنه ليس لي أولاد..؟».

... بادما التي تمثل، جنباً إلى جنب مع جنيات ياكسا[١]، كنز الأرض المقدس، الأنهار المقدسة، غانغا ياموناسراسفاتي[٢]، وإلهات الشجر، إنها واحدة من حارسات الحياة، اللواتي يسلين البشر ويجلبن الراحة لهم حين يعبرون في شباك أحلام المايا... بادما، كأس زهرة اللوتس، التي خرجت من سرة فيشنو[٣]، والتي ولد براهما نفسه منها، بادما النبع، بادما أم الزمان...

«هيه» تقاطعني وقد بدا عليها القلق الآن «دعني أتلمس جبينك».

... وفي خضم الأشياء هذا، أين أنا يا ترى؟ هل أنا (الذي حملت لي عودتها السلوى والراحة) مجرد إنسان فانٍ ـ أم أكثر من ذلك يا ترى؟ ربما كالفيل مثلاً ـ أجل، لم لا وأنا ما أنا عليه بخرطومي الذي يشبه خرطوم الماموث، أنفي الذي يشبه أنف غانيش؟ الفيل الذي، يشبه «سين» إله القمر، يتحكم بحركة المياه، يهب المطر... الفيل الذي أنجبته الملكة إيرا، زوج

---

(١) (٢) من الميثولوجيا الهندوسية.

(٣) من الآلهة الهندوسية.

كاشياب، الرجل السلحفائي العجوز، سيد ووالد جميع المخلوقات على الأرض. الفيل الذي هو قوس القزح والبرق، والذي لا تزال قيمته الرمزية، كما ينبغي أن أضيف، موضع إشكال كبير.

حسن، إذاً: شديد المراوغة كقوس قزح، لا يمكن التنبؤ به كالبرق، مهزار كغانيش، لكن رغم كل شيء يبدو أن لي موضعي في عالم الحكمة القديمة.

«يا إلهي»، تهتف بادما وهي تندفع بحثاً عن منشفة تبللها بالماء البارد «جبينك مشتعل كالنار، الأفضل أن تستلقي الآن. لا يزال باكراً على هذه الكتابة، المرض هو الذي يتكلم، لا أنت».

لكنني أضعت أسبوعاً من قبل، وعلي أن أتابع، محموماً كنت أم غير محموم ذلك أنني، وقد استنفدت (للحظة الحاضرة) مصدر التوتر الخرافي القديم ذاك، أصل اللب الخيالي لقصتي، وعليّ أن أكتب بأسلوب بسيط ومباشر عن أطفال منتصف الليل.

أنتم تفهمون ما أقول: فخلال الساعة الأولى من يوم ١٥ آب ١٩٤٧ ـ أي ما بين منتصف الليل والساعة الواحدة ـ ولد ما لا يقل عن ألفْ طفل وطفل ضمن حدود دولة الهند ذات الاستقلال الوليد. وهذه، بذاتها، ليست واقعة غير مألوفة (رغم أن للرقم رنيناً أدبياً إلى حد غريب) ـ ففي ذلك الحين، كانت الولادات في تلك الناحية من عالمنا تفوق الوفيات بحوالى ستمائة وسبع وثمانين حالة في كل ساعة لكن ما جعل الحدث جديراً بالملاحظة (جديراً بالملاحظة!! إنها لكلمة مخيبة للأمل إن شئت) هو طبيعة هؤلاء الأطفال الذين كانوا بسبب عامل بيولوجي استثنائي، أو ربما بسبب قوة من قوى تلك اللحظة الخارقة للطبيعة أو بسبب المصادفة المحض (رغم أن تزامناً على مثل هذه الدرجة يمكن أن يحير حتى ث. ج. يونغ)، قد ولدوا بسمات أو مواهب أو قدرات لا يمكن وصفها إلا بأنها عجائبية. فقد بدا الأمر ـ إن سمحتم لي بلحظة واحدة من الخيال فيما سيكون بعد ذلك، وأعدكم كل الوعد أن أقدم، الوصف الأشد رصانة الذي يمكنني تقديمه ـ بدا الأمر وكأن التاريخ الذي وصل إلى نقطة الدلالة والوعد الأرفع، قد اختار أن

يبذر، في تلك اللحظة، بذور المستقبل التي ستختلف اختلافاً تاماً عن أي شيء شهده العالم حتى ذلك الحين.

إن كانت عجائب مماثلة قد حدثت فيما وراء الحدود، في باكستان المنقسمة حديثاً مثلاً فأمر لا علم لي به، ذلك أن تصوراتي ومفاهيمي، مهما ابتعدت، إنما كان يحدها البحر العربي، خليج البنغال، جبال هملايا وكذلك الحدود المصطنعة التي مزقت البنجاب والبنغال.

عدد هؤلاء الأطفال أخفقوا، ولا بد، في البقاء على قيد الحياة. فسوء التغذية والمرض وحوادث الحياة اليومية كانت مسؤولة عن وفاة ما لا يقل عن أربعمائة وعشرين واحداً منهم، وحين أصبحت مدركاً لوجودهم، رغم أن البعض قد يفترضون أن لهذه الوفيات هدفها المحدد أيضاً نظراً لأن العدد «٤٢٠» هو، منذ دهور طويلة، العدد الذي يترافق مع الغش والزيف والخداع. أمن المعقول، إذاً، أن الأطفال المفقودين قد قضي عليهم حين تبين أنهم سيكونون طالحين بشكل ما وأنهم ليسوا أطفالاً حقيقيين لمنتصف الليل ذاك؟ حسناً، في الدرجة الأولى، تلك شطحة أخرى من شطحات الخيال. وفي الدرجة الثانية، الأمر يعتمد على نظرة الإنسان للحياة تلك التي قد تكون نظرية إلى حد مفرط وقاسية إلى حد البربرية في آن معاً، كما أنه سؤال بلا جواب لذا فإن أي تدقيق للأمر أبعد من ذلك يدخل في باب مضيعة الوقت.

بمجيء عام ١٩٥٧، كان الأطفال الخمسمائة والواحد والثمانون الأحياء يقتربون جميعاً من ذكرى ميلادهم العاشرة، ومعظمهم، يجهل كلياً وجود بعضهم بعضاً ـ رغم أن هناك استثناءات بالتأكيد. ففي بلدة بودي، على نهر مهانادي في أوريسا، كانت هناك أختان توأمان باتتا أسطورة في المنطقة، ذلك أنهما رغم بساطتهما الشديدة كانتا كلتاهما تملكان القدرة على جعل كل رجل يراهما يقع في هواهما الجنوني الذي يصل أحياناً إلى درجة الانتحار، وإلى درجة بات معهما والداهما الحائران ضحية انزعاج لا نهاية له من سيل الرجال المتدفق الذين يأتون لطلب يدهما للزواج: رجال كبار في السن تخلوا عن حكمتهم ولم يخجلوا من شيبتهم، وشبان صغار كان ينبغي أن تسلب ألبابهم

ممثلات الأفلام السينمائية الجوالة التي كانت تمر بمدينة بودي مرة واحدة كل شهر، كذلك كان هنالك موكب آخر أكثر إزعاجاً، موكب من العائلات المحرومة يلعن الأختين التوأمين لسلبهما عقول أبنائهم ودفعهم لارتكاب أعمال العنف، بأنفسهم، كبتر أعضاء من أجسامهم والجلد بل حتى (في حالة واحدة) قتل الذات. لكن باستثناء حالات نادرة كهذه فإن أطفال منتصف الليل كانوا يكبرون وهم غير عارفين تماماً بعضهم بالبعض الآخر، غير عارفين بزملائهم الآخرين المختارين في طول الهند وعرضها، تلك الجوهرة الخام التي شطرت شطراً عشوائياً فظيعاً.

لكنني أنا سليم سيناء، ونتيجة لصدمة حدثت لي في حادث دراجة، بت عارفاً بهم جميعاً.

وإنني لأؤكد لكل من تمنعه تركيبته العقلية غير المرنة من تقبل هذه الحقائق،أن تلك هي الحقيقة، ولا تراجع عن الحقيقة، ومع ذلك سوف يتعين علي أن أتحمل شك المشككين ووطأته. لكن ما من شخص متعلم في هندنا هذه يمكنه أن يكون غريباً كلياً عن نمط المعلومات التي أهم بكشف النقاب عنها ـ ما من قارئ لصحافتنا الوطنية يمكن أن يكون قد فشل في الوقوع على سلسلة من قصص أطفال السحر والأعاجيب ومخلوقات الطبيعة. في الأسبوع الماضي فقط، كانت هنالك قصة ذلك الغلام البنغالي الذي أعلن أنه التجسيد الجديد لرابندرانات طاغور والذي بدأ يرتجل أشعاراً من نوعية لا بأس بها الأمر الذي أدهش والديه. كذلك بإمكاني أنا نفسي أن أتذكر أطفالاً، لواحدهم رأسان (رأس بشري ورأس حيواني آخر) ولبعضهم كذلك سمات غريبة أخرى كقرون الثيران مثلاً.

لكن علي أن أقول للتو إن مواهب الأطفال التي وهبهم إياها منتصف الليل لم تكن كلها من النوع المرغوب به من قبل في المجتمع، أو حتى المرغوب به من قبل الأطفال أنفسهم، لذا، هناك بعض الحالات بقي فيها أولئك الأطفال على قيد الحياة إنما حرموا من صفاتهم التي منحهم إياها منتصف الليل. مثال على ذلك (وعلى نحو موازٍ لقصة توأمي بودي) دعوني أذكر ابنة الشحاذ المدعوة سنداري التي ولدت في شارع يقع خلف المركز

العام للبريد في دلهي، على مقربة من الملحق الذي استمعت فيه أمينة سيناء لنبوءة رامرام سيث، والتي كان جمالها باهراً إلى درجة استطاعت معها، وخلال لحظات من مولدها أن تسبب العمى لأمها ولنساء الجيران اللواتي ساعدن في ولادتها، أما والدها الذي سمع صراخ النساء، فقد نجا نظراً لأن النساء حذرنه في الوقت المناسب، غير أن النظرة الخاطفة الوحيدة التي نظر بها إلى ابنته أضعفت بصره إلى درجة بات غير قادر، بعدئذٍ، على التمييز بين الهنود والسياح الأجانب، وهي عاهة أثرت كثيراً في قدرته على الكسب كشحاذ. ولحين من الوقت بعد ذلك، اضطروا لتغطية وجه سنداري بخرقة من القماش وقد ظلت كذلك إلى أن أخذتها قريبة عجوز قاسية القلب بين ذراعيها الناحلتين ثم شطبت وجهها تسع شطبات بسكين المطبخ. وفي الوقت الذي بت واعياً فيها كانت سنداري تكسب معيشتها بصورة سليمة، إذ لم يكن باستطاعة أحد أن ينظر إليها ويمتنع عن العطف عليها، هي الفتاة التي كان من الواضح أنها كانت باهرة الجمال إلى حد يصعب النظر إليها والتي باتت آنذاك مشوهة تشويهاً فظيعاً، فكانت تتلقى من الصدقات ما يفوق أي فرد آخر من أفراد عائلتها.

لكن نظراً لأنه ما من واحد من هؤلاء الأطفال كان يشك بأن لتوقيت ولادته شأناً بما هو عليه، فقد مر عليّ حين من الزمن قبل أن أكتشفه أنا نفسي. في البداية، أي بعد حادث الدراجة (وعلى الأخص حين طهرني المشتركون في مسيرة اللغة من حب ايفي بيرنز) رحت أرضي نفسي باكتشافي أسرار تلك الكائنات الخرافية، سراً سراً، تلك الكائنات التي دخلت فجأة حقل رؤيتي العقلية جامعاً إياها بلهفة شديدة وبالطريقة نفسها التي يجمع بها بعض الصبية الحشرات، إذ بعد أن فقدت اهتمامي بدفاتر تواقيع المشاهير وكل المظاهر الأخرى لغريزة الجمع، رحت أغوص حيثما وكافة المظاهر الأخرى لغريزة الجمع رحت أغوص حيثما يتاح لي ذلك في الواقع المنفصل والأكثر إشراقاً للأطفال الخمسمائة والواحد والثمانين (وكنا مائتين وستة وستين صبياً، أما البنات فقد كن يفقننا عدداً، إذ كن يبلغن ثلاثمائة وخمس عشرة بنتاً منهن بارفاتي، بارفاتي ـ الساحرة).

أطفال منتصف الليل... في كيرولا صبي لديه القدرة على دخول المرايا والظهور مرة ثانية عبر أي سطح عاكس في الأرض ـ عبر البحيرات (وبصعوبة أكبر) عبر أجسام السيارات المعدنية المصقولة... وهناك الفتاة الغوانية التي تتصف بالقدرة على إكثار الأسماك... وهناك الأطفال الذين يملكون القدرة على التحول: فمذؤوب[1] جبال نلجيري ومستجمع مياه فنديزا الكبير هو صبي باستطاعته أن يكبر أو يصغر بحسب رغبته وقد كان سبباً في إثارة الذعر الشديد والإشاعات حول عودة العمالقة... وفي كشمير كان هناك طفل أزرق العينين لست متأكداً من جنسه الأصلي نظراً لأنه ما إن يغطس في الماء حتى يصبح ذكراً أو أنثى طبقاً لهواه.

بعضنا أطلق على هذا الطفل اسم نارادا والبعض الآخر ماركانداديا، وذلك طبقاً لقصة الجن القديمة التي كنا قد سمعناها عن قدرة واحدهم على تبديل جنسه... وقريباً من جالنا، وفي بوج ـ بوج قرب كلكوتا كانت هناك فتاة ذات لسان حاد لكلماتها القدرة على إحداث جروح في الأجسام، وهكذا بعد أن وجد عدد من الناس أنفسهم ينزفون دماً غزيراً، نتيجة كلمة خرجت من شفتيها كالشوكة الحادة، فقد قرروا أن يحبسوها في قفص من الخيزران ويلقوا بها في نهر الغانج بحيث تطفو ويحملها التيار إلى أدغال السندربانز (وهي الموطن الملائم للوحوش والأشباح) لكن لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها: لذا كانت تتنقل عبر المدينة محاطة بهالة من الخوف إلى درجة لم يكن أحد يجرؤ على رفض تقديم الطعام لها. كذلك كان هنالك صبي باستطاعته أن يأكل المعدن وفتاة أصابعها خضر إلى درجة يمكنها معها أن تجعل الباذنجان ينمو في صحراء «تار»، وكان هنالك آخرون وآخرون وآخرون. لقد طفت بأعدادهم والتعدد الغريب لمواهبهم وقدراتهم إلى حد لم أعر معه، في تلك الأيام، إلا القليل من الاهتمام لذواتهم كأشخاص، لكن مما لا شك فيه أن مشكلاتنا، حين كانت تنشأ، إنما هي مشكلات البشر المألوفة التي تنجم عن أسباب شخصية وبيئوية، وفي مشاجراتنا لم نكن نتعدى أية حفنة من الأطفال.

---

(١) شخص مُسِخَ ذئباً.

حقيقة هامة أخرى: كلما كان الوقت الذي ولد فيه واحدنا أقرب إلى منتصف الليل، كانت موهبته أعظم. فأولئك الذين ولدوا في الثواني الأخيرة من الساعة الأولى، لم يكونوا (بصراحة) أكثر من الفلتات الطبيعية التي نراها في سيرك، مثال على ذلك: فتيات ذوات لحى، صبي ذو لَغَد شغال تماماً كغلاصم السمكة. توأمان سياميان لهما جسد ورأس وعنق واحدة ـ غير أن الرأس يمكنه أن يتكلم بصوتين، ذكر وأنثى، كما يمكنه أن يتكلم كل لغة ولهجة محكية في شبه القارة، لكن بالنسبة لما يتصفون به من أعاجيب فقد كان هؤلاء هم الأسوأ حظاً، أي كانوا العاهات الحية لتلك الساعة الخارقة للطبيعة. أما من ولدوا في نصف ـ الساعة الأول فقد ولدوا بقدرات أكثر إفادة وإثارة للاهتمام. ففي غابة جير كانت تعيش فتاة ـ ساحرة تملك القدرة على شفاء المرض بلمسة من يدها، كما كان هناك ابن مزارع شاي غني في سيلونغ لا يمكنه أن ينسى شيئاً رآه في حياته أو سمعه (نعمة هذه أم نقمة). أما الأطفال الذين ولدوا في الدقيقة الأولى من الساعة ـ فقد احتفظت لهم هذه الساعة الخارقة للطبيعة بأعظم المواهب التي يحلم بها إنسان، ولو تسنى لك يا بادما أن تحصلي على سجل بالولادات تم فيه تدوين أوقات الولادات بالثانية تماماً، لكنت ستعرفين أي سليل لعائلة لوكناو العظيمة (سليل ولد في الثانية الحادية والعشرين بعد منتصف الليل) برع تماماً، وهو في سن العاشرة، في كافة فنون السيمياء المفقودة، فتمكن بذلك من تجديد ثروات بيته القديم إنما المتداعي. كما كنت ستعرفين ابنة الغسالة المدراسية (وقد ولدت في الثانية السابعة عشرة بعد منتصف الليل) تلك التي كان في إمكانها أن تحلق إلى حيث لا يصل أي طائر، وذلك بأن تغمض عينيها فقط، وكذلك ابن صائغ الفضة البينارسي (وقد ولد في الثانية الثانية عشرة) ذاك الذي منح موهبة الترحال في الزمان وبالتالي القدرة على التنبؤ بالمستقبل وكذلك استجلاء الماضي. وهي الموهبة التي كنا، كأطفال، نثق بها جميعاً حين يتعلق الأمر بما أمسى طي النسيان، لكننا كنا نسخر منها حين تحذرنا من نهاياتنا وتتحدث عن مستقبلنا. . . لكن، لحسن الحظ، لا توجد سجلات كهذه، أما من جهتي، فإنني لن أكشف ـ أو بالأحرى، من خلال ادعائي بأنني أكشف،

سوف أعمل على تزييف أسمائهم وحتى أماكن وجودهم، إذ رغم أن دليلاً كهذا، قد يقدم إثباتاً مطلقاً لمزاعمي فلا يزال أطفال منتصف الليل يستحقون، رغم كل شيء، أن ندعهم وشأنهم بل ربما، أن ننساهم لكنني آمل (أملاً مضاداً) أن نتذكر. . .

بارفاتي ـ الساحرة التي ولدت في حي فقير من أحياء دلهي القديمة يتكدس بعضه فوق بعض حول درجات مسجد الجمعة. لم يكن هذا الحي عادياً رغم أن أكواخه كانت مبنية من صناديق التعليب العتيقة وقطع الصفيح المتآكلة ونتف أكياس القنب، وكلها تقوم على غير نظام في ظلال المسجد فلا تبدو مختلفة عن أي حي فقير آخر في البلدة. . . ذلك أن هذا الحي هو حي السحرة، أجل، المكان نفسه الذي أنجب ذات مرة «الطنان» الذي طعنته السكاكين وعجزت الكلاب المتعددة الألوان عن إنقاذه. . . إنه حي المشعوذين الذي كان يأوي إليه باستمرار أعظم السحرة والحواة والمشعوذين في الأرض، بحثاً عن حظهم في المدينة ـ العاصمة، ولا يجدون إلا أكواخ الصفيح ومضايقات الشرطة والجرذان. . . في الماضي، كان والد بارفاتي أكبر مشعوذ في «أوض»، لذا نشأت تلك الفتاة بين متكلمين من بطونهم يمكنهم أن يجعلوا الحجارة تروي نكتاً، وبين بهلوانات يمكنهم أن يبتلعوا سيقانهم وأكلة نار ينفثون اللهب من مؤخراتهم، ومهرجين مأساويين يمكنهم أن ينتزعوا دموعاً زجاجية من مآقيهم، ولقد كانت تقف بكل رقة بين الجموع المندهشة بينما يدق والدها الأوتاد في عنقها ليخرجها من الطرف الآخر، وكانت طوال الوقت تكتم سرها الذي كان أكبر من ذلك الهراء الذي يقدمه مشعوذ من المشعوذين المحيطين بها، ذلك، أن بارفاتي الساحرة، التي ولدت بعد سبع ثوان فقط من منتصف الليل، كانت قد وهبت قدرات الخبير الحقيقي بالسحر، قدرات الكائن النوراني، مواهب السحر الحقيقي، ذلك الفن الخالص الذي لا يعرف الصنعة.

إذاً كان بين أطفال منتصف الليل من يمتلكون القدرة على التحول، الطيران التنبؤ والسحر. . . غير أن اثنين منهم كانا قد ولدا مع دقة منتصف الليل، إنهما سليم وشيفا، شيفا وسليم، أنف وركب، ركب وأنف. . .

ونتيجة لذلك فقد وهب شيفا مواهب الحرب (مواهب راما[١] الذي يمكنه الرمي بقوس لا يستطيع أحد أن يرمي بها، مواهب أرجونا[٢] وبهيما[٣]، بأس كوروس[٤] وشجاعة بندافاس[٥] كلها مجتمعة وبصورة لا يمكن الوقوف في وجهها)... أما أنا، صاحب الموهبة الأعظم بين الجميع ـ فقد وهبت القدرة على رؤية ما في قلوب الناس وعقولهم.

لكنه عصر الكالي يوغا، وكل ما أخشاه أن يكون أطفال ساعة الظلمة قد ولدوا في منتصف عصر الظلمة، إذ رغم أنه كان من السهل علينا أن نكون لامعين، فقد كنا دائماً نحار إزاء مسألة هامة: هل نحن خيّرون أم أشرار؟

بذلك أكون قد قلت ما أردت قوله، أي من أنا ـ من نحن ـ أطفال منتصف الليل.

بادما تتطلع وكأن أمها فارقت الحياة للتو. وجهها، بفمه المنفتح ـ المنغلق أشبه بوجه سمكة لفظها البحر إلى الشاطئ. «أوه، بابا» تفلح أخيراً في النطق «أوه، بابا، أنت مريض، وإلا فما الذي تقوله؟».

لا، ذلك في غاية السهولة. إنني أرفض التستر بالمرض. لا ترتكبي خطأ شنيعاً في شطب ما كشفت النقاب عنه معتبرة ذلك مجرد هذيان، أو حتى مجرد خيالات مبالغ بها إلى حد الجنون، خيالات كان يتخيلها طفل بشع وحيد إلى حد الوحشة. لقد ذكرت من قبل أنني لا أتكلم بصورة رمزية مجازية. وما كتبته الآن (وقرأته بصوت عال لبادما المنذهلة) ليس، ورأس أمي، سوى الحقيقة بحرفيتها.

ذلك أن الواقع يمكن أن يكون ذا مضمون مجازي، وذلك لا يجعله أقل واقعية. لقد ولد ألف طفل وطفل، ومعهم ألف احتمال واحتمال من تلك الاحتمالات التي لم توجد في مكان واحد وزمان واحد من قبل، وكذلك ألف نهاية ونهاية من النهايات الميتة تلك. إن بإمكانك أن تجعل أطفال منتصف الليل يمثلون أشياء كثيرة وذلك تبعاً للزاوية التي تنظر منها: إذ يمكنك رؤيتهم باعتبارهم الرمية الأخيرة لكل ما هو عتيق مهجور تقهقري في

(١ ـ ٥) من آلهة الميثولوجيا الهندوسية.

بلادنا التي تطغى عليها الأساطير والتي كانت هزيمتها مطلوبة تماماً في سياق التحديث واقتصاد القرن العشرين، أو يمكنك رؤيتهم باعتبارهم الأمل الحقيقي للحرية الذي خمد الآن وإلى الأبد، لكن أن تراهم بوصفهم نتاجاً غريباً لعقل مريض يهذي فهذا ما ينبغي ألا يكون أبداً. كلا: المرض ليس هنا ولا هناك. «حسناً، حسناً بابا» تحاول بادما أن تهدئني «لماذا أنت عصبي إلى هذا الحد؟ ارتح الآن. . . ارتح قليلاً فهذا كل ما اطلبه منك».

ذلك كان بالتأكيد وقت الهلوسة في الأيام التي سبقت مباشرة عيد ميلادي العاشر، لكن الهلوسات لم تكن في رأسي. فأبي، أحمد سيناء، كان قد فر، مدفوعاً بموت الدكتور نارليكار ـ الغادر وبتأثير المشروبات الكحولية المتزايدة القوة، إلى عالم الأحلام، عالم الوهم المضطرب، غير أن الجانب الأشد خداعاً من جوانب تقهقره البطيء هو أن الناس ظلوا، ولمدة طويلة من الزمن، يعتقدون خطأ أنه عكس ما هو عليه تماماً. . . فهذه أم سوني، نوسي البطة، تقول لأمينة وهما في الحديقة ذات صباح: «أية أيام رائعة بالنسبة إليكم جميعاً، يا أخت أمينة!! فزوجك أحمد في عزه كم هو رجل رائع، وكم هو ناجح فيما هو خير لعائلته!!». إنها تقول ذلك بصوت عال إلى درجة تكفي لأن يسمعها أحمد نفسه، رغم تظاهره بأنه يعطي الجنائني تعليماته حول ما ينبغي فعله لمعالجة البوغنفيلية، ورغم اكتساء محياه بسمات الإنسان المتواضع المحتقر ـ لذاته، إلا أن ذلك يظل غير مقنع على الإطلاق، فجسده المفعم سكراً وثملاً كان قد بدأ، ودون أن يعلم بالأمر، ينتفخ ويتدور. بل حتى بوروشوتام، ذلك الناسك المكتئب الحزين الجالس تحت صنبور الحديقة، كان يبدو في غاية الضيق.

كان والدي يتلاشى. . . فلعشر سنوات تقريباً ظل دائماً يظهر في خير مزاج على طاولة الإفطار، قبل أن يحلق ذقنه، لكن، مع ابيضاض شعره وذبول بشرته، لم تعد نقطة السعادة الثابتة تلك ثابتة أو أكيدة، كما جاء اليوم الذي فقد فيه أعصابه عند الإفطار للمرة الأولى. لقد كان ذلك هو اليوم الذي رفعت فيه الحكومة نسبة الضرائب وخفضت الحدود الدنيا لجبايتها في وقت معاً، حينها قذف والدي إلى الأرض بصحيفته «التايمز الهندية» ثم حملق

حوله بعينين حمراوين كنت أعلم أنه لا يحملق بهما إلا حين يفقد أعصابه. «إنه أشبه بالذهاب إلى المرحاض»، انفجر على نحو مبهم، فيما اندفعت نثرات البيض والخبز والشاي مع انفجار غضبه، «إنك ترفع قميصك وتنزل بنطلونك، هذه الحكومة ذاهبة إلى المرحاض لتفعلها فوقنا جميعاً، أيتها الزوجة»، حينها ردت أمي، وقد احمرت خجلاً، فخالط اللون الزهري الأسود: «جانم، أرجوك، الأطفال!» لكنه ضرب الأرض بقدمه ضربة شديدة جعلتني أدرك تمام الإدراك ما يعنيه الناس بقولهم إن البلاد في طريقها إلى الخراب.

في الأسابيع التالية استمرت حلاقة والدي الصباحية بالتلاشي، كما فقدنا ما هو أكثر من سلام طاولة الإفطار، فقد بدأ ينسى حالته الماضية تلك التي كان عليها قبل خيانة نارليكار. وهكذا بدأت الطقوس المألوفة في حياتنا المنزلية بالتفسخ. إذ بدأ يبتعد عن طاولة الإفطار وبذلك لم يعد بإمكان أمينة أن تتملقه لاستدرار المال منه بل أصبح، وكنوع من التعويض، لا مبالياً بنقوده، كما غدا ما يخلع من ثياب مليئاً بأوراق النقد وقطعه إلى حد بات بإمكانها أن تحصل على ما تشاء بالتقاط ما في جيوبه. بيد أن الدلالة الأكثر إزعاجاً لانسحابه من الحياة العائلية هي أنه بات نادراً ما يروي لنا الحكايات التي كان يرويها حين نذهب إلى النوم وإذا ما فعل ذلك يوماً من الأيام، فإنما كيلا نستمتع بما يرويه، ذلك أن حكاياته أمست مريضة ـ الخيال بعيدة عن الإقناع. ورغم أن مادتها كانت ما تزال هي المادة نفسها أيام زمان: أمراء، جن، خيول مجنحة ومغامرات في البلدان المسحورة، إلا أننا كنا نسمع في ثنايا صوته الروتيني اللامبالي صريف وأنات مخيلة صدئة تالفة.

كان والدي قد استسلم للوهم. فموت نارليكار ونهاية حلم رباعيات الأرجل أوضحت لأحمد سيناء، على ما يبدو، العلاقات البشرية على حقيقتها كما أوضحت له عدم إمكانية الاعتماد عليها، وهكذا قرر أن يحرر نفسه من كل ارتباط أو علاقة كما ألزم نفسه بأن ينهض قبل الفجر وأن يغلق الباب عليه، هو وسكرتيرته في مكتبه في الطابق السفلي، حيث كانت قرب نوافذه الشجرتان دائمتا الخضرة اللتان زرعهما يوم ميلادي وميلاد القردة

واللتان كانتا قد كبرتا وارتفعتا إلى حد يكفي لحجب معظم ضوء النهار حين يأتي. وبما أننا نادراً ما كنا نجرؤ على إزعاجه فقد دخل في إسار عزلة عميقة، هي في بلدنا المزدحم حالة غير مألوفة إلى درجة يمكنها أن تقارب الشذوذ. فقد بدأ يرفض الطعام من مطبخنا كما بات يعيش على الطعام الرخيص الذي تأتيه به يومياً فتاة خاصة على طاولة غداء متنقلة. رائحة عطر غريبة كانت تهب من خلف باب مكتبه، ولقد حسبتها أمينة رائحة عفونة في الجو، رائحة طعام من الدرجة الثانية، أما أنا فقد كنت أعتقد أن رائحته القديمة عادت على نحو أشد، رائحة الفشل تلك التي كانت تنبعث منه في أيامه الأولى.

لقد باع شقق الإيجار الكثيرة التي كان قد اشتراها بأسعار بخسة حين قدم إلى بومباي والتي كانت تقوم عليها ثروتنا. ثم حرر نفسه من كل ارتباط عملي يربطه بالبشر ـ حتى المستأجرين لديه أولئك الذين لا يعرف أسماءهم في كورولا وورلي، في ماتونغا ومازاغون وماهيم ـ فقد صفى ممتلكاته ودخل عالم المضاربات المالية، ذلك العالم الرفيع المجرد. وبين جدران مكتبه كانت صلته الوحيدة، في تلك الأيام، بالعالم الخارجي (ما عدا سكرتيراته المسكينات) إنما هي الهاتف. إذ كان يقضي يومه غارقاً في التحادث مع هذه الآلة، بعد أن وضع نقوده في أسهم وبورصات هنا وهناك، كما كان يستثمرها في مستندات حكومية أو يحمل سندات تجارية عادية يبيعها لآماد طويلة أو قصيرة بحسب الطلب...

وكان باستمرار، يحصل على أفضل أسعار اللحظة الراهنة، فبتأثير حظ حسن لا يشبهه إلا حظ أمي في رهاناتها على الخيول قبل سنين، كان والدي وهاتفه يقتحمان المبادلات المصرفية اقتحاماً، وهي الصفة التي جعلها إدمان أحمد سيناء المتزايد على الشراب أكثر وأكثر وضوحاً. مع ذلك كان، هو المختبل ـ بالجن، يتدبر أمره ليظل ممتطياً تموجات سوق النقد فلا تغرقه، راداً على تغيراتها الشديدة وتقلباتها المفاجئة بالطريقة نفسها التي يرد بها عاشق على أخف نزوة من نزوات معشوقه... كان باستطاعته أن يحس مسبقاً متى سترتفع قيمة سهم من الأسهم ومتى سيبلغ الذروة، وكان دائماً يفر بجلده

قبل أن تسقط تلك الأسهم. هذه هي الطريقة التي كان يقضي بها أيامه تلك في عزلة مطلقة ولا صلة له بالعالم سوى هاتفه، وهذه هي الطريقة التي كانت ضرباته المالية تغطي بها انفصاله المطرد عن الواقع، لكن تحت غطاء ثروته المتنامية كانت حالته تسوء باطراد.

وفي النهاية، غادرت آخر سكرتيراته ذات التنورة المنقطة المكتب، لعجزها عن تحمل الحياة في جو مجرد شفاف إلى درجة تجعل التنفس متعذراً، فأرسل والدي في طلب ماري بيريبرا ثم أغراها بقوله: «نحن أصدقاء يا ماري، ألسنا كذلك أنا وأنت؟». فأجابت المسكينة بقولها: «أجل يا سيدي، أنا أعلم، فأنت سترعاني حين أصبح عجوزاً» ثم وعدته أن تجد له سكرتيرة بديلة. في اليوم التالي جاءت له بأختها، أليس بيريبرا التي كانت قد عملت لدى أصناف الناس كافة وكانت قادرة على تحمل ضروب الرجال كافة. وكان قد مضى زمن طويل على تسوية أليس وماري لخلافهما حول يوسف ديكوستا، وغالباً ما كانت أليس تصعد إلينا في الطابق العلوي مع انتهاء يوم العمل، ناثرة شيئاً من الخفة والدعابة في جو منزلنا الضاغط دائماً. لقد كنت مولعاً بها، ومن خلالها علمنا كل شيء عن إفراط أبي في الشراب، ذلك الإفراط الذي راحت ضحيته ببغاء أسترالية وكلب هجين.

في تموز، دخل احمد سيناء حالة دائمة تقريباً من الثمل. وقد ذكرت أليس أنه ذات يوم خرج فجأة بالسيارة، الأمر الذي جعلها تخشى على حياته، ثم عاد بشكل أو بآخر، ومعه قفص طائر مغطى وقد وضع فيه، كما قال، مكسبه الجديد الذي لم يكن سوى بلبل أو عندليب هندي. «ولا يعلم إلا الله» همست أليس: «كم حكى لي عن البلابل!! كم من قصص خرافية روى لي عن تغريدها وما إلى ذلك. لقد روى لي كيف أن تغريدها سحر خليفة بغداد يوماً، وكيف أنه يزيد جمال الليل ويطيله. الإله وحده يعلم ما هذر به ذلك الرجل المسكين مقتبساً من اللغتين العربية والفارسية ما لا يمكنني فهمه. لكنه بعد ذلك نزع الغطاء، فلم أرَ في القفص سوى ببغاء أسترالية من النوع الذي يتكلم. لا بد أن نصاباً ما في سوق الطيور كان قد صبغ الريش، لكن كيف يمكنني أن أقول الحقيقة للرجل المسكين، ذلك

الذي يكاد يطير فرحاً بطائره، ذلك الذي يجلس بقربه هاتفاً به: «غرد أيها البلبل الصغير، غرد»... لكن المضحك في الأمر أن الببغاء، وقبل أن يموت تماماً بسبب الصباغ الذي صبغ به ريشه، كرر القول الذي كان يردده عليه أبي، ليس بصوت الطير العالي الحاد، بل بصوت أبي ذاته تماماً «غرد، أيها البلبل الصغير، غرد».

لكن الآتي كان أسوأ. فبعد بضعة أيام، كنت جالساً مع أليس على سلم الخدم الحديد الحلزوني حين قالت: «بابا، أنا لا أدري ما حصل لوالدك هذه الأيام. فهو يقضي النهار بطوله جالساً هناك يصب اللعنات على الكلبة».

تلك الكلبة الهجينة، التي أطلقنا عليها اسم شيري، كانت في وقت سابق من ذلك العام قد جاءت تتمشى بهدوء إلى رابيتنا ذات ارتفاع الدورين وبكل بساطة اختارتنا، دون أن تعلم أن الحياة في إقطاعة ميثولد أمر خطر على الحيوانات. ومع كؤوس شرابه كان أحمد سيناء قد جعل منها حقل تجارب إذ كان يجري تجاربه في استنزال اللعنة العائلية.

إنها اللعنة الخيالية نفسها، تلك التي حلم بأن يصبها على رأس وليام ميثولد، لكن آنذاك وفي خلايا عقله الخفية، كانت الجن قد أقنعته بأن الأمر ليس خيالاً أو وهماً، بل كل ما في الأمر أنه نسي الكلمات لا غير، لذا كان يقضي الساعات بطولها في مكتبه المنعزل إلى حد الجنون يجرب صيغاً... «أشياء يلعن بها تلك المخلوقة المسكينة»، قالت أليس: «وإنني لأعجب كيف لا تسقط ميتة على الفور».

لكن شيري كانت تكتفي بالإقعاء في ركن من الأركان، والرد عليه بتكشيرة غبية، رافضة أن تتأثر أو تهتاج، إلى أن جاء ذات مساء، اندفع فيه والدي من مكتبه طالباً إلى أمينة أن تسوق بنا السيارة جميعاً إلى هوربني فيلارد، ومعنا شيري أيضاً. هناك تنزهنا، وعلى وجوهنا سيماء الحيرة والدهشة، صعدنا ونزلنا الشارع، بعدئذٍ قال: «ادخلوا إلى السيارة جميعاً». لكنه لم يسمح لشيري بالدخول... وحين انطلقت السيارة ثم بدأت تتسارع، وأبي وراء المقود، شرعت شيري تطاردنا، بينما القردة تصرخ «بابا، بابا» وأمينة تتوسل: «جانوم من فضلك» وأنا أجلس صامتاً مذعوراً. لكن كان علينا

أن نسير بالسيارة أميالاً، بل الطريق كله تقريباً إلى مطار سانتا كروز، قبل أن يشفي غله من الكلبة لرفضها الخضوع لسحره. . . أخيراً، انفجر أحد شرايينها وهي تجري خلفنا ثم ماتت والدم ينسكب من فمها ومؤخرتها تحت سمع وبصر بقرة جائعة.

وهكذا، ظلت القردة النحاسية، (رغم أنها لم تكن تحب الكلاب قط) تبكي طوال أسبوع، حتى أن أمي خشيت عليها من نقص السوائل، فجعلتها تتجرع غالونات من الماء، ساكبة إياها في فمها كما لو أنها مرجة من المروج، هكذا قالت ماري، لكنني أعجبت كثيراً بالجروة الجديدة التي اشتراها لي والدي في عيد ميلادي العاشر، ربما بدافع من شعوره بالذنب: كان اسمها البارونة سيميكي فون دير هايدن، وكانت تعود بنسبها الخالص إلى أصل إلزاسي، رغم أنني اكتشفت بعد حين أن هذا النسب مزيف، مثلما كان البلبل مزيفاً، وهمياً، مثلما كانت لعنة أبي المنسية ونسبه المغولي وهميين، وبعد ستة أشهر ماتت بسبب مرض تناسلي، فانقطع بموتها كل ما بيننا وبين الحيوانات الأليفة من أواصر.

لم يكن والدي الوحيد الذي جاء إلى عيد ميلادي العاشر قد أضاع رأسه في ضباب أحلامه الخالصة، فهناك كانت أيضاً ماري بيريرا التي كانت غارقة في بحر هيامها بصنع الصلصة والكازوندي والمخللات بكل أصنافها، ماري التي كنت أعرف رغم وجود أختها الباعث على البهجة، بأن شيئاً ما يسكن جمجمتها.

«مرحباً. ماري». تهش بادما التي تبدو وكأنها قد حسنت موقفها من مربيتي الآثمة، محيية عودتها إلى حلبة المسرح، «ترى ما الذي يتآكلها؟».

إنه هذا، يا بادما: لقد باتت ماري، المنكوبة بكوابيسها التي يهاجمها بها يوسف ديكوستا، تجد الوصول إلى النوم أمراً أكثر وأكثر مشقة. ولعلمها بما تخبئ لها الأحلام، كانت ترغم نفسها على البقاء يقظى. وهكذا بدأت حلقات سود تظهر تحت عينيها، حلقات تغطيها غشاوة رقيقة مترجرجة، وشيئاً فشيئاً بدأت ضبابية تصوراتها تخلط اليقظة بالحلم ليغدوا وكأنهما شيء واحد. . . حالة خطرة أن تدخلي بها يا بادما ـ إذ لن يتأثر عملكِ وحده

وحسب، بل تبدأ الأشياء كلها بالفرار من أحلامك. . . والواقع أن يوسف ديكوستا تمكن من اجتياز الحد الغامض المعالم، ولم يعد يظهر ككابوس، بل كشبح كامل الأجنحة. وهكذا بدأ، لا تراه (في تلك المرحلة) إلا عينا ماري بيريرا، يزورها في كل مكان من منزلنا الذي بات مع خجلها وشعورها بالعار، يعامله وكأنه منزله هو. كانت ماري تراه في غرفة الاستقبال بين المزهريات البللورية والتماثيل الجميلة وظلال مروحة السقف الدوارة، مسترخياً على الأرائك الوثيرة ملقياً برجليه الطويلتين رثتي الثياب على أذرعتها، في عينيه بياض البيض وفي قدميه ثقوب تحدد الأمكنة التي لدغته بها الأفعى. بل ذات مرة، رأته في سرير السيدة أمينة، عصراً وهو يتمدد ببرود القثاءة، إلى جانب أمي الراقدة فانفجرت صارخة «هيه، أنت، اخرج من هنا، ماذا تحسب نفسك، سيداً من السادة؟». لكنها لم تنجح إلا في إيقاظ أمي، وهي في أشد أنواع الذهول. كان شبح يوسف ينتاب ماري ويعذبها دون أن ينبس ببنت شفة، بل الأنكى من ذلك أنها ألفت نفسها تعتاد عليه، كما اكتشفت أن أحاسيس الحب التي نسيتها عادت تقض مضجعها ورغم أنها قالت لنفسها إنه من الجنون أن تفعل ذلك إلا أنها بدأت تشعر بنوع من الحب المتدفق يملأ كيانها، حب لروح بواب المستشفى الميت.

غير أن الحب ظل من طرف واحد. فعينا يوسف المبيضتان بقيتا خاليتين من أي تعبير، كما بقيت شفتاه ترسمان تكشيرة متهمة ساخرة. وأخيراً أدركت أن هذا الظهور الجديد لم يكن مغايراً ليوسف القديم، يوسف ـ أحلامها (ورغم أنه لم يكن يهاجمها قط) كما أدركت أنها إذا ما أرادت التحرر منه فإن عليها أن تقوم بالعمل الذي حرمت على نفسها مجرد التفكير به، أي أن تعترف بجريمتها للعالم كله. لكنها لم تعترف. وربما يقع اللوم في ذلك عليَّ ـ إذ كانت ماري متعلقة بي لكأنني ابنها الذي لم تحمله في أحشائها، وأن تعترف يعني أن تلحق بي أشد الضر، لذا، من أجلي أنا، راحت تقاسي من الشبح الذي كان يمثله وجدانها وكانت تقف مسكونة في المطبخ وهي تطهو طعامنا وتتحول، شيئاً فشيئاً، إلى ما يجسد السطر الأول في كتابي اللاتيني «أوراما يتيما»: «بجانب البحر، كانت المربية تطهو الوجبة». أوراما يتيما،

انسيلا سينام بارات. أي انظر إلى عيني المربية وهي تطهو، ولسوف ترى أكثر مما تحمله لك كتب النصوص في يوم من الأيام.

في عيد ميلادي العاشر، جيء بكثير من الفراريج كي تشوى.

وفي عيد ميلادي العاشر كان من الواضح أن الطقس الاستثنائي ـ من عواصف وفيضانات وبَرَد متساقط كالحجارة من سماء خالية من الغيوم ـ ذلك الطقس الذي أعقب حر عام ١٩٥٦ غير المحتمل قد تمكن من تخريب الخطة الخمسية الثانية، فقد اضطرت الحكومة ـ رغم أن الانتخابات كانت على الأبواب ـ لأن تعلن على الملأ أنها لن تقبل قروضاً إنمائية أخرى ما لم يكن أصحاب القروض على استعداد لأن ينتظروا سداد الدين أجلاً غير مسمى. (لكن اسمحوا لي بألا أضخم القضية: إذ رغم أن إنتاج الفولاذ الخالص لم يبلغ في نهاية الخطة عام ١٩٦١ إلا ٢,٤ مليون طن، ورغم أن عدد العاطلين عن العمل والمحرومين من الأرض كان، خلال هذه الأعوام الخمسة، قد تزايد عملياً إلى درجة فاق بها عددهم أيام الحكم البريطاني، إلا أن مكاسب أساسية تحققت أيضاً. فإنتاج فلزات الحديد تضاعف تقريباً كما تضاعفت القدرة الكهربائية، بينما قفز إنتاج الفحم من ٢٨ مليون طن إلى ٥٤ مليوناً، وبات الإنتاج السنوي من المنسوجات القطنية حوالي خمسة مليارات ياردة، إضافة إلى الأعداد الكبيرة من الدراجات، قطع الآلات، محركات الديزل، المضخات الكهربائية ومراوح السقوف. لكنني لا أستطيع منع نفسي من إنهاء عدي هذا بشيء من التشاؤم: فالأمية بقيت وكأنها لم تمس، والسكان ظلوا يتزايدون بكثرة).

في عيد ميلادي العاشر، قام بزيارتنا خالي حنيف الذي جعل من نفسه إنساناً غير محبوب كثيراً في إقطاعة ميثولد لصراخه وهو في أشد حالات الابتهاج «الانتخابات قادمة؟ حذار من الشيوعيين».

في عيد ميلادي العاشر، وحين ارتكب خالي حنيف زلته تلك، رأيت أمي (التي بدأت تغيب في «جولات تبضع») وهي تحمر خجلاً وحياء.

في عيد ميلادي العاشر، حاول سكان إقطاعة ميثولد جميعاً أن يبتهجوا، لكن تحت طبقة الابتهاج الرقيقة تلك، كانت فكرة واحدة تسيطر على أذهانهم

كافة «عشر سنوات، يا إلهي، أين ذهبت؟ ماذا فعلنا؟».

في عيد ميلادي العاشر، أعلن العجوز ابراهيم عن دعمه للماها غوجارات باريشاد، وفي ما يتعلق بتبعيّة مدينة بومباي، فقد ألقى بثقله كله إلى جانب الفريق الخاسر.

في عيد ميلادي العاشر، أثارت شكوكي احمرارة خجل رأيتها تطغى سراً على أفكار أمي، وما رأيته هناك قادني إلى ملاحقتها في البدء ومن ثم إلى تحولي إلى عين سرية خاصة تملك من الجرأة ما كانت تملكه عين روم مينتو الأسطورية في بومباي، كما قادني إلى القيام باكتشافات هامة في مقهى الرائد وجواره.

في عيد ميلادي العاشر، أقيمت لي حفلة حضرها جميع أفراد عائلتي التي نسيت كيف تفرح، وكذلك بعض زملائي في المدرسة ممن بعثهم أهلهم، إضافة إلى عدد من الفتيات الجميلات المضجرات من سابحات أحواض البريتش كاندي اللواتي سمحن للقردة النحاسية بأن تضحك عليهن وتقرص عضلاتهن المنتفخة، أما الكبار فقد حضر منهم ماري وأليس بيريرا، آل ابراهيم وهومي كاتراك، الخال حنيف والخالة بيا وليلى سبرماتي التي لفتت نظر كل تلميذ من تلاميذ المدرسة (وكذلك نظر هومي كاتراك) الأمر الذي أثار سخط بيا أيما إثارة، غير أن العضو الوحيد من عصابة الرابية الذي حضر الحفل إنما كان سوني ابراهيم المخلص الذي تحدى حظراً بحضور الاحتفالات كانت قد فرضته ايفي بيرنز الحاقدة على أمور كهذه وقد حضر محملاً برسالة إلي: «ايفي طلبت إبلاغك بأنك مطرود من العصبة».

في عيد ميلادي العاشر، قامت ايفي وآيسلايس وهيرويل بل وحتى سيروس العظيم باقتحام مخبئي، برج الساعة، واحتلاله وبذلك حرمت من ملاذي الوحيد.

في عيد ميلادي العاشر، بدا سوني منقلب المزاج والقردة النحاسية نائية بنفسها عن زميلاتها السابحات كما غدت ساخطة كل السخط على ايفي بيرنز إذ قالت «سأعلمها. لا تقلق أيها الأخ الكبير، سأريها، تلك الفتاة. حسناً، سأريها».

في عيد ميلادي العاشر علمت، وقد نبذتني مجموعة من الأطفال، أن خمسمائة وواحداً وثمانين طفلاً آخر كانوا يحتفلون بعيد ميلادهم أيضاً، وبذلك فهمت سر الساعة الأصلية لمولدي، ولأنني طردت من عضوية عصبة من العصب، فقد قررت أن أشكل عصبة خاصة بي، عصبة تنتشر في طول البلاد وعرضها، مقرها جمجمتي.

كذلك، في عيد ميلادي العاشر، سرقت الحروف الأولى لاسم نادي صغار ميترو ـ وهي أيضاً الحروف الأولى لاسم فريق الكريكيت الانكليزي الجوال ـ ثم أطلقتها على المؤتمر الجديد لأطفال منتصف الليل، حزبي الخاص فغدا اسمه ن. ص. و.

هكذا كانت الأمور حين كنت في العاشرة: لا شيء، سوى المزعجات والقلاقل في العالم الخارجي، لا شيء سوى الأعاجيب والمعجزات في عالمي الداخلي.

في مقهى الرائد

لا ألوان سوى الأخضر والأسود: الجدران خضر، السماء سوداء، (فليس هنالك سقف) النجوم خضر، الأرملة خضراء لكن شعرها أسود كالفحم. الأرملة تجلس على كرسي عال عال، الكرسي أخضر مقعده أسود. في شعر الأرملة فرق نصفي، الشعر أخضر من جهة اليسار أسود من جهة اليمين عال كالسماء، ذراع الأرملة طويلة كحبل الموت، بشرتها خضراء، أظافر الأصابع طويلة حادة سوداء. بين الجدران الأطفال خضر، الجدران خضراء، ذراع الأرملة تتلوى تلوي الأفعوان، الأفعوان أخضر، ذراع الأرملة تتصيد، ترى الأطفال يركضون ويزعقون، يد الأرملة تلتف حولهم خضراء وسوداء. ثم، واحداً تلو الآخر، تكتم أصوات الأطفال، يد الأرملة ترفعهم واحداً تلو الآخر، الأطفال خضر دمهم أسود فجرته أظافر جارحة فتناثر رشاشه أسود على الجدران (ذات اللون الأخضر) بينما ترفع اليد الملتفة الأطفال عالياً في السماء وواحداً إثر الآخر. السماء سوداء ليس ثمة نجوم، الأرملة تضحك، لسانها أخضر لكن أسنانها سود، الأرملة تمزق الأطفال إلى نصفين، تعجن وتعجن أنصاف الأطفال محيلة إياهم إلى كرات صغيرة، الكرات خضر، الليل أسود، الكرات الصغيرة تطير في الحلكة المخيمة على الجدران، الأطفال يزعقون بينما تمتد إليهم يد الأرملة واحداً إثر الآخر. وفي إحدى الزوايا نلطأ أنا والقردة النحاسية (الجدران خضر والظلال سود) نزحف على الجدران العالية العريضة الخضر التي يتحول لونها إلى الأسود ليس هناك سقف ويد الأرملة تمتد واحداً إثر الآخر يزعق الأطفال ثم تنكتم الأصوات،

يتحول الأطفال إلى كرات صغيرة. اليد، الصراخ، الانكتام، فالبقع السود على الجدران. في هذه اللحظة فقط نغدو أنا وهي وحدنا ولا صرخات أخرى من أحد. يد الأرملة تأتي متصيدة باحثة بجلدها الأخضر وأظافرها السود نحو الزاوية تتصيد، تبحث، بينما ننكمش على نفسينا في الزاوية أكثر وأكثر. جلدها أخضر، خوفنا أسود، وتمتد اليد وتمتد وتدفعني أختي خارجاً، خارج الزاوية بينما تبقى هي هناك لاطئة محملقة باليد، الأظافر تلتف، الصراخ، الانكتام، ثم رشاش أسود يرتفع عالياً في السماء والأرملة المقهقهة تمزق وأنا أنعجن على شكل كرات صغيرة، الكرات خضر، ثم أنقذف إلى الليل، الليل أسود..

هذا اليوم خفت وطأة الحمى. فطوال يومين (كما قيل لي) ظلت بادما تساهر الليل بطوله علي، تضع الكمادات الباردة على جبيني، تثبتني من يدي وأنا أرتعش وأرتعد فيما أحلم بيدي الأرملة، وطوال يومين ظلت تقرع نفسها على إعطائي دواء الأعشاب المجهولة. «لكن» أحاول طمأنتها هذه المرة، «لم يكن لدوائك شأن بمرضي»، إنني أعرف هذه الحمى، فهي تنبعث من داخلي وليس من مكان آخر ثم تنز عبر شروخي الداخلية كرائحة العفن. مثل هذه الحمى أصابتني أيضاً في عيد ميلادي العاشر فقضيت يومين طريح الفراش، والآن، بينما تعود ذكرياتي للتسرب مني، تعاودني هذه الحمى القديمة أيضاً فأقول لبادما: «لا تقلقي. لقد التقطت هذه الجرثومة منذ واحد وعشرين عاماً تقريباً».

نحن لسنا بمفردنا. إنه الصباح في مصنع المخللات وقد أتوا بولدي كي يراني. إحدى النساء (ولا تبالوا بهويتها) تقف إلى جانب بادما بجوار سريري، ممسكة بولدي بين ذراعيها. «بابا، الحمد لله على تحسنك أوه! أنت لا تعلم ما كنت تهذي به أثناء مرضك». تلك المرأة تتكلم بقلق واضطراب، محاولة أن تشق طريقها إلى قصتي قبل الأوان، لكن محاولتها لن تفلح. تلك المرأة التي أوجدت معمل المخللات هذا وما فيه من أعمال تعليب إضافية، تلك المرأة التي ترعى طفلي المنيع تماماً كما كان ذات مرة... لكن هونا! كادت تنسل مني، لكن لحسن الحظ، ما زلت قادراً على

ضبط نفسي، محتفظاً بكامل قواي العقلية، حمى أو لا حمى! سيتعين على تلك المرأة أن تتقهقر إلى الوراء أن تبقى في الظل مجهولة الاسم والهوية إلى أن يأتي دورها، وهذا لن يكون قبل بلوغ النهاية ذاتها. وهكذا أشيح بوجهي عنها، أنظر إلى بادما. «لا تهتمي» أدفعها للتذكر «إنما كان ذلك بسبب الحمى، ما قلته من أشياء ليس صحيحاً تماماً. فكل شيء حدث كما ذكر تماماً».

«يا إلهي!» تهتف المرأة «اللعنة على قصصك. فطوال الليل والنهار، وانت صريع المرض! توقف بعض الوقت يا رجل فماذا يضيرك؟» وأزم شفتيَّ بإصرار عنيد فتستأنف، وقد تغير مزاجها بغتة «إذاً قل لي الآن يا سيدي: أتريد شيئاً؟».

فأطلب «صلصة خضراء. خضراء لامعة كلون الجندب النطاط». فتتذكر تلك المرأة التي لا يسعني ذكر اسمها وتقول لبادما (بصوت خافت لا يستخدمه الناس إلا عند أسرة المرضى وفي الجنائز): «أنا أعلم ما يقصد».

... لماذا، في هذه اللحظة الحرجة، وحين تنتظرني آلاف الأشياء كي أصفها، حين كان مقهى الرائد بالغ القرب، وكذلك التنافس بين الركب والأنف ـ لماذا أدخلت شيئاً لا يتعدى البهار إلى الحوار؟ (لماذا أضيع وقتي، في هذا الوصف، على شيء لا يستحق إضاعة الوقت، في حين أنه كان بإمكاني أن أصف انتخابات ١٩٥٧ ـ حين كانت الهند برمتها تنتظر الإدلاء بأصواتها، قبل إحدى وعشرين سنة؟) ذلك أنني استنشقت الهواء وشممت رائحة تخفيها التعابير الجزعة على وجوه زواري، رائحة خطر لاذعة، ونويت أن أدافع عن نفسي لكنني كنت بحاجة لمساعدة الصلصة.. حتى الآن لم يتح لي أن أريكم مصنع المخللات في ضوء النهار. وهذا ما بقي أمامي دون وصف: فمن خلال نوافذي ذات الزجاج المشرب بالأخضر، كانت غرفتي تطل على ممر حديد يهبط بعدئذٍ إلى طابق الطهو حيث تفور الرواقيد النحاسية وتبقبق وحيث تقف نساء ذوات بأس شديد على درجات خشب يحركن مغارف ذات أذرع طويلة عبر أبخرة المخللات القاطعة كحد الموسى، بينما تلمع (إذا ما نظرنا إلى العالم من الجهة الأخرى، وعبر

نافذة تشرب زجاجها بالأخضر) تلمع خطوط سكة حديد لمعاناً باهتاً تحت أشعة شمس الصباح، كما تتصل بها وعلى فواصل منتظمة جسور إشارات شبكة الكهرباء التي تتسم بالفوضى. في ضوء النهار، تكف إلهتنا النيونية ذات اللونين الأصفر والأخضر عن التراقص فوق أبواب المعمل إذ نطفئها توفيراً للكهرباء. بيد أن قطارات الكهرباء تستهلك الطاقة، قطارات محلية صفر وبنية تقعقع جنوباً نحو محطة تشير تشجيب من دادار وبوريفلي، من كورلا وشارع باسين. ذباب بشري بسراويل بيض سميكة يتكوم بعضها فوق بعض متدلياً من القطارات، ولا انكر أنك، ضمن جدران المعمل، قد ترى أيضاً بعض الذبابات. لكن هناك أيضاً عظاءات معادلة وقد تدلت من القطار ساكنة دون حراك منقلبة رأساً على عقب، فكوكها تذكر بشبه جزيرة كاتيادار... وهناك أيضاً أصوات تنتظر أن يسمعها أحد: بقبقة الرواقيد، الغناء الصاخب، اللعنات الفظة، المزاج البذيء وكل ذاك الهراء الذي تتبادله نسوة شديدات البأس زغباوات الأذرع والتحذيرات الشديدة للمتلصصين وصليل مرطبانات المخللات الطاغي على كل شيء والقادم من ورشة التعليب المجاورة. ثم حفيف القطارات وطنين الذباب (الذي يحدث أحياناً، إنما بصورة لا بدّ منها)... وبينما تستخلص الصلصة الخضراء كالجندب من راقودها ليؤتى بها على طبق ممسوح نظيف مخططة حافته بالأخضر والزعفران، جنباً إلى جنب مع طبق آخر تكومت فوقه وجبة خفيفة جيء بها من محل إيراني قريب، بينما يجري كالمعتاد ـ ما مررنا على ذكره ـ الآن، ويملأ الجو ما ـ يمكن ـ سماعه ـ الآن (دون أن نذكر ما يمكن شم رائحته) أدرك، وأنا الوحيد في سريري المكتبي، مع رجفة من الخوف أن هناك من يقترح القيام بنزهات إلى الخارج.

... «حين تقوى أكثر» تقول المرأة التي لا يمكن ذكر اسمها، «عليك أن تقضي يوماً بكامله في اليفانتا. ولم لا؟ تركب مركباً بخارياً وتذهب في نزهة جميلة وتشاهد تلك الكهوف جميعاً بنقوشها البالغة الروعة، أو تذهب إلى شاطئ جوهو تسبح، تشرب حليب جوز الهند، تشاهد سباق الجمال، أو تذهب حتى إلى مستعمرة إيري ميلك». فتثني بادما: «الهواء الطلق، أجل ثم

إن الطفل الصغير سيسر بصحبة والده» وترد المرأة وهي تربت على رأس ولدي «هناك، طبعاً، سوف نذهب جميعاً. نزهة جميلة، يوم رائع في الخارج، بابا ذلك سيفيدك كثيراً».

مع وصول الصلصة إلى غرفتي، أسارع إلى وضع حد لهذه المقترحات، «لا» أقول رافضاً «لدي عمل وعلي أن أنجزه» فأرى نظرة تتبادلها بادما والمرأة وأرى أن شكي كان في محله. ذلك أنني كنت قد تعرضت للخداع حين عرض علي القيام بنزهة ذات مرة في الماضي. ذات مرة في الماضي، خدعتني الابتسامات الزائفة والعروض بالذهاب إلى مستعمرة ايري ميلك، جعلتني أخرج في نزهة بالسيارة. بعدئذٍ، وقبل أن أعلم حقيقة الأمر، كانت هناك أيد تقبض علي، ودهاليز مستشفى وأطباء وممرضات يثبتنني في مكاني ثم ينزل قناع على وجهي يسكب المخدر في أنفي وصوت يقول: «باشر العد الآن، عد حتى العشرة». . . أنا أعلم ما تخططان له: فأقول لهما «اسمعا. أنا لست بحاجة إلى أطباء». فتتساءل بادما «أطباء؟ عم تتكلم». . . لكن على من تراها تضحك؟ وهكذا أقول بابتسامة مقتضبة «هاكم جميعاً: خذوا شيئاً من الصلصة. إذ ينبغي أن أروي لكم بعض الأشياء الهامة».

كانت الصلصة الخضراء تنقل المرأتين إلى عالم ماض ذاك ـ الصلصة الرائعة نفسها التي كانت تعدها لي، عام ١٩٥٧، مربيتي ماري بيرييرا، تلك الصلصة الخضراء كالجنب التي تقترن إلى الأبد بتلك الأيام ـ بينما كانت الصلصة ترخي أعصابهما وتجعلهما أكثر تقبلاً لما أقول: بدأت التحدث إليهما بلطف وبصورة مقنعة، واستطعت، بمزيج من البهارات والخطابة، إبقاء نفسي خارج تناول رجال الطب ـ الأخضر الخبثاء. فقد قلت: «ابني سيفهم، وهو من أوجه له قصتي، هو أكثر من أي مخلوق على وجه الأرض، كي يتمكن فيما بعد، حين أكون قد توقفت عن الكفاح ضد الشروخ، من أن يعرف. الأخلاق: إصدار الأحكام، الشخصية. . . كلها تبدأ بالذاكرة. . . وإنني أحتفظ بأوراق الكربون».

الصلصة الخضراء المبهرة بالتوابل تغيب في جوف المرأة، الصلصة الخضراء بلون الجنب مع الفطيرة الساخنة تختفي خلف شفتي بادما. أراهما

وقد بدأ الضعف يتسرب إليهما فأضغط «لقد قلت لكما الحقيقة» أكرر ذلك مرة أخرى «حقيقة الذاكرة. ذلك أن للذاكرة عالمها الخاص. إنها تصطفي، تمحو، تحوِّر، تبدِّل، تكبِّر، تصغِّر، ترفع من قدر شيء وتحط من قدر شيء آخر أيضاً، لكنها في النهاية تصنع عالمها الخاص بها، رؤياها للأحداث، تلك الرؤيا غير المتجانسة إنما المتماسكة عادة، وما من كائن بشري عاقل يمكن أن يثق بنسخة من ذاكرة شخص آخر أكثر مما يثق بنفسه».

أجل، لقد قلت «كائن بشري عاقل» وأنا أعلم بماذا تفكران: «كثير من الأطفال يصنعون أصدقاء خياليين، لكن ألف طفل وطفل! ذلك ضرب من الجنون!». لقد زعزع أطفال منتصف الليل إيمان بادما نفسها بما رويته، لكنني لففت حولها ودرت حتى لم يعد ثمة حديث عن النزهات.

كيف أقنعتهما: بالحديث عن ولدي الذي كان بحاجة لأن يعرف قصتي، وبتسليط الضوء على أعمال الذاكرة وبأساليب وحيل أخرى، بعضها نزيه نزاهة الغر الساذج والبعض الآخر ماكر مكر الثعلب. فقد قلت: «حتى النبي محمد ظن نفسه مجنوناً بادئ ذي بدء: أوتحسبون أن الفكرة لم تخطر ببالي؟ لكن النبي كان لديه زوجته خديجة وصديقه أبو بكر اللذان أكدا له صدق دعوته، لا أحد خدعه، لا أحد سلمه لأطباء ـ المصح». عند هذه النقطة كانت الصلصة قد أفعمتهما بأفكار الماضي البعيد، فرأيت آثار الشعور بالذنب تظهر على وجهيهما وكذلك الشعور بالخجل فاستأنفت بشيء من البلاغة «ما هي الحقيقة؟ ما هو العقل؟ أصحيح أن يسوع المسيح قام من قبره؟ ألا يوافق الهندوس ـ يا بادما ـ على أن العالم ضرب من الحلم وأن براهما قد حلم ويحلم بالكون، وأننا لا نرى إلا رؤية مبهمة عبر نسيج ـ الحلم، عبر المايا». هنا اتخذ صوتي نبرة خطابية مترفعة وأنا أستأنف «والمايا يمكن تعريفها بأنها كل ما هو وهم، خداع، غش، مصطنع. فالتوهمات والأشباح، السراب والتهيؤات وكل ما يتبدى من أشياء: كل هذا تتكون منه المايا. فإن قلت أنا إن أشياء معينة، جرت تجدين، وأنت ضائعة في حلم براهما، أن من الصعب عليك تصديقها إذاً من منا على صواب؟». ثم أضفت بشيء من الجلال: «خذي المزيد من الصلصة»، مقدماً لنفسي قدراً سخياً منها «فطعمها رائع».

لكن بادما طفقت تبكي. «أنا لم أقل إنني لم أصدق. طبعاً، على كل رجل أن يروي قصته بطريقته، لكن..».

فقاطعتها على نحو جازم «لكن، أنت أيضاً ـ أليس كذلك؟ ـ تبغين معرفة ما حدث؟ تبغين أن تعرفي كل ما يتعلق بالأيدي التي كانت ترقص دون أن تتلامس، وبالركب أيضاً، وفي ما بعد كل ما يتعلق بالعصا الغريبة، التي كان يحملها المقدم سبرماتي، وبالطبع، كل ما يتعلق بالأرملة؟ والأطفال ـ وما حل بهم؟».

فهزت بادما رأسها بالإيجاب. هكذا،، وقد وجدتا قضيتي أكبر بكثير من مسألة الأطباء والمصحات، سمحتا لي بأن أكتب (وحيداً، إلا من بادما المقرفصة عند قدمي). صلصة وخطابات لاهوت وحب استطلاع. ذلك ما أنقذني. وثمة أمر آخر ـ دعنا ندعه: «التعليم أو الأصول الطبقية» أما ماري بيريرا فتدعوه: «العربية الصحيحة» ذلك أنني بما أبديت لهما من فصاحة ونقاء نبرة، جعلتهما تخجلان بل تشعران أنهما غير جديرتين بالحكم علي، وذلك ليس من النبل الحقيقي في شيء، لكن حين تكون سيارة الإسعاف جاهزة تنتظر الإشارة، فكل ما يفعله المرء حسن. (وقد كانت هناك: لقد شممت رائحتها). مع ذلك كان لدي تحذير بالغ القيمة وهو أن من الخطأ الشديد أن يحاول المرء فرض وجهة نظره على الآخرين.

بادما: إن كنت تشكين قليلاً بإمكانية الوثوق بي أقول لك: حسن، بعض الشك ليس بالأمر السيئ... فالرجال المعتدون بأنفسهم يأتون أعمالاً نظيفة، وكذلك النساء.

في تلك الأثناء كنت في العاشرة من العمر وكنت أجهد تفكيري، كي أختفي في صندوق سيارة أمي.

كان ذلك في الشهر نفسه الذي اختفى فيه، وبصورة نهائية، الزاهد بوروشوم تام (الذي لم أخبره بشيء عن حياتي الداخلية أبداً) اختفى من مكان وجوده الثابت مسلماً نفسه للحازوقة الانتحارية التي بدأت تهاجمه منذ سنة كاملة، وغالباً ما كان يرتفع بجسده عدة بوصات عن الأرض بحيث كان رأسه

الذي حفر الماء فيه بقعة صلعاء يدق، وعلى نحو مخيف، بصنبور الحديقة، وفي النهاية قتلته تلك الحازوقة، فذات مساء، وفي ساعة الكوكتيل، وجدناه منقلباً على أحد جانبيه وكانت رجلاه متشابكتين في وضعيتهما اللوتسية القديمة تاركاً ثآليل أمي دونما أمل بالشفاء. في تلك الأثناء، كنت غالباً ما أقف في حديقة بكنغهام في الأمسيات، أراقب قمر السبوتنيك وهو يعبر السماء وأشعر بالخيلاء والنشوة والوحشة تماماً كما كانت تشعر لايكا الصغيرة. الكلبة الأولى والوحيدة التي أطلقت إلى الفضاء حتى الآن (والبارونة سيمكي فون دير هايدن التي أصيبت بعد فترة وجيزة بالسفلس، تجلس إلى جانبي تلاحق بعينيها الإلزاسيتين الومضات الضوئية لسبوتنيك ـ لقد كان ذلك زمن اهتمام الكلاب الشديد بسباق الفضاء) في تلك الأثناء كانت ايفي بيرنز وعصابتها قد احتلت برج الساعة الذي كان مأواي، كما كانت صناديق الغسيل قد باتت محظورة وصغيرة علي في الوقت ذاته، لذلك، وبقصد السرية والحذر كنت مضطراً إلى أن أقصر زياراتي لأطفال منتصف الليل على ساعتنا الساكنة الخاصة ـ كنت أتواصل معهم كل منتصف ليل، وفي تلك الساعة فقط، تلك الساعة التي يحتفظ بها للأعاجيب والمعجزات، تلك الساعة التي تبدو وكأنها خارج الزمان. في تلك الأثناء ـ ولكي أصل إلى هدفي ـ صممت أن أثبت بالدليل القاطع، دليل المساعدة العيانية ـ ذلك الشيء الفظيع الذي لمحته يمثل في مقدمة أفكار أمي ـ فمنذ أن كنت أتمدد مختفياً في صندوق الغسيل، منذ أن سمعت المقطعين الفاضحين للسر، بت أشك بأمي ذات الأسرار. وقد أثبتت رحلاتي إلى داخل عملياتها الفكرية شكوكي تلك، وهكذا قمت، وفي عيني نظرة التعميم الفولاذية القاسية، بزيارة سوني ابراهيم عصر يوم من الأيام وفي نيتي أن ازجه في معركتي. وجدت سوني في غرفته، وهو يلعب الكريكيت بمفرده، حزيناً مكتئباً تحيط به ملصقات الدعاية الخاصة بالثيران الإسبانية، حين رآني صرخ بشيء من التعاسة «هيه، يا رجل، أنا حزين للغاية بخصوص ايفي، إنها لا تصغي لأحد، يا رجل، فماذا فعلت بها بحق الجحيم؟». لكنني رفعت يداً مترفعة تطلب إليه أن يصمت ويطيع.

«يا رجل، لا وقت لذلك الآن» قلت له، «الأمر وما فيه أنني بحاجة لأن أعرف كيف أفتح الأقفال بلا مفاتيح».

ثمة حقيقة هامة تتعلق بسوني ابراهيم: فرغم أحلامه كلها بمصارعة الثيران، كانت عبقريته تكمن في دنيا الميكانيك. في ذلك الحين كان قد مضى عليه حين من الزمن يعمل في صيانة جميع الدراجات الموجودة في إقطاعة ميثولد مقابل إعطائه الكتب الهزلية وتقديم المرطبات له مجاناً. حتى ايفي بيرنز كانت تضع تحت رعايته دراجتها الحبيبة. وكان على ما يبدو ينتصر على كل الآلات بالاستمتاع البريء الذي كان يداعب به أجزاءها المتحركة. ما من خلل كان يعصى على مهاراته. أي بعبارة أخرى، كان سوني ابراهيم قد بات (بفضل روح البحث الخالص لديه) خبيراً في فتح الأقفال.

والآن وقد عرضت عليه فرصة لإثبات إخلاصه لي، برقت عيناه «أرني القفل وحسب! خذني إلى ذلك الشيء!».

وحين تأكدنا أننا في منجاة من مراقبة أحد، زحفنا على طول الممر الواقع بين فيلا باكنغهام وفيلا سان سوسي ثم وقفنا خلف سيارتنا الروفر القديمة حيث أشرت إلى صندوق السيارة ثم قلت «ها هو ذا! إنني بحاجة لأن أكون قادراً على فتحه من الخارج ومن الداخل أيضاً».

فاتسعت عينا سوني. «هيه... ما الذي تنوي فعله يا رجل؟ هل تنوي الفرار سراً من منزلك أو شيئاً من هذا القبيل؟».

وبرفع إصبعي إلى شفتي اتخذت سيماء غامضة ثم قلت برصانة شديدة: «أمر لا يمكن شرحه يا سوني. معلومات في غاية السرية».

«وو. و. يا رجل!» تلعثم سوني ثم أوضح لي خلال ثلاثين ثانية كيف يمكن فتح الصندوق بواسطة شريط من البلاستيك السويدي الرقيق «خذه يا رجل»، قال سوني إبراهيم أخيراً: «فأنت ستحتاجه أكثر مني».

كان يا ما كان في قديم الزمان، كان هناك أم وافقت، كي تصبح أماً، على تغيير اسمها، ثم وضعت نصب عينيها مهمة الوقوع في غرام زوجها عضواً عضواً، لكنها لم تستطع أن تقع في غرام عضو واحد، هو، يا للغرابة! العضو الوحيد الذي كان باستطاعته أن يجعل أمومتها ممكنة، أم، قدماها

تعرجان بسبب المسامير وكتفاها تنوءان بآلام العالم المتراكمة، أم فشل عضو زوجها العصي على حبها في أن يشفيها من آثار الجمود، فخضعت أخيراً، شأنها شأن زوجها، لنداء هواتف سرية، حيث راحت تقضي دقائق طويلة وهي تصغي إلى كلام المتصلين بالهاتف الذين أخطأوا الرقم. . . وبعد فترة وجيزة من عيد ميلادي العاشر (حين كنت قد شفيت من الحمى التي عاودتني حديثاً بعد فاصل زمني يقارب الواحد والعشرين عاماً)، استأنفت أمينة سيناء ممارستها الحديثة في المغادرة فجأة وبصورة مباشرة دائماً بعد النداء الهاتفي ذي الرقم الخاطئ، في رحلات تبضع عاجلة، لكن هذه المرة، كان يرحل معها، وهو مختف في صندوق الروفر، صبي متخف تسنده من كل جانب المساند المسروقة ويشد قبضته على شريط رقيق من البلاستيك ذي اللون الوردي.

أوه! يا للعناء الذي يلاقيه المرء في سبيل الحق! يا للرضوض والخبطات! يا لاستنشاق هواء صندوق السيارة المطاطي عبر أسنان يصطك بعضها بالبعض الآخر!علاوة على الخوف المستمر من أن يكتشف. . . «افرض أنها تذهب إلى السوق فعلاً، تتسوق! هل سينفتح الصندوق فجأة؟ هل ستقذف إلى داخله الفراريج الحية وقد ربطت أرجلها معاً وشبكت أجنحتها لتغزو مخبئي السري؟ هل ستأمر، سترك يا رب، بأن أصمت لمدة أسبوع؟». وهكذا، وأنا متكور على نفسي وركبتاي تحت ذقني التي لم يحمها من خبطات السيارة والركبتين سوى وسادة عتيقة حائلة اللون ـ رحلت إلى المجهول في عربة خيانة أمومية. كانت سائقة حذرة، تسوق سيارتها ببطء وتلف المنعطفات على مهل، لكن رغم ذلك أصبت بكدمات سود وزرق الأمر الذي جعل ماري بيريرا تشك بأنني دخلت في عراك ما: «يا إلهي، إنني لأعجب كيف لم يمزقوك إرباً إرباً، يا إلهي! ما الذي أصابك أيها الغلام الشرير، أيها المصارع، يا جلداً على عظم!».

ولكي أخلص تفكيري من الظلمة المتغلغلة دخلت، بحذر بالغ، ذلك الجزء من عقل أمي المسؤول عن عملية القيادة، ونتيجة لذلك تمكنت من تتبع الخط الذي كنا نسير عليه (وكذلك من رؤية درجة من الفوضى المنذرة

بالخطر داخل عقل أمي المنظم المرتب عادة. ففي تلك الأيام، كنت قد بدأت فعلاً ضرباً من التصنيف للناس وذلك بحسب درجة انتظامهم الداخلي، فاكتشفت أنني أفضل الصنف الأشد فوضوية، ذلك الصنف الذي تتصادم أفكاره الواحدة بالأخرى بحيث تتداخل لديهم التصورات الحدسية للطعام مع القضايا الجدية المتعلقة بكسب الرزق كما تتراكب التخيلات الجنسية مع تأملاتهم السياسية، كما اكتشفت أن لذلك الصنف علاقة أكثر حميمية بذهني المشوش المضطرب الذي يصطدم كل شي فيه بكل شيء، والذي تتواثب نقطة الوعي البيضاء فيه متنقلة من أمر إلى آخر مثل برغوث قلق... أما أمينة سيناء التي كانت غريزتها الآمرة المواظبة قد زودتها بدماغ منظم إلى حد غير عادي تقريباً، فقد كانت بعيدة كل البعد عن عالم الفوضى).

لقد اتجهت شمالاً، ثم عبرنا مستشفى بريتش كاندي فمعبد مهالاكسمي، فشمالاً على طول شارع هورنبي فيلارد فاستاد باتيل فألابهاي فضريح جزيرة الحاج علي، أي إلى الشمال مما كان ذات مرة (قبل أن يصير حلم وليام ميثولد الأول حقيقة واقعة) جزيرة بومباي. لقد كنا نتجه نحو تلك الكتلة المجهولة الاسم التي تتألف منها شقق الإيجار وقرى صيادي السمك ومعامل النسيج واستديوات السينما التي صارت إليها المدينة في تلك المناطق الشمالية (غير بعيد من هنا! غير بعيد على الإطلاق من المكان الذي أجلس فيه حيث تقع ضمن نظري القطارات المحلية!).. إنها المنطقة التي كانت، في تلك الأيام، مجهولة تماماً من قبلي وسرعان ما أضعت اتجاهي واضطررت بعد ذلك لأن أعترف لنفسي أنني قد تهت. أخيراً، وفي شارع جانبي غير خلاب، شارع مليء بمفترشي المجارير ومحلات إصلاح الدراجات وبالرجال والغلمان ذوي الملابس الرثة، في ذلك الشارع وقفت. لكن ما إن نزلت أمي من سيارتها حتى هاجمتها أسراب من الأطفال، وبما أنها لم تكن تستطيع صد ذبابة، راحت تعطيهم قطعاً نقدية صغيرة، الأمر الذي زاد من حجم الحشد إلى حد هائل. أخيراً، شقت طريقها بينهم ثم اتجهت نزولاً في الشارع، وكان ثمة غلام يتوسل إليها «أعطيني، ألمع لك السيارة يا بيجوم؟ ملمع من الطراز الأول يا بيجوم؟ سأراقب السيارة إلى أن

تأتي يا بيجوم؟ إنني حارس ممتاز حقاً، اسألي الجميع يا بيجوم». وبقدر غير قليل من الرعب، أصخت السمع منتظراً جوابها. كيف تراني أخرج من هذا الصندوق تحت سمع وبصر ذلك الغلام ـ الحارس؟ فرغم الازعاج الذي كان يحمله ذلك الصندوق لي، كان خروجي منه سيخلق هياجاً شديداً في الشارع. . . لكن أمي قالت «كلا»، وهي تختفي منحدرة في الشارع. أخيراً أقلع الغلام، الذي كان يبتغي أن يكون حارساً وملمعاً للسيارة، عن محاولاته، ثم مرت لحظة من الزمن التفتت فيها جميع الأعين لمراقبة سيارة ثانية قادمة، وفي اللحظة التي توقفت فيها السيارة ونزلت سيدة منها لتلقي على الصبية المشردين بالنقود وكأنها الجوز، في تلك اللحظة تماماً (وكنت أسترق النظر بعدة أزواج من العيون كي تساعدني في اجتياز اللحظة المناسبة) نفذت خدعتي بواسطة القطعة البلاستيك وخرجت إلى الشارع مغلقاً صندوق السيارة خلفي برمشة عين. بعدئذٍ انطلقت، زاماً شفتي متجاهلاً كل الأكف الممتدة، بالاتجاه نفسه الذي سارت أمي فيه، شرطياً سرياً صغيراً في وجهه أنف كلب الصيد وفي صدره، حيث ينبغي أن يكون قلب، طبل يدق عالياً. . . وبعد بضع دقائق وصلت إلى مقهى الرائد.

زجاج وسخ في النوافذ، زجاج قذر على الطاولات ـ فهذا المقهى ليس شيئاً يذكر مقارنة بمقهى غيلورد وكواليتس في أحياء المدينة الأكثر رقياً، إنه يعج بالفوضى، لوحاته تعلن عن أنواع المرطبات إنه يعج بالفوضى، لوحاته تعلن عن أنواع المرطبات والمشروبات بأسلوب دعائي سقيم، بينما تلعلع من مذياع رخيص موسيقى فيلم صاخبة، إنه قاعة ضيقة طويلة مخضرة اللون تضيئها مصابيح نيونية ترتعش، عالم ممنوعات يجلس فيه رجال مهشمو الأسنان إلى طاولات مغطاة بستائر خشبية، فوقها أوراق لعب مكرمشة وعيون خاوية، لكن رغم كآبته هذه، فقد كان مقهى الرائد مستقر أحلام كثيرة. ففي صبيحة كل يوم تجده مليئاً بأفضل المتسكعين العاطلين عن العمل في المدينة، بكل الأزلام وسائقي التاكسي والمهربين الصغار وسماسرة سباق الخيل السريين ممن جاؤوا إلى المدينة، ذات يوم، وهم يحلمون ببطولات سينمائية ومنازل فاخرة ودفعات ضخمة من المال. ذلك أنه في السادسة من

كل صباح، ترسل الاستديوات الرئيسية في المدينة موظفين صغاراً إلى مقهى الرائد لتجنيد عناصر مساعدة للقيام بالتصوير اليومي. وهكذا طوال نصف ساعة من كل صباح، حين تكون استوديوات راما وفيلمستان وأفلام آركي تنتقي بغيتها، يتحول مقهى الرائد إلى بؤرة تستقطب مطامع المدينة وآمالها كافة، بعدئذٍ يغادر مبعوثو الاستديوات، يرافقهم من أصابه الحظ في ذلك النهار، فيفرغ المقهى ويعود إلى خدره المعتاد المضاء ـ بالنيون ـ لكن حين يقترب موعد الغداء تؤم المقهى مجموعة أحلام مغايرة لكي تقضي العصر متكومة فوق ورق اللعب تمجُّ سجائر اللاسي الحبيبة والبيري الخشنة ـ رجال آخرون ودنيا أخرى. لم أكد اعرفها حينذاك لكن مقهى الرائد وقت العصر كان المألف الذي يرتاده أعضاء الحزب الشيوعي ذوو السمعة السيئة.

وكان الوقت عصراً. شاهدت أمي تدخل مقهى الرائد فلم أجرؤ على اللحاق بها، بل مكثت في الشارع، ضاغطاً بأنفي على زاوية من زوايا مصرع نافذة كالحة اللون عشش فيها العنكبوت، متجاهلاً النظرات المستغربة التي كان الناس يرمقونني بها ـ بسبب ثيابي البيض المنشاة رغم الأوساخ التي لحقت بها من الصندوق، وبسبب شعري الملمع ـ بالزيت جيداً رغم الشعث الذي لحق به من الصندوق، وبسبب حذائي الذي كان، رغم آثار الصندوق، لا يزال خفاً رائعاً مما يلبسه الأطفال الميسورون ـ لقد لاحقتها بعيني وهي تمضي مترددة قليلاً متمايلة بسبب ثآليلها ومساميرها عابرة بالطاولات المخلعة والرجال ذوي النظرات القاسية، ثم رأيتها تجلس إلى طاولة مظللة في أبعد ركن من الكهف الضيق، بعد ذاك رأيت الرجل الذي نهض لتحيتها.

كان جلد وجهه يتدلى طيات طيات كشفت أنه كان ذات يوم مفرط البدانة وكانت أسنانه ملطخة بآثار البان. كما كان يرتدي سترة بيضاء نظيفة موشاة في منطقة عرى الأزرار. كذلك كان شعره طويلاً طويلاً كشعور الشعراء، ينسدل مسترسلاً على أذنيه، لكن قمة رأسه كانت صلعاء لامعة. وفي الحال ترددت أصداء المقطعين المحرمين في أذني: نادر، فأدركت أنني نادم كل الندم على أنني جئت.

كان يا ما كان، في قديم الزمان، كان هنالك زوج متخفٍ تحت الأرض

فر هارباً بعد أن ترك رسالة طلاق مفعمة بالحب، كان هنالك شاعر لم تعرف أشعاره القوافي، شاعر أنقذت حياته الكلاب المتعددة الألوان. وبعد عقد من الزمن ظهر من مكان لا يعلمه إلا الله، وقد تهدل جلد وجهه مذكراً ببدانته ذات يوم كما غدا له، شأنه شأن المرأة التي كانت زوجته في أيام ماضيات، اسم جديد. . فنادر خان بات الآن قاسم خان وهو مرشح رسمي للحزب الشيوعي الرسمي في الهند. لال قاسم أو قاسم الأحمر. لا شيء بلا معنى: وليس بلا سبب تحمر الوجنات. خالي حنيف قال ذات مرة «حذار من الشيوعيين!»، وانقلب لون أمي قرمزياً، السياسة والعاطفة اتحدتا في وجنتيها. . . وهكذا عبر الشاشة السينمائية الزجاجية المربعة الوسخة التي تشكلها نافذة مقهى الرائد، رحت أراقب أمينة سيناء ونادر الذي لم يعد نادراً بعد، وهما يؤديان مشهداً من مشاهد حبهما فرأيتهما يؤديانه بغير مهارة تماماً كما يفعل الهواة المبتدئون.

على الطاولة المغطاة بالستارة الخشب علبة سكائر: من نوع القطار السريع رقم ٥٥٥ وللأرقام دلالتها أيضاً: فالرقم ٤٢٠ هو الاسم الذي يطلق على المزورين والمزيفين، ١٠٠١ رقم الليل، رقم السحر، العوالم البديلة ـ وهو رقم يحبه الشعراء ويكرهه السياسيون الذين يعتبرون كل نسخة بديلة عن العالم إنذار بخطر يهددهم، والرقم ٥٥٥ هو الرقم الذي ظللت سنوات عدة اعتقد أنه أكثر الأرقام شؤماً وأنه رمز للشيطان، تجسيد لإبليس نفسه! (هكذا قال لي سيروس العظيم ولم يخطر ببالي أنه قد يكون على خطأ. لكنه كان على خطأ: فالرقم الشيطاني الحقيقي ٦٦٦ وليس ٥٥٥. . .) لكن أراني استطردت بعيداً. إذ يكفي أن أقول إن نوع الدخان الذي كان نادر ـ قاسم يفضله إنما هو ذاك الذي سبق ذكره: «القطار السريع» وان الرقم ٥ يتكرر ثلاث مرات على العلبة وأنه من صنع و. د. ويلز أخوان. ولعجزي عن النظر إلى وجه أمي، فقد ركزت بصري على علبة السجائر، منتقلاً من لقطة الحبيبين إلى لقطة النيكوتين البعيدة هذه. لكن، تدخل إطار الصورة الآن أيدٍ ـ أولاً يدا نادر ـ قاسم وقد فقدتا نعومتهما الشاعرية وقستا بشكل من الأشكال هذه الأيام، يدان ترتعشان كلهب الشمعة تزحفان عبر غطاء الطاولة، يدان

تحومان فوق ثلاثة أرقام، تبدآن رقصة من أغرب الرقصات، ترتفعان، تنزلان، تدور واحدتهما حول الأخرى، تتشابك واحدتهما بالأخرى، يدان تتشوقان للمس، يدان تمتدان متوترتين مرتعشتين طالبتين أن تكونا ـ لكن دائماً ترتدان في النهاية، وقد تحاشت رؤوس أصابع ملامسة رؤوس أصابع، ذلك أن ما أشاهده هنا على شاشة ـ السينما الزجاجية الوسخة إنما هو فيلم هندي يحرم فيه اللمس خشية إفساد الجيل الهندي الصاعد وهناك أقدام تحت الطاولة ووجوه فوقها، أقدام تتقدم باتجاه أقدام، ووجوه تميل بكل رقة نحو وجوه، لكنها جميعاً تنكفئ على نحو مفاجئ وكأنما قطعت الشريط يد المراقبة الصارمة. . . غريبان، كلاهما يحمل اسماً سينمائياً ليس هو اسمه الحقيقي وكلاهما يمثل دوره شبه ـ المرفوض. لكنني تركت الفيلم قبل انتهائه لأنزلق عائداً إلى صندوق الروفر التي لم يحرسها أحد ولم يلمعها أحد، وأنا أود لو أنني لم أجئ لرؤية ذلك الفيلم، مع ذلك كنت عاجزاً عن مقاومة الرغبة في مراقبته كله مرة ثانية.

ذاك الذي رأيته في النهاية ذاتها: يدا أمي ترفعان كأساً نصف فارغة من شراب اللاسي[1] الحبيب، شفتا أمي تضغطان بلطف وحنين على الكأس المرقشة، يدا أمي تسلمان الكأس إلى نادرها ـ قاسمها الذي يضع هو الآخر، وعلى الجانب المقابل من الكأس، فمه الشاعري، إذاً: كل ما في الأمر أن الحياة تقلد الفن الرديء. أخت خالي حنيف تحمل شهوانية القبلة غير المباشرة إلى مقهى الرائد القذر والمنار بالنيون الأخضر.

جملة القول: في عز الصيف من عام ١٩٥٧ وفي ذروة الحملة الانتخابية، احمرت أمينة سيناء خجلاً وعلى نحو غير قابل للتفسير لدى ذكر الحزب الشيوعي الهندي. فتبعها ابنها ـ الذي كان في غمرة أفكاره المضطربة يعاني من هاجس آخر يسيطر عليه، ذلك أن دماغ صبي في العاشرة يمكنه أن يتسع لأي عدد من الهواجس والتعلقات ـ وهكذا لحق الصبي بأمه في شمالي المدينة حيث رأى مشهداً ملؤه الألم من مشاهد الحب العاجز. (فنادر خان لم

(١) اللبن العيران.

يعد من مساوئه عجزه الجنسي بعد أن أصيب أحمد سيناء نفسه بالجمود والعجز. وهي، الممزقة بين زوج حالي رهين مكتب وهجينات لعينات وبين زوج سابق كان يلعب معها، ذات يوم وبكل حب، لعبة إصابة المبصقة، وجدت نفسها تقنع بقبلات الكؤوس ورقصات الأيدي).

أسئلة: هل أفدت، بعد تلك المرة، من خدمات القطعة البلاستيك الوردية؟ هل عدت إلى مقهى العناصر السينمائية المساعدة والشيوعيين؟ هل واجهت أمي بالطبيعة النادرة للإساءة التي ارتكبتها تحت بصر ابنها الوحيد وسمعه ـ إذ ما من شأن أم بالمجيء إلى شخص كهذا ـ وبغض النظر عما كان في يوم من الأيام ـ كيف تراها استطاعت أن ترتكب إساءة كهذه، كيف استطاعت، كيف استطاعت؟ أجوبة: أنا لم أفعل، لم أفعل، لم أفعل.

ما فعلته: أنني كنت أحشر نفسي في أفكارها حين تذهب في جولات التبضع «كنت أدخل، أنا الذي لم أعد راغباً بالحصول على دليل عيني، إلى رأي أمي ثم أمضي إلى القسم الشمالي من المدينة. وفي ذلك المخبأ غير المعقول في مقهى الرائد كنت أجلس، أسمع الأحاديث عن توقعات قاسم الأحمر الانتخابية، ثم أتتبع، غير مجسد مادياً إنما حاضراً كلياً، أتتبع أمي وهي ترافق قاسماً في جولاته، صاعداً نازلاً بيوت المنطقة الفقيرة (أهي نفسها التي كان والدي قد باعها مؤخراً، تاركاً شققه المؤجرة إلى أقدارها) ثم وهي تساعده في تثبيت صنابير الماء وإزعاج أصحاب الشقق في مطالبتهم بمباشرة الإصلاحات والتعميمات. كانت أمينة سيناء تتحرك بين الفقراء لصالح الحزب الشيوعي ـ وهي حقيقة لم تفشل في جعلها تندهش وتحمرّ خجلاً. لعلها فعلت ذلك بسبب خواء حياتها المتزايد، لكنني في سن العاشرة لم أكن على استعداد للتعاطف معها، وبأسلوبي الخاص بدأت أحلم أحلام انتقام.

يقال، إن الخليفة الأسطوري هارون الرشيد كان يستمتع بالتنقل متخفياً بين أهل بغداد، كذلك كنت أفعل أنا، فقد كنت أنا سليم سيناء أتجول سراً في أزقة بلدي، لكن لا يسعني القول لإنني كنت أستمتع كثيراً.

أوصاف واقعية لما هو شاذ وغريب وكذلك لما هو عكسه أي الأشكال الرفيعة المنمقة من الأساليب العادية ـ تلك الأساليب، التي ليست إلا مواقف

فكرية أيضاً. والتي اكتسبتها ـ أو ربما تمثلتها ـ من أعظم أطفال منتصف الليل ـ روعة، من منافسي وزميلي ـ وبديلي، لابن المزعوم لوب ويلي وينكي: شيفا أبي الركب. إنها الأساليب التي كان يستخدمها بصورة لا واعية تماماً، ونتيجتها هي خلق صورة عن العالم ذات تماثل مذهل، عالم يمكن فيه أن يذكر بصورة عرضية عابرة، إن جاز القول، جرائم القتل المخيفة للمومسات، تلك الجرائم التي بدأت تملأ صفحات الجرائد في تلك الأيام (بينما كانت الجثث تملأ المجاري) ثم يتريث مولعاً بالتفاصيل المعقدة لفتّة ورق بالذات. فالموت والخسارة في لعبة «الرومي» هما سيان لدى شيفا، من هنا فإن عنفه اللامبالي المخيف الذي أدى في النهاية.. لكن دعنا نبدأ من البداية.

رغم أن الخطأ كان خطأي بصورة لا مراء فيها فإنني مضطر لأن أقول إنك إن نظرت إلي كمذياع صرف، تكون قد أمسكت بنصف الحقيقة، فالتفكير ذو صفة رمزية أو تصويرية مثلما هو ذو صفة لفظية كلامية، لذلك كان لا بدّ لي، كي أتوصل مع زملائي من جماعة أطفال منتصف الليل وأتفهمهم، من أن أنتقل بسرعة إلى ما وراء المرحلة اللفظية الكلامية. ذلك أنني لدى وصولي إلى عقولهم الشديدة التباين، كنت مضطراً لأن أمضي تحت الطبقة السطحية للأفكار الموجودة في مقدمات أدمغتهم والمتمثلة بلغات غير مفهومة فأتوصل إلى نتيجة واضحة (وبينة سابقاً) هي أنهم يعرفون بحضوري. ثم أعمد، وأنا أتذكر الأثر الهائل الذي تركته مثل هذه المعرفة على ايفي بيرنز، لأن أتحمل بعض الآلام كي أخفف صدمة دخولي. وفي جميع الحالات، كان بثي النموذجي الأول هو صورة عن وجهي وهو يبتسم ابتسامة حملتها كل ما هو مهدئ وودي وموحٍ بالثقة، كابتسامة القادة والزعماء مع صورة يد تمتد محملة بالود. مع ذلكَ كانت هناك مشكلات ظهور الأسنان.

فقد مضى حين من الزمن قبل أن أدرك أن صورتي عن نفسي كانت مشوهة تشويهاً حاداً بفضل وعيي الذاتي لمظهري. حتى أن الصورة التي كنت أرسلها عبر الموجات الفكرية للأمة، تلك الصورة المبتسمة ابتسامة لقطة تشيشاير، كانت صورة، كريهة بل أكره ما يمكن أن تكون عليه صورة، إذ

كان يبرز فيها أنف ضخم على نحو عجيب وذقن لا وجود لها على الإطلاق وبقايا قرنية ضخمة على كل صدغ. ولا عجب أنه غالباً ما كانت تحييني صرخات الإنذار العقلي. وأنا أيضاً غالباً ما كانت تخيفني الصور الذاتية لزملائي أبناء العاشرة من العمر. فحين اكتشفنا ما كان يحدث، شجعت أعضاء المؤتمر أن يذهبوا، واحداً تلو الآخر، ليلقوا على أنفسهم نظرة في مرآة أو سطح بركة ساكنة، ثم عمدنا لأن نكتشف حقيقة شكلنا فعلاً. المشكلات الوحيدة هي أن زميلنا الكيرالي (الذي يمكنه، كما تتذكرون، أن يرحل عبر المرايا) انتهى بالمصادفة لأن يظهر من مرآة مطعم في أرقى حي في نيودلهي واضطر لأن يقوم بتراجع سريع، في حين أن زميلنا الكشميري ذا العينين الزرقاوين سقط في بحيرة وبالمصادفة بدل جنسه إذ دخل كفتاة وخرج كفتى جميل.

حين قدمت نفسي إلى شيفا أول مرة، شاهدت في ذهنه صورته المرعبة، صورة الشاب قصير ذي وجه كوجه الجرذ وأسنان مستوية كأنها بردت بمبرد واثنتين من أكبر الركب التي عرفها العالم.

وحين واجهتني تلك الصورة ذات التنافر الغريب إلى هذا الحد، سمحت للابتسامة المرتسمة على صورتي المشعة، بأن تبهت قليلاً، كما بدأت يدي الممتدة ترتعش وتنكمش. في البداية، حينما شعر شيفا بحضوري، رد رداً ملؤه الغضب والسخط فشعرت بأمواج غضب هائلة فوارة تسفع داخل رأسي لكن بعدئذٍ قال: «هيه ـ انظر أنا أعرفك. أنت ولد غني من إقطاعة ميثولد، أليس كذلك؟»، فرددت وأنا مندهش مثله «ابن وينكي ـ الولد الذي فقأ عين آيسلايس!» فانتفخت صورته الذاتية بالكبرياء.. «أجل.. أنا هو لا أحد يخطئني يا رجل!». فقلت وقد ردني تعرفي إليه إلى التفاهات «إذاً، كيف والدك؟ إنه لا يأتي..» فرد بما بدا وكأنه نوع من الانتعاش «من؟ هو؟ لقد مات يا رجل!».

وحدثت وقفة فورية، ثم ذهول ـ فلا غضب بعد الآن ـ بعد ذاك تابع شيفا: «اسمع يا صاح؟ هذا شيء رائع، فكيف تفعله؟». هنا اندفعت إلى تفسيري المعتاد لكنه بعد لحظات قليلة قاطعني «إذاً، اسمع! والدي قال إنني

أنا الآخر ولدت في منتصف الليل تماماً ـ إذاً ألا ترى أن هذا يجعلنا رئيسين مشتركين لعصابتك هذه، عصابة منتصف الليل؟ موافق؟ وعلى هذا النحو، فإن أولئك الأطفال سيعجبون بما ترويه لهم!». حينذاك انتصب أمام عيني صورة شخص ثان أكثر قوة هي صورة إيفين ليليث بيرنز. . . لكنني طردت تلك الفكرة الفظة ثم شرحت «ليست تلك فكرتي تماماً بالنسبة إلى المؤتمر، ففي ذهني كما تعلم، شيء أشبه باتحاد أنداد، بحيث تعطى حرية التعبير لكل وجهات النظر. .». وفي الحال رددت جدران رأسي صوتاً أشبه بنخرة شديدة «ضرب من الهراء يا رجل. ترى ماذا نفعل بعصابة كهذه وكل عصابة بحاجة لزعيم؟ انظر إلي مثلاً ـ (قال ذلك وقد عادت إليه نفحه الكبرياء) ـ لقد ظللت أرأس عصابة في ماتونغا مدة سنتين، أي مذ كنت في الثامنة، عصابة تضم من هم في سني ومن هم أكبر سناً، فما رأيك؟». فقلت، دون أن أعني تماماً ما أقول: «وماذا كانت تفعل عصابتك هذه؟ ـ هل كانت لديها نظم وقواعد؟». فملأت ضحكة شيفا أذني. . «ياه. . أيها الطفل الغني الصغير، كانت ثمة قاعدة واحدة، الكل يأتمر بأمري أو أقلب الدنيا على رأسه». وبيأس بالغ، تابعت محاولتي في إقناع شيفا بوجهة نظري «الأمر وما فيه أن علينا أن نجتمع على هدف، أليس كذلك؟ أعني، ينبغي أن يكون ثمة سبب، موافق؟ ما أراه أن علينا أن نبين ما سوف نكرس حياتنا. .»، «أنت ولد غني!» صرخ شيفا، «لكنك تجهل شيئاً هاماً! ما الهدف يا رجل؟ أي شيء في هذا العالم الفاعل بأخته يوجد له سبب، أواه! ما السبب في أنك أنت غني وأنا فقير؟ أين السبب في الموت جوعاً، يا رجل؟ الله يعلم كم مليوناً من الحمقى الملعونين يعيشون في هذه البلاد يا رجل، وأنت تظن أن هناك سبباً! سأقول لك شيئاً يا رجل: اعمل على التوصل إلى ما تستطيع، وافعل به ما تستطيع، بعدئذٍ سيتعين عليك أن تموت، ذلك هو السبب أيها الولد الغني. وكل شيء آخر مجرد هراء!».

آنذاك، وأنا على فراشي في منتصف الليل، بدأت بالارتعاش ثم قلت «لكن، التاريخ. . . ورئيس الوزراء الذي كتب رسالة. . و. . ألا تؤمن حتى بالـ. . ترى من يدري ما يمكننا. .». فقاطعني شيفا، ذاتي البديلة قائلاً:

«اسمع أيها الفتى الصغير. أنت مشبع بأفكار بلهاء وبإمكاني أن أرى أنني سوف أتولى أمر تلك العصابة، فانقل ذلك لجميع الأولاد الآخرين أمثالنا».

أنف وركب، ركب وأنف.. والمنافسة التي بدأت في تلك الليلة لن تنتهي قط قبل أن تغوص سكينان إلى الأسفل والأسفل والأسفل.. ما إذا كانت روح ميان عبد الله، الذي قتلته السكاكين قبل سنوات، قد تسللت إلي، مشربة إياي بفكرة الاتحاد الفضفاض، جاعلة إياي سهل المنال على السكاكين، أمر لا يمكنني البت فيه، لكن عند تلك النقطة استجمعت شجاعتي وقلت لشيفا: «أنت لا تستطيع إدارة المؤتمر، بل إنهم بدوني لن يتمكنوا من الاستماع إليك!».

فقال، بما يشبه تثبيتاً لإعلان الحرب: «أيها الولد الغني، سيكونون بحاجة لأن يعرفوا كل شيء عني وما عليك إلا أن تحاول إيقافي».

فقلت له: «أجل. لسوف أحاول».

***

شيفا، إله التدمير، أقوى الآلهة طراً، شيفا أعظم الراقصين، من يركب على ظهر الثور، من لا تقف قوة في وجهه.. والصبي شيفا الذي توجب عليه، كما قال لنا، أن يكافح من اجل البقاء منذ أيامه الأولى. فحين فقد والده المغني صوته فقداناً تاماً، قبل حوالى سنة، كان على شيفا أن يدافع عن نفسه ضد وي ويلي وينكي وحماسته الأبوية، فقد روى القصة التالية: «لقد عصب عيني يا رجل! لف قطعة من القماش حولهما وأخذني إلى سطح المنزل يا رجل! وهل تعلم ما كان في يده؟ مطرقة لعينة يا رجل! مطرقة! ابن الزنى كان ينوي تهشيم ساقي ـ وذلك يحدث، كما تعلم أيها الولد الغني، يحدث أن يفعلوا ذلك بالأطفال كي يتسولوا عليهم ـ فأنت تكسب مالاً أكثر إن كنت محطماً تماماً يا رجل! وهكذا ظل يدفعني إلى الأعلى إلى أن وجدت نفسي ممدداً على السطح. بعد ذاك.. بعد ذاك هوت المطرقة باتجاه الركبتين العجراوين أكثر من أي ركبتين في العالم، وهما هدف سهل غير أن الركبتين تحركتا، وبسرعة أكبر من سرعة البرق تباعدتا ـ أحستا بالهواء الهاوي مع المطرقة فانفتحتا أشد ما تستطيعان، عندئذ سقطت المطرقة بين الركبتين وهي

لا تزال في قبضة الوالد، فاندفعت الركبتان لتلتحم واحدتهما بالأخرى وتشدا كقبضة اليد. لهاث متحشرج يخرج من شفتي الأب المنهك، والركبتان تشدان، تشدان إلى أن يسمع صوت انقصام، حطمت رسغه اللعين يا رجل ـ لقد لقنه ذلك درساً ـ رائع، لا؟ أقسم إنه لرائع!».

أنا وشيفا من برج الجدي.. وقد تركني ذلك البرج وشأني لكنه نفح شيفا ما يتسم به من قدرات، فهذا البرج، كما يمكن لأي منجم أن يخبرك، هو الجرم السماوي الذي تتركز قوته في الركب.

في يوم الانتخابات، عام ١٩٥٧، صدم حزب مؤتمر عموم الهند صدمة شديدة، إذ رغم انه فاز بالانتخاب، فإن اثني عشر مليون صوت فاز بها الحزب الشيوعي وهذا ما جعله أكبر حزب معارض بمفرده. وفي بومباي رغم جهود الرئيس باتيل، عجزت أعداد كبيرة من الناخبين عن وضع إشاراتها على رمز حزب المؤتمر المؤلف من البقرة المقدسة والعجل الرضيع، مفضلة البرامج الأقل عاطفية التي طرحها ساميوكتا ساميتي وماها باريشاد. وحين طرح الخطر الشيوعي على بساط البحث في رابيتنا اكتفت أمي بالاحمرار خجلاً، ووقف الجميع مع تقسيم ولاية بومباي.

أحد أعضاء مؤتمر أطفال منتصف الليل لعب دوراً صغيراً في الانتخابات فقد تم تجنيد شيفا، ابن وينكي المزعوم، من قبل ـ حسناً ـ ربما علي ألا أذكر اسم الحزب. لكن لم يكن هناك سوى حزب واحد فقط يمكنه أن ينفق مبالغ طائلة من المال فعلاً ـ وفي يوم الاقتراع شوهد هو وأفراد عصبته الذين أطلقوا على انفسهم اسم رعاة البقر، وهم يقفون خارج مركز الاقتراع شمالي المدينة، بعضهم يمسك بعصي قوية طويلة، والبعض الآخر يحشو جيبه بالحجارة، والبعض الثالث يمسك السكاكين بأسنانه، وكلهم يحثون الناخبين على استخدام أصواتهم بحكمة وحصافة.. لكن بعد انتهاء الاقتراع، هل جرى فك الأختام التي ختمت بها صناديق الاقتراع؟ هل حدث حشو الصناديق بأوراق اقتراع معينة؟ على أي حال، حين جرى عد الأصوات، تبين أن قاسم الأحمر فشل بالفوز بالمقعد بفارق قليل من الأصوات، وقد سرت تلك النتيجة مستأجري منافسي إيما سرور.

. . . لكن، عند ذاك تقول بادما بأسلوبها اللطيف: «في أي تاريخ حدث ذلك بالضبط؟»، فأجيب دونما تفكير: «في يوم من أيام الربيع». وهكذا أقع في خطأ آخر، ذلك أن انتخابات عام ١٩٥٧ جرت قبل عيد ميلادي العاشر وليس بعده. لكن رغم أنني أرهقت مخي كثيراً، فإن ذاكرتي ترفض، بكل إصرار وعناد، أن أغير تسلسل الأحداث. هذا مزعج وأنا لا أعلم ما الذي دهاني.

فتقول بادما محاولة أن تواسيني عبثاً: «لماذا تزعج نفسك، كل امرئ ينسى بعض الأمور الصغيرة، مع مرور الزمن».

لكن، إن كانت الأمور الصغيرة تنسى، فهل تبقى الأمور الكبيرة يا ترى؟

ألف وياء

في الأشهر التي أعقبت الانتخابات كانت ثمة اضطرابات في بومباي، وثمة اضطرابات في أفكاري الآن وأنا أتذكر تلك الأيام. فالخطأ الذي ارتكبته قلب مزاجي رأساً على عقب ولكي أستعيد توازني، سأثبت رجلي على أرض مألوفة هي إقطاعة ميثولد، تاركاً مؤتمر أطفال منتصف الليل وتاريخه جانباً، متناسياً، كذلك الآلام التي بعثها في نفسي مقهى الرائد كي أحكي لكم عن سقوط إيفي بيرنز.

لقد وضعت لهذا الفصل عنواناً غريباً نوعاً ما: «ألف وياء»، إنه يحدق إلي من الصفحة راداً على نظراتي، يطلب إلي أن أفسره ـ عنوان غريب سيفي بنصف الغرض من قصتي، إنه العنوان الذي يفوح برائحة البدايات والنهايات، في حين يمكنك القول إنه كان ينبغي أن يكون أكثر اهتماماً بالوسط، لكنني غير نادم، لا أنوي أن أغيره، رغم أن هناك عناوين بديلة كثيرة مثل: «من القردة إلى الريص[١]»، أو «الإصبع ريدوكس»، أو ـ بأسلوب أكثر مراوغة- «ذكر الإوز» وذلك إشارة إلى الطائر الأسطوري «باراهمسا» رمز القدرة على العيش في عالمين، عالم الجسد وعالم الروح، عالم اليابسة والماء وعالم الجو والطيران. لكن «ألفاً وياء» كان العنوان «ألف وياء» سيبقى. فها هنا توجد بدايات وكل ضروب النهايات، وما أسرع ما ترون مرماي.

بادما تفرقع بلسانها وهي في حالة قنوط ثم تقول منتقدة: «عدت مرة أخرى إلى الهزل؟ ترى هل ستحكي عن إيفي أم لا؟».

---

(١) نوع من القردة الهندية الصغيرة.

. . . بعد الانتخابات العامة، ظلت الحكومة مترددة حول مستقبل بومباي.

ففي البداية كان على الولاية أن تقسم، ثم لا تقسيم، بعدئذ عاد التقسيم فرفع رأسه ثانية. أما بالنسبة إلى المدينة نفسها فقد تقرر في البداية أن تكون عاصمة مهاراشترا، أو عاصمة مهاراشترا وغوجارات معاً أو ولاية مستقلة بذاتها. . . وحينما حاولت الحكومة أن تفصح عما تنوي فعله قرر أهل المدينة حثها على الإسراع في ذلك. لقد تزايدت أعمال الشغب وانتشرت (ولا يزال بإمكانك أن تسمع أنشودة الحرب القديمة التي يرددها المهراتيون ـ كيف الحال؟ أحسن حال. . لسوف أجلدك بالعصا حتى الجحيم أيها المحتال. . وهي ترتفع فوق أصوات العراك).

ولزيادة الطين بلّة فقد ساهم الطقس في خلق التشوش والاضطراب إذ حل بالبلاد جفاف شديد، تشققت إثره الطرق، وفي القرى اضطر الفلاحون لأن يقتلوا أبقارهم. كذلك حدثت في عيد الميلاد (الذي ليس هناك طفل يذهب إلى مدرسة تبشيرية وترعاه مربية كاثوليكية، يعجز عن إدراك مغزاه) أقول حدثت سلسلة من الانفجارات الشديدة في خزان والكيشوار، الأمر الذي جعل أنابيب مياه الشرب، وهي شرايين المدينة الأساسية، تطلق نوافير في الجو مثل حيتان فولاذية عملاقة وامتلأت صفحات الجرائد بالكلام عن المخربين، كما تزاحمت على صفحاتها التخمينات حول هويات المجرمين وارتباطاتهم السياسية إلى جانب التقارير الكثيرة عن موجة قتل المومسات المستمرة (وكنت بصورة خاصة معنياً بأن أعلم أن القاتل له «بصمته» الغريبة. إذ تبين من جثث بائعات الهوى أنها جميعاً خنقت حتى الموت. كما كانت تبدو على أعناقها كدمات أكبر من أن تكون مجرد بصمات أصابع، لكنها متجانسة كلياً مع الآثار التي يتركها زوج من الركب العملاقة ذات القوة الخارقة للطبيعة).

لكنني أستطرد. . وأرى وجه بادما يعبس بهيئة من التساؤل: وما علاقة هذا كله بإفلين بيرنز؟ سأقدم الجواب فوراً: في الأيام التي أعقبت تخريب إمدادات المياه، بدأت القطط الضالة في بومباي تتجمع في تلك المناطق من

المدينة التي كان الماء فيها لا يزال وافراً نسبياً، أي بمعنى آخر، في المناطق البعيدة، الأرقى حيث يوجد في كل منزل خزانه المائي تحت الأرضي أو فوق الأرضي.

ونتيجة لذلك فقد غزا الرابية ذات الدورين التي تقوم عليها إقطاعة ميثولد جيش من السنوريات العطشى؛ قطط تتجمع فوق حلقة السيرك، قطط تتسلق عرائش البوغنفيلية وتثب إلى غرف الجلوس، قطط تقلب المزهريات أرضاً كي تشرب الماء الذي رويت به النباتات، قطط تتسلل إلى الحمامات تلعق السائل المتبقي على أرض المراحيض، قطط تنتصب على قوائمها في مطابخ قصور وليام ميثولد. وقد باءت بالفشل جميع المحاولات التي بذلها خدم الإقطاعة إذ عجزوا عن صد الغزو السنوري الكبير، وباتت سيدات الإقطاعة يكتفين بإطلاق صرخات الذعر أمام ذلك الزحف. فبراز تلك القطط الأشبه بالديدان الجافة المتصلبة منتشر في كل مكان، والحدائق قضت عليها جموع القطط الهائلة: وفي الليل أمسى الرقاد ضرباً من ضروب المستحيل طالما كان ذلك الجيش قادراً على إطلاق الأصوات، شاكياً ظمأه إلى القمر.

(وقد رفضت البارونة سيمكي فون دير هايدن أن تواجه القطط، هي التي كانت قد بدت عليها علائم المرض من قبل، ذلك المرض الذي سيقودها إلى حتفها).

نوسي إبراهيم اتصلت بأمي معلنة «أخت أمينة، هي ذي نهاية العالم» لكنها كانت على خطأ. ذلك أنه في اليوم الثالث لغزو القطط الكبير، قامت إيفلين ليليث بيرنز بزيارة كل منزل بدوره، حاملة بيمناها مسدسها الهوائي طراز ديزي عارضة، مقابل شيء من المال، أن تقضي على وباء القطط المتزايد بسرعة مضاعفة.

وطوال ذلك اليوم، راحت إقطاعة ميثولد تردد أصداء طلقات المسدس الهوائي وصرخات الألم الصادرة عن الهررة، بينما كانت إيفي تمر بالجيش كله واحداً واحداً وتكسب لنفسها الثروة، لكن (وكما يبين التاريخ غالباً) فإن لحظة الانتصار الأعظم تحمل في أحشائها أيضاً بذور السقوط النهائي

للمنتصر، وهذا ما ثبت فعلاً. ذلك أن اضطهاد إيفي للهررة كان، وبقدر ما كانت القردة النحاسية معنية بالأمر، هو القشة التي قصمت ظهر البعير.

«يا أخ» خاطبتني القردة بوجه عابس: «قلت لك إنني سأنال من تلك الفتاة، والآن، الآن آن أوانها». أسئلة لا أجوبة لها: أهو صحيح أن أختي كانت تعرف لغات القطط والطيور أيضاً؟ هل ولعها بحياة القطط جعلها تفقد أعصابها؟... ففي الوقت الذي حدث فيه غزو القطط، كان شعر القردة قد تحول إلى اللون البني، كما كانت قد تخلصت من عاداتها في حرق الأحذية، لكن كان لا يزال فيها، ولسبب لا يعرفه أحد، تلك القسوة التي لم تكن موجودة لدى أحد منا، وهكذا نزلت إلى حلقة السيرك ثم صرخت بأعلى صوتها: «إيفي بيرنز، اخرجي من هنا، في هذه الدقيقة أينما كنت».

وانتظرت إيفي بيرنز، يحيط بها جيش من القطط الهاربة. أما أنا فقد خرجت إلى شرفة الطابق الأول كي أراقب، كذلك خرج كل من سوني وآيسلايس وهيرويل وسيروس من شرفاتهم يراقبون. فرأينا إيفي بيرنز تظهر من الاتجاه الذي تقع فيه مطابخ فيللا فيرساي. وهي تنفخ الدخان من سبطانة مسدسها ثم تعلن: «عليكم أيها الهنود أن تشكروا السماء لوجودي بينكم، وإلا كانت هذه الهررة ستلتهمكم».

بعدئذ. رأينا إيفي تلزم الصمت حين رأت ذلك الشيء المتوتر الماثل بين عيني القردة، ثم انقضت القردة على إيفي فنشبت معركة دامت كما خيل إلينا عدة ساعات (لكن ربما لم تدم سوى بضع دقائق) إذ راحتا، يلفهما غبار حلقة السيرك، تتدحرجان الواحدة فوق الأخرى، ترفس واحدتهما الأخرى، تخدشها بأظافرها تنتف شعرها، وكانت نتف الشعر تتطاير مع سحابة الغبار، كما كانت هناك مرافق وأقدام ذات جوارب بيض متسخة وكذلك ركب ومزق ثياب تتطاير في السحابة، أخيراً انطلق الكبار نحوهما إلاّ أن أحداً لم يستطع الفصل بينهما إلى أن جاء في النهاية جنائني هومي كاتراك ووجه خرطوم مياهه عليهما ففرقهما...

انتصبت القردة النحاسية على نحو معوج قليلاً ثم نفضت حاشية ثوبها المغبر متجاهلة صيحات الويل والثبور المنطلقة من شفاه أمينة سيناء وماري

بيريرا، ذلك أن إيفي بيرنز كانت لا تزال مرمية في الوحل الذي صنعه خرطوم المياه وقد تهشمت حاصرة أسنانها، كما ضفر شعرها بالغبار والنثار، وتحطمت روحها المعنوية وهيمنتها علينا مرة واحدة وإلى الأبد.

بعد بضعة أسابيع فعل والدها خيراً إذ أرسلها إلى الوطن «كي تحصل على تعليمها بعيداً عن هؤلاء الهمج»، كما قال للبعض، ولم أسمع عنها بعد ذلك سوى مرة واحدة حين وصلتني بعد ستة أشهر، وعلى نحو مفاجئ، رسالة منها تعلمني فيها أنها طعنت بالسكين سيدة عجوزاً حاولت منعها من مهاجمة قطة. «لقد طعنتها طعنة قاتلة» كتبت لإيفي «فقل لأختك إنها كانت محظوظة تماماً». وإنني لأحيي تلك العجوز المسكينة فقد سددت فاتورة القردة النحاسية.

على أن الأكثر إثارة من رسالة إيفي الأخيرة إنما هي الفكرة التي تخطر ببالي الآن وأنا أعود بنظراتي متأملاً مجرى الزمان إذ تنتصب أمام عيني صورة القردة وإيفي وهما تتمرغان في التراب، ويخيل إلي أنني أشهد القوة الدافعة التي كانت تكمن خلف عراكهما الشديد ذاك، إنه دافع أعمق بكثير من اضطهاد القطط ذاته: فقد كانتا تتعاركان علي. إيفي وأختي (اللتان كانتا تتشابهان في كثير من الأوجه) كانتا تترافسان وتتخادشان على مصير بضعة قطط شاردة في الظاهر، لكن، لعل الحقيقة هي أن رفسات إيفي كانت موجهة إلي، لعلها كانت تمثل غضبها الشديد بسبب غزوي لرأسها، ومن ثم ربما كانت قوة القردة هي قوة الإخلاص الأخوي، وقيامها بالحرب هو بالحقيقة نوع من التعبير عن الحب.

إذن، فقد أريق دم في حلقة السيرك. وكما ينبغي أن تعلم فإن أحد العناوين المرفوضة الذي كنت سأضعه لهذه الصفحات هو «أشد كثافة من الماء».

ففي تلك الأيام، أيام نقص المياه، كان شيء أكثف من الماء يسيل على وجه إيفي بيرنز. ولاء الدم الذي دفع القردة النحاسية للعراك، وفي شوارع المدينة كان المتظاهرون يريقون دم بعضهم بعضاً، وكانت هناك جرائم قتل دامية. ولعله من غير المناسب أن أختم هذا الجدول الدموي بأن أذكر، مرة

أخرى، اندفاعات الدم إلى وجنتي أمي. ففي ذلك العام كان اثنا عشر مليوناً من الأصوات يصطبغ باللون الأحمر، والأحمر هو لون الدم. مزيد من الدم سيراق أيضاً: زمرتا الدم «A» و«O»، البداية والنهاية واحتمال آخر، احتمال ثالث ينبغي أن نبقيه في أذهاننا. وكذلك ينبغي إبقاء عوامل أخرى: تكوّن اللواقح وجسيمات «كيل» المضادة، وذلك العنصر الغامض من عناصر الدم المعروف باسم عامل الارتصاص. لكل شيء شكله إذا ما بحثت عن حقيقته، إذ لا مفر من الشكل.

لكن قبل أن يجيء يوم الدم، سأتخذ لنفسي جناحاً (مثل ذكر الإوز الأسطوري الذي يمكنه أن يغير طبيعته فينتقل من العالم المادي إلى الروحي) وأعود سريعاً إلى شؤون عالمي الداخلي، إذ رغم أن سقوط إيفي بيرنز أنهى حالة النبذ التي فرضها علي أطفال الرابية، فقد وجدت أن من الصعب أن أغفر لهم. وهكذا ظللت، حيناً من الزمن، أبتعد بنفسي عنهم، كي أغرق في الأحداث الجارية داخل رأسي، في التاريخ المبكر لرابطة أطفال منتصف الليل.

ولكي أقول الصدق: لم أكن أحب شيفا. لقد كرهت سلاطة لسانه، فجاجة أفكاره، كما كان الشك فيه قد بدأ يراودني إزاء سلسلة من الجرائم الفظيعة رغم أنني كنت أعلم أن من المحال إيجاد دليل واحد في تفكيره، فهو الوحيد بين أطفال منتصف الليل، الذي كان باستطاعته أن يحجب عني أية فكرة من أفكاره يريد إبقاءها لنفسه.. الأمر الذي زاد، بحد ذاته، من كراهيتي لزميلي ذي الوجه الجرذي وزاد من شكي فيه. رغم ذلك، لم أكن يوماً إلا عادلاً، وليس من العدل أن أعزله عن أعضاء المؤتمر الآخرين.

لكن علي أن أوضح أنه مع تزايد فاعليتي الذهنية وجدت أنه ليس بإمكاني فقط أن ألتقط ما يرسله الأطفال عبر الأثير وليس فقط أن أرسل رسائلي أنا، بل أيضاً أن أعمل على غرار شبكة وطنية (مع الاستمرار باستخدام هذه الاستعارة المجازية) بحيث إنني لدى فتح ذهني المولّف على جميع الأطفال يمكنني أن أحوله إلى ضرب من المنتدى يمكنهم جميعاً أن يتخاطبوا فيه من خلالي. وهكذا، في مطلع ١٩٥٨، كان الأطفال الخمسمائة

والواحد والثمانون يجتمعون، مدة ساعة واحدة، ما بين منتصف الليل والساعة الواحدة في المبنى البرلماني الذي يشكله دماغي.

كنا نلتقي بنوع من التشوش والاختلاط والفوضى التي يمكن أن يلتقي بها أطفال في مثل سننا وعددنا الكبير ذاك. كما كان هنالك فضلاً عن حيويتنا الطبيعية، الاهتياج الشديد الذي يحدثه اكتشاف واحدنا للآخر. وهكذا بعد ساعة من الصراخ العالي والهذر والثرثرة والمنافسة والقهقهة، كنت أستغرق مستنفد القوى في سبات أعمق من أن يعرف الكوابيس وأستيقظ دائماً على صداع شديد، لكنني لم أكن أبالي.

فحين أستيقظ أكون مضطراً لأن أواجه التعاسات الكثيرة التي تسببها لي خيانة أمي وانهيار أبي، غدر أصدقائي وظلامات مدرستي المتنوعة، أما حين أنام، فإنني أكون في مركز العالم الأشد إثارة، العالم الذي يمكن لأي طفل أن يكتشفه في حياته، لذا، رغم وجود شيفا، كان من الخير لي دائماً أن أنام.

كانت قناعة شيفا أنه هو (أو هو وأنا) القائد الطبيعي لمجموعتنا، وذلك بحكم ولادته (وولادتي أنا) مع دقة الساعة لمنتصف الليل. وكان في ذلك، وأنا مضطر للاعتراف، حجة قوية لصالحه، فقد خيل إلي حينذاك ـ ويخيل إلي الآن - أن معجزة منتصف الليل كانت في الحقيقة ذات تراتب تسلسلي واضح بطبيعته، أي أن قدرات الأطفال كانت تتناقص تناقصاً كبيراً طبقاً للفاصل الزمني بين ولادة الطفل ودقة منتصف الليل، لكن حتى هذه كانت وجهة نظر يمكن مقارعتها بشدة... «ماذا تعني؟ كيف يمكنك قول ذلك»؟ كانت الجوقة تقول مجتمعة، ومنها ذلك الغلام من غابة جير الذي كان وجهه أمسح بلا سيماء أو معالم على الإطلاق (ما عدا عينين وخيشومين وفتحة يمكن أن تكون فماً) والذي كان باستطاعته أن يتخذ السيماء التي يشاء، وهاريلال الذي كان باستطاعته أن يجري بسرعة الريح، وغيرهما كثر...

«من يقول إن من الأفضل فعل هذا الشيء أو ذاك؟» و«هل يستطيع الطيران؟ أنا باستطاعتي الطيران»، و«ياه! ماذا عني أنا؟ هل يمكنه أن يحول سمكة واحدة إلى خمسين سمكة؟». و«في هذا اليوم قمت بزيارة الغد، هل يستطيع هو القيام بذلك؟ حسناً، إذن» -... وفي مواجهة عاصفة احتجاجات

كهذه، كان شيفا نفسه يغير نبرة صوته، إنما كي يجد نبرة جديدة، نبرة أكثر خطراً - على الأطفال وعلي أنا.

فقد اكتشفت أنني لست منيعاً على إغراءات الزعامة. ترى من الذي اكتشف وجود الأطفال؟ من دعا لتشكيل المؤتمر؟ من قدم لهم مكان اجتماعهم؟ ألست أنا الأكبر سناً بالاشتراك مع شيفا؟ ألا ينبغي أن ألقى الاحترام والطاعة التي يستحقها قدمي في السن؟ ثم، أليس الذي يقدم مقراً للنادي هو الأحق بإدارة النادي؟ لكن شيفا كان يرد على تلك الحجج بقوله: «دع عنك ذلك يا رجل. النادي وما شابهه لكم أنتم فقط أيها الأغنياء» لكنه انهزم لحين من الزمن. فبارفاتي- الساحرة، ابنة المشعوذ المقيم في دلهي، وقفت إلى جانبي (مثلما ستقوم، بعد سنوات لاحقة، بإنقاذ حياتي)، ثم أعلنت: «لا، اصغوا إلي جميعاً: من غير سليم لن نجد مكاناً لنا، لن يكون باستطاعتنا أن نتخاطب أو نفعل شيئاً. إنه على حق، فليكن هو الزعيم». فرددت: «لا، لا، ليس زعيماً، بل فكروا بي... كأخ كبير.... ربما... أجل... نحن عائلة واحدة بشكل من الأشكال. وأنا أكبركم سناً لا غير». وعلى ذلك رد شيفا بحقد منعه من إمكانية المناقشة «حسناً، أيها الأخ الكبير: قل لنا الآن ما نفعل؟».

عند ذلك قدمت إلى المؤتمر الأفكار التي كانت تقض مضجعي طيلة ذلك الوقت: الأفكار المتعلقة بالهدف والمعنى، إذ قلت: «علينا أن نفكر لماذا نحن موجودون».

وإنني أسجل، بأمانة، وجهات نظر نخبة نموذجية من أعضاء المؤتمر (مستثنياً عجائب السيرك والأشخاص الذين فقدوا، كما هو شأن سنداري ابنة الشحاذ التي شطب وجهها بالسكاكين، قدراتهم وبات عليهم أن يلتزموا الصمت في مناقشاتنا مثلما يفعل ذوو القرابة البعيدة في مأدبة). فأقدم في ما يلي نموذجاً عن النزعة الجماعية من الفلسفات والأهداف المقترحة: «يجب علينا أن نجتمع معاً ونعيش في مكان ما، أليس كذلك؟ فحينذاك لن نكون بحاجة لأحد». ثم نموذجاً عن النزعة الفردية «أنت تتكلم عنا كجماعة، لكن إن كنا معاً سنغدو بلا أهمية تذكر، فما يهم أن لكل منا موهبة يمكنه أن

يستخدمها لصالحه». ونموذجاً عن الشعور بالواجب البنيوي «بإمكاننا أن نساعد آباءنا وأمهاتنا، وهذا ما ينبغي علينا فعله»، ونموذجاً عن التمرد الطفولي «أخيراً، علينا الآن أن نوضح لجميع الأطفال أن بالإمكان التخلص من سيطرة الآباء»، وعن الرأسمالية «تأملوا فقط أية أعمال يمكننا القيام بها. يا الله! كم يمكننا أن نصير أغنياء»، وعن الغيرية «بلادنا بحاجة إلى الناس الموهوبين لذلك علينا أن نسأل الحكومة عن الطريقة التي ترغب فيها بالاستفادة من مواهبنا»، وعن العلم «علينا أن نسمح للآخرين بإجراء دراسات علينا»، وعن الدين «دعونا نعلن للعالم عن أنفسنا: كي يتمجد اسم الله». وعن الشجاعة «علينا أن نغزو الباكستان»، ـ وعن الجبن ـ «يا للسموات! علينا أن نحافظ على سرنا، إذ حسبكم أن تفكروا بما قد يفعلونه بنا، سيرجموننا بالحجارة كالسحرة وأشباههم». كما كانت هناك تصريحات عن حقوق المرأة ومطالبات بتحسين أوضاع المنبوذين، كذلك كان هناك أطفال محرومون من الأرض يحلمون بالأرض وأبناء قبائل يسكنون التلال يحلمون بسيارات الجيب، علاوة على ذلك كله، كانت هناك أحلام بالسلطة «ليس باستطاعتهم أن يقفوا في وجهنا يا رجل. فباستطاعتنا أن نسحر، أن نطير، أن نقرأ الأفكار، أن نحول الناس إلى ضفادع، أن نصنع ذهباً وأسماكاً، أن نجعلهم يحبوننا، كما أن باستطاعتنا أن نختفي في المرايا وأن نغير جنسنا... فكيف يمكنهم مواجهتنا؟».

ولا أنكر أنني أصبت بخيبة أمل، رغم أنه كان من الواجب ألا أصاب بذلك. إذ لم يكن في الأطفال ما هو غير مألوف ما عدا مواهبهم. فرؤوسهم ملأى بكل ما هو عادي مألوف: الآباء، الأمهات، المال، الطعام، الأرض، الملكيات، الشهرة، السلطة، الله.

لذا لم أستطع أن أجد في تفكير أي من أعضاء المؤتمر مكاناً لشيء جديد يضاهينا نحن أنفسنا... لكن حينذاك كنت قد سرت المسلك الخاطئ أيضاً، فلم يكن باستطاعتي أن أرى بوضوح أكثر مما يراه أي منهم، إذ حتى حين قال سوميترا المنتقل -في الزمان «إنني أقول لكم ـ هذا كله عبث ـ فهم سينهوننا قبل أن نبدأ». حينها تجاهلناه جميعاً، وبتفاؤل الشباب ـ ذلك

التفاؤل الذي كان أشد بكثير من المرض نفسه الذي أصاب جدي آدم عزيز ذات مرة ـ رفضنا أن ننظر إلى الجانب المعتم من الصورة، كذلك ما من احد منا قال إن هدف أطفال منتصف الليل قد يكون الإبادة وإنه لن يكون لنا معنى إلى أن نباد.

إنني أرفض، بهدف الحفاظ على خصوصيتهم والأغراض الأخرى، أن أميز الأصوات واحداً من الآخر. فمن جهة، ليس باستطاعة روايتي أن تغطي خمسمائة وإحدى وثمانين شخصية مكتملة تماماً، ومن جهة أخرى، فقد ظل الأطفال بالنسبة إلي، رغم مواهبهم العجيبة المتنوعة، ضرباً من وحش ذي رؤوس متعددة ينطق بآلاف اللغات ويحيل رأسي إلى ما يشبه برج بابل، كذلك كانوا التجسيد الحقيقي للتعددية ولا أرى أية فائدة من فصلهم الآن (لكن ثمة استثناءات إذ كان هنالك بصورة خاصة، شيفا وبارفاتي ـ الساحرة.)... القضاء والقدر، الدور التاريخي، القوة الإلهية: تلك كانت كلمات أكبر بكثير من أن يلفظها أطفال في سن العاشرة بل ربما كانت أكبر مني حتى، فرغم التذكيرات الدائمة التي كانت تمثلها إصبع الصياد المؤشرة ورسالة رئيس الوزراء، كانت تبعدني باستمرار عن معجزاتي، التي منحنيها الشم، تفاصيل الحياة اليومية، يبعدني عنها شعوري بالجوع أو النعاس، النط كالقرد هنا وهناك مع القردة النحاسية أو الذهاب إلى السينما لرؤية هذا الفيلم أو ذاك، تلهفي المتزايد لارتداء البنطال الطويل والحرارة التي بات يثيرها تحت الحزام، وعلى نحو لا يمكن تفسيره، اقترابنا نحن تلاميذ المدرسة التبشيرية وإعدادية جون كونون من مدرسة البنات التي سيسمح لنا أن نرقص فيها رقصة «القبعة المكسيكية» وغيرها من الرقصات مع زميلات أختي ـ مثل ماشا مايوفيك الكاعب صاحبة أكبر صدر في المدرسة وإليزابيث براكيس وجوني جاكسون ـ يا إلهي فتيات أوروبيات ذوات تنانير فضفاضة وأساليب تقبيل!! أي باختصار، كان يسيطر على انتباهي باستمرار، العذاب الشديد المبرح الذي يرافق النمو وسيرورة النضج.

لكن حتى ذكر الإوز الرمزي ينبغي أخيراً أن يهبط على الأرض، لذا غير كاف بالنسبة إلي الآن (كما لم يكن في ذلك الحين) أن أقصر قصتي على

جوانبها العجائبية، بل علي أن أعود (كما اعتدت أن أعود دائماً) إلى الأمور اليومية، علي أن أسمح للدم بأن يراق.

* * *

التشوه الأول الذي حل بسليم سيناء، والذي أعقبه في الحال تشوه ثان، إنما حل ذات يوم من أيام الأربعاء في مطلع ١٩٥٨ ـ أربعاء مدرسة البنات الذي طال انتظاره والذي جرى تحت رعاية رابطة التعليم الأنكلو ـ اسكوتلاندية، أي أنه حدث في المدرسة.

مهاجم سليم: رجل جميل، متحمس، ذو شارب أشعث كشوارب البرابرة: وأنا أمثل الشخص الواثب المتملص، إنه إميل زاغالو الذي كان يدرسنا الجغرافيا ورياضة الجمباز والذي ساهم في ذلك الصباح، وعن غير قصد، بتسريع أزمة حياتي. كان زاغالو يدعي أنه من البيرو وكان مولعاً بتسميتنا هنود -الأدغال وعشاق الخرز- كما كانت له سيماء جندي صارم يتصبب عرقاً وهو يرتدي قبعة صفيحية مدببة الرأس وبنطلوناً معدنياً، وينكب على لوحة مسدداً إصبعه في كل مرة يود التوكيد على شيء، طاعناً بها صارخاً «أترون ذلك، أيها الهمج؟ هذا الرجل هو الحضارة. وعليكم أن تبدوا له كل احترام: فهو يملك سيفاً». ثم يلوح بعصاه شاطراً هواء الغرفة ذات الجدران الحجرية وكنا نسميه «باغال زاغال»، «زاغالو المجنون»، ذلك أننا كنا نعلم رغم كل ما يقوله عن حيوانات اللامة وغزاة القارة الأميركية والمحيط الهادئ، وبنوع من ذلك اليقين المطلق الذي تخلقه الشائعات، أنه ولد في شقة من شقق مازاغون وأن أمه الغوانية كانت قد تخلت عنه لوكيل نقل بحري.

وبذلك فهو لم يكن «انكليزياً» وحسب، بل ربما كان ابن زنى أيضاً. ولمعرفتنا هذا الأمر فقد كنا ندرك لماذا كان زاغالو يؤثر نبرته اللاتينية، ولماذا أيضاً كان في حالة سخط دائم ولماذا كان يدق جدران غرفة الصف الحجرية بقبضة يده، غير أن معرفتنا تلك لم تمنعنا من أن نخاف. في صباح ذلك الأربعاء، علمنا أننا واقعون في ورطة لا محالة. ذلك أن حصة الكاتدرائية الاختيارية كانت قد ألغيت. فالحصة المضاعفة صباح يوم الأربعاء كانت حصة الجغرافيا لزاغالو، لكن ما من أحد كان يحضر تلك الحصة سوى

التلاميذ البلهاء وذوي الآباء المتعصبين، فذلك الوقت هو أيضاً الموعد الذي كان يمكننا فيه أن نذهب إلى كاتدرائية القديس توماس وفق تشكيلة تمساحية، أي ضمن رتل طويل من التلاميذ ذوي المذاهب والأديان المختلفة، وذلك هروباً من المدرسة إلى أحضان رب المسيحيين الذي نختاره بملء إرادتنا، وكان ذلك يدفع بزاغالو إلى الجنون، لكنه لم يكن يستطيع فعل شيء، أما هذا اليوم فقد كان ثمة بريق قاتم في عينيه، ذلك أن المدير أعلن في اجتماع الصباح أن الذهاب إلى الكاتدرائية قد ألغي. وبصوت أجرد ذي خرير، صوت ينبثق من وجهه، وجه ضفدع مخدرة، حكم علينا بأن نحضر حصة الجغرافيا المضاعفة ملقياً بنا على حين غرة إلى يدي باغال زاغال، إذ لم يخطر لنا ببال أنه من المسموح للآلهة ممارسة الاختيار أيضاً. وهكذا دخلنا إلى صف زاغالو بكل ما في الأرض من كآبة فهمس أحد البلهاء المساكين ممن لم يكن والداه يسمحان له بالذهاب إلى الكاتدرائية، همس في أذني، وبصورة شريرة، قائلاً: «انتظر فقط: فهو اليوم سيطردكم فعلاً أيها الأولاد».

وقد فعل ذلك يا بادما.

بكل تجهم اتخذنا مقاعدنا في الصف، غلاندي كيث كولاكو، بيرس فيشوالا البدين، جيمي كباديا، التلميذ صاحب المنحة الدراسية الذي كان والده سائق تاكسي، هيرويل سبرماتي، سوني إبراهيم، سيروس العظيم وأنا نفسي... وكان هنالك آخرون أيضاً، لكن لا وقت لذكرهم الآن، ذلك أننا سمعنا زاغالو المجنون، وبعينين متضيقتين من فرط البهجة يدعونا للامتثال للنظام. «الجغرافيا البشرية».

يعلن زاغالو «ما هي يا كباديا»؟.

«رجاء يا أستاذ أنا لا أعلم يا أستاذ» وترتفع أيد إلى أعلى ـ خمس أصحابها من البلهاء المحرومين من الكنيسة، أما السادسة فهي، حتماً، لسيروس العظيم. لكن زاغالو يبحث عن الدم هذا اليوم: والمسكين سيعاني الأمرين. «قذارة من قذارات الدغل» يقرع زاغالو جيمي كباديا ثم يبدأ بفتل أذنه وكأنه لا يفعل شيئاً «ابق في الصف بعض الوقت واعرف ما هي الجغرافيا البشرية».

«أوه.. أوه.. أوه... أستاذ آسف أستاذ» وتلوح الأيدي الست غير أن أذن جيمي تظل عرضة لخطر الاقتلاع. البطولة تنتزع خير ما في فأقول... «أستاذ، كف عن ذلك رجاء، فهو يعاني من ضعف في القلب». وتلك حقيقته غير أن الحقيقة خطرة، وهكذا يلتفت زاغالو إلي «هكذا إذاً، تناقش أيها الصغير أليس كذلك؟»

ثم يقذفني من شعري إلى مقدمة الصف وتحت بصر زملائي التلاميذ الذين انتعشوا ـ الحمد لله أنه هو ولسنا نحن ـ قال لي، وأنا أتلوى ألماً بسبب خصل الشعر التي أمسكها بيده.

«إذاً أجب عن السؤال. هل تعرف ما هي الجغرافيا البشرية؟» الألم يصدع رأسي ماحياً كل ما فيه من أفكار الغش التخاطري «إي.. أستاذ، لا.. أستاذ.. أوه».

والآن بوسعي استعادة الذكرى حرفاً حرفاً، بوسعي أن ألحظ مسحة هزل تغطي سيماء زاغالو، مسحة هزل تفرد وجهه في ما يشبه الابتسامة، بوسعي أن أراقب يده وهي تمرق كالسهم إلى الأمام، وقد انبسط الإبهام والسبابة، أن ألاحظ كيف يطبق الإبهام والسبابة على أنفي ويسحبانه نحو الأسفل... وحيث يمضي الأنف لا بد من أن يتبعه الرأس وأخيراً ينزل الأنف إلى الأسفل وتضطر العينان لأن تحدقا، وهما مغرورقتان، إلى قدمي زاغالو في صندلهما، وتريا أظافرهما الوسخة بينما يطلق زاغالو العنان لقريحته.

«انظروا يا أولاد، أترون ما لدينا هنا؟ انظروا من فضلكم، إلى الوجه الكريه لهذا المخلوق البدائي، بماذا يذكركم يا ترى؟».

وبشوق يجيب أحدهم: «بالشيطان، يا أستاذ». ويرد آخر «بأحد أبناء عمي يا أستاذ». وثالث «كلا يا أستاذ، بنوع من النبات لا أعرف اسمه»، إلى أن يصر زاغالو بحيث يطغى صوته على الجلسة.. «سكوت، يا أبناء القردة. هذا الشيء الذي أمسكه ـ ويشد أنفي شدة أخرى- هو الجغرافيا البشرية».

«كيف يا أستاذ أين يا أستاذ ماذا يا أستاذ؟».

ويضحك زاغالو ثم يتابع: «ألا ترون؟ في وجه هذا السعدان القبيح، ألا ترون خريطة الهند كلها»؟

«نعم أستاذ كلا أستاذ أوضح لنا أستاذ».

«انظروا. هنا شبه جزيرة دكا» ويشد أنفي ثانية.

«أستاذ إن كانت هذه خريطة الهند فما هي البقع يا أستاذ؟».

إنه غلاندي كيث كولاكو وقد شعر بشيء من الجرأة. وتنطلق ضحكات شبه مكتومة من زملائي. ثم يجيب زاغالو، وقد أخذ السؤال على جدته: «هذه البقع هي الباكستان. هذه العلامة الموجودة على الأذن اليمنى هي الجناح الشرقي وهذه الوجنة اليسارية المبقعة الفظيعة هي الجناح الغربي. تذكروا أيها التلاميذ الأغبياء: الباكستان لطخة في وجه الهند».

وينفجر الصف ضاحكاً «... هيء... هيء... هيء مزحة رائعة يا أستاذ».

لكن في تلك اللحظة يكون أنفي قد نال كفايته، فيبتدئ تمرده غير المتوقع على الإبهام والسبابة الممسكين به، مطلقاً سلاحه الخاص... وهكذا تنبثق من المنخر الأيسر كتلة كبيرة من المخاط تملأ راحة زاغالو، فيصرخ بيرس فيشوالا البدين: «انتبه أستاذ، انتبه، المخاط يسيل من أنفه يا أستاذ فهل نفترض أن هذه هي سيلان؟».

وحين يرى زاغالو راحته ملطخة بالمخاط، يفقد مزاجه الهزلي ويشرع بصب اللعنات علي: «حيوان، أرأيت ما فعلت؟»، وتحرر يد زاغالو أنفي لتعود إلى الشعر. الفضلات الأنفية يمسحها بخصل الشعر المفروقة بأناقة. ومرة ثانية تشتد القبضة على شعري، ثم يصرخ زاغالو: «ما أنت؟ قل لي ما أنت؟».

«حيوان يا أستاذ، حيوان».

اليد تسحب إلى الأعلى، وعلى نحو أشد، والشفتان تهمهمان: «كرر مرة ثانية، كرر»، فأنتصب على رؤوس أصابعي ثم أصرخ: «إي أستاذ، حيوان أستاذ».

لكن القبضة تستمر بالشد على نحو أقسى وأعلى.... «مرة أخرى» لكن فجأة ينتهي كل شي.. وتعود قدماي لتستويا على الأرض ويخيم على الصف سكون كسكون الموت.

«أستاذ» يقول سوني إبراهيم: «لقد نتفت شعره يا أستاذ».

بعدها تختلط الأصوات «انظر، الدم يا أستاذ» «إنه ينزف يا أستاذ»، «عفواً، هل آخذه إلى الممرض يا أستاذ؟».

لكن السيد زاغالو يقف كالتمثال وكتلة من شعري في قبضة يده، بينما أشعر ـ والصدمة أكبر من أن تسمح لي بالشعور بالألم ـ برقعة فارغة في رأسي حيث كان السيد زاغالو قد صنع بقعة جرداء كتلك التي تبقى على رأس الراهب بعد جز شعره، دائرة لن ينمو الشعر فيها أبداً، فأدرك أن لعنة مولدي، تلك التي ربطت بيني وبين بلادي، قد عملت على إيجاد طريقة أخرى غير متوقعة للتعبير عن ذاتها.

بعد يومين، أعلن السيد المدير أن السيد إميل زاغالو سيترك المدرسة، لأسباب شخصية، لسوء الحظ لكنني كنت أعلم ما هي الأسباب الحقيقية.

فشعري المقتلع كان قد التصق بيديه، شأنه شأن لطخات الدم التي لا يمكن إزالتها، ولا أحد يرغب بمعلم على راحتيه شعر. «العلامة الأولى للجنون» كما كان غلاندي كيث مولعاً بالقول: «أما العلامة الثانية فهي البحث عن ذلك الشعر». تركة زاغالو: بقعة جرداء على الرأس كبقعة رأس الراهب، والأنكى من ذلك طقم كامل من الأسماء الجديدة التي راح زملائي يعيرونني بها ونحن ننتظر حافلة المدرسة التي ستقلنا إلى المنزل كي نلبس ثيابنا بغية الذهاب إلى مدرسة البنات: «ذو الأنف الخرطومي، الأصلع». و«المتعجرف، أو الوجه ـ الخريطة» وحين جاء سيروس إلى رتل الباص، حاولت أن أواجه الحشد ضده وذلك بتأليف أغنية تقول: «سيروس العظيم.. ولد على طبق.. عام ١٩٤٨» لكن ما من أحد قبل العرض.

بذلك نصل إلى أحداث مدرسة البنات، التي صار فيها الأولاد المشاكسون أدوات للقضاء والقدر، وتحولت فيها الأصابع إلى ينابيع، وسقطت ماشا مايوفيك الكاعب صاحبة الصدر الأسطوري، مغشياً عليها... فقد وصلت إلى مدرسة البنات والضماد الذي زودني به الممرض لا يزال على رأسي. لقد تأخرت، ذلك أنه لم يكن أمراً يسيراً أن أقنع أمي بأن تسمح لي بالذهاب، لذلك وفي اللحظة التي اجتزت فيها عتبة قاعة التجمع، تحت

البالونات ومظاهر الزينة ونظرات الفتيات المتشككات بالفطرة، كانت خيرة الفتيات قد بدأن الرقص من قبل وبالطبع كان الصبية الكاملون قد اختاروا مراقصاتهم، فراقبتهم بنوع من الغيرة والحسد. إنهم غوزدر، جوشي، ستيفنسون، رشدي، تليارخان، تايابالي، جوساوالا، واغلي وكينغ. وقد حاولت أن أشق طريقي إليهم بقولي «عفواً، المعذرة» لكن حين كانوا يرون ضماد رأسي وأنفي الأشبه بالخيارة والبقع على وجهي فقد كانوا يكتفون بالضحك وإدارة ظهورهم... وهكذا شعرت بالكراهية تتفتق في صدري، لكنني أكلت رقائق البطاطا وشربت كازوزاً ثم قلت لنفسي: «هؤلاء الحمقى، لو علموا من أنا لأخلوا لي الطريق في الحال»، لكن كان لا يزال الخوف من كشف حقيقتي أشد بكثير من رغبتي العابرة بأن أفتل رؤوس الفتيات الأوروبيات «هيه.. سليم.. هيه يا بطل» وانتزعني من عزلتي المريرة المليئة بأحلام اليقظة (إذ حتى سوني كان قد وجد من تراقصه، هو الذي تسم صدغيه الأخاديد- الملقطية، هو الذي لا يلبس سروالاً داخلياً- فهناك أسباب تكمن خلف جاذبيته). انتزعني صوت من خلف كتفي اليمنى، صوت حلقي خفيض مليء بالوعود- وكذلك بالوعيد. إنه صوت فتاة. فالتفت شبه واثب لأجد نفسي وجهاً لوجه أمام رؤيا ذات شعر ذهبي وصدر كاعب شهير... يا إلهي إنها في الرابعة عشرة، فلماذا تحدثني؟ «اسمي ماشا مايوفيك» قالت الرؤيا: «لقد قابلت أختك».

طبعاً، بطلات القردة النحاسية السابحات، فتيات مدرسة والشنغهام يعرفن بالتأكيد بطلة المدرسة صاحبة أجمل صدر، فقلت متلعثماً: «أنا.. أعرف.. أعرف.. اسمك». «وأنا أعرف اسمك» قالت وهي تسوي ربطة عنقي «إذاً، الأمر حسن»، ومن فوق كتفها لمحت غلاندي كيث وبيرس البدين يرقبانا وقد بدا عليهما ما يشبه الغيرة، فنصبت ظهري جيداً وعرّضت كتفي. سألتني ماشا مايوفيك مرة ثانية عن ضماد رأسي فأجبتها بصوت رجوت أن يكون عميقاً «أوه، لا شيء، حادث رياضة»، ثم بذلت كل جهدي كي أحافظ على ثبات صوتي: «هل تودين أن... أن ترقصي؟».

«حسناً» قالت ماشا «لكن، لا تقم بأي محاولة لتقبيلي».

وهكذا ينزل إلى الحلبة سليم وماشا، وقد تعهدا بألا يقبل واحدهما الآخر. سليم وماشا يرقصان رقصة القبعة المكسيكية، ماشا وسليم يرقصان رقصة خطو الصندوق مع أفضل الراقصين، ثم أسمح لوجهي أن يكتسي بتعبير التفوق: «أترون؟ ليس من الضروري أن تكون كاملاً كي تحظى بفتاة. . .».

الرقصة تنتهي، فأقول وأنا ما أزال في ذروة زهوي «ما رأيك في أن نتمشى، في الساحة، كما تعلمين؟».

وتبتسم ماشا ابتسامة خاصة ثم تقول «حسناً. . ليكن ذلك. . لثانية واحدة فقط. ودون تشابك بالأيدي، موافق».

ويتعهد سليم، بألا يشبك يده بيدها. ثم ينطلق سليم وماشا يعبان الهواء. . . هذا رائع يا رجل. هذه هي الحياة. وداعاً إيفي. . مرحباً يا ذات الصدر الكاعب. . . . غلاندي كيث وبيرس البدين يخرجان من خلال الساحة ثم يقهقهان: قه. . قه. . قه. . ماشا تبدو منذهلة وهما يسدان طريقنا. «هـ. . . هـ. . . هـ. . . و». يقول بيرس البدين: «ماشا هـ. . . هـ. . . هـ. . . و. . لذلك موعد هناك». فأرد «اخرس، أنت». فيجيب غلاندي كيث: «ترى ألا تودين أن تعرفي كيف أصيب بجرحه الحربي هذا يا ماشا؟». ثم يتابع بيرس «هي. . . هو. . ها». فتقول ماشا: «لا تكن فظاً، لقد أصيب في حادث رياضة». ويكاد ينقلب بيرس البدين وفلاندي كيث من شدة الضحك، بعدئذ يكشف فيشوالا الحقيقة كاملة: «بل لقد اقتلع زاغالو شعره في الصف»، ثم «هي. . هـ. . و». وكيث يقول: «ذو الأنف الخرطومي بات أصلع» ثم يشتركان معاً «المتعجرف له وجه كالخريطة». وتطغى الدهشة على وجه ماشا، ثم يطغى شيء آخر، شيء من روح الشر الجنسي المتبرعم. . . «سليم. إنهما يتغالظان كثيراً عليك» فأقول «أجل، لكن تجاهليهما» وأحاول أن أنسل بها بعيداً. لكنها تستأنف «لا، أنت لن تتركهما يتماديان كثيراً» وتبرز قطرات من الاهتياج على شفتها العليا، ثم تقول عيناها، وقد وقف لسانها في شدقها «ما أنت؟ رجل أم فأر؟». . . وهكذا، بتأثير سحر الكاعب الفاتنة، أشعر بشيء آخر يسبح داخل رأسي: صورة ركبتين لا تقاومان، فأندفع إلى كولاكو وفيشوالا، ثم أسدد ضربة شديدة من ركبتي إلى

حقوي غلاندي وهو لا يزال يقهقه، وقبل أن يهوي أرضاً، تكون ضربة مماثلة أخرى قد أوقعت بيرس البدين أرضاً. ثم ألتفت إلى صاحبتي فتصفق تصفيقاً لطيفاً «هيه.. يا رجل... أنت رائع».

لكن آنذاك تكون لحظتي قد فاتت، إذ يكون بيرس البدين قد استعاد قواه وغلاندي كيث قد تحرك فعلاً باتجاهي... وهكذا أتخلى عن كل ادعاء بالرجولة، وأنكص على عقبي مولياً الأدبار، بينما يلاحقني المشاكسان وخلفهما ماشا صارخة: «أين تهرب أيها البطل الصغير؟». لكن لا مجال لها الآن. ينبغي ألا أدعهما يمسكان بي، فأتوجه إلى أقرب غرفة صف، أدخلها وأحاول إغلاق بابها، لكن قدم بيرس البدين تحول بيني وبين ذلك ثم تصبح الاثنتان في الداخل، فأطبق على الباب، أمسكه بيدي اليمنى، محاولاً أن أبقيه مفتوحاً، هنا يحدث تحول: «اخرج إن كنت تستطيع»، ويعملان على إغلاق الباب لكنني أسحب بكل ما يوفر لي الخوف من قوة، فأفتحه بضع بوصات ثم تلتف يدي حوله، وفي هذه اللحظة يطبق بيرس البدين الباب بكل ما لديه من قوة فينغلق على نحو أسرع بكثير من أن أستطيع إبعاد يدي عن طريقه. الباب ينطبق مصدراً صوت ارتطام شديد. وفي الخارج ماشا تصل ثم تنظر إلى الأرض فترى السلامية الأخيرة من إصبعي الوسطى مرمية على الأرض مثل كتلة من اللبان مضغت جيداً. وفي الحال تقع مغشياً عليها.

لا ألم. كل شيء ناء بعيد. بيرس البدين وغلاندي كيث يطيران طلباً للمساعدة أو هرباً بجلديهما. أما أنا فأتطلع إلى يدي بنوع من الفضول الصرف. إصبعي أمست نبعاً. السائل الأحمر ينبجس بصورة تتوافق مع نبضات قلبي. لم أكن أعلم أبداً أن في الدنيا إصبعاً تحوي مثل هذا القدر من الدم. شيء جميل، الآنسة تأتي لتمرضني، لا تقلقي أيتها الممرضة. إنه مجرد خدش. «لقد اتصلنا بوالديك هاتفياً، السيد المدير حصل على مفاتيح سيارته». الممرضة تضع حشية كبيرة من القطن الطبي على إصبعي المتورمة. تسد نقصها كقطعة حلويات حمراء. والآن يأتي المدير. اصعد إلى السيارة يا سليم، أمك ستذهب مباشرة إلى المستشفى، نعم أستاذ، والقطعة المبتورة؟ هل من أحد أخذ القطعة؟ نعم أيها المدير ها هي ذي. شكراً لك أيتها

الممرضة. ربما لا فائدة منها، لكن من يدري؟ امسك هذه بينما أقود أنا يا سليم. . . وأمسك بسلاميتي المبتورة بيدي اليسرى غير المبتورة بينما يقود المدير بي إلى مستشفى بريتش كاندي عبر شوارع الليل الخاوية.

في المستشفى ثياب بيض، جدران بيض، نقالات، والجميع يتكلمون في الوقت نفسه. الكلمات تنسكب علي انسكاب الينابيع، «أوه يا لله! احفظنا، ابني الصغير فلقة القمر، ما عساهم فعلوا به؟» على ذلك يجيب المدير العجوز «هيه. . هيه. . سيدة سيناء، الحوادث تحدث دائماً، والغلمان يبقون غلماناً». لكن والدتي ترد مغضبة: «أية مدرسة هذه؟ سيد كروزو؟ أنا هنا واصبع ابني ممزقة إرباً وأنت تتحدث على هذا النحو. لا، ليس هذا حسناً، لا، يا سيدي» وبينما يرد كروزو: «بالفعل، الاسم ـ مثل روبنسون أنت تعلمين ـ هيه. . هيه. .»، يكون الطبيب قد جاء وطرح سؤالاً سيغير جوابه العالم.

«سيدة سيناء، زمرة دمك من فضلك؟ الصبي فقد الكثير من الدم. ونقل دم إليه أمر لا بد منه» فترد أمينة: «أنا من زمرة «آ» لكن زوجي من زمرة «أو»». ثم تبكي منهارة تماماً لكن الطبيب يستأنف «آه. في هذه الحالة، هل تذكرين زمرة الـ. . .»، لكن يتعين عليها، هي ابنة الطبيب، أن تعترف بأنها لا تستطيع الإجابة عن السؤال: «آ» أم «أو»؟ «حسن، في هذه الحالة لا بد من القيام بفحص سريع لكن ماذا عن عامل الارتصاص؟» وترد أمي وهي تشرق بدموعها «عامل الارتصاص موجب لدينا، أنا وزوجي». فيقول الطبيب: «حسناً إذاً، ذلك جيد على الأقل».

لكن حين أغدو على طاولة العمليات ـ «اجلس هنا يا بني، سأعطيك مخدراً موضعياً، لا يا مدام، هو مصاب بصدمة، التخدير الشامل مستحيل. حسناً يا بني، ارفع إصبعك إلى الأعلى واثبت، ساعديه يا ممرضة سوف ينتهي كل شيء في لمحة عين» وبينما يبدأ الجراح بخياطة الإصبع المبتورة وتحقيق معجزة زرع جذور الظفر، يحدث اهتياج وارتباك في الخلف على بعد مليون ميل ربما، ثم أسمع من يقول: «هل لديك ولد ثان سيدة سيناء؟». ثم يتعذر علي سماع شيء آخر بوضوح. . . الكلمات تسبح عبر الامداء اللامحدودة. . . «سيدة سيناء هل أنت متأكدة؟ «أو» أم «آ»، «آ» أم «أو»؟

والراصات سلبية. ما هي لديكما كلاكما؟ سالبة أم موجبة؟ واللواقح متجانسة أم متضاربة؟ لا، لا بد من أن يكون ثمة خطأ ما، كيف يمكن أن يكون... آسف، الأمر هل هو ابـ....؟ ليس متبنياً أو...». وتحشر الممرضة نفسها بيني وبين الكلام البعيد أميالاً، لكن لا فائدة فأمي تطلق الصرخات الآن: «الله! عليك أن تصدقني يا حكيم، بالطبع هو ابننا».

لا «آ» ولا «أو». كما أن عامل الارتصاص: سلبي وغير معقول. وتشكل اللواقح لا يقدم دليلاً كما يوجد في الدم قليل من جسيمات «كيل» المضادة فتصرخ أمي وتبكي مر البكاء... «أنا لا أفقه شيئاً... ابنة طبيب ولا تفهم». هل زمرة الدم هي التي كشفت القناع عني؟ هل الراصات تشير بإصبعها إشارة لا جواب عليها؟ هل ستضطر ماري بيريرا لأن... وأفيق من غيبوبتي لأجد نفسي في غرفة باردة ذات جدران بيض وستائر فينيسية، بصحبتي إذاعة عموم الهند وتوني برينت يغني «أشرعة حمر عند غروب الشمس».

أحمد سيناء، بوجهه الذي التهمه الويسكي ثم شيء أسوأ من الويسكي، يقف بجوار الستارة الفينيسية، وأمينة تكلمه همساً. ومرة ثانية، يأتي الكلام نتفاً، قاطعاً ملايين الأميال: «جانوم أرجوك، أتوسل، إليك. كلا، ما الذي تقوله. طبعاً هو كذلك. بالتأكيد أنت الوالد... كيف يخطر ببالك أن تفكر بأنني... من تراه يكون... أوه يا إلهي لا تقف هكذا متطلعاً إلي. إنني أقسم برأس أمي أقسم إنه ابـ...».

أغنية جديدة من توني برينت، يبدو صوته فيها أشبه بصوت وي ويلي وينكي: منذ متى ذلك الكلب في النافذة؟؟ السؤال يحوم في الجو، طافياً على الأمواج الإذاعية. والدي يسير نحو سريري، ينحني فوقي، فيبدو لي كما لم يبد من قبل.

«بابا» أناديه، فيقول غير عابئ بي: «كان علي أن أعرف. انظري فقط. أين أنا من ذلك الوجه. هذا الأنف، كان علي أن...». ثم يدور على عقبيه ويغادر الغرفة، أمي تلحق به وهي أشد ذهولاً واضطراباً من أن تتكلم همساً: «لا، جانوم. أنا لن أسمح لك بتصديق أمور كهذه عني. سوف أقتل نفسي، سوف..»، وينطبق الباب خلفهما.. ثم يأتي صوت من الخارج، أشبه

بصوت لطمة أو صفعة. معظم الأشياء المهمة في حياتك تحدث في غيابك.

توني برينت يبدأ بدندنة آخر أغنية في أذني الصالحة: ويؤكد لي بشيء من التناغم: «سحابة صيف عن قريب تنقشع». قصارى القول إنني، أنا سليم سيناء ـ الآن، أنوي أن أمنح نفسي ـ تلك، منافع من يتأمل الحدث بعد وقوعه، محطماً تقاليد الكتابة الحسنة ووحدة الزمان والمكان، وأن أجعلها تدرك ما سوف يأتي بصورة خالصة تسمح للأفكار التالية بأن تراودها: «آه! يا للتعارض الأبدي بين الداخل والخارج»! فالكائن البشري، في داخله، هو أي شيء ما عدا كلاً متكاملاً، أي شيء ما عدا كلاً متجانساً، أشياء متباينة بكافة أنواعها وأصنافها تتزاحم داخله. إنه في هذه اللحظة شخص وفي اللحظة التالية شخص آخر، بينما الجسم متجانس واحد لا يتغير. وحدة لا تتجزأ، بزة من قطعة واحدة، معبد مقدس إن شئت ومن الأهمية بمكان الحفاظ على هذه الكلية. لكن فقدان إصبعي الذي كانت إصبع الصياد المؤشرة في لوحة رالي قد تنبأت به بوضوح، أقول فقدان إصبعي فضلاً عن اقتلاع بقعة من شعر رأسي، أبطل ذلك كله. وبذلك أدخلني حالة ليست بعيدة عن الحالة الثورية وتأثير الحالة الثورية على التاريخ لا بد من أن يكون مذهلاً للغاية. انزع سدادة جسمك يتساقط منه ما لا يعلم إلا الله، تغدُ فجأة غير الذي كنت ويغدُ العالم شيئاً آخر إلى درجة لا يعود معها أبواك أبويك والا الحب حباً ولا تكون هذه إلا نتائج ذات تأثير على الحياة الداخلية فيك، أما النتائج المتعلقة بالجو العام، وكما ستظهر في حينها، فإنها لن تكون أقل عمقاً.

أخيراً، أتخلى عن موهبتي في التكهن، أترككم مع صورة ابن العاشرة بإصبعه المضمدة وهو يجلس في سرير المستشفى يفكر بالدم، يفكر بالأصوات التي تشبه الصفعات وذلك التعبير على وجه أبيه، ثم يزوم صاعداً ببطء في لقطة طويلة كما يسمح للموسيقى المسجلة بأن تغرق كلماته، ذلك أن توني برينت يصل إلى نهاية أغنيته. إنها النهاية نفسها لأغنية ويلي وينكي: «طابت ليلتكن، سيداتي» ذلك هو اسم الأغنية، ولتنقض بسرور.. لتنقض بسرور.. لتنقض بسرور...

فتى الكولينوس

من مربية إلى أرملة، فسليم سيناء هو ذلك الضرب من الناس الذين تقدم لهم الأشياء على طبق من فضة. لكنه، هو الضحية الأبدية، يصر على رؤية نفسه بطلاً معذباً. فرغم جريمة ماري والإصابة بحمى التيفوئيد وتجاوز حادثتين، في صندوق الغسيل وحلقة السيرك (حين سمح سوني إبراهيم، سيد من حطم الأقفال، للقرنين المتبرعمين في صدغي بغزو تجاويفه الملقطية، وبذلك حدث التوليف وبالتالي انفتح الباب المؤدي إلى أطفال منتصف الليل)، وبغض النظر عن دفعة إيفي لدراجتي وما ترك ذلك من آثار وكذلك خيانة أمي، وعلى الرغم من فقداني لشعري بسبب العنف والحقد المعتملين في صدر إميل لحس ـ الشفاه، ورغم كل الدلائل التي تدل على العكس، فإنني سأوضح الآن، بكل رصانة رجل العلم ورزانته، زعمي في أنني أحتل مكاناً في مركز الأشياء.

«. . . حياتك التي ستكون، بشكل من الأشكال، مرآة لحياتنا» هكذا كتب رئيس الوزراء، مرغماً إياي، وبصورة علمية على أن أواجه السؤال التالي: بأي شكل؟ كيف؟ بأي حال يمكن القول إن حياة فرد واحد تعكس مصير أمة أو تؤثر فيه؟ هنا علي أن أجيب بلغة الصفات والخطوط الواصلة بين الكلمات: لقد كان ارتباطي بالتاريخ هو ارتباط فعلي ومجازي على حد سواء، سلبي وإيجابي معاً، أي بما يمكن أي بما يمكن لعلمائنا (الحديثين إلى حد يثير الإعجاب) أن يطلقوا عليه «صيغ الارتباط» المكونة من مركبات ثنائية القرائن، مركبات زوجين من الصفات المتناقضة المذكورة أعلاه. وهذا

هو السبب الذي يفسر ضرورة وجود الخطوط الواصلة. فعلى نحو إيجابي ـ عملي، سلبي ـ مجازي، إيجابي ـ مجازي، سلبي ـ عملي، كنت، وبصورة لا فكاك منها، قد جدلت مع عالمي جدلاً. غير أنني أرتد، وأنا أشعر بدهشة بادما اللاعلمية، إلى الكلام العام غير الدقيق: إنني أعني، «بالمركب الإيجابي ـ العملي» طبعاً كافة الأعمال التي قمت بها والتي أثرت بصورة مباشرة ـ عملية ـ أو بدلت من مسار الأحداث التاريخية المشتملة على بذور التطور في المستقبل. مثال على ذلك، الطريقة التي قدمت بها للمشاركين في مسيرة اللغة أنشودتهم الحربية. أما المركب السلبي المجاز فيَّ تضمن بكافة الاتجاهات الاجتماعية - السياسية التي أثرت بي، لمجرد وجودها، تأثيراً مجازياً. مثال على ذلك، يمكنك من قراءة ما بين أسطر الفصل المعنون بعنوان «إصبع الصياد المؤشرة» أن تدرك الرابطة التي لا يمكن تجنبها بين محاولات الدولة الوليدة لأن تندفع نحو النضج المكتمل وبين محاولاتي الصارخة في مطلع حياتي لأن أنمو وأكبر... المركب التالي أي «السلبي ـ العملي» يغطي جميع اللحظات التي كانت فيها الأحداث الوطنية ذات تأثير مباشر على حياتي وحياة عائلتي ـ وضمن هذا الإطار يمكنك أن تدرج تجميد ممتلكات أبي وكذلك الانفجار في خزان والكشوار الذي بدأ به غزو القطط الكبير، وأخيراً، هناك المركب «الإيجابي ـ المجازي» الذي يجمع معاً تلك المناسبات التي حدثت فيها أشياء لي أو بواسطتي وكانت تعكس بصورة مكبرة القضايا العامة، حيث يبدو وجودي الخاص متحداً رمزياً بالتاريخ. وهنا أجد بتر إصبعي الوسطى خير مثال، ذلك أنني حيث انفصلت عن إصبعي ونفر الدم (الذي لم يكن من زمرة «آ» ولا «أو») كالنبع الفوار فقد حدث شيء مشابه للتاريخ. إذ بدأت الأحداث من كل حدب وصوب تنصب علينا جميعاً، لكن بما أن التاريخ يعمل أعمالاً ذات مقياس أكبر من أعمال أي فرد، فإن المرء يستغرق وقتاً أطول لكي يربط ما بين أحداثه ويجمعها معاً مزيلاً كل ما فيها من اضطراب واختلاط.

«سلبي ـ مجازي»، «سلبي ـ عملي». «إيجابي ـ مجازي»: هكذا كان مؤتمر أطفال منتصف الليل يجمع المركبات الثلاثة معاً، لكنه لم يتحول أبداً

لما كنت أرغب أن يكون، فنحن لم نعمل قط وفق الصيغة الأولى والأهم من «صيغ الارتباط» كلها، صيغة «الإيجابي ـ العملي» فتلك الصيغة كانت قد فاتتنا.

تحول لا نهاية له: إذ جيء بسليم ذي الأصابع التسع إلى مدخل مستشفى بريتش كاندي من قبل ممرضة ثخينة شقراء تجمد وجهها بابتسامة الخيانة المخيفة. عيناه تطرفان إزاء الألق الشديد للعالم الخارجي، وهو يحاول أن يركز على طيفين سابحين يقتربان منه وكأنهما آتيان من الشمس، «انظر» تقول الممرضة بصوت رخيم «انظر من جاء يأخذك؟». فيدرك سليم أن أمراً فظيعاً دهى العالم، ذلك أن أمه وأباه اللذين كان ينبغي أن يأتيا لأخذه، تحولا وهما في الطريق إلى المستشفى، على ما يبدو، إلى مربيته ماري بيريرا وخاله حنيف.

كان حنيف عزيز يهدر مثل أبواق السفن في الميناء وتنطلق منه رائحة أشبه برائحة معمل تبغ قديم. وكنت أحبه كثيراً لضحكته وذقنه غير الحليقة وهيئته، هيئة من جمعت أعضاؤه على نحو متخلخل، وكذلك لافتقاره للتنسيق الذي جعل كل حركة من حركاته محملة بالخطر (حين كان يزور فيلا باكنغهام، كانت أمي تخفي المزهريات البلورية) ولم يكن الكبار يثقون بقدرته على التصرف تصرفاً لائقاً («حذار من الشيوعيين»! كان يصرخ وكان البعض يحمر خجلاً) وكان ذلك رباطاً يشد ما بينه وبين الأطفال ـ أطفال الآخرين نظراً لأن زوجته لم تنجب أطفالاً. إنه الخال حنيف الذي سيلقي بنفسه ذات يوم، ودون سابق إنذار، من سطح منزله.

ولكمني في ظهري، ملقياً بي بين ذراعي ماري «هيه، أيها المصارع الصغير! أنت تبدو في أحسن حال!» بيد أن ماري تقول على عجل «لكنه نحيف للغاية، يا يسوع! ترى ألم يطعموك كما ينبغي؟ هل تريد فطيراً من طحين الذرة؟ موزاً ممزوجاً بالحليب؟ هل قدموا لك رقائق البطاطا؟».

.... وبينما يتطلع سليم حوله في هذا العالم الجديد الذي يبدو كل شيء فيه وكأنه يمضي بسرعة كبيرة، يبدو صوته، حين يتكلم، ذا طبقة حادة وكأن أحداً يعجل من سرعة الاسطوانة: «ماما ـ بابا؟» يسألهما فيهدر حنيف

«والقردة؟ أجل، أيها الفتى، أنت في حالة حسنة فعلاً. هيا يا صديقي: نركب في سيارتي البكارد، موافق؟» وماري تتكلم في الوقت نفسه تقريباً واعدة إياي بكعكة الشوكولا، وبحلويات من شتى الأصناف منهية كلامها بالقول: «كم أنت نحيف يا صغيري! تكاد الريح تحملك!». وتنطلق البكارد، لكنها لا تنحرف عن شارع واردن كي تصعد الرابية ذات الدورين فيسأل سليم: «حنيف يا عزيزي، أين نحن ذا...». لكن سليماً لا يكمل إذ يهدر حنيف: «خالتك بيا بانتظارك! يا إلهي! سترى إن كنا لن نقضي وقتاً رائعاً بل كأروع ما تشتهيه نفسك» ثم يغدو صوته ذا نبرة تآمرية خافتة وهو يقول: «كثير من المرح والهزل»، فتثني ماري: «أجل يا صغيري، وكثير من اللحم المشوي والصلصة الخضراء!»...

«ليس ذلك النوع الغامق» أقول وقد تم أسري أخيراً، كما بدا الانتعاش على وجنات آسري «لا، لا، لا»، ترغي ماري «خضراء باهتة». فيهدر حنيف: «يا إلهي! خضراء كلون الجندب!».

كل شيء سريع للغاية. نحن الآن في منعطف كيمب، السيارات تدور حوله كالرصاص المنطلق... لكن شيئاً واحداً أجده على حاله وبلا تغير.. فعلى لوحته الإعلانية كان فتى الكولينوس يكشر ضاحكاً، تلك التكشيرة العابثة الأبدية للفتى ذي القبعة الخضراء الكلوروفيلية، تلك التكشيرة البلهاء للفتى الذي لا يعرف الزمان والذي يعصر، بصورة لا نهاية لها، أنبوبة معجون أسنان لا تنفد على فرشاة خضراء لامعة: لتبق أسنانك نظيفة، لتبق أسنانك لامعة، لتبق أسنانك أسنان كولينوس الناصعة ولعلك تود التفكير بي بوصفي فتى كولينوس رغماً عن أنفه، فتى يعصر الأزمات والتحولات مخرجاً إياها من أنبوبة لا قعر لها، مستخرجاً الزمن كي يضعه على فرشاة أسنانه المجازية، زمناً نظيفاً أبيض عليه خطوط من الكلوروفيل الأخضر.

هي ذي إذاً بداية منفاي الأول (إذ سيكون هناك ثانٍ وثالث) ولقد تحملته بلا تذمر أو شكوى. فقد خمنت، بالطبع، أن هناك سؤالاً ينبغي ألا أسأله البتة، وأن والديّ أعاراني كما تعير كتاباً هزلياً من مكتبتك، لأمد غير محدود، وأنهما حين يريدان استعادتي، فسوف يرسلان في طلبي، هذا إن

أرادا ذلك. لكنني لم أكن أنحو عليهما باللائمة، ترى ألم أوقع بنفسي تشوهاً آخر أضفته إلى الساقين المعوجتين والأنف ـ الخيارة والصدغين القرنيين والوجنتين المبقعتين؟ أليس من المحتمل أن إصبعي المبتورة كانت (مثلما كان إعلاني عن أصواتي تقريباً) بالنسبة إلى والديّ، اللذين عانا طويلاً مني، هو القشة التي قصمت ظهر البعير، وأني بت قضية خاسرة بالنسبة إليهما، ولم أعد أستحق حبهما ورعايتهما؟

وهكذا قررت أن أكافئ خالي وزوجته على لطفهما في بسط رعايتهما على مخلوق شرير مثلي، وأن ألعب دور ابن الأخت النموذجي بانتظار ما يستجد من أحداث. ولقد مرت أحايين كنت أود فيها لو تجيء القردة لزيارتي أو حتى للاتصال بي هاتفياً، لكن التفكير بمسائل كهذه لم يكن يعود بشيء سوى تحطيم توازني، لذا شرعت أبذل كل ما في وسعي لطردها من ذهني كلية. علاوة على ذلك، فإن الإقامة لدى حنيف وبيا عزيز بدت كما وعدني بها خالي تماماً: فيها الكثير من الهزل والمرح.

لقد أثاروا حولي من الضجة أكثر بكثير مما يتوقعه الأطفال ويتقبلونه بامتنان من كبار لا أطفال لديهم. فشقتهم المطلة على الممر البحري لم تكن كبيرة، إنما كان لها شرفة يمكنني منها أن ألقي بقواقع جوز ـ القردة على رؤوس المارة من المشاة ولم تكن فيها غرفة نوم احتياطية، إنما أعد لي ديوان طري لذيذ مقلم بالأبيض والأخضر (برهان مبكر على تحولي إلى فتى كولينوس)، أما المربية ماري التي بدا واضحاً أنها لحقتني إلى منفاي، فقد كانت تنام على الأرض بجواري. في النهار، كانت تملأ معدتي بالكعك والحلويات الموعودة (التي كانت أمي تدفع ثمنها، بحسب اعتقادي الآن) وكان علي أن أنمو وأن أسمن كثيراً، لولا أنني بدأت مرة أخرى أنمو باتجاهات أخرى. ففي نهاية السنة الأولى من التاريخ المتسارع (أي حين كنت في الحادية عشرة والنصف) بلغت قامتي عملياً حدها الأقصى أي طولي كبالغ مكتمل. وقد حدث ذلك وكأن أحد الناس أمسك بطيات سمني المصطنعة ثم عصرها، كما لم تعصر أنبوبة معجون أسنان من قبل، بحيث امتدت قامتي عدة بوصات تحت الضغط. لقد خلصني التأثير الكولينوسي من

الاكتئاب فرحت أنعم بنعيم خالي وزوجته لوجود طفل لديهما في المنزل. وحين كنت أريق الكازوز على السجاد أو أعطس قاذفاً بالمخاط في قلب طعامي كان كل ما يقوله لي خالي «ها... ي... يو! أيها الرجل الأسود!» وذلك بصوته المدوي كبوق السفينة، ثم يمحو كل أثر لذلك بتكشيرة ضخمة يكشرها.

إبان ذلك، كانت الخالة بيا قد أصبحت المرأة التالية في السلسلة الطويلة من النساء اللواتي سحرنني وحرمنني أخيراً من أن أكون صالحاً ولائقاً (وعلي أن أذكر أن خصيتيّ، خلال إقامتي في شقة الممر البحري، وقد تخلصتا من حماية عظم الحوض، قررتا دونما سابق إنذار وبصورة سابقة للأوان، أن تنزلا إلى كيسهما الصغير. هذا الحدث لعب، هو الآخر، دوره في ما تلاه من أحداث).

الخالة بيا عزيز المقدسة: أن تعيش معها يعني أن تكون موجوداً في قلب سينما بومباي اللزج الحار. في تلك الأيام، كانت حياة خالي في دنيا السينما قد دخلت مرحلة انهيار شديد وإلى جانبه، كان نجم بيا، وهذه هي سنة الكون، ينهار هو الآخر انهياراً شديداً. لكن، في حضورها، كانت أفكار الفشل غير واردة على الإطلاق، لقد حولت بيا، التي حرمت من الأدوار السينمائية، حياتها إلى فيلم طويل، أسند إليّ فيه عدد متزايد من الأدوار الصغيرة، فأنا الخادم - الشخصي المخلص: وبيا في ثوبها التحتاني يدور ردفاها الأملسان باتجاه عيني المبعدتين. بيا تقهقه بينما تلمع عيناها البراقتان بما عليهما من إثمد، لمعان الأمر ـ «تعال يا غلام، لماذا تخجل، أمسك هذه الثياب في ساريّ لأطويها». وأنا أمين سرها المعتمد أيضاً، فحين يجلس خالي على المقعد المقلم بالأخضر والأبيض متفحصاً مسودات النصوص التي لن يحولها أحد إلى أفلام، كنت أصغي إلى نجوى خالتي الملأى بالحنين، محاولاً الابتعاد بعيني عن الكوكبين غير المعقولين، المدورين كالبطيخ، المذهبين كالمانغا، أي، كما أخمن أنكم قد خمنتم، إلى نهدي الخالة بيا الرائعين.

وحين تنادي، وهي مستلقية في سريرها، وذراع من ذراعيها على

جبينها: «أنت تعرف يا فتى أنني ممثلة عظيمة، فقد قمت بعدة أدوار هامة! لكن انظر ماذا يفعل القدر! في الماضي، أيها الفتى، لم يكن يعلم إلا الله من يتوسل مستجدياً أن أسمح له بالمجيء إلى هذه الشقة، في الماضي، كان محررو «المجلة السينمائية»، و«إلهة الشاشة» يدفعون مبالغ طائلة من الأموال كي يدخلوا هنا! يا غلام، بعد فيلم (عشاق كشمير) من تراها كانت أكبر نجمة؟ لا، ليست بوبي، ولا فيجانا نتيمالا ولا أية ممثلة أخرى! فأومئ برأسي مؤكداً قولها، لا بالطبع لا أحد، طالما كان بطيخها الملتف ببشرتها الرائعة يرتفع و.... ثم تتابع بصرخة مسرحية: «لكن حتى حينذاك، حين كانت شهرتي ملء الدنيا، وكانت أفلامي ملء دور السينما، فإن خالك هذا كان يريد أن نسكن في شقة من غرفتين شأن أي موظف بسيط! مع ذلك لم أثر أي ضجة، فأنا لست كبعض الممثلات الرخيصات. إنني أرضى بالحياة البسيطة ولا أسأل عن سيارات الكاديلاك أو المكيفات الهوائية أو فراش الدنلوب المستورد من إنكلترا، كما لا أهتم بأحواض السباحة ولا بالبكيني مثل روكسي فيشوانثام! هنا، مثل أية زوجة بسيطة - كنت وهنا الآن أهترئ! تماماً. لكنني أعرف هذا: وجهي هو ثروتي، وبعده أية ثروة أحتاج؟ فأوافق بقلق بالغ «خالة، لا شيء، لا شيء على الإطلاق». فتصرخ بوحشية إلى درجة تسمعها حتى أذني الطرشاء «نعم، طبعاً، أنت أيضاً تريدني أن أكون فقيرة! كل الناس يريدون أن تكون بيا في الأسمال! حتى ذلك الرجل، خالك، وهو يكتب نصوصه المملة ـ المضجرة! أوه يا إلهي! أقول له، أدخل رقصات أو أماكن غريبة! اجعل شخصياتك الشريرة بالغة الشر، ولم لا؟ اصنع أبطالاً من رجالك! لكن يقول كلا، هذا كله هراء، ذلك ما يراه الآن ـ رغم أنه في الماضي لم يكن كثير التكبر إلى هذا الحد! الآن يريد أن يكتب عن الناس العاديين والمشاكل الاجتماعية! فأقول له: لا بأس، حنيف، ذلك حسن، لكن أدخل شيئاً من الهزل، بعض الرقص كي تقوم به حبيبتك بيا، أدخل لمحة مأساة هنا، لمسة دراما هناك، فهذا ما يريده الجمهور!». ثم تغرق عيناها بالدموع وهي تستأنف: «إذن أنت تعلم ما يكتبه الآن؟ إنه يكتب عن...»، وتبدو وكأن قلبها يتفطر: «حياة عادية في معمل مخللات!»

«هـ.. ش.. خالة... هـ.. ش..»، أتوسل إليها «الخال حنيف سيسمع». «فليسمع». تنفجر كالإعصار وقد انهمرت دموعها مدراراً: «لتسمع أمه أيضاً، في آغرا، فهم سيجعلونني أموت خزياً وعاراً!».

لم تكن الأم المبجلة قد أحبت يوماً من الأيام كنتها الممثلة. فقد سمعتها ذات مرة تقول لأمي: «يتزوج، ما اسمه، ممثلة، ابني يمرغ فراشه بالوحل؟ أوه سرعان ما ستجعله، ما اسمه، يدمن على الكحول ويأكل لحم الخنزير». لكنها أخيراً وافقت على زواجهما باعتباره شراً لا بدّ منه، إلا أنها تعهدت على نفسها أن تكتب إلى بيا رسائل تحسن من سلوكها: «اسمعي يا ابنتي» كتبت لها ذات مرة، «دعي مهنة التمثيل هذه، فلماذا يا ترى تقومين بعمل يجلب الخزي والعار؟ أن تعملي، نعم لا بأس فأنتن الفتيات لديكن أفكار حديثة، لكن أن ترقصي عارية على الشاشة، فيا الله! إنك مقابل مبلغ صغير فقط يمكنك أن تكسبي الحق بإقامة محطة وقود جيدة. ومن جيبي يمكنني أن أقدمه لك خلال دقيقتين. اجلسي في مكتبي، استأجري عمالاً وليكن لديك عمل لائق»، ولم يعرف أحد قط كيف تأتى للأم المبجلة أن تفكر بمشروع المحطة هذا الذي بات هاجس شيخوختها المتنامي، لكنها رمت بيا به رغم اشمئزاز هذه منه.

«لماذا لا تطلب مني تلك المرأة أن أعمل ضاربة على آلة كاتبة؟»، صاحت بيا في وجهي ووجه حنيف وماري عند الإفطار: «لم لا أكون سائقة سيارة؟ أو عاملة نول؟ اسمعوا، قصة هذه المحطة اللعينة تجعلني أقارب الجنون». وارتعش خالي (للمرة الوحيدة في حياته) وقد بلغ حافة الغضب ثم قال.. «ثمة طفل موجود. ثم إنها حماتك... وعليك أن تبدي لها الاحترام».

«الاحترام يمكنها أن تحصل عليه» تقول بيا وهي تندفع من الغرفة، «لكنها تريد بنزيناً».

.... غير أن أهم أدواري الصغيرة وأعظمها هو ذلك الدور الذي كنت أؤديه حين يلعب حنيف وبيا بالورق مع الأصدقاء، إذ كان يطلب إلي أن أشغل المكان المقدس للابن الذي لم تنجبه (ابن زوجين غير معروفين فقد

كان لدي من الأمهات أكثر مما لدى معظم الأمهات من أطفال، كما أن إنجابي للآباء والأمهات كان موهبة من أغرب مواهبي- شكلاً من أشكال الخصب المعكوس الذي يتجاوز حدود التحكم بالنسل، بل يتجاوز حتى قدرات الأرملة نفسها). ففي حضور الزوار كانت بيا تصيح. . . . «انظروا أيها الأصدقاء، ها هو ذا ولي عهدي، جوهرة خاتمي! ماسة عقدي!»، ثم تسحبني نحوها، تداعب رأسي مخفضة إياه إلى أن يغدو أنفي في صدرها ويعشش بارتياح بين الوسادتين الناعمتين (. . . ولعجزي عن استيعاب مباهج كهذه، فقد كنت أبعد رأسي سريعاً. لكنني كنت عبدها الرقيق، وإنني لأعلم الآن لماذا سمحت لنفسها بمثل تلك الإلفة معي. فأنا النامي بسرعة، السائر نحو النضج قبل الأوان كنت ما أزال أرتدي شعار البراءة الجنسية: فقد كان سليم سيناء، إبان إقامته في منزل خاله، لا يزال يرتدي البنطال القصير. الركبتان العاريتان كانتا تؤكدان طفولتي لبيا، لذا كانت، هي المخدوعة بالجوارب التي لا ترتفع عن الكاحل، تمسك بوجهي، تشده إلى صدرها بينما يهمس صوتها الرقيق كصوت الغيتار في أذني الصالحة: «أيها الولد، لا تخف أيها الولد، فغيومك ستنقشع قريباً»).

لقد كنت أمثل (وبتحسن متزايد) لدى خالي وكذلك لدى خالتي الممثلة، دور الابن البديل. فخلال النهار كان حنيف عزيز يتربع دائماً على المقعد المقلم، بيده قلم وباليد الأخرى دفتر يكتب عليه ملحمته المخللاتية. وكان يرتدي حزامه القماشي المعتاد وقد لفه بشيء من الانسياب حول خصره ثم ثبته بدبوس- صمام أمان هائل، بينما برزت ساقاه المشعرتان من بين طياته. أظافر يديه تحمل آثار عمر طويل من تدخين «الهشائش الذهبية». أصابعه تبدو كذلك بلا لون حتى أنني كنت أتخيله وهو يدخن السجائر بأصابع رجليه. وذات مرة سألته، وقد بهرتني الصورة أيما إبهار، إن كان باستطاعته، فعلاً أن يقوم بهذا العمل. ودون أن ينبس ببنت شفة أدخل سيجارة من نوع «الهشاشة الذهبية» بين إبهام رجله وإصبعه الجانبية ثم لف نفسه بطريقة غريبة، فصفقت تصفيقاً عنيفاً، لكنه بدا وكأنه ظل يتألم طيلة ذلك النهار.

لقد كنت ألبي حاجياته كما ينبغي للولد الصالح أن يفعل، فأفرغ منافض السجائر، أبري أقلام الرصاص، أجلب له الماء ليشرب بينما كان هو، الذي يتذكر بعد بداياته الخرافية أنه ابن أبيه وأنه كرس نفسه للكفاح ضد كل ما هو غير واقعي، يخربش تمثيليته السينمائية سيئة المصير.

«بني الصغير» قال لي ذات مرة، «هذا البلد اللعين ظل يحلم خمسة آلاف عام. وقد حان الوقت لأن يفيق من سباته». لقد كان حنيف مولعاً بالسخرية من الأمراء والشياطين، الآلهة والأبطال، وكان ذلك في الحقيقة، ضد تيار «عبادة الأيقونات» السائد في سينما بومباي. وهكذا، في معبد الأوهام، تحول حنيف إلى الكاهن الأعلى للواقعية، بينما كنت أنا، الواعي كل الوعي لطبيعتي الخارقة للعادة التي ورطتني، رغم كل المسكنات الموجودة، في حياة الهند الأسطورية، أعض على شفتي ولا أدري أين أوجه ناظري.

كان حنيف عزيز، الكاتب الواقعي الوحيد في صناعة بومباي السينمائية، يكتب قصة معمل مخللات أقامته وتديره وتعمل فيه نسوة دون رجال. وكانت هناك مشاهد طويلة تصف كيف تتشكل النقابة، كما كانت هناك أوصاف مفصلة لعملية التخليل. وكان حنيف يحاصر ماري حول بعض التفاصيل، كما كانا يتناقشان، ساعات بطولها، حول مزيج الليمون، والكلس وعناصر الصلصة الأخرى. لكن من دواعي السخرية أنه كان على تلميذ الواقعية هذا أن يكون متنبئاً ماهراً جداً (وإن يكن باللاشعور) بحظوظ أسرته، ففي القبل غير المباشرة التي كان يتضمنها فيلم «عشاق كشمير»، كان قد تنبأ بلقاءات أمي وصديقها نادر- قاسم في مقهى الرائد، وفي السيناريو الذي لم ير النور كان ثمة، أيضاً، نبوءة بالغة الدقة عن الصلصة.

لقد حاصر هومي كاتراك بالنصوص. لكن كاتراك لم ينتج نصاً واحداً منها، وكانت تلك النصوص تقبع في شقة الممر البحري الصغيرة، مغطية كل مكان في متناول اليد، حتى كان يتعين عليك أن ترفع بعضها عن مقعد المرحاض قبل أن تجلس عليه، لكن كاتراك (بدافع الإحسان؟ أم لسبب آخر سيتكشف قريباً؟) كان يدفع لخالي مرتباً شهرياً وبذلك بقي هو وزوجته على قيد الحياة أي بفضل أريحية الرجل الذي سيغدو، في وقت من الأوقات،

الكائن البشري الثاني الذي سيقتل على يد سليم المتفتح.

كان هومي كاتراك يتوسل إليه «مشهد غرامي واحد فقط؟». وتثني بيا: «أتظن أن الناس يدفعون نقودهم كي يشاهدوا نساء يصنعن المخلل؟». لكن كان حنيف يصر على موقفه بعناد شديد: «هذا فيلم عن العمل وليس عن القبل». لم يلاحق شبح يوسف ديكوستا، بحسب علمي، ماري بيريرا إلى المنفى، غير أن غيابه لم يعد إلا بزيادة قلقها. فقد شرعت، في أيام شقة الممر البحري تلك، تخشى أن يغدو مرئياً من قبل الآخرين إضافة إليها، ويكشف، خلال غيابها، الأسرار الفظيعة لما حدث في مستشفى الدكتور نارليكار في ليلة الاستقلال. وهكذا كانت كل صباح تغادر الشقة في حالة من القلق الأشبه بالهلام ثم تصل إلى فيلا باكنغهام وهي على وشك الانهيار، وحين تجد أن يوسفها ظل خفياً وصامتاً، حينها فقط تستريح، غير أنها ما إن تعود إلى الممر البحري، محملة بأطايب الطعام والحلويات حتى يبدأ قلقها بالتصاعد مرة أخرى...

الذعر يجر الذعر. ففي رحلاتها، وهي تجلس في الحافلات المزدحمة كمرطبانات المخللات، كانت ماري تسمع جميع أنواع الإشاعات والأقاويل التي كانت تنقلها إليّ على أنها قضايا لا شك بصحتها البتة. بالنسبة إلى ماري، كانت البلاد في قبضة نوع من الغزو ما فوق الطبيعي، «نعم، يا صغيري، فهم يقولون إن في كورو كشيترا عجوزاً سيخية أفاقت فرأت الحرب القديمة العهد، التي دارت بين الكوروس والبندافاس وهي مشتعلة الأوار خارج كوخها تماماً! لقد نشرت الجرائد ذلك كله، أما العجوز فقد دلت على المكان الذي شاهدت فيه عربات آرجون وكارنا الحربية، ولقد شاهد الجميع آثار العجلات في الطين فعلاً! ب....با... ب... بـ... بـ... با... ب! الأمور في أسوأ حال: ففي غواليو ـ شاهدوا شبح الراني جانسي، كما شوهد مخربون متعددو الرؤوس كالرافانا (الشيطان) وهم يفتعلون بالنساء ويقتلعون الأشجار بإصبع واحدة. أنا امرأة مسيحية صالحة يا صغيري، لكنني أشعر بالخوف حين أسمعهم يحكون أن قبر السيد المسيح موجود في كشمير، وعلى شواهد القبر نقشت قدمان مثقوبتان أقسمت إحدى صيادات السمك إنها

رأتهما تنزفان دماً، دماً حقيقياً، أجارنا الله! يوم الجمعة العظيمة... ما الذي يحدث يا صغيري؟ لماذا لا تبقى تلك الأشياء القديمة طي النسيان ولا تصيب ببلواها الناس الشرفاء؟». وهكذا كانت ماري تتكلم وأنا أصغي بعينين جاحظتين، وعلى الرغم من أن خالي حنيف كان يقهقه ضاحكاً، أراني، هذا اليوم، شبه مقتنع أنه في تلك الفترة من الأحداث المتسارعة، في ساعات المرض تلك، كان ماضي الهند يهب على قدميه كي يصيب حاضرها بالخزي، وكانت الدولة العلمانية الحديثة المولد تأخذ تذكاراً فظيعاً من ماضيها الخرافي القديم الذي لم يكن له أي شأن بالديمقراطية أو بحق المرأة في الاقتراع... إلى درجة سيطر معها على الناس الحنين للرجعى، للعودة إلى صفات الأسلاف، ناسين أسطورة الحرية الجديدة، مرتدين إلى أساليبهم القديمة في الحياة، وإلى ولاءاتهم ونزاعاتهم الدينية، إذ كان الهيكل العام قد بدأ يتصدع. وكما قلت: اقطع سلامية واحدة من إصبعك تر أية ينابيع من الارتباك والتشوش تفجرها.

«والبقر، يا صغيري، راح يختفي في الأثير، نفخة هواء! وفي القرى يموت الفلاحون جوعاً».

في ذلك الحين نفسه، تملكني، أنا الآخر، شيطان غريب، لكن لكي تفهمني كما ينبغي، يجب أن أبدأ بسرد قصة الأمسية البريئة، حين كان لدى حنيف وبيا مجموعة من الأصدقاء يلعبون الورق.

كانت الخالة بيا ميالة بطبعها للمبالغة، إذ رغم أن «المجلة السينمائية» و«إلهة الشاشة» كانتا غائبتين، فإن منزل خالي كان مكاناً يرتاده الجميع. وفي أماسي اللعب بالورق، كان يتفزر تقريباً بعازفي الجاز وهم يروون الشائعات عن المشاجرات والمقابلات في المجلات الأمريكية، وبالمطربات اللواتي يحملن مرشات لحناجرهن في حقائبهن، وبأعضاء فرقة أودي شانكار، الراقصة التي كانت تحاول أن تبتكر أسلوباً جديداً للرقص وذلك بالمزج بين الباليه الغربي والباراتا نايتام.... كما كان يأتي موسيقيون تعهدوا أن يقدموا مهرجاناً موسيقياً في إذاعة عموم الهند، وكذلك رسامون يجادل بعضهم بعضاً بعنف شديد. كما كان الجو مشبعاً بالأحاديث السياسية وسواها. «في الواقع،

أنا الفنان الوحيد في الهند الذي يرسم بإحساس خالص بالالتزام الأيديولوجي»، «أوه! أخبار فيردي في غاية السوء، فهو لن يجد فرقة موسيقية بعد هذه الفرقة»، «مينون؟ لا تحدثني عن كريشنا. أنا أعرف أنه صاحب مبادئ، وأنا نفسي لا أتخلى عن...»... «أوه حنيف عزيزي لماذا لا نرى قاسم الأحمر هنا هذه الأيام؟»، ويرد خالي وهو يتطلع بقلق صوبي« هـ.. س.. أي قاسم؟ أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم»... وتمتزج باللغط الدائر في الشقة ألوان الشفق وضجة الممر البحري حيث يتسكع متنزهون مع كلابهم، يشترون الياسمين والحمص من الباعة المتجولين وحيث تنطلق نداءات الشحاذين وبائعي الذرة والبوشار، وتنبعث الأضواء الآتية على شكل عقد كبير متقوس يلتف حول تلة مالابار... وأنا أقف على الشرفة مع ماري بيريرا أدير أذني المعطوبة إلى ما تهمسه من شائعات وظهري إلى المدينة وزمر اللعب المثرثرة المحتشدة أمام ناظري. وذات يوم أميز، بين لاعبي ـ الورق السيد هومي الذي يحييني بود مشوب بالضيق «مرحباً، يا فتاي! أنت على ما يرام؟ طبعاً، طبعاً أنت على ما يرام!».

كان خالي حنيف يلعب لعبة «الرومي» باستغراق كامل، لكنه كان في قبضة هاجس غريب ـ وهو أنه صمم ألا ينزل ما في يده من ورق إلى أن يكمل سلسلة ورق الكبة الثلاث عشرة. دائماً كبة، كل الكبة فلا شيء سوى الكبة يفي بالغرض. وفي بحثه عن الاستكمال المتعذر المنال، كان خالي يرمي بثلاث أوراق جيدة تماماً من أحد الأنواع، ويرمي بسلاسل كاملة من ورق السباتي والبستوني والديناري، الأمر الذي كان يسر زملاءه في اللعب كل السرور. وقد سمعت لاعب الشيهاني الشهير أوستاد شانجز خان (الذي كان يصبغ شعره، إلى درجة تصبغ معها أطراف أذنيه في الليالي الحارة بالسائل الأسود المنحل) يقول لخالي: «هيا، يا سيد، دع عنك مسألة الكبة هذه، والعب كما يلعب الآخرون». لكن خالي جابه الإغراء، ثم هدر بصوته العالي: «لا، عليك اللعنة، دعني ألعب كما أشاء واذهب إلى الشيطان!» لقد كان يلعب الورق لعب الحمقى، لكنني، أنا الذي لم ير شبيهاً لوحدانية الهدف هذه، كنت أشعر باغتباط يكاد يدفعني للتصفيق.

أحد الرواد المنتظمين لليالي حنيف عزيز الأسطورية المخصصة للعب الورق كان المصور الرئيسي في جريدة «التايمز» الهندي الذي كانت جعبته ملأى دائماً بالحكايا الغريبة والقصص المثيرة. وقد قدمه خالي إلي قائلاً: «ها هو ذا الفتى نشر صورتك على الصفحة الأولى يا سليم. أقدم لك المصور الرهيب كاليداس غوبتا. إنه طراز لعين فعلاً. لا تتكلم معه طويلاً وإلا جعل رأسك يدوخ من كثرة الفضائح!» كان رأس كاليداس فضياً تماماً وأنفه كمنقار الصقر. وفي الحال أعجبني فقلت متسائلاً: «هل تعرف فضائح حقاً؟» لكنه اكتفى بالقول: «بني، لو أخبرتك بما أعرف، لاحترقت أذناك». ولم يكتشف قط أن عبقري الشر، المخبر السري القابع خلف أكبر فضيحة عرفتها المدينة لم يكن سوى سليم ذي الأنف الخرطومي... لكن علي ألا أستبق الأحداث. فقضية عصا المقدم سبرماتي الغريبة يجب أن ترد في مكانها الصحيح. والنتائج ينبغي ألا يسمح لها (رغم الطبيعة المراوغة لأيام عام ١٩٥٨) بأن تسبق الأسباب.

وحيداً كنت في الشرفة. فقد كانت ماري بيريرا في المطبخ تساعد بيا في إعداد الشطائر وفطائر الجبنة، وكان حنيف عزيز غارقاً في بحثه عن أوراق الكبة الثلاث عشرة، في تلك اللحظة خرج هومي كاتراك ووقف بجواري ثم قال «هكذا، هكذا، إذاً. الحيات تحسن من حالك؟ فتى ممتاز. دعني أصافحك». وابتلعت قبضة القطب السينمائي يد ابن العاشرة (اليد اليسرى، فاليد اليمنى المشوهة تتدلى ببراءة إلى جانبي)... والآن تأتي صدمة، فالراحة اليسرى تشعر بورقة تدفع إليها ـ ورقة مشؤومة دفعتها قبضة بارعة الحذق! قبضة كاتراك تحكم الشد، صوته يغدو منخفضاً لكن كلماته الفاحة كفحيح الكوبرا، كلماته التي لا يسمعها من في الغرفة ذات المقعد المقلم بالأبيض والأخضر، تنفذ إلى أذني الصالحة: «اعط هذه لخالتك، بالسر بالسر، هل يمكنك ذلك؟ لكن لا تتفوه بحرف، أو جعلت الشرطة تقطع لسانك». ثم يرتفع الصوت، عالياً مبتهجاً: «حسن! يسرني كثيراً أن أراك بمثل هذه المعنويات العالية!». ويربت هومي على رأسي ثم يقفل عائداً إلى لعبه.

تحت خطر التهديد بالشرطة، ظللت صامتاً مدة عقدين، لكن لا أكثر. فالآن ينبغي أن يظهر كل شيء.

حفلة اللعب انتهت في وقت مبكر، إذ همست بيا «ينبغي أن ينام الصبي، فغداً سيعود إلى المدرسة». وهكذا لم أجد فرصة أنفرد فيها بزوج خالي، لذا، حين تكومت على مقعدي كانت الملاحظة لا تزال في قبضتي اليسرى وقد أحكمت عليها الشد. كانت ماري نائمة على الأرض... فقررت أن أدعي بأنني أرى كابوساً (ذلك أن المراوغة بفطرتي). لكن لسوء الحظ كنت متعباً إلى درجة استغرقت معها في سبات عميق، الأمر الذي لم يعد معه ضرورة للادعاء أو التظاهر: لكنني حلمت بأنني قتلت زميلي جيمي كابادیا.

... نحن نلعب كرة القدم عند السلم الرئيسي للمدرسة، على الآجر الأحمر ننزلق، صليب أحمر موضوع في الآجر الأحمر كلون الدم. السيد كروزو في أعلى السلم «ينبغي ألا تنزلقوا على الدرابزون يا أولاد، ذلك الصليب هو المكان الذي سقط فيه أحد الأولاد». جيمي يلعب الكرة على الصليب. «الصليب كذبة» يقول جيمي «إنهم يكذبون عليك كي يفسدوا متعتك باللعب». أمه تتصل بالهاتف: «لا تلعب يا جيمي، قلبك مريض». الجرس ثم الهاتف ثم الجرس مرة أخرى... رشات حبر تلطخ جو غرفة الصف. بيرس البدين وغلاندي كيث يمزحان. جيمي يريد قلم رصاص، ينخسني في أضلاعي «هيه، يا رجل، أنت معك قلم. أعطني إياه. معك ثانيتان». أعطيه القلم. زاغالو يدخل. يده ترتفع آمرة بالسكوت: أتطلع إلى شعر رأسي وقد نما على راحته! زاغالو يلبس قبعة الهندي ـ الصفيحية، المحدبة... وأنا، علي أن أستعيد قلمي. أمد إصبعي وأنخس جيمي. «أستاذ، من فضلك أنظر يا أستاذ. جيمي سقط على الأرض». «أستاذ، أنا رأيت ذا الأنف الخرطومي ينخسه»، «ذو الأنف الخرطومي قتل كابادیا يا أستاذ». «لا تلعب يا جيمي قلبك مريض»، «اهدأوا» يصرخ زاغالو «أنتم يا قذارة الأدغال، اخرسوا!»

جيمي متكوم على الأرض. «أستاذ أستاذ من فضلك أستاذ هل سيضعون صليباً؟» لقد استعار قلم رصاص، نخسته فقط. أبوه سائق سيارة. الآن

السيارة تندفع داخلة إلى الصف. رزمة غسيل توضع على المقعد الخلفي ثم تخرج السيارة بجيمي. رن، رن، الجرس يرن. والد جيمي ينزل علم السيارة. والد جيمي يتطلع إلي «يا صاحب الأنف الخرطومي، عليك أن تدفع الأجرة» «لكن، عفواً يا سيدي أنا لا أملك نقوداً يا سيدي». فيقول زاغالو: «سنضيف ذلك إلى حسابك» أرى شعري على راحة زاغالو. عينا زاغالو تتطايران شرراً «خمسمائة مليون. ما هو موت إنسان؟» جيمي مات. الخمسمائة مليون لا يزالون أحياء وأبدأ العد: واحد اثنان ثلاثة. الأرقام تسير على قبر جيمي. مليون مليونان ثلاثة ملايين أربعة، من يبالي بموت أي إنسان؟ مائة مليون وواحد اثنان ثلاثة. الأعداد تتقدم عبر غرفة الصف الآن، صادمة ساحقة، مائتا مليون ثلاثة أربعة خمسة. خمسمائة مليون لا يزالون أحياء، وليس إلا واحداً من. . . . .

. . . . في ظلمة الليل، أستيقظ من حلم موت جيمي الذي بات حلم الإبادة بالأعداد وأنا أصرخ أعول، أزعق، لكن الورقة لا تزال في قبضتي، ينفتح باب بسرعة ويظهر منه خالي حنيف وزوجه بيا. ماري بيريرا تحاول تهدئتي لكن بيا، بقميص تحتاني وسترة على كتفيها، تأمرني أن أهدأ وهي تهدهدني بين ذراعيها: «لا عليك يا ماستي! لا عليك الآن!» ثم يقول الخال حنيف ناعساً: «هيه يا صغيري! الآن كل شيء على ما يرام! الآن كل شيء على ما يرام! تعال معنا. هاتي الصبي يا بيا!». الآن أشعر بالأمان في حضن بيا. «لهذه الليلة فقط، يا درتي، يمكنك أن تنام معنا». وهناك أعشش بين الخال وزوجته، حاشراً نفسي في ثنيات الخالة المعطرة. تصوروا، إن استطعتم، متعتي المفاجئة، تصوروا السرعة التي فر بها الكابوس من رأسي وأنا أعشش بين ثنيات قميص الخالة التحتي، أو حين غيرت وضعها، كي تتخذ وضعاً مريحاً ولامست تلك البطيخة الذهبية وجنتي! أو حين امتدت يد بيا تبحث عن يدي وتضمها بشدة! تلك اللحظة تحللت من واجبي. فحين التفت يد بيا حول يدي، مرت الورقة، من راحة إلى أخرى. فأحسست بها تتصلب دون أن تتفوه بحرف، بعدئذ، ورغم أنني رحت أحشر نفسي بها أكثر وأكثر، كانت قد ضاعت مني، إذ كانت تقرأ في الظلام وكان تصلب

جسدها يشتد، ثم أدركت فجأة أنني خدعت وأن كاتراك خصمي، لكن، وحده التهديد بالشرطة منعني من البوح بالسر لخالي.

(في اليوم التالي، أخبروني في المدرسة عن وفاة جيمي كباديا المأسوية، إذ توفي بصورة مفاجئة في منزله ونتيجة نوبة قلبية. لكن هل يعقل أن تقتل كائناً بشرياً بأن تحلم بموته؟ أمي كانت تقول ذلك دائماً، وفي تلك الحالة فإن جيمي كباديا هو ضحيتي الأولى. أما الضحية التالية فسوف تكون هومي كاتراك).

في أول يوم أذهب به إلى المدرسة، استمتعت بتملق بيرس البدين وغلاندي كيث غير المعتاد (اسمع أنت، كيف كنا نعلم أن إصبعك في الـ. . . هيه، يا رجل، لدينا بطاقات مجانية لفيلم سينمائي غداً، هل ترغب بالمجيء؟)، وكذلك بشعبيتي غير المتوقعة (زاغالو ولى! ضربة قاصمة يا رجل! الحقيقة أنت خسرت شعرك لكن مقابل ثمن معقول)، لكن حين عدت كانت بيا خارج المنزل.

فجلست بهدوء مع الخال حنيف بينما كانت ماري بيريرا في المطبخ تعد طعام الغداء. لقد كان مشهداً لعائلة صغيرة تنعم بالسلام. لكن سرعان ما تهشم السلام بصوت باب يصفقه، وقلم حنيف يسقط من يده حين فتحت بيا باب غرفة الجلوس بعنف مماثل لصفقها للباب الأمامي. بعدئذ هدر مبتهجاً: «إذاً أيتها الزوجة: ما هي الدراما؟». . . لكن سورة بيا لم تهدأ بل اشتدت استعاراً فقالت وهي تشطر بيدها الهواء شطرين «خربش، الله! لا تتوقف من أجلي! يا صاحب الموهبة العظيمة. لا أحد يأتي إلى هذا البيت دون أن يكتشف عبقريتك، فهل أنت سعيد يا زوجي؟ هل تكسب الكثير من المال؟ هل يقف الإله إلى جانبك؟». لكن حنيفاً ظل على بهجته: «تعالي بيا، ضيفنا الصغير هنا. اجلسي، خذي شاياً. . .». فتجمدت الممثلة بيا كمن لا يصدق. «أوه يا إلهي! أي درك انحدرت إليه! حياتي تحطمت، وأنت تعرض علي الشاي بينما تعرض أمك علي محطة بنزين، يا إلهي! أي جنون. . .». هنا رد الخال حنيف، وقد عبس تماماً: «بيا، الصبي. . .»، فانطلقت صرخة. «آه. . هـ. . ها. . ! الصبي ـ لكن الصبي عانى وهو يعاني الآن. إنه

يعرف ما سوف يفقده حين يشعر بالوحدة! أنا أيضاً أشعر بأنني وحيدة مهجورة: أنا ممثلة عظيمة، ومع ذلك ها أنا ذي أجلس هنا محاطة بحكايا السعادة ـ راكبي الدراجات وسائقي عربات الحمير! ما الذي تدريه يا ترى عن حزن امرأة؟ اقعد، اقعد. دع فتى أفلام فارسياً غنياً بديناً ينعم عليك بإحسانه، لا تبال أبداً بأن امرأتك تلبس حلياً مزيفة وتعجز عن شراء سارٍ واحد طيلة سنتين، ظهر المرأة عريض، لكنك يا زوجي الحبيب أحلت أيامي إلى تيه صحراء! اذهب، تجاهلني الآن. دعني بسلام. دعني أقفز من النافذة! أما الآن فسوف أدخل غرفة نومي؟» ثم ختمت كلامها قائلة: «إن لم تسمع المزيد عني فذلك لأن قلبي سيكون قد تحطم. سأكون قد قضيت نحبي»، بعد ذلك سمعت أبواباً أخرى تصفق: إنه لمخرج رهيب.

وقد كسر الخال حنيف، وهو شارد اللب، قلم الرصاص إلى نصفين. ثم هز رأسه متعجباً: «ماذا دهاها؟». لكنني كنت أعرف أنا حامل الأسرار المُهدَّدِ بالشرطة، ما الذي دهاها إلا أنني عضضت على شفتي. ذلك أنني، وقد وجدتني واقعاً في شرك أزمة الزواج بين خالي وزوجته، خرقت القاعدة التي وضعتها لنفسي مؤخراً، ودخلت رأس بيا. فشاهدتها تقوم بزيارة هومي كاتراك ثم عرفت أنها كانت منذ سنوات خلت، خليلته، كما سمعته يقول لها إنه تعب من فتنتها، وإن هناك واحدة أخرى، فوجدت نفسي أكرهه كراهية مضاعفة لإهانته لها وطردها.

«اذهب إليها» قال لي الخال «علك تستطيع إدخال البهجة إلى قلبها». الفتى سليم يتحرك عبر الأبواب المنصفقة المرة تلو المرة، إلى معتزل زوج خاله الحزينة ثم يدخل ليجدها وقد ألقت بجسمها الرائع على نحو مذهل من الإهمال على سرير الزوجية ـ حيث كانت في الليلة الماضية أجسام تعشش داخل أجسام ـ وحيث مرت الورقة من كف إلى كف.. كف ترتعش عند قلبها، صدرها يعلو والصبي سليم يتلعثم «خالة، خالة، أنا آسف».

عويل جنية منذرة بالشر يأتي من الفراش، ذراعان مأسويتان تمتدان، تطيران نحوي. «هـ. ى. هـ. ى. هـ. ي» ولا أحتاج لمزيد من

الدعوات فأطير إلى تينك الذراعين، ألقي بنفسي بينهما، أستلقي على الخالة المنتحبة. الذراعان تضمانني، تشدان وتشدان، الأظافر تنغرس في صديريتي المدرسية البيضاء، لكنني لا أبالي ـ ذلك أن شيئاً ما بدأ يتلوى تحت حزامي ذي البكلة الأشبه بحرف S. الخالة بيا تتلوى تحتي وهي في غمار يأسها وأنا أتلوى معها، دون أن يغيب عن ذهني أن أبقي يدي اليمنى البعيدة عن الساحة. وأبدأ بيد واحدة، أداعبها، دون أن أعلم ما أنا فاعل، فأنا في العاشرة فقط. ما أزال أرتدي البنطال القصير، لكنني أنتحب لأنها تنتحب، وتمتلئ الغرفة بصوت النحيب ـ وعلى الفراش يبدأ جسدان، وهما يتقلبان، باكتساب نوع من الإيقاع، لا يمكن تسميته ولا التفكير به، ثم يندفع وركان نحوي بينما تعلو صرخاتها «أوه! أوه!» وربما أصرخ أنا أيضاً، فأنا لا أعلم، لكن شيئاً ما يطغى على الحزن هنا. وبينما يهشم الخال أقلام الرصاص على المقعد المقلم، يغدو ذلك الشيء أشد قوة وهي تتقلب تحتي، وأخيراً أشعر أنني في قبضة قوة أشد من قوتي فأمد يدي اليمنى وقد نسيت إصبعي، وحين تلامس صدرها، تلتف وتضغط على البشرة. . .

«يـ. . . يـ. . يـ. . . يا. . و!» أصرخ ألماً، فتدفعني بيا، وهي تنتزع نفسها من طلسم تلك اللحظات الخاطفة، بعيداً عنها ثم توجه صفعة مدوية إلى وجهي. ولحسن الحظ، أنها كانت الوجنة اليسرى، حيث لا خطر على أذني الصالحة الباقية. ثم تصرخ «فاسد! عائلة من المهووسين والمنحرفين، الويل لي، أية امرأة عانت كما أعاني؟».

ثم يأتي من خلف الباب صوت سعال، فأهب على قدمي وأنا أرتعش ألماً. بيا تقف أيضاً، شعرها يقطر بشيء كالدموع. ماري بيريرا في المدخل، تسعل، ارتباك قرمزي يغطي محياها كله، وهي تمسك بصرة ورق بنية بين يديها.

«انظر يا صغيري ما نسيت» تمكنت أخيراً من القول، «أنت رجل كبير الآن: انظر أمك أرسلت إليك بنطالين أبيضين رائعين».

بعد أن تماديت، وبكثير من الحماقة، محاولاً إدخال البهجة إلى قلب

الخالة، بات متعذراً علي أن أبقى في الشقة الواقعة في الممر البحري. وهكذا بدأت، في الأيام القليلة التالية اتصالات هاتفية طويلة مكثفة تجري بانتظام حيث كان الخال حنيف يقنع فيها شخصاً ما تشجعه إشارات بيا، بأنه ينبغي الآن، بعد خمسة أسابيع. . . وهكذا ذات مساء بعد أن عدت من المدرسة، جاءت أمي لتحملني في سيارتنا الروفر القديمة، منهية بذلك نفيي الأول.

غير أنه ما من أحد قدم لي تفسيراً لذلك النفي، لا خلال عودتي بالسيارة ولا في أي وقت آخر. . لذلك قررت ألا أهتم بالمسألة البتة وألا أسأل عن السبب. فقد بت أرتدي بنطلوناً طويلاً، إذاً، فأنا رجل، والرجل يتحمل همومه كما ينبغي. في الطريق قلت لأمي: «الإصبع ليست في حالة سيئة. وخالي حنيف علمني أن أمسك القلم بطريقة مغايرة، لذلك يمكنني أن أكتب على أحسن حال»، لكنها بدت وكأنها تركز كل التركيز على الطريق، فأضفت بأدب جم: «لقد كانت عطلة رائعة. شكراً لك لإرسالي إلى هناك».

فانبرت قائلة: «آه يا بني، بوجهك المشرق كالشمس، ما عساي أقول لك؟ كن حسن السلوك مع أبيك، فهو غير سعيد في هذه الأيام». وهكذا وعدتها بأن أكون عند حسن ظنها، لكنها بدت وكأنها تفقد السيطرة على عجلة القيادة حتى كدنا نتعرض للخطر ونحن نعبر بأحد الباصات. «ما هذا العالم؟» قالت بعد لأي «أمور فظيعة تحدث دون أن تدري كيف تحدث».

«أنا أدري» قلت موافقاً «فالمربية أخبرتني بكل شيء». نظرت أمي إلي مذعورة، بعدئذ حدقت إلى ماري في مقعدها الخلفي، ثم صرخت «أنت أيتها السوداء ماذا قلت له؟». لكنني انبريت أروي لها قصص ماري حول الحوادث العجيبة والمعجزات الخارقة، فبدت أمي وكأن إشاعات السوء هدأتها، وهكذا تنهدت قائلة: «لكن ماذا تعرف، أنت مجرد طفل».

ماذا أعرف يا أمي؟ أنا أعرف مقهى الرائد وما يدور فيه! وفجأة وجدتني ونحن نسير بالسيارة إلى المنزل، مفعماً مرة أخرى برغبتي الأخيرة في الانتقام من أمي الغادرة، تلك الرغبة التي كانت قد اضمحلت وتلاشت في ألق منفاي الشديد، لكنها في تلك اللحظة عادت واتحدت مع اشمئزازي الحديث العهد

من هومي كاتراك. تلك الرغبة ذات الرأس المزدوج هي الشيطان الذي تملكني، ثم دفعني لارتكاب أسوأ ما ارتكبت من أفعال... «سيكون كل شيء على ما يرام» قالت أمي «انتظر وسوف ترى».

نعم يا أماه.

ويخطر ببالي أنني لم أقل شيئاً في هذا الفصل كله، عن مؤتمر أطفال منتصف الليل، لكن في ذلك الحين، ولكي أصارحكم بالحقيقة، لم يكن المؤتمر يبدو لي على أي قدر من الأهمية. ففي تلك الأيام، كانت ثمة أمور أخرى في رأسي.

عصا المقدم سبرماتي

بعد بضعة أشهر، حين اعترفت ماري بيريرا بجريمتها أخيراً، وكشفت سر الشبح، شبح يوسف ديكوستا وانتيابه لها طيلة أحد عشر عاماً، علمنا أنها، بعد عودتها من المنفى صدمتها شر صدمة الحالة التي وصل إليها الشبح في غيابها. فقد بدأ يتفسخ إلى درجة باتت تنقصه أعضاء من جسمه: أذن مثلاً، عدة أصابع من كل قدم، معظم أسنانه، كما كان في معدته ثقب أكبر من حجم البيضة. فسألته، وقد أحزنتها حالته المتردية (حين أيقنت أنه لا يوجد من يسمعها): «أوه يا إلهي. يوسف، ما الذي فعلته بنفسك؟» فأجاب أن عبء جريمتها قد وقع بكامله على كاهله وسيظل كذلك إلى أن تعترف، وأنه يعاني منه أكثر مما يعاني المرء في الجحيم. منذ تلك اللحظة بات من المحتم عليها أن تعترف، لكنها كانت تتطلع إلي فتجد نفسها عاجزة عن القيام بذلك وهكذا ظلت المسألة مسألة زمن لا غير.

في تلك الأثناء، وأنا أجهل تماماً كم كنت وشيكاً من كشف حقيقتي، كنت أحاول التوصل إلى نوع من التوافق مع إقطاعية ميثولد التي حدث فيها، هي الأخرى، عدد من التحولات. ففي المقام الأول، بدا والدي وكأنما لا شأن له بي، وهو موقف لشد ما وجدته مؤلماً وغامضاً. في المقام الثاني، كان ثمة تغير ملحوظ في حظ القردة النحاسية إلى حد وجدت نفسي معه مضطراً للاعتراف في سري: «لقد احتلت مكانتي في هذا البيت». ذلك أن القردة هي التي بات أبي يأخذها معه إلى معتزله المكتبي المطلق، والقردة هي التي بات يهدهدها على كرشه المتهدل وهي التي باتت مضطرة لأن تحمل

أعباء أحلامه المستقبلية بل سمعت ماري تغني للقردة تلك الأغنية الصغيرة التي كانت أغنيتي أنا طوال عمري: ما تبتغي أن تكون سوف تكون.

ولسوف تكون كل ما تبتغي أن تكون.

حتى أمي بدت وكأنما سيطرت عليها تلك الحالة، فأختي هي التي تحصل منها على أكبر قدر من رقائق البطاطا وقت الطعام وكذلك كفتة اللحمة وأفضل أنواع الفطائر، في حين كنت أرى ـ في أي وقت ينظر به إلي أحد أفراد العائلة ـ ذلك الأخدود العميق الاقتم بين حاجبيه، وكذلك جو الاضطراب وعدم الثقة المحيط بي. لكن أنى لي أن أتذمر أو أشكو؟ فالقردة قد تحملت وضعي ومنزلتي الخاصة طوال سنين. وباستثناء المرة التي سقطت فيها عن شجرة في حديقتنا بعد أن لكزتني بمرفقها (ولعله كان حادثاً عرضياً في الغالب) فقد كانت راضية بحظوتي لدى الأسرة بنفس متسامحة بل وإخلاص حتى. والآن، جاء دوري، فأنا ببنطالي الطويل، كان مطلوباً مني أن أتصرف تصرف الكبار في ما يتعلق بإنزال مرتبتي. لذا كنت أقول لنفسي: «هذا النضج أقسى مما كنت أتوقع».

غير أن القردة، والحق يقال، لم تكن أقل اندهاشاً مني لارتفاع مرتبتها إلى مرتبة الطفل المفضل. وقد بذلت ما في وسعها كي تتخلى عن هذه المنزلة. لكن بدا وكأنها لا تستطيع أن ترتكب خطأ. تلك كانت أيام مغازلتها للمسيحية وذلك بتأثير زميلاتها الأوروبيات من جهة وبتأثير ماري بيريرا ذات المسبحة الدائمة من جهة أخرى، ماري (التي كانت عاجزة عن الذهاب إلى الكنيسة خشية أن يدفعها ذلك إلى الاعتراف) فتمطرنا بدلاً من ذلك بقصصها المستمدة من الإنجيل، لكن أهم الأسباب، كما أعتقد، هو أن القردة كانت تحاول استعادة مكانتها القديمة المريحة في بيت الكلاب (وبمناسبة الكلام عن الكلاب فإن البارونة سيمكي كانت قد قضت نحبها خلال غيابي).

كانت أختي تتكلم عالياً عن فضائل المسيح ونبله ولطفه، فتبتسم أمي ابتسامة غامضة وتربت رأسها، كما كانت تدور حول البيت مدمدمة تراتيلها، فتلتقط أمي النغم وترتل معها كذلك طلبت رداء راهبة كي تستبدله برداء

الممرضة المفضل لديها، وجيء لها به. كما نظمت حبات حمص واستخدمتها كمسبحة لتهمهم «مباركة يا مريم يا أم الرب»، فأثنى والداي على مهارة يديها. وحين فشلت في أن تدفع والديها لعقابها، دفعها عذاب فشلها لأن تصعّد من حماستها الدينية ولأن تردد: «أبانا الذي في السماوات» صباحاً ومساء، ولأن تصوم أيام الفصح بدلاً من أيام رمضان، وأن تكشف أثراً واضحاً من التعصب سيبدأ، في وقت لاحق، يطغى على شخصيتها، رغم أنها ظلت على ما يبدو، متسامحة.

في النهاية ناقشت المسألة معي قائلة: «حسناً يا أخي، يبدو من الآن فصاعداً أن علي أنا أن أكون الشخص الصالح، أما أنت فباستطاعتك أن تلهو كل اللهو».

وقد كانت على صواب فعلاً. ففقدان والديّ الظاهر للاهتمام بي كان سيوفر لي قدراً أكبر من الحرية، لكنني كنت مسحوراً بالتحولات التي كانت تجري في كل جانب من جوانب حياتي، واللهو، في ظروف كهذه، بدا أمراً متعذراً مناله، ذلك أنني كنت أتغير على الصعيد الجسدي. فعلى نحو مبكر جداً، كان زغب خفيف يظهر على ذقني، وكان صوتي رغماً عني، يعلو وينخفض عن السوية المعتادة. كما تملكني إحساس شديد بالسخف: فساقاي المتطاولتان كانتا تجعلانني أخرق، وكان علي أن أبدو أشبه بالمهرج وأنا أكبر كثيراً على قمصاني وسراويلي إلى حد شعرت معه بأنني ضحية مؤامرة تحوكها حولي تلك البدلات التي كانت ترفرف بصورة مثيرة للسخرية حول كاحلي ومعصمي بل حتى عندما كنت ألتفت داخلاً إلى أطفالي السريين، كنت أجد تغييراً ولم يكن ذلك يروق لي.

فالتفكك التدريجي لمؤتمر أطفال منتصف الليل ـ الذي انهار نهائياً يوم انقضت الجيوش الصينية على جبال الهملايا لإذلال الفوج الهندي ـ ذلك التفكك كان قد بدأ فعلاً. فحين يفقد أمر ما جدته، فإن ما يتبع ذلك، حتماً، إنما هو السأم ومن ثم النزاع والشقاق أو (لنعبر عن ذلك بطريقة أخرى) حين تبتر إصبع ما وتتفجّر نوافير الدم، فإن كل أشكال السوء والشر تغدو محتملة الوقوع. . . وهكذا، سواء كانت الشروخ التي حدثت في المؤتمر (صيغة

إيجابية ـ مجازية) هي نتيجة فقدان إصبعي أم لم تكن، فالأمر المؤكد أن تلك الشروخ كانت تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم. فهناك في كشمير، كانت نارادا مر كاندايا قد وقعت أسيرة أحلام أنانية، أحلام النرجسي الحقيقي ولم تكن تهتم إلا بالمتع الجنسية الخاصة بالتبدلات الجنسية المستمرة، في حين كان سومترا، المتنقل عبر الزمان، قد جرحه رفضنا الاستماع إلى أقواله عن المستقبل الذي سيحكم بلادنا فيه، كما قال، رجل خرف يشرب بوله ويرفض أن يموت، أو عن الناس الذي سينسون كل ما تعلموه من قبل، وعن الباكستان التي ستنقسم، كالمتمورة، وعن رؤساء الوزارات في كل قسم، أولئك الذين سيقتلهم خلفاؤهم وعن الشطرين اللذين سيحمل كل منهما ـ كما أكد لنا رغم عدم تصديقنا له ـ الاسم نفسه. . . سومترا هذا ذو الكرامة الجريحة بات يغيب على نحو دائم عن اجتماعاتنا الليلية، مختفياً مدداً طويلة في متاهات الزمان العنكبوتية. أما الأختان في بلدة بود فقد كانتا قانعتين بقدرتهما على سحر الحمقى، شيباً كانوا أو شباناً، وكانتا تتساءلان: «ما فائدة هذا المؤتمر يا ترى؟ إن لدينا الكثير من المعجبين». في حين كان زميلنا الكيماوي يشغل نفسه في مخبر بناه له والده (الوالد الذي كشف له سره) ونظراً لانشغاله الدائب بحجر الفلاسفة: لم يكن يجد إلا قليلاً من الفراغ لنا. لقد خسرناه إزاء إغراءات الذهب.

كذلك كانت ثمة عوامل أخرى تفعل فعلها أيضاً. فالأطفال، رغم صفتهم السحرية العجائبية، لم يكونوا محصّنين تجاه آبائهم، وفي الوقت الذي بدأت فيه أهواء الكبار ونظراتهم إلى العالم تطغى على عقولهم بت تجد الأطفال الذين يمتون للمهاراشترا ينفرون من أبناء الغوجاراتي، والشماليين ذوي الجلود البيض يشمئزون من «السود» الدرافيديين، وكذلك حدثت نزاعات دينية، علاوة على الخلافات الطبقية التي ذرت بقرنها في مجالسنا، فالأطفال الأغنياء طفقوا يشمخون بأنوفهم رافضين صحبة الفقراء الوضعاء، والبراهاميون بدأوا يشعرون بالضيق جراء السماح حتى لأفكارهم بملامسة أفكار المنبوذين، في حين بدأت، بين أبناء الطبقة الدنيا، ضغوط الفقر والشيوعية تشتد وضوحاً. . . وعلى رأس هذا كله كانت هناك الصدامات

الشخصية ومختلف أنواع النزاعات التي لا يمكن تجنبها في برلمان مؤلف برمته من أولاد يافعين.

بهذه الطريقة حقق مؤتمر أطفال منتصف الليل نبوءة رئيس الوزارة وأضحى في الحقيقة مرآة تعكس حالة الأمة، فالصيغة السلبية ـ العملية كانت قيد العمل رغم أنني كنت أسخر منها بيأس متزايد، وأخيراً بنوع من الانسحاب المتناهي... «أيها الأخوة والأخوات» كنت أذيع بصوت ذهني الذي تعذر علي التحكم به ـ شأنه شأن نظيره الجسدي ـ «لا تدعوا هذا يحدث. لا تسمحوا بالثنائية التي لا نهاية لها، ثنائية الجماهير ـ الطبقة العليا، الرأسمالية ـ العمال، هم ونحن، تفرق بيننا. فنحن»، وأصرخ بحماسة شديدة: «ينبغي أن نكون العنصر الثالث، علينا أن نكون القوة التي تستطيع الخروج من المأزق، ذلك أننا بصيرورتنا هذا العنصر، بصيرورتنا شيئاً جديداً يمكننا أن نفي بالعهد الذي حمله مولدنا». وكان لدي مؤيدون أعظمهم بارفاتي الساحرة، لكنني بت أشعر بهم يتسربون من يدي الواحد تلو الآخر، تبعده عني حياته الخاصة... كما كانت حياتي تبعدني عنهم فعلاً. لقد بدا الأمر وكأن مؤتمرنا المجيد، يتكشف عن أنه لا يعدو شكلاً آخر من ألعاب الأطفال، كما لو أن السراويل الطويلة كانت تدمر ما ابتدعه منتصف الليل... «علينا أن نضع برنامجاً» كنت أناشدهم «خطة خمسية خاصة بنا، ولم لا»؟ لكنني كنت أسمع، خلف أمواج بثي القلق، ضحكات منافسي الأكبر الساحرة، فهناك كان شيفا في رؤوسنا جميعاً يقول بازدراء: «كلا أيها الغلام الغني! ليس هناك عنصر ثالث، بل هناك غني وفقير فقط، هناك من يملك ومن لا يملك، يمين ويسار، هناك أنا ـ ضد العالم.. العالم ليس أفكاراً أيها الفتى الصغير، العالم ليس مكاناً للحالمين وأحلامهم، العالم أيها المتعجرف الصغير أشياء، والأشياء وصانعوها يحكمون العالم، انظر إلى بيرلا وتاتا وإلى كل الأقوياء: إنهم يصنعون أشياء... وبالأشياء تحكم البلاد. فليس من أجل الشعب بل من أجل الأشياء ترسل كل من أمريكا وروسيا مساعداتهما، ويبقى الخمسمائة مليون جياعاً وحين تملك أشياء، يكون ثمة مجال للأحلام، أما حين لا تملك فعليك أن تقاتل». وكان

الأطفال يستمعون مفتونين ونحن نتجادل. . . أو ربما أخفقت حواراتنا في لفت انتباههم وكنت أرد عليه: «لكن الناس ليسوا أشياء، فإذا ما اتحدنا معاً، إذا ما أحببنا بعضنا بعضاً، وبيّنا أن هذا المؤتمر، هؤلاء الأطفال المتحدين معاً في السراء والضراء يمكنهم أن يكونوا ذلك العنصر الثالث. . .». لكن شيفا كان ينخر بازدراء «أيها الغلام الثري، ذلك كله هباء، أهمية الفرد هذه، الأمل بالبشرية، هذا كله هباء. لقد بات الناس في هذه الأيام ضرباً آخر من الناس». فكنت أتلعثم، أنا سليم، في ردي: «لكن. . الإرادة الحرة. . . الأمل. . . الروح العظيمة التي نعرفها باسم المهاتما، روح البشر، الشعر، الفن و. . .». عند هذه النقطة كان شيفا يقبض على ناصية النصر: «أترى؟ كنت أعلم أنك ستتكشف على حقيقتك هكذا: عجينة، كرزاً مهلوساً، عاطفياً مثل جدة عجوز. امض، فمن يرغب بذلك يا ترى؟ كلنا لديه حياته التي ينبغي عليه أن يحياها يا أجراس الجحيم، يا أنفاً كالخيارة، لقد برمت بمؤتمرك ذا الذي لا طائل وراءه». لكنك قد تسأل: أهذا كلام أطفال في العاشرة؟ فأجيبك: أجل. لكنك تقول: هل أبناء العاشرة أو حتى الحادية عشرة يناقشون دور الفرد في المجتمع؟ والنزاع بين رأس المال واليد العاملة؟ هل كانت واضحة في أذهانهم التقسيمات بين المناطق الزراعية والصناعية؟ والنزاعات ما بين الموروثات الاجتماعية ـ الثقافية؟ هل يناقش أطفال يقل عمرهم عن أربعة آلاف يوم ماهية الرأسمالية والنزاعات المتأصلة فيها؟ هل يستطيع أطفال بهذه السن أن يقارنوا بين غاندي من جهة وماركس ولينين من جهة أخرى؟ بين القدرة والعجز؟ هل بإمكانهم أن يقابلوا بين الجماعية والفردية؟ أن يبحثوا مسألة الألوهية؟ حتى ولو سلمنا بحقيقة المعجزة التي كانوا يمثلون، هل يمكننا أن نعتقد الآن أن بوسع أطفال أن ينطقوا بألسنة الشيوخ ذوي اللحى؟ فأقول: ربما ليس بهذه الكلمات، ربما ليس بالكلام البتة بل بلغة التفكير الأشد نقاء، أجل، بالتأكيد، فهذا ما كان في قاع ذلك كله، ذلك أن الأطفال هم الأوعية التي يسكب فيها الكبار سمومهم، وسم الكبار هو الذي كان يفعل فعله فينا، السم هو الذي فعل فعله وبعد فاصل زمني معين، الأرملة ذات السكين.

قصارى القول: بعد عودتي إلى فيلا باكنغهام، كان حتى ملح أطفال منتصف الليل قد فقد طعمه وهكذا باتت تمر بي ليالٍ لا أزعج نفسي فيها شبكتي العامة، فينطلق الشيطان القابع داخلي (هو ذو الرأسين) ليجول بشروره (علماً أنني لم أكن أعرف شيئاً عن جرائم شيفا أو براءته من جرائم قتل المومسات، لكن تأثير «الكالي ياغا»[1] كان كبيراً إلى حد كنت معه، أنا الولد الصالح والضحية الطبيعية، مسؤولاً بالتأكيد عن حدوث وفاتين: الأولى وفاة جيمي كاباديا والثانية وفاة هومي كاتراك).

لكن إن كان هناك عنصر ثالث فليس له من اسم إلا الطفولة، غير أن الطفولة تموت أو بالأحرى تلقى مصرعها قتلاً.

كان لنا جميعاً مشاكلنا في تلك الأيام، فهومي كاتراك لديه ابنته المعتوهة توكسي. وآل إبراهيم لديهم هموم أخرى: ذلك أن إسماعيل والد سوني كان يتهدده، بعد سنوات من رشو القضاة والمحلفين، خطرت إحالته على التفتيش القضائي، أما إسحق عم سوني، الذي كان يدير فندقاً من الدرجة الثانية يقع قرب نبع فلورا ويدعى فندق السفراء، فقد كان غارقاً في الالتزامات المالية تجاه رجال العصابات المحليين، وكان قلقاً باستمرار حول إمكانية توجيه ضربة له (وقد غدا ذلك أمراً مألوفاً في تلك الأيام كالقيظ).. إذن ربما لم يكن مفاجئاً أننا جميعاً نسينا كل شيء عن وجود البروفسور شابستكر (والهنود يصبحون أضخم حجماً وأكثر سلطة كلما تقدموا في السن، لكن شابستكر أوروبي وهذا النمط من الناس يضمحل بمرور السنين وغالباً ما يتلاشى كلياً).

في ذلك الحين وجدت قدمي، يدفعهما شيطاني ربما، وهما تقودانني إلى الطابق العلوي من فيلا باكنغهام حيث وجدت رجلاً مسناً نحيلاً متقلصاً إلى حدّ لا يصدق، رجلاً يندفع لسانه خارج وداخل فمه باستمرار لاعقاً، لاحساً: إنه الباحث السابق عن مضادات السموم، قاتل الخيول، السيد شابستكر البالغ من العمر الثانية والتسعين والمجرد من مؤسسته السابقة، يعتزل في شقته المظلمة في الطابق العلوي، شقته الملأى بالأعشاب المدارية

---

(١) أي عصر الظلمة.

والأفاعي المحفوظة بالماء المالح. فالشيخوخة التي عجزت عن إتلاف أسنانه وجيوب السم فيه، حولته بدلاً من ذلك إلى صورة تجسد الأفعوانية تماماً، وكما هي حال الأوروبيين الآخرين الذين تطول أعمارهم كثيراً، فإن عجوز الهند الخرف كان قد حفظ دماغه بالماء المالح حتى بات يؤمن بخرافات الأذنة في مؤسسته تلك الخرافات التي كانت تقول إنه آخر السلالة التي بدأت حين اقترن ثعبان الكوبرا الملك بامرأة أنجبت منه كائناً بشرياً (لا ثعباناً) ويبدو أنني سأقضي كل حياتي وأنا لا أنهض من عثرة إلا وأكبو في عثرة أخرى، في عالم خرافي جديد آخر. اصعد سلماً (أو درجاً حتى) ولسوف تجد أفعى بانتظارك. كانت الستائر مسدلة دائماً في غرف شابستكر حيث لم تكن الشمس تشرق ولا تغيب ولم تكن الساعات تدق. أهو الشيطان يا ترى أم إحساسنا المتبادل بالعزلة ذاك الذي جمعنا معاً؟... ذلك أنني بدأت في تلك الأيام، أيام صعود القردة وانهيار المؤتمر، أصعد الدرج حين يمكنني ذلك وأصغي إلى هذيان ذلك العجوز المجنون. تحيته الأولى لي، حين دخلت شقته غير المقفلة، كانت: «إذاً، يا ولد ـ شفيت من التيفوئيد؟» فحركت تلك الجملة الزمن كما تحرك الزوبعة الغبار وأعادتني من جديد إلى ذاتي، ابنة العام الواحد. فتذكرت القصة، وكيف أنقذني شابستكر بإعطائي سم ـ أفعى. بعد ذلك، ولعدة أسابيع، رحت أجلس عند قدميه فكشف لي الكوبرا التي تلتف في داخلي.

من جند لصالحي القوى السرية للثعابين (التي تقتل خيالاتها الأبقار إذا دخلت أحلام رجل من الرجال تحمل زوجته، وإذا ما قتلها أحد تحرم عائلته من الذكور لعشرين جيلاً)؟ من وصف لي ـ بمساعدة الكتب والأجسام المحنطة ـ أعداء الكوبرا الأبديين؟ «ادرس أعداءك دراسة جيدة يا ولد»، قال لي بصوت كالفحيح «أو قتلوك لا محالة».

عند قدمي شابستكر، درست النمس والخنزير الذكر، طائر «أبي سعن» ذي المنقار الخنجري وغزال البراسينا الذي يسحق رؤوس الأفاعي بأظلافه كما درست النمس المصري وطائر «أبي منجل» وكذلك «طائر الكاتب» ذي المنقار الأعقف عديم الخوف، والذي جعلني مظهره واسمه أفكر أفكاراً مريبة

حول أليس بيربيرا التي تعمل لدى والدي، كما درست صقر بنات آوى وقطة النتن وحيوان الراتل، آكل العسل، الذي يقطن في الجبال وجميع الأعداء الآخرين للافعى.

لقد علمني شابستكر، وهو غارق في خضم خرفه، الكثير الكثير. كما أنه دفعني إلى الحياة بزخم أشد: «كن حكيماً يا ولد. افعل كما تفعل الأفعى. كن كتوماً حذراً واضرب دائماً من وراء الستار». وذات مرة قال: «عليك أن تعتبرني أباً آخر لك. ألم أهبك الحياة حين كدت تفقدها؟». فأثبت بهذا القول أنه كان يخضع لسحري كما كنت أخضع لسحره إذ قبل هو الآخر بأن يكون واحداً من السلسلة النهائية من الآباء الذين كنت أنا وحدي أملك القوة لإنجابهم.

ورغم أنني وجدت، بعد حين من الزمن، أن الهواء في حجرات شقته ثقيل الوطأة شديد الضغط، ورغم أنني تركته مرة أخرى للعزلة التي لن يخرج منها أبداً، إلا أنه كان قد بيّن لي كيف أمضي قدماً.

فأنا، الذي تملّكني شيطان الانتقام ذو الرأسين، استعملت قواي التخاطرية (وللمرة الأولى) كسلاح، وبهذه الطريقة اكتشفت تفاصيل العلاقة بين هومي كاتراك وليلى سبراتي، ليلى المنافسة الأبدية للخالة بيا في الجمال، ذلك أن زوجة الوارث المحتمل للقب أميرال الأسطول هي التي باتت عشيقة القطب السينمائي الجديدة إذ بينما كان المقدم سبرماتي يقوم بمناوراته البحرية كانت ليلى وهومي يقومان بمناوراتهما الخاصة، وبينما كان أسد البحار ينتظر موت الأميرال الموجود حينذاك كان هومي وليلى يضربان موعداً مع حصادة الأرواح (بمساعدتي).

«كن كتوماً حذراً» قال لي السيد شابستكر وبكل كتمان وحذر طفقت أتجسس على عدوي هومي وصاحبته أم آيسلايس وهيرويل (اللذين كانا معتدين بنفسيهما في الأيام الأخيرة كما كانت عادتهما دائماً، فالحقيقة أن ترقية المقدم سبرماتي كانت مسألة شكلية بحتة، مسألة وقت لا غير...). تلك الأم الزانية، فقد كان شيطان الانتقام يهمس في أذني سراً: «يا امرأة خليعة! أيتها المرتكبة لشر الخيانات التي يمكن لأم أن ترتكبها. لسوف نجعل

منك عظة لكل من يتعظ، من خلالك سنبيّن لكل فاسق خليع المصير الذي ينتظره. أنت أيتها الزانية اللامبالية، ألم تري ما فعل الزنى بالبارونة الشهيرة سيمكي فون دير هايدن؟ تلك التي كانت كلبة مثلك تماماً».

كانت نظرتي لليلى سبرماتي قد أينعتها السن والخبرة، فرغم كل شيء كنا أنا وهي نملك شيئاً واحداً مشتركاً فأنفها، شأن أنفي، كانت لديه قوى هائلة. لكن أنفها كان سحراً دنيوياً خالصاً، طية من جلد أنفي يمكنها أن تفتن أعلى الأميرالات، فتحة المنخر الدقيقة تشعل نيراناً متأججة في قلوب أقطاب السينما. وإنني لنادم قليلاً لفضحي سر ذلك الأنف، فذلك أشبه بطعن ابن عمك في الظهر.

ماذا اكتشفت؟ في العاشرة من صباح كل أحد، كانت ليلى سبرماتي تأخذ بالسيارة أيسلايس وهيرويل إلى سينما ميترو لحضور اللقاءات الأسبوعية لنادي ميترو للصغار (وقد تطوعت لأخذنا جميعاً إذ كنت أنا والقردة وسوني وسيروس نتكوم في سيارتها طراز هندوستان أوروبرت تايلور أو ساندرادي. كان السيد هومي كاتراك يعد نفسه أيضاً للانطلاق إلى موعده الأسبوعي. فحين كانت سيارة ليلى تشق طريقها بحذاء السكة الحديد كان هومي كاتراك يعقد لفحته الحرير ذات اللون الأصفر الشاحب حول عنقه، وحين كانت تتوقف عند الضوء الأحمر كان هو يرتدي معطفه ذا الألوان المتعددة، وحين كانت تقودنا داخل عتمة الصالة كان هو يضع على عينيه نظارتيه الشمسيتين ذات الأطر الذهب، وحين كانت تتركنا لفيلمنا السينمائي كان هو أيضاً يترك ابنته. فتوكسي كاتراك لم تقصّر يوماً في الرد على رحيله بالولولة والرفس. لقد كانت تعلم ما يجري، ولم يكن حتى والدها العظيم يستطيع منعها.

كان ياما كان، في قديم الزمان، كان هناك رادا وكريشنا، راما وسيتا وليلى وماجنو وكذلك (نظراً لأننا لا نعدم تأثيرات الغرب) روميو وجولييت وسبنسر تراسي وكاترين هيبورن. العالم مليء بقصص الحب، وكل المحبين هم بشكل من الأشكال تجسيد لأسلافهم. فحينما كانت ليلى سبرماتي تقود سيارتها إلى عنوان قريب من شارع كولايا، كانت تشبه جولييت وهي تخرج إلى شرفتها. وحينما كان هومي المؤطرة عيناه بالذهب والمغطاة عنقه باللفحة

ـ ذات اللون الأصفر الشاحب ـ يسرع لملاقاتها (راكباً سيارته طراز ستودبيكر تلك التي انتقلت فيها أمي ذات مرة إلى مستشفى الدكتور نارليكار) فإنما كان يشبه ليندر وهو يسبح في الهلسبونت باتجاه شمعة هيرو المحترقة. أما دوري في القضية كلها ـ فلن أسميه قط.

لكنني اعترف بأن ما فعلته لم يكن عملاً من أعمال البطولة. فأنا لم اشتبك مع هومي على ظهور الخيول، وبالسيوف المتقدة لهباً، بدلاً من ذلك، ومحاكاة لما تفعله الأفعى بدأت أقص قصاصات من الصحف لآخذ من هذه مقطعاً ومن تلك مقطعاً آخر. في تلك الأيام كانت الصحف تعج بأخبار مثيرة، فنهرو يفكر بتقديم استقالته لحزب المؤتمر والجيوش الصينية تستعد للانقضاض على حدود الهند، وأنديرا غاندي تترأس حزب المؤتمر والشيخ عبد الله، أسد كشمير، يقوم بحملة عنيفة لإجراء استفتاء عام في ولايته لتقرير مصيرها، وأشاريا فينو باباف الذي قضى عشر سنوات من حياته يشن حملة شعواء لإقناع ملاك الأراضي بالتنازل عن أراضيهم للفقراء، يعلن أن التنازلات تجاوزت المليون فدان ويبدأ بشن حملتين جديدتين مطالباً بالتنازل عن قرى بكاملها بينما يعلن جـ. ب. نارايان عن تكريس حياته لقضية باف وحملاته، والحوادث يشتعل أوارها في الباكستان الشرقية والأسئلة تدور حول من يخلف نهرو.

في قلب غرفة الحمام المغلقة بإحكام، رحت ألصق تلك المقاطع المأخوذة من القصاصات واحداً بجانب الآخر ـ وهي محاولتي الأولى في إعادة ترتيب التاريخ ـ على صحيفة بيضاء من الورق، وكالأفعى أخفيت الوثيقة في جيبي، كما تخفي الأفعى سمّها في جيب نابها.

ثم رتبت أمري وبكل ما لدي من فكر، لأن أقضي أمسية لدى آيسلايس وهيرويل. في تلك الأمسية لعبنا لعبة «جريمة قتل في الظلمة».

وخلال لعبة القتل هذه، انزلقت إلى داخل خزانة المقدم سبرماتي ثم أدخلت وثيقتي الورقية في جيب من جيوب بزته الاحتياط. في تلك اللحظة (ولا فائدة من إخفاء الحقيقة) شعرت بالمتعة التي تشعر بها الأفعى حين تلدغ ضحيتها وتشعر بأن سمّ أنيابها ينفذ إلى صميم كبدها...

مقدم سبرماتي (هكذا كانت تقول ملاحظتي).

لماذا تذهب زوجتك إلى شارع كولابا صباح كل أحد؟

لا، أنا لم أعد فخوراً بما فعلته، لكن تذكروا أن لشيطاني، شيطان الانتقام، رأسين اثنين. لقد كنت آمل، من خلال كشف خيانة ليلى سبرماتي، أن أوجه صدمة لأمي أيضاً. عصفوران بحجر واحد، إذ ينبغي أن تعاقب امرأتان، أن يلدغ كلاً منهما ناب من نابي الأفعى، يخرقها فرع من فرعي لسانها المتشعب.

ولا أجافي الحقيقة حين أقول إن ما بات يعرف باسم قضية سبرماتي إنما ارتسمت بداياته الحقيقية في مقهى قذر يقع شمالي المدينة حين كان ولد متلصص يراقب مجموعة من الأيدي تدور وتتحرك. بالسر كنت أعمل، ومن وراء ستار أضرب. ما الذي دفعني يا ترى؟ الأيدي في مقهى الرائد، الاتصالات الهاتفية ذات الأرقام الخطأ، الملاحظات التي تزلق إلى داخل يدي على الشرفات، ثم تمرر تحت غطاء الملاءات، رياء أمي وحزن بيا الذي لا عزاء له:

هـ.. هـ.. هـ.. ي.. هي. وكان سمّي من النوع البطيء، لكنه بعد ثلاثة أسابيع، أعطى مفعوله.

فقد تبين فيما بعد أن المقدم سبرماتي جند لخدمته بعد استلامه ملاحظتي المغفلة من التوقيع دوم مينتو، أشهر شرطي للتحري الخاص في بومباي (وكان مينتو، المسن والأعرج تقريباً، قد خفض من أجوره في ذلك الحين) ثم انتظر إلى أن جاءه تقرير مينتو. بعدئذ:

صباح ذلك الأحد، كان ستة أطفال يجلسون على صف واحد في سينما ميترو للصغار، يشاهدون فيلم «البغل الناطق والبيت المسكون». وكما ترى، فقد كان لي غطائي الكامل إذ لم أكن قريباً من مشهد الجريمة. ومثل سين الهلال القمري، كنت أفعل فعلي من بعيد مؤثراً على مدّ البحار وجزرها في العالم... إذ بينما كان بغل الفيلم يتكلم، كاسن برماتي يزور دار صناعة بحرية، حيث أخرج من هناك مسدساً جيداً ذا سبطانة طويلة وذخيرته أيضاً.

في يده اليسرى كان يمسك قطعة ورق كتبت عليها يد التحري الخاص عنواناً، وبيده اليمنى يمسك مسدساً لا قراب له. بسيارة أجرة وصل القائد إلى شارع كولابا، دفع الأجرة للسائق، ثم سار، وبيده المسدس، نازلاً ممراً ضيقاً، عابراً بأكشاك القمصان وحوانيت الدمى، بعد ذاك صعد سلماً لبناية شقق تقع خلف الممر، في مؤخرة ساحة اسمنتية. وصل الشقة (١٨) ث، قرع الجرس، فسمع القرع معلم انكلو ـ هندي يعطي درساً لاتينياً خاصاً في الشقة (١٨) ب وحين ردت ليلى زوجة سبرماتي فاتحة الباب، أطلق عليها طلقة في بطنها بعد أن سدد السبطانة إليها مباشرة فسقطت إلى الوراء، أما هو فقد تجاوزها مندفعاً إلى الأمام، هناك وجد هومي كاتراك ينهض من المرحاض، ويرفع كالمجنون سرواله دون أن يمسح مؤخرته. فأطلق عليه القائد طلقة واحدة في أعضائه التناسلية وأخرى في القلب وثالثة في العين اليمنى ولم يتوقف عن الإطلاق، لكن حين فرغ المسدس من ذخيرته خيم صمت هائل على الشقة. أما السيد كاتراك فكان يتكوم على المرحاض وعليه هيئة من يبتسم.

بعدئذ عاد سبرماتي فخرج من بناية الشقق والمسدس في يده (لقد شاهده عبر شق الباب معلم اللاتينية المرتعب) ثم مشى على مهل على طول شارع كولابا إلى أن رأى شرطي مرور يقف في كشكه الصغير، فقال له: «لقد قتلت زوجتي وعشيقها بهذا المسدس وإنني أسلم نفسي لك...». لكنه كان لا يزال يلوح بالمسدس تحت أنف الشرطي فأصيب هذا بالذعر إلى درجة ألقى معها بعصاه التي يؤشر بها وأطلق ساقيه للريح. حينها شرع سبرماتي، وقد رأى نفسه وحيداً في موقف الشرطي وسط زحمة المرور واضطرابه، يوجه السيارات مستخدماً مسدسه المدخن كعصا للتأشير. وعلى هذا الشكل وجدته ثلة من اثني عشر شرطياً قدموا بعد عشر دقائق وانقضوا بشجاعة الليوث عليه ثم حملوه بين أيديهم وانتزعوا منه العصا غير المألوفة التي ظل طوال عشر دقائق، يوجه بها السير توجيه الخبير المتمرس.

إحدى الصحف قالت عن قضية سبرماتي... «إنه عمل مسرحي

ستكتشف فيه الهند من هي وما هي وما عساها صائرة. . .». لكن سبرماتي كان مجرد دمية، وكنت أنا محرك الدمية أما الأمة فكانت تمثل تمثيليتي. لكن، ثمة شيء واحد وهو أنني لم أكن أقصد ذلك، لم أكن أحسب أنه سر. . . كل ما كنت أبتغيه هو. . . الفضيحة، أجل، إثارة الخوف، تلقين كل الزوجات والأمهات درساً. . . لكن أن تصل الأمور إلى ذلك الحد لا. . لا. . أبداً.

وهكذا، وقد أرعبتني نتيجة أفعالي، وجدتني امتطي أمواج التفكير المضطربة في المدينة. . . وفي مستشفى فارسي عام قال أحد الأطباء «السيدة سبرماتي ستعيش، لكن يتعين عليها أن تنتبه لما تأكله». . . أما هومي كاتراك فقد قضى نحبه. ترى من يهتم سوى المحامين بالدفاع عن الناس؟ من قال ذات مرة: «سأدافع عنه مجاناً، بلا أي مقابل؟ من كان ذات مرة رابح قضية التجميد ومن هو المدافع الآن عن قضية سبرماتي؟ سوني إبراهيم قال سينجو أبي من عواقب القضية إن كان لإنسان في الدنيا أن ينجو».

وهكذا غدا المقدم سبرماتي أشهر قاتل في تاريخ القضاء الهندي. فالأزواج كانوا يقرون إنزال العقوبة بزوجته الخاطئة، والنساء المخلصات كن يشعرن بمبررات إخلاصهن لكنني داخل ولدي ليلى وجدت هذه الأفكار: «كنا نعلم أنها كذلك وكنا نعلم أن رجل البحرية لن يتحمل ذلك». وفي مجلة الهند الأسبوعية المصورة، رسم محرر شخصية الأسبوع بقلمه شخصية المقدم بالألوان التامة ثم كتب التعليق التالي: «في قضية سبرماتي تتحد عواطف رامايان النبيلة مع ميلودراما أفلام بومباي الرخيصة، لكن في ما يتعلق بالبطل الرئيسي، فالكل مجمعون على صحة موقفه وعلى أنه شخص جذاب بلا شك».

انتقامي من أمي وهومي كاتراك عجل كل التعجيل بأزمة البلاد. . . ذلك أن أنظمة البحرية كانت تقضي بأنه لا يحق لمن دخل سجناً مدنياً أن يطمح بمنصب أميرال الأسطول. لذا فإن الأميرالات وسياسيي المدينة وإسماعيل إبراهيم، بالطبع، طالبوا بـ: «أن يبقى المقدم سبرماتي في سجن البحرية.

فهو بريء إلى أن تثبت إدانته لذلك ينبغي عدم القضاء على حياته المسلكية إن كان بالإمكان تفادي ذلك». فأجابت السلطات بـ«نعم» وبذلك اكتشف سبرماتي، وبعد أن وفر له الأمان حبسه في البحرية، جزاء الشهرة وانتظر محاكمته تغرقه برقيات التأييد وتملأ زنزانته الورود ورغم أنه طلب أن يقدموا له طعام النساك، أي الأرز والماء، إلا أن فاعلي الخير كانوا يغرقونه بأطيب الطعام وأشهى المأكولات، بعدئذ بدأت مرافعات القضية أمام محكمة الجنايات، وقد تخطت كل دور قافزة قفزاً إلى منصة القضاء... فقال الادعاء:

«التهمة: ارتكاب جريمة قتل من الدرجة الأولى».

لكن المقدم سبرماتي أجاب بفكين مطبقين إطباقة شديدة وعينين جريئتين: «لست مذنباً».

وقالت أمي: «يا للمسكين! إنه حزين جداً، أليس كذلك؟».

فقلت «لكن خيانة المرأة شيء فظيع يا أماه..» فأشاحت بوجهها عني.

«أمامنا قضية مفتوحة ومغلقة في آن معاً» قال الادعاء، «إذ يوجد الدافع، الفرصة، الاعتراف، الجثة، وسبق الإصرار: فقد أخرج المسدس من الثكنة، وأرسل الأطفال إلى السينما فضلاً عن تقرير التحري، فأي شيء آخر يمكن قوله؟ القضية منتهية».

لكن الرأي العام قال «الله! رجل جيد كهذا!».

بينما قال إسماعيل إبراهيم «هذه قضية من قضايا الشروع في الانتحار».

وعلى ذلك ردّ الرأي العام: «؟؟؟؟؟؟؟».

فأوضح إسماعيل إبراهيم: «حين استلم القائد تقرير شرطي التحري، أراد أن يتحقق بنفسه من صحة الأمر، وقرر، إن ثبت له ذلك، أن يقتل نفسه، وحين أخرج المسدس معه، إنما أخرجه لنفسه. ثم قصد العنوان في شارع كولابا بروح اليائس، لا كقاتل بل كرجل ميت. لكن هناك ـ وهو يرى زوجته، أيها السادة المحلفون ـ يراها شبه عارية مع عشيقها الخائن، لم يعد يرى شيئاً، عميت عيناه وحين عميت عيناه فعل ما فعل. إذن ليس هناك سبق

إصرار وتصميم، وبالتالي ليس ثمة جريمة من الدرجة الأولى. قتل، نعم، لكن ليس عن عمد، وعليكم أيها السادة المحلفون أن تحكموا ببراءته من التهمة».

وفي المدينة كانت الأقاويل تدور «لا، كثيراً جداً... إسماعيل إبراهيم تجاوز الحد كثيراً هذه المرة... لكن...». لكن... كانت هيئة المحفين بغالبيتها من النساء... نساء لسن من الطبقة الثرية.. لذلك كن أكثر تجاوباً مع فتنة المقدم ومحفظة المحامي...

لكن من يدري؟ من يستطيع قول الحقيقة؟

وهكذا، قالت هيئة المحكمة: «غير مذنب».

أمي صرخت: «أوه! رائع!! لكن، لكن... أهذا عدل؟».

فقال القاضي مجيباً عليها: «باسم السلطة المنوطة بي، أرد هذا الحكم غير المعقول، المتهم مذنب».

أوه، يا للهياج الشديد الذي ساد في تلك الأيام. فحينما طالب كبار رجال البحرية والأساقفة والسياسيون الآخرون قائلين: «يجب أن يبقى سبرماتي في سجن البحرية بانتظار البت بالاستئناف، فالتعصب الأعمى لقاض بمفرده ينبغي ألا يدمر هذا الرجل العظيم».

حينها خضعت سلطات الأمن للمطالبة وقالت «حسناً»، وهكذا صعدت قضية سبرماتي، مندفعة إلى هيئة المحكمة العليا بسرعة لم يسبق لها مثيل... وقال المقدم لمحاميه: «أشعر وكأن القضية خرجت من أيدينا، أشعر وكأن شيئاً ما وضع يده عليها... دعنا ندعُه القدر».

فأقول أنا: «ادعه سليماً أو صاحب الأنف الخرطومي أو المتعجرف أو ذا الوجه الأبقع. ادعه فلقة القمر الصغيرة».

في النهاية تحكم محكمة الاستئناف: «المتهم مدان» فتخرج الصحف بالعنوان الرئيسي: «هل سيساق سبرماتي إلى السجن المدني أخيراً؟».

ويقول إسماعيل إبراهيم: «سنتابع حتى نهاية الطريق. سترفع القضية إلى محكمة النقض»

هنا تنفجر قنبلة: إعلان من رئيس وزراء الولاية نفسه: «لا استثناء أمام القانون، لكن نظراً لخدمات المقدم سبرماتي لبلاده فإنني أسمح له بالبقاء في سجن البحرية بانتظار قرار محكمة النقض».

وتظهر عناوين أخرى في الصحف أشد لذعاً من قرص البعوض: «الحكومة تنتهك القانون. فضيحة سبرماتي وصمة عار في جبين الجمهورية...» وحين أيقنت أن الصحافة انقلبت على المقدم أدركت أن أمره قد انتهى.

حكم محكمة النقض: «مدان».

فقال إسماعيل إبراهيم: «عفو سنطالب بعفو من رئيس جمهورية الهند».

لكن هنا، في راشتراباتي بهافان، توضع على الميزان قضايا كبيرة. فخلف أبواب مقر الرئاسة ذاك، على الإنسان أن يقرر إن كان يسمح لأحد بتجاوز القانون أم لا، إن كان ينبغي تجاوز قتل عشيق الزوجة كرمى لخدمات الزوج البحرية، علاوة على أشياء أخرى أرفع قيمة - هل ينبغي على الهند أن تقف إلى جانب قاعدة قانونية أم إلى جانب مبدأ قديم وهو أولوية البطولة وسبقها لكل شيء آخر؟ لو كان راما نفسه على قيد الحياة، هل نبعث به إلى السجن لذبحه خاطف سيتا؟ مسائل عظيمة، واقتحامي الحاقد لتاريخ عصري ليس أمراً تافهاً بالتأكيد.

لكن رئيس جمهورية الهند قال: «لن أعفو عن هذا الرجل».

فولولت نوسي إبراهيم (التي خسر زوجها قضية كبرى) ثم كررت ملاحظة قديمة كانت قد قالتها من قبل: «أخت أمينة، ذلك الرجل الطيب ذاهب إلى السجن - إنها نهاية العالم».

الاعتراف، أشعر به يرتجف خلف شفتي تماماً: «تلك كانت فعلتي يا أماه. كنت أود أن ألقنك درساً. ماما، لا تذهبي لرؤية الرجال الآخرين ممن تحمل قمصانهم إشارة أعمال اللوكنو، كفاك يا أماه، كفاك تقبيل فناجين شاي. لقد بت كبيراً، أرتدي بنطالاً طويلاً، بإمكاني أن أكلمك كرجل». لكن ذلك الاعتراف لم يخرج من شفتي، لم تكن ثمة حاجة، ذلك أنني سمعت

أمي ترد على نداء هاتفي من نداءات الرقم ـ الخطأ ـ وبصوت غريب منخفض تتكلم عبر الهاتف قائلة: «لا، لا أحد بهذا الاسم هنا، رجاء، صدق ما أقوله لك ولا تتصل مرة ثانية».

نعم لقد لقنت أمي درساً فبعد قضية سبرماتي لم تر عيناها قط نادر ـ قاسم ذاك: لم يقع ناظرها عليه مرة أخرى طيلة حياتها. لكنها، وقد حرمت منه، وقعت ضحية المصير الذي ينتظر النساء في عائلتنا، ضحية الشيخوخة قبل الأوان إذ بدأت تنكمش وتتقلص، كما بدا تمايلها في مشيتها أكثر وضوحاً، وبات واضحاً في عينيها خواء الشيخوخة.

لقد جر انتقامي، فيما جر، عدداً من التطورات التي لم يبحث أحد عنها، ولعل أكثرها هولاً ظهور أزهار غريبة في حدائق إقطاعة ميثولد، أزهار مصنوعة من الخشب والصفيح ومطلية طلي اليد بأحرف حمر لامعة. . . .

كانت اللوحات القاتلة تنتصب في كافة الحدائق ما عدا حديقتنا، وذلك دليل على أن قواي المؤثرة كانت تتجاوز حتى مداركي وأنني، بعد أن نفيت مرة من رابيتي ذات الدورين، بات بإمكاني أن أنفي الجميع بدلاً مني.

لافتات في حدائق فيلا فرساي وفيلا اسكوريال وفيلا سان سوسي، لافتات يومئ بعضها إلى البعض الآخر مع أنسام البحر في ساعة الكوكتيل.

وعلى كل لافتة يمكن رؤية الأحرف نفسها وكلها حمر لامعة، كلها بارتفاع اثنتي عشرة بوصة وكلها تقول: «للبيع».

للبيع ـ فيلا فرساي التي لقي صاحبها مصرعه على مقعد المرحاض، وقد تم البيع بتدبير الممرضة الشديدة باي ـ آبا لصالح المعتوهة المسكينة توكسي.

ثم ما إن تم البيع حتى اختفت الممرضة والمريضة إلى الأبد. فقد وضعوا في حجر باي آبا حقيبة منتفخة بالأوراق النقدية ولا أدري ما حدث لتوكسي، لكنني متأكد، بعد أخذ شره ممرضتها في الاعتبار، أنه لم يحدث لها خير. . .

للبيع ـ شقة سبرماتي في فيلا اسكوريال، فقد حرمت ليلى سبرماتي من

حق الإشراف على أولادها وبذلك غابت عن حياتنا، بينما حزم آيسلايس وهيرويل أمتعتهما وغادرا كي يكونا في رعاية البحرية الهندية التي وضعت نفسها موضع أبيهما إلى أن يكمل الرجل سنيه الثلاثين في السجن. . .

للبيع أيضاً فيلا آل إبراهيم، سان سوسي، نظراً لأن فندق اسحق إبراهيم، فندق السفراء كانت قد حرقته العصابات يوم حلت الهزيمة النهائية بالمقدم سبرماتي، وكأن العناصر الإجرامية في المدينة كانت تعاقب أسرة المحامي على فشله، بعدئذ علقت عضوية إسماعيل إبراهيم كمحام، بسبب بعض الأدلة على سوء سلوكه المهني (بحسب ما ورد في تقرير اللجنة القضائية في بومباي)، ولإصابتهم بالضائقة المالية، فقد خرج آل إبراهيم من حياتنا أيضاً.

أخيراً للبيع، شقة سيروس دوباش وأمه، ذلك أنه خلال الهياط والمياط الذي أثارته قضية سبرماتي، ودون أن يلحظ ذلك أحد تقريباً، توفي عالم الفيزياء النووية بسبب غصة ببزرة برتقالة، وبذلك اطلق العنان لتعصب أم سيروس الديني، وتحركت عجلات مرحلة التهيؤات التي ستكون موضوع فصلنا القادم.

اللافتات تومئ برؤوسها في الحدائق، تلك التي فقدت ذكرياتها عن السمك الذهبي وساعات الكوكتيل والقطط الغازية، لكن من تراه استجاب لها؟ من هم ورثة وليام ميثولد؟. .

أسراب أسراب جاءت من المقر الذي كان ذات يوم مسكن الدكتور نارليكار: نساء ذوات كفاءات عالية وكروش كبيرة، غدون أكثر سمنة وكفاءة مما كن من قبل نتيجة الثروة التي حظين بها بسبب رباعيات القوائم (فتلك السنوات هي سنوات الاستصلاح الكبير للأراضي) أنهن نساء نارليكار ـ وقد اشترين شقة سبرماتي من البحرية وشقة السيدة دوباش الراحلة مع ابنها، كما دفعن لباي ـ آبا أكداساً من الأوراق النقدية المستعملة وسددن لدائني آل إبراهيم بما دفعنه من نقود نارليكار مباشرة.

بيد أن والدي، ومن بين الساكنين جميعاً، رفض أن يبيع. لقد عرضت

عليه النسوة مبالغ طائلة لكنه هز رأسه رافضاً. شرحن له حلمهن ـ هدم المباني من أساسها وتشييد مبنى على الرابية ذات الدورين يعلو ثلاثين طابقاً في الجو، مسلة زهرية ظافرة، نقطة علام مستقبلهن، لكن أحمد سيناء، الضائع في المجردات، قال: «لا شأن لي بذلك».

قلن له «حين تحاط بالركام ستضطر للبيع بأبخس الأثمان» لكنه، وقد تذكر تلك الخيانة المتعلقة برباعيات القوائم، لم يتزحزح قيد أنملة.

حين رحلت نوسي ـ البطة، قالت «لقد قلت لك هذا، يا أخت أمينة ـ النهاية! نهاية العالم» وكانت هذه المرة مصيبة ومخطئة في الوقت ذاته، فبعد آب (١٩٥٨) ظلت الأرض تدور، لكن دنيا طفولتي كانت، في الحقيقة، قد انتهت.

بادما ـ هل كان لك، حين كنت صغيرة، عالمك الخاص؟ كوكب صفيحي ارتسمت عليه قارات ومحيطات وجليد قطبي؟ نصفا كرة معدنيان رخيصان، أطبق واحدهما على الآخر وحملهما حامل بلاستيك؟ لا، طبعاً لا، أما أنا فقد كان لي. لقد كان عالماً مليئاً ببطاقات الأسماء: المحيط الأطلسي، الأمازون، مدار السرطان.

وفي القطب الشمالي، كان يحمل العبارة الشهيرة: صنع إنكلترا، لكن في آب شهر اللافتات المومئة برؤوسها وانقضاض نسوة نارليكار، فقد هذا العالم الصفيحي حامله، فبحثت عن شريط اسكوتلاندي ولصقته على الخط الاستوائي، بعد ذلك، وقد طغى حبي للعب على احترامي، بدأت أستخدمه ككرة قدم وعلى أثر قضية سبرماتي، حين كان الجو مفعماً بندامة أمي وبالمآسي الخاصة لورثة ميثولد رحت أطقطق بالكرة الصفيحية في كل مكان من الإقطاعة آمناً مطمئناً لمعرفتي أن العالم لا يزال قطعة واحدة (رغم أن نصفيه لا يجمعهما معاً إلا شريط لاصق) وأنه لا يزال عند قدمي... وهكذا بقيت إلى أن جاء اليوم الذي سمعنا فيه آخر نحيب مليء بالإيمان بالأخرويات لنوسي البطة ـ اليوم الذي لم يعد فيه سوني إبراهيم، جارنا سوني، فنزلت أختي القردة النحاسية إلي وقد تملكها غضب لا تفسير له، ثم طفقت تصرخ:

«يا إلهي! كف عن رفسك هذا يا أخ، ترى ألا تشعر بشيء من سوء الحال هذا اليوم»؟ ثم نطت عالياً في الجو وحطت بكلتا قدميها على القطب الشمالي وبذلك سحقت العالم في تراب مدخلنا تحت قدميها المستعرتين غضباً.

فعلى ما يبدو، كان رحيل سوني إبراهيم، عاشقها المدنف الذي كانت قد صدته وجردته هي ورفيقاتها من ملابسه وسط الطريق، قد ترك أخيراً آثاره على القردة النحاسية رغم رفضها الدائم لاحتمال حبه.

ظهورات

أوم هاري خسرو هاري خسرو فاند أوم[1].

اعلموا أيها الكافرون، أنه في أنصاف ليالي الفضاء الكوني المظلمة وفي زمن سابق للزمان كان هنالك عالم الخسرو فاند المبارك. الآن، حتى العلماء يؤكدون أنهم ظلوا يكذبون أجيالاً كي يخفوا ذلك عن الشعب الذي يملك الحق كله في أن يعرف عن الوجود الحقيقي الذي لا مراء فيه لموطن الحق المقدس هذا. مفكرون كبار من جميع أرجاء العالم، بل حتى من أمريكا، يتكلمون عن تآمر الحمر واليهود... وغيرهم وغيرهم ضد الدين بقصد إخفاء هذه الأخبار البالغة الأهمية.

النقاب يرتفع الآن. السيد المبارك خسرو يأتي ببراهين لا تدحض فاقرأوا وآمنوا.

اعلموا أنه في الخسرو فاند ذات الوجود ـ الحقيقي كان يعيش قديسون بلغ ما حققوه من نقاء روحي حداً عظيماً حتى باتوا من خلال التأمل وما شابه، يملكون قوى لصالح الجميع قوى فوق حدود التصور! إذ كان بمستطاعهم أن يروا عبر الفولاذ وأن يثنوا العوارض الخشب بأسنانهم!

×××× الآن ××××

وللمرة الأولى، يمكن وضع قوى كهذه

---

(١) «مبارك خسرو ومباركة أرض خسرو» وقد آثرنا إبقاءها كما جاءت بالهندوسية في النص.

في خدمتكم، فالسيد خسرو موجود

×××× هنا ××××

اسمعوا عن سقوط خسرو فاند: كيف أرسل الشيطان الأحمر بهيموثا (سوّد الله وجهه) وابلاً مخيفاً من النيازك (التي سجلت مراصد العالم تواريخها جيداً، لكن دون أن تجد تفسيراً لها).. وابلاً مخيفاً من حجارة سجيل دمر بها خسرو فاند الجميلة وأهلك قديسيها.

لكن غورابيل النبيل وزوجته خليلة الجميلة كانا حكيمين. فقد ضحيا بنفسيهما في حال من النشوة أشبه بنشوة الفن الكونداليني كي ينقذا روح ابنهما خسرو، ذاك الذي لم يكن قد ولد بعد. وبدخولهما وحدانية حقيقية ضمن غيبوبة يوغية سامية (يسلم العالم كله الآن بما لها من قوى)، فقد حولا روحيهما النبيلتين إلى شعاع بارق من الحياة الكوندالينية والقوة والطاقة والنور الذي يعتبر اللايزر المعروف جيداً في هذه الأيام تقليداً له، نسخة طبق الأصل عنه. وعلى هذا الشعاع، طارت روح خسرو الذي لم يولد، متجاوزة الأعماق التي لا نهاية لها لأبدية الفضاء الكوني إلى أن جاءت، لحسن حظنا، إلى دنيانا واستقرت في رحم الأم الفارسية المتواضعة، أم العائلة الصالحة.

وهكذا ولد الطفل وكان صالحاً حقاً وذا دماغ لا مثيل له (يقول الكذب للكذب، كقوله مثلاً إننا جميعاً متساوون، لكن هل يستوي المحتال مع القديس؟ طبعاً ـ لا)، ولحين من الزمن ظلت طبيعته الحقيقية محجوبة إلى أن جاء يوم أفاق فيه فأدرك أنه موجود وهكذا اتخذ اسمه الحقيقي.

السيد

خسرو

خسرو فاني

× بهاغوان ×

ثم انطلق وعلى جبينه، جبين الناسك، الرماد، وفي نيته أن يشفي الأمراض وينهي الجفاف ويحارب جيوش بهيموثا، حيثما ثقفها. فحذار، مطر بهيموثا السجيلي سيحل علينا أيضاً. حذار أن تبالوا بكذب السياسيين الشعراء الحمر إلخ إلخ. بل ضعوا ثقتكم بالسيد الحقيقي الوحيد.

خسرو خسرو خسرو

خسرو خسرو خسرو

وابعثوا بأعطياتكم إلى صندوق البريد رقم ٥٥٥، مركز البريد الرئيسي، بومباي. ١ بركات! جمال! حق!

أوم هاري خسرو هاري خسرو فاند أوم

كان لسيروس العظيم والد هو عالم فيزياء نووية وأم متعصبة لدينها تعصباً يكويها من الداخل، ويعذبها أشد العذاب إثر السنين الكثيرة التي قضتها مع زوجها تضطهدها فيها عقلانيته الطاغية، لكن حين غص والد سيروس بالبرتقالة التي نسيت والدته إزالة بذورها منها آلت السيدة دوباش على نفسها أن تمحو كل أثر لشخصية المرحوم زوجها من ابنها، وأن تصوغ سيروس من جديد أن تجعل من صورتها الفردية وهكذا فإن سيروس العظيم، المولود على طبق من فضة عام ١٩٤٨ ـ سيروس معجزة المدرسة، سيروس صاحب دور القديس يوحنا في مسرحية شو، كل هذه السيروسات التي كنا قد اعتدنا عليها، والتي نمونا وكبرنا معها، اختفت الآن، ليظهر محلها شخص مفرط الانتفاخ هادئ هدوء البقر هو شخص السيد خسرو خسرو فاند. في سن العاشرة اختفى سيروس من مدرسة الكاتدرائية وبدأ الصعود النيزكي لأغنى زعيم ديني في الهند. (وهناك نسخ من الهند بعدد ما هناك من هنود. وحين توضع نسختي إلى جانب نسخة سيروس، تبدو نسختي دنيوية تقريباً).

لماذا سمح لذلك بالحدوث؟ لماذا كانت الملصقات تغطي المدينة والإعلانات تملأ الصحف بلا لمحة واحدة عن الطفل العبقري؟..

لأن سيروس (رغم أنه يحاضر بنا عادة، لكن دون غرض شرير، عن أعضاء المرأة) كان بكل بساطة أشد الأولاد طواعية ولم يكن يحلم بمعاكسة أمه قط. وهكذا من أجل أمه بات يلبس عمامة ونوعاً من التنورة المطرزة بالبروكار، وكرمى للطاعة البنوية، سمح لملايين المريدين أن يقبلوا إصبعه الصغيرة. وباسم الحب الأمومي بات حقاً السيد خسرو أكثر الأطفال المقدسين فلاحاً في التاريخ. وفي غضون فترة وجيزة تماماً باتت تحييه حشود لا تقل عن نصف مليون من الأقوياء وتجد لديه المعجزات والأعاجيب.

عازفو الغيتار الأمريكيون جاؤوا يجلسون عند قدميه ومعهم دفاتر أرصدتهم. كما صار لدى السيد خسرو محاسبون وأتباع وباخرة تدعى (نجمة سفن خسرو فاند) وطائرة ـ تدعى نجمة خسرو للطيران، لكن في مكان ما داخل الغلام ذي الابتسامة الباهتة والبركات المبعثرة.. في مكان أخفاه إلى الأبد، كان هناك ظل أمه الطاغي المخيف (فرغم كل شيء كانت أمه تعيش في المنزل ذاته الذي كانت تعيش فيه نساء نارليكار، فإلى أي مدى كانت تعرفهن يا ترى؟ إلى أي مدى تسربت إليها كفاءتهن المرعبة؟).

وهناك كان يكمن شبح الغلام الذي كان في يوم من الأيام صديقي.

(ذلك السيد خسرو)؟ تسأل بادما والدهشة ملء عينيها «أتعني ذلك الزعيم الديني نفسه الذي غرق في البحر السنة الماضية؟». أجل يا بادما، فهو لم يستطع السير على الماء لكن القليلين ممن كانوا على صلة بي حظوا بموت طبيعي.. دعيني أعترف أنني كنت أكره بشكل من الأشكال فكرة تأليه سيروس، بل كنت أفكر: «أنا من ينبغي أن يحظى بالتأليه، أنا ابن السحر، إذ لم تكن أولويتي وحدها في المنزل، بل حتى طبيعتي الصميمية الحقيقية كانت قد تعرضت للاختلاس والسرقة».

بادما: أنا لم أصبح زعيماً دينياً قط، لم تجلس الملايين عند قدمي، لكن كان ذلك كله بسبب خطأ ارتكبته بنفسي، فقبل سنين كثيرة، ذهبت كي استمع لمحاضرة من محاضرات سيروس عن أعضاء المرأة.

«ماذا» تهز بادما رأسها، متحيرة منذهلة «ما هذا الآن؟».

كان لدى دوباش عالم الفيزياء النووية تمثال رخامي صغير وجميل ـ لامرأة عارية ـ وبمساعدة هذا التمثال كان ابنه يلقي محاضرات الخبير المتمرس عن تشريح جسم المرأة على جمهور من الصبية المتهافتين ضحكاً، ولم يكن يفعل ذلك مجاناً، بل كان سيروس العظيم يفرض أجراً، إذ كان يطلب مقابل درس التشريح كتباً هزلية ـ وبكل براءة ـ أعطيته ذات مرة نسخة من تلك المجلة الهزلية البالغة القيمة «السوبرمان» التي كانت تحوي قصة بعنوان (الإطار)، قصة تدور حول انفجار الكوكب كريبتون وقمرة الصاروخ التي أرسل فيها غورابيل من قبل والده إلى الفضاء لكي يهبط على الأرض

ويتبناه كينتز الطيب اللطيف الصالح. . ألم يرها أحد، في تلك السنين كلها؟ ألم يدرك أحد أن ما كانت تفعله السيدة دوباش هو إعادة تشكيل وابتكار لأقوى الأساطير الحديثة، أشدها مفعولاً ـ أسطورة ظهور السوبرمان؟ فقد شاهدت لوحات الإعلانات الضخمة تحيي ظهور السيد خسرو خسرو فاند بهاغوان، ووجدت نفسي مرغماً، مرة ثانية أيضاً، على تحمل مسؤولية الأحداث التي تقع في عالمي الخرافي المضطرب.

كما أنني معجب بعضلات رجلي بادماي المثيرة، إنها تجلس القرفصاء هناك، على بعد أقدام قليلة من طاولتي، وقد انشمر ساريها إلى الأعلى كصيادة سمك، ربلتا الساقين لا يبدو عليهما أي أثر لتوتر، عضلات الفخذين تتموج عبر طيات الساري وتعرض قدراتها الجديرة بالإعجاب والثناء، إنها قوية إلى درجة تكفي لأن تقرفص هناك إلى الأبد متحدية الجاذبية والخدر في آن معاً، وهي تصغي دون تعجل إلى حكايتي الطويلة، أوه يا للمرأة ـ المخللات الشديدة، أية صلابة تطمئن لها النفس، أية راحة تبعثها هيئة الثبات والاستمرار لعضلاتها الثنائية والثلاثية الرؤوس. . . ذلك أن إعجابي يمتد أيضاً إلى ذراعيها اللتين يمكنهما ليّ ذراعي بطرفة عين، واللتين لا منجاة لي منهما حين تلفانني ليلاً في عناق لا طائل من ورائه، لقد وجدنا نفسينا بعد أن اجتزنا أزمتنا في حالة انسجام تام: فأنا أسرد على مسمعيها وهي تستمع، هي تدبر شؤون البيت وأنا أتقبل ما تدبره بامتنان، إنني في الحقيقة راض كل الرضى عن عضلات بادما مانغرولي غير الشاكية، بادما التي باتت دون تفسير، أكثر اهتماماً بي من اهتمامها بحكاياتي.

لم اخترت يا ترى أن أتكلم عن عضلات بادما وقوتها العضلية؟ في هذه الأيام وبسبب تلك العضلات أكثر من أي شيء آخر أو أحد آخر (مثلاً، ابني الذي لم يكن قد تعلم القراءة بعد) أجل، بسببها أروي قصتي، ولأنني اندفع بسرعة جنونية، فالأخطاء محتملة وكذلك المبالغات وحدوث التبدلات في النغمة، فأنا أجري وراء الشروخ لكنني أظل واعياً أن أخطاء قد وقعت فعلاً وأنه مع تسارع تلقّي (وتسارع كتابتي) فإن خطر عدم الموثوقية بما أكتب يزداد هو الآخر. . في هذه الحالة، أتعلم استخدام عضلات بادما كمرشدات لي.

فحين تصاب بالبرم يمكنني أن أكتشف في ألياف عضلاتها تموجات عدم الاهتمام، وحينما تكون غير مقتنعة يحدث تقلص لا إرادي في عضلات وجنتيها، أما تراقص عضلاتها فيساعدني في متابعة الخط، ذلك أنه في كتابة السيرة الذاتية، كما في الأدب كله، فإن ما يحدث فعلاً يكون أقل أهمية مما يمكن للمؤلف أن يقنع جمهوره بتصديقه. . . وهكذا، بقبول بادما لقصة سيروس ـ العظيم فإنها تنفحني الشجاعة اللازمة كي أمضي مسرعاً، إلى أصعب أيام حياتي، حين كنت في الحادية عشرة ـ إلى آب وأيلول حين كانت الظهورات تفيض بسرعة أكبر من سرعة الدم.

إذ لم تنزع اللوحات المومئة من أماكنها حتى كان الطاقم التدميري من نسوة نارليكار قد تحرك، وسرعان ما غلفت فيلا باكنغهام سحابة غبار هائلة من قصور وليام ميثولد المتقوضة، سحابة غبار عزلتنا عن شارع واردن، لكن رغم ذلك ظللنا عرضة للهواتف، والهاتف هو الذي أعلمنا عبر صوت الخالة بيا، بانتحار خالي الحبيب حنيف الذي أخذ معه، وقد حرم من الدخل الذي كان يجيئه من هومي كاتراك، صوته الجهوري، ووسواسه بورق الكبة والواقع كله، ثم صعد بها جميعاً إلى سطح بنايته الواقعة في الممر البحري، ومن هناك ألقى بنفسه لأجنحة نسيم ـ البحر المسائي مسبباً للشحاذين (حين سقط) ذعراً جعلهم يقلعون عن ادعاء العمى ويولون الأدبار مولولين صارخين. . . وهكذا، في موته كما في حياته، ظل حنيف عزيز ملتزماً بقضية الحق مرغماً الوهم على الفرار بجلده.

لقد كان في الرابعة والثلاثين من عمره تقريباً، والقتل يجر الموت فأنا، بقتلي لهومي كاتراك، كنت قد قتلت خالي أيضاً، لقد كانت خطيئتي، ولم ينته الموت بعد.

في فيلا باكنغهام تجمعت العائلة: فمن آغرا جاء آدم عزيز والأم المبجلة، ومن دلهي خالي مصطفى الموظف المدني الذي أتقن فن الموافقة على كل ما يقوله رؤساؤه إلى حد جعلهم يتوقفون عن الاستماع إليه، وذلك هو السبب في أنه لم يحصل على ترقية قط، كما جاءت زوجته نصف الإيرانية، سونيا، وأطفالهما الذين كانوا قد نشأوا في جو من اللاأهمية إلى

درجة نسيت معها حتى عددهم. ومن الباكستان جاءت علياء البائسة بل وحتى الجنرال ذو الفقار وخالتي أميرالدا التي جلبت معها سبعاً وعشرين قطعة من المتاع وخادمين، لكن دون أن تكف هي وزوجها عن النظر إلى ساعتيهما والاستفسار عن الموعد. كذلك جاء ابنهما ظافر. ولكي تكتمل الدائرة، فقد جاءت أمي ببيا كي تقيم في منزلنا: «مدة الحداد. على الأقل حتى الأربعين يا أختاه».

ولمدة أربعين يوماً، كان الغبار يحاصرنا، الغبار الزاحف عبر المناشف المبللة التي حشونا بها آجر النوافذ، الغبار الماكر الذي كان يلحق بكل قادم للتعزية، الغبار الراشح عبر كل الجدران ليعلق في الجو كخيال بلا شكل، الغبار الكاتم لأصوات العويل الرسمي وكذلك نشيج الأقرباء الحزانى القاتل، فبقايا إقطاعة ميثولد حطت على جدتي فدفعتها للسخط الشديد، كما هيجت خيشومي الجنرال ذو الفقار ـ ذي الوجه الشحاذ ـ وأجبرته على العطس وتلويث ذقنه. وفي سديم الغبار كان يخيل إلينا أحياناً أننا نرى أشكال الماضي، فها هو ذا سراب بيانو ليلى سبرماتي وقد سحن سحناً، وتلك قضبان النافذة التي كانت سجناً لتوكسي كاتراك وقد تهشمت، وذلك تمثال المرأة العارية لآل دوباش وهو يتراقص على شكل ذرات من الغبار في حجراتنا وتلك ملصقات سوني إبراهيم التي تمثل مصارعي الثيران وهي تزورنا سحائب من غبار.

لقد غادرت نسوة نارليكار المكان وهجرنه تماماً حين بدأت الجرافات عملها، أما نحن فكنا وحدنا داخل زوبعة الغبار تلك التي أضفت علينا كل مظهر من مظاهر أثاث مهجور، كراسٍ أو طاولات تركت عدداً من السنين دون أغطية. أجل كنا نبدو أشبه بخيالاتنا منا بأنفسنا. لقد كنا سلالة ولدت من أنف، من ذلك الوحش المائي في وجه آدم عزيز، وكان الغبار يدمر، وهو يدخل خياشيمنا وقت حزننا، احتياطينا، يقضي على الحواجز التي تسمح للعائلات بالبقاء على قيد الحياة، وفي عاصفة الغبار القادمة من القصور المتقوضة كانت ثمة أشياء تقال، ترى، تعمل، أشياء لم ينج من آثارها أحد منا.

في البدء كانت الأم المبجلة. ذلك أن السنين الطوال ملأت جسدها حتى بات أشبه بسنكارا أشاريا ذلك الجبل العالي في موطنها سريناغار، وبالتالي أكبر مساحة يمكن للغبار مهاجمتها. وهكذا كان يأتي من جسمها الجبلي حين يصطدم الغبار به صوت أشبه بصوت انهيار جليدي، صوت يتحول إلى كلمات، فيتخذ شكل هجوم على الخالة بيا، تلك الأرملة المحرومة من كل شيء، لقد لاحظنا جميعاً أن بيا كانت تتصرف على نحو غير مألوف. إذ كان ثمة شعور داخلي بأن ممثلة في موقفها ينبغي أن تهبّ لمواجهة تحدي الترمل، كما كنا، بصورة لا شعورية نتوق لأن نراها تحزن، نتطلع لأن نشهد تراجيديا كاملة تؤطر مصابها، نتوقع أن تعرض أمامنا مشاهد الحزن والأسى وقد لونتها بكل ما تعرفه من فن تمثيلي، لكن بيا ظلت، وعلى نحو مناقض لكل توقع، ساكنة لا تذرف عيناها دمعة واحدة. كانت أمينة سيناء وأميرالدا تنوحان وتلطمان خدودهما في محاولة يائسة لإطلاق العنان لمواهب بيا، لكن الأم المبجلة، كانت قد فقدت كل أمل، نفد صبرها منها، وكان الغبار يدخل صدرها الساخط المخيّب الأمل فيزيد من مرارتها وحينذاك تزمجر: «تلك المرأة، ما اسمها، ألم احذرك منها؟ يا الله! كان باستطاعة ابني أن يكون أي شيء، لكن لا، ما اسمها، لا بدّ من أنها حطمت حياته. كان عليه، ما اسمه، أن يلقي بنفسه من سطح البناية كي يتخلص منها».

لقد قيل ذلك، ولم يكن في الإمكان عدم قوله، لكن بيا ظلت تجلس كالحجر، فيما كانت المشاعر في داخلي تضطرم كنار الموقد. غير أن الأم المبجلة مضت قدماً مقطبة عابسة ثم اقسمت برأس ابنها الميت قائلة: «لن يدخل طعام فمي حتى تبدي، ما اسمه، تلك المرأة شيئاً من الاحترام لذكرى ولدي، لن يدخل طعام فمي حتى تذرف دموع الزوجة الحقيقية. إنه عار وفضيحة أن تجلس وفي عينيها الإثمد بدلاً من الدموع». حينذاك ردد المنزل من جديد أصداء حروبها القديمة مع آدم عزيز. وقد ظللنا حتى اليوم العشرين نخشى أن تموت جوعاً وبذلك يبدأ حداد آخر لأربعين يوماً أخرى. فقد كانت تستلقي على سريرها يغطيها الغبار، وكنا نحن ننتظر وملؤنا الخوف.

لكنني أخيراً وجدت مخرجاً للمأزق، وبذلك يمكنني الادعاء، وأنا على

حق، بأنني أنقذت نفساً بشرية. ففي اليوم العشرين، بحثت عن بيا عزيز التي كانت تجلس على أرض غرفتها أشبه بامرأة ضريرة. وكعذر لزيارتي، رحت أعتذر عما ارتكبته من حماقة في شقة الممر البحري. فتكلمت بيا بعد صمت طويل قائلة بنغمة خفيضة «دائماً ميلودراما، في أفراد عائلته، في عمله. لقد مات بسبب كراهيته للميلودراما، وهذا هو السبب في أنني لا أبكي أو أنتحب». حينذاك لم أفقه شيئاً لكنني الآن واثق من أن بيا عزيز كانت محقة تماماً. فخالي الذي حرم من ممارسة هوايته بسبب رفضه لأسلوب بومباي السينمائي في الإثارة الرخيصة، قذف بنفسه من حافة السطح، وبذلك أوحت الميلودراما (وربما صبغت) غوصته الأخيرة إلى الأرض.

لم يكن موقف بيا في رفضها البكاء عليه إلا تكريماً لذكراه.. لكن محاولة الاعتراف بذلك فتحت ثغرة في جدران سيطرتها على ذاتها فقد جعلها الغبار تعطس والعطاس ملأ عينيها بالدموع وحين بدأت لم يعد بالإمكان إيقافها، فشهدنا أخيراً الأداء الذي كنا نحلم بمشاهدته. ذلك أنه حين تدفقت الدموع تدفقت كنبع فلورا، ولم يكن بمستطاع بيا كبح موهبتها، فصاغت الفيضان بالطريقة التي يمكن لممثلة مثلها أن تصوغه، مقدمة معه موضوعات مهيمنة ودوافع مساعدة، لاطمة صدرها المدهش بطريقة تؤلم حتى الناظر، عاصرة إياه أحياناً، ضاربة إياه حيناً آخر... كذلك مزقت ثيابها، نتفت شعرها، ذرفت من الدموع ما جعلها تبلغ الأوج وما أقنع الأم المبجلة بإنهاء الإضراب عن الطعام. وهكذا بدأ لب الفستق واللوز ينسكب في فم جدتي بينما كان الماء المالح يفيض من عيني كنتها. بعد ذلك، نزلت نسيم عزيز إلى بيا، ثم عانقتها محولة النحيب الإفرادي إلى نحيب ثنائي، مازجة موسيقى المصالحة بأنغام الحزن الجميلة جمالاً لا يحتمل. فالتهبت أكفنا بالتصفيق المكتوم. لكن كان سيأتي ما هو أفضل، وذلك حين دفعت بيا، الفنانة بجهودها الملحمية إلى الذروة فوضعت يديها في حجر حماتها، ثم قالت بصوت ملؤه الخضوع والخواء «ماما، دعي ابنتك العاقة تستمع إليك أخيراً، قولي ما ينبغي أن أفعل وسأفعله» فردت الأم المبجلة باكية «بنيتي، قريباً سنرحل أنا وعمك عزيز إلى راولبندي، سنقضي شيخوختنا في كنف ابنتنا

الصغرى، أميرالدا، فتعالي معنا، ولسوف نشتري لك محطة وقود». بذلك بدأ حلم الأم المبجلة يتحقق، فقد وافقت بيا عزيز على التخلي عن عالم السينما لعالم الوقود، وكما أظن، ربما كان خالي حنيف سيوافق هو الآخر.

كان الغبار طوال الأيام الأربعين تلك قد أثر فينا جميعاً، إذ جعل أحمد سيناء فظاً صعب المراس حتى بات يرفض الجلوس مع أنسبائه كما دفع أليس بيريرا لأن ترسل رسائل إلى الحادين رسائل أملاها هو نفسه من مكتبه: «خففوا الضجة، إنني أعمل وسط هذا الضجيج». كذلك جعل ذو الفقار وأميرالدا ينظران باستمرار إلى التقويم وجداول الرحلات الجوية، في حين كان ابنهما ظافر يتبجح على القردة النحاسية بأنه سيجعل أباه يرتب زواجه بها، «عليك أن تعتبري نفسك حسنة الحظ» قال ابن الخالة المغرور ذاك لأختي، «فوالدي رجل عظيم في الباكستان». لكن رغم أن ظافر كان قد ورث شكل أبيه، فإن الغبار كان قد خفض من معنويات القردة، مجرداً إياها من رغبتها في مقاتلته.

في تلك الأثناء كانت خالتي علياء تنشر إحباطها المغبر القديم في كل مكان حولها، كما كان أشد أقربائي سخفاً، أفراد عائلة خالي مصطفى، يجلسون صامتين متجهمين في الزوايا منسيين كالمعتاد. أما شاربا مصطفى عزيز، اللذان كانا حين قدومه مشمعين مفتولين إلى الأعلى، فقد تهدلا بتأثير الغبار الهابط بالهمم، وكان قد مضى على تهدلهما زمن طويل.

بعدئذ وفي اليوم الثاني والعشرين من فترة الحداد، شاهد جدي آدم عزيز الله.

في ذلك العام كان قد بلغ الثامنة والستين ـ أي كان أعمر من القرن الذي يعيش فيه بعقد من السنين. لكن ست عشرة من السنين خالية من التفاؤل كانت ذات وطأة ثقيلة. عيناه كانتا لا تزالان زرقاوين لكن ظهره كان قد انحنى. بقبعته المزخرفة ومعطفه الطويل ـ المكسو أيضاً بطبقة رقيقة من الغبار، كان جدي يطوف بلا هدف في أرجاء فيلا باكنغهام يقضم الجزر ويرسل قذائف رقيقة من البصاق في ما حوله ملوثاً حواشي ذقنه البيضاء، وبينما كانت صحته تنهار، كانت الأم المبجلة، تلك التي ولولت ذات مرة

مرتعدة خوفاً من رؤية المركوروكروم، تشتد صحة وقوة. كانت تبدو آنذاك وكأنها تزدهر بضعفه، لكأن زواجهما واحد من تلك الارتباطات الأسطورية التي تظهر فيها الجنية عاشقة ـ الرجال بمظهر الفتاة البريئة، لكنها بعد أن تغوي واحدهم وتقوده إلى فراشها، تستعيد شكلها الحقيقي المخيف ثم تشرع بالتهامه. . . . . لقد صار لجدتي في تلك الأيام شارب وافر تماماً كالشارب المتهدل بتأثير الغبار لابنها الوحيد المتبقي على قيد الحياة. وكانت تجلس متصالبة الرجلين على فراشها، تبلل شفتها بسائل غامض ويتجمد على الشعرات فتمسحه بحركة عنيفة حادة من يدها، غير أن العلاج لم يكن يجدي بل كان المرض يتفاقم ويتفاقم.

«لقد بات، ما اسمه، أشبه بالطفل» قالت الأم المبجلة لأولاد جدي «فقد أنهاه حنيف». كما نبهتنا إلى أنه بدأ يتخيل أشياء وأشياء. «إنه يخاطب أناساً غير موجودين» همست بصوت عال وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، صارّاً أسنانه «يا إلهي! كم يصرخ، ما اسمه، في منتصف الليل»، كذلك راحت تقلده «هـ. . يه. . تاي؟ أهو أنت؟». ثم أخبرتنا، نحن الأطفال، عن النوتي صاحب الزورق وعن الطنان وعن الراني كوش ناهين «المسكين عاش، ما اسمه، أكثر مما ينبغي. إذ لا يجوز لأب أن يرى ابنه يموت قبله». . . . . فهزت أمينة رأسها موافقة وهي تصغي، غير عارفة أن آدم عزيز سيخلف لها هذه التركة وأنها في أيامها الأخيرة، سترى أطياف ماض لا علاقة لها بالحاضر.

لم يكن باستطاعتنا استخدام مراوح السقف بسبب الغبار، لذا كان العرق يتصبب من وجه جدي المصدوم، تاركاً خيوطاً من الوحل على وجنتيه. وكان أحياناً يمسك بأقرب شخص إليه ثم يتكلم بوضوح تام «هؤلاء النهروات[١] لن تكتمل سعادتهم حتى ينصبوا أنفسهم ملوكاً ورائيين». أو يقول وهو يحملق بوجه الجنرال ذو الفقار المتضايق كثيراً «آه، يا لباكستان البائسة! كم يسيء حكامها لها»، لكنه في أحايين أخرى كان يبدو وكأنه يتخيل نفسه في مستودع

(١) جمع «نهرو».

الأحجار الكريمة فيغمغم. . . نعم يوجد زمرد وياقوت، فتهمس القردة في أذني «هل سيموت جدي»؟.

ما تسرب إلي من آدم عزيز: الضعف إزاء النساء، وسببه أيضاً، ذلك التجويف في وسطه ذاك الذي نجم عن عجزه (وكذلك عجزي) عن الإيمان أو الكفر بالله، علاوة على شيء آخر ـ شيء شاهدته، وأنا في الحادية عشرة، قبل أن يلحظه أي كائن آخر إذ كان جدي قد بدأ يتصدع.

«في الرأس؟» تسأل بادما «هل تعني في الطابق العلوي؟».

لقد قال النوتي تاي: «الجليد ينتظر دائماً، بابا آدم، تماماً تحت سطح الماء».

لقد رأيت الصدوع في عينه ـ أثراً دقيقاً لخطوط عديمة اللون على حدقته الزرقاء كما رأيت شبكة من التشققات تنتشر تحت جلده، فأجبت على سؤال القردة: «أجل، أظنه سيموت» وقبل انتهار فترة الأربعين بدأت بشرة جدي تتشقق، تتفلس، وتتقشر، كما بات من المتعذر عليه أن يفتح فمه لتناول الطعام، وذلك بسبب التشققات في زوايا شفتيه. كذلك بدأت أسنانه بالتساقط كذباب لفظ أنفاسه. لكن موت ـ الصدوع قد يكون بطيئاً، وقد مر زمن طويل قبل أن نعرف شيئاً عن الصدوع الأخرى، عن المرض الذي كان ينهش عظامه، إلى أن تفكك أخيراً هيكله العظمي، تحلل على شكل مسحوق داخل الكيس المتآكل بفعل العوامل الجوية، ذاك الكيس الذي يدعى جلده.

لكن بادما تبدو فجأة وقد تملكها الذعر: «ماذا تقول؟ أنت سيدي: أتقول إنك أيضاً. . . ما الشيء الذي لا يسمى والذي يمكن أن يلتهم عظام أي رجل؟ هل هو. . .».

لكن لا وقت لدينا للتوقف الآن. لا وقت للتعاطف أو الذعر، لقد تجاوزت النقطة التي كان علي أن أتجاوزها بالفعل. وعلي، بعد الرجوع قليلاً إلى الوراء، أن أذكر شيئاً آخر كان قد تسرب مني إلى آدم عزيز أيضاً، ذلك أنه في اليوم الثالث والعشرين للحداد، طلب أن تجتمع العائلة بكامل أفرادها في غرفة المزهريات البللورية نفسها (ولا ضرورة لإبعادها عن طريق خالي آنذاك)، غرفة المساند والمراوح المتوقفة، الغرفة نفسها التي أعلنت فيها عن

رؤاي ذات يوم. . . فقالت الأم المبجلة «لقد بات كالطفل» وكالطفل أعلن جدي أنه بعد ثلاثة أسابيع من سماعه بوفاة ابنه الذي يؤمن أنه ما زال حياً يرزق، شاهد بأم عينه الإله الذي حاول طيلة حياته أن يؤمن بعدم وجوده. وكالطفل لم يصدقه أحد، باستثناء شخص واحد. . . نعم. . «اسمعوا» قال جدي وفي صوته أثر من نبرته الجهورية القديمة «نعم، راني؟ أنت هنا؟ وعبد الله أيضاً؟ تعال، واجلس يا نادر، لكم عندي خبر ـ أين أحمد؟ علياء تريده هنا. . . الله يا أولادي، الله الذي حاربته طوال حياتي، أوسكار؟ إيلس؟ ـ لا، طبعاً، أنا أعلم أنهما ميتان. لعلكم تحسبونني عجوزاً، وربما خرفاً، لكنني رأيت الله». وتظهر القصة ببطء، رغم الهذر والانحرافات شيئاً فشيئاً كما يلي: في منتصف الليل أفاق جدي من نومه في غرفته المعتمة، فرأى شخصاً آخر هناك ـ شخصاً غير زوجته. فالأم المبجلة كانت تشخر في سريرها لكنه شخص ما، شخص عليه غبار ساطع، ينعكس عليه ضوء القمر الآفل، فصاح آدم عزيز «هيه؟ تاي؟ أهو أنت؟» فردت الأم المبجلة مغمغمة وهي لا تزال أسيرة الرقاد: «أوه! نم أيها الزوج، انس هذا. . .». لكن ذلك الشخص، ذلك الشيء، يصيح بصوت عال يبعث الرجفة في الأوصال (ترى هل بعث الرجفة): «يسوع المسيح كلي القوة، (ويضحك جدي وسط المزهريات البللورية المصقولة معتذراً. . وذلك لذكره مصطلحاً غير نصراني) يسوع كلي القوة». ثم ينظر جدي فيرى، نعم ثمة ثقوب في اليدين والقدمين، كما كانت ذات مرة في. . . لكنه يفرك عينيه ويهز رأسه قائلاً: «من؟ ما اسمك؟ ماذا قلت؟». فيرد الظهور، الراجف «الإله، الإله» ثم يستأنف بعد لأي: «ما كنت أحسب أنك ستراني».

«لكنني رأيته» يقول جدي وفوق رأسه المراوح المتوقفة «أجل، لا أنكر ذلك، رأيته بالتأكيد». . فيقول الظهور: «أنت من مات ابنه». فيرد جدي والألم يمزق صدره «لماذا؟ ماذا حدث؟». فيقول الكائن الذي جعله الغبار مرئياً «للإله أسبابه أيها الهرم، وهذه هي الحياة أليس كذلك؟».

لكن الأم المبجلة طردتنا جميعاً «العجوز، ما اسمه، لا يعلم ما يقول، شيء كهذا، لكأن الشعر الأشيب ينبغي أن يجعل المرء يجدف». لكن ماري

بيريرا غادرت ووجهها شاحب كملاءة السرير، ماري كانت تعلم من الذي رآه عزيز ـ ذاك الذي نخرته مسؤوليته عن جريمتها، من كانت في يديه وقدميه ثقوب، من خرقت عقبه أنياب أفعى، من مات في برج ساعة قريب، من كان يظن أنه إله.

لكن لعل من الأفضل أن أنهي قصة جدي هنا وفي هذه اللحظة، فقد مضيت بها بعيداً وربما لا تسنح الفرصة مرة أخرى. . . . ففي مكان ما، في أعماق خرف جدي، الذي ذكرني بصورة لا مناص منها بجنون البروفسور شابستكر في الطابق العلوي، كانت فكرة مريرة قد ضربت جذورها في ذهنه وهي أن الله يدينه، نتيجة موقفه الفظ تجاه انتحار حنيف، يثبت مسؤوليته عن ارتكاب الجريمة، فقد أمسك آدم بالجنرال ذو الفقار من بزته العسكرية وهمس في أذنه: «لقد سلبني ولدي لأنني لم أؤمن أبداً به» فرد ذو الفقار: «لا، لا، سيدي الدكتور، يجب ألا تضايق نفسك هكذا. . ». لكن آدم عزيز لم ينس رؤياه قط ورغم أن التفاصيل ذاتها للإله الذي رآه كانت قد اختلطت في ذهنه إلا أنها تركت خلفها رغبة مسعورة بالانتقام (وهي الرغبة المشتركة بيننا). . .

وهكذا رفض في نهاية الأربعين ـ الحداد، أن يذهب إلى الباكستان (طبقاً لما خططت له الأم المبجلة) وذلك لأن الباكستان بلاد أنشئت خصيصاً للإله، في السنين الباقية من حياته، غالباً ما كان يسبب لنفسه الخزي وذلك بأن تقوده قدماه الواهيتان إلى الجوامع والمعابد بعصا شيخوخته، متلفظاً باللعنات منقضاً على أي متعبد أو رجل دين تناله يداه. في آغرا، كان الناس يتحملونه كرمى للرجل الذي كانه ذات يوم، فشيوخ حانوت البان في شارع كورنواليس كانوا يلعبون لعبة إصابة المبصقة ويتذكرون بلوعة شديدة ماضي السيد الدكتور ولهذا السبب اضطرت الأم المبجلة للخضوع له لأسباب أخرى ـ فالتهجم على المقدسات الذي طغى في خرفه كان سيثير الفضائح في بلد لا يعرفه أحد.

لكن خلف تهوره وسورات غضبه، ظلت الدموع تنتشر وتمتد، كما ظل المرض يلتهم عظامه باطراد، في حين كانت الكراهية تأكل البقية الباقية منه،

لكنه لم يلفظ أنفاسه الأخيرة حتى عام ١٩٦٤، وقد حدث ذلك على هذا النحو. يوم الأربعاء في ٢٥ كانون الأول عام ١٩٦٣ أي يوم عيد الميلاد، أفاقت الأم المبجلة لتجد زوجها وقد ذهب. خرجت إلى ساحة بيتها بين الإوز المهسهس وظلال الفجر الشاحبة، ثم نادت أحد الخدم فقال لها هذا إن السيد خرج بالعربة إلى محطة القطار. وحين وصلت إلى المحطة، كان القطار قد رحل. بهذه الطريقة بدأ جدي، مستجيباً لدافع مجهول، رحلته الأخيرة، كما تمكن من وضع نهاية لقصته حيث بدأت (وكذلك قصتي)، في مدينة تقوم على شاطئ بحيرة وتحيط بها الجبال.

كان الوادي الذي تغطيه طبقة من الجليد يمتد إلى البعيد البعيد، وكانت الجبال قد أطبقت، متشابكة كفكين غاضبين، على المدينة القائمة على البحيرة.. إنه الشتاء في سريناغار، الشتاء في كشمير وفي يوم الجمعة، السابع والعشرين من كانون الأول، أجاب رجل وصفوا له جدي بأنه شاهده يلبس معطفاً جلدياً ويهذي بجوار مسجد هرزتبال، لكن في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح يوم السبت لاحظ الحاج محمد خليل غناء من المعتزل الداخلي للجامع، سرقة ذلك الأثر المقدس الأثمن من كنوز الأرض: شعرة النبي محمد، فهل هو الذي فعل ذلك يا ترى؟ أم لا؟ إن كان هو الفاعل، فلماذا لم يدخل الجامع والعصا في يده، لإفساد صلاة المؤمنين كما كان يفعل عادة؟ وإن لم يكن هو، إذاً لماذا؟ فقد سرت إشاعات عن خطة لدى الحكومة المركزية لـ «تحقير مسلمي كشمير» وذلك بسرقة شعرتهم المقدسة، كما كانت هناك إشاعات مضادة عن عملاء مخربين من الباكستان، يفترض أنهم هم الذي سرقوا الأثر المقدس لإثارة البلابل... فهل هم الذين فعلوا ذلك؟ أم ليسوا هم؟ هل كانت تلك الحادثة الغريبة سياسية حقاً أم محاولة عقابية الغرض منها الانتقام من الإله، محاولة قام بها أب فقد ابنه؟ لكن طوال عشرة أيام، لم يطبخ طعام في بيت مسلم، بل اشتعلت الاضطرابات وحدثت أعمال حرق للسيارات، لكن جدي كان فوق السياسة في ذلك الحين ولم يعرف أحد إن كان قد شارك في أي موكب من المواكب. كان رجلاً ذا مهمة وحيدة. كل ما هو معروف أنه في اليوم الأول

من كانون الثاني عام ١٩٦٤ (وكان يوم أربعاء أي بعد انقضاء أسبوع كامل على رحيله من آغرا) ألقى بوجهه على التلة التي كان المسلمون يدعونها خطأ «كرسي سليمان» والتي كانت تنتصب في أعلاها سارية الإذاعة، وكذلك الكتلة السوداء التي يشكلها معبد آشاريا سنكارا. لقد تسلق جدي، وهو يجهل كل ما يتعلق بنكبة المدينة، تلك التلة، بينما كان مرض التشقق داخله ينهش عظامه، ولم يعد في الإمكان تمييزه.

وهكذا قضى الدكتور آدم عزيز (خريج هايدلبرغ) نحبه قبل خمسة أيام من إعلان الحكومة أن بحثها المكثف عن شعرة النبي قد تكلل بالنجاح. وحين اجتمع كبار رجال الدين في الولاية للقبول بالشعرة أو رفضها كان جدي قد بات عاجزاً عن قول الحقيقة لهم (إن كانوا على خطأ.. لكنني لن أجيب عن أسئلة سألتها). لقد تم القبض على رجل لارتكابه تلك الجريمة الشنعاء - ثم أطلق سراحه لاعتلال صحته - رجل يدعى عبد الرحيم بانده، لكن ربما كان باستطاعة جدي، لو كان على قيد الحياة، أن يلقي ضوءاً أشد غرابة على القضية...

مع ظهيرة الأول من كانون الثاني، وصل آدم عزيز إلى مقربة من معبد سنكارا آشاريا. ثم شوهد يرفع عصاه. وفي داخل المعبد، كانت نسوة يؤدين طقوس البوجا للإله شيفا، فانكمشن متراجعات مثلما تراجعت ذات مرة نسوة إزاء غضب طبيب آخر مهووس برباعيات الأرجل، وعند ذاك فعلت الصدوع فعلها فتداعت ساقاه تحته بسبب تفكك عظامه، وقد نجم عن سقوطه تهشم بقية هيكله العظمي دون أن يكون ثمة أمل بإصلاحها. لقد تم تمييز شخصيته بفضل الأوراق الموجودة في جيب معطفه، حيث كانت هناك صورة لابنه، ورسالة غير مكتملة (إنما تحمل العنوان الصحيح، لحسن الحظ) موجهة إلى زوجته. بعدئذ دفن الجثمان، الذي كان أكثر هشاشة من أن ينقل، في الوادي الذي كان مسقط رأسه.

إنني أرقب بادما، أرى عضلاتها تلتف بنوع من الذهول فأقول لها: «تأملي هذا. ليت شعري هل ترين ما حدث لجدي غريباً إلى هذا الحد؟ قارني ذلك بالضجة الهائلة التي ثارت حول سرقة شعرة، ذلك أن كل ما

ذكرته عن هذا الشيء الأخير صحيح تماماً، وبالمقارنة فإن موت رجل عجوز أمر عادي تماماً». آنذاك تسترخي أعصاب بادما، تعطيني عضلاتها الأمر بالمضي قدماً. لقد أضعت الكثير من الوقت على آدم عزيز، ربما لأنني خائف مما ينبغي أن أرويه فالظهور لا مجال لنكرانه.

حقيقة أخيرة: بعد وفاة جدي، وقع جواهر لال نهرو مريضاً ولم يتماثل للشفاء بعدها قط، إذ أودى به مرض عضال، في اليوم السابع والعشرين من أيار، عام ١٩٦٤.

لو لم يكن مطلوباً مني أن أكون بطلاً، لما كان السيد زاغالو قد نتف شعري إذ لو ظل شعري سليماً لما عيرني غلاندي كيث وبيرس البدين، وبالتالي لما قادتني ماشا مايوفيك لفقدان إصبعي. فمن إصبعي تدفق الدم الذي لم يكن من زمرة «آ» ولا زمرة «أو»، الدم الذي بعث بي إلى المنفى. وفي المنفى تشبعت برغبة الانتقام التي أدت إلى مقتل هومي كاتراك. ولولا مقتل هومي، ربما لم يلقِ خالي بنفسه من سطح بنايته إلى أنسام البحر العليلة وبالتالي ما كان جدي سيذهب إلى كشمير كي تحطمه محاولته تسلق جبل سنكارا آشاريا، وبما أن جدي هو مؤسس عائلتي، وبما أن قدري مرتبط، نتيجة مولدي، بقدر الأمة وبما أن أبا الأمة هو نهرو، إذاً كيف يمكنني تجنب القول إن موت نهرو أيضاً، كان بسبب خطأي أنا؟

لكن دعونا نعد الآن إلى عام ١٩٥٨. ذلك أنه في اليوم السابع والثلاثين من فترة الحداد، ظهرت الحقيقة التي كانت تدب على ماري بيريرا ـ وبالتالي علي ـ طوال أحد عشر عاماً ظهرت إلى العيان أخيراً، الحقيقة بهيئة رجل عجوز عجوز، رجل كانت رائحته الجهنمية تنفذ حتى إلى خيشومي المسدودين، رجل كان جسمه يفتقر لأصابع القدمين واليدين، تغطيه البثور والتجاويف، رجل صعد رابيتنا ذات الدورين وظهر عبر سحابة الغبار لتراه ماري بيريرا التي كانت تنظف الستائر الخارجية في الشرفة.

هنا إذاً، كان كابوس ماري سيتحقق، هنا كان شبح يوسف ديكوستا، المترائي عبر سحابة الغبار، يمشي باتجاه مكتب أحمد سيناء الواقع في الطابق الأرضي، وكأنه لم يكن كافياً أن يظهر لآدم عزيز وحده. «.. هيه.. يوسف»

صرخت ماري، وقد سقطت الممسحة من يدها «ابتعد الآن، لا تدخل هذا المكان الآن، لا تزعج السادة بمشاكلك؟ أوه، يا إلهي، اذهب، اذهب الآن، سوف تقتلني اليوم». لكن الشبح تابع انحداره إلى ممر السيارات.

وهكذا تندفع ماري بيربيرا، وقد تخلت عن الستائر الخارجية إلى قلب المنزل ملقية بنفسها عند قدمي أمي ـ وقد ضمت يديها السمينتين الصغيرتين متوسلة ـ «سيدتي البيجوم سيدتي البيجوم، سامحيني». فترد أمي مندهشة: «ما الأمر يا ماري؟ ماذا دهاك؟». لكن ماري في عالم يتجاوز الحوار، ماري تنتحب على نحو لا يمكن التحكم به ثم تصرخ: «أوه! يا إلهي، لقد حان حيني، سيدتي الغالية، دعيني فقط أمضي بسلام، لا تضعيني في السجن». ثم تستأنف: «أحد عشر عاماً يا سيدتي، ترى ألم أحبكم جميعاً، يا مدام؟ ألم أحب ذلك الغلام ذا وجه القمر، لكنني الآن هالكة، أنا امرأة غير صالحة، سأحترق في الجحيم. لقد انتهيت!»، صرخت ماري ثم كررتها ثانية: «لقد انتهيت...».

غير أنني كنت ما أزال عاجزاً عن تخمين ما يجري، وكذلك ظللت حين ألقت ماري بنفسها علي، (أنا الذي بت أطول منها، فبللت دموعها عنقي)، وهي تنتحب قائلة: «أوه يا صغيري يا صغيري، الآن عليك أن تعرف شيئاً، شيئاً فعلته أنا، لكن تعال، هيا..». وعلى نحو مفاجئ تماسكت المرأة الصغيرة وعليها هيئة السمو الشديد.. «سوف أخبركم قبل أن يفعل يوسف ذلك. سيدتي أيها الأطفال، أنتم جميعاً أيها السادة والسيدات الكبار، هلموا بنا إلى مكتب السيد ولسوف أحكي لكم كل شيء».

الإعلانات الرسمية شكلت فواصل دائمة في حياتي: أمينة في زقاق دلهي وماري في مكتب لا تدخله الشمس... لقد هبطت الدرج مع ماري بيربيرا وأسرتي كلها تنسرب خلفنا منذهلة تماماً أما ماري فلم تكن لتترك يدي بأي شكل.

ماذا جرى في غرفة أحمد سيناء؟ ما الذي أعطى والدي ذلك الوجه الذي طرد منه الجن والمال وحل محله نظرة من الذهول المطلق؟ ما الذي كان يجثم متكوماً في ركن الغرفة، مالئاً الهواء برائحته النتنة؟ ما الذي يشبه

الإنسان والذي كان يفتقر لأصابع القدمين واليدين وكان وجهه يبدو وكأنه يبقبق كينابيع المياه الكبريتية في نيوزيلاندا (تلك التي شاهدتها في كتاب أعجوبة العجائب). . . لكن لا وقت للشرح، ذلك أن ماري بيريرا كانت قد شرعت بالكلام، بائحة بسر ظل مكتوماً أحد عشر عاماً ونيف ـ ساحبة إيانا جميعاً من عالم ـ الحلم الذي صنعته حين أبدلت بطاقتي ـ أسماء، دافعة إيانا إلى قلب الحقيقة المرعبة. وطوال الوقت ظلت ممسكة بي. طوال الوقت كانت مثل أم تحمي وليدها، تقف بيني وبين أفراد عائلتي (الذين كانوا يسمعون كما كنت أسمع. . أنهم ليسوا بعا. . .)

. . « حدث ذلك بعد منتصف الليل تماماً، حين كانت الشوارع تغص بالناس والألعاب النارية، حين كان الوحش ذو الرؤوس المتعددة يهدر، وقد فعلت ذلك من أجل يوسفي، يا سيدي لكن أرجوك، لا ترسلني إلى السجن، خطأ واحد، دقيقة واحدة من سنين كثيرة كثيرة، أنا امرأة فقيرة، لكن سوف أذهب، أحد عشر عاماً في خدمتكم لكنني سأذهب الآن يا سيدي، إنما هذا ولد طيب يا سيدي، يجب ألا تطردوه، يا سيدي، فبعد أحد عشر عاماً بات ابنكم. . . أوه، أنت أيها الغلام يا ذا الوجه الأشبه بالشمس الطالعة، سليم يا فلقة القمر يجب أن تعرف أن أباك هو وينكي وأمك تلك التي قضت نحبها. . . ».

ثم فرت ماري بيريرا خارجة من الغرفة.

فقال أحمد سيناء بصوت ناء كصوت طائر: «ذلك المتكوم في الركن، هو خادمي القديم موسى، ذاك الذي حاول مرة أن يسرقني». (ترى هل يمكن لأية قصة أن تتحمل مثل هذا القدر من الأحداث ومثل هذه السرعة؟ وأتطلع إلى بادما فتبدو منذهلة مشدوهة كسمكة).

كان يا ما كان، في قديم الزمان، كان هناك خادم سرق أبي وأقسم إنه بريء، خادم أنزل على نفسه لعنة الجذام إن ثبت كذبه. ثم ثبت كذبه، فرحل مجللاً بالعار، لكنني قلت لكم إنه قنبلة موقوتة وإنه سيعود لينفجر. كان موسى، بالحقيقة، قد أصيب بالجذام، وعاد عبر صمت السنين راجياً الغفران من والدي علّه يتخلص من اللعنة التي أوقعها بنفسه.

أحدهم رأى فيه الإله ولم يكن بالإله، شخص آخر رآه شبحاً ولم يكن شبحاً، وثالث اكتشف، رغم أن اسمه كان سليم سيناء، أنه ليس بابن سيناء.

«إنني أغفر لك» قال أحمد سيناء للمصاب بالجذام فبرئ بعد ذلك اليوم من أحد هواجسه، إذ لم يحاول بعد ذلك أن يكتشف لعنة عائلته الخاصة (تلك اللعنة الوهمية تماماً).

«لم يكن باستطاعتي أن أرويها بطريقة أخرى» أقول لبادما «فالقصة مؤلمة للغاية، وقد كان علي أن أرويها بكل ما تبدو عليه من جنون وعلى ذلك النحو تماماً».

«أوه، سيدي»، تقول بادما وهي تنتحب يائسة: «أه، سيدي، سيدي»؛ فأرد «أوه كفي الآن، فهي قصة قديمة».

غير أن دموعها لا تنهمر من أجلي، لقد نسيت في تلك اللحظة كل ما يتعلق بذاك الذي ينهش العظام تحت الجلد، إنها تبكي ماري بيريرا التي باتت، كما سبق وذكرت، مولعة بها كل الولع. «ماذا حدث لها»؟ تسأل وقد احمرت مقلتاها من البكاء «ماري تلك».

فأصرخ وقد تملكني غضب لا معقول: «اسأليها أنت».

اسأليها كيف عادت إلى مسقط رأسها في مدينة بانجيم في غوا، كيف روت لأمها العجوز قصة خزيها، اسأليها كيف أطارت الفضيحة صواب أمها (وبصورة مناسبة تماماً: فذلك هو الوقت الذي كان الطاعنون في السن يفقدون فيه صوابهم) اسألي، هل انطلقت الأم وابنتها إلى الشوارع تسعيان في طلب المغفرة؟ ألم يكن ذلك هو الوقت الذي رفع فيه جثمان القديس فرانسيس زافير المحنط، كما هي العادة كل عشر سنوات، من ضريحه في كاتدرائية يسوع المسيح ليدور به الناس في المدينة؟ هل وجدت ماري وأمها الخرفة نفسيهما تنهاران بجانب النعش وتتوسلان؟ ألم تذهل السيدة العجوز عن نفسها حزناً لجريمة ابنتها؟ هل ولولت العجوز وانتحبت؟ هل حاولت الصعود إلى التابوت كي تقبل قدم القديس؟ هل دخلت السيدة العجوز وسط الحشود التي لا عدّ لها ولا حصر، في نوبة مسعورة مقدسة؟ اسألي، هل قامت أم لم تقم، إثر نوبة عنف مجنونة، بإطباق شفتيها حول الإبهام الكبير

لقدم القديس فرانسيس اليسرى؟ واسألي بنفسك ألم تنتزع أم ماري، بعضتها تلك، إبهام القدم كلياً؟

«كيف؟» تولول بادما وقد أضعف من عزيمتها غضبي «كيف اسأل؟».

. . . وهذا صحيح أيضاً: لكن هل أكملت الصحف الخبر حين كتبت أن عقاباً عجيباً نزل بالسيدة العجوز إذ تحولت، بناء على ما ذكرته مصادر كنسية وشهود عيان، إلى حجر صلب؟ كلا؟ اسأليها: أليس صحيحاً أن الكنيسة بعثت بتمثال العجوز الحجري إلى مدن وقرى غوا، ليكون عبرة لم يحل بأولئك الذين يسيئون التصرف مع القديسين؟ اسألي: ألم يشاهد الناس ذلك التمثال في عدة قرى وفي وقت واحد ـ وهل يبرهن ذلك عن زيفه أم عن كونه أعجوبة أخرى؟

فتقول بادما: «أنت تعلم أنه ليس بمستطاعي أن أسأل أحداً. . ».

لكنني، وأنا أشعر بسورة غضبي تهدأ، لن أقوم هذه الليلة بالكشف عن ظهورات أخرى.

إذاً بصراحة: لقد رحلت عنا ماري بيرييرا، ذهبت إلى أمها في غوا، لكن أليس بيرييرا ظلت في مكتب أحمد سيناء تطبع له الكتب على الآلة الكاتبة، وتعد الوجبات الخفيفة وكؤوس الشراب.

أما أنا ـ فقد دخلت، بانتهاء فترة الحداد على خالي حنيف، منفاي الثاني.

تحركات تقوم بها مباهر

لقد اضطررت لأن أتوصل إلى نتيجة محددة هي: أنه بات من المستحيل قبول شيفا، منافسي وبديلي، في منتداي الذهني، لأسباب أعترف بأنها خسيسة. فقد خشيت أن يكتشف السر الذي كنت واثقاً من أنني لن أستطيع إخفاءه طويلاً ـ سر مولدنا. فشيفا الذي كان العالم في نظره أشياء مادية لا غير، والذي لم يكن بالإمكان تفسير التاريخ له إلا على أنه صراع مستمر بين الفرد والجماعة، شيفا هذا سيصر بالتأكيد على المطالبة بحق مولده، ولشدة ذعري من أن يحل خصمي ذو الركبتين العجراوين محلي في غرفة طفولتي الزرقاء، بينما أرغم أنا على الخروج كئيباً نادماً من الرابية ذات الدورين والولوج في عالم الأحياء الشمالية الفقيرة، فقد رفضت أن أقبل أن المقصود بنبوءة رامرام سيث إنما هو شيفا ابن وينكي، وأن رسالة رئيس الوزراء إنما كانت موجهة له، وأن صيادي السمك إنما كانوا يشيرون إلى شيفا نحو البحر. . قصارى القول إنني أعطيت لبنوتي طوال أحد عشر عاماً قيمة أعلى بكثير من قيمة الدم المحض، كما صممت على أن ذاتي الأخرى، تلك الذات العنيفة المدمرة، ينبغي ألا تدخل جلسات مؤتمر أطفال منتصف الليل، تلك الجلسات المتزايدة النكد والمشاكسة، وأنني سأحمي سري ـ ذاك الذي كان في الماضي سر ماري ـ بكل ما أستطيع من جهد.

في ذلك الحين مرت ليالٍ، تجنبت فيها عقد المؤتمر أصلاً ـ ليس بسبب التحول غير المرضي الذي أتخذه، بل، بكل بساطة، لأنني كنت أعلم أنه لا بد لي من بعض الوقت وبرودة الدم لكي أقيم حاجزاً حول معلوماتي

الجديدة، حاجزاً يحول دون إفشائها للأطفال، وأخيراً كنت على ثقة من أنني سأتدبر الأمر.. لكنني كنت خائفاً من شيفا. إذ كان باستطاعته، وهو أقوى وأشرس الأطفال، أن ينفذ حيث لا يستطيع الآخرون ذلك.. على أية حال، تجنبت زملائي الأطفال، ثم اكتشفت فجأة أن الأوان قد فات، فقد وجدت نفسي، بعد نفيي لشيفا ملقى في منفى يحول بيني وبين الاتصال بزملائي الذين كان عددهم يفوق الخمسمائة. لقد قذفت عبر الحدود التي اصطنعها التقسيم إلى الباكستان.

ففي أواخر أيلول من عام ١٩٥٨ انتهت فترة الحداد على خالي حنيف، وبفضل زخة مطر رحمانية عجيبة، حطت على الأرض سحابة الغبار التي كانت تغلفنا. وهكذا استحممنا وارتدينا ملابسنا المغسولة حديثاً ثم خرجنا من غرف النوم، ننعم بالتفاؤل الوهمي الذي ينجم عن النظافة التي تفوح برائحة الصابون الندي وحينذاك رأينا أمامنا أحمد سيناء، المغبر المتسخ، في يده زجاجة الويسكي وفي عينيه برك الدم بينما يتأرجح صاعداً من مكتبه إلى الطابق العلوي وكأنما أصابه مس من جنون. ففي عالمه الخاص، عالم المجردات، كان يتصارع مع الحقائق التي يصعب التفكير فيها والتي كانت قد أطلقت لها العنان ظهورات ماري وتهيؤاتها، وبسبب الكحول المهيج كانت تسيطر عليه سورة غضب لا توصف، سورة غضب ليست منصبة على ماري التي رحلت ولا على الطفل المستبدل أمامه، بل على أمي، على أمينة سيناء، كما ينبغي أن أقول. ولعلمه أن عليه أن يستميحها المغفرة ولم يفعل، فقد ظل أحمد يقرعها ساعات من الزمن على مسمع كل فرد من أفراد عائلتها المذهولة لشدة الصدمة، غير أنني لن أكرر ما أطلق عليها من أسماء. لن أذكر طرق العمل التي أوصاها بأن تسلكها في حياتها، وقد استمر كذلك إلى أن تدخلت الأم المبجلة في النهاية.

فقد قالت متجاهلة هذيان أحمد المستمر «في الماضي يا بنتي قلنا أنا ووالدك، أن لا عيب في أن تتركي، ما اسمه، زوجاً غير صالح، والآن أقول مرة ثانية: لديك، ما اسمه، زوج سيئ إلى حد لا يمكن وصفه. فذريه. دعيه اليوم وابتعدي، ما اسمه، بطفليك عن تلك اللعنات التي يبصقها، ما

اسمه، من شفتيه كقذارة المجارير، خذي، ما اسمه، طفليك ـ أقول لك خذيهما كلاهما»، قالت وهي تشدني إلى صدرها. وهكذا ما إن أضفت الأم المبجلة صفة الشرعية علي، حتى لم يعد هناك من يعارضها. بل يخيل إلي الآن وأنا أرجع عبر تلك السنين، أن والدي نفسه، ذاك الذي كان يلعن ويسب، قد تأثر بوقوفها إلى جانب ذلك الطفل ذي الأنف الكبير والسنوات الإحدى عشرة.

لقد أنهت الأم المبجلة كل شيء، وكانت أمي أشبه بالمعجون، أشبه بغضار الفخار، بين يديها الجبارتين. في ذلك الحين كانت جدتي (وينبغي أن استمر في تسميتها بذلك الاسم) لا تزال تعتقد أنها وآدم عزيز سيهاجران قريباً إلى الباكستان، لذلك أعطت تعليماتها إلى خالتي أميرالدا في أن تأخذنا جميعاً معها أمينة، القردة، وأنا نفسي، بل وحتى الخالة بيا بانتظار قدومها. «الأخوات، ما اسمه، ينبغي أن يرعين أخواتهن» قالت الأم المبجلة «في أوقات الشدة».

وبدت خالتي أميرالدا منزعجة كلياً، لكن رغم ذلك أبدت هي وذو الفقار الطاعة. وبما أن أبي كان في نوبة جنون جعلتنا نخشى على سلامتنا ذاتها وكان آل ذو الفقار قد حجزوا لأنفسهم مسبقاً أماكن في إحدى السفن التي كانت ستبحر في تلك الليلة، فقد غادرت المنزل الذي قضيت فيه عمري في ذلك اليوم، تاركاً أحمد سيناء ولا أحد حوله سوى أليس بيريرا، ذلك أنه حين تركت أمي زوجها الثاني رحل معها جميع الخدم أيضاً.

في الباكستان، بلغت المرحلة الثانية من نموي السريع نهايتها. وفي الباكستان اكتشفت أن وجود حدود فاصلة «حجب» بشكل من الأشكال، إرسالي الذهني إلى الأطفال الذي يزيد عددهم على الخمسمائة، بحيث أنني وقد حرمت مرة أخرى من مسقط رأسي، كنت قد حرمت أيضاً من الهبة التي كانت أحق حق لمولدي، هبة أطفال منتصف الليل.

من مرفأ ران كوتش أبحرنا عصر يوم شديد الحر إلى حد كنت أشعر بأن الحر يطن في أذني اليسرى المعطوبة ورغم ذلك اخترت البقاء على متن السفينة أراقب زوارق التجذيف الصغيرة المشؤومة على نحو غامض وقوارب

النوتيين وهي تقوم بخدمات النقل بين سفينتنا والمرفأ ناقلة أشياء مغطاة بالخيش ذهاباً وإياباً، إياباً وذهاباً. وتحت سطح السفينة كان الكبار يلعبون لعبة ترتيب المقصورات، ولم يكن لي أدنى فكرة عن مكان وجودة القردة. لقد كانت المرة الأولى التي أمتطي فيها ظهر سفينة حقيقية (فالزيارات التي كنا نقوم بها أحياناً، إلى سفن البحرية الأمريكية في مرفأ بومباي لا يمكن أخذها بالحسبان، أولاً لأنها كانت مجرد سياحة، ثانياً لأنه كان هناك دائماً عشرات السيدات الموشكات على الوضع واللواتي كن يأتين مع مجموعات السياحة هذه أملاً في أن يبدأن عملية الولادة وينجبن أطفالاً يكسبون، بسبب مولدهم على سفن أمريكية، الجنسية الأمريكية، فانظر كم في ذلك من إزعاج)! وعبر سديم ـ الحر كنت أحدق النظر إلى الران، الران كوتش... فقد كنت دائماً أعتقد أنه اسم سحري وكنت أتوق دائماً، يخالط توقي الخوف، لأن أزور المكان، تلك المنطقة الحرباوية التي تجدها نصف السنة براً ونصف السنة الآخر بحراً، حيث كما يقال، يمكن أن يخلف المحيط وراءه كل أصناف المتروكات الخرافية، كصناديق الكنوز مثلاً، والسمك الهلامي الشبحي الأبيض بل وحتى غرانق الماء[1] أحياناً وهو يلفظ آخر أنفاسه. ولأنني كنت أنظر للمرة الأولى، إلى تلك الأرض البرمائية، ذلك المستنقع الكابوسي، فقد شعرت بشيء من الاضطراب، بيد أن شدة الحر والحوادث الأخيرة كانت تثقل كاهلي. فشفتي العليا كانت لا تزال مبللة، وعلى نحو طفولي، بسوائله الأنفية، وكان يعصرني شعور بأنني أنتقل من طفولة ممطوطة مطولة انتقالاً مباشراً إلى شيخوخة سابقة لأوانها. كان صوتي قد تضخم، وكنت ملزماً بأن أبدأ حلاقة ذقني، وكان وجهي قد تغطى ببقع الدم حيث كانت موسى الحلاقة قد أطارت رؤوس الحبيبات.. مر بي خازن السفينة فقال: «خير لك أن تنزل إلى الأسفل يا بني، فهذا هو أشد الأوقات حراً». سألته عن قوارب النقل فأجاب «إنه التموين» ثم ابتعد فبقيت بعده أتأمل المستقبل الذي لم يكن فيه سوى القليل مما يمكن التطلع إليه باستثناء ضيافة الجنرال ذو الفقار المغيظ

(١) مخلوق خرافي له جسد رجل وذيل سمكة.

واعتزاز خالتي أميرالدا الراضية عن نفسها والتي ستستمتع ولا شك باستعراض نجاحاتها الدنيوية وموقعها الاجتماعي على أختها التعيسة وزوجة أخيها المحرومة، وكذلك غرور ابنهما، ظافر ذي الرأس الفارغ. . . «باكستان» قلت بصوت عال «أية نفاية أنت!» ولم نكن قد وصلنا الباكستان حتى. . . كنت أتطلع إلى الزوارق التي كانت تبدو لي وكأنها تسبح في السديم الذي يصيب بالدوار. وكان متن السفينة يبدو وكأنه يتمايل تمايلاً شديداً رغم انعدام الريح. ورغم أنني حاولت الإمساك بقضبان الحاجز، إلا أن الألواح كانت أسرع مني، وهكذا اندفعت نحو الأعلى وصدمت أنفي.

تلك هي الكيفية التي جئت بها إلى الباكستان مع ضربة شمس خفيفة إضافة إلى خواء يدي ومعرفتي بحقيقة مولدي، لكن ما تراه كان اسم السفينة؟ ما هما تانك السفينتان التوأمان اللتان كانتا لا تزالان تبحران بين كراتشي وبومباي في تلك الأيام وقبل أن تلغي السياسة رحلاتهما؟ كان اسم سفينتنا س. س. سبرماتي أما أختها التي عبرت بنا تماماً قبل أن نصل إلى مرفأ كراتشي فقد كان اسمها سرسفاني. لقد أبحرنا إلى المنفى على ظهر سفينة تحمل اسم جارنا القائد البحري، مما يثبت مرة أخرى أن لا مفر من العود الأبدي.

بعدئذ وصلنا راولبندي بقطار مغبر شديد الحرارة. (إذ سافر الجنرال وأميرالدا بعربة مكيفة بينما اشتريا لنا بطاقات عادية) لكن حين وصلنا راولبندي كان الجو بارداً.

وهكذا وطئت قدماي لأول مرة أرض مدينة الشمال. . وإنني لأتذكرها: مدينة منخفضة السقوف مغفلة الاسم، ثكنات عسكرية وحوانيت فواكه، ملابس رياضية، سلعاً، بضائع ورجالاً عسكريين طوالاً في الشارع، سيارات جيب وحفّاري أثاث وميادين بولو. مدينة يحتمل أن يكون الجو فيها بارداً جداً جداً. هناك نزلنا في مسكن جديد غالي الثمن، مسكن واسع محاط بسور عال في أعلاه أسلاك شائكة وحوله حراس يتجولون: إنه منزل الجنرال ذو الفقار وكان ثمة حمام بجوار السرير المزدوج الذي كان ينام فيه الجنرال ذو الفقار وكان ثمة حمام بجوار السرير المزدوج الذي كان ينام فيه وقد سرت

في المنزل العبارة المضللة «دعونا نطبق النظام». وهكذا ألبس الخدم سترات وقبعات عسكرية خضراً، وفي الأماسي كانت روائح القنب وأزهار التشارا[١] تفوح من جهاتهم.

كان الأثاث غالياً وجميلاً إلى حد الإدهاش، ولم يكن باستطاعة أحد أن يشك بذوق أميرالدا لكنه كان منزلاً كئيباً خالياً من الحياة، بكل ما فيه من أجواء عسكرية. إذ حتى السمك المذهب الموضوع في صندوق ضمن جدران غرفة الطعام كان يبدو وكأنه يطلق فقاعاته دون رغبة، ولعل الساكن الأشد أهمية في ذلك المنزل لم يكن بشرياً حتى. فاسمح لي، للحظة من الزمن أن أصف كلب الجنرال المدعو بونزو، بل عفواً: كلبة الجنرال البيجل[٢] المسنة.

فتلك المخلوقة العجوز المصابة بتضخم الغدة الدرقية كانت عاطلة، عديمة الفائدة طيلة حياتها، لكن حين كنت في طريقي إلى الشفاء من ضربة الشمس، أثارت تلك الكلبة الضجة الأولى في إقامتنا ـ عرضت بعضاً من فيلم فيه مشاهد من «ثورة المباهر». فذات يوم أخذها الجنرال ذو الفقار إلى معسكر التدريب، حيث كان عليه أن يراقب فريقاً من كاشفي الألغام وهم يعملون في حقل ألغام معدّ خصيصاً لهذا الغرض. (فالجنرال كان تواقاً لأن يلغم الحدود الباكستانية الهندية كلها. إذ يقول «دعونا نطبق النظام. دعونا نقدم لأولئك الهندوس شيئاً يقلقهم، لسوف نمزق من يغزو هذه الحدود إرباً إرباً بحيث لا يبقى منه شيء يمكنه أن يتقمص مرة ثانية» لكنه مع ذلك لم يكن معنياً كثيراً بحدود الباكستان الشرقية، منطلقاً من وجهة نظر مفادها «أولئك السود الملعونون يمكنهم أن يعتنوا بأنفسهم»)... آنذاك أفلتت بونزو من رسنها، وبشكل ما زاغت من أيدي الجنود الذين حاولوا الإمساك بها وانطلقت تخوض في حقل الألغام.

هلع شديد، الجنود كاشفو الألغام يشقون طريقهم بحركة بطيئة مسعورة

(١) من نباتات المياه العذبة طيب الرائحة.

(٢) كلب صيد صغير القوائم ناعم الوبر.

عبر منطقة المتفجرات، أما الجنرال ذو الفقار وضباط الجيش الآخرون فيركضون بحثاً عن مأوى بعيد عن مكان وقوفهم، بانتظار الانفجار. . . لكن لا انفجار. وحين يختلس الضباط القادة، زهرة جيش الباكستان، النظر من وراء براميل القمامة أو من خلف المقاعد، يرون بونزو وهي تشق طريقها بكل رفعة وشمم عبر الحقل المزروع ببذور الموت، يرون بونزو وهي تتشمم بأنفها الأرض، تسير بلا مبالاة، وهي في أشد حالات الراحة، ويقذف الجنرال ذو الفقار بقبعته المدببة في الجو ثم يصرخ بصوت رقيق منعصر ما بين أنفه وذقنه «يا للاعجوبة! بإمكان الكلبة العجوز أن تشم رائحة الألغام»، وهكذا جندت بونزو في القوات المسلحة بوصفها كاشفة ألغام ذات أربع قوائم وبرتبة رقيب أول فخري.

إنني أذكر إنجاز بونزو هذا لأنه أعطى الجنرال العصا التي يضربنا بها. فنحن آل سيناء ـ وبيا عزيز ـ كنا أفراداً عاجزين غير منتجين في بيت ذو الفقار ولم يكن الجنرال يريدنا أن ننسى ذلك فقد سمعه أحدهم يغمغم: «حتى كلبة بيجل لعينة عمرها مائة عام يمكنها أن تكسب رزقها بنفسها وبيتي مليء بأناس لا يمكنهم تطبيق النظام بأي شكل». لكن قبل أن ينتهي تشرين الأول سيكون ذو الفقار ممتناً لوجودي (على الأقل). . . كما أن تحول القردة لم يكن بعيداً جداً.

ذهبنا إلى المدرسة مع قريبنا ظافر الذي بدا أقل تلهفاً للزواج بأختي بعد أن بتنا أولاد بيت محطم. لكن فعلته الشنيعة جاءت ذات يوم من أيام العطلة الأسبوعية حين أخذونا إلى بيت الجنرال الجبلي الواقع في ناثيا غالي خلف منطقة موري. كنت يومها في حالة من الهيجان التام (إذ كانوا قد أعلنوا لتوهم أنني شفيت من مرضي): جبال، احتمال رؤية فهود، هواء بارد لاذع، بحيث إنني لم أفكر بالأمر حين سألني الجنرال إن كنت لا أبالي بمشاركة ظافر فراشه، بل لم أخمن حتى مجرد تخمين حين نشروا الملاءة المطاطية على الفراش. . . لكنني في بواكير الصباح أفقت لأجد نفسي في بركة كبيرة لاذعة الرائحة من سائل دافئ فبدأت أصيح: «شيء فظيع، شيء فظيع»، وفي الحالة ظهر الجنرال بجانب سريرنا وراح يضرب الصبي موقظاً إياه. «بت رجلاً كبيراً

وما زلت تبول يا للجحيم! انهض ورتب نفسك، يا من لا تصلح لشيء، ترى من يتصرف بهذه الطريقة البغيضة؟ إنهم الجبناء، الجبناء وحدهم من يتصرفون كذلك. اللعنة علي إن لم أكن قد أنجبت ابناً جباناً»... غير أن تبول قريبي اللاإرادي استمر ليكون وصمة عار في جبين أسرته. ورغم الضرب والجلد، فقد كان السائل يسيل على ساقيه، بل إنه سال ذات يوم وهو مستيقظ. على أن ذلك حدث بعد حركات معينة أدتها، بمساعدتي، بعض المباهر لتثبت لي أنه بالرغم من أن الأمواج ـ الهوائية التخاطرية كانت محتجبة في تلك البلاد، فإن صيغ الاتصال كانت لا تزال تعمل على ما يبدو، إذ ساعدت وفق الصيغة الإيجابية ـ العملية وكذلك المجازية، في تغيير مصير أرض الطهارة».

في تلك الأيام، كنت أنا والقردة النحاسية نرقب عاجزين أمنا وهي تذبل أمام أعيننا. فهي التي كانت دائماً مثابرة متحملة في حر الجنوب، بدأت تذوي في قر الشمال. وهي، وقد حرمت من زوجين، باتت تشعر أيضاً بأنها بلا معنى، كما كانت هناك علاقة ينبغي إعادة بنائها أيضاً بين الأم والابن. فقد ضمتني ذات ليلة قائلة: «الحب، يا ولدي، هو شيء تتعلمه كل أم، فهو لا يولد مع الوليد، بل يكتسب، ولإحدى عشرة سنة تعلمت أن أحبك كابني». لكن كانت ثمة مسافة، فجوة، خلف لطفها. كانت تبدو وكأنها تحاول إقناع نفسها. فجوة أيضاً، في همسات القردة عند منتصف الليل وهي تقول «هيه، لماذا لا تذهب وتصب ماء على ظافر، فهم سيظنون أنه بال في فراشه؟». وكان هنالك إحساسي بتلك الفجوة التي رأيت من خلالها أنه رغم استخدامهم كلمة ابن وأخ فإن مخيلتيهما كانتا تبذلان كل جهد لتمثل اعتراف ماري، ودون أن أعرف حينذاك بأنهما لن تنجحا في إعادة وضع تصور للأخ والابن، فقد بقيت خائفاً من شيفا، وتبعاً لذلك، انسقت أبعد وأبعد إلى صميم رغبتي في أن أثبت لنفسي أنني جدير بقرابتهم. وعلى الرغم من اعتراف الأم المبجلة بي، فإنني لم أستعد طفولتي وراحتي إلى أن قال والدي من شرفة تبعد أكثر من ثلاث سنوات: «تعال يا بني، تعال هنا ودعني أحبك». ولعل ذلك ما يفسر سبب تصرفي على النحو الذي تصرفت به في ليلة السابع من تشرين الأول عام ١٩٥٨.

. . . غلام في الحادية عشرة يا بادما لا يعلم إلا القليل من شؤون الباكستان الداخلية لكنه استطاع أن يرى، في ذلك اليوم من تشرين الأول، أن هناك من يخطط لمأدبة عشاء غير عادية. سليم، ابن الحادية عشرة، لم يكن يعلم شيئاً عن دستور ١٩٥٦ ومحوه التدريجي، لكن عينيه كانتا حادتي النظر إلى درجة استطاعتا معها أن تحددا موقع ضباط أمن الجيش وأفراد الشرطة العسكرية الذين وصلوا عصر ذلك اليوم ليكمنوا خلف شجيرات الحديقة.

النزاع الحزبي والعجز المضاعف الذي كان يمثله السيد غلام محمد كانا سراً يجهله كل الجهل، لكن ما رأته عيناه بوضوح هو أن خالته اميرالدا كانت قد تزينت بأروع حلاها. مهزلة تغيير أربع وزارات خلال سنتين لم تجعله يضحك، بل استطاع أن يحس، ضمن جو الدراما المسيطر على منزل الجنرال، أن شيئاً ما، أشبه بستارة النهاية، على وشك الإنزال. ورغم جهله بنشوء الحزب الجمهوري، إلا أنه كان شديد الفضول في ما يتعلق بقائمة ـ الضيوف الذين سيحضرون مأدبة ذو الفقار، ورغم أنه كان في بلاد لا تعني الأسماء فيها شيئاً (فمن هو يا ترى شودري محمد علي؟ أو سهراوردي؟ أو شندريغاراونون؟) فإن جهله بضيوف المأدبة، ذلك الجهل الذي كانت خالته وزوجها حريصين على إبقائه، كان أمراً يدعو للحيرة إذ رغم أنه كان ذات مرة قد قص عناوين رئيسية من صحف باكستانية ـ يوم مؤامرته السبرماتية، إلا أنه لم يكن يحمل أية فكرة عن السبب الذي جعل صفاً طويلاً من سيارات الليموزين السود تأتي في الساعة السادسة مساءً، إلى داخل أسوار إقطاعية ذو الفقار المحروسة جيداً، ولماذا كانت الأعلام تخفق فوق سواريها، ولماذا كان راكبو السيارات يرفضون الابتسام، أو لماذا وقفت اميرالدا وبيا وأمي خلف الجنرال ذو الفقار وقد ارتسمت على وجوههن تعابير بدت أكثر ملاءمة للجنازة مما هي لمناسبة اجتماعية. من؟ ما الذي كان يلفظ أنفاسه؟ من، لماذا جاءت الليموزينات؟ لم يكن لدي أدنى فكرة، لكنني كنت أقف على رؤوس أصابعي خلف أمي، أحدق النظر إلى نوافذ السيارات الغامضة ذات الزجاج الدخاني.

أبواب السيارات انفتحت. مرافقون، مساعدون قفزوا من المركبات

فتحوا الأبواب الخلفية ثم حيوا تحية عسكرية، فبدأت عضلة صغيرة في وجنة اميرالدا بالارتعاش. بعد ذلك، من يا ترى أولئك الذين هبطوا من السيارات ذات الأعلام المرفرفة؟ أية أسماء ينبغي إعطاؤها لذلك الصف الخرافي من الشوارب، عصي الضباط، عيون المخارز، الأوسمة ونجوم الأكتاف التي ظهرت؟ لم يكن سليم يعرف أسماء ولا أرقاماً متسلسلة، لكن كان في الإمكان رؤية الرتب فالنسور والنجوم كانت تلمع على الصدور والأكتاف معلنة بالحقيقة عن قدوم أعلى ضباط الجيش. لقد ظهر من آخر سيارة رجل طويل ذو رأس كروي إلى حد مدهش، كروي مثل الكرة الأرضية رغم أنه لم يكن يحمل خطوط طول أو خطوط عرض. رجل ذو رأس ـ ككوكبنا ـ إنما بغير تسميات لمحيط أو قطب، خلافاً لتلك الكرة التي هرستها القردة ذات مرة، ولم يكن من صنع انكلترا (رغم أنه بالتأكيد من خريجي ـ ساندهيرست)، بعدئذ بدأ ذلك الرجل بالتقدم عبر النسور والنجوم المحيية، ثم وصل إلى خالتي اميرالدا فسلم ثم أكمل سلامه على البقية.

«السيد رئيس الأركان» قالت خالتي «مرحباً بك في منزلنا».

«اميرالدا، اميرالدا» خرجت الكلمات من الفم الموضوع في الرأس المصاغ على شكل الكرة الأرضية، الفم المتوضع مباشرة تحت شاربين أنيقين «لم هذه الرسميات، هذه الكلفة؟» فردت «حسناً إذاً أيوب، إنك لتبدو رائعاً».

لقد كان جنرالاً حينذاك، رغم أن رتبة المارشالية لم تكن بعيدة كثيراً... تبعناه إلى المنزل ثم راقبناه كيف يأكل كما يأكل أي فلاح ساذج إلى درجة تلوث شارباه بالدسم... «اسمعي إيم»، قال الجنرال «دائماً أجد مثل هذه الاستعدادات حين آتي، وأنا مجرد جندي بسيط، يكفيني البازلاء والأرز في مطبخك، بل اعتبرهما خير مأدبة».

فأجابت خالتي: «جندي، صحيح، لكن ليس بسيطاً أبداً، بالمرة».

البنطال الطويل جعلني أهلاً لأن أجلس إلى الطاولة بجوار ابن خالتي ظافر يحيط بنا النسور والنجوم، لكن صغر سننا جعلنا كلانا ملزمين بالتزام جانب الصمت (فقد قال لي الجنرال ذو الفقار بنبرة عسكرية واطئة: «كلمة

واحدة منك وتخرج إلى منزل الحرس، إن أردت البقاء ظل صامتاً، مفهوم؟» وهكذا ظللنا صامتين، وبصمتنا توفرت لنا، أنا وظافر، الحرية التامة في أن نتطلع بعيوننا ونصغي بآذاننا. لكن ظافراً لم يكن يحاول، خلافاً لي، أن يثبت جدارته باسمه).

لكن ما الذي سمعه ابنا الحادية عشرة في مأدبة العشاء؟ ما الذي فهماه من الإشارات العسكرية المرحة «ذلك السهروردي الذي كان دائماً معارضاً لفكرة الباكستان ـ أو الإشارات إلى نون (أي الظهيرة) والذي ينبغي تسميته غروب الشمس». ومن خلال المناقشات المتعلقة بالتحضير للانتخابات وأموال الرشوة، أي إحساس سري بالخطر سرى في جلديهما جاعلاً زغب الشعر على زنودهما ينتصب ويقشعر؟ وحين اقتبس رئيس الأركان من القرآن، إلى أي حد فهم ابنا الحادية عشرة معنى ذلك؟

فقد قال الرجل ذو الرأس المستدير وأصحاب النسور والنجوم ينصتون إليه: يقول عز وجل: «وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين»[١].

فبدا وكأن الإشارة قد أعطيت وبتلويحة من يد خالتي انصرف الخدم. ثم نهضت هي نفسها منصرفة، فانصرفت معها أمي وبيا، كما نهضت أنا وظافر من مقعدينا لكن الرجل نفسه قال من بعيد، من رأس المائدة الفاخرة: «الشابان الصغيران يبقيان. إنه مستقبلهما بالنتيجة». وعاد الشابان الصغيران الخائفان إنما الفخوران أيضاً، إلى الجلوس والصمت طبقاً للأوامر.

لا أحد سوى الرجال الآن. تغير في وجه صاحب الرأس المستدير، شيء ما أشد قتامة، شيء ما مرقش وقانط بدا وكأنه يبسط عليه جناحيه: «منذ اثني عشر شهراً» يقول الجنرال: «تحدثت معكم جميعاً، وقلت: لنعط السياسيين عاماً واحداً، أليس ذلك ما قلته؟». فتومئ الرؤوس بالموافقة وتصدر غمغمات بالإيجاب. «لقد أعطيناهم ذلك العام أيها السادة، فغدا الوضع لا يحتمل. لم أعد مستعداً للتحمل أكثر»، ويتخذ أصحاب النسور

(١) سورة العنكبوت، الآية ٣٨.

والنجوم سيماء رجال السياسة والجد. الفكوك مطبقة بشدة، الأعين تنظر بحدة إلى المستقبل «لذا، في هذه الليلة، أجل، لقد كنت هناك، على بعد ياردات قليلة منه، الجنرال أيوب وأنا، أنا نفسي وأيوب خان سأتسلم دفة القيادة».

كيف يكون يا ترى رد فعل ابن الحادية عشرة على إعلان انقلاب؟ ماذا يفعل وهو يسمع قولاً مثل: «الوضع المالي للبلاد في حالة مخيفة من الاضطراب والتردي، الفساد والرشوة في كل مكان...». هل يتصلب فكاه أيضاً؟ هل يتركز ناظراه على الغد الأفضل؟ كان ابن الحادية عشرة يصغي فيما الجنرال يصرخ: «لذلك يلغى الدستور تحل المجالس التشريعية المركزية والمحلية، ومن الآن فصاعداً لا أحزاب سياسية». كيف تراه شعر حين قال الجنرال أيوب خان: «الآن تفرض الأحكام العرفية». لقد أدركت أنا وابن خالتي ظافر أن صوته ـ ذلك الصوت المفعم بالقوة والحزم والنكهة الغنية لأطايب مأكولات خالتي ـ يتكلم عن شيء لا نعرف مقابلاً له سوى كلمة واحدة: الخيانة العظمى. وإنني لافتخر بأن أقول الآن إنني حينذاك احتفظت بسيطرتي على نفسي أما ظافر فقدْ فقدَ السيطرة على عضو أكثر إزعاجاً. وهكذا بلل سائل رطب مقدمة بنطاله، ثم سال سائل الخوف الأصفر ذاك منحدراً مع ساقه حتى السجاد العجمي. شم أصحاب النسور والنجوم رائحة ما فالتفتوا إليه بنظرات اشمئزاز لا محدودة ثم انفجروا بالضحك (وكان ذلك أسوأ ما في الأمر).

كان الجنرال ذو الفقار قد بدأ لتوه بالقول: «إن سمحت سيدي، سأجمل الآن إجراءات هذه الليلة» حين بلل ابنه بنطاله. وبغضب مستقر ألقى الرجل بابنه خارج الصالة تتبع كلمات «مخنث، امرأة» قذفه بها بصوته الرقيق الحاد، ثم كلمات «جبان، لوطي، هندوسي» وهو يبتعد صاعداً الدرج...، بعدئذ استقرت عينا ذو الفقار علي وفيهما توسل: «أنقذ شرف العائلة، خلصني من عار ابني». فقد قال زوج خالتي: «أنت يا غلام؟ هل تسمح بأن تجيء هنا لمساعدتي؟».

ووافقت بالطبع. ولكي أثبت رجولتي وجدارتي بالبنوة ساعدت زوج

خالتي وهو يصنع الثورة. وبقيامي بتلك المهمة، بكسبي شكره وامتنانه، باسكاتي لضحكات الضباط المكتومة صنعت أباً جديداً لنفسي، وبذلك أمسى الجنرال ذو الفقار آخر حلقة في سلسلة الرجال الذين كانوا يرغبون في مناداتي بكلمة «بني» أو حتى بكلمة «ابني».

كيف صنعنا الثورة: الجنرال ذو الفقار حدد تحركات الجنود، وأنا حركت المباهر بصورة تتوافق مع ما ينطق به. وضمن صيغة الارتباط الإيجابية ـ المجازية، كنت أنقل الممالح وزبديات الصلصة. مرطبان خردل هو السرية «آ» التي تحتل مركز البريد، مبهرتان تحيطان بملعقة السكب، وهذا يعني أن السرية «ب» تضع يدها على المطار. على هذا النحو طفقت، ومصير الأمة في يدي، أحرك الملاعق والشوك والأواني، فآسر أطباق البرياني الفارغة بكؤوس ماء وأضع الممالح في وضع حراسة حول الأباريق. وحين توقف الجنرال ذو الفقار عن الكلام، كانت مسيرة أواني الطاولة قد بلغت نهايتها هي الأخرى. أما أيوب خان فكان يبدو مطمئناً في كرسيه لكن هل كانت الغمزة التي غمزني إياها من صنع خيالي؟ على أي حال، كان تعليق رئيس الأركان هو ما يلي: «أحسنت، ذو الفقار، إنه عرض جيد».

في التحركات التي قامت بها المباهر وغيرها، قطعة واحدة من زينة الطاولة بقيت دون أسر: إبريق بوظة مصنوع من الفضة، ذلك الإبريق الذي كان يمثل رئيس الدولة، ولثلاثة أسابيع ظل اسكندر ميرزا رئيساً للدولة.

ابن الحادية عشرة لا يستطيع الحكم فيما إذا كان رئيس الجمهورية فاسداً أم لا، حتى وإن قال أصحاب النسور والنجوم ذلك. ليس من حق ابن الحادية عشرة أن يقول ما إذا كان ارتباط ميرزا بالحزب الجمهوري ينبغي أن يجرده من منصبه العالي في ظل النظام الجديد. سليم سيناء لا يطلق أحكاماً سياسية، لكن حين هزني خالي في منتصف الليل المحتوم ذاك، في الأول من تشرين الثاني، ثم أيقظني هامساً: «تعال يا بني، إنه الوقت الذي ينبغي أن تذوق فيه طعم الأشياء الحقيقية»، حينها وثبت من فراشي برشاقة، ثم ارتديت ملابسي وخرجت إلى ظلمة الليل مدركاً بكل فخر أن زوج خالتي كان يفضل رفقتي على رفقة ابنه.

منتصف الليل. راولبندي تعبر بنا بسرعة سبعين ميلاً بالساعة، دراجات نارية أمامنا وإلى جانبنا وخلفنا. «أين ترانا ذاهبون، ذلفى يا خال؟»، «انتظر وسترى» سيارة ليموزين سوداء دخانية الزجاج تتوقف عند منزل معتم. حراس يحرسون الباب ببنادق متقاطعة، تنفرج كي تسمح لنا بالمرور عبرها. أسير إلى جانب خالي خطوة بخطوة، عبر الممرات نصف المضاءة، إلى أن ندخل إلى غرفة مظلمة تنير فيها أشعة من ضوء القمر سريراً بأربع قوائم، عليه ناموسية تحيط به كالكفن.

ثم رجل يستيقظ مجفلاً، «ما الذي يجري؟».. لكن لدى الجنرال ذو الفقار مسدس ذو سبطانة طويلة، يدفع فوهته بين فكي الرجل «اخرس» يقول خالي آمراً، «تعال معي». وينهض من السرير متعثراً رجل عار مفرط البدانة. عيناه تسألان: «هل ستطلق النار علي؟». والعرق يتصبب من كرشه الواسع، فينعكس ضوء القمر عليه وهو ينحدر قطرة قطرة إلى عضوه التناسلي لكن الطقس قارس البرد، العرق لا يتصبب منه بسبب الحر، ويبدو الرجل أشبه بتمثال بوذا الشاحب الضاحك لكن هذا لا يضحك، بل يرتعش.

زوج خالتي يبعد المسدس عن فمه «در، سر بسرعة»،.. وتندفع فوهة المسدس بين إليتي الكفل المصاب بفرط التغذية. الرجل يصرخ «بحق الله انتبه، ذلك الشيء قد يكون منزوع الأمان»، والجند يضحكون حين يظهر لحم عار تحت ضوء القمر ثم يدفع إلى داخل الليموزين.

... تلك الليلة جلست مع رجل عار بينما كان زوج خالتي يسوق به إلى المطار العسكري، ثم وقفت وراقبت الطائرة التي كانت في الانتظار وهي تدرج على الأرض ثم وهي تقلع وتطير. فما بدأ على نحو إيجابي ـ مجازي، بالمباهر والممالح، انتهى آنئذ، فأنا لم أطوح بالحكومة وحسب بل أرسلت أيضاً رئيس الجمهورية إلى المنفى.

لمنتصف الليل أطفال كثر، وما خلفه الاستقلال من ذرية لم تكن كلها من البشر بل هناك العنف، الفساد، الفقر، الجنرالات، الفوضى، الشره، المباهر... وكان علي أن أذهب إلى المنفى كي أعلم أن أطفال منتصف الليل كانوا أكثر عدداً وتنوعاً مما كنت أحلم ـ أنا نفسي.

«صحيح؟ حقاً؟»، تسأل بادما: «هل كنت حقاً هناك؟»، «حقاً وفعلاً». «يقولون أن أيوباً كان رجلاً طيباً قبل أن يفسد» تقول بادما، وهي نقطة قابلة للبحث، لكن سليماً ابن الحادية عشرة، لم يكن يصدر أحكاماً. تحرك المباهر لا يتطلب بالضرورة خيارات أخلاقية، فما كان سليم معنياً به: ليست الانتفاضة الشعبية، بل إعادة تأهيل ذاته. إنك ترى المفارقة ـ فأهم دخول لي إلى التاريخ حتى تلك اللحظة كانت تمليه أشد الدوافع مفارقة. على أي حال لم تكن البلاد «بلادي» أو لم تكن آنذاك. لم تكن بلادي رغم أنني كنت أقيم فيها كلاجئ لا كمواطن. لاجئ دخل بجواز أمه الهندي وبسبب ذلك كم كنت سأتعرض للريبة والشك، وربما للترحيل أو إلقاء القبض كجاسوس من الجواسيس لولا صغر سني ونفوذ الوصي، ذلك الوصي ذي السيماء الكركوزية، طيلة أربع سنوات.

أربع سنوات من الخواء.

إذ باستثناء انتقالي إلى مرحلة المراهقة، باستثناء مراقبتي لأمي وهي تتداعى، باستثناء مراقبتي للقردة التي كانت أصغر مني بسنة واحدة حاسمة الأهمية، وهي تقع تحت سحر تلك البلاد التي باركها الله، القردة التي كانت ذات مرة متمردة وعنيفة وهي تتخذ لمحياها سيماء الرزانة والخضوع التي بدت، أول الأمر، زائفة حتى بالنسبة إليها، القردة وهي تتكلم عن الطهو وإدارة المنزل وشراء التوابل من السوق، القردة وهي تقطع آخر علاقة لها بما ورثته عن جدها فتتعلم الصلاة بالعربية وتؤديها في أوقاتها المفروضة، القردة، وهي تكشف ذلك الأثر من التعصب التطهري الذي كانت قد ألمحت إليه حين طالبت بثوب راهبة، القردة التي كانت ترفض كل عروض الحب الدنيوي، وهي تقع في هوى ذلك الإله الذي احتل محل الأصنام في الكعبة: مقام الحجر الأسود العظيم، باستثناء ذلك لم يكن ثمة شيء آخر.

أربع سنوات بمنأى عن أطفال منتصف الليل، أربع سنوات بعيداً عن شارع واردن وبريتش كاندي ونقطة سكاندال وإغراءات البارِدة الواحدة من الشوكولا، بعيداً عن مدرسة الكاتدرائية وتمثال سيفاجي الفارس وبائعي البطيخ في بوابة الهند: بعيداً عن ديفالي وغانيش تساتورثي وعيد جوز الهند،

أربع سنوات من الانفصال عن أب يجلس وحيداً في منزل لا يبيعه، وحيداً إلا من البروفسور شابستكر الذي لزم شقته وتجنب صحبة الناس.

أما من شيء يحدث حقاً طوال أربع سنوات؟ بالتأكيد، ليس ذلك صحيحاً تماماً، فابن خالتي ظافر الذي لم يغفر له والده تبوله في بنطاله في تلك اللحظة التاريخية، كان يتعين عليه أن يفهم أنه سيلتحق بالجيش حالما يبلغ السن المناسبة. «بودي أن أتأكد من أنك لست امرأة» قال له والده.

وبونزو ماتت فبكاها ذو الفقار بدموع الرجال.

واعتراف ماري اضمحل إلى أن بات يبدو، نظراً لتجاهله من قبل الجميع، أشبه بحلم بغيض في أعين الجميع ما عداي.

كذلك (وبلا أي مساهمة مني) ساءت العلاقات بين الهند والباكستان أكثر وأكثر. وبغير مساعدتي أيضاً، غزت الهند غوا ـ «تلك البثرة البرتغالية على وجه أمنا الهند». لقد تنحيت جانباً فلم ألعب دوراً في حصول الباكستان على مساعدات أمريكية واسعة النطاق كما أنني غير ملوم لوقوع مناوشات الحدود الصينية في منطقة أكساي شين من ولاية لاداخ، كذلك كشف الإحصاء الذي أُجري في الهند عام ١٩٦١ أن نسبة المتعلمين هي ٢٣,٧ في المئة ولكنني لم أدخل في حسابات ذلك الإحصاء، أما مشكلة المنبوذين فقد بقيت دون حل، كما أنني لم أفعل شيئاً للتخفيف منها، ففي انتخابات ١٩٦٣ فاز حزب المؤتمر بـ ٣٦١ مقعداً من أصل ٤٩٤ مقعداً في لوك سبها وما يزيد على ٦١ بالمائة من مقاعد مجلس الولاية كلها. وحتى في هذا المجال ليس باستطاعة أحد أن يقول إن يدي الخفية هي التي تحركت، ما عدا ذلك، وربما مجازياً، فقد تم الحفاظ على الوضع الراهن في الهند، وكذلك في حياتي، فلم يتغير شيء.

آنذاك وفي الأول من أيلول، احتفلنا بعيد الميلاد الرابع عشر للقردة النحاسية. في ذلك الحين (رغم تعلق زوج خالتي المستمر بي) كنا قد وطنا أنفسنا على أننا من مرتبة اجتماعية أدنى، وعلى أننا الأقرباء البائسون الفقراء لآل ذو الفقار العظماء، لذا كانت الحفلة هزيلة للغاية، غير أن القردة أبدت كل ما يوحي بأنها تستمتع بها. «إنه واجبي، يا أخ» قالت لي، ولم استطع

تصديق أذني. . . لكن ربما كان لدى أختي حدس بقدرها، ربما كانت تعلم بالتحول الذي كان مخبأ لها، فلماذا أدعي أنني وحدي أمتلك قوى المعرفة السرية؟

لعلها خمنت حينذاك أنه حينما يبدأ الموسيقيون المستأجرون لذلك الغرض بالعزف (على آلاتهم المختلفة) ستنزل اميرالدا ذو الفقار بترفع شديد القسوة لتقول لها «هيا، جميلة لا تجلسي هكذا كالبطيخة، غني لنا مثلما تفعل الفتاة الطيبة»، وأن أختي، بهذه الجملة التي لفظتها خالتي الزمردية المتجلدة، وعلى نحو عرضي تماماً، ستبدأ تحولاً يغيرها من قردة إلى مطربة. إذ رغم احتجاجها، بكل ما تملك ابنة الرابعة عشرة من خرق وقلة لباقة، فقد دفعتها خالتي المنظمة لكل شيء إلى صفوف الموسيقيين دفعاً، ورغم أنها بدت وكأنها تود لو تنشق الأرض وتبتلعها، فإنها شبكت يديها بعد أن رأت أن لا مناص، وشرعت تغني.

لكنني أعتقد أنني لا أحسن وصف الانفعالات، ربما لاعتقادي بأن جمهوري قادر على المشاركة مباشرة، قادر على أن يتصور هو نفسه ما أجدني عاجزاً عن إعادة تصويره بحيث تغدو قصتي قصته أيضاً. . لكن حين بدأت أختي تغني شعرت، بالتأكيد، أن انفعالاً يغزو أضلعي انفعالاً بالغ الشدة إلى درجة عجزت عن فهمه، وقد ظللت كذلك إلى أن شرحته لي في وقت لاحق أكبر مومس في العالم سناً ـ لقد تخلصت القردة النحاسية، مع نغمتها الأولى، من لقبها ذاك، كما كانت، هي التي درجت على مخاطبة الطيور (مثلما كان جدها يفعل ذلك، في واد جبلي قبل زمن طويل) كانت ولا بد، قد تعلمت فن الغناء من تغريد تلك الطيور. وهكذا بأذن صالحة أخرى معطوبة، رحت أصغي لصوتها الذي لا شائبة فيه، صوتها الذي كان، وهي في الرابعة عشرة، صوت امرأة مكتملة، صوتاً مشبعاً بنقاء الأجنحة وعذاب المنفى وتحليق الصقور وخواء الحياة من الحب وأنغام البلابل وحضور الإله الكلي الرائع، صوتاً غدا في ما بعد يقارن بصوت بلال مؤذن الرسول وهو ينطلق من شفتي فتاة مهزولة بشكل من الأشكال.

ما لم أفهمه كان ينبغي أن ينتظر إلى أن تشرحه إحداهن لي، لكن دعني

أسجل هنا أن أختي حصلت في عيد ميلادها الرابع عشر على اسمها، ذاك الذي اشتهرت به في ما بعد: المطربة جميلة، وإنني عرفت، وأنا أصغي إلى أغنيتها «ردائي الموسليني الأحمر»، و«شاهباز كالاندار» أن العملية التي بدأت خلال فترة نفيي الأولى كانت توشك على الاكتمال في فترة نفيي الثانية، أي من ذلك الحين فصاعداً، باتت جميلة هي صاحبة الأهمية والحظوة، صاحبة المركز الأول بلا منازع، أما أنا فقد تعين علي أن أحتل المركز الثاني وإلى الأبد.

لقد غنت جميلة، أما أنا فقد أحنيت رأسي بكل تواضع. لكن قبل أن تتبوأ عرشها تبوؤاً كاملاً، كان ينبغي أن يحدث أمر آخر: كان ينبغي إنهائي تماماً.

التصريف والصحراء

ما ينهش العظام يرفض أن يتوقف.. والمسألة مسألة وقت لا غير. هذا نفسه ما يجعلني استمر: إنني أتمسك ببادما. بادما هي ما يهمني في هذا العالم ـ عضلات بادما، زندا بادما الأشعران، بادما زهرة لوتسي الخاصة، التي تأمرني، وهي متضايقة: «حسبك. ابدأ، ابدأ، الآن».

نعم ينبغي البدء بالبرقية. التخاطر جعلني شطرين، الاتصال من بعيد طرحني أرضاً.. فقد كانت أمينة سيناء تقتلع مسامير قدميها حين وصلت البرقية.. كان يا ما كان، في قديم الزمان. لكن، لا، هذا لا يناسب، فليس ذلك التاريخ بعيداً في الزمان: أمي كانت تضع كاحلها الأيمن على ركبتها اليسرى، تبرد اللحم المتقرن الظاهر في أسفل قدمها بمبرد أظافر ذي طرف حاد. وكان ذلك في التاسع من أيلول، والوقت؟ الوقت مهم أيضاً: حسناً. إذاً: عند العصر. لا، من المهم أن أكون أكثر.... أجل في الساعة الثالثة تماماً، وهي أشد الساعات قيظاً في الشمال، جاءها خادم بمغلف على طبق فضي. بعد بضع ثوان، وفي مكان بعيد من دلهي، اتخذ كريشنامينون وزير الدفاع (بمبادرة منه وقد استغل غياب نهرو في مؤتمر لرؤساء وزراء الكومنولث) قراره الفوري باللجوء إلى القوة، إن اقتضى الأمر، ضد الجيش الصيني في منطقة الهملايا، وحين فتحت أمي البرقية كان كريشنا يقول: «ينبغي طرد الصينيين من منطقة ثاغ لي ريج دون الظهور بمظهر الضعف بعد الآن». لكن هذا القرار لا يعدو مجرد تفاهة لدى مقارنته بدلالات برقية أمي، ذلك أنه في الوقت الذي حكم على عملية طرد الصينيين تلك التي كان اسمها

الرمزي ليغهورن. بالإخفاق والفشل، وبأن تحول الهند في النهاية إلى مسرح من أشد المسارح هولاً وترويعاً، أي مسرح حرب، فقد كان على البرقية أن تدفعني بصورة سرية إنما مؤكدة باتجاه الأزمة التي ستنتهي بطردي النهائي من عالمي الداخلي. وبينما كان الفيلق الثالث والثلاثون يعمل وفق تعليمات تلقاها الجنرال ثابار من السيد كريشنامينون، كنت أنا الآخر أغدو رهن خطر شديد، وكأن قوى غير مرئية كانت قد قررت أنني تجاوزت الحدود أيضاً، حدود ما يسمح لي بأن أفعله أو أعرفه أو أكونه، وكأن التاريخ كان قد قرر تثبيتي في مكاني، فقد تركت كلياً دون كلمة واحدة في المسألة: إذ قرأت أمي البرقية ثم قالت وهي تنفجر بالبكاء «أيها الأطفال، نحن ذاهبون إلى الوطن»... بعد ذلك، وحين بدأت التلفظ بشيء في سياق آخر، كانت المسألة قد غدت مسألة وقت لا غير.

ما قالته البرقية: «الرجاء عودوا بسرعة، في قلب السيد سيناء كتلة رملية تدعى الانتعال القلبي، إنه في حالة مرضية خطيرة سلاماً وتحية. أليس بيريرا».

«طبعاً اذهبي في الحال يا عزيزتي»، قالت خالتي أميرالدا لأختها «لكن يا إلهي، ما تراها تلك الإصابة؟».

إنني، بكتابتي هذه، قد أكون المؤرخ الأول والوحيد الذي يكتب قصة عصره ـ وحياته الاستثنائية ـ بالتأكيد. لكن أولئك الذين يتتبعون خطاي سيتوصلون، حتماً، إلى أهمية هذا العمل: هذا الكتاب المرجعي هذا الحديث النبوي، البورانا (كتاب الأساطير الهندية)، الغراندريس (الوجيز الشامل بالتعاليم الدينية) كي يستمدوا منه الإلهام والإرشاد. وإنني أقول لهؤلاء المعنيين المستقبليين: حين تقبلون على تفحص الأحداث التي أعقبت «برقية الانتعال القلبي» تذكروا أنه في قلب الإعصار الذي انقض علي ـ أو إذا استخدمنا المجاز، في حد السيف الذي أوقع بي الضربة القاضية ـ كانت ثمة قوة توحيد مفردة، وأعني بذلك وسائل الاتصال من بعيد.

البرقيات ومن بعدها الهواتف هي التي قضت علي، لكنني بكل أريحية نفس، لن أتهم أحداً بالتآمر، رغم أنه من السهل الاعتقاد أن المشرفين على

وسائل الاتصال كانوا قد صمموا على استعادة احتكارهم لموجات الأثير في البلاد. . . لكن علي أن أعود (وهنا تعبس بادما) إلى التسلسل التافه للأسباب والنتائج: لقد وصلنا إلى مطار سانتا كروز، على متن طائرة داكوتا، في السادس عشر من أيلول، لكن ينبغي علي، كي أفسر البرقية، أن أعود قليلاً إلى الوراء.

إن كانت أليس بيريرا قد أذنبت مرة باختلاس يوسف ديكوستا من أختها ماري فإنها في الأيام الأخيرة تلك كانت قد قطعت شوطاً بعيداً في الحصول على كفارتها، ذلك أنها ظلت طيلة أربع سنوات، الرفيق البشري الوحيد لأحمد سيناء. وفي عزلتها فوق الرابية المغبرة التي كانت ذات يوم إقطاعية ميثولد، كانت تتحمل طلبات فظيعة بروح طيبة راضية. فأحمد سيناء قد يأمرها بالجلوس معه حتى منتصف الليل، بينما يعب هو الجن ويشتكي من المظالم التي رمته بها الحياة. لقد تذكر، بعد سنوات من النسيان، حلمه القديم بترجمة القرآن وإعادة ترتيبه، كما شرع بإلقاء اللوم على أسرته لإضعافه إلى درجة لم يعد معها قادراً على الشروع بمشروع كهذا، علاوة على ذلك فإن غضبه كان ينصب عليها لوجودها بين يديه متخذاً شكل خطب مسهبة عنيفة ملأى باللعنات والسباب والشتائم كتلك التي كان يحبكها أيام تجريديته الأعمق. وكانت تحاول أن تكون متفهمة: فهو رجل وحيد، علاقته بالهاتف، تلك العلاقة التي لم تكن تخطئ في الماضي، أصابتها التقلبات الاقتصادية الحاضرة بالدمار، حسه السليم في المسائل الاقتصادية بدأ يهجره. . . فوقع فريسة لمخاوف غريبة أيضاً. وحين تم اكتشاف الطريق الصيني في منطقة أكساي تشين، كان الرجل قد بات على قناعة تامة بأن الحشود الصفر ستصل إلى إقطاعة ميثولد في غضون أيام.

غير أن أليس هي التي طمأنته بقولها، وهي تسقيه الكولا المثلجة «لا تقلق هؤلاء الصينيون أضعف من أن يهزموا قوتنا ومن الخير لك أن تشرب الكولا، فلا شيء سيتغير». في النهاية تلفت تماماً، إذ رغم أنها لم تكن قد مكثت معه في المرحلة الأخيرة إلا لأنها طلبت منه زيادة أجرها فوافق، مانحاً إياها زيادة كبيرة، مما جعلها قادرة على إرسال الكثير من المال إلى غوا،

لمؤازرة أختها ماري، إلا أنها بلغت في الأول من أيلول أقصى حدود التحمل فخضعت هي الأخرى لتملقات الهاتف.

في ذلك الحين، كانت أليس تقضي من الوقت مع تلك الآلة بقدر ما كان يفعل سيدها، خصوصاً حين كانت الاتصالات تأتي من نسوة نارليكار، أولئك النسوة اللواتي كن، في ذلك الحين، يحاصرن والدي، يتصلن به مرتين كل يوم، يغرينه، يحاولن إقناعه بالبيع، يذكرنه أنه في موقف اليائس، يحمن حول رأسه كما حامت النسور مرة حول مستودع يحترق..

وفي الأول من أيلول قذفن، كما فعل نسر ذات مرة في الماضي بالذراع التي صفعته في وجهه، إذ استطعن بعد رشوة أليس بيريرا أن يقنعنها بالابتعاد عنه، وهكذا صرخت في وجهه بعد أن عجزت عن تحمله «أجب على هاتفك، إني راحلة».

في تلك الليلة، بدأ قلق أحمد سيناء ينتفخ، طافحاً بالكراهية والحقد والحزن والإشفاق على الذات، شرع ينتفخ كالبالون، يدق بشدة، يتجاوز بعض الدقات، وأخيراً صرعه كما يصرع الثور. في مستشفى بريتش كاندي اكتشف الأطباء أن قلب أبي تغير شكله عملياً، إذ كان انتفاخ جديد قد اندفع على شكل كتلة من البطين الأسفل اليساري وكان لا بدّ من استخدام عبارة أليس «الانتعال القلبي».

في اليوم التالي وجدته أليس بمحض الصدفة حين عادت لتأخذ مظلة نسيتها، وككل سكرتيرة طيبة جندت أليس وسائل الاتصال البعيدة، هاتفة لسيارة إسعاف، مبرقة لنا. لكن بسبب مراقبة المراسلات بين الهند والباكستان، فقد استغرقت «برقية الانتعال القلبي» أسبوعاً كاملاً قبل أن تصل إلى أمينة سيناء.

«ها قد عدنا إلى بومباي!» صحت فرحاً سعيداً مخيفاً رواد المطار «عدنا إلى بومباي»، هتفت وظللت أهتف إلى أن قالت جميلة التي باتت مغنية في الأيام الأخيرة «أوه، سليم، بحق الله اسكت».

في المطار قابلتنا أليس بيريرا (وقد أرسلنا لها برقية بذلك). بعد ذلك استقللنا سيارة أجرة حقيقية من سيارات بومباي السود والصفر، راحت

تخوض بنا في بحر من أصوات الباعة المتجولين، في حشد من الجمال، الدراجات، الناس الناس وأنا أفكر كيف جعلت مدينة مومباديفي من راولبندي ما يشبه القرية، ثم اكتشف من جديد، وعلى نحو خاص، الألوان، التألق الذي تتصف به شجرة الغولمور التزيينية والبوغنفيلية، وكذلك الخضرة الحية لمياه «خزان» معبد ما هالاكسمي والمظلات الشمسية ذات الألوان البيض والسود، تلك التي تظلل شرطة المرور ببزاتهم الزرق والصفر. وأكتشف على نحو أكثر خصوصية ذلك التألق الذي تتصف به زرقة البحر الشديدة... وحده لون أبي الرمادي من بين جميع الألوان القزحية التي واجهتني بها المدينة، صدمني وجعلني أصحو.

في المستشفى تركتنا أليس بيريرا ومضت إلى عملها عند نسوة نارليكار، حينئذ حدث أمر هام فأمي وقد انبعثت من عالم الخدر وهبوط العزيمة وضباب الإثم وآلام الثآليل والمسامير لدى رؤيتها أبي بدت وكأنها بأعجوبة من الأعاجيب، تستعيد شبابها وتستعيد معه مواهبها القديمة في المثابرة والدأب جميعاً، وهكذا بدأت للتو إعادة تأهيل أحمد تدفعها إرادة لا يقف في وجهها شيء، فجاءت به إلى المنزل بل إلى المخدع القائم في الطابق الأول حيث رعته طوال فترة التجميد وهناك راحت تسهر عليه ليلها ونهارها، ساكبة قوتها في جسده. وفي النهاية نال حبها ثوابه، ذلك أن أحمد سيناء لم يشف بطريقة أذهلت حتى أطباء بريتش كاندي وحسب، بل إن تغيراً أكثر إدهاشاً حدث أيضاً، وهو أن أحمد حين عاد إلى طبيعته برعاية أمينة وإشرافها لم يعد إلى الطبيعة التي كانت تمارس اللعن وتصارع الجن بل إلى الطبيعة التي ربما كانها دائماً، طبيعة ملؤها الندم والمغفرة والضحك والسماحة وإلى شيء آخر أشد روعة ألا وهو: الحب. فبعد الزمن الطويل وقع أحمد سيناء في هوى أمي، وكنت أنا كبش الفداء الذي سيكفران به عن حبهما.

لقد بدأا ينامان معاً من جديد، ورغم أن خالتي بلمعة من ذاتها ـ القردية القديمة ـ قالت «في سرير واحد؟ الله! الله! كم هذا قذر!». فقد كنت سعيداً من أجلهما أو باختصار سعيداً من أجل نفسي، وذلك أنني عدت إلى أرض مؤتمرنا نحن أطفال منتصف الليل.

وهكذا، حين كانت عناوين الصحف تدق طبول الحرب، كنت أجدد تعارفي مع زملائي العجائبيين دون أن أعرف ما هي النهايات التي يخبئها لي القدر.

في التاسع من تشرين الأول ـ والجيش الهندي يتربص بكل محاولة خارجية ـ شعرت بأنني قادر على عقد الجلسة الأولى للمؤتمر (فمع مرور الزمن كانت جهودي الخاصة قد أقامت الحجب الضرورية على سر ماري) لقد عادوا إلى رأسي وكانت ليلة سعيدة، ليلة كرست لدفن خلافاتنا القديمة، لبذل كل جهد لدينا من أجل إعادة وحدتنا، وقد كررنا المرة تلو المرة فرحنا باجتماعنا مرة ثانية، متجاهلين الحقيقة الأعمق ـ هي أننا ككل أسرة، وحدتها أكثر إمتاعاً على الصعيد النظري مما هي على صعيد الواقع، وأنه يأتي وقت يتعين فيه على كل الأسر أن تنفصل وأن يشق كل فرد فيها طريقه الخاص.

في الخامس عشر من تشرين الأول ـ يوم الهجوم على الهند دون مبرر ـ بدأت الأسئلة التي كنت أخشى أن يطرحها أعضاء المؤتمر والتي حاولت عدم إثارتها: لماذا شيفا غائب؟ لماذا حجبت جزءاً من ذهنك؟

في العشرين من تشرين الأول هُزمت القوات الهندية، بل طحنت على يد الصينيين في ثانغ لي ريج، وأعلن بيان رسمي من بكين: «دفاعاً عن النفس اضطر حرس الحدود الصينيون لأن يكيلوا الصاع صاعين». لكن، في الليلة ذاتها، حين شن أطفال منتصف الليل هجوماً مركزاً، لم يكن لدي دفاع. لقد هاجموني على جبهة عريضة ومن كل اتجاه موجهين إلي تهمة الإخفاء، التكتم، المراوغة، الطغيان، الاستبداد، الفردية، حتى أمسى ذهني الذي لم يعد قاعة مؤتمر، ساحة معركة حاولوا فيها إبادتي كلياً. وهكذا، رحت أنا الذي لم يعد «الأخ الكبير سليم» أصغي عاجزاً عن الرد بينما كانوا يمزقون بي، إذ إنني رغم كل سخطهم وهياجهم لم أستطع الإفشاء بما كنت قد حجبته، لم أستطع تجميع شجاعتي لكي أقول لهم الحقيقة، سر ماري، فحتى بارفاتي الساحرة، نصيرتي القديمة والأشد تعلقاً بي نفد صبرها مني أخيراً فقالت: «أوه! سليم، الله يعلم ماذا فعلت بك باكستانك تلك لكنك تغيرت تغيراً فظيعاً».

ذات يوم من الماضي القديم قضت وفاة ميان عبد الله على مؤتمر آخر، كان قد انعقد بقوة إرادته فقط، والآن، وقد فقد أطفال منتصف الليل إيمانهم بي، فإنهم فقدوا أيضاً إيمانهم بالشيء الذي كنت قد صنعته من أجلهم.

بين العشرين من تشرين الأول والعشرين من تشرين الثاني، ظل المؤتمر ينعقد وظللت أحاول عقد جلساته الليلية، لكنهم كانوا يفرون مني ليس واحداً تلو الآخر، بل أفواجاً أفواجاً، وهكذا كان يقل العدد الذي يرغب في التوليف معي ليلة بعد ليلة. أكثر من مائة واحد منهم كانوا ينسحبون إلى حياتهم الخاصة كل أسبوع.

في أعالي الهملايا كان الكورخاز والراجبوتيون يفرون دون انتظام أمام الجيش الصيني وفي الأمداء العليا من ذهني، كان ثمة جيش آخر تقضي عليه أشياء ـ مشاحنات، نزوات، سأم، أنانية ـ أشياء كنت أعتقد أنها أصغر بكثير وأحقر بكثير من أن آتي على ذكرها.

(غير أن التفاؤل، كأي مرض مزمن، يرفض أن يزول، فظللت أعتقد ـ وما أزال اعتقد حتى الآن ـ أن ما هو مشترك بيننا سترجح كفته على ما يفرقنا. لا: أنا لن أتحمل المسؤولية المطلقة عن انتهاء مؤتمر الأطفال، فما قضى على كل احتمال بتجدده إنما هو حب أحمد وأمينة سيناء).

. . . شيفا؟ شيفا الذي أنكرت، بكل برودة دم، حق مولده؟ ما من مرة واحدة في الشهر السابق ذاك، أرسلت أفكاري لتبحث عنه غير أن وجوده في مكان ما من العالم كان ينخسني في زوايا ذهني، شيفا ـ المدمر، شيفا أبو الركب. . . بات بالنسبة إلي، أول شعور طاعن بالإثم، ثم غدا هاجساً، وأخيراً حين أمست ذكرى واقعيته قاتمة كئيبة، بات نوعاً من العنصر القائم بذاته، إذ بات يمثل في ذهني كل رغبة في الانتقام والعنف وحب الأشياء الموجودة في العالم وكرهها في الوقت ذاته، بحيث إنني حتى الآن حين أسمع عن أجسام غرقى تطفو كالبوالين في الهوغلي وتنفجر حين تنخزها القوارب المارة أو أسمع عن قطارات أشعلت فيها النيران، أو سياسيين يقتلون غيلة، أو شغب يثور في أورسيا أو البنجاب، يخيل إلي في الحال أن يد شيفا

هي التي تختفي خلفها جميعاً، حاكمة علينا بأن نتخبط إلى الأبد وسط القتل، الاغتصاب، الشره، الحرب.

أي يخيل إلي باختصار أن شيفا هو الذي صاغنا وفق ما نحن عليه (فهو أيضاً ولد مع دقة منتصف الليل، وهو، مثلي أنا، مرتبط بالتاريخ كما أن صيغ الارتباط ـ إن كان من حقي أن أفكر بأنها تنطبق علي جعلته قادراً على التأثير ـ بمجريات الأحداث والزمان).

إنني أتكلم وكأنني لم أره مرة ثانية بعد ذاك لكن هذا غير صحيح، إنما على هذا أن ينتظر دوره ككل شيء آخر، فأنا من الضعف على درجة تجعلني عاجزاً عن سرد تلك الحكاية الآن.

كان مرض التفاؤل قد بات مرة ثانية ذا أبعاد وبائية، وكنت حينها مصاباً بالتهاب الجيوب، التفاؤل العام بالحرب؛ ذاك الذي أشعلته بصورة تثير الاستغراب هزيمتنا في ثاغ لي ريج.

كان قد غدا متضخماً (وخطراً) كبالون نفخ أكثر مما ينبغي، غير أن مجاريّ الأنفية ذات المعاناة الطويلة، والتي ظلت طيلة عمرها ممتلئة أكثر مما ينبغي، كانت قد كفت أخيراً عن الكفاح ضد التخثر، وهكذا بينما كان نواب البرلمان يلقون بخطبهم النارية عن «العدوان الصيني» «دماء شهدائنا الأبرار». كانت عيناي تفيضان بالدموع، وبينما كانت الأمة تنتفخ أكثر وأكثر، مقنعة نفسها بأن إبادة الرجال الصفر الصغار أمر في متناول اليد، كانت جيوبي تنتفخ هي الأخرى لتشوه الوجه الذي كان مثيراً للدهشة أصلاً، مثيراً إلى حد جعل أيوب خان نفسه يحملق فيه بذهول واضح.

لقد حرق الطلاب وهم في قبضة مرض التفاؤل؛ تماثيل ماو تسي تونغ وشو إن لاي، كما هاجمت جموع الغوغاء، وحمى التفاؤل تلهب جباههم، الحذائين الصينيين وبائعي التحف وأصحاب المطاعم.

بل حتى الحكومة نقلت وهي تشتعل تفاؤلاً، المواطنين الهنود المنحدرين من أصل صيني، أولئك الذين باتوا «غرباء معادين» إلى معسكرات في راجستان، كما قدمت مصانع بيرلا بنادق مصغرة للبلاد وبدأت فتيات المدارس يذهبن إلى العرض، لكنني أنا سليم، كنت أشعر وكأنني على وشك

الموت اختناقاً، فالهواء الذي جعله التفاؤل كثيفاً كان يأبى دخول رئتي.

أحمد وأمينة كانا من أشد ضحايا مرض التفاؤل المتجدد سوء حالة، فهما اللذان أصيبا بعدواه عن طريق حبهما المولود حديثاً، غرقا في خضم الحماسة العامة بملء إرادتهما.

وهكذا حين بدأ موراجي ديساي، وزير المالية شارب البول، «عمليات التبرع من أجل التسليح» تبرعت أمي بأساور ذهب وأقراط زمردية، وحين أصدر موراجي صكوك دفاع اشترى أحمد منها بقنطار.

لقد جاءت الحرب كما بدا حينذاك بفجر جديد للهند، ففي جريدة «التايمز الهندية» كانت ثمة صورة كتب تحتها «الحرب مع الصين»، صورة ظهر فيها نهرو بما يمكن أن يطلق عليه «التكامل العاطفي»، «السلام الصناعي»، «وإيمان الشعب بالحكومة»، وهو يصرخ: «لم نكن يوماً أحسن حالاً مما نحن الآن». وهكذا منجرفين بتيار التفاؤل، كنا ـ أقصد الأمة كلها، والدي ووالدتي وأنا نفسي ـ نعوم، وقد عميت أبصارنا، باتجاه الصخور.

فنحن كشعب يسيطر علينا دائماً هاجس المراسلة، نقاط التشابه بين هذا وذاك بين الأشياء غير المترابطة ظاهرياً، تجعلنا نصفق بأيدينا بكل ابتهاج حين نكتشفها، كذلك ثمة نوع من الحنين الوطني للشكل، أو ربما هو، وبكل بساطة، تعبير عن إيماننا العميق بأن الأشكال تكمن مختفية تحت ستار الواقع، وأن المعنى لا يكشف عن ذاته إلا على شكل إلماعات، ومن هنا تأثرنا بالفألين الحسن والسيئ.

فحين رُفع العلم الهندي لأول مرة مثلاً، ظهر قوس قزح فوق ميدان دلهي الرئيسي، قوس ملون بالزعفران والأخضر، فشعرنا بأن البركات كلها حلت علينا. ولأني ولدت بين المراسلات فقد وجدت أنها لا تزال تحيق بي. . . . وهكذا بينما كان الهنود يتجهون كالعميان نحو كارثة عسكرية كنت أنا أيضاً أدنو، وأنا أجهل ذلك كلياً، من كارثة ستقع على رأسي.

كانت الصور الكاريكاتورية في «التايمز الهندية» تتكلم عن التكامل العاطفي وفي فيلا باكنغهام آخر ما بقي من إقطاعة ميثولد، لم تكن العواطف في يوم من الأيام متكاملة مثل ذلك التكامل، كان أحمد وأمينة يقضيان

أيامهما كعاشقين مدلهين، وبينما كانت جريدة «الشعب» البيكينية تتذمر من أن «حكومة نهرو قد ألقت عنها أخيراً عباءة عدم ـ الانحياز» لم نكن أنا وأختي نتذمر، فللمرة الأولى منذ سنين، لم نكن مضطرين للادعاء بأننا غير منحازين في الحرب الدائرة بين والدينا، فما فعلته الحرب في الهند، أي وقف العداوات، تحقق في رابيتنا ذات الدورين أيضاً. إذ كان أحمد سيناء قد أقلع عن خوض معاركه الليلية مع الجن.

في الأول من تشرين الثاني، حين كان الهنود يهاجمون تحت ستار من قصف المدفعية كانت مجاريَّ الأنفية في حالة من التأزم الحاد، ورغم أن أمي كانت تخضعني لتعذيب يومي بإرغامي وأنا مغطى الرأس ببطانية، على استنشاق أبخرة «الفينيك» من الأحواض التي انحل فيها ذلك المرهم بالماء، إلا أن جيوبي كانت ترفض الاستجابة للعلاج.

في ذلك اليوم مدّ أبي ذراعيه قائلاً: «تعال يا بني، تعال هنا. دعني أحبك». وبنوبة سعادة مسعورة (إذ ربما كان مرض التفاؤل قد وصل إلي أخيراً) سمحت لنفسي بأن أتهدهد على كرشه المتهدل، لكن، حين تركني وشأني، كانت سوائلي الأنفية قد لوثت قميصه المشجر، وأعتقد أن هذا ما حكم علي أخيراً بالهلاك، ذلك أن أمي شنت هجومها في ذلك العصر نفسه إذ أجرت اتصالاً هاتفياً مدعية بأنها تتصل بصديق، وفيما كان الهنود يهاجمون تحت ستار المدفعية، كانت أمينة سيناء تخطط لسقوطي تحت ستار الكذب.

لكن قبل أن أصف دخولي إلى تيه عمري بعد ذلك، علي أن أعترف بأنني قد أكون ارتكبت خطأ فادحاً بحق والديّ اللذين لم يفكرا مرة واحدة، بحسب معرفتي، ولم يخططا مرة واحدة للبحث عن ابنهما الحقيقي، رغم أنني في أماكن عدة من هذه الرواية عزوت ذلك القصور إلى نوع من الافتقار للخيال ـ ولقد قلت، تقريباً، إنني بقيت ابنهما لإنهما لم يستطيعا أن يتخيلا تخلّي عن ذلك الدور. لكن يحتمل أن تكون ثمة تفسيرات أسوأ أيضاً كنفورهما مثلاً، من أن يضما إلى صدريهما ابن شارع قضى أحد عشر عاماً في الأزقة الفقيرة، بيد أنني أود أن أذكر دافعهما الأنبل، فربما، رغم كل شيء، أي رغم الأنف ـ الخيارة ـ والوجه المبقع وانعدام الذقن والصدغين

القرنيين والساقين المقوستين وفقدان الإصبع وبقعة الشعر الجرداء كبقعة الراهب وأذني اليسرى المعطوبة (والتي لا يعرف بها أحد منهم بالتأكيد) ورغم حتى عملية التبديل في منتصف الليل تلك التي قامت بها ماري بيريرا..

أقول رغم هذا كله، كان والداي يحبانني، لقد انسحبت بعيداً عنهما إلى عالمي السري، وأنا أخشى أن يكرهاني، دون أن أعترف بإمكانية أن يكون حبهما أشد قوة من القبح، بل وحتى من الدم في ذلك الحين، ومن المحتمل، بل من المؤكد أن ما ترتب على ذلك الاتصال الهاتفي الذي أجرته أمي وكذلك ما جرى أخيراً يوم الحادي والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٦٢ إنما جرى لأسباب رفيعة للغاية، أجل لقد حطمني والداي بدافع الحب.

العشرون من تشرين الثاني كان يوماً رهيباً، والليل كان رهيباً أيضاً.... فقبل ستة أيام، وفي عيد ميلاد نهرو الثالث والسبعين بدأت المواجهة الكبرى مع الصينيين، إذ هاجم الجيش الهندي ـ جنودنا يبدأون العمل ـ الصينيين في منطقة والونغ، أنباء الكارثة التي حلت في والونغ، أي القضاء على الجنرال كارل وأربعة أفواج معه، بلغت مسامع نهرو يوم السبت في الثامن عشر منه، لكن يوم الاثنين الواقع في العشرين منه، انتشرت عبر الإذاعة والصحف بل بلغت إقطاعية ميثولد: هلع شديد في نيودلهي، القوات الهندية تتمزق إرباً إربا!!

في ذلك اليوم، آخر أيام حياتي القديمة، كنت أجلس متكوماً مع أختي ووالدي حول مذياع التلفونكن بينما كانت المراسلات من بعيد تبث في قلوبنا كل ما في العالم من خوف. في تلك اللحظة فاه والدي بشيء مصيري حين قال بنغمة جدية حزينة فيما كنت أنا وجميلة نرتعش كالقصب خوفاً: «أيتها السيدة البيجوم، هذه البلاد انتهت، أفلست، قضي أمرها!». وفي المساء أعلنت الصحف نهاية مرض التفاؤل: المعنويات العامة تنهار. لكن بعد تلك النهاية كانت ثمة نهايات أخرى آتية، أشياء أخرى ستنهار.

ذهبت إلى فراشي ورأسي مليء بالوجوه الصينية والرشاشات

والدبابات. . . لكن عند منتصف الليل، كان رأسي قد فرغ وهدأ، ذلك أن مؤتمر أطفال منتصف الليل كان قد انهار هو الآخر، فالوحيد من الأطفال السحريين الذي رغب في التحدث إلي إنما كان بارفاتي الساحرة، لكن كنا ـ نحن من أحزننا كل الحزن ما دعته نوسي ـ البطة ذات يوم بـ «نهاية العالم» عاجزين عن فعل شيء سوى التواصل دون كلام. كذلك كانت هناك تصريفات دنيوية أخرى: فقد ظهر تشقق في سد باكراناغال الكهرمائي الجبار وبدأ المخزون الكبير خلفه يتسرب كما أن جمعية استصلاح الأراضي التي أقامتها نسوة نارليكار المنيعات على التفاؤل أو الهزيمة أو أي شيء ما عدا إغراء الثروة، تلك الجمعية استمرت بتصريف مياه البحر واستخراج الأراضي من أعماقه. . .

لكن التصريف النهائي، التصريف الذي يعطي لهذا الفصل عنوانه فعلاً، جرى في الصباح التالي تماماً حين كنت مسترخياً أفكر بأن شيئاً ما قد يتكشف، أخيراً، عن أنه على ما يرام. . . ذلك أننا في الصباح سمعنا الأنباء المفرحة إلى حد اللامعقول، الأنباء القائلة بأن الصينيين توقفوا عن التقدم فجأة ودون أن يكونوا مضطرين لذلك، فبعد أن سيطروا على مرتفعات هملايا، قنعوا بذلك على ما يبدو. «وقف إطلاق نار»! كانت الصحف تصرخ فكادت أمي تقع مغشياً عليها لفرط ارتياحها، وفرحها (كما سرت أقاويل مفادها أن الجنرال كارل وقع في الأسر، فعلق الدكتور رادا كريشنان رئيس جمهورية الهند قائلاً: «لسوء الحظ إن تلك الأقاويل كاذبة تماماً»).

لكنني رغم العينين السائلتين والجيوب المنتفخة، كنت سعيداً، رغم انتهاء مؤتمر الأطفال كنت أنعم بألق السعادة الجديد الذي نفذ إلى فيلا باكنغهام. وهكذا حين اقترحت أمي «دعونا نحتفل يا أطفال، دعونا نقم بنزهة، ألا تحبون ذلك؟» وافقت في الحال.

كان ذلك في صباح الحادي والعشرين من تشرين الثاني، ولقد شاركنا جميعاً في إعداد بعض الشطائر والمعجنات ثم توقفنا عند أحد محلات المرطبات لنحمل معنا الثلج في أنبوبة صفيحية وزجاجات الكولا في علبة وضعناها في صندوق سيارتنا الروفر، ثم انطلقنا، الوالدان في المقدمة

والطفلان في المؤخرة، فيما شرعت جميلة المغنية تغني لنا على هدهدة السيارة.

وعبر جيوبي الملتهبة سألت: «أين نحن ذاهبون؟ جوهو؟ اليفانتا؟ مارفي؟ أين يا ترى؟» فردت أمي بابتسامة مغتصبة قليلاً: «مفاجأة انتظر وسترى».

وراحت السيارة تشق طريقها عبر الشوارع الغاصة بحشود مبتهجة مستمتعة... «هذا طريق خاطئ»، هتفت صائحاً: «فهو ليس الطريق المؤدي إلى الشاطئ؟». فتكلم والداي كلاهما بصوت مطمئن مبتهج «وقفة واحدة فقط أولاً، ومن ثم ننطلق، هذا وعد».

البرقيات استدعتني، الأخبار الإذاعية أخافتني، لكن الهاتف هو الذي حدد المكان والزمان للقضاء علي... وقد كذب والداي علي.

أمام مبنى غير مألوف في شارع الكرنك توقفنا. مظهره الخارجي: متداع، جميع نوافذه محجوبة «هل تأتي معي يا بني؟» قال أحمد سيناء وهو يخرج من السيارة، فمشيت إلى جانبه وأنا سعيد كل السعادة لمرافقة والدي في عمل من أعماله. على المدخل صفيحة نحاسية عليها أحرف سوداء: عيادة أنف وأذن وحنجرة، وفجأة أشعر بالخوف:

«ما هذا يا بابا؟ لماذا جئنا؟».. فتمتد يد والدي، تضم كتفي ثم يأتي رجل يرتدي صديرية بيضاء ـ وممرضات ـ و«آه، نعم، سيد سيناء إذاً هذا هو سليم الشاب - في الموعد تماماً ـ حسن ـ حسن» بينما أقول أنا «لا، بابا ـ ماذا عن النزهة؟». لكن الأطباء يقودون خطاي الآن، أبي يتراجع إلى الوراء، الرجل ذو الصدرية يقول له: «لن يطول الأمر. أخبار حسنة عن الحرب، أليس كذلك». وتقول الممرضة: «من فضلك، هلم معي لارتداء الملابس والتخدير».

خدعت، خدعت، يا بادما، لقد قلت لك: «ذات مرة خدعتني النزهات»، وبعد ذاك كان هناك مستشفى وغرفة فيها سرير صلب ومصابيح متدلية متألقة وأنا أصرخ «لا، لا، لا» والممرضة ترد: «لا تكن غبياً أنت رجل ناضج تقريباً، تمدد». بينما أتذكر أنا كيف أن المجاري الأنفية بدأت

كل شيء في رأسي، كيف صعد السائل الأنفي إلى الأعلى والأعلى والأعلى، إلى المكان الذي لا يجوز أن يصعد إليه سائل أنفي، وكيف تم الارتباط بحيث انطلقت أصواتي الذهنية تلك، أتذكر ذلك فأرفس وأصرخ حتى يضطروا لتثبيتي. «بالشرف» تقول الممرضة: «أنا لم أر طفلاً كهذا».

وهكذا فإن ما بدأ في صندوق الغسيل انتهى على طاولة العمليات إذ كنت مثبت اليدين والقدمين وكان رجل يقول: «لن تشعر بشيء إنها أسهل من استئصال اللوزتين، هذه الجيوب ستنظف تماماً، وبأسرع وقت»، فأرد: «لا، لا، من فضلك». لكن الصوت يتابع «سأضع هذا القناع عليك الآن، فقط عد حتى العشرة».

وأعد، الأعداد تتقدم: واحد، اثنان، ثلاثة.

فحيح غاز منطلق، الأعداد تسحنني: أربعة، خمسة، ستة.

وجوه تسبح في الضباب وتستمر الأعداد الصاخبة المضطربة، إنني أصرخ على ما أظن، الأعداد تسحنني: سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة.

«يا للعجب! الغلام لا يزال في وعيه. شيء خارق للعادة. من الأفضل أن نجرب مرة أخرى، هل تسمعني؟ سليم؟ هل تسمعني؟ أنت فتى طيب، فقط عد عشرة أخرى»، حشود تزدحم داخل رأسي، سيد الأعداد، أنا. العد يستمر مرة ثانية: أحد عشر، اثنا عشر.

كفى لن تستمر حتى... ثلاثة عشر، أربعة عشر، .... يا الله!

الضباب يزيغ النظر، وأسقط، إلى ما وراء الستة عشر، ما وراء الحرب والمباهر، ما وراء السبعة عشر، ثمانية عشر ـ تسعة عشر عشريـ....

كان ثمة صندوق غسيل وصبي استنشق استنشاقة شديدة، حين كانت أمه تتعرى وتكشف عن مانغا سوداء، فجاءت أصوات لم تكن أصوات الملائكة، ويد أصمت الأذن اليسرى، وشيء ينمو على نحو أفضل في الحر: الخيال، اللاعقلانية، الشهوة، وكان هناك ملجأ في برج الساعة وغش في الصف وحب في بومباي أدى إلى حادث دراجة حيث دخل صدغان قرنيان في تجاويف ملقطية ثم زار رأسي خمسمائة وواحد وثمانون طفلاً: أطفال منتصف الليل: من كانوا يجسدون الأمل بالحرية وكذلك الفلتات العجيبة التي

ينبغي أن تنتهي كلياً، بارفاتي الساحرة، أخلص الجميع، وشيفا الذي بات عنصر حياتي الأساسي، كذلك كانت هناك مسألة الهدف والحوار بين الأفكار والأشياء، كما كانت ثمة ركب وأنف، أنف وركب.

المشاجرات بدأت بعد أن رشح عالم الكبار إلى عالم الصغار، فكانت هناك أنانية وتغطرس وكراهية واستحالة لوجود العنصر الثالث، كما كان هنالك خوف من الانتهاء إلى اللاشيء بعد أن بدأ كل شيء ينمو ويكبر، لكن ما لم يقله أحد: أن هدف الخمسمائة والواحد والثمانين كان يكمن في دمارهم وأنهم إنما جاؤوا كي ينتهوا إلى اللاشيء، إذ كان الجميع يهملون النبوءات حين تتحدث عن هذا الجانب.

بعدئذ جاءت الظهورات، انغلاق الذهن، المنفى ومن ثم العودة بعد أربع سنوات. ريب تتنامى، شقاق يتوالد، مغادرات بالعشرات والعشرينات، وفي النهاية يظل صوت واحد إنما يظل التفاؤل ـ فما هو مشترك بيننا سيحتفظ بإمكانية الرجحان على ما يفرقنا.

إلى أن:

أحاط بي الصمت، الغرفة مظلمة (فالستائر مسدلة)، لا أستطيع رؤية شيء (لا شيء هناك أراه).

الصمت في داخلي، الاتصال انقطع (إلى الأبد)، لا أستطيع سماع شيء (لا شيء هناك أسمعه).

سكون كسكون الصحراء، وأنف نظيف خال (المجاري الأنفية ملأى بالهواء) الهواء، مثل قبائل الوندال، يغزو مواضعي الخاصة.

تصريف، لقد تم تصريف مياهي، احتقان الجيوب انتهى.

(والهدف مصلحتي بالطبع).

أوه، أفصح، أفصح العملية التي كان هدفها الظاهري تجفيف جيوبي الملتهبة وتنظيف مجاري الأنفية مرة واحدة وإلى الأبد، كان لها تأثير آخر وهو قطع أي ارتباط كان قد تم في صندوق الغسيل وكذلك حرماني من التخاطر الذي منحنيه ـ الأنف، والحيلولة بيني وبين إمكانية الاتصال بأطفال منتصف الليل.

أسماؤنا تتضمن أقدارنا فنحن نحيا في مكان لم تفرغ الأسماء من معانيها كما هو الشأن في الغرب، وباعتبارنا لا نزال أكثر من مجرد أصوات، فإننا لا نزال أيضاً ضحايا أسمائنا. وهكذا فإن كنيتنا سيناء تتضمن ابن سينا المعلم الطبيب الساحر، وكذلك الصوفي الخبير الماهر، وسين ـ القمر، إله حضرموت القديم، بكل صيغه في ما يتعلق بالارتباطات وبكل ما له من قوى على التأثير من بعيد في حركات المد والجزر في العالم. لكن السين هو أيضاً «S» المتلوي كالثعبان والثعابين تتكور ملتفة داخل الاسم، وهناك أيضاً إمكانية كتابة اللغة بحروف لغة أخرى ـ فسيناء، حين تكتب بالحرف العربي، تكون اسماً للمكان الذي هبط فيه الوحي على موسى، كلمة توحي بالطور والوصايا العشر والعجول الذهبية، لكن حين يغيب ابن سينا عن أذهاننا، حين يأفل القمر عن عيوننا وتختفي الثعابين من تفكيرنا وننسى موسى والوحي، فإن كلمة سيناء تظل اسماً لصحراء ـ صحراء القحل، الجدب، الغبار، تظل رمزاً للنهاية.

في الجزيرة العربية ـ الصحراء العربية ـ وفي الوقت الذي ظهر فيه النبي محمد، كان هناك آخرون يدعون النبوة أيضاً: مسيلمة من قبيلة بني حنيفة في اليمامة، قلب الجزيرة العربية، وحنظلة بن صفوان وخالد بن سنان، إله مسيلمة كان الرحمن «الرحيم» والمسلمون اليوم يصلون لله الرحمن الرحيم، أما خالد بن سنان فقد بعث في قبيلة عبس، ولحين من الزمن تبعه الناس، لكن بعدئذ ضاع، وكم ضاع من أنبياء ليسوا بزائفين، لا لشيء إلا لأن التاريخ ابتلعهم، ألقى بهم في زوايا النسيان! كم من رجال لهم قيمتهم جابوا تلك الصحراء لتخفيهم كثبانها إلى الأبد!

«أيتها الزوجة» قال أحمد سيناء «هذه البلاد انتهت» وعادت تلك الكلمات، بعد وقت إطلاق النار والتصريف، تطن في أذني لا تفارقني فيما بدأت أمينة تقنعه بالهجرة إلى الباكستان حيث تعيش أختاها وحيث ستذهب أمها بعد وفاة أبيها «بداية جديدة» اقترحت أمينة «جانوم، سيكون هذا رائعاً. ثم، ما لنا ولهذه الرابية الملعونة؟».

وهكذا انتهت فيلا باكنغهام أخيراً، ورغم كل شيء، لنسوة ناليكار، أما

أسرتي فقد انتقلت بعد خمسة عشر عاماً من العيش فيها إلى الباكستان، أرض الطهارة، ولم يترك أحمد سيناء خلفه سوى القليل القليل، فقد كانت هناك سبل لتحويل المال بمساعدة الشركات المتعددة الجنسيات وكان أبي يعرف تلك السبل أما أنا، ورغم حزني لمفارقتي مسقط رأسي، فإنني لم أكن حزيناً لانتقالي من المدينة التي كان يقبع فيها شيفا في مكان ما مختفياً عن الأعين مثل لغم أرضي أخفي بمهارة.

في شباط ١٩٦٣ غادرنا بومباي بصورة نهائية وفي يوم رحيلنا أنزلت كرة صفيحية قديمة إلى الحديقة ثم دفنتها بين الصبار، في داخلها:

رسالة رئيس الوزراء وصورة طفل بحجم الجامبو على صفحة أمامية من جريدة وقد كتب تحتها: «طفل منتصف الليل». . . . لا، ليست هذه آثاراً مقدسة ـ وأنا لا أدعي بأن لي الحق في أن أقارن آثار حياتي التافهة بشعرة الرسول المقدسة الموجودة في هزرتبال، أو بجثمان القديس فرانسيس زافير الموجود في كاتدرائية يسوع المسيح ـ لكنها كل ما بقي من ماضي: كرة صفيحية مهروسة، رسالة متعفنة وصورة فوتوغرافية ولا شيء آخر، حتى ولا مبصقة فضية.

لكن بمعزل عن الكرة التي سحقتها القردة، فإن السجلات الوحيدة تتضمنها كتب الغيب «سجين وإليون»، كتب الخير والشر، وعلى أية حال تلك هي القصة.

حين صرنا على متن سفينة سبرماتي ورفعت مراسيها من مرفأ ران كوتش، حينها فقط، تذكرت شابستكر العجوز فتساءلت فجأة إن كان أحد قد أخبره بأننا راحلون، لكنني لم أجرؤ على طرح السؤال خشية أن يكون الجواب: لا. وهكذا بينما كنت أفكر بطاقم التدمير وهو ينطلق إلى العمل وأتصور آلات التدمير وهي تسحق مكتب والدي وغرفتي الزرقاء وتهد سلم الخدم الحديد الحلزوني والمطبخ الذي كانت فيه ماري تغمس مخاوفها في مرق الصلصة والمخللات وتحركها، وكذلك الشرفة التي كانت أمي تجلس فيها والطفل في أحشائها كالحجر، أثناء ذلك كان يطوف في ذهني أيضاً صورة للكرة الجبارة المتأرجحة وهي تعمل سحقاً وسحناً لمنطقة نفوذ السيد

شابستكر وللرجل العجوز المعتوه نفسه، وسط الأبراج المتساقطة وسقوف الآجر الأحمر المتداعية، شابستكر الهرم المرتعش شيخوخة وهو يقضي نحبه تحت أشعة الشمس التي لم يكن قد رآها منذ سنين كثيرة.

لكن ربما كنت أُمسْرح الأشياء، ربما كنت أستمد هذا كله من فيلم قديم يدعى «الأفق المفقود» فيلم كانت فيه نساء جميلات يرتعشن ويلفظن أنفاسهن الأخيرة وهن يرحلن عن شانغري ـ لا.

مقابل كل أفعى، ثمة سلم ومقابل كل سلم ثمة أفعى، لقد وصلنا إلى كراتشي في التاسع من شباط وفي غضون أشهر قليلة، وجدت أختي نفسها تشق طريقها في الحياة، ذلك الطريق الذي سيمنحها لقب «ملاك الباكستان» و«بلبل الإيمان». لقد غادرنا بومباي لكننا فزنا بمجد باهر إضافة إلى شيء آخر: فرغم أنني خضعت لعملية تصريف ـ ورغم أنه لم تعد ثمة أصوات في رأسي ولن تعود إليه أبداً ـ فقد كان هناك تعويض واحد، هو أنني اكتشفت، وللمرة الأولى في حياتي، المتع الرائعة لامتلاك المرء حاسة الشم.

جميلة المغنية

وقد تبين أن حاسة الشم تلك حادة إلى درجة يمكنها أن تميز رائحة الرياء الزنخة التي كانت تكمن خلف بسمة الترحيب التي قابلتنا بها خالتي العانس علياء على رصيف كراتشي. فهي، مديرة المدرسة التي أفعم قلبها بمرارة لا علاج لها سقوط والدي قبل سنين طويلة بين أحضان أختها، كانت قد اكتسبت البدانة الراسخة الأقدام التي تتميز بها الغيرة المكشوفة، وكانت الشعيرات الغليظة السوداء لحقدها تنبثق من معظم مسام جلدها، ولعلها أفلحت في خداع والدي وخداع جميلة بذراعيها الممدودتين وجريها المتخبط نحونا وكذلك صرختها «أحمد بيك، أخيراً، لكن أن تأتي متأخراً خير من ألا تأتي أبداً»، وعروضها شبه العنكبوتية ـ والتي قبلت بصورة لا مناص منها، في ميدان حسن الضيافة. أما أنا الذي قضيت معظم طفولتي تلذع جلدي ملابسها المشبعة حقداً وتحرقني قبعاتها الملأى حسداً، أنا الذي أصبت دون علم مني، بالفشل والعجز بفضل الأشياء الطفولية ذات المظهر البريء التي كانت تحول فيها كراهيتها، أنا الذي كان باستطاعته علاوة على ذلك أن يتذكر بوضوح ماذا يعني أن تتملك المرء شهوة الانتقام، أنا سليم ذو الأنف المجفف، كان باستطاعتي أن أشم روائح الانتقام المتسربة من غددها، لكنني كنت بلا حول أو طول ولم يكن باستطاعتي الاحتجاج. وهكذا، امتطينا سيارتها الداتسون بكل ما فيها من روائح انتقام حيث ساقت بنا على طريق بندر إلى منزلها الواقع في غورماندير ـ بحماقة الذباب أو أشد، فقد كنا نحتفل بوقوعنا في الأسر.

. . . لكن أية حاسة شم كانت! إن معظمنا يتكيف من المهد فصاعداً، بحيث يميز أضعف الروائح التي يتكون منها طيف الشم، أما أنا فقد كنت عاجزاً عن شم أية رائحة طيلة حياتي، وتبعاً لذلك فقد كنت أجهل المحظورات الشمية كافة. ونتيجة لذلك فقد كانت لدي نزعة تميل بي إلى عدم ادعاء البراءة حين يخرج من أحدهم ريح، الأمر الذي سبب لي بعض الإشكالات مع أبوي. لكن الأهم من ذلك كله إنما كان: حريتي الأنفية، قدرتي على استنشاق قدر كبير جداً من الروائح، خلافاً للروائح ذات المنشأ المادي الصرف، تلك التي كان بقية البشر قد اختاروا القناعة بها. وهكذا، منذ أول يوم من أيام مراهقتي الباكستانية شرعت أتعرف إلى روائح العالم السرية، عطر الحب الجديد الذكي الرائحة، إنما السريع الزوال، وكذلك رائحة الكراهية الأعمق والأكثر ديمومة (إذ لم يمض وقت طويل على وصولي إلى أرض الطهارة حتى اكتشفت داخل نفسي ذلك الدنس المطلق لحب الأخت، وكذلك النيران البطيئة المشتعلة داخل صدر خالتي، تلك التي ملأت رائحتها خيشومي منذ البداية). الأنف قد يمنحك المعرفة لكنه لا يمنحك السيطرة على الأحداث، فغزوي للباكستان، وليس معي سلاح (إن صحت الكلمة) سوى التجلي الجديد لتراثي الأنفي، إنما منحني القدرة على استنشاق الحقيقة، على شم ما يوجد في الجو، على اقتفاء الأثر، لكنه لم يمنحني القدرة الوحيدة التي يحتاجها الغزاة ـ القدرة على قهر الأعداء.

ولن أنكر: فأنا لم أسامح كراتشي أبداً لكونها ليست بومباي. فمدينتي الجديدة، تلك القائمة بين الصحراء من جهة والخلجان الضحلة المالحة التي تناثرت على شطآنها شجيرات المانغا من جهة أخرى كانت تبدو من القبح على درجة تكسف قبحي نفسه، وهي التي نمت بسرعة هائلة، إذ ازداد عدد سكانها أربعة أضعاف منذ عام ١٩٤٧ ـ كانت مشوهة الشكل على نحو يذكرك، بقزم متعملق.

في عيد ميلادي السادس عشر قدموا لي هدية رائعة هي دراجة نارية من طراز لامبريتا، وفي شوارع المدينة وأنا أمتطي مركبتي المكشوفة، كنت أستنشق أنفاس اليأس القاتل التي ينفثها سكان الأحياء الفقيرة، وأنفاس

الموقف الدفاعي للأغنياء المزهوين بأنفسهم كما كنت أشعر أن آثار روائح الفقر المدقع والتعصب، تمتصني، تغريني لأن أنحدر على الممر الطويل المؤدي إلى العالم السفلي الذي يفضي بدوره إلى منزل تاي بيبي، أكبر مومس في العالم سناً. . . لكنني أفر بنفسي بعيداً. في قلب مدينتي كراتشي، كان يقع منزل الخالة علياء، وهو بناء قديم في شارع كلايتون (لا بد أنه تجولت فيه طيلة سنوات كشبح لا يجد من ينتابه) مكان للظلال والطلاء الأصفر، يقع عليه، عصر كل يوم الظل الاتهامي الطويل لمئذنة الجامع المحلي. وحتى عندما سكنت، بعد سنوات في حي السحرة والمشعوذين تحت ظل جامع آخر ذلك الذي كان لحين من الزمن على الأقل ظلاً ناقصاً، ظلاً واقياً وغير تهديدي، فإنني لم أنسَ قط نظرتي التي ولدت في كراتشي، لظلال الجوامع حيث كان يخيل إلي، أنني أستطيع فيها أن أستشم رائحة خالتي الاتهامية القابضة الشديدة التي انتظرت فرصتها المؤاتية، والتي كان انتقامها، حين حل انتقاماً ساحقاً.

في تلك الأيام، كانت المدينة مدينة السراب، فهي المقتطعة من الصحراء، لم تكن قد أفلحت كلياً في القضاء على قوى الصحراء، إذ كانت الواحات تتألق بمحاذاة شارع الفينستون وكان باستطاعتك أن تبصر النزل والفنادق وهي تومض بين الأكواخ المحيطة بالجسر الأسود، جسر كالابول. وفي المدينة التي لا تعرف المطر (والتي كان العنصر الوحيد المشترك بينها وبين بومباي، مسقط رأسي، هو أنها بدأت حياتها أيضاً، كقرية لصيد السمك).

كانت الصحراء قد حافظت على قدراتها القديمة في الاتجاه بالرؤوس ونتيجة لذلك فقد ظلت قبضة الكراتشيين على الواقع أكثر القبضات انزلاقاً وضعفاً، لذا ظلوا يرغبون بالتوجه إلى زعمائهم طلباً لمشورتهم في ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي. فمواطني الجدد، الذين تحيط بهم كثبان الرمل الوهمية وأشباح الملوك القدامى وكذلك معرفتهم بأن الإيمان الذي تقوم عليه مدينتهم، إنما هو كلمة تعني (الخضوع).

لقد كان مواطني أولاء ينشرون حولهم روائح الخنوع الفوارة الفاضحة،

تلك الروائح التي تسبب أشد الانزعاج لأنف شم ـ في آخر أيامه، وإن يكن لفترة قصيرة ـ رائحة عدم الخضوع ذات البهارات الحادة، تلك الرائحة التي تتميز بها بومباي.

بعد وصولنا مباشرة وربما بتأثير الضغط الذي كان يمثله الجو المظلل بظل الجامع في المنزل الواقع في شارع كلايتون، قرر والدي أن يشيد لنا منزلاً جديداً فابتاع قطعة من الأرض في أرقى «المجتمعات»، في مناطق التطور العمراني الجديدة، وفي ميلادي السادس عشر حصل سليم على ما هو أكثر من لامبريتا. لقد تعرفت إلى القوى الخفية التي تتمتع بها الحبال السرية.

ما الذي ظل، طوال ستة عشر عاماً محفوظاً بالماء المالح، في خزانة والدي، بانتظار يوم كهذا؟ ما الذي رافقنا؟ وهو يسبح كحية ماء في مرطبان مخللات قديم، طوال رحلتنا البحرية ثم انتهى لأن يدفن في أرض كراتشي الصلبة القاحلة؟

ما الذي كان، ذات مرة، ينقل الحياة في رحم امرأة ـ ما الذي وصل الآن التراب بالحياة العجائبية وأنجب بيتاً ريفياً ذا طابق منشطر وعلى الطراز الأمريكي الحديث؟

لكن، لنتحاش هذه الأسئلة السرية، ولأشرح أن أسرتي، بما في ذلك الخالة علياء، قد اجتمعت في عيد ميلادي السادس عشر، على تلك البقعة من الأرض التي اشتريناها في شارع كورانجي، ثم قدم أحمد إلى ابنه سليم، ترقبهما أعين فريق من العمال ولحية شيخ من شيوخ الدين. معولاً يدشن به العمل في الموقع. «بداية جديدة» قالت أمينة «إن شاء الله سنكون أناساً جدداً من الآن فصاعداً». بعد ذلك أسرع أحد العمال تدفعه رغبتها النبيلة التي لم تتحقق، ثم شرع بتكبير الحفرة التي بدأتها بمعولي، ثم جيء بمرطبان المخللات حيث ألقي الماء المالح على الأرض العطشى، وما تبقى في الداخل تلقى بركات الشيخ، بعدئذ طمر حبل في الأرض، أتراه كان حبلي السري أم حبل شيفا؟ وعلى الفور بدأ العمل في المنزل. بعدها وزعت الحلويات والشراب؟ فأبدى الشيخ شرهاً وجوعاً ملحوظين، لكن أحمد سيناء، لم يشك شكوى واحدة من التكلفة التي نجمت عن دفن الحبل السري

في التراب، ورغم أنهم حفروا عميقاً للركائز في الأرض إلا أنهم لم يحولوا دون تهدم المنزل قبل أن نقطن فيه.

ما ابتغي تلخيصه حول الحبال السرية: رغم أنها تتصف بالقدرة على إنماء المنازل فإن من الواضح أن بعضها كان يفضل البعض الآخر في أداء هذا الدور، وقد برهنت مدينة كراتشي على رأيي هذا. فهي المشيدة بكل وضوح فوق حبال غير مناسبة مطلقاً، كانت مليئة بمنازل مشوهة، منازل محدبة الظهور مائلة وليدة سلالات معلولة، منازل كفيفة النظر على نحو غامض، فليس فيها نوافذ مرئية قط، منازل تبدو أشبه بأجهزة راديو أو مكيفات هواء أو زنزانات سجون، صروح بلهاء مثقلة ـ الرؤوس تتداعى بانتظام رتيب، كسكارى في الطريق، تكاثر عجيب من المنازل المجنونة لم يكن يتفوق على عدم صلاحيتها كمكان للسكن سوى قبحها الفريد تماماً.

كانت المدينة تحجب الصحراء، لكن سواء كان ذلك بسبب الحبال السرية أو جدب التربة فقد نمت تلك المدينة نمواً شاذاً غريباً.

لقد وصلت كراتشي، وأنا قادر على شم رائحة الفرح والترح، الذكاء والغباء وأنا مغمض العينين، وهناك وجدت المراهقة ـ مع العلم، طبعاً بأنني أنا وأمم شبه القارة الهندية الوليدة كنا قد خلفنا الطفولة وراءنا ـ المراهقة بكل ما فيها من آلام النمو وتبدلات الصوت الغريبة المزعجة بانتظارنا جميعاً. لقد أوقفت عملية التصريف حياتي الداخلية، غير أن إحساسي بالارتباط ظل سالماً لم يمسه أحد.

لقد غزا سليم الباكستان أعزل دائماً إلا من أنف مفرط الحساسية، لكن الأنكى من ذلك أنه قام بالغزو من الاتجاه الخاطئ. فكل غزو ناجح لتلك الناحية من العالم إنما بدأ من الشمال. وكل الغزاة كانوا يأتون من البر. لكنني، أنا المبحر جهالة ضد تيارات التاريخ وصلت كراتشي من جهة الجنوب الشرقي وعن طريق البحر، وأظن أن ما تلا ذلك ينبغي ألا يفاجئني.

فمزايا الاكتساح من الشمال، إذا ما نظرنا نظرة الإدراك المؤخر للأمر واضحة تماماً ولا تحتاج للإثبات. فمن الشمال جاء القادة الأمويون، الحجاج بن يوسف ومحمد بن القاسم وكذلك الإسماعيليون (كما أن قصر شهر

العسل، حيث يقال إن علي خان كان يقيم فيه مع ريتا هايوارث موجود في الشمال حيث كان يطل على رقعة أرضنا التي أودعوا فيها الحبل السري، وكانت هناك إشاعات تقول إن النجمة السينمائية تثير الكثير من الفضائح بتجوالها بين المروج وليس عليها سوى مباذل من ثياب هوليوود الشفافة الخرافية) أه يا لتفوق الشمال الذي لا يضاهيه شيء! ترى من أي اتجاه جاء محمد الغزنوي منقضاً على سهول الهند تلك، حاملاً معه لغة ليست أقل تبجحاً من ثلاثة أشكال حرف S؟

والجواب الذي لا مفر منه: من الشمال. كل الغزاة جاؤوا من الشمال. محمد بن سام الغوري الذي أطاح بالغزنويين وأقام الخلافة في دلهي؟ وابن سام الغوري، أيضاً، ذاك الذي تابع تقدمه باتجاه الجنوب.

كذلك طقلق وأباطرة المغول... لكن حسبي، فقد استنفدت غرضي. وليس عليّ إلا أن أضيف أن الأفكار، كما الجيوش، تكتسح الأرض من المرتفعات الشمالية باتجاه الجنوب، الجنوب، الجنوب، فالأسطوري اسكندر بوت شيكان، محطم أصنام كشمير، الذي دمر، في نهاية القرن الرابع عشر كل معبد هندوسي في الوادي (جاعلاً من نفسه سلفاً لجدي) إنما انحدر من الجبال إلى سهول ـ النهر، بعد خمسمائة سنة اقتفت أثره ذاك حركة المجاهدين بقيادة سيد أحمد بريلوي، وكذلك أفكار بريلوي من نكران للذات وكراهية للهندوس وجهاد مقدس.. (أي باختصار) لقد جاءت الفلسفات، كما جاء الملوك، من الاتجاه المعاكس لاتجاهي.

قال والد سليم: «ينبغي أن نصبح جميعاً، أناساً جدداً، ففي أرض الطهارة باتت الطهارة مثلنا الأعلى». لكن سليماً كان ملوثاً بالبومباوية(١) إلى الأبد. رأسه مليء بجميع أنواع المذاهب والأديان علاوة على دين الله (فقد عشت، شأني شأن مسلمي الهند الأوائل، تجار موبلاس مالابار، في بلاد يدين سكانها بديانات لا تقل عدداً عن سكانها، حتى أن عائلتي، في تمردها اللاواعي على تعدد الديانات العجيب ذاك، كانت قد اعتنقت أخلاق العمل لا

(١) نسبة إلى بومباي.

أخلاق الدين) كما كان على جسمه أن يبين تفضيله الفاضح لغير الطاهرين. وكما كان تجار موبلاس، فقد كنت أنا مخلوقاً بأن أظل ناشزاً لكن في النهاية وجدتني الطهارة، وهكذا تطهرت، أنا سليم من آثامي.

بعد ميلادي السادس عشر، درست التاريخ في كلية خالتي علياء، لكن حتى العلم لم يجعلني أشعر بأنني جزء من تلك البلاد التي خلت من أطفال منتصف الليل، والتي كان زملائي الطلاب يخرجون فيها بمظاهرات للمطالبة بمجتمع أكثر إسلامية وصرامة مبرهنين بذلك على أنهم نجحوا في أن يحتلوا موقعاً مضاداً لكل مواقع الطلاب في العالم وذلك بمطالبتهم بفرض المزيد من القيود لا أقل. غير أن والديّ كانا مصممين على مد المزيد من الجذور، رغم أن أيوب خان وبوتو كانا يعقدان تحالفاً مع الصين (التي كانت حتى وقت قريب عدوتنا) ولم يصغ أحمد وأمينة لأية انتقادات وجهت إليهما لشرائهما المنزل الجديد بل اشتريا مصنع مناشف أيضاً.

في تلك الأيام، كان يحيط بوالدي هالة من الألق الجديد، فأمينة فقدت ضباب آثامها، كما بدت مساميرها وكأنها فقدت كل تأثير، في حين كان أحمد، رغم أنه كان لا يزال شاحباً، يشعر وكأن تجمد حقويه يذوب بحرارة حبه لزوجته، ذاك الذي اكتشف حديثاً.

وفي بعض الصباحات كان بإمكان المرء أن يشاهد آثار أسنان على عنق أمينة، كما كانت تقهقه أحياناً على نحو يتعذر التحكم به، كتلميذات المدارس.

ذات يوم قالت أختها علياء: «بشرفي، أنتما الاثنان أشبه بعروسين في شهر العسل أو أنني لا أعلم ما بكما». لكنني كنت قادراً على شم رائحة ما كان يختفي خلف أسنان علياء، لا تلبث في الداخل حين خرجت الكلمات الودية. . . وقد أطلق أحمد سيناء على مناشفه اسم «مناشف أمينة» تيمناً باسم زوجته.

«من هؤلاء أصحاب الملايين العديدة؟ من داود وسيغول وهارون أولاء»، كان والدي يصيح فرحاً، معدداً أكثر عائلات البلاد ثراء «من تراه فاليكار أو ذو الفقار؟ باستطاعتي أن التهمهم كل عشرة بلقمة واحدة،

انتظروا». هكذا أطلق أحمد وعده: «فخلال سنتين سيغدو العالم كله يمسح نفسه بمناشف أمينة، أحسن قماش وبري. أحدث آلات. لسوف نجعل العالم كله نظيفاً وجافاً، لسوف يتوسل ذو الفقار وداود لمعرفة سري، ولسوف أقول نعم، المناشف ذات نوعية عالية لكن السر ليس في التصنيع، بل في الحب الذي طغى على كل شيء».

(وفي حديث والدي، أبصرت بالآثار الباقية لفيروس التفاؤل).

لكن هل غزت مناشف أمينة العالم باسم النظافة (التي تأتي مباشرة بعد...)؟ هل جاء فاليكار وسيغول كي يسألا أحمد سيناء: «يا إلهي لقد قضيت علينا، فكيف فعلت ذلك؟». هل مسحت المناشف ذات القماش الوبري والنوعية العالية ونماذج الرسم التي صممها أحمد نفسه ـ تلك النماذج المبرهجة قليلاً، لكن لا يهم فهي وليدة الحب ـ هل مسحت يا ترى رطوبة الباكستانيين واكتسحت أسواق التصدير معاً؟ هل لف الروس، الانكليز، الأمريكان أنفسهم باسم أمي المخلد..؟... لكن لا... قصة مناشف أمينة ينبغي أن تنتظر حيناً من الزمن ذلك أن حياة أختي جميلة كمغنية على وشك أن تبدأ، فقد جاء لزيارة المنزل المظلل بظلال الجامع في شارع كلايتون، العم بوفز.

اسمه الحقيقي الرائد (المتقاعد) علاء الدين لطيف، والرائد (المتقاعد) هذا كان قد سمع بصوت أختي «من صديقي الطيب الجنرال ذو الفقار، الذي خدم معه في قوات حرس الحدود عام ١٩٤٧»، فاتجه إلى منزل الخالة علياء عزيز بعد ميلاد جميلة الخامس عشر متألقاً، ثقيل الخطا، كاشفاً عن فم مليء بأسنان ذهبية متصلة. «أنا إنسان بسيط» شرح الرجل «مثل رئيسنا اللامع. وإنني أحفظ مالي حيث يكون في أمان». وكان رأس الرائد، شأنه شأن رئيسنا اللامع، كروياً تماماً، لكن خلافاً لأيوب خان، كان لطيف قد ترك الجيش ليدخل دنيا العروض وأعماله. «الوسيط الفني رقم واحد في الباكستان، أيها الكهل»، قال الرجل لأبي: «وكل ذلك بسبب التنظيم. إنها عادة قديمة من الجيش لا تزول بسهولة». وكان لدى الرائد لطيف اقتراح: أن يسمع جميلة وهي تغني، وإذا كانت جيدة بنسبة اثنين بالمائة مما قيل لي يا سيدي الطيب،

فإنني سأجعلها شهيرة. أوه، أجل، بين عشية وضحاها، بالتأكيد. اتصالات. . . هذا كل ما يتطلبه الأمر، اتصالات وتنظيم، ورائدك (المتقاعد) لطيف حظه حسن فعلاً. ثم شدد سامحاً لذهبه أن يلمع في وجه أحمد سيناء. علاء الدين لطيف. هل تعرفون القصة؟ «أجل يكفي أن أفرك مصباحي القديم الرائع حتى يظهر الجني جالباً معه الشهرة والثروة، وابنتك ستكون في أيد أمينة تماماً، صالحة تماماً».

ولحسن حظ جميلة المغنية، فقد كان أحمد سيناء واقعاً في غرام زوجته، وهكذا لم يستطع، هو الذي جعلته سعادته رخواً طرياً، أن يرفض طلب الرائد لطيف في الحال كما أنني أعتقد اليوم، أن والديّ كانا قد توصلا من قبل إلى استنتاج مفاده أن موهبة ابنتهما أعظم بكثير من أن يمنعاها عن الناس. فالسحر الفائق لصوتها الملائكي بدأ يعلمهما المتطلبات الحتمية للموهبة. لكن أحمد وأمينة كان يعنيهما أمر واحد. فقد قال أحمد، الذي كان دائماً الأقدم طرازاً بين الاثنين تحت سطحه الخارجي: «ابنتنا من عائلة كريمة وأنت تريد أن تضعها على خشبة مسرح لا يعلم إلا الله كم من الغرباء. . . .؟». لكن الرائد بدا مصدوماً إذ قال متصلب القسمات «سيدي، أتظن أنني رجل خال من الإحساس؟ أنا نفسي عندي بنات، أيها الكهل. سبع بنات والحمد لله، أقمت لهن وكالة سفر صغيرة يعملن بها، من خلال الهاتف، يعملن. لم أفكر بأن أضعهن على نافذة مكتب. إنها أكبر وكالة سفر ـ بالهاتف في البلد فعلاً. إننا نرسل سائقي قطارات إلى انكلترا، والحقيقة نرسل أيضاً خدم ـ باصات». ثم أضاف بعد لأي: «الغرض هو أن ابنتك ستنال من الاحترام ما أناله أنا نفسي بل أكثر عملياً فهي ستصير نجمة».

بنات الرائد لطيف ـ صفية ورفية وخمس «فيّات» أخريات، جمعتهن القردة المتبقية في أختي تحت اسم «البوفيات» ثم أطلقت على والدهن أولاً لقب الأب بوفيا ومن ثم العم بوفز للتدليل وقد أثبت الرجل أنه عند كلمته. ففي غضون ستة أشهر، بات لدى جميلة المغنية أسطوانات مشهورة وجيش من المعجبين وكل شيء، كل شيء، كما سأشرح مباشرة، دون أن يكشف وجهها.

لقد أمسى العم بوفز مفصل حياتنا، فهو يزور منزل شارع كلايتون كل مساء تقريباً وفي وقت بات يذكرني بساعة الكوكتيل، فيرشف عصير الرمان ويطلب إلى جميلة أن تغني شيئاً ما. وهي، التي باتت فتاة من أعذب الفتيات طبعاً، كانت ملزمة دائماً بـ. . . . . . . بعد ذاك كان يتنحنح منظفاً حنجرته وكأن شيئاً ما علق بها ثم يبدأ المزاح معي بصورة ودية حول موضوع زواجي. والواقع أن ابتسامته العريضة عيار أربعة وعشرين قيراطاً أعمتني حين قال: «لقد حان الوقت لكي تتخذ لنفسك زوجة أيها الفتى، خذ بنصيحتي: تزوج بفتاة حسنة الدماغ سيئة الأسنان، تكسب بذلك صديقة وخزانة ودائع مأمونة في الوقت نفسه». وقد ادعى العم بوفز أن هذا الوصف ينطبق على بناته جميعاً. . .

أما أنا، وقد شعرت بشيء من الضيق، لأنه نصف مازح فقد صرخت «أوه، عم بوفز» وكان يعرف لقبه، بل كان يحبه حتى. وهكذا لطمني على فخذي صارخاً: «من الصعب اللعب عليك، هيه؟ صحيح تماماً حسن يا فتاي! خذ واحدة من بناتي وأنا أضمن ان أنتزع لها كل أسنانها وحين تتزوجان ستكون دوطتها ابتسامة قيمتها مليون دولار».

عند ذلك أفلحت أمي في تغيير الموضوع، فهي لم تكن متحمسة لفكرة العم بوفز، بغض النظر عن غلاء سعر طقم الأسنان. . .

في الليلة الأولى تلك غنت جميلة، كما طفقت تفعل في معظم الليالي منذ ذاك الحين. غنت للرائد علاء الدين لطيف. فانتشر صوتها عبر النافذة حتى طغى على حركة المرور (فكفت الطيور عن التغريد وأقفل المذياع) في محل الهامبرغر الواقع في الطرف الآخر من الشارع، كما امتلأ الشارع بالأناس الواقفين وقد هيمن عليهم صوت أختي. . . وحين انتهت لاحظنا أن العم بوفز يبكي).

«جوهرة» قال الرجل وهو يمسح دموعه بمنشفة «سيدي، سيدتي، ابنتكما جوهرة وإنني لسعيد، سعيد تماماً، فقد أثبتت لي أن الصوت الذهبي أفضل حتى من الأسنان الذهب».

وحينما وصلت شهرة جميلة المغنية إلى النقطة التي لم يعد باستطاعتها أن

تتجنب إقامة حفلة عامة كان العم بوفز هو الذي ابتدأ الإشاعة القائلة بأن المغنية تعرضت لحادث سير مريع شوه شكلها، كما أن الرائد (المتقاعد) لطيف هو الذي صمم لها رداءها الحريري الأبيض الشهير الذي يخفي كل شيء. فجاء نوعاً من ستارة أو حجاب، مزخرفاً زخرفة هائلة بخيوط البركار الذهبية والكتابات الدينية. كانت أختي تجلس بكل حشمة وراءه حين تغني للجمهور. بينما يمسك برداء جميلة المغنية رجلان لا يتعبان، رجلان محتجبان هما الآخران (إنما على نحو أبسط بكثير) من قمة الرأس إلى أسفل القدم ـ وكانت القصة الرسمية تقول إنهما وصيفتان. لكن كان من المستحيل البت بأمر جنسهما وهما خلف النقاب الذي كان الرائد لطيف قد صنع، في وسطه تماماً ثقباً قطره: ثلاث بوصات، وعلى دائره: وشي بأروع خيط ذهب.

تلك هي الكيفية التي عاد بها تاريخ عائلتنا مرة أخرى ليكون قدر الأمة، ذلك أنه ما إن غنت جميلة وشفتاها منضغطتان على الفتحة الموشاة بالذهب حتى وقعت الباكستان في هوى ابنة الخامسة عشرة التي لم تلمحها إلا من خلال ملاءة مثقوبة ذهبية وبيضاء.

كذلك مهرت إشاعة الحادث شهرتها بخاتمها النهائي، فحفلاتها طغت على مسرح بامبينو في كراتشي وملأت مقصف شاليمار في لاهور كما أن أسطواناتها فاقت معدلات البيع باستمرار. وحين أصبحت جميلة «ملك الجمهور»، «ملاك الباكستان» و«صوت الأمة» و«بلبل الدين» وبدأت تتلقى ألف طلب ليدها أسبوعياً، حين أصبحت الابنة المفضلة للبلاد كلها وازدادت مكانتها في الوجود الذي هدد بأن يطغى على مكانها في أسرتنا، حينها وقعت جميلة فريسة لفيروسين توأمين للشهرة: الأول منهما جعلها ضحية صورتها العامة، ذلك أن إشاعة الحادثة أرغمتها على أن تلبس برقعاً أبيض مذهباً باستمرار وحتى مدرسة خالتي علياء التي ظلت تتابع الدراسة فيها، بينما أخضعها الفيروس الثاني لمبالغات وتبسيطات النفس التي هي نتائج جانبية للشهرة لا بد منها بحيث إن الإخلاص الأعمى والمصيب بالعمى وكذلك النزعة الوطنية الصحيحة أو الخاطئة التي كانت قد بدأت تظهر لديها من قبل، باتت آنذاك تطغى على شخصيتها، نافية كل شيء عداها تقريباً.

لقد حبستها الشهرة داخل خيمة مذهبة، ولكونها الابنة الجديدة للأمة، فقد بدأت شخصيتها تدين لجوانب الشخصية القومية الأشد حدة، أكثر مما تدين لعالم الطفولة الذي كانت تمثله أيام كانت قردة نحاسية.

وهكذا بات صوت جميلة المغنية ينطلق من إذاعة صوت الباكستان باستمرار حتى أنها في قرى جناحي البلاد الشرقي والغربي، غدت أشبه بكائن فوق البشر، كائن لا يتعب، ملاك يغني لشعبه طيلة الأيام والليالي، بينما كان أحمد سيناء، الذي خففت عائداتها الضخمة كثيراً من بقايا ريبته وخشيته على ابنته (إذ رغم أنه كان ذات مرة ابن دلهي، وغدا الآن في صميمه مسلماً حقيقياً من بومباي، يضع مسألة الكسب المالي فوق كل اعتبار).

أحمد سيناء هذا بات مولعاً بأن يقول لأختي: «أنت ترين يا بنتي؟ العفة، الطهارة والفن والحس بالعمل المربح يمكن أن تكون كلها الشيء ذاته، وقد كان والدك العجوز من الحكمة بحيث حقق ذلك» فتبتسم أختي ابتسامة عذبة وتوافق...

كانت جميلة قد انتقلت من كونها فتاة مهزولة ذات نزعة صبيانية عنيفة إلى فتاة جميلة رشيقة ذهبية البشرة مائلة العينين طويلة الشعر إلى حد يكفي لأن تجلس عليه، بل حتى أنفها كان يبدو جميلاً، ولقد قال أحمد سيناء ذات يوم للعم بوفز متفاخراً: «في ابنتي ترى أن السيماء النبيلة لعائلتي هي السائدة». حينها رشقها الرجل بنظرة مواربة ثم تنحنح قائلاً لوالدي: «إنها فتاة حسنة الشكل تماماً، فتاة رائعة وحق الله».

لم يعد دوي التصفيق والاستحسان يبتعد عن مسمع أختي، وفي الحفل الأول الذي أقيم لها في مسرح بامبينو الأسطوري الآن (حيث جلسنا في مقاعد حجزها لنا العم بوفز، أفضل مقاعد في الدار على الإطلاق)، بجوار فتياته السبع المحجبات جميعاً.. في ذلك الحفل حفر لي العم بوفز أضلاعي وهو يصيح: «هيه، يا ولد ـ اختر، انتهز الفرصة، وتذكر: الدوطة». فاحمرت وجنتاي خجلاً وحدقت إلى خشبة المسرح لا تطرف لي عين بينما كانت صيحات الـ «واه!! واه!!» تعلو أحياناً على صوت جميلة. وبعد العرض توجهنا إلى جميلة في القسم الخلفي من المسرح حيث وجدناها

غارقة في غابة من الأزهار اضطررنا لأن نشق طريقنا شقاً عبرها، غابة مزهرة من الكافور صنعها حب الناس لأختي، ورأينا أنها على وشك الوقوع مغشياً عليها، ليس من التعب والإرهاق بل من عطور العبادة ذات العذوبة الطاغية التي أغرقت الأزهار الغرفة بها.

أنا أيضاً، شعرت برأسي يفتل إلى أن بدأ العم بوفز يلقي بالأزهار أحضاناً أحضاناً من النافذة المفتوحة وهو يصرخ: «الأزهار حلوة بالتأكيد، لكن حتى البطلة القومية تحتاج إلى الهواء».

كذلك كان هناك تصفيق وهتافات استحسان في الأمسية التي دعيت فيها جميلة (والعائلة) إلى منزل الرئاسة كي تغني لقائد المباهر. يومها فركنا أنفسنا، متجاهلين التقارير المكتوبة في المجلات الأجنبية حول الأموال المختلسة والحسابات المصرفية في سويسرا، إلى أن غدونا نشع ألقاً، فعائلة تعمل في صناعة المناشف ينبغي أن تكون نظيفة نظافة مطلقة، كما أن العم بوفز قام بصقل أسنانه صقلاً شديداً، وفي قاعة واسعة مليئة بصور محمد علي جناح مؤسس الباكستان وقائدها الأعظم، وكذلك صديقه وخليفته الذي قتل غيلة، لياقت علي وهما في أبهى الحلل، أقيمت هناك ملاءة مثقوبة غنت أختي من ورائها وحين سكتت جميلة أخيراً، أعقب صوتها الموشى الأطراف بالبروكار، صوت أشرطة مذهبة قائلاً: «جميلة، يابنتي. سيكون صوتك سيف النقاء، سيكون سلاحاً نطهر به أنفس الرجال». وكان ذلك صوت الرئيس أيوب خان الجندي البسيط، بحسب اعترافه هو، فتشربت أختي منه، قطرة قطرة، الفضائل العسكرية البسيطة من: إيمان بالقادة وإيمان بالله، فردت قائلة: «رغبة الرئيس هي كل ما ترغب فيه نفسي». وعبر ثقب الملاءة كرست جميلة المغنية نفسها لحب الوطن فدوت القاعة بالتصفيق المهذب لا صيحات الواه ـ واه التي كان يرددها جمهور بامبينو، والاستحسان المنظم المنطلق من أصحاب النسور والنجوم وكذلك التصفيق المبتهج الصادر عن والدين يذرفان الدموع، وأخيراً همس العم بوفز: «ماذا أقول؟ رائع جداً، أليس كذلك؟».

ما كنت أسمعه كانت جميلة تغنيه، الحقيقة، الجمال، السعادة،

الخ. . . ولكل من هذه العناصر رائحته الخاصة التي كان بإمكان أنفي تمييزها، كما كان بإمكان جميلة وهي تغني أن تجد لكل منها تعبيره المثالي. أنفي، صوتها: إنهما موهبتان متكاملتان تماماً، لكنهما كانتا تنموان على نحو متباعد، فبينما كانت جميلة تغني أغاني وطنية، كان أنفي على ما يبدو، يفضل التركيز على الروائح الأبشع التي تغزوه: مرارة المشاعر التي تكنها الخالة علياء، النتن الشديد الدائم لأذهان زملائي المغلقة، بحيث إنني في الوقت الذي كانت تعلو فيه جميلة إلى السحاب، كنت أنا أهوي إلى القاع.

لكن حين أنظر إلى الوراء، أرى أنني كنت قد وقعت في هواها فعلاً وقبل زمن طويل من اللحظة التي قيل فيها. . . . لكن هل هناك برهان على حب سليم المحرم لأخته؟ هل هناك؟ لقد ظل لدى جميلة المغنية عاطفة واحدة مشتركة مع القردة النحاسية التي اختفت تماماً، فقد كانت تحب الخبز. كانت أختي، رغم نزعتها الوطنية، تحن باستمرار للخبز المتخمر، وفي كراتشي كلها، أين كان المصدر الوحيد للأرغفة المتخمرة الفاخرة يا ترى؟ ليس مخبز الخباز بالتأكيد بل أفضل خبز في المدينة كان يعطى عبر كوة في جدار مصمت تماماً، صباح كل خميس من قبل الأخوات الراهبات في دير سانتا أغناسيا.

وهكذا كنت كل أسبوع، أمتطي دراجتي اللامبريتا كي أحضر لأختي أرغفة الراهبات الطرية الساخنة، رغم الأرتال المتلوية الطويلة. كنت أنطلق عبر الأزقة الضيقة المؤدية إلى الدير مستخفاً بكل الروائح اللاذعة الحادة المحملة بأبخرة الروث، متجاهلاً كل نداءات المشاغل الأخرى، كي أحضر الخبز. إذ لم يكن للانتقاد مكان في عالمي كما أنني لم أسأل أختي مرة واحدة فيما إذا كان هذا الأثر الباقي من تقربها القديم للمسيحية لا يؤثر تأثيراً سيئاً على دورها الجديد كبلبل للإيمان.

هل يستطيع أحد يا ترى أن يتتبع أصول الحب غير الطبيعي؟ هل بات سليم الذي كان يتوق لاحتلال مكان في مركز التاريخ، مسلوب العقل بما رآه لدى أخته من آماله هو بالحياة؟

هل وقع المتعجرف الذي لم يعد متعجرفاً بعد، المشوه كثيراً كعضو في

مؤتمر أطفال منتصف الليل مثله مثل سنداري ابنة الشحاذ التي شوهت وجهها السكاكين، هل وقع يا ترى في هوى الكمال الجديد الذي تجسده أخته؟ هل كنت أعبد في أختي، أنا الذي كنت مباركاً ذات يوم، الكمال الذي كنت أحلم به في أشد أحلامي خصوصية؟.. كل ما سأقوله هو أنني لم أكن واعياً لما حدث لي إلى أن بدأت، والدراجة النارية بين فخذي، أنا ابن السادسة عشرة، أقتفي آثار الموسسات.

وهكذا، بينما كانت علياء تحترق احتراقاً بطيئاً، خلال الأيام الأولى للمناشف ماركة أمينة ووسط تأليه جميلة المغنية، وبينما كان المنزل المنشطر ـ المستوى يعلو ويرتفع بأمر حبل سري، وهو لا يزال بعيداً عن الاكتمال، وفي الوقت الذي كان يزهر فيه حب والدي إزهاره المتأخر، كان سليم سيناء، تحيط به أرض الطهارة بكل قحلها وجردها، قد توصل إلى اتفاق مع ذاته، أنا لن أقول إنه كان حزيناً. لكنني أعترف، رافضاً أن أنتقد ماضي، أنه كان متجهماً غير متعاون وشكساً بالتأكيد كمعظم الفتيان في عمره. لقد صارت أحلامه، بعد أن أنكره أطفال منتصف الليل، ملأى بالحنين إلى الوطن إلى درجة المرض، إلى درجة كان غالباً ما يضيق معها وهو يشير إلى صدره مفعماً بندم وأسى شديدين يطغيان على أحاسيسه كلها، وغالباً ما كانت تمر به كوابيس بأعداد تسير بخطا عسكرية: واحد، اثنان، ثلاثة، كوابيس ذات ركب شديدة الإطباقة خانقة.... لكن كان ثمة موهبة جديدة ودراجة لامبريتا وحب (رغم أنه كان لا يزال في أعماق اللاوعي) حب متواضع خانع لأخته.

.... وإذا ما أبعدت عيني، كراوٍ، عن الماضي المذكور، فإنني أصر على أن سليماً ـ حينذاك مثلما ـ هو ـ الآن، نجح في تحويل انتباهه نحو المستقبل المجهول في ذلك الحين. إنني بفراري كلما أمكنني ذلك، من المسكن الذي كانت أبخرة الحسد ذي الرائحة الزنخة الذي كانت تكنّه خالتي والذي جعل الحياة مستحيلة فيه، وكذلك من المعهد المليء بروائح كريهة مماثلة أخرى، كنت أمتطي حصاني الناري وأستكشف شوارع مدينتي الجديدة. وبعد أن سمعت بوفاة جدي في كشمير، بت أكثر تصميماً من ذي قبل على إغراق الماضي في مرقة الحاضر الكثيفة المبقبقة... يا للأيام

الأولى المدوخة أيام ما قبل التصنيف! بلا شك، وقبل أن أبدأ بوضع صيغة لها، كانت الروائح في داخلي. الأبخرة المتفسخة المحزنة المنبعثة من روث الحيوانات في حدائق متحف شارع فرير، وروائح الأجسام المكسوة بالبثور لشبان يلبسون منامات فضفاضة ويمسك بعضهم بأيدي البعض الآخر في أماسي سادار، وكذلك رائحة بزرة الفوفل الحادة كحد الموسى وقد بصقتها الأفواه، والخليط العذب ـ المر للفوفل والأفيون ـ إذ كان بالإمكان استنشاق رائحة صواريخ البان في الأزقة المزدحمة بالباعة المتجولين الواقعة بين شارع الفنيسون وجادة فيكتوريا. علاوة على روائح ـ الإبل، السيارات، أدخنة العربات المهيجة كلدغ البعوض، روائح السجائر المهربة والمال المختلس، الروائح الكريهة المنبعثة من سائقي باصات المدينة وعرق ركابها المحشورين كالسردين (أحد سائقي الباصات، في تلك الأيام، أثاره كثيراً تغلب منافس من شركة أخرى عليه ـ فانبعثت من غدده رائحة الهزيمة التي تصيب بالغثيان ـ وقد أثير إلى درجة جعلته يلف بباصه حول منزل خصمه ليلاً ثم يطلق بوقه إلى أن ظهر الزميل المسكين فدهسه بعجلات باصه وهو يفوح برائحة الانتقام، كخالتي) وفوق رأسي كان المسجد يصب عطر التعبد والإيمان، وكان باستطاعتي أن أشم رائحة السلطة القوية المنبعثة من سيارات الجيش الخافقة الأعلام.

أما في لوحات الإعلانات السينمائية ذاتها. فقد كان باستطاعتي أن أشم رائحة العطور الرخيصة السقيمة لأفلام الغرب المستوردة وأفلام الفنون ـ العسكرية الأشد عنفاً من أية أفلام أخرجت من قبل.

ولحين من الزمن، كنت أشبه بشخص مخدر، يدور ضمن دوامة هائلة من الروائح، لكن بعد ذلك استطاعت رغبتي الطاغية بتحديد الصيغة أن تؤكد ذاتها، فبقيت على قيد الحياة.

العلاقات الهندية - الباكستانية ساءت، الحدود أغلقت. وهكذا لم نستطع الذهاب إلى آغرا لحضور مأتم جدي. كما أرجئت هجرة الأم المبجلة إلى الباكستان بشكل من الأشكال. في غضون ذلك، كان سليم يعمل لإيجاد نظرية عامة للرائحة: أي كانت إجراءات التصنيف قد بدأت. وإنني أنظر إلى

هذا النهج العلمي بوصفه تقدمتي الشخصية إلى روح جدي. . . ولكي أبدأ به فقد أتممت مهارتي في التمييز إلى أن بات بمستطاعي التمييز ما بين مختلف أنواع بزر الفوفل، تلك الأنواع التي لا عد لها، وكذلك التمييز (وعيناي مغمضتان) ما بين أنواع الكازوز الاثني عشر المختلفة (وذلك قبل زمن طويل من مجيء المعلق الأمريكي هوبرت فيلدمان إلى كراتشي واستنكاره وجود اثني عشر نوعاً من المياه الغازية في مدينة ليس فيها سوى ثلاثة ممولين بالحليب المعقم). لقد كان باستطاعتي أن أجلس مغمض العينين وأن أميز الباكولا من الميشن، والكوكاكولا من الفانتا، علماً أن فيلدمان رأى أن تلك المشروبات مظهر من مظاهر الامبريالية الرأسمالية، أما أنا فقد كنت أكثر اهتماماً باجتياز امتحان روائحها الحادة. فالدوبل كولا والكوكاكولا، البيري كولا والببل آب كلها كنت أتعرف إلى رائحتها واسمها (وأنا مغمض العينين). وحين تأكدت من سيطرتي على ميدان الروائح المادية، حينها فقط انتقلت إلى الروائح الأخرى تلك التي كان باستطاعتي أن أشمها: روائح العواطف، روائح الألف دافع ودافع تلك التي تجعلنا بشراً، الحب والموت، الشره والقناعة، الامتلاك وعدم الامتلاك، كلها كتبت لها بطاقات ثم وضعتها في مقصورات ذهني المرتبة.

محاولات أولى في التصنيف: لقد حاولت تصنيف الروائح بحسب الألوان ـ فاللباس التحتاني الدافئ جداً وحبر مطبعة جريدة «اليانغ» يشتركان بلون واحد هو الأزرق، بينما يشترك خشب الساج العتيق والضراط الجديد كلاهما باللون البني الغامق، كما تشترك السيارات والمقابر باللون الرمادي. . . كذلك كان هناك تصنيف بحسب الوزن هناك روائح من وزن الذبابة (كالورق مثلاً)، وروائح من وزن البنطم: الأشخاص ضئيلي الجسم (كرائحة الأجسام المغسولة بالصابون، ورائحة العشب). وهناك روائح من وزن الولتر[1] (كرائحة التعرق وملكة الليل[2])، أما الشاهيكورما[3] وزيت

(١) وزن ملاكم يتراوح ما بين ٦١,٧ و ٦٦,٧ كيلوغراماً.
(٢) نبات معرش مداري يزهر ليلاً.
(٣) وحدة نقد فارسية قديمة.

الدراجة فقد كانا، بحسب تصنيفي، من الوزن الخفيف ـ الثقيل، بينما كان الغضب وعشب البتشولي[1] والخيانة والروث من بين روائح الأرض ذات الوزن الثقيل. وقد كان لي نظامي الهندسي أيضاً فالفرح دائري الشكل والطموح مثلث، كما كانت لدي روائح إهليلجية، وبيضوية ومربعة أيضاً. . .

وهكذا، كنت بأنفي المعجمي، أجوب شارع بندر وشوارع المدينة الأخرى، وكأية حشرة من قشريات الأجنحة كنت أشبك الروائح كما تشبك هي الفراش في شبكة شعيراتي الأنفية، فيا للرحلات الرائعة قبل ميلاد الفلسفة. . ذلك أنني سرعان ما أدركت أن على عملي، إن كان ينبغي أن تكون له قيمة، أن يكتسب بعداً أخلاقياً، وأن التقسيمات الوحيدة المهمة هي التفريق ما بين روائح الخير والشر. ولكوني أدركت الطبيعة الحاسمة للأخلاق والمبادئ الخلقية وعلمت أن الروائح يمكن أن تكون مقدسة أو دنسة، فقد ابتكرت، وأنا وحيد أتنقل على دراجتي، علم الأخلاق الأنفي.

مقدسة: حجب البردة، اللحم الحلال، أبراج المآذن، سجادات الصلاة، دنسة: الأسطوانات الغربية ـ لحم الخنزير، الكحول، وحينها بت أفهم لماذا يرفض رجال الدين (المقدسون) دخول الطائرات (الدنسة) في الليل الذي يسبق عيد الفطر ولا يرغبون حتى بدخول مركبات لها رائحة خفية مضادة لرائحة الألوهية كي يتأكدوا من رؤية الهلال الجديد.

كما علمت بالتنافر الشمي بين الإسلام والاشتراكية والتعارض الذي لا رجوع عنه بين كولونيا ما بعد الحلاقة التي يتعطر بها أعضاء نادي السند وبين رائحة الفقر العفنة التي تنبعث من الشحاذين الذين يفترشون الشارع عند أبواب النادي. . . لكن الأنكى من ذلك كله أنني بت مقتنعاً بحقيقة بشعة ـ هي أن المقدس أو الخير لم يكن يثير إلا القليل من اهتمامي، حتى عندما كانت روائح كهذه تلف أختي وهي تغني، بينما كانت روائح العالم السفلي اللاذعة تبدو لي وكأنها ذات جاذبية شديدة لا تقاوم، علاوة على ذلك فقد كنت في السادسة عشرة، وكانت ثمة أشياء تتحرك تحت حزامي، بين فردتي بنطالي

(١) عشب عطر الرائحة.

الأبيض كلون البطة، وما من مدينة تقفل الأبواب على نسائها تعوزها الموسات يوماً.

وهكذا حين كانت جميلة تغني عن القداسة وحب الوطن، كنت أنا أكتشف الدنس والشهوة (وكان لدي مال أحرقه فقد أضحى والدي كريماً بقدر ما أضحى محباً).

وبجوار متحف الجنة الذي لن يكتمل أبداً، رحت ألتقط بنات الشارع، بائعات الهوى، حيث كان شبان آخرون يأتون لإغواء الفتيات الأمريكيات والذهاب معهن إلى غرف الفنادق أو أحواض السباحة، أما أنا فكنت أفضل أن أدفع مالاً وأحتفظ باستقلالي. أخيراً شممت رائحة مومس الموسات، تلك التي كانت مواهبها مرآة تعكس مواهبي. كان اسمها تاي بيبي، وقد ادعت أن عمرها خمسمائة واثنتا عشرة سنة.

ورائحتها. إنها أقوى رائحة شمها سليم في حياته، فقد شعر بأن شيئاً ما في تلك الرائحة، رائحة الجلال التاريخي، يسحره.. ووجد نفسه يقول للمخلوقة الدرداء: «أنا لا يهمني عمرك، رائحتك هي المهمة».

(«يا إلهي»، تقاطعني بادما «شيء كهذا! كيف استطعت فعله؟»).

ورغم أنها لم تلمح إلى أية صلة لها بالنوتي الكشميري تاي، فقد كان اسمها يمارس ضرباً من الجذب الشديد، ورغم أن من المحتمل أنها كانت تهزأ بسليم حين قالت: «يا فتى، عمري خمسمائة واثنتا عشرة» فإن حسه بالتاريخ قد استثير تماماً. ولتفكروا بي ما طاب أن تفكروا، لكن الحقيقة أنني قضيت عصراً حاراً رطباً في غرفة مستأجرة ليس فيها سوى فراش مليء بالبراغيث ومصباح عار وأقدم مومس في العالم.

ما الذي جعل تاي بيبي أخيراً امرأة من المتعذر مقاومتها؟ أي موهبة امتلاك كانت لديها وكانت تكسف بها الموسات الأخريات؟ ما الذي جعل خيشومي سليم اللذين عادت حساسيتهما مؤخراً يصابان بالجنون؟ بادما: لقد كانت مومسي العجوز تلك تمتلك سيطرة لا نظير لها على غددها، سيطرة تستطيع معها أن تغير معها روائح جسدها على نحو يتماشى مع روائح أي امرئ على وجه الأرض فمفرزاتها الداخلية والخارجية كانت تلبي رغبتها

البالغة القدم، تلبي كل ما يصدر لها من تعليمات ورغم أنها قالت: «لا تتوقع مني أن أمارس العمل معك وأنا واقفة، فأنت لا تستطيع أن تدفع ما يكفي لذلك»، فإن مواهبها في ميدان الرائحة كان يفوق قدرة سليم على التحمل. (.. صه.. صه تقول بادما وهي تسد أذنيها «يا إلهي، رجل بهذه الوساخة والقذارة لم تر عيناي قط»).

وهكذا كان هناك، ذلك الشاب الأبيض ذاته، مع مومس عجوز قالت له: «لن أتحمل وقوفاً فهناك مسامير في أقدامي» ومن ثم لاحظت أن ذكر مسامير الأقدام يثيره على ما يبدو، فهمست بسر قدرتها على إفراز المفرزات الداخلية والخارجية التي تشاء: ثم سألته إن كان يريدها أن تقلد رائحة أي إنسان، فغدا يصف الرائحة وهي تحاول، وبطريقة التجربة ـ والخطأ استطاعا. في البداية انطلق مبتعداً، ثم انكفأ صائحاً: لا لا لا فقد أغرته بصوتها جاذبة إياه كورقة مكرمشة، ولأنه كان وحيداً، خارج الزمان والمكان، وحيداً مع تلك المومس العجوز الأسطورية غير المعقولة فقد بدأ يصف روائح بكل ما يملك أنفه العجيب من قدرات. وبدأت تاي بيبي تحاكي ما يصفه تاركة إياه مشدوهاً مذعوراً وهي تنجح، بطريقة التجربة والخطأ، في إنتاج روائح أمه وخالاته من جديد قائلة له، إنك تحب ذلك أيها السيد الصغير، استمر، احشر أنفك في المكان الذي تحب. احشره أقرب ما تستطيع، إنك شاب مضحك بالتأكيد.. إلى أن حدث فجأة، وبالمصادفة، نعم أقسم إنني لم أجعلها تفعله، بل فجأة ومن خلال التجربة والخطأ، حدث أن انبعثت الرائحة التي لا يمكن وصفها أبداً من الجسم القديم الجلدي المتعفن، ولم يعد باستطاعتها إخفاء ما رأته فقالت: «أوه، أيها السيد الصغير ما الذي ينبعث مني الآن، لا، ليس عليك أن تقول من هي، لكن رائحتها هي الرائحة المطلوبة بالتأكيد».

فقال سليم: «صه، صه». لكن تاي بيبي، بقسوتها التي أكسبها إياها الدهر تتابع: «أوه، أجل بالتأكيد حبيبتك، أيها الفتى الصغير فمن هي؟ قريبتك ربما؟ أختك...؟». فتتجمع على شكل قبضة يد سليم، اليد اليمنى، رغم إصبعها المبتورة، تفكر بالعنف... بينما تستأنف تاي بيبي «يا

إلهي. أجل. أختك. هيا، اضربني، فأنت لا تستطيع أن تخفي ما يكمن داخل جبهتك».

ويصرخ سليم، وهو يجمع ثيابه حاشراً نفسه في بنطاله «اخرسي أيتها المومس العجوز» بينما تقول هي: «أجل، امض، اذهب، لكن إن لم تدفع لي فسوف، سوف ترى ما الذي لا أفعله»، حينها تنقذف روبيات عبر الغرفة عائمة حول المرأة العجوز ذات الخمسمائة والاثنتي عشرة سنة «خذي، خذي، فقط أغلقي فمك القبيح» بينما تقول هي «انتبه يا أميري الصغير، فأنت نفسك قبيح» ويكون سليم قد ارتدى ثيابه فيندفع من الغرفة المستأجرة إلى الخارج حيث الدراجة النارية بانتظاره لكن أولاد الشارع يكونون قد بالوا على مقعدها، فيسوق بأسرع ما يستطيع، بيد أن الحقيقة تسرع معه، وتظهر تاي بيبي من النافذة صائحة بـ «أيها الفتى، هيه، أيها الفاعل بأخته، أين أنت ذاهب؟ ما هو صحيح صحيح صحيح...».

وقد تسأل بصورة مشروعة: هل حدث الأمر بهذه الصيغة تماماً... لا بالتأكيد. فهي لا يمكن أن تكون بعمر خمسمائة واثنتي عشرة سنة... لكنني أقسمت أن أعترف بكل شيء، وإنني أصر على أنني علمت بسر حبي لجميلة المغنية، ذلك السر الذي لا يمكن التكلم عنه من فم تلك المومس غير العادية وغدد رائحتها.

«السيدة براغانزا على صواب» تقول لي بادما موبخة. إنها تقول: «لا شيء سوى القذارة في رؤوس الرجال»، لكنني أتجاهلها وأتجاهل السيدة التي ذكرتها. فبراغانزا هذه وأختها السيدة فرناندز سوف آتي على ذكرهما في الوقت المناسب، أما في الوقت الحاضر فعلى الأخيرة أن تكون راضية بحسابات المصنع بينما تقنع الأولى بالإشراف على ولدي، في حين يتعين علي، كي أستعيد استحواذي على انتباه بادما بيبي المتمردة. أن أحكي من جديد حكاية خرافية.

كان يا ما كان في قديم الزمان، كان يعيش في إمارة «كيف» الشمالية، أمير له ابنتان جميلتان، وابن لا يقل عنهما جمالاً، وكانت لديه سيارة جديدة من طراز رولز رويس وصلات سياسية ممتازة. هذا الأمير، أو النائب، كان

يؤمن كل الإيمان بالتقدم، وهذا هو السبب الذي دفعه لترتيب خطبة ابنته الكبرى لابن الجنرال الثري والشهيد ذو الفقار، أما ابنته الصغرى فقد كانت لديه آمال كبيرة بأن يزوجها لابن الرئيس نفسه. وفي ما يتعلق بسيارته وهي الأولى من نوعها التي شوهدت في واديه المحفوف بالجبال فقد كان متعلقاً بها تعلقه بأولاده، ولقد أحزنه كل الحزن أن رعاياه، الذين باتوا معتادين على استخدام طرق «كيف» لأغراض التواصل الاجتماعي والمشاجرات وألعاب إصابة ـ المبصقة، رفضوا إفساح الطريق له. فأصدر إعلاناً يقول إن السيارة تمثل المستقبل وينبغي السماح لها بالمرور، لكن الناس تجاهلوا الإعلان. رغم أنه عُلّق على واجهات الحوانيت وجدرانها، بل، وكما يقال، على جنبات الأبقار. الإعلان الثاني كان أكثر وضوحاً وإلحاحاً، إذ كان يأمر المواطنين بإفساح الطرق العامة تماماً حين يسمعون صوت السيارة بيد أن الكيفيين ظلوا يدخنون ويلعبون لعبة المبصقة ويتجادلون في الشوارع.

أما الإعلان الثالث الذي جاء مزخرفاً برسم يجمد الدم في العروق، فقد قال إن السيارة ستدهس من الآن فصاعداً كل من يتوانى عن إطاعة صوتها.

وقد أضاف الكيفيون صوراً جديدة وأكثر فضائحية للصورة المرسومة على الإعلان: بعدئذ نفذ النائب الذي كان رجلاً طيباً إنما ليس ذاك الذي لا ينفد صبره، نفّذ تهديده. وحين وصلت المغنية الشهيرة جميلة مع عائلتها ووسيطها الغني كي تغني في احتفال خطبة ابن خالتها، سارت بالسيارة دون أية صعوبة من الحدود إلى القصر، وقال النائب بافتخار: «لا صعوبات، فالسيارة موضع احترام الآن، لقد حصل التقدم».

أما ابن النائب، معتصم، الذي سبق له أن سافر إلى الخارج والذي كان يترك شعره وفق تسريحة تدعى «تسريحة الخنافس» فقد كان مصدر إزعاج لأبيه، إذ رغم انه كان حسن الهيئة ورغم أن الفتيات ذوات الحلى الفضية في أنوفهن كن يسقطن مغشياً عليهن حيثما يتجول في كيف لشدة جماله، فإنه لم يكن، على ما يبدو، يهتم بقضايا كهذه، راضياً كل الرضى بأمهاره التي يلعب عليها لعبة البولو، وبالغيتار الذي يغني عليه أغاني غربية غريبة. كما كان يرتدي قمصاناً مشجرة تتزاحم عليها نوتات موسيقية وإشارات مرور أجنبية

وأجسام نصف عارية لفتيات ذوات بشرات وردية. لكن حين وصلت جميلة المغنية إلى القصر، وهي محتجبة خلف البرقع الموشى بالذهب. سيطرت على معتصم الجميل ـ الذي لم يكن، بسبب وجوده في الخارج قد سمع بالإشاعات التي دارت حول تشوه شكلها ـ سيطرت عليه فكرة واحدة هي: أن يرى وجهها، فسقط متيماً بالحب من لمحات عينيها الصامتتين حين رآهما عبر ملاءتها المثقوبة.

في تلك الأيام، كان رئيس جمهورية الباكستان قد أمر بإجراء انتخابات، وكان ذلك سيتم في اليوم الذي يلي حفلة الخطبة، وفق صيغة من المصادقة تدعى الديمقراطية الأساسية، فقد قسم شعب الباكستان بملايينه المائة إلى مائة وعشرين ألف وحدة متساوية تقريباً. كل وحدة يمثلها ديمقراطي أساسي واحد. والمجموعة المنتخبة المؤلفة من مائة وعشرين ألف ديمقراطي أساسي كانت ستنتخب رئيس الجمهورية.

في كيف، كان الديمقراطيون الأساسيون وعددهم /٤٢/، يضمون رجال الدين، كناسي الشوارع، سائق النائب والكثير من الرجال الذين كانوا يشاركون في جني محصول الحشيش في أراضي النائب، إضافة إلى مواطنين مخلصين آخرين، وقد دعا النائب هؤلاء جميعاً إلى حفل خطبة ابنته. لكنه كان مضطراً أيضاً لأن يدعو وبشين حقيقيين، هما عنصران قياديان من حزب الائتلاف المعارض. هذان الوبشان كانا في نزاع دائم معه وفي ما بينهما، لكن النائب كان شديد الترحيب إذ قال لهما: «هذه الليلة أنتما صديقاي المكرمان، أما غداً فلنا شأن آخر». وهكذا أكل الوبشان وشربا وكأنهما لم يشاهدا طعاماً من قبل وقد أعطيت أوامر للجميع ـ بما في ذلك معتصم الجميل الذي كان صبره أشد نفاداً من صبر أبيه ـ بأن يحسنوا معاملتهما.

وحزب الائتلاف، كما لن يفاجئك أن تسمع، هو مجموعة من الغوغاء والأوغاد من الطراز الأول، ائتلفوا لا لشيء إلا لكي يطيحوا برئيس الجمهورية ويعودوا إلى الأيام الأولى الفاسدة أيام كان المدنيون وليس العسكر، يحشون جيوبهم بأموال الشعب، لكن لسبب من الأسباب كانوا قد حطوا على زعيم هائل. هذا الزعيم هو السيدة فاطمة جناح، أخت مؤسس

البلاد، وهي امرأة مقددة طاعنة في السن إلى درجة جعلت النائب يرتاب في أنها قضت نحبها منذ أمد طويل إنما حنطها أستاذ بارع في التحنيط ـ وهي فكرة ثنى عليها ابنه الذي سبق له أن شاهد فيلماً يدعى «السيد» وفيه رجل ميت يقود جيشاً إلى ساح الوغى. . . لكن رغم ذلك، فقد كانت موجودة، وقد دفعها إلى الاشتراك في الانتخابات إخفاق رئيس الجمهورية في إكمال رخام الضريح الذي يرقد أخوها فيه، وكانت خصماً مخيفاً فوق الشبهات والريب، بل يقال إن معارضتها للرئيس زعزعت إيمان الشعب به ـ لكن ألم يكن الرئيس هو التجسيد الجديد لأبطال الإسلام العظام في الأيام الخالية؟

التجسيد الجديد لمحمد بن سام الغوري، لإلتتمش والمغول؟ لقد لاحظ النائب حتى في «كيف» ذاتها أن مناشير حزب الائتلاف المعارض ظهرت في أماكن غريبة، بل إن أحدها ألصق على صندوق سيارة الرولز رويس. «زمن رديء» قال النائب لابنه، فأجاب معتصم: «ذلك ما عادت به الانتخابات عليك. . منظفو النوافذ والخياطون المبتذلون ينبغي أن يقترعوا وأن ينتخبوا الحاكم، أليس كذلك؟».

لكن ذلك اليوم كان يوم فرح في جناح الحريم حيث كانت النسوة يخضبن كفي وقدمي بنت النائب بخطوط الحناء الجميلة، فالجنرال ذو الفقار وابنه سيصلان في الحال، أما حكام كيف فقد أخرجوا مسألة الانتخابات من أذهانهم، رافضين مجرد التفكير بتلك الشخصية المتهدمة فاطمة جناح، أم الشعب، التي كانت قد اختارت بقسوة فؤاد شديدة أن تربك أبناءها لدى اختيارهم نواباً عنهم.

كذلك كانت السعادة هي المخيمة في جميع الأنحاء من حفلة جميلة المغنية. فوالدها صانع المناشف الذي لم يكن باستطاعته، على ما يبدو، أن يتخلى عن يد زوجته الناعمة، صرخ بملء صوته «أترون؟ ابنة من تلك التي تغني هنا؟ أهي ابنة هارون؟ فاليكا؟ ابنة داود سيغول؟ يا للجحيم!!». غير أن ابنه سليم، ذلك الشخص المنكود بوجهه الأشبه برسم كاريكاتوري بدا كأن مرضاً شديداً حل به، ربما كان قد طغى عليه وجوده في حضرة أحداث

تاريخية كبيرة، إذ كان يرشق بنظرات سريعة أخته الموهوبة وفي عينيه شيء بدا وكأنه الشعور بالخزي.

عصر ذلك اليوم، انتحى معتصم الجميل بسليم، شقيق جميلة، محاولاً جهده أن يعقد أواصر الود معه، إذ عرض على سليم طيور الطاووس التي جيء بها من راجستان قبل التقسيم ومجموعة النائب النفيسة من كتب السحر والطلاسم التي كان يستخلص منها تمائم وتعاويذ تساعده في أن يحكم بكياسة ودهاء، وبينما كان المعتصم (الذي لم يكن أذكى الشباب أو أشدهم حرصاً) يطوف بسليم في ملعب البولو، اعترف بأنه كتب ورقة حب على قطعة من الرق، آملاً أن يضغطها على يد جميلة المغنية كي تقع في هواه. عند هذه النقطة اتخذ سليم هيئة الكلف المتعكر المزاج وحاول الانصراف لكن المعتصم راح يتوسل كي يعرف حقيقة جميلة المغنية وشكلها فعلاً. بيد أن سليم التزم جانب الصمت إلى أن طلب إليه المعتصم، يدفعه جنون هاجسه أن يأخذه إلى مقربة من جميلة تكفي لأن يضغط برقيته على يدها، حينذاك قال سليم الذي لم تش نظرته الماكرة لمعتصم المدله حباً بشيء:

«أعطني الرقية»، وحينها سلم معتصم الذي كان بريئاً في أمور السحر، رغم خبرته الكبيرة في جغرافيا المدن الأوروبية، سلم الرقية إلى سليم وهو يعتقد أنها ستعمل لصالحه، حتى ولو استخدمها شخص آخر.

دنا المساء من القصر، وبدنوه دنا أيضاً موكب السيارات حاملاً معه الجنرال والبيجوم ذو الفقار، وابنهما ظافر والأصدقاء، لكن الريح كانت قد تغيرت، فقد بدأت تهب من الشمال ريح باردة وكذلك ريح مسكرة، ذلك أنه يوجد في شمال كيف أفضل حقول الحشيش في البلاد، وفي هذا الفصل من السنة تكون مزارع الحشيش ناضجة وعلى أشدها وهكذا كان الهواء مفعماً برائحة تلك النباتات التي تدوخ الرؤوس، وكان كل من يستنشقها يغدو ثملاً إلى درجة ما. لقد أصابت النباتات بتأثيرها المسكر هذا سائقي الركب الذي لم يصل إلى القصر إلا بضربة حظ، هو الذي قلب في طريقه عدداً من أكشاك الحلاقة المنصوبة على أرصفة الشوارع واقتحم صالة ـ شاي واحدة على الأقل، تاركاً أهل كيف يتساءلون إن كانت العربات الجديدة التي لا تجرها

خيول والتي احتلت الشوارع، ستعمل بعدئذ على احتلال منازلهم أيضاً.

كذلك دخلت الريح القادمة من الشمال الأنف الضخم، المفرط الحساسية، أنف سليم أخي جميلة وجعله ناعساً إلى درجة استغرق معها في غرفته في سبات عميق فأضاع بذلك فرصة حضور تلك الأمسية التاريخية التي، كما علم في ما بعد، حولت فيها الريح الحشيشية سلوك الضيوف المدعوين إلى حفل الخطبة تحويلاً شديداً، جاعلة إياهم يقهقهون عالياً وينظرون على نحو استفزازي بعضهم إلى البعض الآخر بعيون مثقلة الجفون. كما جعلت الجنرالات بشرائطهم المذهبة يجلسون وقد باعدوا ما بين سيقانهم على الكراسي المذهبة وهم يحلمون بالفردوس.

وهكذا جرت حفلة الحناء وسط رضى ذاتي ناعس وعميق إلى حد لم يلاحظ معه أحد شيئاً حين استرخت أعصاب العريس استرخاء كاملاً بلل معه بنطاله، بل لم يلاحظوا الشخصين المتنازعين دائماً الآتيين من حزب الائتلاف المعارض وهما يشبكان ذراعاً بذراع ويغنيان أغنية شعبية.

وحين حاول معتصم الجميل، وقد سيطرت عليه شهوانية نبات ـ الحشيش، أن يندفع خلف الملاءة الشهيرة، ملاءة البروكار المذهبة ذات الثقب الوحيد في وسطها، ردعه الرائد علاء الدين لطيف بأسلوب مازح شديد الابتهاج، حائلاً بينه وبين رؤية محيا جميلة المغنية دون أن يدمي أنفه حتى.

وقد انتهت الأمسية حين سقط جميع الضيوف نياماً على طاولاتهم إنما رافق جميلة المغنية إلى جناحها الرائد لطيف المتألق نعاساً.

عند منتصف الليل، أفاق سليم ليجد أنه ما زال ممسكاً بيده اليمنى رقية السحر التي أعطاه إياه معتصم الجميل، وبما أن ريح الشمال كانت لا تزال أنسامها العليلة عبر غرفته فقد عقد العزم على أن يزحف، بخفه وثوبه المنزلي، عبر دهاليز القصر الرائع المعتمة، ماراً بكل الركام المكدس لذلك العالم المتفسخ، بكل البزات الحربية الصدئة، والستائر القديمة التي تكفي لإطعام مليار دودة من عث القصر قروناً من الزمن، مجتازاً سمك الترويت العملاق وهو يسبح في بحاره البللورية، وعدداً كبيراً من تذكارات الصيد بما

في ذلك طائر التيتار[1] المطلي بالذهب على فرع من خشب الساج ليظل ذكرى اليوم الذي استطاع فيه أحد أسلاف النائب، بصحبة اللورد كورزون وجماعته، أن يطلق / ١١١/ طلقة وأن يسقط / ١١١/ طائراً.

بعدئذ زحف ماراً بتماثيل الطيور الميتة في جناح الحريم حيث كانت نسوة القصر نائمات، ثم استنشق الهواء واختار باباً من الأبواب ثم أدار المقبض ودخل.

في الداخل ينتصب سرير هائل تغطيه كتلة بعوض تسبح في جدول من ضياء شاحب اللون يرسله قمر منتصف الليل الذي يدفع إلى الجنون. فاتجه سليم إليه ثم توقف، ذلك أنه رأى، عند النافذة شبح رجل يحاول تسلق الغرفة. فمعتصم الجميل، الذي أفقدته كل حياء فتنته الجميلة والريح الحشيشية، كان قد صمم على رؤية وجه جميلة أياً كان الثمن، لكن سليم المختفي في ظلال الغرفة صرخ عالياً: «ارفع يديك أو أطلقت النار»، وكان سليم كاذباً. لكن معتصم الجميل الذي كانت يداه لا تزالان على عتبة النافذة مستنداً بثقله كله عليهما، لم يكن يعرف ذلك، ووجد نفسه حيال خيار صعب: أن يتمسك فتطلق عليه النار، أو يتخلى ويهوي على الأرض؟

وهكذا حاول أن يرد مناقشاً: «لكن، أنت نفسك لا يجوز أن تكون هنا. سأخبر السيدة أمينة»، إذ كان قد تعرف على صوت مضطهده، بيد أن سليماً استنتج ضعف موقفه، فقد استأنف معتصم متوسلاً «حسناً، فقط لا تطلق النار» وهكذا سمح له بأن ينزل بالطريقة التي صعد بها.

بعد ذلك اليوم أقنع معتصم أباه أن يطلب له جميلة من أبويها، لكنها، هي التي ولدت ونشأت من غير حب، كانت تحتفظ بكراهيتها القديمة لكل من يدعي حبها، فرفضته. بعدئذ غادر كيف متوجهاً إلى كراتشي لكنها لم تقبل مجرد النظر في طلباته الملحة، الأمر الذي دعاه في النهاية لأن ينضم إلى الجيش وأن يصبح شهيداً من شهداء حرب ١٩٦٥.

غير ان مأساة معتصم ليست إلا موضوعاً ثانوياً في قصتنا ذلك ان

---

(١) طائر يشبه بالحجل.

سليمان وأخته باتا في تلك اللحظة وحيدين فسألته هي التي أيقظها تبادل الجدال بين الشابين: «سليم ماذا يجري؟». هنا اقترب سليم من سرير أخته، بحثت يده عن يدها ثم ضغطت بالرق على بشرتها، حينذاك فقط، وقد حل عقدة لسانه ضوء القمر والنسيم المشبع بالشهوة، تخلى سليم عن أفكار الطهارة كلها واعترف بحبه لأخته الفاغرة فاها. .

ثم خيم صمت للحظة من الزمن صرخت بعدها جميلة: «أوه، لا، كيف لا يمكنك. . .». غير أن سحر الرقية كان يتصارع مع كراهيتها الشديدة للحب، وهكذا رغم أن جسدها غدا متوتراً متصلباً كجسم مصارع على الحلبة، فقد أصغت إليه وهو يشرح لها أنه ليس ثمة من إثم فقد تبين الأمر كله، وهما، بالنتيجة ليسا أخوين حقيقيين، الدم الذي يجري في عروقه ليس الدم نفسه الذي يجري في عروقها، ومع أنسام ذلك الليل المجنون، حاول أن يفك كل العقد التي لم يفلح حتى اعتراف ماري بيريرا بفكها، لكن حتى وهو يتكلم كان باستطاعته أن يسمع صدى كلماته يتردد أجوف خاوياً، فأيقن أنه على الرغم من أن ما يقوله هو الحقيقة الفعلية إلا أن ثمة حقائق أخرى باتت أكثر أهمية بعد أن أثبتها الزمان وأرسى جذورها.

ورغم أنه لم يكن ثمة داع للخجل أو الخوف، فقد رأى كلا الإحساسين على جبينها كما شم رائحتهما على بشرتها، والأنكى من ذلك، أنه أحس بهما وشم رائحتهما في ذاته وعلى بشرته.

وهكذا، وقد شعر في النهاية أن الرقية السحرية التي أعطاه إياها معتصم الجميل لم تكن قوية بما يكفي للجمع بين سليم سيناء وجميلة المغنية، غادر غرفتها مطأطأ الرأس تتبعه عيناها المشدوهتان كعيني غزال فوجئ في مرتعه، وفي الوقت الذي كانت آثار الطلسم قد زالت كلياً كانت هي قد عزمت على انتقام مخيف.

وبينما كان يغادر الغرفة، كانت ممرات القصر تمتلئ فجأة بصرخة أميرة خطبت ـ حديثاً، أميرة أفاقت فجأة على حلم ليلة عرسها، حلم رأت فيه سائلاً أصفر زنخ الرائحة يبلل، على نحو مفاجئ ولا تفسير له، فراشها الزوجي، بعدئذ قامت بتساؤلات واستفسارات وحين علمت فحوى حلمها

ودلالته النبوئية، صممت على ألا تصل سن البلوغ ما دام ظافر على قيد الحياة، وبذلك استطاعت البقاء في مخدعها هناك، في قصرها متفادية نقطة ضعف عريسها، تلك النقطة المخيفة الكريهة الرائحة.

في الصباح التالي، أفاق عضوا حزب الائتلاف المعارض ليجدا نفسيهما في سريريهما لكن حين ارتديا ملابسهما وفتحا باب حجرتهما وجدا اثنين من أكبر الجند في الباكستان يقفان خارجه بصورة مسالمة إنما ببندقيتين متقاطعتين، وهما يسدان الطريق. صرخ الرجلان، حاولا التملص لكن الجنديين بقيا في مكانهما إلى أن انتهى الاقتراع. بعد ذاك اختفيا بهدوء، فبحث الرجلان عن النائب وحين وجداه في حديقة وروده الاستثنائية لوّحا له بذراعيهما ورفعا صوتيهما بعبارات مثل: صورة ـ زائفة ـ عن العدالة، انتخابات احتيال، نصب وخداع وتحايل، لكن النائب أراهما ثلاثة عشر نوعاً مختلفاً من ورود «كيف» هجنها بنفسه. هتفا: «الموت لأعداء الديمقراطية الأوتوقراطيين»، لكنه ظل يبتسم ابتسامته اللطيفة ويقول: «أيها الأصدقاء، بالأمس خطبت ابنتي لظافر ذو الفقار، وفي القريب العاجل، آمل أن تخطب ابنتي الأخرى لابن الرئيس العزيز. فكروا إذاً ـ أي عار علي، أية فضيحة ستلحق باسمي إن أدلى أحد بصوته في كيف ضد نسيبي في المستقبل، أيها الأصدقاء أنا رجل يهمه الشرف كثيراً. لذلك، امكثوا في منزلي، كلوا واشربوا، لكن لا تطلبوا ما لا يمكنني إعطاؤه».

وعاش الجميع بنعيم وسرور... على أية حال، حتى بدون الجملة التقليدية التي تنتهي بها، عادة، حكايات الجن والعفاريت، فإن قصتي، الحقيقة، تنتهي نهاية خيالية ذلك أنه حينما أدى الديمقراطيون الأساسيون واجبهم أعلنت الجرائد ـ اليانغ، الفجر، التايمز الباكستانية ـ عن نصر ساحق أحرزته العصبة الإسلامية التي يمت لها الرئيس على حزب الائتلاف المعارض الذي تمت له أم الشعب، وبذلك ثبت لي أنني كنت أكثر المتلاعبين بالحقيقة تواضعاً، وأنني أعيش في بلاد، الحقيقة فيها هي ما تجيء به التعليمات لكف الحقيقة عن الوجود فعلاً، بحيث يغدو محتملاً أن يكون كل شيء هو الحقيقة باستثناء ما يقال لنا إنه الحقيقة.

ولعل هذا هو الفارق بين طفولتي الهندية ومراهقتي الباكستانية ـ ففي الأولى كان أمامي عدد لا محدود من الحقائق التي يمكن الخيار بينها أما في الثانية فقد كنت منجرفاً تائه الخطا، فاقداً الاتجاه وسط عدد لا محدود أيضاً من أساليب التزييف والبطلان والكذب.

على أن طائراً صغيراً يهمس في أذني: «كن عادلاً! فليس هناك أحد من الناس ولا بلد من البلدان يحتكر الزيف تماماً!»، وأقبل النقد، فأنا أعلم، أعلم، وبعد سنوات، ستعلم الأرملة أيضاً، وكذلك جميلة التي كان ما ظهر كحقيقة وصودق عليه (من قبل الزمن والعادة وإعلان جدتي ونقص الخيال وقبول أبي) قد برهن لديها أنه قابل للتصديق أكثر بكثير مما تعلم أنه الحقيقة فعلاً.

كيف توصل سليم إلى الطهارة

ما ينبغي قوله: عودة التكتكة، بيد أن العد الآن باتجاه النهاية وليس البداية. لكنْ، ثمة ضجر أيضاً ينبغي ذكره، إرهاق شامل عميق إلى حد ستكون معه النهاية، حين تأتي، هي الحل الوحيد، ذلك أن الكائنات البشرية، شأنها شأن الأمم والشخصيات القصصية، يمكن أن تخرج خارج التيار، ومن ثم لا يبقى أمامها ما تفعله سوى أن تواجه نهايتها.

كيف نزلت فلقة من القمر وتوصل سليم إلى الطهارة... الساعة تدق الآن، ونظراً لأن كل عدّ تنازلي بحاجة للصفر، فدعني أذكر أن النهاية جاءت في الثاني والعشرين من أيلول عام ١٩٦٥ وأن لحظة الصفر بالضبط هي، حتماً، دقة منتصف الليل، على الرغم من أن ساعة جدي القديمة الموجودة في منزل خالتي علياء والتي كانت دقيقة دائماً ولا عيب فيها سوى أنها تتأخر دقيقتين، لم تتح لها الفرصة أبداً لأن تدق.

وصلت جدتي نسيم عزيز إلى الباكستان في أواسط عام ١٩٦٤، مخلفة وراءها الهند التي عجلت وفاة نهرو فيها بنشوب صراع مرير على السلطة، فقد اتحد موراجي ديساي وزير المالية وجاجيفان رام، أقوى شخصية بين المنبوذين، مصممين على أن يحولا دون انتقال السلطة بعد نهرو إلى سلالته، وبذلك حرمت أنديرا غاندي من زعامة الحزب، أما رئيس الوزراء الجديد، لال بهادور شاستري، وهو عضو آخر من ذلك الجيل من السياسيين الذي كان يبدو وكأنه حفظ، كالمخللات بحيث يخلد أبد الدهر، فقد كان مجرد وهم. لقد أثبت كل من نهرو وشاستري أنهما فانيان، بيد أنه كان لا يزال

هناك الكثير ممن يقبضون على الزمن بأصابعهم المومياثية رافضين السماح له بالحركة.. لكن في الباكستان، كانت الساعات تتكتك وتدق.

لم توافق الأم المبجلة بصورة صريحة على أختي كمغنية، ففي الغناء الكثير من خصائص التمثيل في السينما، وقد تأوهت وهي تخاطب الخالة بيا: «لقد بات التحكم بأمور عائلتي أصعب، ما اسمه، من التحكم بسعر الوقود حتى». ربما كانت في سريرتها قد تأثرت بأختي وأعجبت بها، كما كانت تحترم السلطة والمكانة التي باتت تحتلها جميلة إلى درجة أمست تلقى معها الترحيب في أرفع بيوتات البلاد وأرقاها... غير أن جدتي استقرت في راولبندي، إذ إنها انطلاقاً من رغبة غريبة في الاستقلال رفضت العيش في منزل الجنرال ذو الفقار..

وهكذا انتقلت هي وخالتي بيا إلى منزل ريفي متواضع في الحي القديم من المدينة واشترتا، بما جمعتاه من مدخرات، حتى إنشاء محطة الوقود التي كانت تحلم بها منذ زمن طويل.

لم تذكر نسيم يوماً من الأيام آدم عزيز، كما أنها لم تحزن عليه، بل بدا الأمر وكأنها قد تحررت من عبء كبير حين توفي جدي غريب الأطوار الذي كان في شبابه يحتقر الحركة الداعية لإقامة الباكستان والذي كان ينحو باللائمة كلها على العصبة الإسلامية باعتبارها المسؤولة عن مقتل صديقه ميان عبد الله. لقد سمحت لها وفاته بأن تذهب وحيدة إلى أرض الطهارة. وهكذا، طفقت الأم المبجلة مشيحة بوجهها عن الماضي تركز كل اهتمامها على البنزين والمازوت.

كانت محطة الوقود في موقع رئيسي قريب من شارع لاهور.. راولبندي العريض الواسع، وكانت تعمل جيداً. تشرف عليها بيا ونسيم بالتناوب، تقضيان النهار في كشك الإدارة الزجاجي بينما يملأ العاملون في المحطة السيارات وشاحنات الجيش بالوقود، وقد برهنتا على أنهما تشكلان تركيبة سحرية: بيا تجذب الزبائن بمنارة الجمال التي رفضت بعناد شديد أن تخبو، بينما آلت الأم المبجلة، التي تحولت نتيجة الحرمان إلى امرأة تهتم بحياة الآخرين أكثر من اهتمامها بحياتها، آلت على نفسها أن تدعو زبائن المحطة

إلى كشكها الزجاج كي تقدم لهم أكواب الشاي الكشميري الوردي، وكانوا يقبلون بشيء من الارتعاش والخوف، لكن حين كانوا يدركون أن السيدة العجوز لم تكن تدعوهم لتضجرهم بذكريات لا نهاية لها، فقد كانت أعصابهم تسترخي، وياقاتهم وألسنتهم تنحل، لتنعم الأم المبجلة بالنسيان المبارك لحياتها، غارقة في هموم الآخرين وحيواتهم. وهكذا، بسرعة كبيرة اشتهرت المحطة في تلك الأنحاء وبسرعة كبيرة بدأ السائقون يغيرون طريقهم للمرور بها ـ في يومين متتاليين غالباً، كي يتمكنوا من إمتاع أبصارهم بالخالة المقدسة وسرد همومهم على مسامع جدتي الصابرة إلى الأبد والتي كانت قد طورت لديها خصائص الإسفنجة الامتصاصية إذ تنتظر دائماً إلى أن ينتهي ضيوفها قبل أن تعصر من شفتيها بضع قطرات من نصيحة جازمة بسيطة ـ وبينما كانت سياراتهم تعبأ بالوقود وتُلمع من قبل عمال المحطة فإن جدتي كانت تعيد شحن حياتهم وتلميعها. لقد كانت تجلس في معترفها الزجاج تحل مشكلات العالم، أما عائلتها، فكانت قد فقدت، على ما يبدو، كل أهمية في نظرها.

فخورة، أمومية، واضحة الشاربين: وجدت نسيم عزيز طريقها للتكيف مع المأساة، لكن حين وجدت ذلك الطريق باتت الضحية الأولى لروح الإرهاق الشديد، تلك الروح التي جعلت النهاية هي الحل الوحيد المعقول. (تيك، تك). . . . . . . لكنها في الظاهر، كانت تبدو وكأنما ليس لديها أدنى نية في أن تقتفي أثر زوجها إلى جنة الكافور المخصصة للصالحين، بل بدت وكأن ثمة روابط مشتركة أكثر تربطها بزعماء الهند التي هجرتها، أولئك الزعماء الذين لا يموتون. فغدت بسرعة مخيفة تعرض وتعرض إلى أن اضطرت لدعوة البنائين كي يوسعوا كشكها الزجاج. «اجعلوه كبيراً كبيراً»، أعطتهم تعليماتها بشيء من المزاح الذي نادراً ما كانت تعرفه «فربما سأكون هنا بعد قرن، والله وحده يعلم، ما اسمه، كم سأصير كبيرة. ولا أبغي أن أزعجكم بتكبيره كل عشر سنوات. . .».

غير أن بيا عزيز لم تكن راضية بمحطة الوقود السخيفة كما قالت ذات مرة. فبدأت بإقامة سلسلة من العلاقات مع كبار الضباط، لاعبي الكريكيت،

لاعبي البولو، والدبلوماسيين، تلك العلاقات التي كان من السهل إخفاؤها عن الأم المبجلة التي فقدت الاهتمام بما يفعله الآخرون ما عدا الغرباء، إنما كانت مثار الأقاويل في المدينة الصغيرة. وهكذا فاتحت أميرالدا بيا بالأمر، فأجابت «تريدينني أن أظل أندف وأنتف شعري إلى الأبد؟ إنني ما أزال شابة والشباب يمرحون قليلاً» فردت أميرالدا ذات الشفتين الرقيقتين: «لكن كوني محترمة قليلاً... اسم العائلة...». عند ذاك هزت رأسها قائلة: «كوني أنت محترمة يا أخت، أما أنا فسأعيش».

لكن يخيل إلي أنه كان ثمة شيء خاوٍ أجوف في ذلك التوكيد الذاتي الذي صرحت به بيا. ذلك أنها هي، أيضاً، كانت تشعر بأن شخصيتها تفرغ من مضمونها شيئاً فشيئاً، وأن توجهها الرومانسي المحموم إنما هو محاولة يائسة أخيراً للتصرف «بشيء من الشخصية» وذلك بالطريقة التي يفترض بامرأة على شاكلتها أن تتصرف. فهي لم تكن في ذلك كله بل لم تكن معنية به فعلاً، بل كانت، وفي مكان ما في داخلها، تنتظر النهاية هي الأخرى... فنحن في عائلتي سريعو التأثر دائماً بالأشياء التي تنزل من السماء، وذلك مذ صفعت أحمد سيناء يد أسقطها نسر، ولم يكن قد مضى على المفاجآت أكثر من عام.

بعد وفاة جدي وقدوم الأم المبجلة إلى الباكستان، بدأت أحلم المرة تلو المرة بكشمير. ورغم أنني لم أسر أبداً في حدائق شاليمار، فقد كنت أرى نفسي أقوم بذلك في الأحلام، كما كنت أعوم في زوارق الصيادين وأتسلق رابية سنكارا آشاريا كما فعل جدي، وكنت أرى جذور اللوتس والجبال التي تشبه الفكوك الغاضبة. هذه أيضاً يمكن رؤيتها على أنها مظهر من مظاهر الاكتئاب الذي أصابنا جميعاً (ما عدا جميلة التي كان الله والبلاد يجعلانها تستمر) كشيء يذكر بانفصال عائلتي عن كل من الهند والباكستان. ففي راولبندي، كانت جدتي تشرب الشاي الكشميري الوردي، وفي كراتشي كان حفيدها يغتسل بمياه بحيرة لم تبصرها عيناه، وقد يمضي وقت طويل قبل أن ينسفح الحلم بكشمير في أذهان بقية سكان الباكستان. لقد رفض الارتباط بالتاريخ أن يهجرني، فوجدت، عام ١٩٦٥، أن حلمي صار حلماً للأمة،

عنصراً ذا أهمية بالغة في النهاية القادمة، حين سقطت من السماء كل أصناف الأشياء وتطهرت أخيراً.

لكن سليماً لن يغوص أكثر من ذلك: فباستطاعتي أن أشم، في ذاتي، الرائحة النتنة لحمأة آثامي. لقد جئت إلى أرض الطهارة وسعيت لمعاشرة المومسات وفي الوقت الذي كان ينبغي أن أصوغ لنفسي حياة جديدة قويمة، فقد عملت بدلاً من ذلك، لتنمية حب محرم (وكذلك لا مقابل له من الطرف الآخر) وهكذا رحت، تتملكني بدايات القضاء والقدر الذي كان سيطغى علي، أمتطي دراجتي اللامبريتا وأجوب شوارع المدينة، بينما بتنا أنا وجميلة يتجنب واحدنا الآخر قدر الإمكان، عاجزين للمرة الأولى في حياتنا عن تبادل كلمة واحدة في ما بيننا.

الطهارة ـ أرفع القيم ـ تلك الفضيلة الملائكية التي سميت الباكستان بها، والتي كانت تقطر من كل كلمة من أغاني أختي ـ بدت نائية بعيدة كل البعد. لكن أنّى لي أن أعلم أن التاريخ الذي يملك القدرة على الغفران للآثمين ـ كان في تلك اللحظة يعد عداً تنازلياً باتجاه اللحظة التي ستعمل بضربة واحدة على تطهيري من قمة رأسي إلى أخمص قدمي؟

في غضون ذلك، كانت قوى أخرى تستخدم ذاتها، إذ كانت علياء عزيز قد بدأت، تشفي غليلها، غليل العانس الرهيبة.

أيام غورو ماندير: روائح بان، روائح طبخ، رائحة ظل المئذنة الباعثة على التراخي، إصبع المسجد الطويلة المؤشرة: بينما كانت كراهية خالتي علياء للرجل الذي هجرها وللأخت التي اختطفته منها تنمو لتغدو شيئاً حسياً مرئياً، يقبع على بساط غرفتها أشبه بحشرة: «أبو بريص» كبيرة تنبعث منها رائحة القيء. لكنني كنت الوحيد، على ما يبدو، الذي يشم تلك الرائحة، ذلك أن مهارة علياء في التمويه والإخفاء كانت قد نمت بسرعة لا تقل عن السرعة التي نما بها شعر ذقنها وكذلك خبرتها في استخدام اللاصقات كل مساء كي تزيل بها ذلك الشعر من جذوره.

لكن ينبغي عدم التقليل من مساهمة خالتي علياء في تحديد مصير الأمة، وذلك من خلال مدرستها وكليتها. فهي، بسماحها لإحباطاتها كعانس كبيرة،

بالتسرب إلى مناهج الدراسة وإلى كل من في مؤسستيها التعليميتين من أساتذة وطلاب، كانت قد أنشأت طائفة من الأطفال والبالغين الذين يشعرون وكأنما قد استحوذت عليهم رغبة قديمة بالانتقام، دون أن يعرفوا سبباً لذلك. فيا لجذب الخالات العوانس الكلي الحضور! لقد كان يكوي حتى طلاء منزلها كما أن التصلب القاسي لمرارتها أحال كل ما في منزلها من أثاث إلى شكل كتلي. كذلك خيطت كل ارتكاسات العانس القديمة وأحقادها في درزات الستائر، مثلما كانت تخاط في الماضي ضمن ملابس الأطفال الصغار. المرارة! آه! لقد كانت تنبعث من شقوق الأرض.

الشيء الوحيد الذي كانت خالتي علياء تستمتع به إنما هو.. الطبخ. وما ارتفعت به، خلال سنوات جنون الوحشة والوحدة، إلى مستوى الفن وإطاره إنما هو: إشباع الطعام بالعواطف والأحاسيس. لكنها ظلت الثانية في ما أنجزته في هذا الميدان: فالأولى كانت مربيتي القديمة ماري بيريبيرا التي قضى، بواسطتها، على كلتا الطباختين القديمتين: سليم سيناء، أول صانع للمخللات في ورشة مخللات براغانزا....

لكن ما علينا، حين كنا نسكن في منزلها، في غورومانديرِ، كانت تطعمنا سمك البرياني والكفتة وهما مشرّبان بالضغينة والحقد، وشيئاً فشيئاً كان الحقد والضغينة يتسربان إلينا إلى أن قضيا على التفاهم والانسجام الذي كان يجسدهما حب أبي وأمي الخريفي.

لكن ينبغي أيضاً ذكر الأشياء الحسنة عن خالتي. ففي السياسة كانت تتكلم دائماً ضد حكومة العسكريين ولو لم يكن صهرها جنرالاً في الجيش، لكانت مدرستها وكليتها قد خرجتا من يدها. واسمحوا لي ألا أعرضها عليكم كلياً، عبر الزجاج القاتم لقنوطي الخاص: فقد كانت تنظم رحلات دراسية إلى الاتحاد السوفياتي وأمريكا كما كان طعامها طيب المذاق (رغم محتواه الخفي).

غير أن جو وطعام ذلك المنزل المظلل بظلال المسجد بدآ يدقان ناقوس نعيه.. كما بدأ سليم، بتأثير حبه الفظيع وطعام علياء ذلك التأثير المفكّك تفكيكاً مضاعفاً، يحمر خجلاً كالشوندر كلما خطرت أخته بباله. بينما بدأت

جميلة، وقد سيطر عليها اللاشعور التوق للهواء الطلق والطعام الذي لم تفسده العواطف السود، بدأت تقضي في المنزل وقتاً أقل وأقل، متنقلة بدلاً من ذلك في طول البلاد وعرضها (ما عدا الجناح الشرقي طبعاً) لإقامة حفلاتها الغنائية. وفي تلك المناسبات المتزايدة الندرة، حين كان الأخ والأخت يلتقيان في الغرفة نفسها، فقد كانا يثبان نصف بوصة عن الأرض، مجفلين، ومن ثم يحطان ويحدقان غاضبين إلى النقطة التي وثبا منها وكأنها غدت فجأة حارة كالفرن.

في أحيان أخرى، أيضاً، كانا يتصرفان بطريقة قد تكون واضحة المعنى تماماً لو لم يكن يشغل سكان المنزل أمور أخرى: فجميلة مثلاً، باتت تحتفظ بحجابها التجوالي الأبيض والمذهب حتى وهي داخل المنزل إلى أن تتأكد من أن أخاها قد خرج، حتى وإن كانت دائخة من شدة الحر، بينما كان سليم ـ الذي استمر، كالعبد الرقيق، يحضر الخبز المتخمر من دير سانتا اغناسيا يتجنب تسليمها الأرغفة بنفسه.

وفي إحدى المناسبات طلب إلى خالته السامة أن تكون وسيطاً، فتطلعت علياء إليه ساخرة ثم سألت: «ماذا دهاك أيها الصبي ـ هل أنت مصاب بمرض معدٍ؟». لكن سليماً احمر غضباً وخوفاً من أن تخمن خالته حقيقة لقاءاته ببائعات الهوى ولعلها خمنت ذلك، لكنها كانت تلاحق سمكة أكبر.

. . . . كذلك نما لديه ميل للاستغراق في حالات الصمت المتأمل الطويل الذي كان يقطعه بأن يقول فجأة كلمة غير ذات معنى: «كلا» أو «لكن» أو حتى صيحات تعجب أكثر خواء مثل «ياه»! أو «أوه» أو «واه». كلام هراء وسط فترات صمت كثيف لكأن سليماً كان يدير حواراً داخلياً ما، حواراً شديد التوتر تنطلق منه بين الحين والحين، نثرات أو توجعات عبر سطح شفتيه.

ومما زاد هذا الصراع الداخلي سوءاً ولا شك إنما هي بهارات القلق التي كنا مضطرين لتناولها مع طعامنا. وفي النهاية، أي حين ارتدت أمينة لمخاطبة صناديق الغسيل غير المرئية، وبات أحمد، في خضم الغربة التي نزلت به، هيكلاً خاوياً من أي شيء سوى سيلان اللعاب والقهقهات، وحين بت أنا

متجهماً صامتاً في منعزلي الخاص، كانت خالتي، ولا شك مسرورة تماماً بما كان لانتقامها الذي غذته طويلاً، وهي الحالة التي خرجت فيها، هي الأخرى، من دنيا المعقول، وصار لخطاها وقع شديد أجوف حين تتمشى في أرجاء منزلها، مصح المجانين، وقد غطت ذقنها بلاصقات الشعر، بينما تقفز ابنة أختها على وقع من الأرض. تسخن، فجأة، ويصرخ ابن أختها من لا مكان، ويسيل لعاب خطيبها القديم على ذقنه، وترسل أمينة بالتحيات لأشباح ماضيها المنبثقة من جديد: «إذاً هذا أنت، مرة ثانية، حسناً لم لا؟ فلا شيء يفنى على ما يبدو».

تيك تك... في كانون الثاني عام ١٩٦٥، اكتشفت أمي أمينة سيناء أنها حامل مرة ثانية في فاصل زمني مقداره سبعة عشر عاماً. وحين أصبحت على يقين من الأمر، نقلت نبأها السعيد إلى أختها الكبرى علياء، متيحة لها بذلك فرصة ثمينة لإتمام انتقامها. ما قالته علياء لأمينة ليس معروفاً أو ما نثرته في ثنايا مطبوخاتها لا بدّ من أن يبقى مادة تخمين لا غير، لكن الآثار على أمينة كانت مدمرة. فقد ابتليت بأحلام راحت تراودها حول طفل ذي خلقة وحش في رأسه زهرة قرنبيط بدلاً من الدماغ، كما حاصرتها أشباح رامرام سيث إذ بدأت نبوءته القديمة بطفل ذي رأسين تهيمن على تصوراتها وتدفعها نحو الهلوسة مرة أخرى.

كانت أمي في الثانية والأربعين من العمر، وكانت المخاوف (الطبيعية منها والمحدثة بتأثيرات علياء) من حمل طفل في سن كهذه قد أخمدت الهالة المشرقة التي أحاطت بها مذ عادت ترعى زوجها في خريف حبه. وبتأثير فطائر انتقام خالتي ـ المبهرة بنذر الشر إضافة إلى حب الهال ـ فقد باتت أمي تخشى جنينها. وبمرور الأشهر بدأت سنواتها الاثنتان والأربعون تدق ناقوساً مخيفاً، إذ غدا ثقل عقودها الأربعة يزداد يوماً بعد يوم، ساحقاً إياها تحت وطأة سنها. في شهرها الثاني كان شعرها قد ابيض، في الثالث غدا وجهها يرتعش مثل مانغا مهترئة، وفي الرابع أضحت امرأة عجوزاً تقريباً، متجمدة الوجه ثقيلة الوزن، مبتلاة بالثآليل والمسامير مرة ثانية، نابتة الشعر ليس في ذقنها وحسب بل في وجهها كله، وبدت مرة أخرى ملفوفة بضباب الخزي،

وكأن الحمل بطفل في مثل سنها فضيحة لا مثيل لها. وفيما كان الجنين ينمو في أحشائها، خلال تلك الأيام الملأى بالحيرة والارتباك، كان التناقض بين حداثته وشيخوختها يتزايد باطراد، عند هذه النقطة بالضبط انهارت أمي تماماً وبدأت من كرسيها القديم المصنوع من القصب تستقبل الزوار من أشباح ماضيها. كان تفكك أمي مخيفاً في شدة مفاجأته، الأمر الذي جعل أحمد سيناء فجأة بلا حول أو طول يرقب زوجته عاجزاً مذهولاً تتقاذفه الهموم كريشة في مهب الريح.

إنني، حتى هذه اللحظة، أجد من العسير علي أن أكتب عن تلك الأيام، أيام نهاية المعقول، حين وجد أبي مصنع مناشفه ينهار بين يديه. فآثار أعمال علياء السحرية المطبخية (التي كانت تفعل فعلها عبر معدته، حين يأكل، وعبر عينيه حين ينظر إلى زوجته في آن معاً) كانت قد غدت ظاهرة عليه تماماً. إذ صار مهملاً في إدارة مصنعه وسريع الغضب من العاملين لديه.

ولكي نجمل عملية تدمير مصنع مناشف أمينة نقول: إن أحمد سيناء بدأ يعامل عماله على نحو متعجرف دكتاتوري مثلما أساء معاملة خدمه، ذات مرة في بومباي، كما سعى لأن يغرس في أذهان معلمي النسيج لديه ومساعدي الرزامين على السواء، الحقائق الأبدية لعلاقة السيد بخادمه. ونتيجة لذلك، فقد بدأ عماله يخرجون من لدنه أفواجاً قائلين مثلاً: «نحن لسنا منظفي نوافذ عندك أيها السيد، نحن نساجون أكفاء من الدرجة الأولى» ويرفضون بوجه عام أن يبدوا امتناناً لائقاً لما فعله من خير بتشغيلهم في معمله. وكان وهو أسير الغيظ المخبّل للعقل الناتج عن وجبات الغداء التي كانت تبعثها له خالتي، يدعهم يذهبون جماعات جماعات ليستأجر بدلاً منهم فئات من الكسالى المتبطلين الذين كانوا يختلسون كباكيب القطن وقطع الآلات لكنهم في الوقت نفسه يحسنون الانحناء والركوع حين اللزوم.

وهكذا تصاعدت نسبة التلف في المناشف تصاعداً مخيفاً أدى إلى العجز عن تنفيذ العقود وتقلص شديد في الطلبات الجديدة، كما بدأ أحمد سيناء، يحضر معه إلى المنزل جبالاً ـ كجبال هملايا ـ من المناشف المرفوضة، ذلك أن مستودع المصنع كان قد فاض بالإنتاج ذي المستوى المتدني الناجم عن

سوء إدارته. وهكذا عاد إلى الكحول مرة ثانية، فلم يحل صيف ذلك العام، حتى كان منزل غورومانديز غارقاً بالبذاءات القديمة لمعاركه ضد الجن والعفاريت، وكان علينا أن نشق لنا طرقاً جانبية عبر قمم إيفرست ونانجار باربات التي كانت تشكلها المناشف سيئة الصنع المكدسة في الصالة والممرات.

كنا قد أسلمنا أنفسنا لحنق خالتي السمينة ذلك الحنق المتقد منذ زمن طويل، وذلك باستثناء جميلة وحدها، جميلة التي كانت أقلنا تأثراً بسبب غياباتها الطويلة، أما نحن فكنا جميعاً قد انتهينا بما تناولناه من إوز مطهو على يدي خالتي. تلك كانت أياماً مؤلمة ومحيّرة تفكك فيها حب والدي ووالدتي تحت وطأة طفلهما الجديد وظلامات خالتي القديمة العهد معاً.

وهكذا، شيئاً فشيئاً، طفق الاضطراب والدمار يتسربان عبر نوافذ المنزل إلى الخارج ويسيطران على قلوب الناس وعقولهم بحيث إنه حين حلت الحرب حلت ملفوفة بسحابة الخبل ذاتها سحابة اللاواقعية التي بدأت تغلفنا جميعاً.

كان أبي يسير قدماً نحو سكتة دماغية، لكن قبل أن تنفجر القنبلة في دماغه، كان صمام آخر قد انفجر، ففي نيسان من عام ١٩٦٥ سمعنا بالأحداث الخاصة التي وقعت في مرفأ ران كوتش.

إذ بينما كنا نتقلب كالذباب في أعشاش انتقام خالتي العنكبوتية، كانت مطحنة التاريخ لا تزال تطحن. فسمعة الرئيس أيوب كانت تتدهور: إذ كانت الإشاعات عن سوء إدارة انتخابات ١٩٦٤ تئز في كل مكان، رافضة كل محاولات القمع. وهنا أيضاً، كانت قضية ابن الرئيس: جوهر أيوب الذي جعلته صناعات غندرة المبهمة مليارديراً كبيراً بين عشية وضحاها. آه، يا لتلك السلسلة التي لا تنتهي من أبناء العظام الشائنين، جوهر بأفعاله الفظيعة وتبجحاته، وفي وقت لاحق في الهند سنجاي غاندي وشركته «الماروتي» الخاصة بالسيارات وشبان حزبه، لكن أحدث الجميع هو كانتي لال ديساي.. فأبناء العظام يقضون على آبائهم. لكن أنا أيضاً لي ابن، آدم سيناء الذي يطير في مواجهة أسلافه ولسوف يعكس التيار. فقد يكون الأبناء خيراً

من الآباء، كما قد يكونون أسوأ. . . . على أية حال، في نيسان عام ١٩٦٥، كان الجو مليئاً بأخطاء الأبناء. لكن ابن من كان ذاك الذي تسلق أسوار مقر الرئاسة في الأول من نيسان؟

أي أب مجهول كان قد بذر بذرة ذلك الشخص الكريه الرائحة الذي صعد إلى الرئيس وأطلق عليه نار مسدسه؟ بعض الآباء يبقون، رحمة بهم، مجهولين لدى التاريخ، وعلى أية حال فإن القاتل أخفق في مهمته لأن مسدسه تعطل بأعجوبة من الأعاجيب، فساقت الشرطة ابن ذلك المجهول إلى مكان اقتلعت فيه أسنانه واحدة تلو الأخرى، وحرقت أظافره بالنار كما لدع رأس قضيبه، ولا شك، بأطراف السجائر المشتعلة، لذا قد لا يكون هناك الكثير من العزاء لذلك المسكين المجهول الاسم، ذلك الشارع في القتل، أن يعرف أنه كان قد انجرف وبكل بساطة مع حركة التاريخ التي لوحظ فيها أن الأبناء (العالين والواطئين منهم)، يتصرفون على نحو بالغ السوء. (لا: أنا لا أعفي نفسي).

انفصام بين الأنباء المنتشرة والحقيقة: فالصحف تقتبس عن اقتصاديين أجانب: «الباكستان نموذج للبلدان النامية» ـ بينما يصب الفلاحون لعناتهم على ما يسمى «الثورة الخضراء»، زاعمين أن معظم آبار المياه التي حفرت حديثاً عديمة الجدوى، بل إنها مسمومة ومحفورة في أماكن غير مناسبة. على أي حال، وبينما كان المحررون يدبجون مقالات المديح والثناء للحكمة والحصافة التي تتميز بها القيادة في البلاد، كانت الشائعات الكثيفة، كذباب الصيف، تتناقل أخبار الحسابات المصرفية في سويسرا والسيارات الأمريكية الفارهة الجديدة لدى ابن الرئيس. وحين تحدثت صحيفة كراتشي «الفجر» عن فجر آخر: «هل في الأفق علاقات باكستانية ـ هندية حسنة»؟ كان في الران كوتش ابن فاسد آخر يكشف عن قصة مغايرة.

في المدن السراب والكذب، أما إلى الشمال وفي الجبال العالية فقد كان الصينيون يشقون الطرق ويخططون لتفجيرات نووية. لكن آن الأوان لأن نرتد من العام إلى الخاص، أو، كي نكون أكثر دقة، إلى ابن الجنرال، ابن خالتي ظافر ذو الفقار المصاب بسلس البول رغماً عنه، والذي صار، بين نيسان

وتموز، النموذج الأمثل لكل الأبناء المخيبين للأمل في البلاد قاطبة. فالتاريخ الذي يعمل من خلاله كان أيضاً يشير بإصبعه إلى جوهر، إلى سانجاي المستقبل وكانتي لال الذي سيأتي وإلي أنا طبعاً.

إذاً، ابن الخالة ظافر، الذي كانت تربطني به في ذلك الحين أمور كثيرة مشتركة.. فقلبي كان متيماً بحب محرم، وبنطلونه، رغم كل ما يبذله من جهد، كان يمتلئ باستمرار بشيء محسوس أكثر إنما محرم مثله تماماً. كذلك كنت أحلم بعشاق أسطوريين، جمعوا بين السعادة وسوء الطالع ـ شاه جيهان وممتاز محل وكذلك مونتاغ ـ وكابوليت، وكان هو يحلم بخطيبته التي كان عجزها عن الوصول إلى البلوغ رغم تجاوزها السادسة عشرة؛ قد جعلها تبدو في ناظريه، صورة خيالية لمستقبل متعذر المنال.... على أية حال في نيسان ١٩٦٥، ذهب ظافر للقيام بمناورات في منطقة الران كوتش الواقعة تحت السيادة الباكستانية.

قسوة شبه القارة الهندية حيال صاحب المثانة السائبة: ذلك أن ظافر، رغم رتبته كملازم في الجيش، كان أضحوكة القاعدة العسكرية في آبوت أباد كلها. إذ كانت الألسنة تتناقل قصة مفادها أن لديه تعليمات بأن يلبس سروالاً مطاطياً يلف أعضاءه التناسلية كالبالون المنفوخ كيلا تلوث البزة الرائعة التي تمثل الجيش الباكستاني، فبات الجنود يقومون، حين يمر بنفخ وجناتهم، وكأنهم ينفخون بالوناً (وقد أصبح هذا كله معروفاً للغادي والصادي، حين قدم تقريره والدموع تنهمر مدراراً من عينيه، عند إلقاء القبض عليه بتهمة القتل). ومن المحتمل أن إرسال ظافر في مهمة إلى الران كوتش قد تم بعد تفكير طويل من رئيس بارع، كان يحاول إخراجه من خط النار الذي وضعه فيه استهزاء الجنود به في قاعدة آبوت آباد. لقد حكم سلس البول على ظافر ذو الفقار بارتكاب جريمة بشعة كجريمتي. فأنا أحببت أختي أما هو... لكن لا. دعني أسرد القصة كما ينبغي...

منذ التقسيم، كانت الران «منطقة متنازعاً عليها» رغم أنه لم يكن أي من الجانبين عملياً، يرغب كثيراً بالنزاع. فعلى التلال المحاذية لخط العرض الثالث والعشرين، وهو الحد غير الرسمي، كانت حكومة الباكستان قد أقامت

سلسلة من المراكز الحدودية، في كل منها حامية من ستة رجال وضوء ـ منارة.

في التاسع من نيسان ١٩٦٥ كان يحتل عدداً من هذه المراكز جنود من الجيش الهندي: فجاءت قوة باكستانية، من ضمنها ابن خالتي ظافر، إلى منطقة المناورات واشتبكت في صراع على الحدود دام اثنين وثمانين يوماً، أي أن الحرب في منطقة الرام هذه دامت حتى أول تموز، وتلك حقيقة واقعة فعلاً لكن كل شيء آخر يكمن مختفياً تحت سطح اللاواقعية السديمي المكثف وسطح الادعاء والتظاهر الذي ترك آثاره على مجريات الأمور كلها في تلك الأيام، وأثر بصورة خاصة في جميع الأحداث التي وقعت في الران كوتش، الدائمة التغير... غير أن القصة التي سأرويها، والتي رواها بصورة أساسية ابن خالتي ظافر، قد تكون قصة حقيقية شأن أية قصة أخرى، شأن أية رواية، كما يمكن القول، باستثناء الرواية الرسمية.

فحين دخل الجنود الباكستانيون الفتيان منطقة الران المستنقعية، تصبب من جباههم عرق لزج بارد، وثبط عزائمهم لون قاع البحر المائل للخضرة، كما استعادوا في ذاكراتهم قصصاً أخافتهم أكثر وأكثر، أساطير عن أشياء مخيفة حدثت في هذه المنطقة البرمائية: عن وحوش بحر شيطانية ذات عيون متوهجة، عن نساء ـ أسماك يستلقين برؤوسهن السمكية تحت الماء، يتنفسن بينما تتمدد أنصاف أجسامهن البشرية المكتملة العارية على الشاطئ تغري غير اليقظين بممارسة العمل الجنسي القاتل.

فمن المعروف جيداً أن لا أحد يمارس الحب مع امرأة ـ سمكة ويبقى على قيد الحياة... وهكذا حين بلغوا مراكز الحدود ماضين إلى الحرب، لم يكونوا أكثر من مجموعة غلمان في السابعة عشرة خائفين مذعورين، وكان من المحتمل كثيراً أن يبادوا تماماً لولا أن أعداءهم الهنود كانوا قد خضعوا لتأثيرات جو الران الأخضر فترة زمنية أطول من فترتهم، وهكذا، في عالم السحر ذاك اشتعلت حرب مجنونة، كل طرف فيها كان يعتقد أنه رأى شياطين تظهر وتقاتل إلى جانب أعدائه. لكن في النهاية، استسلمت القوات الهندية، وقد انهار كثير من أفرادها وهم يبكون وينتحبون. الحمد لله إذاً، لقد انتهت

الحرب: وقد رووا الكثير عن الأشياء المنتفخة الهائلة التي تسعى كالأفاعي حول مراكز الحدود ليلاً، وعن أرواح الجنود الغرقى السابحة في الهواء، على رؤوسها أكاليل من أعشاب البحر وفي سراتها أصداف بحر.

ما قاله الجنود المستسلمون من الهنود على مسامع ابن خالتي: «على أي حال، لم يكن في مراكز الحدود هذه رجل واحد، رأيناها خاوية فاحتللناها».

منذ البداية لم يبد سر المواقع الحدودية المهجورة لغزاً بالنسبة إلى الجنود الباكستانيين الفتيان الذين كلفوا بمهمة احتلالها ريثما يتم إرسال حرس جدد للحدود، فقد وجد ابن خالتي الملازم ظافر ذو الفقار مثانته وأحشاءه تفرغ محتوياتها بتواتر هستيري على مدى الليالي السبع التي قضاها في أحد المواقع بصحبة خمسة جنود فقط. وخلال تلك الليالي الملأى بزعيق الساحرات وحركات الانزلاق الأفعوانية في قلب الظلام، بلغت حالة الشبان الستة من التردي حداً لم يعد بإمكان أحد من الجنود أن يسخر من ابن خالتي، إذ كانوا جميعاً مشغولين أيضاً بتبليل سراويلهم، وفرائصه ترتعد: «اسمعوا أيها الفتيان، إن كان علي أن أبقى وأعيش هنا، فإنني أفضل أن أفر بجلدي».

وهكذا، في حالة من التحلل شبه ـ الهلامي وجد جند الران أنفسهم يتصببون عرقاً. ففي آخر ليلة بدأت أشد مخاوفهم تصبح حقيقة واقعة، إذ رأوا حشداً من الأرواح يخرج من الظلمة ثم يتجه نحوهم: لقد كانوا في الموقع الحدودي الأقرب إلى شاطئ البحر وفي ضوء القمر المائل للخضرة، كان بمقدورهم أن يروا أشرعة سفن الأشباح وزوارق الأطياف وكذلك جيشاً من الأشباح وهو يقترب، بلا وجل أو خوف. وعلى الرغم من صيحات الجند، تابع الأشباح اقترابهم وهم يحملون صناديق مكسوة بالطحلب ومحفات غريبة مستورة تماماً، وقد تكلست عليها أشياء غير مرئية، وهكذا حين ولج جيش الأشباح الباب، لم يعد ظافر قادراً على التحمل فهوى على الأرض مبربراً بربرة مخيفة.

كان الشبح الأول الذي دخل الموقع الأمامي قد فقد عدة أسنان من فمه

كما كان في حزامه خنجر، وحين رأى الجنود في الكوخ اتقدت عيناه غضباً جهنمياً، «بحق الله» قال رئيس الأشباح، «لماذا أنتم هنا أيها الفاعلون بأمهاتكم؟ ألم تحصلوا على أجر مناسب؟»،

ليسوا أشباحاً إذاً، بل مهربين. لقد وجد الفتيان الستة أنفسهم في موقف سخيف لشدة هلعهم ورغم أنهم حاولوا تخليص أنفسهم، فإن شعورهم بالخزي كان كاملاً مكتملاً... هنا نصل إلى لب المسألة. ترى باسم من كان المهربون يعملون؟ أي اسم لفظته شفتا رئيس المهربين وجعل عيني ظافر تجحظان هلعاً؟ أية ثورة، قامت بالأصل على نكبات العائلات الهندوسية الفارة عام ١٩٤٧، وتعمل على زيادتها الآن قوافل المهربين الربيعية الصيفية عبر الران غير المحروس ومن ثم إلى مدن الباكستان؟ من هو الجنرال ذو الوجه الكركوزي والصوت الرقيق كحد الموسى ذاك الذي تأتمر بأمره جماعات الأشباح؟

لكن دعوني أركز على الحقائق. ففي تموز ١٩٦٥ عاد ابن خالتي ظافر في إجازة إلى منزل والده في راولبندي، وذات صباح شرع يتمشى الهوينا نحو مخدع والده، حاملاً على كتفه، لا ذكرى آلاف الإهانات والضربات التي تلقاها في طفولته وحسب، لا خزي تبولاته الكثيرة على نفسه وحسب، بل أيضاً معرفته بأن والده هو المسؤول عما حدث في الران حين تحول ظافر ذو الفقار إلى دودة تتمرغ على الأرض. هناك وجد ابن خالتي أباه في حمامه المجاور لسريره فشرط حنجرته بخنجر مهرب معقوف طويل.

على أن ما كان يختفي خلف تقارير الصحف «غزو هندي كاسح يصده جنودنا الشجعان»، إنما هو حقيقة أخرى وهي أن الجنرال ذو الفقار بات شيئاً غير مؤكد، شيئاً شبحياً، والدفع لحرس الحدود أضحى في الصحف: «مجزرة لجنودنا الأبرياء يقوم بها فوج هندي»، لكن من تراه سينشر قصة النشاطات التهريبية الواسعة التي كان يقوم بها زوج خالتي؟أي جنرال؟ أي سياسي لم تكن قد وصلته أجهزة الراديو الصغيرة من أعمال زوج خالتي غير القانونية، وكذلك وحدات التكييف والساعات المستوردة تحت ستار آثامه؟ الجنرال ذو الفقار لقي مصرعه، وابنه ظافر ذهب إلى السجن، فارتاحت من زيجة

مشؤومة أميرة كيفية كانت قد رفضت بعناد أن تبلغ سن النضج كيلا تنكب بالزواج منه، وهكذا غدت حوادث الران كوتش حطباً للنار الكبرى التي اندلعت في شهر آب، نار النهاية التي توصل فيها سليم أخيراً، ورغماً عنه، إلى طهارته المحيرة.

أما خالتي أميرالدا، فقد سمح لها بأن تهاجر، وقد اتخذت الاستعدادات للقيام بذلك وفي نيتها أن ترحل إلى مدينة سوفولك في انكلترا حيث تقيم بقرب آمر زوجها القديم، اللواء دودسون، الذي بدا في شيخوخته الخرفة يقضي وقته بصحبة رجالات الهند القدامى، يشهدون الأفلام القديمة عن دلهي ووصول الملك جورج الخامس إلى بوابة الهند...

أي باختصار، كانت خالتي تتطلع إلى نسيان الوطن نسياناً كاملاً وإلى الشتاء الانكليزي حين اندلعت الحرب فحلت مشكلاتنا جميعاً.

في اليوم الأول من «السلام الزائف» الذي دام سبعة وثلاثين يوماً لا غير، أصيب أحمد سيناء بسكتة دماغية تركته وقد شل جانبه الأيسر كله، كما أعادته إلى سيلان اللعاب والقهقهات التي كان يعرفها في طفولته. كذلك بات يتفوه بكلمات الهراء، مبدياً تفضيلاً ملحوظاً لأسماء مبرزات الجسم والكلمات البذيئة التي كان يستخدمها في طفولته، وبمثل تلك الكلمات بلغ والدي نهاية حياته المهنية المتفاوتة النجاح، وقد أضاع، لآخر مرة، طريقه كما خسر أيضاً معركته ضد الجن، إذ كان يجلس منبهتاً ضاحكاً ضحكات متقطعة وسط المناشف التالفة. وأمي، المنسحقة تحت وطأة حملها الهائل، تميل برأسها حين يقوم بزيارتها بيانو ليلى سبرماتي أو شبح أخيها حنيف أو يدان تتراقصان حول يديها تراقص الفراش حول المصباح.

المقدم سبرماتي جاء لرؤيتها وفي يده عصاه القيادية الغريبة، كما أن نوسي البطة همست في أذنها.. «إنها النهاية، يا أخت أمينة، نهاية العالم» وهي تذوي وتذوي...

لكن، الآن، وقد شققت طريقي عبر الواقع المريض للسنوات التي قضيتها في الباكستان، الآن وقد كافحت طويلاً كي أعطي معنى ولو ضئيلاً لما بدا (عبر ضباب انتقام خالتي علياء) أشبه بسلسلة خفية مرعبة من ردود

الأفعال الهادفة لاقتلاع جذورنا البومباوية أجدني قد بلغت النقطة التي يتعين فيها علي أن أحدثكم عن النهايات.

لكن دعوني أقلها لكم بصراحة تامة وبلا مواربة: فقناعتي الراسخة هي أن الهدف الخفي للحرب الباكستانية ـ الهندية عام ١٩٦٥ لم يكن يتعدى أبداً إبادة عائلتي، التي أدركها ليل المصائب، وإزالتها عن وجه البسيطة. غير أننا، كي نفهم تاريخنا الحديث، من الضروري تماماً أن نتفحص النمط الانفجاري لتلك الحرب بنظرة تحليلية غير منحازة.

فحتى تلك النهايات لها بدايات، وكل شيء ينبغي أن يقال بحسب التسلسل (إذ رغم كل شيء، هناك بادما التي تصد كل محاولاتي في أن أضع العربة أمام الخيول).

في الثامن من آب عام ١٩٦٥، وصلت عائلتي إلى وضع لم يكن لينقذها منه سوى ما يمكن تحقيقه بواسطة الأنماط التفجيرية. لا، دعوني أستعمل الكلمة الهامة: إن كان ينبغي أن نتطهر حينذاك، ربما كان من الضروري أن يحدث ما حدث.

فخالتي علياء مشبعة برغبتها الفظيعة في الانتقام، وخالتي أميرالدا مترملة تنتظر النفي، والخالة بيا تحيا حياة انحلالية جوفاء وجدتي نسيم عزيز متقوقعة ضمن كشكها الزجاج، وابن خالتي ظافر في السجن، يبلل فراشه الواحد بعد الآخر، وينتظره مستقبل أسود وأميرة لا تبلغ قط، علاوة على عودة والدي إلى الطفولة وتحول أمينة سيناء الحامل إلى امرأة مسكونة بالأشباح متسارعة الشيخوخة إلى حد مخيف.

كل هذه الأوضاع لم يكن ليعالجها سوى تبني الحكومة لحلمي في زيارة كشمير. في تلك الأثناء، كان رفض أختي الصواني لأن تقر حبي لها قد دفعني إلى حالة ذهنية مهلكة تماماً فقد أفصحت للعم بوفز، وأنا رهن لا مبالاتي الجديدة بمستقبلي، عن رغبتي بالزواج من أية بنت من بناته يختارها لي (وبفعلي ذلك حكمت عليهن جميعاً، فكل من يحاول عقد أواصر من أي نوع مع عائلتنا ينتهي لأن يشاركنا مصيرنا).

وإنني لأحاول جاهداً أن أكف عن التعمية. إذ من المهم للغاية التركيز على الحقائق الواضحة المفيدة. لكن أية حقائق؟ قبل أسبوع من عيد ميلادي الثامن عشر، أي في الثامن من آب، عبرت قوات باكستانية بملابس مدنية خط وقف إطلاق النار في كشمير وتسربت إلى القطاع الهندي، أم تراها لم تقم بذلك؟ أما في دلهي فقد أعلن رئيس الوزراء شاستري «تسرب كثيف. . . يدمر الولاية». لكن، ذو الفقار علي بوتو، وزير خارجية الباكستان يرد عليه: «إننا ننكر إنكاراً تاماً أي علاقة لنا بالانتفاضة التي قام بها شعبنا الكشميري ضد الطغيان والاستبداد».

لكن إن كان حدث فعلاً، فما هي الدوافع؟ ومرة ثانية، نجد جملة من التفسيرات المحتملة. . الغضب المتصاعد الذي أثارته حوادث الران كوتش، الرغبة في البت مرة واحدة وإلى الأبد، بقضية قديمة ألا وهي: من يضع يده على الوادي ـ الكامل؟ أو ذلك التفسير الذي لم تعرفه صفحات الجرائد: ضغوط المشكلات السياسية الداخلية في الباكستان. فحكومة أيوب كانت تترنح متداعية، والحرب تصنع الأعاجيب في ظروف كهذه. فأي هذه الأسباب كان السبب الحقيقي؟ أهو هذا أم ذلك؟ لكنني، لكي أبسط الأمور. سأقدم سببين من لدني:

لقد وقعت الحرب لأنني كنت أحلم بكشمير، وأغرس ذلك الحلم في مخيلات حكامنا، أما السبب الثاني فهو لأنني كنت دنساً، وكأن على الحرب أن تطهرني من دنسي.

الجهاد يا بادما! الحرب المقدسة!

لكن من هو المهاجم؟ ومن هو المدافع؟ في ميلادي الثامن عشر، كان الواقع قد اتخذ إيقاعاً رهيباً آخر. فمن أسوار القلعة الحمراء في دلهي، أرسل إلي رئيس وزراء الهند (لكنه ليس رئيس الوزراء نفسه الذي كتب لي تلك الرسالة القديمة) أقول أرسل هذه التحية بمناسبة عيد ميلادي: «إننا نعد بأن القوة ستقابل بالقوة، كما أننا لن نسمح للعدوان بأن يحقق أغراضه أبداً»؟.

وفي الوقت ذاته كانت سيارات الجيب بمكبراتها الصوتية تحييني في منزل غوروماندير، مطمئنة إياي:

«لسوف نطيح بالمعتدين الهنود إطاحة تامة. إننا قوم من المجاهدين، فكل فرد منا، مسلماً أم كان بنجابياً أم باثانياً، يساوي عشرة من أولئك الهندوس بكامل أسلحتهم».

لقد دعيت جميلة المغنية إلى الشمال كي تنفخ الحمية في جنودنا الذين يساوي واحدهم عشرة. . وفي المدن طليت النوافذ بطلاء يحجب الأنوار. لكن والدي الغارق في جهالة طفولته الثانية كان يفتح النوافذ ليلاً ويشعل الأنوار. كما بدأت قطع الآجر والحجارة تتطاير عبر الفتحات: هدايا عيد ميلادي الثامن عشر. كذلك راحت الأحداث تزداد اضطراباً وتشوشاً: ففي الثلاثين من آب عبرت القوات الهندية خط وقف إطلاق النار قرب أوري «لمطاردة الغزاة الباكستانيين» أم لشن هجوم يا ترى؟ وحين عبر جنودنا، الذين هم أفضل بعشر مرات، خط الحدود في تشامب يوم الأول من أيلول، هل كانوا معتدين أم لا؟

بعض الحقائق المؤكدة: صوت جميلة المغنية كان يحدو الجنود الباكستانيين دافعاً بهم إلى حتفهم، والمؤذنون من مآذنهم ـ أجل، حتى شارع كلايتون ـ كانوا يعدوننا بأن من يلقى مصرعه في الحرب يمضي مباشرة إلى جنة النعيم. ففلسفة سيد أحمد بريلوي في الجهاد كانت تطغى على الجو، وكنا جميعاً مدعوين لتقديم التضحيات «كما لم ندع من قبل قط».

وفي الإذاعة، أي تدمير؟ أي تشويه؟! ففي الأيام الخمسة من الحرب أعلن صوت الباكستان عن تدمير عدد من الطائرات الهندية أكثر بكثير مما تملكه الهند، وخلال ثمانية أيام، كانت إذاعة عموم الهند قد أبادت الجيش الباكستاني حتى آخر رجل، بل ربما أكثر من آخر رجل. وهكذا طفقت، مخبولاً تماماً بجنون الحرب من طرفيها وكذلك جنون حياتي الخاصة، أفكر أفكاراً يائسة. .

تضحيات كبرى: مثال على ذلك، المعركة التي دارت من أجل لاهور؟ ففي السادس من أيلول اجتازت القوات الهندية حدود واغة، موسعة بذلك جبهة الحرب كثيراً، إذ لم تعد تقتصر على كشمير، فهل حدثت تضحيات كبرى، أم لم تحدث؟ أصحيح أن المدينة كانت بلا دفاع حقاً، نظراً لأن

الجيش الباكستاني وقواته الجوية كلها كانت في قطاع كشمير؟ لقد قال صوت الباكستان: «يا لليوم المشهود! يا للدرس الحاسم في إستراتيجية الإعاقة والتأخير! فالهنود الواثقون من سيطرتهم على المدينة، توقفوا لتناول الإفطار».

أما إذاعة عموم الهند فقد أعلنت عن سقوط لاهور، أثناء ذلك، حددت طائرة خاصة موقع الغزاة المتوقفين من أجل الإفطار، وفيما كانت الإذاعة البريطانية تلتقط النبأ الذي بثته إذاعة عموم الهند، كانت القوات الشعبية في لاهور تتحرك. ولنسمع صوت الباكستان «الشيوخ، الغلمان، العجائز، الكبار، الصغار كلهم تحركوا لقتال الجيش الهندي، كلهم خاضوا المعركة جسراً بعد جسر حاملين السلاح الذي يقع في أيديهم. رجال عرج يملأون جيوبهم بالقنابل اليدوية يمسكونها بأيديهم يسحبون مسامير أمانها ثم يلقون بأنفسهم تحت الدبابات الهندية المتقدمة، نساء عجائز لا أسنان في أفواههن يقرن أحشاء الهنود المهاجمين بشوكاتهن. وقد ظلوا يقاتلون حتى آخر رجل وطفل: لكنهم أنقذوا المدينة وأوقفوا الهنود إلى أن وصل الدعم الجوي».

شهداء يا بادما! أبطال! مصيرهم جنة النعيم، حيث يعطى الرجل أربع حوريات باهرات الجمال لم يمسهن أنس أو جان، وتعطى المرأة أربعة رجال لا نظير لهم أيضاً فبأي آلاء ربكما تكذبان! أي شيء هي هذه الحرب التي يستطيع الإنسان فيها، وبتضحية واحدة، أن يكفر عن شروره جميعاً؟ لا عجب إذاً أن لاهور امتنعت على الأعداء وما الذي يأمل به أولئك الأعداء الهنود يا ترى؟ تقمص جديد لا غير، ربما أن يصيروا صراصير، أو عقارب أو ما شابه. والحقيقة، لا مجال للمقارنة.

لكن هل كان الأمر كذلك أم لم يكن؟ أهكذا جرى يا ترى؟ أم هل كانت إذاعة عموم الهند بقولها:

معركة كبيرة بالدبابات، خسائر باكستانية هائلة، تدمير /٤٥٠/ دبابة ـ تقول الحقيقة؟

لا شيء كان حقيقياً، لا شيء مؤكداً، فقد جاء العم بوفز لزيارتنا في منزل شارع كلايتون، ولم يكن في فمه أسنان، (خلال الحرب الهندية ـ

الصينية، حتى كانت ولاءاتنا مختلفة، تبرعت أمي بأساورها الذهب وأقراطها ذات الجواهر للقائمين بحملة التبرعات من أجل التسلح لكن ما تراه ذلك حين يقارن بتقديم أسنان الفم الذهبية كاملة)؟

ثم قال عبر فمه الأدرد تماماً، فمه الذي لا يميز بين الأحرف «يا للعنة! يجب ألا تخلو البلاد من كل أرصدتها بسبب غرور رجل واحد». لكن، هل كان ذلك صحيحاً أم لا؟ هل قدم أسنانه من أجل الحرب المقدسة أم وضعها في إحدى خزائن بيته؟ «أنا خائف».

قلت له، فرد العم بوفز بلثتيه الدرداوين: «عليك أن تنتظر تلك الدوطة الخاصة التي وعدتك بها». وطنية أم خسة؟ ترى هل كان تجريده للثتيه من الأسنان برهاناً قاطعاً على وطنيته أم خدعة قذرة يتجنب بها إملاء فم ـ «فيّة» من «فيّاته» بالذهب؟

وهل كان هنالك مظليون أم لا؟... «لقد أنزلوا المظليين في كل مدينة رئيسية» أعلن صوت الباكستان.. «وعلى كل شخص قادر أن يبقى إلى جانب سلاحه علماً بأنه سيجري إطلاق النار على كل من يشاهد بعد حظر التجول عند الغسق». لكن إذاعة الهند تزعم «رغم الغارات الجوية الباكستانية واستفزازها لنا فإننا لن نرد». وأنت، من تصدق يا ترى؟

هل القاذفات المقاتلة الباكستانية قامت بتلك «الغارة الجريئة» التي دمرت ثلث القوات الجوية الهندية وهي على الأرض؟ أم تراها لم تقم بذلك؟ وتلك الرقصات ـ الليلية في الجو، طائرات الميراج والمستير الباكستانية مقابل طائرات الميغ الهندية ذات الاسم الأقل رومانسية: هل كانت تلك الطائرات الإسلامية تشتبك مع الطائرات الهندوسية الغازية أم كان الأمر كله ضرباً من الوهم المحير؟ هل سقطت القنابل؟ هل كانت الانفجارات حقيقية؟ هل يمكن القول إن وفية واحدة نجمت عن ذلك؟

وسليم؟ ماذا فعل في تلك الحرب؟

ذلكم ما فعل: فبانتظار أن أساق إلى الجندية، كنت أبحث عن قنابل ودية ماحية تمنح الرقاد وتهب الجنة.

فالقدرية المخيفة التي كانت قد طغت علي مؤخراً اتخذت شكلاً أكثر هولاً حتى، فأنا الغارق في تفكك أسرتي، تفكك كلا البلدين اللذين كنت أمت إليهما، تفكك كل شيء يمكن للعاقلين أن يدعوه صحيحاً وحقيقياً، أنا الضائع في أحزان حبي الدنس المرفوض، كنت أسعى بحثاً عن النسيان. وإنني لأحاول أن أجعل سليماً يبدو نبيلاً سامياً، لكن ينبغي الابتعاد عن العبارات الطنانة بصراحة، إذاً: كنت أطوف شوارع المدينة المظلمة بحثاً عن الموت.

من تراه قضى نحبه في الحرب المقدسة؟ من ذا الذي وجد ضالتي تلك التي كنت أبحث عنها وأنا أطوف الشوارع بدراجتي النارية لامبريتا؟ من ذهب، شهيد لحرب، إلى جنة النعيم مباشرة؟ ادرس نماذج تفجير القنابل فتعلم أسرار طلقات البندقية.

ليلة الثاني والعشرين من أيلول، جرت غارات جوية على كل مدينة باكستانية، (رغم أن إذاعة عموم الهند. . . .) وقد أسقطت الطائرات، الحقيقية أو الوهمية، قنابل فعلية أو أسطورية، وتبعاً لذلك، فالأمر إما حقيقة فعلية أو وهم من أوهام مخيلة مريضة، ذلك أن أولى القنابل الثلاث التي سقطت على راولبندي وانفجرت، إنما سقطت على البيت المنعزل الذي كانت تقيم فيه جدتي نسيم عزيز والخالة بيا حيث كانتا تختفيان تحت الطاولة، أما الثانية فقد مزقت جناحاً من أجنحة سجن المدينة فوفرت على ابن خالتي ظافر ذو الفقار سجناً مؤبداً، فيما دمرت بيتاً معتماً كبيراً محاطاً بسور، حراسه في مراكزهم، وبذلك لم تستطع الحيلولة بين أميرالدا ذو الفقار وبين الذهاب إلى ما هو أبعد بكثير من مدينة سوفولك رغم أنه كان في زيارتها تلك الليلة نائب كيف وابنته التي كانت ترفض البلوغ بعناد كعناد البغال، والتي وفرت على نفسها ضرورة تحولها إلى أرملة.

كذلك كانت ثلاث قنابل كافية تماماً في كراتشي. فالطائرات الهندية، التي تكره الانخفاض كثيراً، كانت تقصف من ارتفاعات عالية، لذا فإن غالبية قنابلها سقطت في البحر دون أن تسبب أذى. غير أن قنبلة واحدة سقطت

فأبادت الرائد المتقاعد علاء الدين لطيف وبناته السبع جميعاً، وبذلك حررني من وعدي إلى الأبد.

وكانت ثمة قنبلتان أخريان. ففي الوقت الذي ظهر فيه المعتصم الجميل، وهو في الجبهة، متجهاً من خيمته إلى المرحاض، سمع صوتاً أشبه بأزيز بعوضة (أم تراه لم يكن هناك أزيز) فلقي مصرعه بتأثير شظية قاتلة قبل أن يفرغ مثانته.

لا يزال علي أن أخبركم عن القنبلتين الأخريين.

لكن من بقي على قيد الحياة؟ جميلة المغنية التي عجزت القنبلة عن إيجادها، وفي الهند عائلة خالي مصطفى التي لم تكن القنابل تزعج نفسها بها. لكن قريبة والدي زهرة تلك القريبة البعيدة المنسية وزوجها كانا قد انتقلا إلى أمريتسار، فسعت إليهما قنبلة هناك.

بيد أنه لا يزال علي أن أخبركم عن قنبلتين أخريين:

. . . فبينما كنت، وأنا غير واع للصلة الحميمة بين الحرب وبيني، أمضي كالأحمق باحثاً عن القنابل أطوف الشوارع بعد ساعة حظر التجول وتفشل الطلقات اليقظة في إصابة هدفها مني. . كانت ألسنة اللهب تتصاعد من بيت راولبندي المنعزل حيث كانت الستائر التي ثقبت في منتصفها بثقوب سود غامضة قد تحولت إلى صور دخانية لعجوز ضخمة الجثة تغطي وجنتيها الشامات. . . وكانت الحرب تبيد واحداً بعد الآخر أفراد عائلتي المتلاشية اليائسة وتزيلها عن وجه الأرض.

لكن آنذاك وصل العد التنازلي إلى نهايته.

إذ وجهت دراجتي اللامبريتا أخيراً باتجاه المنزل وحين بلغت منعطف غورومانديز كانت الطائرات تهدر فوق رأسي، ميراج وميستير، بينما كان والدي الذي حولته السكتة الدماغية إلى أبله معتوه، يشعل الأنوار ويفتح النوافذ رغم أن ضابط الدفاع المدني كان قد زار المنزل مؤكداً عليهم أن يكون التعتيم تاماً. وحينما كانت أمينة سيناء تقول لطيفها الزائر، طيف صندوق الغسيل الأبيض القديم: «انصرف الآن، فقد رأيت منك ما فيه

الكفاية». كنت أنا منطلقاً على دراجتي أعبر بسيارات الدفاع المدني التي شرعت تلوح لي منها قبضات غاضبة بالتحية، وقبل أن يتمكن الآجر والحجارة من إطفاء الأضواء في منزل خالتي علياء، كان الهدير قد جاء وكان علي أن أعلم أن لا حاجة بعد ذاك للبحث عن الموت في مكان آخر.

فقد كنت ما أزال في الشارع، يسترني ظل المسجد، حين انقضت الطائرات باتجاه النوافذ التي أنارها عته أبي. كان الموت يهدر ككلاب متعددة الألوان، محولاً نفسه إلى أبنية متساقطة وستائر لهب وموجة ضغط قوية إلى درجة جعلتني أنقلب عن اللامبريتا بينما كان أبي وأمي وخالتي وأخي أو أختي، ذلك الجنين الذي كان سيبصر النور خلال أسبوع لا أكثر، كانوا جميعاً داخل المنزل ينسحقون تحت السقف ليغدوا أكثر انسطاحاً من كعكة أرز، وفي شارع كورانجي، كانت قنبلة أخيرة سددت على مصفاة بترول، تنزل بدلاً من ذلك على مسكن ذي مستوى منشطر على الطراز الأمريكي، مسكن لم يستطع حبل سري يرقد في أساسه أن ينجزه تماماً.

وهكذا في شارع غوروماندير، وَجَدَتْ كثيرٌ من القصص نهاياتها، قصة أمينة وزوجها القديم ذاك الذي كان في العالم السفلي، مثابرتها وإعلانها العام وابنها الذي لم يكن ابنها وحظها في مضمار السباق والمسامير والأيدي المتراقصة في مقهى الرائد والهزيمة الأخيرة التي منيت بها على يد أختها، وكذلك قصة أحمد الذي كان يضيع طريقه دائماً وكانت له شفة سفلى ناتئة إلى الخارج وكرش متهدل، أحمد الذي ابيضّ مع تجميد أمواله وأسلم نفسه للمجردات ووقع في غرام زوجته في وقت متأخر كثيراً وقضى نحبه بسبب سرعة تأثره بما يسقط من السماء. أكثر انسطاحاً من كعكة أرز غدوا جميعاً، وعلى رؤوسهم المنزل المتفجر المنهار، لحظة دمار شديد إلى درجة طارت معها الأشياء التي كانت قد دفنت أشياء أخرى، ذكريات بشر، تحت الأنقاض حيث لا أمل بخلاصها، فأصابع الانفجار امتدت إلى الأسفل، إلى قاع خزانه. حيث فتحت حقيبة صفيحية خضراء، ثم قذفت يد الانفجار ذات القبضة الشديدة بكل محتوياتها في الهواء وهكذا راح شيء ما كان مختفياً عن

الأعين منذ سنين يدور ويدور في الليل كفلقة قمر مدوّمة دائرة، شيء ما يعكس ضوء القمر ويسقط. إنه يسقط في اللحظة التي انتصب فيها على قدمي شبه دائخ بعد أن حدث الانفجار.

شيء ما يلف، يدور، ينقلب إلى الأسفل، شيء فضي كضياء القمر، مبصقة فضية بديعة الصنع مرصعة بالحجر اللازوردي، الماضي ينقض باتجاهي، يد ميتة أسقطها نسر لتغدو أداة تطهيري وتحريري، ذلك أنني في تلك اللحظة، وأنا أتطلع إلى الأعلى شعرت بشيء ما في مؤخرة رأسي. بعد ذلك مرت لحظة عابرة، إنما لا نهائية، من وضوح مطلق وأنا أنقلب ساقطاً إلى الأمام منبطحاً على بطني أمام مدفن والدي، لحظة بالغة القصر، إنما لا نهائية، من المعرفة، مرت قبل أن أجرد من الماضي الحاضر الذاكرة الزمن العار الحب، انفجار سريع الزوال إنما لا حدود زمنية له، انفجار أطأطئ له رأسي، أجل، أخضع، أجل، لقوة الانفجار القاهرة ومن ثم أغدو خواء تحرراً مطلقاً، ذلك أن كل ما في داخلي من «سليمات» بدأت تتدفق خارجة مني، بدءاً من سليم الطفل الذي ظهرت على الصفحة الأولى وبحجم الجامبو لقطات له وحتى سليم ابن الثامنة عشرة بحبه الدنس جاعلاً كل شيء ينسكب منه إلى الخارج: الخزي، الإثم، الرغبة في الاستمتاع، الحاجة للحب، التصميم على القيام بدور تاريخي والنمو بسرعة هائلة: فأتحرر من ذي الأنف الخرطومي والوجه المبقع والأصلع والمتعجرف وصاحب الوجه الخارطة وصناديق الغسيل وإيفي بيرنز ومسيرات اللغات، أتحرر من طفل الكولينوس ونهدي الخالة بيا والزمرة «آ» و«أو»، أتبرأ من جرائم القتل العديدة: هومي كاتراك حنيف وآدم عزيز ورئيس الوزراء جواهر لال نهرو، كما ألقي بعيداً عني بغايا بعمر الزمان واعترافات بالحب في أنصاف الليالي، أغدو حراً، فيما وراء الرعاية الانسحاق حتى الموت، أعود إلى البراءة والطهر بقطعة ساقطة من القمر: فقد مسحتني، نظفتني كلوح ـ كتابة خشبي، ضربتني على رأسي (تماماً كما قالت النبوءة) مبصقة أمي الفضية.

صباح الثالث والعشرين من أيلول، أعلنت الأمم المتحدة انتهاء الأعمال العدوانية بين الهند والباكستان وكانت الهند قد احتلت حوالى /٥٠٠/ ميل

مربع من الأراضي الباكستانية بينما احتلت الباكستان / ٣٤٠/ ميلاً مربعاً من حلمها الكشميري. ويقال إن وقف النار قد تم لأن كلا الجانبين كانا قد فرغا من الذخيرة في آن واحد تقريباً، وبذلك فإن مقتضيات الدبلوماسية ومداولات ممولي الأسلحة ذات الدوافع السياسية حالت دون إبادة عائلتي إبادة تامة. لقد بقي بعضنا على قيد الحياة لسبب واحد: لم يكن ثمة من يبيعنا أدوات قتلنا، لم يبق من يقدم لنا القنابل، الطيارات، المقذوفات اللازمة لاتمام تدميرنا.

لكن بعد ست سنوات، كانت ثمة حرب أخرى.

الكتاب الثالث

البوذا

من الواضح إذاً (وإلا سأضطر لأن أقدم هنا تفسيراً خيالياً لاستمرار وجودي في هذا «الثوب الفاني») أن باستطاعتك أن تعدني ممن عجزت حرب الـ ٦٥ عن القضاء عليهم. لقد عانى سليم، الذي ضربته مبصقة فضية على رأسه، من تصدع جزئي فقط، من مسح تنظيفي فقط، بينما مسح آخرون، كانوا أقل خطأ منه مسحاً كلياً. ولقد أنقذه من الموت، هو الفاقد وعيه في الظل الليلي للمسجد، نفاد الذخيرة من المستودعات.

الدموع ـ التي ليس لها أدنى حظ، في غياب البرد الكشميري، بأن تتحول إلى ماس صلب ـ تنساب على الأطراف البارزة لوجنتي بادما، «أوه، يا سيدي؟ تلك الحرب اللعينة تقتل خير الناس وتترك شرهم». ثم تنتحب بادما على أهلي الذين سحقتهم القنابل، فتبدو كما لو أن جموعاً من القواقع انحدرت مؤخراً من مقلتيها المحمرتين كالجمر، تاركة آثارها الغرائية على وجهها. لكن عينيَّ، تظلان بلا دموع كالعادة، وبكل ترفع أرفض الرد على الإهانة غير المقصودة التي تضمنتها عبارة بادما المنتحبة.

«ابكي على الأحياء» قلت لها بشيء من التوبيخ اللطيف، «فالموتى فازوا بجنان نعيمهم». احزني على سليم، سليم، الذي حرم من الجنان السماوية لاستمرار دقة قلبه، سليم الذي أفاق مرة ثانية على روائح العقاقير والأدوية في أحد أجنحة مستشفى من المستشفيات، سليم الذي لم يجد حوله حوريات لم يمسهن أنس ولا جان كي يقدمن له متع الخلود الموعودة، لقد كنت حسن الحظ في تلقي رعاية ممرض ضخم الجثة متجهم الوجه راح يهمهم، وهو

يضمد لي رأسي، همهمات حادة حول السادة الأطباء وأنهم سواء كانت هناك حرب أم لا يفضلون الذهاب إلى «شاليهاتهم، أيام الآحاد». . «الأفضل أن تبقى هنا يوماً آخر»، تفوه بذلك ثم طفق ينتقل إلى الجناح باثاً البهجة حوله حيثما حل.

احزني على سليم - سليم اليتيم، المطهر، المحروم من نخسات دبابيس الحياة العائلية الكثيرة، تلك النخسات التي تستطيع وحدها أن تفجر خيال التاريخ البالوني المنتفخ، وتجعله يهبط إلى مستوى بشري أكثر قابلية للتدبير، سليم الذي اقتلع من جذوره ليقذف مهملاً مزدرى عبر الزمان، وقد كتب عليه أن يغرق، هو الذي دخل سن الرشد، بلا ذاكرة ولا ماض، في حياة كل جانب منها يشتد غرابة يوماً بعد يوم.

آثار قواقع جديدة على وجنتي بادما. وأضطر لأن أجرب ضرباً من التهدئة «حسبك، حسبك» وأنا أتذكر تلك الأفلام المثيرة (آه كم كنت أحبها، تلك الأفلام، في سينما مترو للصغار! يا للتلمظ بالشفاه عند رؤية عنوان «العرض القادم» متراكباً على قطيفة زرقاء متموجة! يا لسيلان اللعاب في استباق الأحداث وأنت ترى الشاشة تعلن مع دقات النفير «في الحال»! ذلك أن الوعد بمستقبل غريب من نوعه كان يبدو دائماً، في ذهني، النقيض الكامل لخيبات أمل الحاضر).

«كفى، كفى» أبذل قصارى جهدي لتهدئة جمهوري المقرفص المنتحب، «أنا لم أنته بعد، فلا يزال هناك إعدام بالكهرباء وغابة أمطار وهرم من الرؤوس في ميدان مغطى بعظام فرغ نقيها. لا يزال ثمة فرارات جديدة قادمة، ومئذنة تزعق. لا يزال، هناك يا بادما، الكثير مما يستحق السرد: تجاربي الأخرى، في سلة المجهول وفي ظل مسجد آخر. انتظري هواجس ريشام بيبي وحرد بارفاتي الساحرة. الأبوة والخيانة أيضاً وبالطبع تلك الأرملة التي لا مفر منها والتي أضافت لتاريخ التلاشي المذكور آنفاً الخزي النهائي للخواء اللاحق. . باختصار، لا تزال هناك عروض جذابة أخرى وأشياء ستأتي في الحال. إذ ينتهي فصل من الفصول حين يموت الوالدان لكن نوعاً جديداً من الفصول يبدأ كذلك».

وهكذا، تجد شيئاً من العزاء بما أعرض عليها من أشياء جديدة، فتنشق بادماي مخاط أنفها، وتمسح آثاره المتبقية على الوجه ثم تجفف عينيها وتأخذ نفساً عميقاً. . كان قد مضى على ذلك الشخص الذي ضربته المبصقة على رأسه والذي التقينا به أخيراً في المستشفى، خمس سنوات تقريباً قبل أن تشهق زهرة الروث اللوتسية أنفاسها بعمق.

(وبينما تحبس بادما أنفاسها، كي تهدئ نفسها، أسمح لنفسي بإدخال لقطة قريبة من طراز لقطات بومباي السينمائية ـ التقويم السنوي يحرك أوراقه النسيم، صفحاته تتطاير بتسلسل سريع محددة بذلك مرور الأيام والشهور، فأضع بعضاً فوق بعض: لقطات بعيدة مضطربة لأعمال شغب في الشوارع، ولقطات متوسطة لحافلات تحترق ومكتبات باللغة الانكليزية تشتعل، مكتبات تعود ملكياتها للمجلس البريطاني ومصلحة الاستعلامات التابعة للولايات المتحدة، وعبر الارتعاش المتسارع لأوراق التقويم، نلمح سقوط أيوب خان وتولي الجنرال يحيى لشؤون الرئاسة، ووعوداً بانتخابات. عند ذاك تفترق شفتا بادما، بادما تفغر فاها، لكن لا وقت الآن للصور الغاضبة المعترضة، صور السيد ذو الفقار علي بوتو والشيخ مجيب الرحمن. الهواء المستنشق على شكل شهيق يبدأ بالانطلاق على نحو غير مرئي من فمها، والوجوه ـ الحلمية لزعماء حزب الشعب الباكستاني وحزب عوامي تومض ومضاً خفيفاً ثم تمحي، نفخة رئتيها المفرغتين توقف، وبصورة مثيرة للمفارقة، النسيم الذي تطير له صفحات تقويمي فيستقر على تاريخ يقع في أواخر ١٩٧٠، قبل أن تشطر الانتخابات البلاد إلى شطرين، قبل أن تندلع حرب الجناح الغربي ضد الجناح الشرقي، حزب الشعب الباكستاني ضد حزب عوامي، بوتو ضد مجيب. . . قبل انتخابات ١٩٧٠ وبعيداً عن مسرح الأحداث العامة، يصل ثلاثة جنود إلى معسكر مختف عن الأنظار في تلال موري).

بادما استعادت سيطرتها على نفسها «حسناً، حسناً» تعترض وهي تلوح بذراع تغرقها دموعها: «لماذا تنتظر؟ ابدأ، هيا». تصدر إلهة اللوتس تعليماتها إلي بشيء من الرفعة: «ابدأ بالتفصيل مرة ثانية».

معسكر التلال غير موجود على أية خارطة على وجه الأرض، إنه أكثر

نأياً عن طريق موري من أن يستطيع أحد سماع كلابه وهي تنبح، مهما كانت حاسة السمع لديه قوية وحادة، سياجه السلكي الشائك مموه تمويهاً شديداً، البوابة لا تحمل إشارة ولا اسماً. مع ذلك فهو موجود وقد كان موجوداً، رغم أن وجوده موضع نكران شديد.

فعند سقوط دكا، مثلاً، وحين جرى التحقيق حول هذا الموضوع، مع بطل الباكستان المهزوم «النمر نيازي» من قبل صديقه القديم جنرال الهند المنتصر، سام مانيكشو، رد النمر: «وحدة كلاب بوليسية لتتبع الآثار والنشاطات المخابراتية؟ لم أسمع بها أبداً، معلوماتك مضللة أيها الصديق العجوز: وتفكيرك مضحك تماماً، إن لم تأخذ بما قلت». لكن رغم ما قاله النمر للجنرال سام فإنني أصر: المعسكر كان هناك تماماً...

«انصبوا قاماتكم» يصرخ اللواء اسكندر بمجنديه الجدد، أيوب بلش، فاروق رشيد وشهيد دار. أنتم وحدة كوشيا الآن، ويلطم فخذه بعصاه الخيزرانية ثم يدور على عقبيه وقد تركهم واقفين على أرض الملعب تشويهم شمس الجبل ويجمدهم هواؤه في آن واحد. الصدور إلى الأمام، الأكتاف إلى الوراء، منتصبو القامات، يقف الشبان الثلاثة ثم يسمعون صوت القهقهة المكتومة لوصيف اللواء، لالاموان: «إذاً أنتم الصغار المساكين الذين حصلتم على الكلب ـ الرجل».

في مفارشهم تلك الليلة: «اقتفاء آثار واستنجادات» يهمس أيوب بلش بافتخار، «جواسيس يا رجل ـ رجال مخابرات؟ مائة وسبعة عشر طرازاً! فقط، أطلقنا على أولئك الهندوس وانظر ما الذي لا نفعله. كادانغ كا ـ بو![1] آه، أي ضعاف مهزومين أولئك الهندوس! نباتيون جميعاً! يعيشون على الخضار!». ثم يفح أيوب فحيحاً: «ينقصهم اللحم دائماً»، ذلك أن بنيته أشبه ببنية دبابة وشعر رأسه يبدأ مباشرة فوق حاجبيه.

عندئذ يقول فاروق: «أتظن أن الحرب ستنشب؟». فيرد أيوب ناخراً «وما سواها إذاً؟ وكيف لا تنشب؟ ألم يعد السيد بوتو كل فلاح بفدان من

(١) تشبه صيحات الهجوم.

الأرض؟ إذاً من أين ستأتي هذه الأرض؟ من أجل أرض كهذه، لا بد لنا من أن نغزو البنجاب والبنغال. انتظر فقط الانتخابات، وحين يفوز حزب الشعب- حينذاك كا ـ باو ـ كابلوي[1]».

ويضطرب فاروق «أولئك الهنود لديهم جنود من السيخ يا رجل. جنود لهم لحى وشعور بالغة الطول تنخسهم في الحر بطريقة تجعلهم يندفعون للقتال كالمجانين...». فيقهقه أيوب بشيء من السخرية: «نباتيون! اقسم على ذلك...». وأنى لهم أن يهزموا نماذج قوية مثلنا؟ (لكن فاروق طويل القامة نحيل الجسم).

عند ذلك يهمس شهيد دار: «لكن ما الذي عناه بـ: الكلب ـ الرجل؟».

..... وجاء الصباح ليجد، في كوخ يحوي لوحاً أسود، اللواء اسكندر وهو يمسح عقد أصابعه بطيات سترته بينما يقدم رقيب أول يدعى نجم الدين تقريراً موجزاً عن الوضع للمجندين الجدد بصيغة السؤال والجواب. يقدم نجم الدين التقرير سائلاً ومجيباً معاً، إذ لا مجال للمقاطعة أو تدخل الأغرار بينما تحدق من أعلى اللوح نظرات صارخة لصور بهية تمثل الرئيس يحيى ومعتصم الشهيد. وعبر النوافذ (المغلقة) يأتي نباح الكلاب المتواصل... أسئلة نجم الدين وأجوبته هي أيضاً نوع من النباح. لماذا أنتم هنا؟ للتدريب. في أي ميدان؟ المطاردة وإلقاء القبض. كيف ستعملون؟ على شكل وحدات كلبية تتألف كل منها من ثلاثة عناصر وكلب. ما الخصائص غير المألوفة؟ عدم وجود ضباط، ضرورة اتخاذ القرارات بنفسك، وكذلك ضرورة توفر حس إسلامي رفيع بالانضباط الذاتي والمسؤولية. هدف الوحدات؟... استئصال العناصر غير المرغوبة. طبيعة وحدات كهذه؟ التسلل، التخفي ـ جيداً، إمكانية أن تكون أي شخص. الأهداف المعروفة للوحدات نفسها؟ ـ إثارة الكراهية والحقد عليها بـ: تدمير الحياة العائلية، اغتيال فكرة الله، تجريد الإقطاعيين من ممتلكاتهم، إلغاء مراقبة الأفلام، إلى ماذا ستنتهي؟ ـ إلى القضاء على الدولة، الفوضى، السيادة الأجنبية، قضايا

---

(١) تشبه صيحات الهجوم.

أساسية مهمة؟ الانتخابات القادمة، وبالتالي الحكم المدني، (السجناء السياسيون الحاليون يطلق سراحهم جميعاً كافة أنواع رجال العصابات يخرجون خارج البلاد). مهمات الوحدات تماماً؟ الطاعة بلا تردد أو تذمر، البحث والتفتيش بلا كلل أو ملل، إلقاء القبض بلا شفقة أو رحمة. صيغة الإجراء؟ مكشوف، فعال، سريع. الأساس القانوني لاعتقالات كهذه؟ الدفاع عن نظم الباكستان، إتاحة الفرصة لوضع اليد على غير المرغوب فيهم مدة ستة أشهر.

حاشية: هذه المدة قابلة للتجديد خمسة أشهر أخرى. أية أسئلة؟ لا يوجد. حسن، أنتم وحدة كوشيا رقم /٢٢/ شعار الكلبة سيخاط في عروات ستراتكم والاسم الرمزي كوشيا يعني كلبة بالطبع؟

إذاً، ما معنى الكلب ـ الرجل؟

متقاطع الساقين، أزرق العينين، محملقاً بالفراغ، يجلس تحت شجرة. أشجار البودي لا تنمو في مثل هذه الارتفاعات لذا يجلس تحت شجرة تشينار.

أنفه: على شكل المصباح الكهربائي، على شكل الخيارة، أرنبته مزرقة من البرد، وعلى رأسه بقعة الراهب الجرداء التي أحدثتها يد زاغالو ذات مرة، والأصبع المبتورة التي سقطت سلاميتها عند قدمي ماشك مايوفيك بعد أن أطبق الباب عليها غلاندي كيث والبقع على وجهه مثل خارطة.. أو وح أو..... ح ح. (ويبصق).

أسنانه مبقعة، عصارة الفوفل تصبغ لثتيه بالحمرة. جدول أحمر من سائل البان الممضوغ يغادر شفتيه ثم يصطدم بدقة ماهرة، بالمبصقة الفضية المتقنة الصنع التي تنتصب أمامه على الأرض. أيوب شهيد وفاروق يحملقان فيه منذهلين. «لا تحاولوا إبعادها عنه»، يقول الرقيب الأول نجم الدين مشيراً إلى المبصقة «فهذا يفقده صوابه». ويبدأ أيوب: «سيدي، سيدي، أظن أنك قلت ثلاثة أشخاص وكل...». لكن نجم الدين ينبح: «لا أسئلة! طاعة بلا تردد ولا تساؤلات. هذا هو مقتفي الآثار لديكم وذلك كل شيء. انصراف».

في ذلك الحين، كان عمر أيوب وفاروق ست عشرة سنة ونصفاً أما

شهيد (الذي زور عمره) فربما كان أصغر بسنة واحدة. لكن نظراً لأنهم كانوا صغار السن ولم يتح لهم الوقت للتساؤل عن نوع الذكريات التي تجعل قبضة الناس تشتد على الواقع، كذكريات الحب مثلاً أو المجاعة، فإن الجنود الفتيان كانوا شديدي التأثر بالأساطير والأقاويل.

وهكذا خلال أربع وعشرين ساعة، وفي سياق المحادثات الدائرة في فوضى الصالة مع وحدات كوشيا أخرى، كان قد أضفي على الكلب ـ الرجل صبغة أسطورية تماماً. . . «من عائلة كريمة فعلاً يا رجل» ـ «الولد الأبله ـ إنهم يضعونه في الجيش كي يجعلوا منه رجلاً»، «أصيب بحادث في حرب الـ ٦٥ يا هذا، لكنه لا يتذكر شيئاً عنها». «اسمع، لقد قيل لي إنه أخ. . . .». «لا يا رجل! هذا جنون! إنها طيبة، كما تعلم، وهي بسيطة ومقدسة، فكيف تتخلى عن أخيها؟». «على أي حال هو يرفض التحدث عن الأمر». «لقد سمعت شيئاً فظيعاً، إنها تكرهه يا رجل، هذا هو السبب في تخليها عنه».

«لا ذاكرة، لا اهتمام بالناس، يحيا حياة كلب»، «لكن عمله في تتبع الآثار مناسب تماماً. هل ترى ذلك الأنف الذي يتربع على وجهه»؟ «أوه، يا رجل، إن بإمكانه أن يتتبع أي أثر على وجه الأرض» ـ «في الماء ـ بابا، عبر الصخور. . مقتفي آثار كهذا، لم تر عيناك قط».

فاقد الحس من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. ألمسه فلا يشعر بك. لكن بحاسة الشم وحدها يستطيع التعرف إلى وجودك. «لا بدّ أنه جرح حرب». «لكن تلك المبصقة يا رجل، من يعرف سرها؟ إنه ينقلها معه حيثما يذهب وكأنها تذكار حب»، «أقول لكم، أنا مسرور لأنكم ثلاثة هنا، فهو يصيبني بنوع من الوهن، أوه! يا لتلك العينين الزرقاوين».

«هل تعرفون كيف اكتشفوا سر أنفه؟ لقد كان يطوف في حقل ألغام، يا رجل، وكان يشق طريقه خلاله، أقسم على ذلك، وكأنه قادر على شم رائحة الألغام اللعينة». «أوه، لا، يا رجل، ما هذا الذي تقوله، تلك قصة قديمة، تلك قصة أول كلب في عمليات الكوشا كلها، قصة الكلبة بونزو يا رجل، فلا تخلط الأمور»، «هيه، أنت، يا أيوب، من الخير لك أن تراقب سلوكك

معه إذ يقال إن أشخاصاً مهمين جداً يكلأونه برعايتهم»، «أوه كما قلت لك، جميلة المغنية. . .»، «أوه حسبك كلاماً، فقد سمعنا ما يكفي من حكاياتك الخرافية».

ما إن توافق أيوب وفاروق وشهيد مع دليلهم السلبي الغريب (وكان ذلك إثر حادثة المرحاض) حتى أطلقوا عليه لقب البوذا «الشيخ» ليس فقط لأنه كان أكبر سناً منهم بسبع سنوات وكان له، عملياً، دور في حرب الـ ٦٥ التي جرت قبل ست سنوات، حين لم يكن الجنود الفتيان الثلاثة قد عرفوا البنطلونات الطويلة حتى، بل لأنه كان محاطاً بهالة من القدم الأثري المفرط، ولقد شاخ بوذا الحقيقي قبل أوانه.

أوه يا للالتباس السعيد لكتابة لغة بأحرف لغة أخرى؟ فكلمة بوذا الأوردية تعني الشيخ لكن ثمة لفظة «بوذا» أخرى وتعني «الرجل الذي توصل إلى ـ العالم النوراني ـ تحت شجرة البودي. .». كان يا ما كان، في قديم الزمان، كان ثمة أمير لم يستطع تحمل ما يعانيه البشر وهكذا بات غير قادر على العيش في العالم وقادر على العيش فيه معاً. لقد كان حاضراً وغائباً في الوقت ذاته، جسده في مكان وروحه في مكان آخر. في الهند القديمة، كان غوتاما بوذا يجلس مستنيراً تحت شجرة في غايا، وفي حديقة الغزلان في سرناث شرع يعلم الآخرين كيف يجردون أنفسهم من الأحزان الدنيوية، كيف يحققون سلامهم الروحي، وبعد قرون من الزمن، كان البوذا سليم يجلس تحت شجرة مغايرة، غير قادر على تذكر الحزن، فاقد الحس كقطعة جليد، ممسوحاً نظيفاً كلوح. . . وإنني مضطر لأن اعترف بشيء من الضيق أن فقدان الذاكرة ضرب من التحايل الذي يستخدمه بصورة منتظمة مخرجونا السينمائيون اللامعون. وهكذا أسلم، حانياً رأسي قليلاً، بأنه طغى على حياتي مرة أخرى، طابع أفلام بومباي، لكن إذا ما تركنا جانباً قضية التقمص التي هي مثار إشكالات وجدل، نجد أن هناك عدداً محدوداً فقط من وسائل تحقيق البعث من جديد. لذا ومع الاعتذار عن هذه الميلودراما، لا بد لي من أن أصر إصراراً شديداً على أنني أنا (أو هو) كنت قد بدأت الحياة، بعثت مرة ثانية، فهو (أو أنا) وبعد سنوات من التشوق لأن يكون شخصية هامة كان قد

تخلص من القضية كلها، تطهر تماماً، أو أنه بعد التخلي الانتقامي الذي واجهته به جميلة المغنية التي ألحقته بالجيش كيلا تراه عيناها، فإنه (هو أو أنا) قبل بالمصير الذي جاء عقاباً له على حبه الدنس وراح يجلس بلا شكوى أو تذمر تحت شجرة الشينار وأن البوذا ذاك، البوذا المفرغ من كل تاريخ أو ذاكرة، كان قد تعلم فنون الخضوع والطاعة، ولم يكن يفعل إلا ما يطلب منه. قصارى القول: إنني (أنا البوذا) كنت قد أضحيت مواطناً باكستانياً.

ومما لا جدال فيه أن البوذا ذاك بدأ، خلال أشهر التدريب، يثير غضب أيوب بلش. ربما لأنه أراد أن يعيش بعيداً عن الجنود، في كوخ ناسك مصنوع من الأغصان والقش يقع في النهاية البعيدة لمهجع الكلاب، أو لأنه غالباً ما كان يرى وهو جالس متصالب الساقين تحت شجرة في يده المبصقة الفضية، وعيناه زائغتان وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء، كما وكأنه كان سعيداً لفقدان ذاكرته. والأنكى من ذلك أن أيوب، الرسول المبشر باللحم، اكتشف أن دليله عنين، معطل الرجولة. «مثل باذنجانة يا رجل»! أما أنا فأتيح الفرصة لأيوب كي يتذمر أكثر فيهدر: «أقسم ـ إنه لنبات».

(وإذا ما كانت نظرتنا أوسع أفقاً. يمكننا أيضاً أن نؤكد أن ثورة الغضب كانت على وشك الحدوث عند نهاية العام. ترى ألم يكن الجنرال يحيى والسيد بوتو نفسيهما منزعجين منفعلين بسبب إصرار الشيخ مجيب الرحمن على حقه في تشكيل الحكومة الجديدة. فحزب عوامي البنغالي الفاسد فاز بمائة وستين مقعداً من أصل المائة والاثنين والستين مقعداً المخصصة للجناح الشرقي، أما حزب الشعب الذي يتزعمه بوتو فلم يفز إلا بواحد وثمانين مقعداً من مقاعد الجناح الغربي. نعم، انتخابات تثير الغيظ، ومن السهل أن نتصور كم كان محنقاً مغيظاً كل من الجنرال يحيى والسيد بوتو وجماعة الجناح الغربي جميعاً. وحين يكون الرجل العظيم كذلك، كيف للمرء أن يلوم رجلاً حقيراً تافهاً؟ إذاً دعونا نستنتج أن غضب أيوب بلش وضعه في مصاف أناس ممتازين إن لم نقل مجيدين).

في مناورات التدريب، حين كان أيوب شهيد فاروق يسرعون خلف البوذا وهو يلحق الآثار عبر الجداول الصخور الشجيرات، كان الفتية الثلاثة

يضطرون للاعتراف بمهارته لكن أيوب، الشبيه بالدبابة، ظل يسأل: «ألا تتذكر شيئاً فعلاً؟ لا شيء البتة؟ لكن أنت لا تبدو مريضاً؟ ربما، لديك في مكان ما أب أم أخت؟ لكن البوذا كان يقاطعه بلطف «لا تحاول أن تملأ رأسي بذلك التاريخ. أنا من أنا وهذا كل شيء». وكانت لهجته نقية تماماً لهجة أوردية مدرسية فعلاً من طراز لوكنو، «الله ـ الله» قال فاروق معجباً كل الإعجاب، الأمر الذي جعل أيوب بلش الذي كان يتكلم بلهجة خشنة كلهجات أبناء القبائل، يطرق صامتاً. هكذا بدأ الفتية الثلاثة يصدقون الأقاويل بحماسة أشد حتى، لقد سحرهم، عن غير إرادة منهم ذلك الرجل الذي يشبه أنفه الخيارة والذي نبذ رأسه التواريخ العائلات الذكريات. فلم يبق شيء فيه سوى الروائح.. «مثل بيضة فاسدة مصها أحدهم إلى أن فرغت تماماً» غمغم أيوب هامساً لصاحبيه، ثم أضاف عائداً إلى موضوعه الأساسي «الله حتى أنفه يبدو مثل نبتة».

واستمر ضيقهم. هل كانوا يشعرون، في خواء البوذا من الأحاسيس، بشيء من «عدم المرغوبية»؟ ترى ألم يكن نبذه للماضي والعائلة نموذجاً للسلوك الهدام الذي كرسوا أنفسهم لاقتلاعه من جذوره؟ غير أن ضباط المعسكر أعطوا الأذن الصماء لأيوب الذي كان يطالب بإلحاح «سيدي، سيدي، ألا يمكننا أن نحصل على كلب حقيقي يا سيدي».

... بل حتى فاروق الذي ولد تابعاً بالفطرة والذي كان قد اعترف بأيوب كقائد له وبطل من الأبطال، صرخ ملء صوته: «ماذا نفعل ولذلك الشخص صلات عائلية واسعة؟ لا بد أن بعض الشخصيات الرفيعة طلبت إلى اللواء مراعاته، هذا كل ما في الأمر».

ورغم أن الفتيان الثلاثة كلهم كانوا عاجزين عن الإفصاح عن أفكارهم، فإنني أقول إنه كان يكمن في أعماق أنفسهم القلقة المضطربة خوفهم من انفصام الشخصية، من الانشطار الذي كان مدفوناً مثل حبل سري في أعماق كل باكستاني. ففي تلك الأيام كان ثمة جناح غربي وشرقي للبلاد تفصلهما كتلة البر الهندي المتعذر عبورها، وكان الماضي والحاضر يفصلهما خليج متعذر عبوره أيضاً. لقد كان الدين هو صمغ الباكستان الذي يلصق الشطرين

معاً، تماماً مثلما يشكل الوعي، وعي المرء لنفسه باعتباره وحدة متجانسة من حيث الزمن، باعتباره مزيجاً من الماضي والحاضر، أقول مثلما يشكل الوعي صمغ الشخصية، ذاك الذي يلصق ماضيها بحاضرها. لكن حسبنا تفلسفاً: ما أود قوله هو أن البوذا بتخليه عن الوعي، بانسحابه من التاريخ، كان يضرب أسوأ الأمثلة ـ والمثال تتبعه شخصيات هامة مثل الشيخ مجيب، حين قاد الجناح الشرقي إلى الانسحاب وأعلن استقلاله عن الدولة الباكستانية باسم «بنغلادش» أجل، كان أيوب شهيد فاروق على حق في إحساسهم بالقلق. ذلك أنني حتى في أعماق انسحابي من المسؤولية تلك، ظللت أشعر بالمسؤولية عن حوادث حرب ١٩٧١، وذلك من خلال تأثيرات الصيغ المجازية للاتصال.

لكن علي أن أعود إلى أصحابي الجدد كي أتمكن من سرد قصة المرحاض: فقد كان هناك أيوب، شبيه الدبابة، الذي يقود الوحدة وفاروق الذي يتبعه راضياً قانعاً، أما الفتى الثالث فقد كان نموذجاً أكثر خصوصية واكتئاباً وبالتالي أقرب إلى قلبي. في عيد ميلاده الخامس عشر كان شهيد دار قد زوّر عمره وبناء على ذلك تم تجنيده. ففي ذلك اليوم أخذه والده البنجابي، الفلاح المحاصص، إلى الميدان وغسل بدموعه بزته الجديدة وهناك شرح دار العجوز لابنه معنى اسمه «شهيد» كما أعرب عن أمله في أن يكون جديراً به، وأن يغدو أول فرد من العائلة يدخل جنات الخلود، متخلصاً من هذا العالم البائس الذي لم يكن للأب أمل فيه بأن يسدد ديونه، أو يطعم أولاده التسعة عشر. وللأسماء قوة طاغية.

وهكذا فإن طريق الشهادة كان قد تحول إلى هاجس مقيم في ذهن الفتى الصغير. ففي أحلامه، بدأ يرى موته وقد اتخذ رمانة لامعة تسبح في الجو خلفه، لاحقة به إلى كل مكان، منتظرة إلى أن يحين حينها. ولقد جعلت هذه الرؤية المقلقة وغير السعيدة، رؤية الرمانة ـ الموت، جعلت صاحبنا هذا شخصاً انطوائياً لا يعرف الابتسام.

على هذا النحو من الانطواء والتجهم راقب شهيد مختلف وحدات الكوشيا وهي تنطلق من المعسكر إلى العمل وأضحى مقتنعاً أن حينه، وحين

الرمانة، بات وشيكاً. لقد استنتج من انطلاق الوحدات التي تتألف كل منها من ثلاثة رجال وكلب، في سيارات جيب مموهة، أن الأزمة السياسية متفاقمة. كان ذلك في شهر شباط وكان حنق الكبار المبجلين يشتد يوماً بعد يوم. غير أن أيوب الدبابة، كانت له نظرة محلية وكان حنقه يتزايد أيضاً، لكن هدفه كان البوذا.

كان أيوب قد غدا مفتوناً بالأنثى الوحيدة التي يضمها المعسكر، إنها منظفة المراحيض الناحلة التي لم تكن قد بلغت الرابعة عشرة والتي كانت حلمتا نهديها، قد بدأتا لتوهما بالتبرعم داخل أسمالها الممزقة: صنف واطئ بالتأكيد، لكنها كانت كل ما هو موجود، وكمنظفة مراحيض فقط كانت ذات أسنان رائعة وصدر يبعث البهجة في النفس إذا ما اختلست النظر إليه من فوق الكتفين... بدأ أيوب يلاحقها، وهذا هو السبب في رؤيته لها، وهي تقصد كوخ البوذا المغطى بالقش، ومن ثم إسناده دراجة على المبنى ووقوفه على سرجها وبالتالي سقوطه، إذ لم يرق له ما رآه. بعدئذ تكلم مع فتاة المراحيض قابضاً عليها من ذراعها. «لماذا تذهبين إلى ذلك المعتوه ـ لماذا؟.. آ..؟ بينما يمكنني أنا، أيوب، أن أكون؟» فأجابت بأنها تميل إلى الكلب ـ الرجل. «إنه مضحك، وهو كما يقول فاقد لكل حس. إنه يفرك أنبوبه الخرطومي الداخلي ولا يشعر بشيء، لكن ذلك لذيذ وهو يحب رائحتي كما يقول».

وهكذا فإن صراحة الفتاة الفقيرة وأمانة منظفي المراحيض جعلت أيوب يصاب بالغثيان، فقال لها إن لديها روحاً مصنوعة من براز الخنازير، ولساناً معجوناً بالغائط أيضاً، وفي ذروة غيرته، دبر مزحة «رصاص القفز»، خدعة المبولة المكهربة. لقد أعجبه الموضع: ففيه لمسة شاعرية ما.

«لا يشعر بشيء» قال أيوب، ساخراً، لفاروق وشهيد «انتظرا فقط: لسوف أجعله ينط كالأرنب».

وهكذا، في العاشر من شباط (حين كان يحيى، بوتو ومجيب يرفضون الدخول في محادثات عالية المستوى) شعر البوذا بنداء الطبيعة. وفي مكان ما من المراحيض كان يختبئ شهيد المعنى بشكل من الأشكال وفاروق المرح، بينما كان أيوب، الذي استخدم رصاص القفز، لوصل لوحات القدم المعدنية

للمبولة بمدخرة سيارة كان محركها دائراً. ظهر البوذا بعينيه الزائغتين كعيني ماضغ القات وطريقته في السير كمن يسبح عبر السحاب. وحين سبح إلى داخل المرحاض، هتف فاروق «هيه، أيوب، هيا» وشرع يقهقه قهقهة مكتومة. ثم انتظر الفتية الثلاثة صيحة عذاب شديدة كإشارة على أن دليلهم المخبول بدأ بالتبول، سامحاً للكهرباء بأن تسري صعداً مع الجدول الذهبي الأصفر وتلدغ «أنبوبه المخروطي» فاقد الحس الذي يفرك به الفتاة الفقيرة.

لكن الصيحة لم تأت، فبدأ فاروق، وقد شعر بالارتباك والخيبة، يقطب جبينه، ومع مرور الثواني غدا شهيد عصبياً فصاح بأيوب بلش: «أنت، أيوب، ماذا تفعل يا رجل؟». فردّ أيوب الدبابة: «ماذا تظن يا هذا؟ لقد تم الاتصال بالسائل منذ خمس دقائق». حينذاك، جرى شهيد إلى المرحاض بأقصى سرعة فوجد البوذا يبول وعلى وجهه سيماء سرور ضبابي. وجده يفرغ مثانته التي كان من المحتمل أنه لم يفرغها منذ أربعة عشر يوماً، في حين كان التيار الكهربائي يسري إليه عبر خيارته السفلى، دون أن يلحظ ذلك بالتأكيد، يشحنه إلى حد كان مشبعاً معه بالكهرباء وكانت ثمة فرقعة خفيفة حول أرنبة أنفه الضخم، فصرخ شهيد الذي لم يجد الشجاعة الكافية للمس ذلك الكائن غير المعقول، ذلك الذي كان باستطاعته امتصاص الكهرباء عبر أنبوبه الخرطومي «افصل الكهرباء يا رجل، وإلا فسوف يقلى كالبصلة هنا».

بعد ذلك خرج البوذا من المرحاض مزرراً بنطاله بيده اليمنى، ممسكاً مبصقته الفضية باليسرى وهو غير معني بشيء. فأدرك الفتية الثلاثة أن الأمر صحيح حقاً، «الله! فاقد الحس كقطعة جليد! مخدر ضد جميع المشاعر والأحاسيس كذاكرته. . .». وطوال أسبوع كامل بعد وقوع الحادث، لم يكن في الإمكان لمس البوذا دون أن يصاب المرء بصدمة كهربائية، بل حتى فتاة المراحيض لم تستطع زيارته في كوخه.

لكن مما يدعو للاستغراب أن أيوب بلش كف، بعد قضية رصاص القفز تلك عن كراهية بوذا بل بدأ يعامله بكل احترام، لقد صهرت تلك اللحظة الغريبة وحدة الفتية الكلبية معاً جاعلة منها فريقاً واحداً حقيقياً على أتم الاستعداد لأن ينطلق قدماً ضد مرتكبي الشر في العالم كلّه.

لقد أخفق أيوب الدبابة في إحداث صدمة للبوذا. لكن حيث يخفق الصغير الضعيف يفلح الكبير القوي (فحينما قرر يحيى وبوتو أن يجعلا الشيخ مجيب يقفز عن الأرض، لم يخطئا هدفهما).

في الخامس عشر من آذار ١٩٧١، اجتمعت عشرون وحدة من هيئة الكوشيا في كوخ ذي لوح أسود، وصورة الرئيس البهية تحدق من علٍ إلى واحد وستين رجلاً وتسعة عشر كلباً، فيحيى خان كان قد عرض لتوه غصن الزيتون على مجيب الرحمن، وذلك بإجراء محادثات بينه هو وبوتو من جهة وبين مجيب الرحمن من جهة أخرى لإنهاء أسباب الحنق والغضب كلها، غير أن صورته كانت تتبدى عن وجه ـ محراكي لا شائبة فيه ولا سبيل أبداً لمعرفة نيّاته الحقيقية المثيرة للدهشة.

... وبينما كان اللواء اسكندر يفرك عقد أصابعه بطيات سترته، كان الرقيب الأول نجم الدين يصدر التعليمات والواحد والستون رجلاً والتسعة عشر كلباً يتلقونها وهكذا بدأ تسعة عشر فرداً ينزعون أطواق ـ تحديد الهوية من أعناق الكلاب، بينما راحت تلك الكلاب المدربة جيداً ترفع حواجبها وأعينها دون أن تصدر صوتاً، كما بدأ البوذا، وبكل امتثال وخضوع، يخلع ثيابه وخمس دزينات من زملائه البشر تحذو حذوه ثم تقف الدزينات الخمس بالاستعداد وهي تصطك من البرد، بجوار أكداس من القبعات العسكرية والبناطيل والقمصان والأحذية والكنزات الخضر ذات الرقع الجلدية على المرافق. بعدئذ ينطلق واحد وستون رجلاً، عراة إلا من ثيابهم الداخلية، بعد أن ينبح الرقيب الأول نجم الدين بأمر من الأوامر لهم، ثم يعودون إلى المكان نفسه، بعضهم يرتدي عمامة باثية، والبعض الآخر زياً هندوسياً والبعض الثالث زياً سيخياً. بل ثمة من يلبسون سراويل الرايون الرخيصة ومن يرتدون قمصان الموظفين المقلمة. أما البوذا فيرتدي القميص والضوطي. إنه مرتاح، لكن حوله جنوداً يتجمهرون، وعليهم شتى أشكال الملابس غير الملائمة.

في الخامس عشر من آذار، وبعد تنفيذ التعليمات الغريبة، انطلقت عشرون وحدة كوشيا إلى دكا، عن طريق سيلان، وبينها شهيد دار فاروق رشيد أيوب بلش وبوذاهم. كما طار إلى الجناح الشرقي على هذا الطريق

الدائروي ستون ألفاً من أعتى جنود الجناح الغربي: ستون ألفاً، كالواحد والستين أولئك، جميعهم باللباس المدني، قائدهم العام (ببزته الزرقاء الأنيقة ذات الصديرية المزدوجة) هوتيكا خان، الضابط المسؤول عن دكا، والمكلف بترويضها وتطويعها النهائي ذاك الذي كان يلقب بالنمر نيازي والذي كان يرتدي قميصاً مزهراً وسروالاً فضفاضاً وعمامة مثلثة صغيرة أنيقة.

عن طريق سيلان طرنا، ستون ألفاً وواحد وستون مسافراً جوياً بريئاً، متجنبين الطيران فوق الهند، وبذلك أضعنا فرصتنا في أن نراقب، من ارتفاع عشرين ألف قدم، احتفالات حزب المؤتمر الجديد، حزب انديرا غاندي، الذي أحرز نصراً كاسحاً ـ ٣١٥ مقعداً من أصل ٥١٥ مقعداً في لوك سبها ـ في آخر انتخابات أجريت. وهكذا مضينا في أوائل الربيع متجاهلين أنديرا ـ الجاهلة بأمرنا، عاجزين عن رؤية شعار حملتها: «غاريبي هاتاو»: تخلصوا من الفقر ذاك الذي كان يتوهج على جميع الجدران واللافتات، وفي كل مكان من الهند، الجوهرة العظيمة، ثم هبطنا في مطار دكا، ومن هناك حملتنا حافلات مدنية طلبت خصيصاً لهذا الغرض إلى مخيم عسكري. لكن في هذه المرحلة الأخيرة من رحلتنا، لم يعد بمستطاعنا تجنب سماع نتف من أغنية تنبعث من حاكٍ غير مرئي. كانت الأغنية تدعى «امارسونا ـ بنغالا» (بنغالنا الذهبية، للشاعر طاغور) وكان جزء منها يقول: «خلال الربيع يفعم قلبي بهجة، تصيبني بالجنون روائح مانجاك». لكن لم يكن أحد منا يفهم البنغالية، وبذلك اتقينا الأثر الهدام للأغنية رغم أن أقدامنا كانت تسير (وعلي أن أعترف بذلك) على وقع أنغامها.

في البداية، لم يقل أحد لأيوب وشهيد وفاروق اسم المدينة التي وصلوا إليها. فهمس أيوب، وهو يتخيل شتى الخيالات عن تدمير النباتيين: «ألم أقل لكم؟ الآن سنريهم! تجسس جيداً يا رجل؟ بلباسك المدني هذا، لتنقض عليهم، الوحدة رقم /٢٢/ كا ـ بانغ كا ـ دانغ كا ـ باو!!!!».

لكننا لم نكن في الهند، ولم يكن النباتيون هدفنا، بل بعد بضعة أيام من التسكع بلباسنا المدني، أعيدت إلينا بزاتنا الرسمية مرة ثانية، وكان ذلك في ٢٥ آذار.

في اليوم عينه، قطع يحيى وبوتو، وعلى نحو مفاجئ، محادثاتهما مع مجيب عائدين إلى الجناح الغربي. وحين خيم الظلام اندفع اللواء اسكندر يتبعه نجم الدين ولالاموان الذي كان يترنح تحت ثقل إحدى وستين بزة وأطواق تسعة عشر كلباً إلى الكوشيا. ثم بدأ نجم الدين: «هيا، الآن! عملاً لا كلاماً. واحد، اثنان، سرعة مضاعفة».

وهكذا ألقى المسافرون الجويون بأنفسهم داخل البزات الرسمية ثم استلموا السلاح، بينما كان اللواء اسكندر يعلن عن الغرض من رحلتهم. «ذلك المجيب» كشف أخيراً «لسوف نلقنه ما يستحق. لسوف نجعله ينط عن الأرض كالأرنب».

(كان ذلك في الخامس والعشرين من آذار، وفي ذلك اليوم بالذات، أي بعد انهيار المحادثات مع بوتو ويحيى، أعلن الشيخ مجيب الرحمن عن قيام دولة بنغلادش).

بعد ذاك خرجت وحدات الكوشيا من المهاجع ثم تكدست في سيارات الجيب المنتظرة، بينما كان صوت جميلة المغنية، المنبعث من مكبرات الصوت في القاعدة العسكرية، يصدح بالأناشيد الوطنية (فيلكز أيوب البوذا مرافقه: «اسمع، هيا! ألا تميز؟ فكر يا رجل، أليست تلك أختك؟ ـ الله! هذا الصنف لا يصلح إلا لاستنشاق الروائح»).

وعند منتصف الليل ـ ترى هل يمكن أن يكون ذلك في وقت آخر؟ ـ غادر ستون ألفاً من عتاة الجنود، أولئك المسافرين الذين طاروا في الجو كمدنيين، غادروا مهاجعهم ثم بدأوا يضغطون أزرار الإقلاع في الدبابات، غير أن أيوب وشهيد وفاروق والبوذا كانوا قد اختيروا شخصياً لمرافقة اللواء في أكبر مغامرة من مغامرات تلك الليلة. أجل، بادما، حين ألقي القبض على مجيب كنت أنا الذي استنشق رائحته واكتشف مكان وجوده (فقد زودوني بواحد من قمصانه العتيقة وكان من السهل علي أن أميز الرائحة).

وتكاد بادما تفقد السيطرة على نفسها عذاباً وألماً «لكن، يا سيدي، أنت لم تقم، لا يمكنك، بل كيف يمكنك أن تقوم بشيء كهذا؟».

لكنني يا بادما: قمت به، لقد أقسمت أن أروي كل شاردة وواردة أقسمت ألا أخفي شيئاً من الحقيقة (لكن، ثمة آثار قواقع على وجهها ولا بد من تقديم تفسير لها).

إذاً، ينبغي أن أكرر، سواء صدقت أم لم تصدقي أنه هكذا كان الأمر ـ وأن كل ما انتهى حين ضربتني المبصقة الفضية على مؤخرة رأسي بدأ من جديد. فسليم الباحث بحث اليائس عن معنى لوجوده، عن هدف جدير بالحياة، عن عبقرية تحط على الكتفين كالشال، سليم ذاك كان قد ولّى: ولن يعود إلى أن تعود أفعى الغابة. لكن، في الوقت الحاضر: لا يوجد إلا البوذا الذي لا يميز صوت أخته المغنية، لا يتذكر أباً ولا أماً، لا يعني له منتصف الليل شيئاً، البوذا الذي أفاق بعد مضي برهة على حادثة التطهير، ليجد نفسه في مستشفى عسكري ومن ثم يقبل بالجيش على أنه قدره. البوذا الذي يحيا حياة يحقق فيها ذاته، يؤدي واجبه، يطيع الأوامر يعيش وكأنه في العالم وليس في العالم معاً، يحني رأسه، لا يعرف ولا يهتم بـ: كيف؟ أو تحت رعاية من؟ أو على شرف من؟ أو بتحريض مَن مِن المنتقمين كان قد ارتدى البزة الرسمية؟ البوذا الذي لم يعد باختصار إلا الدليل المشهود له لوحدة الكوشيا رقم / ٢٢/ .

لكن كم هو مريع فقدان الذاكرة هذا! كم يُعفي المرء من أشياء وأشياء. لكن اسمحوا لي بانتقاد نفسي. لقد كان لفلسفة القبول والخضوع التي التزم البوذا بها عواقب وخيمة مثلما كان لرغبته السابقة في التمحور المركزي عواقب وخيمة: وهنا، في دكا، سوف تتكشف هذه العواقب.

«لا، غير صحيح» تقول بادما، مستنكرة، كاستنكارها لمعظم ما جرى في تلك الليلة.

ففي منتصف ليل الخامس والعشرين من آذار عام ١٩٧١ : قاد البوذا الجند إلى مخبأ الشيخ مجيب ماراً بالجامعة التي كانت تقصف بالقنابل والتي كان الطلاب والأساتذة يجرون فيها فارين بجلودهم، وكان يحييهم الرصاص وكان رشاش المركوروكروم يتناثر على المروج غير أن الرصاص لم يطلق على الشيخ مجيب بل قيدت يداه وأمسك به أيوب بلش ثم دفعه إلى عربة

تنتظره (تماماً كما حدث من قبل: بعد ثورة المباهر. . . بيد أن الشيخ مجيب لم يكن عارياً، بل كان يرتدي منامة مقلمة بالأخضر والأصفر).

وحين اندفعت السيارة به عبر شوارع المدينة، كان شهيد يخرج برأسه من النافذة ويرى إلى الأشياء التي لم تكن ولا يمكن أن تكون حقيقية: جند يدخلون دور نساء دون أن يقرعوا الأبواب، نساء يُسحلن في الشوارع ويولج فيهن أيضاً دون أن يزعج أحد نفسه بطلب الإذن، مكاتب صحافية تحترق بلهب الورق الرخيص الأصفر المسود. مكاتب نقابية تهدم إلى أن تسوى بالأرض، وخنادق بجوار الطرق تملأ بأناس، أناس ـ ليسوا مجرد نيام ـ إذ كانت ترى صدورهم العارية وقد ثقب الرصاص فيها ثقوباً جوفا. عبر النوافذ المتحركة راح أيوب وشهيد وفاروق يراقبون بصمت مطبق، بينما كان فتياننا، جند الله، من يساوي واحدهم عشرة جنود من الهندوس، يجمعون شطري الباكستان معاً بصب لهب القاذفات وإطلاق رصاص الرشاشات وإلقاء القنابل اليدوية على أحياء المدينة الفقيرة، وحين وصلوا بالشيخ مجيب الرحمن إلى المطار، حيث ألصق أيوب فوهة مسدسه بكتفه ودفعه دفعاً إلى الطائرة التي طارت به إلى معتقله في الجناح الغربي، حينها كان البوذا يغمض عينيه («لا تحشوا رأسي بكل هذا التاريخ» هكذا قال لأيوب الدبابة ذات مرة. «أنا ما أنا، وهذا كل شيء»).

ثم يجمع اللواء اسكندر عناصره قائلاً: «حتى الآن، ثمة عناصر هدامة ينبغي استئصال شأفتها».

حين يغدو التفكير مفرط الإيلام، يكون العمل خير علاج. . . وهكذا تسترخي أعصاب الجنود الكلبيين بعد توتر، ومن ثم ينطلقون، يهبون فرحاً إلى عملهم. فيا لمطاردة كلاب الصيد لغير المرغوب فيهم!

يا للاعتقالات البائسة لأفراد عوامي والمراسلين الكبار! يا لإطلاق النار عليهم عند مقاومتهم! كلاب الحرب تحمل الدمار في المدينة لكن رغم أن كلاب الآثار لا تتعب، فإن الجند يتعبون لأنهم الأضعف. وهكذا، يتقيأ أيوب شهيد فاروق، كل بدوره، حين يهاجم خياشيمهم نتن الأحياء الفقيرة المحترقة.

أما البوذا الذي تنتشر في أنفه صور ذات وضوح لامع فإنه يستمر في أداء واجبه وحسب. «شم رائحتهم: واترك البقية للجنود ـ الفتيان». وحدات الكوشيا تطوف بأنقاض المدينة المحترقة احتراقاً بطيئاً. ما من شخص غير مرغوب فيه سيكون آمناً هذه الليلة. ما من مخبأ لن يكتشف. الكلاب البوليسية تقتفي آثار المناوئين الفارين، أعداء الوحدة الوطنية، كلاب الصيد التي يبغي عدم صدها، تنشب مخالبها عميقاً بفرائسها.

كم من شخص ـ عشرة، أربعمائة وعشرين، ألف شخص وشخص تم اعتقالهم ـ من قبل وحدتنا رقم / ٢٢/ في تلك الليلة؟ كم مثقف دكاوي رقيق الحاشية كان يستتر بسارٍ نسائي ثم اكتشف في الشوارع؟ كم مرة قال اللواء اسكندر: «شم رائحة هذا! هنا رائحة هدامة!». فانطلقت كلاب الحرب في الوحدة؟ وهناك أمور جرت في ليلة الخامس والعشرين من آذار ستبقى إلى الأبد في حالة من الاضطراب والتشوش.

تقول الإحصاءات العقيمة: خلال عام ١٩٧١، عبر أكثر من عشرة ملايين لاجئ حدود الباكستان الشرقية (بنغلادش) إلى الهند ـ لكن عشرة الملايين (شأنها شأن جميع الأرقام التي هي أكبر من ألف واحد) تعصى على الفهم، والمقارنات لا تغير شيئاً «أكبر هجرة في تاريخ الجنس البشري» لا معنى لها. إذ إن سيلاً أكبر من خروج اليهود وأكبر من حشود التقسيم، كان ينصب على شكل وحش عديد الرؤوس في الهند. وعلى الحدود غدا الجنود الهنود يدربون رجال العصابات التي عرفت باسم الموكتي باهيني، أما في دكا، فقد حكم النمر نيازي.

وأيوب شهيد فاروق؟ فتيتنا ذوو البزات الخضر؟ كيف التزموا بقتال أخوتهم من أكلة اللحوم؟ هل تمردوا؟ هل ثقبت صدور الضباط ـ اسكندر، مثلاً، نجم الدين وحتى لالاميان ـ رصاصات المصابين بالغثيان؟ لا، لم يحدث هذا، لقد ضاعت البراءة، لكن رغم التجهم الجديد المحيط بالعيون، رغم ضياع القناعات اليقينية التي لا رجعة لها، رغم إمحاء القيم الأخلاقية وزوالها، فقد تابعت الوحدة عملها. لم يكن البوذا هو الوحيد الذي نفذ ما أمر به... ففي مكان آخر، عالياً، فوق الصراع، كان يهدر صوت جميلة

المغنية متصارعاً مع أصوات مجهولة الأصحاب وهي تغني أغنية طاغور «تنقضي حياتي في منازل القرية الظليلة، المليئة بالأرز المجني من حقولك، فيفعم قلبي بهجة».

قلوبهم أفعمت، لكن ليس بهجة، فأيوب وصحبه كانوا ينفذون الأوامر والبوذا يقتفي آثار الروائح. وبينما كان جنود الجناح الغربي يردون رداً فظيعاً على من يعرفونهم من مرتكبي الشرور في قلب المدينة التي غدت عنيفة، مجنونة، غارقة بالدم، كانت الوحدة ٢٢ تمضي عبر شوارع المدينة المعتمة، وقد ركز البوذا أنفه على الأرض يشم الآثار، متجاهلاً الفوضى القائمة في كل مكان يمر فيه، بكل ما فيها من علب سجائر وروث أبقار ودراجات ساقطة وأحذية مهجورة، كما بدأ البوذا ينطلق في مهمات أخرى، يخرج إلى الريف حيث تحرق قرى عن بكرة أبيها نظراً لمسؤوليتها الجماعية عن إيواء عصابات الموكتي باهيني، يتتبع هو وفتيته الثلاثة آثار أصغر المسؤولين في حزب عوامي والأفراد الشيوعيين المعروفين جيداً، مروراً بالقرويين المهاجرين وقد حزموا كل ما يملكون وحملوه رزماً على رؤوسهم، مروراً بالسكك الحديد المخربة والأشجار المحترقة، ودائماً، كما لو أن قوة خفية توجه خطاهم، تجرها إلى قلب الجنوب الأشد ظلمة، دائماً تقودهم مهماتهم إلى الجنوب فالجنوب، ليدنوا أكثر وأكثر من البحر، من مصبات روافد الغانج في المحيط.

أخيراً، من تراهم كانوا يلاحقون؟ هل تهم الأسماء في شيء؟ لقد حددت لهم طريدة لا بد أن مهاراتها تفوق مهارات البوذا، طريدة هي ند البوذا وعدوه، وإلا لماذا استغرق الإمساك بها وقتاً طويلاً؟ أخيراً، هم العاجزون عن التهرب من واجبات تدريبهم، يطاردون بلا رحمة، يعتقلون بلا شفقة، ويجدون أنفسهم في خضم مهمة لا نهاية لها، يطاردون عدداً يروغ منهم باستمرار، لكنهم لا يستطيعون العودة إلى القاعدة بخفي حنين، فيمضون إلى الجنوب الجنوب الجنوب، يجرهم أثر الرائحة المراوغ دائماً، وربما شيء آخر: ففي حياة سليم كلها، لم يكن القدر غير راغب بمد يد العون.

لقد طلبوا زورقاً لأن بوذا قال إن الأثر ينحدر مع النهر، وهكذا راحوا يجذفون جائعين، متعبين، مرهقين، نعاسا في عالم من مزارع الأرز المهجورة، ماضين إثر فريستهم غير المرئية، على النهر البني العظيم ماضين، إلى أن غدت الحرب بعيدة عن الذاكرة لكن الرائحة ظلت تقودهم وتقودهم. للنهر، هنا، اسم مألوف: بارما. لكن الاسم خدعة محلية ففي الواقع لا يزال النهر نفسه، لا يزال هو الماء ـ الأم، الإلهة غانجة تنحدر جداول إلى الأرض من شعر شيفا. البوذا لا يتكلم أياماً بطولها، بل يشير فقط: هناك! ذاك الطريق! ويمضون إلى الجنوب الجنوب إلى البحر.

صباح بلا اسم، يتابع فيه أيوب وشهيد وفاروق، وهم في زورق، مطاردتهم اللامجدية. يتجهون نحو ضفة الغانج ـ ليجدوا الفريسة قد ولت. «الله! الله» يصرخ فاروق «أمسك أذنيك واستنزل على روحك الرحمة أيها البوذا، أنت، أيوب، لقد خدعته بحيلة رصاص ـ القفز وها هو ذا ينتقم منك»... الشمس تصعد في السماء. طيور مهاجرة غريبة في الجو، الجوع والخوف كالفئران في أحشائهم، وتساؤل ماذا لو قابلنا الموكتي باهيني... وتستحضر أرواح الآباء. لقد حلم شهيد بحلم الرمانة. اليأس يعشش في حواف الزورق. وفي البعيد، قرب الأفق، جدار، سور ضخم أخضر لا نهائي وغير معقول يمتد إلى اليمين واليسار إلى نهاية العالم! خوف مكتوم: كيف يمكن أن يكون ما نراه حقيقياً؟ من يبني الأسوار في العالم؟..

ثم يقول أيوب: «انظر، انظر، الله»؟ إذ يبدو هناك، عبر مزارع الأرز، طريدة غريبة بطيئة الحركة: يشعر بها البوذا أولاً إذ يحدد موضعها بعد ميل، بعدئذ يلحقون بها، يخبطون في مياه أحواض الأرز.

ويظهر فلاح في يده منجل، مغضباً يشير مهدداً الأب، الزمان مغضب، بينما تجري على رصيف مائي امرأة وقد شمرت ساريها عن ساقيها، شعرها محلوق وصوتها يتوسل صارخاً فيما يتعثر المنتقم ذو المنجل ويتخبط في الأرز الغارق بالماء، مغطى بالماء والوحل من رأسه إلى قدميه.

أيوب يهدد بنوع من الارتعاش العصبي. «التيس العجوز! لا يستطيع أن يبعد يديه عن النساء المحليات! هيا، بوذا لا تدعه يمسك بك، وإلا شطر

لك خيارتيك». ثم يقول فاروق «لكن ماذا بعدئذ؟ إذا شطر البوذا ماذا يحدث؟». آنذاك يسحب أيوب الدبابة مسدساً من غلافه. يسدد أيوب: بكلتا يديه محاولاً ألا يخطئ، ألا تهتز يداه، ثم يطلق: فيرسّم منجل الفلاح قوساً في الهواء، وببطء شديد ترتفع يداه وكأنهما تبتهلان ثم تغوص ركبتاه في الماء، يغوص الوجه تحت مستوى الماء إلى أن تلامس جبهته الأرض. وعلى الرصيف المائي، تولول امرأة فيقول أيوب للبوذا: «المرة القادمة سأطلق النار عليك»، أيوب الدبابة يرتعش كورقة في مهب الريح، والزمن يستلقي ميتاً في حوض أرز.

لكن لا تزال هناك مطاردة بلا معنى، العدو الذي لا يراه أحد. فالبوذا يقول: «امضوا في ذلك الطريق» ويجذف الأربعة إلى الجنوب الجنوب، يقتلون الساعات وينسون الزمن، إذ لم يعودوا يعرفون إن كانوا يطاردون أحداً أم يفرون من أحد، لكن أياً كان الأمر، فهم يندفعون أقرب وأقرب إلى السور الأخضر غير المعقول. «ذلك الطريق» يصر البوذا، وحينذاك يجدون أنفسهم في الداخل. يجدون أنفسهم في غابة كثيفة إلى درجة لم يكن التاريخ نفسه قد عرف طريقه إليها: وهكذا تبتلعهم غابة السندربانز.

في السندربانز

سوف أعترف: لم تكن ثمة طريدة مراوغة دائماً تدفعنا جنوباً جنوباً جنوباً. وإلى جميع قرائي أود أن أدلي بهذا الاعتراف الصريح الصادق: حين كان أيوب شهيد وفاروق عاجزين عن التمييز بين المطاردة والهروب، فقد كنت أنا البوذا، أعلم ما أنا فاعل. ورغم وعيي التام بأنني أقدم لكل من يود التعليق في المستقبل أو للنقاد ذوي الأبر السامة (الذين أقول لهم: إنني عرفت سم الأفعى مرتين من قبل، وفي كلتا المرتين برهنت أنني أقوى من السموم). رغم أنني أقدم لهم مادة إضافية للتعليق والانتقاد ـ من خلال اعترافي بالذنب، تكشفي عن فساد خلقي، البرهنة عن جبني ـ إلا أنني ملزم بأن أقول إن البوذا بات، أخيراً، عاجزاً عن الاستمرار بتنفيذ واجبه الخاضع الخانع، فأطلق ساقيه للريح وهرب. أجل لقد هجر البوذا، مصاباً بعدوى جرثومة التشاؤم التي تقتل النفس «جرثومة العقم والخزي»، هجر كل شيء إلى المجهول الغامض، إلى غابات الأمطار، جاراً في أثره ثلاثة أولاد. ما أرجو أن أخلده إضافة إلى الكلمات إنما هو «حالة الروح» تلك التي لا يمكن فيها نكران عواقب الطاعة والقبول، والتي يمكن فيها للغرق الزائد في الواقعية أن يؤدي إلى خلق شوق خانق وحنين شديد للهروب إلى الأحلام وما تشكله من أمان... لكن الغابة، شأنها شأن كل الملاجئ، كانت شيئاً مغايراً كلياً تقريباً لكل ما توقع.

«أنا مسرورة» تقول بادما «إنني سعيدة لأنك فررت» لكنني أصر: لست أنا الذي فر. بل هو، هو البوذا، هو الذي سيظل، إلى أن تأتي الأفعى،

شخصاً آخر غير سليم. هو، الذي كان لا يزال منفصلاً عن ماضيه رغم الفرار، ورغم تمسك قبضته الضعيفة بمبصقة فضية ما.

كالقبر أطبقت الغابة عليهم، فبعد ساعات من التجذيف المسعور المتزايد تعباً عبر قنوات الماء المالح المتاهية المضللة، خيمت عليهم أشجار باسقة متقوسة كأبواب الكاتدرائية وبذلك أضاع أيوب وشهيد وفاروق طريقهم إضاعة كاملة. كانوا، المرة تلو المرة، يلجأون إلى البوذا فيشير هذا إليهم قائلاً: «ذلك الطريق»، «باتجاه الأسفل، هناك». ورغم أنهم كانوا يجذفون بحماسة شديدة، متجاهلين التعب، إلا أنه بدا لهم وكأن إمكانية الخروج من ذلك المكان غدت تلوح كمصباح شبح بعيد. أخيراً تحلقوا حول دليلهم الذي لا يخطئ كما يفترض، وربما رأوا هناك قبساً بعيداً من شعور الخزي أو الانتعاش في كل من عينيه الزرقاوين ـ الحليبيتين عادة، فهمس فاروق، تطبق عليه خضرة الغابة كالقبر: «أنت لا تعلم، بل كل ما في الأمر أنك تقول أي شيء». لكن البوذا بقي صامتاً وفي صمته كان يقرأ مصيرهم، آنذاك توصل أيوب الدبابة إلى قناعة تامة بأن الغابة ابتلعتهم كما تبتلع ضفدع كبيرة بعوضة صغيرة، بات على يقين كامل بأنه لن يرى الشمس ثانية، فانهار تماماً، بدأت الدموع تنهمر من عينيه كأمطار الخماسين.

هذا المشهد الغريب لم يغير شيئاً سوى أنه جعل فاروق وشهيد يفقدان صوابهما، إلى درجة كاد معها فاروق أن يقلب الزورق حين هاجم البوذا الذي تحمل بكل تسامح جميع الضربات التي راحت تنهال على كتفيه صدره ذراعيه كالمطر، إلى أن تدخل شهيد مبعداً فاروق مسافة تحول بينه وبين البوذا. بكى أيوب بلش بكاء بلا انقطاع مدة ثلاث ساعات أيام أسابيع، إلى أن بدأ المطر ينهمر جاعلاً من دموعه شيئاً لا لزوم له. حينها سمع شهيد دار نفسه يقول: «الآن، انظر ما الذي جره علينا بكاؤك يا رجل!». مبرهناً بذلك على أنهم بدأوا فعلاً يخضعون لمنطق الغابة، وأن بكاءه لم يكن إلا الفاتحة، ذلك أنه مع تكاثف ظلمة السماء واختلاط غموضه بوهم الأشجار، كانت السندربانز قد بدأت تسكب مطراً غزيراً غزيراً.

في البداية، شغلهم تجفيف زورقهم إلى درجة لم يلحظوا معها أن

مستوى الماء كان يرتفع أيضاً، حاملاً بالتالي، كل الإرباك لهم، لكن مع آخر ضوء للنهار لم يكن قد بقي أي شك في أن الغابة تتزايد حجماً وسيطرة وشراسة، إذ كان بالإمكان مشاهدة الجذور المائلة الضخمة لأشجار المانجروف القديمة الهائلة في قلب الغسق وهي تتلوى هنا وهناك عطشى، تمتص قطرات المطر وتغدو أغلظ من خراطيم الفيلة، في حين تطول أشجار المانجروف نفسها، تمتد فروعها عالياً إلى حد يسمح للطيور الواقفة في أعلاها أن تشدو، كما قال شهيد دار في ما بعد، أحلى أغاريدها بصورة مباشرة للإله.

كما أن الأوراق الموجودة في أعالي النيبا[١] العظيمة بدأت تمتد كأيد كأسية خضر هائلة، تمتص المطر الليلي المنسكب وتنتفخ به إلى أن بدأت الغابة كلها وكأنها سقف من الأغصان والأوراق. بعد ذلك بدأت ثمار النيبا التي لا يضاهيها جوز هند على وجه الأرض تتساقط من أعاليها بسرعة متزايدة إلى حد لم تكن تصل فيه الماء إلا لتنفجر كالقنابل.

كانت مياه الأمطار تملأ زورقهم، ولم يكن لديهم سوى قبعاتهم الناعمة الخضر وصفيحة سمن عتيقة يمكنهم أن يجففوه بها.

وهكذا مع حلول الظلام وتساقط ثمار النيبا الشبيهة بالقنابل، قال شهيد دار: «لا بد مما ليس منه بد ـ علينا أن نتوقف». رغم أن أفكاره كانت مشبعة بحلمه ـ الرماني، وبأن الغابة قد تكون المكان الذي سيتحقق فيه الحلم، حتى وإن تكن الثمار ليست رماناً.

وبينما كان أيوب يجلس وقد لفه ذعر أحمر العينين وفاروق يبدو وقد قضى عليه انهيار بطله ذاك، والبوذا يلوذ بصمته مطأطأ الرأس، كان شهيد وحده هو القادر على التفكير إذ رغم أنه كان مبللاً حتى العظم بالماء، ورغم أنه كان مرهقاً يزيد من إرهاقه زعيق غابة الليل من حوله، إلا أن رأسه يغدو صافياً جزئياً كلما فكر برمانته المهلكة، لذا كان شهيد هو الذي استلم دفة القيادة أخيراً وهو الذي أمرنا (أمرهم) بالتجذيف إلى الضفة.

---

(١) شجر النخيل الهندي ثماره كبيرة ومغذية.

ثمرة نيبا أخطأت القارب بما لا يزيد عن بوصة ونصف حين هوت من الأعلى محدثة اضطراباً في الماء قلبت زورقهم معها، وهكذا راحوا يصارعون التيار في قلب الظلمة رافعين بنادقهم ومشمعاتهم وصفيحة سمنهم فوق رؤوسهم، وبعد أن بلغوا الشاطئ عملوا كل ما في وسعهم لجر الزورق ولم يفلحوا إلا بشق الأنفس، وهكذا ما إن أنزلوا عن كاهلهم هم ثمار النيبا المتساقطة كالقنابل وجذور المانجروف المتلوية كالأفاعي حتى استلقوا في زورقهم المشبع بالماء واستغرقوا في سبات عميق.

حين أفاقوا، مبللين مرتعشين رغم الحر، كان المطر قد أصبح رذاذاً كثيفاً، فرأوا أجسامهم مغطاة بعلق طول الواحدة منه ثلاث بوصات، علق لا لون له لغياب أشعة الشمس الدائم، لكنه كان قد غدا أحمر لامعاً لشدة امتلائه بالدم، علق راح ينفجر على أجسام الكائنات البشرية الأربعة علقة علقة، إذ كان أشد شرهاً من أن يتوقف عن امتصاص الدم حين يشبع. وهكذا سال الدم على أرجلهم ومنها إلى أرض الغابة التي راحت تتشربه لكي تعلم أي صنف من الكائنات هم.

كذلك كانت ثمار النيبا المتساقطة تنشر، وهي تنسحق على الأرض سائلاً بلون الدم، حليباً أحمر تنقض عليه في الحال حشرات لا عد لها ولا حصر، من ضمنها ذباب ضخم شفاف كالعلق نفسه، ذباب يحمر هو الآخر ويمتلئ بحليب الثمار...

وطوال الوقت كانت السندربانز تبدو كأنها تنمو وتنمو، غير أن أطول أشجارها كان شجر السندره الذي سميت الغابة باسمه، فقد كانت تلك الأشجار عالية إلى حد يكفي لحجب كل أمل بالشمس.

تأمل الأربعة أنفسهم قليلاً ثم قفزوا خارجين من القارب، وحين وطئوا بأقدامهم التربة العارية الصلبة التي تعج بعقارب ذات لون وردي باهت وتضج بديدان قاتمة اللون، حينها فقط تذكروا جوعهم وظمأهم. كان ماء المطر ينسكب من أوراق الأشجار حولهم، ففتحوا أفواههم متوجهين بها إلى الأعلى كي يشربوا من ميازيب الغابة، ونظراً لأن الماء كان يأتيهم عن طريق أوراق السندرة وفروع المانجروف وسعف النيبا، فربما كان يحمل معه شيئاً من

جنون الغابة، إذ شعروا وهم يشربون ذلك الماء أنهم يهوون أكثر وأكثر في إسار ذلك العالم الأخضر الزاهي حيث أصوات الطيور أشبه بصرير الخشب وحيث جميع الأفاعي لا تبصر النور، خلقتها الغابة.

أما وجبتهم الأولى فكانت خليطاً من ثمار النيبا وديدان الأرض المسحوقة وقد أصابتهم على الفور بزحار شديد إلى درجة أجبرتهم على أن يتفحصوا برازهم للتأكد من أن أمعاءهم لم تكن تخرج معه.

«سوف نموت» قال فاروق. لكن، كانت تسيطر على شهيد رغبة البقاء على قيد الحياة. ذلك أنه، وقد شفي من وساوس الليل، بات مقتنعاً أن من المفترض ألا يموت بهذه الطريقة.

لقد قرر شهيد، القائد في غابة الأمطار والمدرك أن تناقص أمطار الخماسين ليس إلا استراحة مؤقتة، أن هناك أملاً ضئيلاً في محاولة شق الطريق خارج الغابة نظراً لأن المطر الذي قد يعود في أية لحظة سيغرق زورقهم غير الصالح. وطبقاً لتعليماته، فقد أقيم واق من المشمعات وسعف النخل، ثم قال الرجل: «ما دمنا نستطيع الحصول على الثمار، سنبقى أحياء». وكانوا جميعاً قد نسوا منذ زمن طويل الغرض من رحلتهم: فالمطاردة التي بدأت في مكان بعيد من العالم الحقيقي، اكتسبت في ضوء السندربانز المتبدل صفة العبث والخيالية التي جعلتهم يصرفون النظر عنها مرة واحدة وإلى الأبد.

وهكذا أسلم أيوب وشهيد وفاروق والبوذا أنفسهم لأشباح غابة ـ الأحلام المرعبة، كما باتت تمر أيام، ينحل واحدها في الآخر بقوة المطر العائد باستمرار، لكنهم رغم قشعريرة البرد والحمى والزحار، ظلوا على قيد الحياة، بل طوروا ملجأهم الواقي بخفض الفروع الدنيا من شجر السندرة والمانجروف وشرب الحليب الأحمر من ثمار النيبا، واكتساب مهارات البقاء على قيد الحياة، كالقدرة على خنق الأفاعي وقذف عصي حادة الرؤوس بدقة شديدة تجعلها تنغرز كالرماح في صدور الطيور ذات الألوان الزاهية.

لكن ذات ليلة أفاق أيوب في عتمة الليل ليجد شبحاً شبه شفاف فوق رأسه، شبح الفلاح صاحب المنجل الذي ثقب رصاص أيوب صدره، كان

يحملق به وفي عينيه حزن شديد، وحينما جاهد أيوب للخروج من الزورق (الذي كانوا قد جروه إلى الساتر الذي صنعوا منه ملجأهم البدائي) رأى الفلاح وهو يتسرب: سائلاً بلا لون راح يتدفق من ثقب صدره ومن هناك إلى ذراع أيوب التي كانت تحمل البندقية.

في الصباح التالي وجد أيوب يده اليمنى تأبى الحركة، فقد التصقت جامدة بجانبه وكأنها مثبتة بلاصقة. ورغم أن فاروق رشيد قدم المساعدة والتعاطف، إلا أن ذلك لم يجد نفعاً، فالذراع بقيت دون حراك يثبتها سائل الشبح غير المرئي.

بعد هذا الظهور الأول، طغت عليهم جميعاً حالة ذهنية باتوا يعتقدون معها أن الغابة قادرة على فعل أي شيء، والحقيقة أنها أمست في كل ليلة ترسل لهم عقابات جديدة، إذ باتوا يرون النظرات الملأى بالاتهام التي تسددها إليهم زوجات من طاردوهم من الرجال واعتقلوهم، كما باتوا يسمعون زعيق وصراخ الأطفال الذين يتّموهم....

وفي فترة العقاب الأولى تلك، كان حتى البوذا الخامل السلبي، بصوته ذي الطابع المديني، مضطراً لأن يعترف بأنه هو أيضاً، بدأ يفيق في الليل ليجد الغابة وقد أطبقت عليه كالملزمة.

وحين أنزلت بهم الغابة ما يكفي من عقاب ـ حين غدوا جميعاً أطيافاً مرتعشة للأشكال التي كانوا عليها ذات مرة ـ سمحت لهم الغابة بترف الحنين ذي الحد المزدوج. فذات ليلة رأى أيوب، الذي كان قد ارتد إلى الطفولة أكثر من أي واحد منهم، والذي كان قد بدأ يمص إبهامه القادر على الحركة، رأى أمه تطل عليه من علٍ مقدمة له حلوياتها اللذيذة الطيبة، لكن في اللحظة التي مد يده فيها لتناولها، فرت بعيداً، ثم رآها وهي تتسلق شجرة سندرة ضخمة وتجلس هناك ثم تبدأ التأرجح من غصن عال وقد تعلقت عليه بذيلها. لقد باتت تزور أيوباً ليلة بعد ليلة سعدانة بيضاء كالشبح لها وجه أمه، حتى أنه اضطر بعد فترة من الزمن لأن يتذكر عنها، ما يتعدى حلوياتها، اضطر لأن يتذكر كيف كانت تهوى الجلوس بين علب دوطتها وكأنها كانت، هي أيضاً، شيئاً من الأشياء لا أكثر، كأنما كانت، وبكل بساطة إحدى الهبات

التي قدمها والدها إلى زوجها. في قلب السندربانز، فهم أيوب بلش أمه لأول مرة وتوقف عن مص إبهامه.

كذلك حظي فاروق رشيد برؤياه هو الآخر. ففي غسق يوم من الأيام، اعتقد فاروق أنه رأى أخاه وهو يجري جرياً سريعاً في الغابة، وغدا مقتنعاً بأن أباه قد توفي. تذكر يوماً منسياً أخبره فيه والده الفلاح، وكان معه أخوه الذي رآه يجري في الغابة، بأن الإقطاعي المحلي الذي كان يقرضهم المال بفائدة مقدارها ٣٠ بالمائة، قد وافق على شراء روحه مقابل دينه الأخير. «حين أموت» قال رشيد العجوز لأخي فاروق «عليك أن تفتح فمك فتهرب روحي إلى داخله، بعدئذ عليك أن تجري، تجري، تجري، لأن الإقطاعي سيكون في إثرك؟» وهكذا فإن فاروق الذي كان قد بدأ حالة نكوص مخيف، وجد من خلال معرفته بوفاة أبيه وهروب أخيه، القوة على الإقلاع عن العادات الطفولية التي بعثتها الغابة لديه في البداية، فكف عن البكاء والإلحاح بالسؤال حين ينهشه الجوع. أما شهيد دار فقد كان هو الآخر، يزوره قرد له وجه أحد الأسلاف، لكن كل ما كان يراه هو الأب الذي علمه أن يكون جديراً باسمه. غير أن هذا ساعد أيضاً في أن يعيد إحساسه بالمسؤولية ذاك الذي كانت قد سلبته إياه مقتضيات الحرب في تنفيذ الأوامر وطاعتها لا غير.

وبذلك بدا وكأن الغابة السحرية، بعد أن أنزلت بهم عذابها لما ارتكبوه من سوء أفعال، طفقت تقودهم بيدها نحو حالة جديدة من النضج. وهكذا بدأت ترفرف آمالهم كالأطياف المخيمة في غابة الليل، لكنهم لم يكونوا قادرين على رؤية الآمال بوضوح كما لم يكونوا قادرين على الإمساك بها.

غير أن البوذا لم يشعر بالحنين إلى الوطن في البداية. بل كل ما كان يفعله هو الجلوس متصالب الساقين تحت شجرة سندرة، وكأنما خوي ذهنه وعيناه من كل شيء. وفي الليل لم يعد يفيق قط. لكن، في النهاية، وجدت الغابة طريقها إليه، ففي عصر ذات يوم، حين كان المطر يدق الأشجار دقاً، ويفور منها كالبخار، رأى أيوب وشهيد وفاروق البوذا وهو جالس تحت شجرته، بينما أنشبت أفعى عمياء شبه شفافة أنيابها في عقبه وراحت تسكب سمّها فيه. اندفع شهيد دار فسحق رأس الأفعى بعصاه، لكن البوذا الذي كان

فاقد الحس من رأسه إلى قدمه بدا وكأنه لم يلحظ شيئاً. كانت عيناه مغمضتين. فانتظر الجنود الصغار، بعد ذلك، أن يقضي الرجل ـ الكلب نحبه، لكنه كان أقوى من سم الأفعى، لقد ظل طوال يومين متصلباً كجذع شجرة، وقد تصالبت عيناه حتى أنه رأى العالم في صورة ـ مرآة، أي يمينه شماله وشماله يمينه، وحين استرخت أعصابه أخيراً، كانت تلك النظرة الحليبية الخاوية قد اختفت من عينيه. لقد أعاد له الاتصال بالماضي، أعاد له وحدته الذاتية سم الأفعى الذي بدأ يتدفق من شفتيه.. وحين عادت عيناه إلى وضعهما الطبيعي، بدأت كلماته تتدفق بطلاقة إلى درجة بدت معها وكأنها شكل من أشكال مطر الخماسين وهكذا أصغى الجنود الصغار، ذاهلين، إلى القصص المنبعثة من شفتيه، بدءاً من ولادته في منتصف الليل ومروراً بجميع القصص المفقودة، بكل العمليات الكثيرة المعقدة التي تجعل الإنسان رجلاً. وهكذا تشرّب الجنود الصغار، وهم فاغرو الأفواه عاجزون عن تخليص أنفسهم من سحره، تاريخ حياته تشربهم للماء المنسكب من ورق الأشجار، فيما شرع وهو يروي لهم عن أقرباء يبولون في أسرتهم، مباهر تقوم بالثورات، صوت رائع لأخت.... ورغم أن أيوب وشهيد وفاروق كانوا على استعداد (في وقت من الأوقات) لأن يبذلوا الكثير مقابل تحققهم من صحة تلك الإشاعات إلا أنهم في غابة السندربانز لم يستطيعوا حتى أن يطلقوا صرخة تعجب واحدة.

واندفع البوذا في سرد قصته: إلى الحب الذي أزهر ـ أخيراً وإلى جميلة وهي في مخدعها المضاء بحزمة من أشعة القمر. حينها همس شهيد: «إذاً هو ذا السبب في أنها لم تكن تحتمل قربه منها..». لكن البوذا استأنف، وقد اتضح تماماً أنه يجاهد لاستعادة ذكرى شيء بعينه، شيء يروغ من يده بعناء شديد، إلى حد يصل معه إلى النهاية دون أن يجده، ويبقى عابساً مقطباً حتى بعد أن يسرد من جديد قصة الحرب المقدسة وذلك الشيء الذي سقط من السماء. ثم خيم الصمت بعدئذ. قال فاروق رشيد: «أوه! أشياء كثيرة داخل شخص واحد أشياء كثيرة سيئة، فلا عجب إذاً أنه كان يبقي فمه مطبقاً دائماً».

وأنت ترين يا بادما: فقد رويت هذه القصة من قبل. لكن ما الذي أبى

العودة؟ ما الذي عجز عن الخروج من شفتي، رغم سم الأفعى عديمة اللون الذي أطلق لساني من عقاله؟ آه يا بادما: كان البوذا قد نسي اسمه (وللدقة أكثر: اسمه الأول).

لكن السماء ظلت تمطر. مستوى الماء كان يرتفع باستمرار إلى أن أضحى واضحاً أن عليهم أن ينتقلوا إلى عمق الغابة، بحثاً عن أرض أعلى مستوى، كان المطر غزيراً، بل أغزر من أن يستطيعوا معه الاستفادة من القارب، وهكذا، تبعاً لتعليمات شهيد أيضاً، سحب أيوب وفاروق والبوذا قاربهم بعيداً عن الضفة التي طغت عليها المياه ثم ربطوه بحبل إلى شجرة سندرة وغطوه بالأوراق، بعدئذ تحركوا، وليس لديهم خيار آخر، نحو أعماق الغابة الكثيفة المجهولة.

ومرة أخرى، غيرت السندربانز طبيعتها. مرة أخرى، وجد أيوب وشهيد وفاروق آذانهم تدوي بولولات العائلات التي كانوا قد سلبوها ذات يوم أولئك الذين كانوا، قبل قرون من السنين يطلقون عليهم اسم «العناصر غير المرغوبة». وهكذا اندفعوا كالمجانين في الغابة هاربين من أصوات ضحاياهم المتهمة المفعمة ألماً، وفي الليل كانت أشباح القرود تتجمع على الأشجار مرددة كلمات «بنغالنا الذهبية»... «أيتها الأم، إنني فقير، لكن بهذا القدر الضئيل الذي أملكه، أرتمي عند قدميك، يكاد قلبي يطير بهجة». أخيراً، وقد باتوا عاجزين عن الفرار من عذاب الأصوات الدائمة الزعيق، ذلك العذاب الذي لا يحتمل، عاجزين عن عبء الخزي والعار الذي زاد منه كثيراً إحساسهم بالمسؤولية ذلك الذي علمتهم إياه الغابة. انتقل الجنود الصغار الثلاثة إلى مرحلة جديدة: مرحلة اتخاذ الإجراءات اليائسة. فقد انحنى شهيد دار على الأرض ثم ملأ يديه بوحل الغابة ذات المطر الغزير، وفي أوج تلك الهلوسة المخيفة سد أذنيه. وحده البوذا ترك أذنيه (الصالحة والمعطوبة) دون سد، وكأنه وحده كان راغباً في تحمل عقاب الغابة، وكأنه وحده كان يطأطئ رأسه أمام حتمية خطيئتهم... لكن وحل غابة الأحلام الذي كان، بلا شك، يحوي أيضاً حشرات الغابة الخفية شبه الشفافة وبراز الطير البرتقالي اللامع الشيطاني، دخل كالآفة آذان الجنود الثلاثة الصغار جاعلاً منها كلها حجارة

صماء، إلى درجة باتوا معها، رغم خلاصهم من اتهامات الغابة التي كانت تمثلها تلك الأغاني! باتوا مضطرين لتبادل الأحاديث بلغة الإشارات البدائية، لكنهم بدوا وكأنهم يفضلون صممهم الناجم عن المرض على الأسرار الكريهة المذاق التي كانت تسرها في آذانهم أوراق السندرة.

أخيراً توقفت الأصوات، لم يعد يسمعها سوى البوذا وحده (بأذنه الصالحة فقط). أخيراً، وحين قارب التائهون الأربعة ذروة الهلع، مررتهم الغابة عبر ستارة من لحى ـ الأشجار حيث أرتهم مشهداً بالغ الروعة إلى درجة تركت غصة في حلوقهم، حتى البوذا بدا وكأنه يشدد من قبضة يده على المبصقة. فقد وصلوا وليس فيهم أذن تسمع سوى أذن البوذا الصالحة، إلى فرجة في الغابة مليئة بأنغام لطيفة من أغاريد الطيور، فرجة يقوم في منتصفها معبد هندوسي أثري، حفر منذ قديم الزمان في قلب صخرة هائلة الحجم، جدرانه تتراقص بأفاريز من الرجال والنساء تم نحتهم أزواجاً أزواجاً، وفي أوضاع «رياضية» لا نظير لها، بل «أحياناً» في أوضاع ساخرة غير معقولة. وهكذا تحرك الأربعة صوب تلك المعجزة، بعيون لا تصدق ما تراه. فوجدوا في الداخل بعد عنائهم الطويل ذلك، مستراحاً من المطر الغزير الدائم، كما وجدوا أيضاً التمثال العالي كالبرج لإلهة راقصة سوداء لم يستطع الجنود الصغار القادمون من الباكستان معرفة اسمها، لكن البوذا كان يعلم أن اسمها كالي: إلهة الخصب المخيفة ببقايا الطلاء الذهبي على أسنانها. ارتمى المتجولون الأربعة على قدميها ثم استغرقوا في سبات عميق بلا مطر، سبات انتهى في وقت يمكن أن ندعوه منتصف الليل.

حين أفاقوا في وقت واحد ليجدوا أنفسهم محط ابتسام من أربع فتيات يفوق جمالهن الوصف، بادئ ذي بدء، فكر شهيد، الذي تذكر الحوريات الأربع اللواتي ينتظرنه في جنة الخلد، بأنه لقي وجه ربه في الليل، لكن الحوريات بدون حقيقيات تماماً، وكذلك سواريهن التي لم يكنّ يرتدين شيئاً تحتها والتي مزقتها ولطختها الغابة.

آنذاك وبينما كانت ثماني عيون تحملق بثماني عيون، حلت الحوريات السواري ثم طوينها بكل أناة ووضعنها على الأرض، بعد ذلك اقتربت

حوريات الغابة العاريات المتماثلات من الجنود، واشتبكت ثماني أذرع بثمان أخرى كما التحمت ثماني سيقان بثمان أخرى، وتحت تمثال كالي المتعدد الأطراف، أسلم التائهون أنفسهم للمداعبات التي شعروا أنها حقيقية تماماً كما أسلموا أنفسهم للقبل وعضات الحب التي كانت لذيذة ومؤلمة في الوقت نفسه وإلى الخرمشات التي تركت آثارها على أجسامهم. لقد أدركوا أن هذا بالذات ما كانوا يحتاجونه، ما كانوا يتوقون إليه دون أن يعلموا به، وأنهم قد اجتازوا مرحلة النكوص نحو الطفولة وأحزانها تلك التي عانوا منها في أيام الغابة الأولى وأنهم وقد ظلوا على قيد الحياة بعد عودة ذاكرتهم وإحساسهم بالمسؤولية وآلام الاتهامات المتجددة الكبرى، فإنهم خلفوا الطفولة وراءهم إلى الأبد وبالتالي عليهم أن ينسوا الأسباب والدلالات والصمم، أن ينسوا كل شيء. وهكذا سلموا أنفسهم للجميلات الأربع المتماثلات، وليس في رؤوسهم فكرة واحدة.

بعد تلك الليلة باتوا عاجزين عن مفارقة المعبد، إلا لغرض واحد: تدبير طعامهم. وفي كل ليلة كانت الفتيات الناعمات اللواتي يمثلن أروع أحلامهم يعدن بهدوء ودونما كلام، أنيقات الملابس دائماً ليرفعن باستمرار الرباعي التائه إلى ذروة للمتعة لا يصدقها عقل.

لم يعرف أحد منهم كم دامت تلك المرحلة، ذلك أن في غابة السندربانز يتبع الزمن قوانين لا يعرفها الناس. لكن جاء أخيراً اليوم الذي نظر فيه بعضهم إلى البعض الآخر، فأدركوا أنهم صاروا من الشفافية على درجة يمكن لواحدهم أن يرى عبر جسد الآخر، ليس على نحو واضح تماماً بل على نحو غائم قليلاً كما هو الأمر حين تحدق عبر عصير مانغا. ولشدة ذعرهم فهموا أن هذه هي آخر وأسوأ خدع الغابة. وأنها، بتلبيتها لأمانيهم القلبية، إنما كانت تسخر منهم وتستنزف أحلامهم إلى درجة غدوا فيها، بعد تسرب الحلم من حياتهم، أناساً جوفاً شفافين كالزجاج. آنذاك رأى البوذا أن انعدام لونهم الشبيه بانعدام لون الحشرات والعلق والأفاعي ربما كان ذا علاقة بما تم من استلاب لخيالاتهم الحشرية العلقية الأفعوانية أكثر من علاقته بغياب أشعة الشمس.

وهكذا شرعوا، وقد أيقظتهم صدمة الشفافية كأنما يرونها للمرة الأولى، ينظرون إلى المعبد بأعين جديدة، فرأوا الشقوق الفاغرة أفواهها في الصخرة الكبيرة المتصلة، وأيقنوا أن قطعاً ضخمة منها قد تنفصل عنها في أية لحظة وتهرسهم. عند ذلك شاهدوا في ركن مستتر من الضريح المهجور بقايا لما قد يكون أربعة مواقد نيران صغيرة رماد قديم وآثار لفح نار على حجر ـ أو ربما أربعة محارق لجثث بشرية، وفي منتصف كل موقد من المواقد الأربعة كومة سوداء من عظام لم تمسها النيران.

كيف غادر البوذا السندربانز: انقضت عليهم غابة الأوهام حين فروا من المعبد باتجاه القارب، مستخدمة آخر وأشد خدعها هولاً، إذ ما كادوا يصلون القارب حتى جاءت باتجاههم متخذة في البداية شكل حفيف بعيد، بعدئذ شكل هدير يخترق حتى الآذان المسدودة بالطين. لكنهم كانوا، حين وصلت الموجة، قد فكوا وثاق القارب ووثبوا إليه بأقصى سرعة، وحينذاك غدوا تحت رحمة المياه التي كانت قادرة على سحقهم بلا عناء وذلك من خلال صدمهم بشجرة سندرة أو مانجروف أو نيبا، لكن بدلاً من ذلك حملتهم موجة الفيضان تلك نحو أقنية داكنة مضطربة بينما بدأت غابة العذاب تتلاشى، بدأت حدودها تغيم، تتحول إلى جدار أخضر عظيم. لقد بدا وكأن الغابة تلفظهم، بعد أن تعبت من تلاعبها بهم، من عالمها بلا احتفاء.

وهكذا وجدوا أنفسهم يحملهم التيار ويدفعهم إلى الأمام والأمام بقوة لا يتصورها الخيال، ثم يصطدمون برفق بأغصان ساقطة وجلود ثعابين مسلوخة وأخيراً قُذفوا خارج القارب حين صدمته موجة منحسرة بجذل شجرة، فارتموا في حوض أرز غارق في الماء. وحين انحسرت الموجة كان الماء يصل حتى خصورهم، رأوا أنهم لا يزالون أحياء، فخرجوا من قلب غابة الأحلام التي كنت قد هربت إليها أملاً بالسلام ثم وجدت نفسي وقد عدت مرة أخرى إلى عالم الجيوش والتواريخ.

كان ذلك في تشرين الأول من عام ١٩٧١، لكن لا بد لي من أن أعترف (رغم أن الحقيقة، بحسب رأيي، لا تفيد سوى في تعزيز عجبي من قدرة الغابة السحرية على تغيير الزمن) بأنه لم يسجل أي فيضان في هذا الشهر،

رغم أن الفيضانات، قبل ما يزيد على العام، كانت قد دمرت المنطقة.

* * *

عقب السندربانز، كانت حياتي القديمة تنتظر اصطلاح حالي. وكان علي أن أعلم أن لا مفر من معارف الماضي. فمثلما كنت في الماضي ستبقى إلى الأبد.

طيلة سبعة أشهر من عام ١٩٧١، اختفى ثلاثة جنود ودليلهم من وجه الحرب، لكن في تشرين الأول، حين انتهت الأمطار وبدأت عصابات الموكتي باهيني تنشر الرعب في المواقع العسكرية الباكستانية، ويقتنص قناصتها الجنود والضباط على السواء، ظهر رباعي من المجهول وحاول، هو الذي لا يملك الكثير من الخيارات، أن ينضم ثانية إلى الهيكل الأساسي لقوات الجناح الغربي المحتلة. في ما بعد، وحين خضع البوذا للأسئلة والتحقيق، كان دائماً يفسر اختفاءه باللجوء إلى قصة محرفة مفادها أنهم ضاعوا في غابة وسط أشجار تلتف جذورها حولك كأنها الأفاعي. ولعل حسن حظه أعفاه من الخضوع لتحقيق رسمي من قبل ضباط جيشه ذاته.

كذلك فإن أيوب وفاروق وشهيد لم يخضعوا لمثل هذا التحقيق وذلك لا لشيء إلا لأنهم أخفقوا في البقاء أحياء مدة تكفي لتوجيه مثل هذه الأسئلة إليهم.

ففي قرية مهجورة تماماً، قرية من الأكواخ المسقوفة والجدران المكسوة بالطين والروث ـ قرية خلت من السكان بل وحتى من الدجاج واجه أيوب وشهيد وفاروق مصيرهم. فعاهة الصمم، التي حملها لهم طين غابة الأمطار السام، بدأت تسبب لهم الكثير من الضيق بعد أن اختفت أصوات الغابة الطنانة، إذ كانوا يكلمون بعضهم بعضاً في وقت واحد وبأعلى أصواتهم دون أن يستطيع واحدهم سماع الآخر، غير أن البوذا كان مضطراً للإصغاء إليهم جميعاً: للإصغاء إلى أيوب الذي وقف مواجهاً زاوية من زوايا غرفة عارية، وشعره منفوش كعش عنكبوت، ثم بدأ يصرخ: «أذناي! أذناي! كأن نحلاً يطن داخلهما».

فرد عليه فاروق على نحو فظ مشاكس «غلطة من يا ترى؟ من قال هذا

الطريق وذلك الطريق؟ من، من سيصدق؟ غابات ومعابد وأفاع شفافة؟ أية قصة؟ يالله! بوذا علينا أن نطلق النار عليك الآن هنا». أما شهيد فقد قال بكل لطف ولين: «أنا جائع». ذلك أنهم، ما إن وجدوا أنفسهم مرة أخرى في العالم الحقيقي، حتى نسوا دروس الغابة، فقال أيوب «الله! ذراعي يا رجل! ذراعي المتيبسة! الشبح، السائل المتسرب! . . .». بعدئذ قال شهيد: «آبقون! سيقولون إننا آبقون، خاوو الوفاض، لم نعتقل أحداً بعد أشهر عدة! الله! ربما سنحال إلى محكمة عسكرية، فما رأيك يا بوذا؟». وقال فاروق: «أنت يا ابن الزنى! انظر ماذا فعلت بنا! يا الله! ذلك كثير جداً. بزاتنا الرسمية! انظر بزاتنا يا بوذا ـ أسمال ومزق كملابس صبية شحاذين! فكر بما سيقوله اللواء! ونجم الدين ذاك! أقسم برأس أمي إنني لم ـ لا لست جباناً، لا، لا»، ثم جاء دور شهيد وهو يقتل النمل ويلعق راحة كفه: «لكن، كيف سنلتحق بوحدتنا؟ من يدري أين هم؟ إن كانوا موجودين أم لا؟ ثم ألم نر ونسمع كيف تهاجم عصابات الموكتي باهيني من مخابئها ـ طق! طق! ـ وترديه قتيلاً مثل نملة!». غير أن فاروق استأنف وكأنه لم يقاطع: «الأمر لا يقتصر على البزات وحسب، بل هناك الشعر! هل هذه قصة شعر عسكرية؟ هذا الشعر الطويل المنسدل فوق آذاننا كالديدان، أهو شعر عسكري؟ أم هو شعر امرأة؟ الله! سيقتلوننا حتى الموت سيوقفوننا على جدار ثم طق! طق! سترون إن لم يفعلوا ذلك!». لكن حينذاك كان أيوب ـ الدبابة قد هدأ قليلاً، فأمسك رأسه بين راحتيه، وقال برقة مبالغ بها مخاطباً نفسه: «يا رجل! يا رجل! لقد جئت لقتال أولئك الهندوس النباتيين الملونين، لتجد كل شيء مختلفاً تماماً، يا رجل. إنه لأمر في غاية السوء».

في شهر تشرين الثاني وصلوا إلى مكان راحوا يشقون طريقهم فيه شمالاً شمالاً شمالاً، مارين بصحف تصطفق في الهواء، صحف ذات كتابة ملتفة غريبة، مجتازين حقولاً خاوية ومواطن مهجورة، وأحياناً عجوزاً شمطاء تحمل على كتفها رزمة متاعها أو جماعة من أطفال لا يتجاوزون الثامنة، في أعينهم شبح الموت جوعاً وفي جيوبهم خطر السكاكين، لقد سمعوا هنا وهناك كيف تتحرك عصابات الموكتي باهيني خفية في الأرض المغطاة

بالدخان، كيف يأتيك الرصاص بأزيزه الشبيه بأزيز نحل قادم من المجهول. . . أخيراً بلغوا نقطة الانكسار، فقال فاروق: «كل ذلك بسببك يا بوذا. الله، أنت إنسان غريب، بعينيك الزرقاوين كعيون الأجانب! أوه! كم أنت نتن الرائحة!».

كلنا نتنو الرائحة: فشهيد الذي يسحق (بكعب حذائه الممزق) عقرباً على أرض الكوخ المهجور القذرة، وفاروق الذي يبحث عبثاً عن موسى يقص بها شعره، وأيوب المستند برأسه إلى ركن الكوخ بينما يمشي عنكبوت على شعره المستدير كالتاج، والبوذا أيضاً: البوذا الذي ترتفع رائحة نتنه إلى عنان السماء، وهو يقبض بيده اليمنى على المبصقة الفضية محاولاً أن يتذكر اسمه، متمكناً من تذكر ألقابه فقط: صاحب الأنف الخرطومي، الوجه المبقع، الأصلع، المتعجرف، فلقة القمر. . .

. . . وكان يجلس متصالب الساقين في غمرة الأصوات الصاخبة لرفاقه الخائفين، محاولاً إجبار نفسه على التذكر، لكن، لا، لن يأتي الاسم، أخيراً هتف البوذا في آذان رفاقه الصماء كالحجارة وهو يقذف المبصقة على الأرض الترابية «هذا ليس، ليس عدلاً!».

لقد اكتشفت في غمرة قعقعة الحرب، ما هو عادل وما هو غير عادل. فغير العادل يطلق رائحة أشبه برائحة البصل، حدة رائحته تثير في عيني الدموع، ولقد تذكرت، ورائحة الظلم اللاذعة تطغى علي، كيف كانت جميلة المغنية تنحني على سرير في مستشفى، سرير من؟ ما اسمه؟ كيف كان أصحاب النسور والنجوم من المعسكر موجودين أيضاً ـ وكيف أن أختي، لا، ليست أختي! كيف أنها قالت: يا أخ! علي أن أرحل بعيداً، خدمة البلاد، أما أنت فسيكلأك الجيش برعايته منذ الآن ـ من أجلي، سيعتنون بك جيداً، وكان على وجهها الحجاب، خلف البروكار الأبيض والمذهب كنت أشم رائحة ابتسامتها الخائنة، وعبر خطوط البرقع المذهبة زرعت على جبيني قبلة انتقامها، ثم غادرتني، هيا التي كانت تحوك أشد أشكال انتقامها حقداً ضد أشد الناس حباً لها، بعد أن أسلمتني لرحمة أصحاب النجوم والنسور. .

بعد عمل جميلة الخياني ذاك تذكرت ارتجاج الدماغ القديم ذلك

الارتجاج الذي عانيت منه بسبب إيف بيرنز، وحالات النفي التي مررت بها وخدع ـ النزهات، وذلك الجبل الهائل من الأحداث غير المعقولة التي ابتليت بها في حياتي، وحينذاك نعيت على نفسي الأنف ـ الخيارة والأذن المعطوبة، وفقدان الحس وضربة المبصقة للرأس، فانهمرت الدموع من عيني مدراراً، لكن ظل اسمي يروغ من قبضة يدي فكررت: «ليس عدلاً، ليس عدلاً، ليس عدلاً».

وعلى نحو مفاجئ، تحرك أيوب ـ الدبابة مبتعداً عن ركنه، ثم أقعى، ربما وهو يتذكر انهياره في السندربانز، أقعى أمامي لافاً ذراعه الصالحة حول عنقي، محاولاً تهدئتي. تقبلت محاولاته تلك، وبكيت على صدره لكن حينذاك كان ثمة نحلة، نحلة تطن باتجاهنا، وبينما كان مقعياً، وقد أدار ظهره إلى شباك الكوخ الذي لا زجاج له، جاء شيء يئز في الهواء ذي الحرارة الشديدة وبينما كان يقول: «هيه، بوذا ـ هيا بوذا ـ هيه، هيه». وبينما كانت نحلات أخرى، نحلات صممه، تطن في أذنه، لدغه شيء ما في عنقه. فأطلق صوت فرقعة عميقة من حنجرته ثم هوى فوقي. كان رصاصة القناص التي قتلت أيوب بلش، ستصيبني، لولا وجوده في تلك اللحظة فوق رأسي، لكنه مات وبموته أنقذ حياتي.

وهكذا وجدت نفسي، وقد نسيت كل ما في الماضي من مذلات ونحيت جانباً كل ما هو عادل وغير عادل نحيت حتى القول القائل: ما لا يمكن شفاؤه ينبغي تحمله، وجدت نفسي أزحف من تحت جثة أيوب ـ الدبابة وفاروق يصيح: «يا الله! يا الله!»؛ فيما يصيح شهيد ثانية: «يا الله! يا الله؟ من يدري أين هو ابن الحرام..». غير أن شهيداً ومثلما يفعل الجنود في الأفلام، كان قد التصق بالجدار المجاور للنافذة. وهكذا رحنا، ونحن على تلك الوضعية: أنا على الأرض وفاروق متكوّم في الزاوية وشهيد ملتصق بالجدار الملطخ بالروث، رحنا ننتظر بيأس تام، ما هو آت.

لكن لم يأت شيء. لم تئز طلقة ثانية، ربما كان القناص، الذي لا يعلم حجم القوة المختبئة في الكوخ ذي الجدران الطينية، قد أطلق النار وهرب. وهكذا بقينا نحن الثلاثة داخل الكوخ، دون حراك طوال الليل والنهار، إلى

أن بدأت جثة أيوب بلش تسترعي انتباهنا. حينها بحثنا عن معاول وقبل أن نغادر الكوخ حفرنا له حفرة ودفناه...

إذاً حين وصل الجيش الهندي، لم يكن ثمة أيوب بلش كي يؤدي له التحية بنظرياته عن تفوق اللحوم على النباتات، لم يكن ثمة أيوب كي ينطلق إلى العمل صائحاً: «كا ـ دانغ، كا ـ بلام كا ـ باو!»

وربما كان ذلك عدلاً تماماً.

* * *

في يوم من أيام كانون الأول وصلنا، وقد امتطينا نحن الثلاثة دراجات سرقناها في طريقنا، إلى حقل يمكنك منه رؤية مدينة دكا في الأفق البعيد، حقل نمت فيه محاصيل غريبة، رائحتها تثير الغثيان إلى درجة وجدنا معها أنفسنا عاجزين عن البقاء على دراجاتنا، وهكذا نزلنا قبل أن نقع عنها ودخلنا الحقل الرهيب.

هناك كان فلاح يكسح النبات في الحقل، وكان يصفر وهو يعمل، وعلى ظهره كيس بندقية بارز. كانت عقد اليد المبيضة التي تمسك بالكيس تشي بما صمم عليه ذهنه، أما الصفير الذي كان نفاذاً إنما منغم الإيقاع، فقد أوضح تماماً أن معنوياته عالية. كان صدى الصفير يتردد في الحقل مصطدماً بالخوذ الساقطة، مرتجفاً وعلى نحو أجوف من سبطانات البندقيات المسطومة بالطين، غائصة بلا أثر بين الجذور المتهاوية للمحصولات الغريبة الغريبة ذات الرائحة التي استطاعت إثارة الدموع في عيني البوذا، كانت المحصولات ميتة بعد أن أصابتها آفة مجهولة... كان معظمها، لكن ليس كلها، يرتدي البزة الرسمية للجيش الباكستاني الغربي. باستثناء الصفير، فإن الأصوات الوحيدة التي كان في الإمكان سماعها، إنما كانت أصوات الأشياء التي يسقطها الفلاح في كيسه ـ الكنزي: أحزمة جلدية، ساعات، تلبيسات أسنان ذهبية، أطر نظارات، أواني طعام، أواني شراب، أحذية، رآهم الفلاح فجرى نحوهم، مبتسماً بتملق، متكلماً بسرعة وبصوت مداهن إلى درجة اضطر معها البوذا لأن يصغي إليه. أما فاروق وشهيد فقد كانا يحملقان بالحقل مذهولين بينما كان الفلاح يقدم تفسيراته.

«إطلاق رصاص كثير! طق! طق! طق!» قال الفلاح صانعاً من يده اليمنى مسدساً. وكان يتكلم لغة هندية مشوهة سيئة. «ها يا سادة! لقد جاءت الهند يا سادتي، ها، أجل، ها، أجل». وفي كل مكان من الميدان كان مخ ـ العظم المغذي يتسرب من المحاصيل إلى التربة بينما كان الفلاح يتابع: «أنا لم أطلق النار يا سادتي. ها، لا. أنا لدي أخبار ـ ها، أخبار هامة! الهند تأتي! جسور سقطت يا سادتي، وخلال أربعة أيام، دكا أيضاً، نعم ـ لا؟».

وكان البوذا وعيناه تتجاوزان الفلاح إلى الحقل. «شيء كهذا يا سيدي! الهند! لديهم جندي قوي جبار، يمكنه أن يقتل ستة أشخاص بضربة واحدة، يحطم أعناقاً.. كريك.. كريك بين ركبتيه يا سيدي؟ ركب أهي الكلمة الصحيحة؟» ونقر على ركبتيه. «لقد رأيته يا سادتي، بهاتين العينين وتفرقع ستة أعناق كريك ـ كريك. ها، يالله!». وكان شهيد يتقيأ في الحقل. أما فاروق رشيد فقد تجول حتى الطرف البعيد ثم وقف محملقاً بأيكة من أشجار المانغا. «خلال أسبوع، أسبوعين تنتهي الحرب يا سادتي! يعود كل شيء كما كان. الآن فقط، ذهب الجميع، أما أنا فلم أذهب يا سادتي. لقد جاء الجنود يبحثون عن عصابات الباهيني وقتلوا الكثير الكثير، قتلوا حتى ابني. ها، نعم، يا سادتي، ها، بالحقيقة نعم».

وغدت عينا البوذا غائمتين مظلمتين. لقد كان باستطاعته أن يسمع قصف المدفعية البعيد. كما كانت أعمدة الدخان تتصاعد في سماء كانون الأول عديمة اللون. وكانت المحاصيل الغريبة تستلقي ساكنة لا يحركها حتى النسيم..

«لقد بقيت يا سادتي. أنا هنا أعرف أسماء الطيور والنباتات، ها، نعم، اسمي ديشموخ، تجارتي بيع الأشياء الصغيرة. إنني أملك أشياء رائعة كبيرة. هل تريدون عقاراً للإمساك؟ رائعاً تماماً، ها، نعم، لدي هذا العقار. أم تريدون ساعة تلمع في الظلام؟ لدي منها أيضاً، ولدي كتب، ها، نعم. كتاب طرائف هزلي. لقد كنت مشهوراً في دكا من قبل، ها، نعم، صحيح تماماً. لا إطلاق».

وهكذا استمر بائع الأشياء الصغيرة التافهة يثرثر ويثرثر عارضاً بيع شيء

بعد شيء، مثل حزام سحري يمكنه أن يجعل لابسه ينطق بالهندية «إنني ألبسه الآن سيدي، وأتكلم الهندية على نحو جيد، نعم أم لا؟ كثير من جنود الهند يشترونه، وهم يتكلمون لغات مختلفة كثيراً. الحزام مرسل من عند الله يا سيدي!» بعدئذ لاحظ ما كان البوذا يمسكه بيده «ها، سيدي، شيء رائع تماماً! أهو من الفضة؟ أهو من الحجر الكريم؟ أعطني إياها أعطك آلة تصوير، مذياعاً، أي شيء يا سيدي. صفقة رائعة يا صديقي، مقابل مبصقة فقط، إنها صفقة رائعة. ها، نعم، ها، نعم يا سيدي، الحياة ينبغي أن تستمر يا سيدي، والتجارة ينبغي أن تستمر أيضاً أليس ذلك صحيحاً؟».

فقال البوذا: «أخبرني المزيد عن الجندي صاحب الركب».

لكن في تلك اللحظة طنت نحلة مرة ثانية، وفي مكان بعيد، في الطرف الآخر من الحقل سقط شخص ما على ركبتيه ثم لامست جبهته الأرض وكأنه يسجد للصلاة، وفي الحقل، غدا أحد أفراد المحصول الذي كان لا يزال حياً إلى حد يكفي لإطلاق النار، غدا هو الآخر ساكناً تماماً. فصاح شهيد دار بأعلى صوته:

«فاروق! فاروق! يا رجل!».

لكن فاروق أبى أن يجيب.

في ما بعد، وحين كان البوذا يستعيد ذكرياته عن الحرب أمام خاله مصطفى روى له كيف اندفع في حقل مخ العظم المتسرب، نحو صديقه الذي سقط، وكيف أدركه سريعاً سر الحقل الأعظم، قبل أن يبلغ جثة فاروق الساجدة للصلاة.

لقد كان هناك هرم صغير وسط الحقل، تزحف جيوش محتشدة من النمل عليه، لكنه لم يكن تلة نمل، فقد كان الهرم ست أقدام وثلاثة رؤوس وفي ما بينهما منطقة مختلطة تتكون من جذوع أجسام، نتف بزات رسمية، قطع من الأمعاء، ونثرات من عظام مهشمة، وكان الهرم لا يزال حياً. أحد رؤوسه الثلاثة كان له عين يسرى عمياء، تركه نزاع طفولي. وكان ثمة رأس آخر ذو شعر متلبد كثيف ينسدل نحو الأسفل لامعاً بما عليه من زيت شعر. أما الرأس الثالث فكان أغرب الثلاثة: إذ كانت فيه تجاويف عميقة حيث

يجب أن يكون الصدغان، تجاويف لا يمكن أن تكون إلا من صنع ملقط طبيب نسائي أمسك الرأس بإحكام شديد عن الولادة. . . هذا الرأس الثالث هو الذي خاطب البوذا قائلاً:

«هيه، يا رجل، لماذا أنت هنا بحق الجحيم؟».

رأى شهيد دار هرم الجنود الأعداء، وهو يتحادث مع البوذا. فألقى بنفسه علي وقد سيطر عليه فجأة غضب مسعور، دافعاً بي إلى الأرض صارخاً: «من أنت؟ جاسوس؟ خائن؟ ماذا؟ ـ كيف يعرفونك؟» بينما كان ديشموخ بائع الأشياء الصغيرة، يرفرف بإشفاق حولنا «ها، سادة! كفى، كفى، القتال انتهى من قبل! كونوا طبيعيين الآن يا سادتي أرجوكم، ها، يالله!».

لكن حتى لو كان باستطاعة شهيد أن يسمعني حينذاك، فلم يكن باستطاعتي أن أخبره بما أصبحت مقتنعاً أنه الحقيقة وهو: أن الهدف من تلك الحرب برمتها إنما كان إعادة وصلي بحياتي القديمة، جمعي مرة ثانية مع أصدقائي القدامى. لقد كان سام مانيكشو يتقدم باتجاه دكا، كي يلتقي بصديقه القديم، النمر، وكانت صيغ الارتباط قد بقيت، ففي حقل مخ العظم المتسرب، سمعت عن مآثر الركب.

كما حياني هرم ميت من الرؤوس وفي دكا كنت سألتقي ببارفاتي ـ الساحرة.

لكن حين هدأ شهيد وحررني من قبضته، كان الهرم قد بات عاجزاً عن التكلم. وفي وقت لاحق من عصر ذلك اليوم، استأنفنا رحلتنا باتجاه العاصمة. بينما كان ديشموخ بائع الأشياء الصغيرة، يهتف في إثرنا فرحاً: «ها يا سادتي! ها يا سادتي المساكين! من يدري متى يموت الإنسان؟ من يدري لماذا يموت يا سادتي؟».

سام والنمر

في بعض الأحيان، تنتقل الجبال من مكانها ويلتقي بعضها بالبعض الآخر ولا يلتقي رفاق قدامى من جديد. في الخامس عشر من كانون الأول، عام ١٩٧٧ وفي عاصمة بنغلادش، الدولة المحررة حديثاً، ألقى النمر نيازي سلاحه لزميله القديم، سام مانيكشو بينما استسلمت، أنا لأحضان فتاة ذات عينين كصحون الفناجين، وجديلة تشبه حبلاً أسود لامعاً طويلاً أو ذيل حصان وشفتين لم تكونا قد اكتسبتا في ذلك الوقت ما سوف يغدو «تبويزتهما المميزة» على أن هذه اللقاءات لم تتحقق بسهولة.

لذا، وتعبيراً عن احترامي لكل من ساهم بتحقيقها، فإنني سأتوقف قليلاً عن سرد قصتي كي أحدد الأسباب والحيثيات.

إذاً، دعوني أكن صريحاً تماماً: فلو لم يتواطأ يحيى خان وذو الفقار علي بوتو في قضية الخامس والعشرين من آذار، لما ساقتني الرياح إلى دكا بملابس مدنية، ولما كان محتملاً قط أن يكون الجنرال نيازي في تلك المدينة في كانون الأول ذاك، واستمراراً لذلك: فإن التدخل الهندي في النزاع حول بنغلادش إنما كان نتيجة لتدخل القوات العظمى، إذ لو لم يعبر الحدود من بنغلادش إلى الهند عشرة ملايين نازح، وهو الأمر الذي أرغم حكومة دلهي على إنفاق / ٢٠٠/ مليون دولار شهرياً على مخيمات النازحين علماً بأن حرب ١٩٦٥ كلها، تلك الحرب التي كان غرضها الخفي هو إبادة عائلتي لم تكلفهم سوى / ٧٠/ مليون دولار، فربما لم يكن الجيش الهندي بقيادة الجنرال سام ليعبر الحدود أبداً بالاتجاه المعاكس. لكن الهند تدخلت

لأسباب أخرى أيضاً: فكما علمت من السحرة الشيوعيين الذين كانوا يعيشون في ظلال مسجد الجمعة في دلهي، فإن حكومة دلهي كانت مهتمة إلى حد كبير بالتأثير المتضائل لحزب عوامي الذي يتزعمه مجيب الرحمن وبالشعبية المتزايدة لعصابات الموكتي باهيني الثورية، وقد التقى سام والنمر في دكا لمنع باهيني من السيطرة واكتساب المزيد من النفوذ. إذاً لولا الموكتي باهيني لم تكن بارفاتي الساحرة قد رافقت جنود الهند في حملتهم «لتحرير بنغلادش..» لكن حتى هذا ليس تفسيراً كافياً. فهناك سبب ثالث للتدخل الهندي ألا وهو الخوف من أن الاضطرابات في بنغلادش قد تنتشر، إن لم تبتر بسرعة، وتمتد عابرة الحدود إلى البنغال الغربية. وهكذا فإن سام والنمر، وكذلك أنا وبارفاتي، مدينون بلقائنا، على نحو جزئي على الأقل، للعناصر الأكثر شغباً في سياسة البنغال الغربية: ولم تكن هزيمة النمر إلا بداية الحملة التي شنت على اليسار في كلكوتا وجوارها.

على أية حال، تدخلت الهند. أما في ما يتعلق بسرعة تدخلها، فخلال ثلاثة أسابيع لا غير، خسرت الباكستان نصف أسطولها وثلث جيشها وربع قواتها الجوية، وأخيراً، أي بعد استسلام النمر، خسرت أكثر من نصف سكانها. من هنا ينبغي توجيه الشكر للموكتي باهيني مرة أخرى، ذلك أنهم لفشلهم، وربما لشدة سذاجتهم، وعجزهم عن أن يفهموا أن التقدم الهندي كان مناورة تكتيكية ضدهم بقدر ما كان معركة ضد قوات الجناح الغربي المحتل، قد أرشدوا الجنرال مانيكشو إلى ما يتعلق بتحركات القوات الباكستانية، وجميع نقاط القوة والضعف التي يتصف بها النمر، كما ينبغي توجيه الشكر أيضاً إلى السيد شو إن لاي الذي رفض (رغم توسلات بوتو) أن يقدم للباكستان أية مساعدة مادية في حربها ضد الهند.. وهكذا قاتلت الباكستان، بعد أن تخلت عن الأسلحة الصينية، برشاشات وبنادق أمريكية، وبدبابات وطيارات أمريكية، كما أن رئيس الولايات المتحدة، ومن دون العالم كله، قرر أن «يميل» لصالح الباكستان، وبينما كان هنري كيسنجر يناقش قضية يحيى خان، كان يحيى نفسه يرتب زيارته الشهيرة للصين...

لذلك، كان هناك قوى عظمى تعمل ضد لقائي ببارفاتي الساحرة ولقاء

سام النمر، لكن رغم «ميلان» رئيس جمهورية الولايات المتحدة وانحيازه فقد انتهى كل شيء خلال ثلاثة أسابيع لا غير.

في ليلة الرابع عشر من كانون الأول، كان شهيد دار والبوذا يدوران في ضواحي مدينة دكا المطوقة، لكن أنف البوذا (وعليك ألا تنسى ذلك) كان قادراً على شم الروائح أكثر من أي أنف آخر.

وهكذا، تبعاً لتعليمات أنفه الذي كان قادراً على شم رائحة الخطر ورائحة الأمان، فقد شقا طريقهما عبر الخطوط الهندية ودخلا المدينة تحت ستر الليل. وبينما كانا يتحركان خلسةً عبر الشوارع الخالية إلا من بضعة شحاذين ميتين جوعاً، كان النمر يقسم على أن يقاتل حتى آخر رجل، لكنه بدلاً من ذلك استسلم في اليوم التالي، والأمر غير المعروف: إن كان هذا الرجل الأخير ممتناً لتوفيره أم ناقماً لتفويت الفرصة عليه في دخول جنة عدن.

إذاً، عدت إلى المدينة في الساعات الأخيرة التي سبقت اللقاءات الجديدة. وهناك رأيت أنا وشهيد أموراً كثيرة ليست حقيقية، ليست معقولة، نظراً لأن «أولادنا» لا يمكن، لا يعقل أن يتصرفوا على هذا النحو من السوء. فقد رأينا رجالاً ذوي نظاراتٍ ورؤوس كالبيض يطلق عليهم الرصاص في جنبات الشوارع، كما رأينا مثقفي المدينة وقد ذبحوا بالمئات، لكن هذا ليس صحيحاً إذ لا يعقل أن يكون صحيحاً. فرغم كل شيء، كان النمر رجلاً طيباً رقيق الحاشية وكان جنودنا أشاوس يساوي كل واحد منهم عشرة من الهندوس. كنا عبر هلوسة الليل اللامعقولة، نتنقل من مكان إلى مكان، مختبئين في مداخل الأبنية بينما كانت الحرائق تتفتح كالأزهار، لتذكرني بالأسلوب الذي كانت القردة النحاسية تستخدمه لإشعال النار في الأحذية بغية جذب قدر أكبر من الانتباه، وقد رأينا أيضاً أعناقاً ذبحت ثم دفنت في قبورٍ لا وجود لها، فبدأ شهيد هذيانه: «لا، بوذا ـ ما هذا؟ الله! لا يمكن أن تصدق عيني، لا، ليس صحيحاً، كيف يمكن أن يكون صحيحاً ـ بوذا قل ماذا أصاب عيني؟». وأخيراً تكلم البوذا، وهو يعلم أن شهيداً لا يسمع «أوه، شهيد» قال كاشفاً عن أعماق حساسيته الشديدة «على المرء أحياناً أن يختار ما يراه وما لا يراه. أبعد نظرك، أبعد نظرك عن هذا المكان الآن!». لكن شهيداً

كان يحدق النظر إلى ميدان كانت فيه طبيبات يتعرضن لبقر بطونهن قبل اغتصابهن، وللاغتصاب ثانية قبل إطلاق النار عليهن. ومن فوقهن، وورائهن، كانت مئذنة المسجد البيضاء الباردة تنظر إلى المشهد وكأنما فقدت البصر.

قال البوذا، وكأنه يخاطب نفسه: «لقد آن الأوان للتفكير بإنقاذ جلودنا فالله وحده يعلم لماذا عدنا»، ثم ولج مدخل منزل مهجور، هيكل مبنى متقشر متهدم كان ذات مرة يضم صالة شاي، دكاناً لإصلاح الدراجات، مبغى، وفسحةً صغيرة لا بد من أن كاتب عدل كان يجلس فيها ذات يوم، إذ كان هناك مكتب صغير واطئ ترك عليه زوجاً من النظارات، كما كانت هناك أختام وطوابع مهجورة كانت في ذلك الزمان تتيح له الفرصة لأن يكون أكثر من عجوز لا يساوي شيئاً ـ طوابع وأختام كانت تجعله حكماً بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح. لكن كاتب العدل كان غائباً، لذا لم أستطع سؤاله بغية التأكد مما حدث ولم أستطع تأدية شهادة أمان مقرونة باليمين، لكن كان هناك على حصيرة خلف مكتبه ثوب واسع فضفاض كالجلابية، ودون إضاعة دقيقة واحدة، خلعت بزتي الرسمية، بما في ذلك شعار الكلية الذي يميز وحدات الكوشيا وبذلك صرت مغفل الاسم، جندياً فاراً، في مدينة لا أستطيع تعلم لغتها.

غير أن شهيد دار كان قد بقي في الشارع، ومع أول ضوء للصباح رأى الجنود يندفعون بعيداً لفعل ما ـ لم يتم، فعله، بعدئذ جاءت القنبلة اليدوية. وإذا كنت أنا البوذا، قد بقيت داخل المنزل الخاوي، فإن شهيداً كان في الخارج لا تحميه أية جدران.

من تراه يستطيع القول: من ضرب القنبلة ولماذا وكيف؟ لكن القنبلة ألقيت بالتأكيد وفي آخر لحظة من حياة شهيد، حياته التي لم تعرف الانشطار، طغى عليه فجأة دافع لا يقاوم بأن ينظر إلى الأعلى. . . بعدئذ، وفي مجثم المؤذن، قال البوذا: «غريب جداً. الله! ـ الرمانة ـ فوق رأسي تماماً كتلك الرمانة، إنما أعلى وأكبر من تلك ـ أنت تعرف، بوذا لقد كانت أشبه بمصباح كهربائي ـ الله: ماذا كان باستطاعتي أن أفعل؟ لقد تطلعت!»،

أجل لقد كانت هناك، تتدلى فوق رأسه. رمانة أحلامه، تتدلى تماماً فوق رأسه ثم تسقط تسقط، وتنفجر على مستوى الخصر قاذفة بساقيه بعيداً إلى ناحية أخرى من أنحاء المدينة.

حين وصلت إليه، كان شهيد لا يزال واعياً، رغم انشطاره إلى نصفين، فأشار بيده «خذني هناك، بوذا، أريد أن، أريد أن». وهكذا حملت ما بات آنذاك نصف غلام لا غير (وكان لهذا السبب خفيفاً تماماً). ثم صعدت به السلم الحلزوني الضيق إلى ذروة تلك المئذنة الباردة البيضاء حيث بدأ شهيد يهذي عن المصابيح الكهربائية بينما كانت نمال حمر وسود تتصارع على صرصار ميت، تتصارع على طول الأخاديد الجرفية المتشكلة في الأرض الإسمنتية العارية. وفي الأسفل وسط المنازل المتفحمة والزجاج المهشم وسحابة الدخان، كان يظهر أناس كالنمل أيضاً، وهم يستعدون للسلام لكن النمل كان يتجاهل أشباهه، وكان يتابع العراك. أما البوذا: فقد وقف ساكناً يحملق زائغ النظر إلى الأسفل ـ في ما حوله، وقد وضع نفسه بين النصف الأعلى لشهيد وبين قطعة الأثاث الوحيدة، الطاولة الواطئة في مجثم المؤذن العالي تلك التي كان ينتصب فوقها حاكٍ متصل بمكبر صوت. وهكذا سارع البوذا لكي يحول بين زميله المنشطر وبين انقشاع الوهم عن عينيه حين يرى ذلك المؤذن الآلي الذي سينتشر أذانه دائماً في الأماكن نفسها، سارع فانتزع من طيات ثوبه عديم الشكل شيئاً يلمع: مبصقة فضية ثم التفت بناظريه الزائغين إليها وغرق في التأمل لكنه فوجئ بانطلاق صرخة. فنظر إلى الأعلى وحينذاك رأى الصرصار الميت مهجوراً (إذ كان الدم قد سال على طول الأخاديد الجرفية، وكان النمل وهو يتبع ذلك الأثر اللزج، قد وصل إلى مصدر التسرب، فأعرب شهيد عن سخطه بتلك الصرخة: لقد بات ضحية حربين، لا حرب واحدة).

وهكذا اصطدم مرفق البوذا، وهو يهب إلى النجدة وتدوس قدماه النمل، بمفتاح بعث الحياة في جهاز التكبير، بعدئذ حدث ما لا يمكن للناس نسيانه: فقد ارتفع الأذان من المسجد في خضم الحرب.

بعد بضع لحظات ساد الصمت. كما سقط رأس شهيد إلى الأمام يقبل

الأرض قبلته الأبدية أما البوذا الذي خشي افتضاح أمره، فقد أمسك بمبصقته وهبط إلى المدينة مع وصول الجيش الهندي تاركاً شهيداً ذلك الذي لم يعد يبالي بشيء يساهم في صنع وليمة السلام للنمل. ثم مضى في شوارع الصباح الباكر كي يرحب بالجنرال سام.

في المئذنة، كان البوذا ينظر زائغ العينين إلى مبصقته لكن ذهنه لم يكن خاوياً تماماً بل كانت فيه ثلاث كلمات، إنها الكلمات ذاتها التي ظل شهيد يكررها إلى أن مضى إلى ربه الأعلى. إنها الكلمات ذاتها التي جعلتني وهي تفوح برائحة البصل أنتحب على كتف أيوب بلش ـ حتى جاءت النحلة وهي تطن... «هذا ليس، ليس عدلاً» وظللت أكررها كالطفل: «هذا ليس عدلاً، هذا ليس عدلاً».

ذلك أن شهيداً كان قد أمسى جديراً باسمه بعد أن حقق أغلى رغبات والده. أما البوذا فكان لا يزال عاجزاً عن تذكر اسمه.

* * *

كيف استعاد بوذا اسمه: في يوم، من أيام الماضي البعيد، في يوم استقلال آخر، كان العالم كله زعفرانياً وأخضر. أما ذلك الصباح فقد كانت الألوان كلها حمراً وذهبية وخضراً. وفي المدن صيحات «جاي بنغالا» وأصوات نساء تغني «بنغالنا الذهبية» فتكاد القلوب تطير لها بهجة... وفي قلب المدينة، وعلى منصة هزيمته، كان الجنرال نيازي النمر ينتظر الجنرال مانيكشو (تفاصيل من سير ذاتية: كان سام بارسياً، ومسقط رأسه بومباي وكان البومباويون في غاية السعادة في ذلك اليوم. وفي غمرة الأخضر والذهبي والأحمر كان البوذا في ثوبه المغفل الهوية عديم الشكل يحشر نفسه بين الحشود. إذاً، لقد جاءت الهند، وعلى رأسها سام).

أتراها كانت فكرة الجنرال سام؟ أم أنديرا؟ لكنني سأكتفي، متجاوزاً تلك الأسئلة العقيمة بأن أسجل بأن التقدم الهندي إلى دكا كان أكثر من عرض عسكري، فقد كلل، كما يقتضي النصر دائماً، بعروض جانبية، إذ طارت ناقلة جند خاصة إلى دكا، حاملةً على متنها مائة وواحداً من أمهر المشعوذين والسحرة الذين تعرفهم الهند. ولقد جاؤوا من حي السحرة الشهير في دلهي،

حيث لبس الكثير منهم، احتفاء بتلك المناسبة، بزات عسكرية هندية كي يفكر الدكاويون أن نصر الجنود كان حتمياً منذ البداية، نظراً لأن جنودهم الرسميين أنفسهم هم سحرة من أرفع طراز. ولقد سار هؤلاء المشعوذون والسحرة والفنانون الآخرون بحذاء الجنود يقدمون ألعاب التسلية للحشود، فهنا بهلوانات يشيدون أهراماً بشرية فوق عربات متحركة تقودها ثيران بيض، وهناك فتيات بارعات الحركة على نحو خارق للعادة يمكنهن ابتلاع سيقانهن حتى الركب، وثمة مشعوذون يعملون خارج قوانين الجاذبية بحيث يمكنهم سحب «الآهات» و«الأوهات» من الحشد المستمتع وهم يتلاعبون بدمى رمانات يدوية يصل ما يقذفه واحدهم منها في الهواء إلى أربعمائة وعشرين رمانة في وقت واحد، كما كان هناك مشعوذون مختصون بورق اللعب يمكنهم أن يسحبوا بنت الكبة من آذان النساء، وكانت هناك أيضاً الراقصة العظيمة تاو كالي التي كان اسمها يعني «زهرة الجلنار» وهي تقوم بوثبات ولفات ودورانات على عربة يجرها حمار بينما كانت قطعة ضخمة من حلى الأنف الفضية تتراقص في منخارها الأيمن. وكان هناك عازف الغيتار الشهير المايسترو فيكرام الذي كان باستطاعة غيتاره أن يردد أصداء أضعف العواطف في قلوب جمهوره بل ويزيدها شدة. فذات مرة كان (كما يقال) يعزف أمام جمهور سيئ المزاج للغاية، وقد فتن نفوسهم الشريرة إلى درجة اضطر معها زميله عازف الطبلة لإيقافه عن العزف ولولا ذلك لكانت قوة موسيقاه قد جعلتهم يشتبكون بالسكاكين ويهشمون صالة الموسيقى بكل ما فيها. . . أما في هذا اليوم فقد رفعت موسيقى المايسترو فيكرام من رغبة الناس الاحتفالية إلى درجة محمومة، بل لنقل إنها جعلت قلوبهم تطير ببهجة ورؤوسهم تصاب بمس من جنون. كذلك كان هنالك بيكتشر سينغ، وهو عملاق طوله سبع أقدام ووزنه أكثر من مائة وعشرين كيلوغراماً ولقبه: أعظم ساحر في العالم نظراً لمهاراته التي لا نظير لها كحاوٍ وساحر ثعابين. إذ لم يكن باستطاعة حتى حواة البنغال الأسطوريين أن يفوقوا مواهبه في هذا المجال، فقد كان يمشي بخطا واسعة بين الحشود السعيدة الهاتفة وقد التفت عليه من رأسه حتى قدميه أفاعي الكوبرا والمامبا والكرايت وهي تتباهى بأنيابها السامة التي

لم تنتزع. . . إنه بيكتشر سينغ، آخر فرد في سلالة الرجال الذين رغبوا في أن يكونوا آبائي. . . ووراءه مباشرة جاءت بارفاتي الساحرة التي كانت تقدم تسليات للجمهور بمساعدة سلة قصبية كبيرة ذات غطاء، إذ كان المتطوعون يدخلون السلة فتجعلهم بارفاتي يختفون تماماً ولا يعود باستطاعتهم الظهور إلى أن تشاء هي ذلك. كانت بارفاتي، التي أعطاها مولدها في منتصف الليل مواهب السحر الحقيقية، تضع تلك المواهب في خدمة مهنتها المتواضعة مهنة خداع البصر وإيهامه. ولقد سألها أحدهم «لكن، كيف ستخرجينه؟»، و«هيا، أيتها الآنسة الجميلة قولي لنا ما هي الخدعة؟ قولي. لم لا تقولين؟».

لكن بارفاتي اتجهت وهي تبتسم ابتسامة وضاءة وتدور بسلتها السحرية، اتجهت نحوي وأنا غارق في زحام حشود التحرير.

كان الجيش الهندي يسير في المدينة، أبطاله في اثر السحرة، وبينهم، ، كما علمت في ما بعد، كان جبار الحرب ذاك، الرائد ذو الوجه الجرذي والركبتين الفتاكتين. . لكن آنذاك كان لا يزال هناك مشعوذون وخادعو ـ بصر، ذلك أن كل من بقي حياً من المشعوذين والحواة في المدينة خرجوا حينذاك من مخابئهم وبدأوا مباراة رائعة، يسعى كل منهم لإبطال أي شيء وكل شيء يعمله السحرة الزوار فغسلت بذلك آلام المدينة وسكنت نفسها في خضم السرور العظيم بفنون سحرهم. أما بارفاتي الساحرة، فإنها ما أن رأتني حتى ردت لي اسمي.

«سليم! أوه! يا إلهي! سليم! أنت سليم سيناء! ألست هو؟».

ويرتج على البوذا ليغدو مثل دمية. أعين الجمهور تحملق. بارفاتي تندفع نحوه. «اسمع. لا بد من أن تكون هو!» ثم تمسك بمرفقه. العينان الصحنيتان تنقبان في العينين الزرقاوين الحليبيتين. «يا إلهي! ذلك الأنف. لا أقول ذلك وقاحة، بل، طبعاً! انظر، إنني أنا، بارفاتي! أوه سليم، لا تتغاب الآن، هيا، تعال». «هو ذاك!» يقول البوذا «سليم: هو ذا الاسم».

«أوه يا إلهي، شيء مثير للغاية!» تهتف بارفاتي «أوه، بابا. . . سليم، إنك تتذكر الأطفال، أوه، يا له من شيء رائع! إذاً، لم تبدو جدياً بينما أشعر أنا وكأنني أود أن أهصرك هصراً؟ سنين طويلة جداً وأنا لا أراك إلا في داخلي

هنا». تقول وهي تنقر على جبهتها: «والآن تقابلني بوجه أشبه بوجه السمكة!! هيه، سليم، قل مرحباً على الأقل!»

* * *

في الخامس عشر من كانون الأول ١٩٧١، استسلم النمر نيازي لسام مانيكشو، وبذلك أصبح النمر وثلاثة وتسعون ألفاً من القوات الباكستانية أسرى حرب، بينما أصبحت أنا، أسيراً ـ بإرادته لدى السحرة الهنود، ذلك أن بارفاتي جرتني إلى داخل الموكب وهي تقول:

«الآن، وقد وجدتك فلن أسمح لك بالإفلات».

في تلك الليلة، شرب سام والنمر قليلاً من الشراب وراحا يتذكران أيامهما القديمة في الجيش البريطاني. «ماذا أقول يا نمر» قال سام مانيكشو «لقد فعلت عين الصواب باستسلامك» فرد النمر «لكنني يا سام، خضت حرباً حقيقية»، وتعبر سحابة خفيفة بوجه الجنرال سام «اسمع، هذه لعبة قديمة: وبإمكان المرء أن يسمع أكاذيب فظيعة وكثيرة كهذه. المذابح يا صديقي القديم، المجازر الجماعية، الوحدات الخاصة التي تدعى الكوشيا أو شيئاً لعيناً كهذا كلها طورت لأغراض محددة هي اجتثاث جذور المعارضة.. لا ذرة من الحقيقة فيها، كما أفترض؟». فقال النمر: «وحدات كلاب لاقتفاء الآثار والقيام بنشاطات استخبارية؟ لم أسمع بذلك أبداً. لا بد أنك مضلل، يا صديقي، عناصر استخبارات سيئة في كلا الجانبين، لا، شيء مضحك، مضحك جداً، إن لم يكن لديك اعتراض على قولي ذلك». فيقول الجنرال سام: «لقد فكرت كثيراً، وإنني لأقول إنه شيء رائع تماماً أن أراك يا نمر. أيها الشيطان العجوز». فيرد النمر: «سنون طويلة مرت يا سام؟ طويلة جداً».

وبينما راح الصديقان القديمان يغنيان «أغنية قديمة» من أغانيهما، كنت أنا أفر من بنغلادش، من سنواتي الباكستانية. «سوف أخرجك» قالت بارفاتي بعد أن شرحت لها وضعي «أتريد أن يكون خروجك سرياً تماماً؟».

فأومأت برأسي «سرياً للغاية».

وفي مكان آخر من المدينة كان ثلاثة وتسعون ألف جندي يستعدون للانتقال بالعربات إلى معسكر أسرى الحرب، غير أن بارفاتي جعلتني أدخل

سلة قصبية ذات غطاء مغلق بإحكام. وكان سام مانيكشو مضطراً لأن يضع صديقه القديم تحت الحجز الاحترازي أما بارفاتي فقد أكدت لي: «بهذه الطريقة لن يمسكوا بك أبداً». وهناك خلف ثكنة عسكرية حيث كان السحرة ينتظرون وسائل النقل لإعادتهم إلى دلهي، وقف بيكتشر سينغ، أعظم ساحر في العالم، يحرسني بعين يقظى، كي أدخل سلة الإخفاء، وقد تم ذلك بكثير من التمهل، فعلناه ونحن نتظاهر باللامبالاة وندخن سجائر بيرنير، بانتظار غياب الجنود عن المكان.

في غضون ذلك حكى لي بيكتشر سينغ قصة اسمه. منذ عشرين عاماً التقط مصور يحمل آلة كوداك ـ ايستمان صورة له، صورة مكللة بالبسمات والأفاعي، ظهرت في ما بعد، لصالح كوداك وإعلاناتها في الهند، ومنذئذ اكتسب ساحر الأفاعي لقبه الحالي. «ما رأيك يا رئيس» قال بمودة «اسم جميل، أليس كذلك؟ رئيس، ماذا أفعل يا ترى، فأنا لا أتذكر الاسم الذي كنت أستخدمه قبل ذلك، أقصد الاسم الذي أطلقه علي أبي، أمي غباء تام، أليس كذلك يا رئيس؟». لكن بيكتشر سينغ لم يكن غبياً أبداً، بل كان فيه ما هو أكثر من السحر. لذا وعلى نحو مفاجئ، فقد صوته، لا مبالاته، طبيعته الطيبة الناعمة، إذ همس على عجل: «الآن، الآن يا رئيس، أقدم يا رئيس، بأقصى سرعة». وكانت بارفاتي قد رفعت الغطاء عن السلة، فغصت، دافعاً برأسي أولاً، في سلتها السحرية. وحين عاد الغطاء، كان آخر ضوء للنهار يحجب عني.

«تمام، يا رئيس، شيء رائع» همس بيكتشر سينغ، فمالت بارفاتي على السلة قريباً مني ثم همست وشفتاها على قصب السلة مباشرة:

«هيه، أنت، سليم: فكر فقط! أنت وأنا، يا سيد ـ أطفال منتصف الليل! إنه شيء قائم بذاته، أليس كذلك؟»

شيء قائم بذاته... وتذكر سليم المكفن بظلمة السلة القصبية، أنصاف الليالي القديمة، تذكر جولات صراع الأطفال حول الهدف والمعنى من وجودهم، فطغى عليه الحنين لكنه ظل لا يفهم ما هو ذلك الشيء القائم بذاته. بعد ذاك همست بارفاتي كلمات أخرى، وفي داخل سلة الاختفاء،

اختفيت، أنا سليم سيناء، بقضي وقضيضي وبثوبي الفضفاض المغفل الاسم، اختفيت مباشرة في الأثير.

«اختفيت؟ كيف اختفيت؟ ماذا تعني بكلمة اختفيت؟» تهز بادما رأسها، وعيناها تحملقان بي حيرة وذهولا. فأهز كتفي ثم أكرر ما قلته فقط: «اختفيت، تماماً ما تعنيه هذه الكلمة، غبت عن الأنظار، نزعت عني صفتي المادية. مثل الجني: بوف، هكذا».

«هكذا؟» تلح بادما علي «هل هي ساحرة حقاً وصدقاً؟»

أجل، حقاً وصدقاً. فقد كنت في السلة وفي الآن نفسه لم أكن فيها، فقد رفعها بيكتشر سينغ بيد واحدة وألقى بها في مؤخرة شاحنة عسكرية أخذته هو وبارفاتي وبقية السحرة التسعة والتسعين إلى الطائرة التي كانت تنتظر في المطار العسكري. وقد ألقيت مع السلة هناك، وفي الوقت نفسه لم أكن هناك. إذ قال بيكتشر سينغ في ما بعد: «لا، رئيس. أنا لم أشعر بأي ثقل حين حملتك» كما أنني، أنا الآخر، لم أشعر بأية خبطة أو صدمة أو لطمة. كان مائة وواحد من السحرة والمشعوذين قد وصلوا، بطائرة نقل عسكرية، من عاصمة الهند، إنما عادوا إليها مائة واثنين، رغم أن واحداً منهم كان موجوداً ولم يكن موجوداً في الآن نفسه. نعم طلاسم السحر تنجح أحياناً، لكنها تفشل أيضاً: فأبي، أحمد سيناء، لم يفلح يوماً في إنزال اللعنة على شيري، الكلبة الهجينة. بلا جواز أو ترخيص، عدت مغلفاً بقبعة الإخفاء. إلى مسقط رأسي عدت. صدق، أو لا تصدق، لكن حتى المتشكك سيضطر لتقديم تفسير آخر لحضوري إلى مسقط رأسي. ترى ألم يكن الخليفة هارون الرشيد (في مجموعة أخرى من الحكايا الخرافية) يتجول خفية أيضاً، مجهول الاسم لا تراه العيون؟ ألم يكن في عباءته يجوب شوارع بغداد، ما حققه هارون في شوارع بغداد، حققته لي بارفاتي الساحرة ونحن نطير عبر أزقة الجو في شبه القارة. لقد فعلت ذلك. أجل، كنت مخفياً عن العيون، هذا وكفى.

ذكريات عن الاختفاء: في السلة علمت ماذا يعني أن تكون ميتاً. لقد اكتسبت مزايا الأشباح! فأنا موجود في السلة على نحو غير مادي، حي فعلاً

لكن دون كينونة أو وزن. . . وفي السلة، اكتشفت كيف يرى الأشباح العالم: مغبشاً، معتماً، باهتاً. . . لقد كان العالم حولي، حولي فقط. فقد علقت في جو من عدم الوجود يمكن للمرء أن يرى في حواشيه أشباح شغل القصب وكأنها انعكاسات باهتة. غير أن الميت يموت ثم ينساه الناس تدريجياً. فالزمن يشفي الجروح، يدملها، لكنني في سلة بارفاتي تعلمت أن العكس صحيح كذلك. فالأشباح تبدأ بالنسيان أيضاً، والموتى يفقدون ذكرياتهم، وأخيراً يتلاشون تماماً بعد انفصالهم عن الحياة. أي تعلمت، باختصار، أن عملية الموت تستمر زمناً طويلاً بعد الوفاة. فيما بعد قالت بارفاتي: «لم أشأ أن أقول لك. فالحقيقة أنه لا يجوز إبقاء أحد مخفياً مدة زمنية كتلك المدة. إنه خطر، لكن ما الذي كنا نستطيع فعله غير ذلك؟».

في قبضة سحر بارفاتي، شعرت بأن قبضتي على العالم تتراخى تماماً ـ وكم هو سهل، كم هو بسيط ألا يعود المرء أبداً إما ولى ـ شعرت بأنني أسبح في ذلك اللامكان الغائم منتقلاً أبعد وأبعد وأبعد، مثل بوغ من أبواغ البذور حمله النسيم. أي باختصار، كنت معرضاً لخطر الموت.

لكن ما تمسكت به في ذلك المكان والزمان الشبحيين إنما هو: مبصقة فضية تحولت كما تحولت أنا نفسي بكلمات بارفاتي المهموسة همساً، إلى روح، إلى ذكرى. . . لقد بقيت على قيد الحياة وأنا أمسك بالمبصقة الفضية المتقنة الصنع التي كانت تتألق حتى في تلك الظلمة التي لا اسم لها، ورغم فقداني الحس من رأسي إلى قدمي، فقد أنقذت. وربما أنقذني ألق تذكاري الثمين.

ـ لا، كان ثمة ما هو أكثر من المباصق. فبطلنا سليم، كما نعرف جميعاً، يتأثر بالغ التأثر حين يحتجز في أماكن محصورة. التحولات تنصب عليه في ظلمة الأماكن المحصورة. ترى ألم يتخذ، وهو جنين في ظلمة رحم (ليس برحم أمه)، تجسيداً لأسطورة الخامس عشر من آب؟ ألم يكن طفل التكتكة ـ ألم يظهر إلى الوجود بوصفه طفلاً مباركاً؟ في غرفة الغسيل الضيقة ألم تبدل بطاقات أسماء؟ ثم وحيداً في صندوق غسيل، وقد دخل خيط في منخره، ألم يلمح مانغا سوداء، ألم يستنشق بشدة، محيلاً نفسه وخيارته

العلوية إلى ضرب من إذاعة ـ هواء خارقة للطبيعة؟ ألم يخضع، تحيط به الممرضات والأطباء وأقنعة التخدير، للعبة الأعداء؟ ثم ألم ينتقل، وقد أجريت عليه عملية تصريف لجيوبه، إلى طور ثان، طور الفيلسوف الأنفي و(في ما بعد) إلى مقتفي آثار من أرفع طراز؟ ألم يتعلم، وهو مقرفص في كوخ صغير مهجور يستره جسم أيوب بلش، معنى العدل والظلم؟ حسن، إذاً، لقد تم إنقاذي بعد أن وقعت في شرك الخطر السري لسلة الإخفاء، لكن ليس ألق المبصقة ما أنقذني وحسب، بل أيضاً تحول آخر: ففي متاهات تلك الوحدة الخفية، في تلك الحالة المريعة من انعدام التجسد المادي التي كانت رائحتها أشبه برائحة القبور، اكتشفت الغضب.

في داخل سليم كان شيء ما يتلاشى، وشيء ما يولد. المتلاشي: كبرياء قديمة نبعت من صور الطفل على صفحات الجرائد ورسالة ـ نهرو، وتصميم قديم على القيام بدور تاريخي ثم التنبؤ به، وكذلك رغبة جامحة في التماس العذر لفهم الكيفية التي يمكن للأبوين والغرباء أن يحتقروه أو ينفوه لقبحه، والتي لا تعود بها الأصابع المبتورة وبقعة الشعر الجرداء كرأس الراهب، لا تعود مبرراً يسوغ تماماً الطريقة التي كان، أو كنت أعامل بها، غضبي، بالحقيقة، كان ينصب على كل شيء كنت أقبله، حتى ذلك الحين، قبولاً أعمى: رغبة والدي في أن أعوض لهما كل تعبهما علي بأن أصير رجلاً عظيماً، العبقرية الأشبه بالشال الذي يحط على الكتفين، بل إن صيغ الارتباط نفسها أشعلت في صدري غضباً مسعوراً أعمى. لماذا أنا؟ لماذا كان علي، بسبب مصادفات ميلادي والنبوءة وما إلى ذلك، أن أكون مسؤولاً عن أعمال الشغب التي قامت بها مسيرات اللغات وخلافة نهرو، ثورات المباهر والقنابل التي أبادت عائلتي؟ لماذا كان علي، أنا سليم، ذو الأنف الخرطومي، المتعجرف صاحب الوجه الخارطة، فلقة القمر، أن أتحمل اللوم على ما لم تفعله القوات الباكستانية في دكا؟!... لماذا كان علي، ومن بين أكثر من خمسمائة مليون أن أحمل عبء التاريخ كله؟

إن الشيء الذي كان قد ابتدأه اكتشافي للظلم (شم رائحة البصل) أكمله غضبي وأنا مخفي لا تراه العيون. وقد مكنني الغضب من مقاومة إغراءات

الاختفاء كلياً، إذ جعلني أصم تماماً. بعد أن تحررت من الاختفاء في ظل مسجد الجمعة، كان علي أن أشرع، منذ تلك اللحظة فصاعداً، باختيار مستقبلي الذي لم يحدده لي أحد. وهناك، في سكون العزلة التي تفوح برائحة المقابر، سمعت ذلك الصوت القديم، صوت ماري بيربيرا العذراء وهي تغني:

كل ما تبتغي أن تكون، سوف تكون
ولسوف تكون كل ما تبتغي أن تكون

هذه الليلة وأنا أتذكر غضبي، أظل هادئاً تماماً فالأرملة جففت الغضب في داخلي كما جففت كل شيء آخر. ثم أسمح لنفسي، وأنا أتذكر تمردي وليد السلة على الحتمية والقدرية، بابتسامة متفهمة ماكرة. وأغمغم بشيء من التسامح عبر السنين إلى سليم ابن الرابعة والعشرين قائلاً: «الولد ولد ولو عمّر بلد». ففي نزل الأرامل لقنوني درساً قاسياً وحاسماً هو: أن لا مفر.

والآن، وأنا أقعد منحني الظهر على الورق تحت ضوء الزاوية، لم أعد أبتغي إلا ما أنا عليه. لكن من أنا وما أنا يا ترى؟ جوابي: أنا الخلاصة الإجمالية لكل ما مر أمامي، لكل ما شاهدته يجري، لكل ما جرى لي. أنا كل امرئ، كل شيء، تأثر جراء وجوده في العالم، وأثّر بي. أنا أي شيء يحدث بعد أن أولي، لكنه لم يكن ليحدث لو لم أكن موجوداً. غير أنني لست استثنائياً متميزاً في هذا المجال. فكل «أنا»، كل فرد من أمتنا التي تزيد على ستمائة مليون الآن يضم مثل هذا الجمع الحاشد. وإنني أكرر للمرة الأخيرة: كي تفهمني عليك أن تستوعب العالم.

لكنني الآن، وقد قارب ما يتدفق من داخلي على النهاية، وازدادت الصدوع في جسمي اتساعاً ـ إذ يمكنني أن أسمع وأشعر بالتصدع، بالتشقق، بالتمزق ـ أشرع بالتحول إلى شخص أكثر هفافة، شخص شفاف تقريباً، إذ لم يبق مني الكثير، وقريباً لن يبقى شيء على الإطلاق. ستمائة مليون ذرة غبار، وكلها شفافة كالبللور، غير مرئية. . .

لكن آنذاك كنت غاضباً فازداد لدي النشاط الغددي وأنا في تلك القارورة

القصبية ذات العنق الضيق. راحت الغدد الداخلية والخارجية تسكب عرقاً ورائحة كما لو أنها تحاول سكب قدري من خلال مسامي، وإنصافاً لغضبي، لا بد لي من أن أسجل أنه حقق إنجازاً سريعاً فحين ارتميت من سلة الإخفاء إلى ظل المسجد، أنقذني التمرد الغاضب من فقدان الحس المطلق. عندما سقطت على قذارة حي السحرة، وفي يدي المبصقة الفضية، أدركت أنني استعدت حواسي مرة أخرى.

فبعض العلل، على الأقل، يمكن التغلب عليها.

ظل المسجد

بلا ريب ثمة تسارع يحدث، تمزق انسحاق تصدع، وبينما تنفلع طبقات الطرق السطحية تحت الحر الشديد، أجد أنني أنا الآخر، أمضي سريعاً نحو التفكك. فما ينهش العظام (وهو، كما اضطررت أكثر من مرة لأن أفسره للنساء الكثيرات المحيطات بي، يتجاوز قدرات الطب على التشخيص، وقدراته على الشفاء بكثير) لن يظل أمداً طويلاً موضع تجاهل، لكن لا يزال لدي الكثير مما ينبغي سرد حكايته..

فالخال مصطفى ينمو في داخلي وتبويزة بارفاتي الساحرة، وخصلة معينة من شعر البطل تنتظر في الأجنحة، وكذلك عمل ثلاثة عشر يوماً وتاريخ يحاكي تسريحة رئيسة الوزراء، كما أن هناك خيانة عظمى واحتيالاً ـ على أجر، ورائحة شيء ما يقلى في مقلاة حديد (رائحة تهب مع النسائم مثقلة بولولات الأرامل)... بحيث إنني مضطر، أنا أيضاً لأن أزيد من سرعتي، لأن أقوم باندفاعة شديدة نحو خط النهاية، فقبل أن تتصدع الذاكرة على نحو يتجاوز أي أمل برأب صدعها لا بد لي من تشغيل الشريط كله. (رغم أن هناك امحاءات من قبل وفجوات، ولا بد لي من الارتحال بين الفينة والفينة).

ستة وعشرون مرطبان ـ مخللات تنتصب بكل وجوم على الرف، ستة وعشرون مزيجاً خاصاً، على كل منها بطاقة تعريف خاصة، تحمل بكل أناقة عبارة من العبارات المألوفة. مثال على ذلك: «تحركات تقوم بها المباهر» أو «ألف وياء» أو «عصا المقدم سبرماتي». ستة وعشرون تجلجل بفصاحة بالغة حين تعبر القطارات المحلية، صفراء ـ بنية. وعلى مكتبي، خمسة مرطبانات

فارغة ترن أجراسها بإلحاح، مذكرة إياي بواجبي الذي لم ينجز لكنني لن أتمهل بعد الآن بشأن مرطبانات المخللات الفارغة، فالليل للكلام وعلى الصلصة الخضراء أن تنتظر دورها.

.. لكن بادما متلهفة كئيبة: «أوه يا سيدي، كم تراها كشمير رائعة في آب، حين يكون الجو هنا حاراً مثل تشيلي» فأضطر لتقريع صاحبتي المكتنزة التي لا تزال بارزة العضل، صاحبتي التي تشرد باهتماماتها بعيداً، كما ألحظ أن صاحبتنا بادما بيبي التي عانت طويلاً وتحملت كثيراً، قد بدأت تتصرف كأية زوجة هندية تقليدية تماماً، (وأنا، ببعدي عنها واستغراقي الذاتي، أتراني أتصرف كأي زوج هندي؟) ففي الفترة الأخيرة ورغم قدريتي الرواقية في ما يتعلق بالصدوع المتزايدة، شممت في أنفاس بادما طيف حلم بمستقبل بديل (إنما غير معقول). وقد بدأت، متجاهلة الصدوع الداخلية الفتاكة والتي لا يمكن إصلاحها، بنشر رائحة مرة ـ عذبة هي رائحة الأمل بالزواج. فزهرتي، زهرة اللوتس الروثية، التي ظلت زمناً طويلاً منيعة على أشواك الهزء المنطلقة من شفاه نسائنا العاملات ذوات الزنود الشعراء والتي وضعت مساكنتها لي خارج وفوق كل قوانين اللياقة الاجتماعية، بدأت على ما يبدو تخضع لرغبة دفينة في إضفاء صفة شرعية ما... أي، باختصار، تنتظر بادما مني، رغم أنها لم تنبس ببنت شفة حول الموضوع، أن أجعل منها امرأة شريفة. إن عطر أملها الحزين يضمخ، وبكل براءة، أشد ملاحظاتها قلقاً وفزعاً ـ حتى في هذه اللحظة بالذات، وهي تقول: «هيه، يا سيدي، لماذا لا تنهي كتابتك وتأخذ قسطاً من الراحة، ثم تذهب إلى كشمير، وتنعم بالهدوء لبعض الوقت. وربما تأخذ معك بادماك أيضاً، إذ إن باستطاعتها أن ترعى...؟». وخلال هذا الحلم المتبرعم بعطلة كشميرية (كانت في الماضي أيضاً حلم جيهانجير، الأمبراطور المغولي، وحلم إيلس لوبين المسكينة المنسية، وربما حلم المسيح نفسه). خلف هذا الحلم أشم رائحة حلم آخر لكن لا هذا ولا ذاك يمكن تحقيقه. ذلك أن الصدوع الآن، الصدوع ودائماً الصدوع توجه مستقبلي في نطاقه الضيق نحو نقطته الأخيرة الوحيدة التي لا مفر منها، إذ حتى بادما ينبغي أن تختفي في الظل قليلاً إذا ما أردت أن أكمل حكايتي.

هذا اليوم، تتحدث الصحف عن الميلاد السياسي الجديد المزعوم للسيدة أنديرا غاندي، لكن حين عدت إلى الهند، مختفياً في سلة مجدولة من القصب، كانت «المدام» تنعم بمجدها الكامل. هذا اليوم، ربما نسينا فعلاً، وربما نغوَص بملء إرادتنا في الغيوم الكثيفة المتلبدة لفقدان الذاكرة، لكنني أتذكر وسوف أدون هنا، كيف أنني، كيف أنها ـ كيف حدث أن ـ لا، لا يمكنني قبول ذلك، بل علي أن أسرده وفق الترتيب المناسب إلى أن يتعذر وجود خيار آخر سوى الكشف. . .

ففي السادس عشر من كانون الأول، ١٩٧١، تدحرجت خارجاً من سلة إلى أرض الهند التي كان فيها حزب المؤتمر الجديد بقيادة السيدة أنديرا غاندي يفوز بغالبية تزيد على الثلثين في الجمعية الوطنية.

في سلة الإخفاء، انقلب الإحساس بالظلم إلى غضب ـ وإلى شيء آخر إضافة إلى ذلك ـ فأنا الذي حولني الغضب، طغى علي أيضاً شعور مضنٍ بالتعاطف مع البلد التي لم تكن توأمي في الولادة وحسب بل كانت ملتحمة بي (إن جاز لي القول) من وسطي بحيث إن ما يحدث لأي منا، يحدث لنا كلانا. فإذا ما واجهت، أنا ذو الأنف الخرطومي، الوجه المبقع. . الخ، أياماً عصيبة، فإن أختي التوأم شبه القارية كانت تواجه مثلها. والآن، وقد منحت نفسي الحق في اختيار مستقبل أفضل، فإنني مصمم على أن تشاركني البلاد هذا المستقبل أيضاً. وأظن أنني حين ارتميت على الأرض يغمرني الظل وصيحات المرح، كنت قد قررت إنقاذ الوطن من قبل.

(لكن، ثمة صدوع وفجوات. . . هل كنت، حينذاك، قد بدأت أرى أن حبي لجميلة المغنية خطأ بشكل من الأشكال؟ هل كنت قد أدركت من قبل كيف أنني أسقطت عليها، وبكل بساطة، العبادة التي أدرك الآن أنها حب الوطن العارم الآسر؟ متى أيقنت يا ترى أن مشاعري المحرقة حقاً كانت تنصب على أختي الحقيقية بالولادة، الهند ذاتها، وليس على تلك المغنية التي رمت بي بكل قسوة وفظاظة، كجلد حية مستهلك، في سلة مهملات من الحياة العسكرية؟ متى متى متى؟. . . واعترافاً بالهزيمة، أراني مضطراً لأن أقول إنني غير قادر على التذكر بصورة مؤكدة).

. . . جلس سليم وعيناه تطرفان على التراب في ظل المسجد. وقد انتصب فوقه عملاق من العمالقة يضحك بتكشيرة أسنان هائلة ويسأل: «آشا. . . شا، رئيس هل كانت رحلتك جيدة؟». وبارفاتي ذات العينين الضخمتين المضطربتين تسكب سطل الماء في فمه الجاف المتشقق. . . شعور؟ اللمسة الجليدية لماء حفظ بارداً في إناء فخاري، الحرقة الشديدة في الشفاه المتشققة كرق متيبس، والمبصقة الفضية المطعمة باللازورد في قبضة اليد. . . «يمكنني أن أشعر!» صرخ سليم بالحشد ذي الفطرة الحسنة.

كان ذلك في وقت من العصر يدعى الأصيل، حين يسقط ظل مسجد الجمعة العالي والمشيد بالآجر الأحمر والرخام على بيوت الحي الفقير البشعة الغارقة في الفوضى والمزدحمة حوله، ذلك الحي الذي كانت سقوفه الصفيحية المتداعية تزيد الحر إلى درجة كان من المحال معها أن يدخل المرء تلك البيوت الهشة إلا عند الأصيل والليل. . . لكن آنذاك كان المشعوذون والبهلوانات والسحرة والدراويش قد تجمعوا في الظل لتحية القادمين الجدد «يمكنني أن أشعر» صرخت، فهتف بيكتشر سينغ بعد ذاك: «حسناً، رئيس قل لنا كيف تشعر؟». أولد من جديد، أسقط من سلة بارفاتي كما يسقط الجنين من رحم أمه! وشممت رائحة دهشة في وجه بيكتشر سينغ. كان من الواضح أن حيلة بارفاتي قد أدهشته تماماً، لكنه كمحترف حقيقي، لم يكن يحلم بأن يسألها كيف فعلت ذلك، وبهذه الطريقة، فقد تعذر اكتشاف بارفاتي الساحرة التي استخدمت قواها اللامحدودة في تحويلي إلى روح لتأمين سلامتي. كذلك فإن حي السحرة، وكما اكتشفت في ما بعد، كان يرفض الإيمان بالسحر وفنونه. يرفض بكل ما يملك المشعوذون المحترفون من يقين. وهكذا قال لي بيكتشر سينغ وعلى محياه الدهشة «أقسم يا رئيس، إنك كنت هناك بخفة طفل صغير» لكنه لم يفكر أبداً بأن انعدام وزني لم يكن سوى خدمة.

«اسمع أيها السيد الطفل» كان بيكتشر يصرخ «ماذا تقول أيها الرئيس ـ الطفل؟ هل علي أن أحملك على كتفي وأجعلك تبول». فقالت لي بارفاتي وعلى محياها أمائر التسامح: «ذلك الرجل، يا عزيزي، يتكلم دائماً هكذا شذر مذر» وكانت تبتسم ابتسامتها الوضاءة لكل من في المكان. . لكن تلا

ذلك حادث لا يبشر بالخير، إذ بدأ صوت امرأة يلعلع في مؤخرة جميع السحرة: «ويـ. . . لا. . . ه!! ويـ. . . . لي!». فانفصم الحشد على نحو مفاجئ وظهرت امرأة عجوز من وسطه ثم اندفعت إلى سليم، وكان لا بد لي من أن أدافع عن نفسي ضد مقلاة تلوح بها مهددة إلى أن قبض عليها بيكتشر سينغ وهو في أشد حالات الذعر من ذراعها الملوحة بالمقلاة هادراً «هيه» رئيسة، لم كل هذه الضجة؟ بينما استمرت المرأة تقول وتولول بعناء شديد: «ويـ. . لا. . . ه!! ويـ. . . .لي!!!».

«ريشام بيبي» قالت بارفاتي بانفعال «هل في رأسك نمل؟». ثم أردف بيكتشر: «إنه ضيفنا يا رئيسة، فلماذا تصرخين كل هذا الصراخ؟ إيه. اهدئي، ريشام، هذا الرئيس تعرفه بارفاتي شخصياً. لا تظلي هكذا تصرخين في وجهه!». لكنها استأنفت: «ويلاه!!! ويلي!!! سوء الحظ قد جاء! تذهبون إلى بلاد أجنبية وتأتون به هنا! ويلاه!! ويلاه!».

وكانت وجوه السحرة المضطربة تنتقل بنظراتها المحملقة بين ريشام بيبي وبيني، إذ رغم أنهم كانوا أناساً ينكرون الخوارق إلا أنهم كانوا فنانين، وككل الفنانين، فقد كان لديهم إيمان ضمني بالحظ، السيئ منه والحسن. . . . «أنت نفسك قلت» تابعت ريشام ولولتها: «إن هذا الرجل ولد مرتين، ولم تلده امرأة حتى! الآن يحل الويل، الوباء والموت. إنني عجوز، لذلك أعلم ما لا تعلمونه». ثم التفتت إلي وقد ارتسم على محياها الحزن: «كن شفوقاً فقط، اذهب الآن، اذهب، اذهب بسرعة!». فسرت همهمات بين الحشد: «إنها على حق، ريشام بيبي تعرف القصص القديمة». لكن آنذاك تملك الغضب بيكتشر سينغ فصاح قائلاً: «الرئيس ضيفي المكرم وسيمكث في كوخي ما طاب له ذلك، طال ذلك أم قصر، فعمَّ تتحدثون كلكم؟ هذا ليس مكاناً للخرافات».

غير أن إقامة سليم سيناء الأولى في حي السحرة لم تدم إلا بضعة أيام لكن خلال تلك البرهة الوجيزة حدثت أمور كثيرة هدأت المخاوف التي أثارتها تلك الولولة. فالحقيقة الصريحة أن مشعوذي وفناني الحي الآخرين بدأوا في تلك الأيام، يبلغون ذرى جديدة في الإنجاز. مثال على ذلك

مشعوذون يصلون بعدد الكرات التي يلعبون بها في المرة الواحدة إلى ألف كرة وكرة، أحد الدراويش الذي لم يكن قد تدرب بعد تمكن من الاستلقاء على مهد من الفحم المشتعل، وأن يمشي بلا مبالاة وكأنه اكتسب من معلمه القدرة على التناضح، كما قيل لي إن خدعة الحبل كانت تؤدى بنجاح بالغ. كذلك عجز الشرطة عن القيام بغارتهم الشهرية المألوفة على الحي، وذلك أمر لم يحدث طوال الفترة التي تعيها ذاكرة الأحياء. علاوة على ذلك، راح يستقبل جدولاً لا ينقطع من زوار كانوا في الغالب من خدم الأغنياء وكانوا يجيئون في طلب هذا أو ذاك من سحرة الحي للقيام بأعمال التسلية والمرح في هذه الأمسية أو تلك... والحقيقة، بدا الأمر وكأن ريشام بيبي قد رأت الأمور بصورة مقلوبة، لذا سرعان ما أصبحت مشهوراً كل الشهرة في الحي، وأطلق علي اسم سليم المحظوظ، أما بارفاتي فقد راحت تتلقى التهاني لجلبها شخصاً مثلي إلى الحي. وفي النهاية أتى بيكتشر سينغ بريشام بيبي كي تعتذر إلي.

«المعذرة» قالت ريشام بفمها الخالي من الأسنان ثم فرت بسرعة، فأضاف بيكتشر سينغ: «الاعتذار يا رئيس، أمر يصعب على العجائز القيام به، فأدمغتهم تتيبس كما أن ذاكرتهم تبدأ بالتذكر بالمقلوب. رئيس. ها هنا الجميع يقولون إنك حظنا الحسن، لكن هل ستغادرنا قريباً؟». ورأيت بارفاتي تحدق إلي بعينيها الصحنيتين متوسلة بلا صوت أن أقول لا، لا، لا، لكنني كنت مضطراً لأن أجيب بالإيجاب.

سليم متأكد، الآن، أنه أجاب بـ «نعم» ذلك أنه في صباح اليوم نفسه، وكان لا يزال في ثوبه عديم الشكل، ممسكاً لا يزال بمبصقته الفضية، سار مبتعداً، دون أن ينظر إلى الوراء، إلى الفتاة التي كانت تلحق به بعينين مغرورقتين بالاتهامات وأنه، وهو يمشي مسرعاً، كان يعبر بالمشعوذين، وهم يمارسون شعوذاتهم، بأكشاك الحلوى التي ملأت خيشوميه بإغراءات الحلوى الشهية، بالحلاقين وهم يعرضون عليه أن يحلقوا ذقنه بعشرة قروش وبكل ما هب ودب من العجائز والسياح الأمريكيين واليابانيين والباعة المتجولين ولاعبي النرد والورق.

ثم خرج من حي الشعوذة والسحر ليجد نفسه في سوق فايز في مواجهة مباشرة مع الأسوار الممتدة إلى ما لا نهاية، أسوار القلعة الحمراء التي أعلن منها ذات يوم من الأيام رئيس الوزراء استقلال البلاد والتي التقت في ظلها ذات يوم امرأة مع صاحب صندوق الدنيا، رجل الفرجة الذي أخذها إلى الأزقة المزدادة ضيقاً لحظة بعد لحظة كي تسمع عن مستقبل ابنها يتنبأ به العرافون بين الإوز والنسور والرجال المكسرين الذين عصبت أذرعتهم بضمادات من أوراق الأشجار.

وهناك، باختصار، استدار يميناً ثم سار مبتعداً عن المدينة القديمة باتجاه القصور الوردية التي شادها غزاة ذوو جلود وردية قبل زمن طويل: لقد هجرت منقذتي، ومضيت إلى دلهي الجديدة، سيراً على الأقدام.

لماذا؟ لماذا تراني تجاهلت، بنكران فظيع للجميل، أسى بارفاتي ـ الساحرة المفعم بالحنين، وأشحت بوجهي عن القديم راحلاً إلى الجديد؟ لماذا يا ترى، وبعد أن وجدتها هي حليفتي الأشد إخلاصاً في مؤتمر أطفال منتصف الليل كله، تخليت عنها بتلك السهولة والسرعة؟ إن باستطاعتي، وأنا أصارع إمحاءات الماضي الناجمة عن التصدع، أن أتذكر سببين لكن ليس باستطاعتي أن أقول أيهما كان الأهم، أو ما إذا كان ثمة سبب ثالث... على أية حال، سآخذ في البداية المادة الخام. إذ لم يكن لدى سليم، بعد تحليل منظوراته المسقبلية، أي خيار سوى أن يعترف لنفسه بأن تلك المنظورات لم تكن جديدة. فقد كنت بلا جواز سفر، أي، طبقاً للقانون، كنت مهاجراً غير قانوني (وقد كنت ذات مرة مهاجراً قانونياً)، وكانت معسكرات أسرى الحرب بانتظاري في كل مكان. بل حتى لو وضعنا جانباً مكانتي كجندي مهزوم وفار، فإن لائحة سيئاتي تبقى هائلة ضخمة: إذ لم يكن لدي رصيد من المال ولا بدل من ملابس، ولم تكن لدي مؤهلات. فأنا لم أكمل تعليمي ولا أملك ما يثبت التحصيل العلمي الذي حصلته، فأنى لي أن أبدأ مشروعي الطموح الذي يهدف لإنقاذ الأمة دون سقف يقيني الحر والقر وعائلة تحمي، تساعد، تؤازر... وكالصاعقة حلت بذهني خاطرة تؤكد أنني على خطأ، وأن لي في تلك المدينة القديمة، أقرباء، لا، ليس أقرباء وحسب بل أقرباء

أصحاب نفوذ! فخالي مصطفى عزيز موظف مدني قديم كان، حين سمعت عنه آخر مرة، الموظف رقم اثنين في دائرته، فمن عساه يشكل حماية أفضل منه لمطامحي كمسيح مخلّص؟

تحت سقفه، يمكنني أن أقيم اتصالات وأن أحصل على ملابس جديدة، وتحت رعايته، يمكنني أن أبحث عن الدعم لدى الإدارة، وإذا ما درست حقيقة الحكومة وواقعها، فإن بإمكاني، دون شك، أن أجد مفاتيح الخلاص الوطني، إذ قد أجد آذاناً صاغية لدى الوزراء وربما أغدو على وفاق مع العظماء. . .؟ هكذا، وأنا رهن هذه التخيلات الرائعة، كان الحال حين قلت لبارفاتي الساحرة: «علي أن أغادر، مسائل خطيرة تدعوني!». وإذ لمحت التأذي في وجنتيها اللتين التهبتا فجأة، قلت لها مواسياً: «سأعود، وسوف أراك كثيراً، كثيراً، كثيراً».

غير أنها لم تجد المواساة. . . في ذلك الحين، كان سمو المشاعر هو أحد الدوافع التي دفعت بي للتخلي عن أولئك الذين ساعدوني. لكن ألم يكن ثمة شيء أكثر خسة، دناءة وخصوصية؟ أجل، كان. إذ كانت بارفاتي قد سحبتني سراً إلى ما وراء كوخ من خشب الصناديق والتنك حيث تفرخ الصراصير وتتكاثر، وحيث تتطارح الجرذان الغرام وتتجمع البراغيث على روث كلب أرقش، ثم امسكتني من معصمي وغدت متوهجة العينين حادة اللسان، ثم اعترفت، ونحن نختبئ في جوف الحي النتن، أنني لم أكن أول طفل من أطفال منتصف الليل يعبر ممرها! بعدئذ سردت قصة موكب دكا، والسحرة وهم يسيرون بجوار الأبطال، قصتها هي نفسها وهي تنظر إلى دبابة ثم عيناها وهما تحطان على زوج من الركب الالتفافية الهائلة. . .

ركب تبرز بتكبر شديد من بزة رسمية مكوية ومنشّاة، فتصرخ: «أوه، أنت، أنت» ومن ثم الاسم الذي لا يذكر، اسم اثمي، اسم من كان سيعيش حياتي لولا جريمة وقعت في مستشفى للتوليد، بارفاتي وشيفا، شيفا وبارفاتي. وقد قدر عليهما أن يلتقيا بفعل المقدور الإلهي لاسميهما وأن يتحدا في لحظة النصر «إنه بطل، يا رجل!» همست بخفاء ونحن خلف الكوخ «سيجعلونه ضابطاً كبيراً وما إلى ذلك»، وآنذاك ما الذي برز يا ترى

من ثنايا ثيابها الشعثاء؟ ما الذي كان ينمو بفخار وكبرياء على رأس ذلك البطل ويختبئ الآن في صدر ساحرة؟ «طلبت فأعطاني إياها»، قالت الساحرة وهي تريني خصلة من شعره.

أتراني هربت من خصلة الشعر الرهيبة تلك؟ هل فر سليم، بكل خوفه من الاجتماع ثانية مع ذاته الأخرى التي كان قد حظر عليها منذ زمن طويل جلسات مؤتمر الليل، هل فر سليم هذا إلى أحضان العائلة التي حرم من نعيمها بطل الحرب ذاك؟ أهو سمو المبادئ أم الشعور بالإثم؟ لا يسعني القول بعد، لكنني أدون ما أتذكره فقط وبالتحديد ما أسرت به بارفاتي لي «ربما سيعود حين يؤون الأوان، وحينذاك سنكون معاً نحن الثلاثة!». ثم عبارة أخرى مكررة: «أطفال منتصف الليل، ياه.. ذلك شيء قائم بذاته، أليس كذلك؟». لقد ذكرتني بارفاتي بأمور حاولت جاهداً إخراجها من ذهني، فسرت مبتعداً عنها إلى منزل مصطفى عزيز.

من اتصالاتي البائسة الأخيرة بحياتي العائلية وعلاقاتها الحميمة لا تبقى إلا نتف من ذكريات. لكن بما أنه ينبغي تدوين كل شيء ومن ثم حفظه، سوف أحاول أن أجمع معاً خيوط قصة... إذاً، كي نبدأ، دعني أذكر أن الخال مصطفى كان يعيش في بيت من طابق واحد مغفل الاسم وافٍ بالمرام تحيط به حديقة أنيقة قرب راجبات تماماً في قلب مدينة لوتيانز. وهكذا، سرت على طول الطريق الذي كان يدعى ذات يوم كنغسوي، متنشقاً عطور الشوارع التي لا عد لها والتي كانت تهب من أسواق الحرف اليدوية وعوادم السيارات، متنشقاً روائح أشجار تين البنغال وأرز الهند المختلطة بروائح نواب الملوك والسادة الإنكليز ذوي القفازات في تلك الأزمة الغابرة، والممتزجة أيضاً بالروائح الأشد حدة والمنبعثة من أجساد السيدات الثريات المرحات وأجساد البغايا. هنا كان لوح الحسابات الانتخابي الذي تحلق حوله الناس (خلال معركة السيطرة الأولى التي جرت بين أنديرا غاندي وموراجي ديساي) وهم ينتظرون النتائج متسائلين بلهفة شديدة: «صبي أم بنت؟»... وبين القديم والحديث بين بوابة الهند ومبنى القيادة المركزية، كانت أفكاري تتلاطم حول أمبراطوريات (مغولية وبريطانية) اختفت كما كان ذهني يزدحم بتاريخي

أنا ـ ذلك أن هذا التاريخ كان هو نفسه تاريخ مدينة الإعلانات العامة، والوحوش المتعددة الرؤوس واليد الساقطة من السماء ـ وبكل عزم سرت إلى الأمام، تفوح مني، ككل شيء آخر يحيط بي، رائحة تصل عنان السماء. أخيراً وصلت وقد استدرت يساراً باتجاه شارع دوبليكس إلى حديقة مغفلة الاسم ذات سور واطئ وسياج، وفي زاوية من زواياها رأيت لوحة تلوح في الهواء، تماماً مثلما كانت لوحات أخرى قد أزهرت ذات مرة في حدائق إقطاعة ميثولد، لكن صدى الماضي هنا كان يحكي قصة مغايرة، إذ لم يكن قد كتب على هذه اللوحة «للبيع» بل كانت عليها الكلمات التالية السيد مصطفى عزيز وأس. . .

ولجهلي بأن الكلمة الأخيرة هي الاختصار المجفف المعتاد الذي كان يستخدمه خالي لكلمة «أسرة»، فقد القتني تلك اللوحة الموئة في بحران من حيرة، لكن بعد أن أقمت في بيته فترة وجيزة من الزمن، بدأ ذلك الاختصار يبدو لي مناسباً، نظراً لأن أسرة مصطفى عزيز كانت، في الواقع حشرية منسحقة وتافهة تماماً مثلما يوحي به الاختصار الذي استخدم للدلالة عليها.

بأية كلمات استقبلني القوم حين قرعت الجرس ببعض العصبية، كلي أمل بأن ابتدئ حياة جديدة؟ أي وجه ظهر خلف الباب الخارجي المشرط بالأسلاك ثم تجهم في حال من الدهشة والغضب؟ بادما: لقد استقبلتني زوج خالي مصطفى، الخالة المجنونة سونيا، هاتفة بكل ما في نفسها من تعجب: «أوف! الله! كم رائحة الفتى كريهة!». ورغم أنني حييتها متملقاً: «مرحباً، سونيا، خالتي العزيزة». وكشرت بابتسامة متذللة بوجه ذلك الجمال الإيراني المتغضن الذي تمثله زوج خالي ذات الصورة المظللة بالشبك السلكي، فقد تابعت: «سليم، أهو أنت؟ إنني أتذكرك. فقد كنت ولداً ضئيلاً وسخاً. وكنت دائماً أفكر أنك ستكبر لتكون إلهاً أو شيئاً من هذا القبيل. وما السبب؟ رسالة غبية من سكرتير مساعد رقم ١٥ لرئيس وزراء كان عليه أن يرسلها إليك». في تلك المقابلة كان علي أن أتمكن من التكهن بدمار خططي، كان ينبغي أن أشم، من رائحة الخالة المجنونة، تلك الروائح الواضحة التي تنبعث من جسد الموظفين المدنيين، والتي ستفشل كل محاولاتي للحصول على موضع في

العالم. لقد جاءتني رسالة ذات يوم، أما هي فلا، وقد جعلنا ذلك أعداء مدى الحياة. لكن كان ثمة باب ينفتح، وروائح ثياب نظيفة وحمامات ساخنة. وعجزت بفضل الإشفاقات الصغيرة عن التدقيق بروائح الخالة القاتلة.

كان خالي عزيز، بشاربه الذي كان مشمعاً فخوراً ذات مرة، والذي لم يستعد عافيته بعد عاصفة الغبار التي أصابته بالشلل أيام تدمير إقطاعة ميثولد، قد تجاوزه من هو أدنى منه لاستلام رئاسة دائرته أكثر من سبع وأربعين مرة، وكان أخيراً قد وجد عزاءه عن عدم صلاحيته تلك في جلد أولاده، وفي الثرثرة ليلاً عن: كيف أنه كان ضحية للتعصب المضاد للإسلام وفي الإخلاص المطلق إنما المناقض لحكومة الوقت الحاضر، وفي الهاجس الذي سيطر عليه حول علم السلالات الذي كان هواية من هواياته فقط لكنه كان أشد وطأة حتى من رغبة أبي، أحمد سيناء، تلك الرغبة القديمة العهد في أن يبرهن على أنه ينحدر من صلب أباطرة المغول. وفي أول عزاءاته كانت قد انضمت إليه، وبملء إرادتها، زوجته سونيا نصف الإيرانية (الخراسانية المولد) التي كانت تود أن تكون اشتراكية والتي دفعها إلى الجنون المؤكد حياة كل ما يطلب منها فيها أن تصير «تشاشا» ومعناها حرفياً «ملعقة» لكن مجازياً «مداهنة» لسبع وأربعين زوجة منفصلة ومتعاقبة من زوجات رؤساء زوجها اللواتي كان سلوكها المتسم بالتنازل والتعطف قد أبعدهن عنها حين لم يكنّ زوجات رؤساء، وتحت مطارق خالي وزوجه الشديدة كان أبناء خالي قد تحولوا إلى عجينة لينة مختلطة إلى درجة لم يكن باستطاعتي أن أتذكر رقم واحدهم أو جنسه أو طوله وعرضه أو ملامحه، وبالطبع، كانت شخصياتهم قد توقفت منذ زمن طويل عن الوجود. في منزل خالي مصطفى، كنت أجلس واجماً تماماً بين أولاده المسحوقين كالذرات، أصغي إلى مناجياته الليلية التي تناقض نفسها باستمرار، مغيراً اتجاهي ألف مرة بين كراهيته لعدم ترقيته وبين إخلاصه القلبي الأعمى لكل عمل من أعمال رئيسة الوزراء. فلو طلبت أنديرا غاندي منه أن ينتحر، لعزا خالي مصطفى ذلك إلى التعصب المعادي للإسلام، ولدافع في الوقت نفسه عن شرعية الطلب وقانونيته وبالتالي، لنفذ الأمر دون أن يجرؤ (أو يرغب حتى) بأن يحتج.

أما بخصوص علم الأنساب والسلالات: فقد كان الخال مصطفى يقضي كل أوقات فراغه وهو يملأ كتباً ضخمة بأشجار عائلات أشبه ببيوت العنكبوت، باحثاً أبداً في أنساب كبرى عائلات البلاد، مخلداً إياها، لكن، ذات يوم من أيام إقامتي لديهم، سمعت الخالة سونيا عن علاّمة متصوف من هاردوور اشتهر بأنه يبلغ من العمر ثلاثمائة وخمسة وتسعين عاماً ولا يزال يذكر نسب كل عائلة براهمانية في البلاد، فزعقت بخالي «حتى في هذا، ستكون رقم اثنين»: لقد أكمل وجود عجوز هاردوور رحلتها وهي تنحدر إلى الجنون، وبذلك اشتد عنفها حيال أولادها إلى أن بلغ نقطة بتنا نتوقع معها حدوث جريمة قتل في كل لحظة، وفي النهاية اضطر خالي مصطفى لأن يحجر عليها، نظراً لأن نوباتها كانت تعكر عليه جو العمل.

إذاً، تلك هي العائلة التي جئت إليها والتي بات وجودها في دلهي يبدو ضرباً من التدنيس لماضي، ففي مدينة تلوح لي ملأى بأطياف أحمد وأمينة، وهما في عز الشباب، غدت تلك العائلة التافهة المخيفة أشبه بحشرة تدب على تراب مقدس.

لكن ما ليس في الإمكان البرهان على يقينيته هو أن هوس خالي بالأنساب سيوضع في يوم من الأيام، في خدمة الحكومة التي كانت تسقط شيئاً فشيئاً تحت سحر توأمين متلازمين هما السلطة والتنجيم، حتى أن ما حدث في نزل الأرامل قد لا يكون حدث لولا مساعدته..

لكن لا، أنا خائن أيضاً، ولا يحق لي أن أدين أحداً، بل كل ما أقوله هو أنني رأيت ذات يوم وبين كتبه الشجرية في علم الأنساب مصنفاً جلدياً أسود كتب عليه «سري للغاية» كما كتب عليه العنوان التالي: مشروع م ث ث.

النهاية قريبة ولم يعد ثمة مفر، لكن في الوقت الذي كانت فيه حاشية أنديرا، كما كانت تفعل حاشية أبيها من قبل، تستشير سادة الفنون السرية كل يوم، وفي الوقت الذي كان فيه عرافو بينارسي يقدمون المساعدة لصنع تاريخ الهند، كان علي أن استطرد لاستعادة ذكريات شخصية مؤلمة، ففي منزل خالي مصطفى علمت، على نحو جازم، بموت عائلتي كلها في حرب الـ ٦٥ وكذلك باختفاء جميلة المغنية الباكستانية الشهيرة، قبل قدومي بعدة أيام فقط.

. . . . حين علمت الخالة سونيا أنني كنت أقاتل في الجانب الخاطئ من الحرب، رفضت إطعامي (وكنا على مائدة الغداء) ثم زعقت «يا إلهي، لك وجنة، هل تعلم؟ لكن أليس لك دماغ تفكر به؟ كيف جئت إلى بيت الموظف المدني القديم؟ ـ مجرم حرب آبق! الله! أتريد أن يفقد خالك وظيفته؟ هل تريد إلقاءنا جميعاً في الشارع؟ اخجل على نفسك يا ولد! اذهب، اخرج، أو الأفضل أن نطلب الشرطة ونسلمك إليها. الآن، في هذه اللحظة! اذهب، كن أسير حرب، فلماذا نهتم بأمرك وما أنت حتى بالابن الحقيقي لأختنا الراحلة».

صواعق، واحدة بعد الأخرى: سليم يخشى على سلامته، وفي الوقت نفسه يعلم الحقيقة التي لا مفر منها حول موت أمه كما يعلم أن موقعه أضعف مما يظن، ذلك أن في هذا الجزء من عائلته لم يكن قد تم إعلان مرسوم القبول، وسونيا التي تعرف ما اعترفت به ماري بيريرا، قادرة على فعل أي شيء!. . .

وهكذا أرد بصوت واه «أمي؟ راحلة؟». آنذاك ينبري خالي مصطفى، شاعراً ربما بأن زوجته تمادت كثيراً، ليقول «بنفور»: «لا عليك، سليم، بالطبع، يجب أن يبقى. . . يجب أن يبقى أيتها الزوجة، وإلا ما عساه يفعل؟ المسكين، لا يعرف حتى. . .».

حينذاك أخبروني بالقصة.

لقد حدث لي، في قلب تلك العائلة الحشرية المجنونة، إنني كنت مديناً للموتى بعدد من فترات الحداد، فبعد أن علمت بوفاة أبي وأمي وخالتي علياء وبيا وأميرالدا، وبموت ابن خالتي ظافر وأميرته الكيفية، والأم المبجلة وقريبتي البعيدة زهرة وزوجها، صممت أن أقضي الأيام الأربعمائة التالية في حالة حداد، وذلك بحسب المقتضى والأصول: عشر فترات حداد، كل فترة منها أربعون يوماً، لكن، ظهرت عند ذاك مشكلة جميلة المغنية. .

لقد سمعت باختفائي في مهمة الحرب في بنغلادش، وربما دفعها الخبر إلى ضرب من الجنون، هي التي كانت تعبر دائماً عن حبها حين يفوت الأوان، إذ بدأت جميلة، «صوت الباكستان»، «بلبل الإيمان»، تهاجم الحكام

الجدد لباكستان المقطعة المقسمة، نتيجة الحرب، باكستان التي أكلها العث، بينما كان السيد بوتو يخطب في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة «سنبني باكستان جديدة! باكستان أفضل! بلادي تصغي إلي!». وكانت أختي تسفهه جهاراً، أجل هي البتول النقية، هي أم الوطنية، انقلبت إلى متمردة حين سمعت بنبأ موتي (هذه، على الأقل، الصيغة التي أرى فيها المسألة، فكل ما سمعته من خالي كان حقائق عارية، سمعتها عبر أقنية الدبلوماسية التي لا تهتم كثيراً بنظريات علم النفس) وبعد يومين من تهجمها على مشعلي الحرب اختفت أختي تماماً، وقد حاول خالي أن يتكلم بلطف: «أمور سيئة للغاية تحدث هناك، يا سليم. الناس يختفون باستمرار، وليستر الله من الأعظم».

لا، لا، لا! بادما: إنه على خطأ! جميلة لم تختف في قبضة الدولة، فقد حلمت في تلك الليلة بالذات، إنها وهي متحجبة بذلك البرقع البسيط المعتم، فرت جواً من العاصمة وأنها وصلت إلى كراتشي، حرة طليقة، لم يستجوبها أحد ولم يعتقلها أحد، فاستقلت سيارة أجرة ثم غاصت في أعماق المدينة، والآن ثمة جدار عال ذو أبواب مرتجة وكوة كنت في يوم من الأيام الغابرة، أستلم من خلالها الخبز، الخبز المتخمر الذي تحبه أختي، أجل هناك هي في الداخل تحظى بالأمان، إذ ما إن ارتجت الأبواب خلفها، حتى أبدلت برقعاً ببرقع، وهناك الآن أم مبجلة أخرى، فجميلة المغنية التي كانت ذات يوم، وهي لا تزال قردة نحاسية تتودد إلى المسيحية، جميلة هذه تجد ضالتها من سلام وطمأنينة نفس بين كاهنات دير يدعى سانتا أغناسيا... نعم، هي هناك، سالمة آمنة، لم تغيّب، ليست في قبضة الشرطة الذين يرفسون، يضربون، يميتون جوعاً، ليست في قبر مجهول المعالم إلى جانب هندوسي، بل هي حية ترزق، تخبز الخبز، تغني بصوتها العذب للراهبات المحتجبات، أنا أعلم أنا أعلم. لكن كيف أعلم؟ الأخ يعلم، وهذا كل شيء.

الإحساس بالمسؤولية يهاجمني مرة أخرى: ولا مفر من تحملي المسؤولية ـ فسقوط جميلة كان، كالعادة، بسببي.

في منزل السيد مصطفى عزيز أقمت أربعمائة وعشرين يوماً... كان

سليم في فترة حداد مطول على موتاه، لكن، لا تفكري لحظة واحدة يا بادما أن أذني كانتا مسدودتين، لا تظني أنني لم أسمع ما كان يدور حولي، لم أسمع الشجارات المتكررة بين الخال وزوجه (التي ربما ساعدته في اتخاذ قراره بإرسالها إلى مصح عقلي): إذ كانت سونيا عزيز تصرخ: «ذلك الشخص القذر الوسخ، ليس ابناً لأختك حتى، أنا لا أدري ما دهاك، عليك أن تلقيه في الخارج». فيرد مصطفى بهدوء: «ولد مسكين أذهله الأسى والحزن، فكيف تراني ألقي به؟ عليك فقط أن تنظري إليه فهو ليس على ما يرام، عقله ليس كما ينبغي، هو الذي عانى من المصاعب وشاهد الأهوال». «عقله ليس كما ينبغي!» ذلك كان أمراً إداً يصدر عنهم ـ عن تلك العائلة التي قد تبدو عشيرة همجية من أكلة لحوم البشر بمنتهى اللطف والمدنية بالمقارنة معها! فلماذا سكت؟ لأنني رجل في رأسه حلم ما. لكن طيلة أربعمائة وعشرين يوماً، أبى الحلم أن يتحقق.

فخالي مصطفى ذو الشاربين المتهدلين، الطويل إنما المنحني الظهر، خالي الرقم اثنين دائماً، لم يكن خالي حنيف. بل هو رأس العائلة الآن، الوحيد من جيله الذي بقي على قيد الحياة بعد كارثة ١٩٦٥، لكنه لم يمد لي يد العون البتة... لقد توجهت إليه ذات مساء قارس البرد وهو في مكتبه المليء بكتب أنسابه ثم شرحت له ـ برصانة مناسبة وإشارات من يدي متواضعة إلا أنها مصممة ـ رسالتي التاريخية في إنقاذ الأمة من مصيرها لكنه اكتفى بالتأوه ثم قال: «اسمع، سليم، ما تبتغي مني أن أفعل؟ إنني أؤويك في منزلي، أطعمك وأسقيك، وأنت لا تفعل شيئاً. لكن لا بأس، فأنت من بيت أختي الراحلة وعلي أن أرعاك. إذاً، امكث هنا، خذ راحتك، اعتن بنفسك، ثم دعنا نرَ ما تجيء به الأيام. أنت ترغب في عمل مكتبي أو شيء من هذا القبيل، ربما أستطيع تأمين ذلك لك، لكن دع تلك الأحلام التي لا يعلم إلا الله ما هي. بلادنا في أيد أمينة. السيدة أنديرا تقوم فعلاً بإصلاحات جذرية ـ إصلاح زراعي، إصلاح ضريبي، تعليم، تحديد نسل- فدع الأمر لها ولحاشيتها». اعذريني يا بادما! فقد تصرفت وكأنني طفل أهبل؟ يا للعار! يا للخزي!

عند كل منعطف أجد من يصدني. نبيٌّ في مجهل من المجاهل كمسيلمة، كابن سنان. ما أكثر ما حاولت الخروج من تيهي لكن عبثاً، فالصحراء قدري. آه يا للتخلي الذي يقابلني به أخوال يلحسون بصاقهم! يا لتقييد المطامح من أقرباء مثبطين للهمم! فرفض خالي لأن يتبنى حججي كان له أثر خطير واحد: إذ بقدر ما كان يثني على أنديرا، كان كرهي لها يزداد ويشتد. الحقيقة أنه كان يهيئني للعودة إلى حي السحرة، كان يهيئني لـ. . .ولـ. . . . . ولها. . هي الأرملة. الغيرة: تلك هي المسألة، غير الخالة المجنونة سونيا، تلك الغيرة الهائلة التي كانت تقطر كالسم في أذني خالي، لتمنعه من فعل شيء واحد يجعلني أبدأ الطريق الذي اخترته لنفسي. ودائماً يجد العظماء أنفسهم تحت رحمة الصغار من الرجال، وكذلك التافهات المجنونات.

في اليوم الثامن عشر بعد الأربعمائة لإقامتي، طرأ تغير ما على جو منزل المجانين. شخص ما جاء إلى الغداء: شخص ذو كرش ممتلئ ورأس مستدق مغطى بخصل تلمع بزيت الشعر وشفتين لحميتين كشفري امرأة، فكرت في سري أنني أعرفه من صور الجرائد. وهكذا التفت إلى واحد من أبناء خالي الذين لا عمر لهم ولا جنس ولا وجه، ثم سألته باهتمام بالغ: «أليس سانجاي غاندي بحسب علمك؟». لكن ذلك المخلوق المسحوق كان مسحوقاً أكثر من أن يستطيع الرد. . .

أكان هو أم لم يكن؟ في ذلك الحين، لم أكن أعلم ما أسجله الآن وهو: أن بعض كبار الشخصيات في تلك الحكومة الخارقة للعادة (وكذلك بعض الأبناء غير المنتخبين لرؤساء وزارات) كانوا قد اكتسبوا القدرة على مضاعفة أنفسهم، على التكاثر التلقائي. . . فبعد بضع سنوات، ستكون هناك عصابات من السانجايات في كافة أرجاء الهند. ولا عجب أن تلك السلالة غير المعقولة كانت ترغب في فرض تحديد النسل علينا نحن. . . إذاً، ربما كان هو، وربما لا، لكن شخصاً ما غاب مع خالي مصطفى في مكتبه، وفي تلك الليلة ـ اختلست نظرة ـ وكان هناك مصنف جلدي أسود مقفل كتب عليه «سري للغاية» وكذلك «مشروع م ث ث».

في الصباح التالي راح خالي ينظر إلي نظرة مختلفة، نظرة خوف تقريباً، أو نظرة اشمئزاز، تلك النظرة الخاصة بالموظفين المدنيين والتي يحتفظون بها لمن تزل به قدمه في سياق خدمته الوظيفية. كان علي أن أعلم حينذاك ما يخبئه لي القدر، لكن الأمور تبدو دائماً بسيطة حين تنظر إليها بعد أن تمر، بادراك مؤخر. الإدراك المؤخر يجيء إلي الآن، وقد فات الأوان، الآن وقد ألقي بي أخيراً إلى زوايا النسيان، الآن وقد انفصمت كل الروابط ما بين حياتي وحياة أمتي، بكل ما فيها من خير وشر.. وهكذا، لكي أتحاشى نظرة خالي التي لا تفسير لها، خرجت إلى الحديقة فرأيت بارفاتي الساحرة.

كانت بارفاتي تجلس القرفصاء على الرصيف وسلة الإخفاء إلى جانبها. حين شاهدتني لمعت عيناها باللوم والتعنيف. «لقد قلت إنك ستأتي، لكنك لم تأت، لذلك جئت!».

قالت متلعثمة، فطأطأت رأسي ثم قلت بصوت واه «كنت في حالة حداد». فردت: «لكن يظل بإمكانك أن ـ يا إلهي! سليم، أنت لا تعلم، ففي منطقتنا، لا يسعني أن أقول شيئاً عن قدراتي الحقيقية في السحر، لا، أبداً، ولا حتى لبيكتشر سينغ الذي هو أشبه بأب. إذ يتعين علي أن أخفي كل شيء عنه، أخفيه في زجاجة وأسدها، فهم لا يؤمنون بأشياء كهذه، لذلك فكرت، ليأت سليم إلى هنا، أخيراً سيكون لي صديق يمكننا أن نسير معاً، أن نكون معاً، فكلانا كنا، وكلانا يعرف، أوه! سليم، كيف أقول ذلك؟ أنت لا تبالي. لقد حصلت على ما أردت، ثم ابتعدت غير عابئ بي، أنا لا أساوي شيئاً في نظرك، فأنا أعلم...».

في تلك الليلة، كانت الخالة المجنونة سونيا، التي لم يكن قد مضى على فرارها من المصح (وقد ورد ذلك، في الصحف، خبراً صغيراً على صفحة داخلية، كي لا يتأثر خالي في دائرته). أقول كانت الخالة قد أصيبت بواحدة من نوباتها الشديدة واندفعت إلى داخل غرفة النوم التي كان شخص آخر ذو عينين صحنيتين قد صعد إليها قبل نصف ساعة فقط عبر نافذة الطابق الأرضي، فوجدتني في السرير مع بارفاتي الساحرة. بعد ذلك فقد خالي مصطفى اهتمامه بحمايتي قائلاً: «أنت من صلب سافل وستبقى سافلاً ما

حييت». وهكذا في اليوم العشرين بعد الأربعمائة على قدومي إلى منزل خالي، غادرته، محروماً من كل رابطة عائلية.

أجل عدت أخيراً إلى تلك التركة الحقيقية للفقر والحرمان التي ابتعدت عنها زمناً طويلاً نتيجة جرم ارتكبته ماري بيريرا. كانت بارفاتي الساحرة تنتظرني على الرصيف، لم أقل لها إنه انتابني شعور بالسرور للمقاطعة التي تعرضنا لها، إذ إنني حين قبلتها في ظلمة منتصف الليل السري ذاك رأيت وجهها يتغير، يصبح وجه حب محرم، يكتسي الملامح الشبحية لجميلة المغنية بدلاً من ملامح الفتاة الساحرة. جميلة التي كانت (كما أعلم) تختبئ بأمان في دير من أديرة كراتشي، جاءت فجأة إلى هنا، جاءت بكل ما فيها، ما عدا أنها كانت قد مرت بتحول كئيب فقد بدأت تتعفن. أرضة الحب المحرم وآفاته كانت تنتشر على وجهها، تماماً مثلما كان وجه يوسف ديكوستا قد تعفن ذات يوم وهو في قبضة جذام الإثم الخفي. إذاً كانت أزهار الحرام الزنخة قد أزهرت آنذاك على ملامح أختي الشبحية، ولم أستطع تقبيلها، لم أستطع فعل ذلك، لم أستطع ملامستها أو النظر إلى ذلك الوجه الشبحي الذي لا يحتمل، وقد كنت على وشك الانتفاض مبتعداً مع صرخة حنين وعار يائسين حين اندفعت سونيا عزيز منقضة علينا بزعيقها وضوئها الكهربائي.

أما مصطفى، فربما لم يكن ما اقترفته يداي مع بارفاتي، في نظره أكثر من ذريعة مفيدة للتخلص مني، لكن ينبغي أن يبقى ذلك موضع شك، إذ إن المصنف الأسود كان مقفلاً عليه ـ وكل ما ينبغي أن أتابعه هو نظرة عينه ورائحة الخوف وثلاثة حروف أولية على بطاقة اسم ـ فبعد ذلك، وحين انتهى كل شيء، قضت سيدة سقطت من علٍ وابنها ذو الشفتين الشفريين، يومين بطولهما ـ خلف الأبواب المقفلة، يحرقان مصنفات، وأنى لنا أن نعلم إن كان واحد منها يحمل بطاقة عليها م ث ث أم لا؟

على أية حال، لم أكن أرغب بالبقاء. فالعائلة: فكرة مبالغ بتقديرها. لا تحسبي أنني حزين، لا، فأنا لم أتصور لحظة واحدة أنني شعرت بغصة حين طردت من آخر منزل كريه يفتح لي أبوابه، بل أقول لك ـ إنني كنت في حالة معنوية مرتفعة حين غادرت... لعل هناك شيئاً غير طبيعي بي، افتقاراً أساسياً

للاستجابة العاطفية، لكن أفكاري تطمح دائماً نحو الأسمى. ومن هنا تنبع مرونتي، قدرتي على التكيف. اضربيني أرضاً: أنط عائداً إليك (لكن لا جدوى من أية مقاومة للصدوع).

قصارى القول أنني: بالتخلي عن آمالي الغريرة الأولى في أن أجد مكاناً في ميدان الخدمة العامة، عدت إلى حي السحرة وظلال مسجد الجمعة. لقد تخليت، شأني شأن غوتاما، البوذا الأول والحقيقي، عن حياتي وأسباب راحتي ومضيت إلى عالم المتسولين. كان ذلك في الثالث والعشرين من شباط عام ١٩٧٣ وفي اليوم عينه تم تأميم مناجم الفحم وتجارة الحبوب، كما بدأ سعر الوقود يرتفع ويرتفع ويرتفع ولم ينته العام حتى تضاعف أربع مرات. أما الحزب الشيوعي الهندي فقد غدا الانشقاق فيه ما بين دانج التابعة لموسكو وجماعة نامودريباد صدعاً يتعذر رأبه، وكنت أنا، سليم سيناء، مثال الهند، قد بلغت من العمر خمسة وعشرين عاماً وستة أشهر وثمانية أيام.

كان السحرة شيوعيين، بقضهم وقضيضهم تقريباً. وهذا صحيح: إنهم حمر! عصاة، يشكلون خطراً عاماً، نفاية الأرض، جماعة من الكفرة الملاحدة يعيشون في ظل بيت الله ذاته. بلا حياء ولا خجل، والأنكى من ذلك، أنهم يصطبغون بلون البراءة القرمزي، إذ ولدوا وقد تلطخت نفوسهم بالدم! لكن دعيني أقل في الحال إنني ما إن اكتشفت هذا حتى شعرت، أنا الذي تربيت على المذهب الحقيقي الآخر للهند، ذاك الذي يمكننا أن ندعوه باسم «نزعة العمل» والذي تخليت عنه وتخلى عني من خلال اتباعه، شعرت على الفور بالراحة والطمأنينة وكأني في بيتي. وكرجل أعمال مرتد، بدأت بحماسة شديدة انقلب أحمر فأكثر احمراراً، تماماً مثلما انقلب أبي في الماضي أبيض. بحيث أنني بت أنظر إلى رسالتي، رسالة إنقاذ البلاد، من منظور جديد تماماً أوحت به مناهج أكثر ثورية. وليسقط حكم الأخوال غير المتعاونين وزعمائهم المحبوبين! وهكذا أقمت، مشبعاً بأفكار الاحتكاك المباشر بالجماهير، في مستوطنة السحرة، أكسب رزقي بتسلية السياح الأجانب والوطنيين بما يتمتع به أنفي من حدة عجيبة في الشم جعلتني قادراً على شم أبسط وأدق أسرارهم السياحية. وقد طلبت إلى بيكتشر سينغ أن

أشاركه كوخه. فكنت أنام على خرقة كيس ممزقة بين السلاسل التي تفح منها الأفاعي، لكنني لم أبال قيد أنملة فقد وجدت نفسي قادراً على تحمل الجوع والعطش والبعوض. (وفي البداية) القرس اللاذع لشتاء دلهي. كان بيكتشر سينغ ذاك، أعظم ساحر في العالم، هو زعيم الحي بلا منازع. فكافة القضايا والمشكلات تحل تحت مظلته السوداء الضخمة التي تغطي الحي كله فأصبحت أنا الذي كنت أقرأ وأكتب وأشم، أشبه بمساعد ميداني لهذا الرجل البارز الذي كان يضيف على الدوام محاضرة من الاشتراكية على عروضه الافعوانية والذي كان مشهوراً في شوارع المدينة الرئيسية وأزقتها الضيقة بمهاراته الأخرى التي تتعدى مهاراته كحاوي ثعابين. ويمكنني القول بيقين مطلق إن بيكتشر سينغ كان أعظم رجل قابلته في حياتي.

عصر يوم من الأيام، وخلال القيلولة، زار الحي شخص هو نسخة أخرى عن ذلك الشاب ذي الشفتين ـ الشفرين الذي رأيته في منزل خالي مصطفى. هناك، وقف على سلم المسجد ونشر راية رفعها حينذاك اثنان من مساعديه. فقرأت: «القضاء على الفقر». وكانت الراية تحمل رمز انديرا وهو عجل يرضع بقرة. كان وجهه يشبه كثيراً وجه العجل المكتنز، وكان يطلق أعاصير من رائحة الفم الكريهة وهو يتكلم: «أيها الأخوة والأخوات! ماذا يقول لكم حزب المؤتمر؟ إنه يقول ما يلي: الناس سواسية كأسنان المشط». لكنه لم يتعد ذلك: فتراجع الناس مبتعدين عن بخر أنفاسه الأشبه ببخر منبعث من روث ثور تحت شمس حارة، فشرع بيكتشر سينغ يقهقه «ها، ها، يا رئيس، جيد جداً يا سيدي». لكن ذا الشفتين ـ الشفرين تابع ببلاهة: «حسناً، يا أخ، أنت يا أخ ألا تريد أن تشاركنا النكتة؟». فهز بيكتشر رأسه ممسكاً بخاصرتيه: «يا لها من خطبة أيها الرئيس! خطبة عصماء وأيم الله؟». وانطلقت قهقهاته من تحت مظلته لتنتشر إلى الحشد كله. وهكذا طفقنا جميعاً نتدحرج على الأرض ونضحك: كنمل منسحق، نتعفر بالتراب، بينما ارتفع صوت عضو المؤتمر الأشبه بعجل الراية وقد استبد به الهلع: «ما هذا! ذلك الرجل لا يؤمن بأن الناس سواسية! إذاً أية أفكار دنيئة يحمل...». لكن في تلك اللحظة، كان بيكتشر سينغ، ومظلته فوق رأسه، يوسع الخطى باتجاه

كوخه. فتابع الرجل ذو الشفتين ـ الشفرين خطابه وقد تنفس الصعداء. . . لكن بعد برهة وجيزة، عاد بيكتشر وهو يحمل تحت إبطه الأيسر سلة صغيرة مستديرة مغطاة وتحت إبطه الأيمن شبابة خشبية. ثم وضع السلة على درجة السلم بجوار قدم الخطيب ورفع الغطاء ثم وضع الشبابة بين شفتيه. وفي غمرة الضحك المتجدد، رأى الحشد السياسي الشاب وهو ينط نصف متر في الهواء حيث بدأت أفعى من أفاعي الكوبرا الملكة تتمايل ناعسة رافعة رأسها. . . . . ذو الشفتين ـ الشفرين يصرخ: «ماذا تفعل؟ تحاول قتلي؟». بينما يتابع بيكتشر سينغ العزف وقد طوى مظلته متجاهلاً الرجل تماماً، ثم يعزف على نحو أعنف وأعنف بينما تفك الأفعى التفافاتها وتتمايل أكثر فأكثر طبقاً للسرعة التي يعزف بها بيكتشر موسيقاه إلى أن تملأ موسيقى الشبابة كل ركن وصدع في الحي مهددة بقشر جدران المسجد. وفي النهاية تقف الأفعى الكبيرة، وهي معلقة بالهواء لا يسندها إلا سحر الأنغام، تقف على ارتفاع تسع أقدام خارج السلة وترقص على ذنبها. . . ثم يرق بيكتشر ويلين فترجع الناغاراجي إلى التفافاتها، ويقدم الرجل الأشد سحراً في العالم شبابته إلى الفتى، عضو المؤتمر قائلاً: «حسناً يا رئيس، قم بمحاولة معها». لكن صاحب الشفتين ـ الشفرين يقول: «يا رجل، أنت تعلم أنني لا أستطيع القيام بذلك». عند ذاك يقبض بيكتشر سينغ على الكوبرا من عنقها تماماً ثم يفتح فمها على أقصى سعة له كاشفاً عن خلوه من الأنياب واللثتين ثم يغمز بعينه اليسرى فتى المؤتمر ويدخل رأس الأفعى ذات اللسان المتحرك في فوهته المنفتحة على نحو بغيض! وتمر دقيقة كاملة قبل أن يعيد بيكتشر سينغ الكوبرا إلى سلتها! ثم يقول بلطف بالغ للفتى: «أنت ترى، يا رئيس، هنا حقيقة المسألة: فهناك أشخاص أفضل وأشخاص أسوأ. لكن قد يكون من الحسن بالنسبة إليك أن تفكر على نحو آخر».

لقد تعلم سليم سيناء، من رؤيته لهذا المشهد، أن بيكتشر سينغ والسحرة أناس يقبضون على الواقع قبضة شديدة ومطلقة حتى أنه كان باستطاعتهم أن يوجهوه الوجهة التي تخدم فنونهم، لكنهم لم ينسوا قط أي واقع هو.

كانت مشكلات حي السحرة نسخة أخرى عن مشكلات الحركة الشيوعية في الهند، فضمن حدود مستوطنتهم، كان يمكن أن تجد، على نحو مصغر، الانقسامات والانشقاقات الكثيرة التي عانى منها الحزب في البلاد. لكن سأعجل فأضيف، أن بيكتشر سينغ كان فوق هذه الانقسامات جميعاً، بطريرك الحي وصاحب المظلة التي يمكن لظلها أن يعيد التناغم للتحزبات المتصارعة، بيد أن النزاعات التي شهدتها مظلة حاوي ـ الأفاعي غدت تشتد أكثر فأكثر مع انحياز المشعوذين، مخرجي الأرانب من القبعات، انحيازاً متعصباً لخط السيد دانج الرسمي التابع لموسكو، الذي وقف لمؤازرة السيدة غاندي في فترة الطوارئ كلها، غير أن البهلوانات بدأوا يميلون أكثر فأكثر نحو اليسار، نحو الجناح الصيني. أما أكلة النار وبالعو السيوف فقد كانوا يحبذون تكتيك حرب العصابات الذي تتبعه حركة ناكساليت، بينما كان المنومون المغناطيسيون والذين يمشون على جمر الفحم معجبين ببيان نامبودريباد (لا موسكو ولا بكين) ويستنكرون العنف الذي تطرحه حركة ناكساليت. كما كانت هناك تيارات تروتسكية بل حتى «شيوعية ـ من ـ خلال ـ صندوق الاقتراع» بين الأعضاء المعتدلين من الحركة. لقد دخلت الوسط الذي كانت فيه موهبتنا الوطنية بالانقسام والتشرذم، رغم أن التعصب الديني والإقليمي كان غائباً تماماً، قد وجدت منافذ لها. فقد قال لي بيكتشر سينغ بكثير من الأسى إنه خلال انتخابات ١٩٧١، حدثت جريمة قتل غريبة نتيجة مشاجرة بين آكل نار من حركة ناكساليت وساحر تابع لخط موسكو حاول بعد أن أثارته آراء الآخر، أن يسحب مسدساً من قبعته السحرية، لكن ما إن أبرز المسدس حتى كان نصير هو شي منه قد صب على خصمه سيل لهب مخيفاً أودى به.

من تحت مظلته، كان بيكتشر سينغ يتحدث عن الاشتراكية التي لا تدين بشيء للتأثيرات الأجنبية «اسمعوا، يا سادة!». كان يقول مهاجماً المتكلمين من بطونهم ومشعوذي الدمى: «هل ستذهبون إلى قراكم كي تتحدثوا عن ستالين وماو؟ هل يهتم فلاحو تاميل وبيهاري قيد شعرة بمقتل تروتسكي؟». وكانت قيلولة مظلته السحرية تبرد أشد العظاءات حراً، فمن تأثيرها علي أنها

أقنعتني بأن حاوي الأفاعي بيكتشر سينغ سيحل به في يوم جد قريب ما حل بميان عبد الله قبل سنوات عديدة وأنه، شأنه شأن الطنان الأسطوري، خلافاً لذلك البطل أيام جدي، لن يظل إلى أن يأتي اليوم الذي يحقق النصر فيه لقضيته... لكن... لكن، ودائماً لكن فما حدث حدث وكلنا نعلم ذلك.

قبل أن أعود لسرد قصة حياتي أود أن يكون في علم الجميع أن بيكتشر سينغ هو الذي كشف لي أن الفساد الاقتصادي «الأسود» في البلاد يستشري بقدر استشراء التنوع الرسمي «الأبيض»، وقد فعل ذلك بأن عرض علي صورة صحافية للسيدة غاندي، فشعرها ذو الفرق النصفي، كان أبيض كالثلج من جانب وأسود كالليل من جانب آخر، بحيث إنها، وطبقاً للجانب الذي يبدو منها، كانت تشبه قاقوماً[1] أوروبياً أو قاقوماً هندياً. عودة جديدة يعودها الفرق ـ النصفي إلى التاريخ. وكذلك اقتصاد يماثل طراز ـ شعر رئيسة الوزراء... غير أنني أدين بهذه المفاهيم الهامة للساحر الأعظم في العالم. فبيكتشر سينغ هو الذي أخبرني أن ميشرا وزير السكك الحديد هو أيضاً وزير الرشوة المعين لهذا الغرض، والذي تعقد من خلاله أكبر الصفقات في الاقتصاد «الأسود» وترتب «الدفعات» للوزراء المسؤولين المختصين. ولولا بيكتشر سينغ ما كنت لأعلم شيئاً عن تثبيت ـ الاقتراع في انتخابات ـ ولاية كشمير. لكنه لم يكن من محبي الديمقراطية «ألا لعنة الله على قضية الانتخابات هذه يا رئيس» قال لي ذات مرة «فحيثما تضع قدمها، يحدث أمر فظيع، رجالنا يتصرفون وكأنهم مهرجون» وقد فشلت، تتملكني حمى الثورة، في أن أجادل معلمي.

كان ثمة، بالطبع، بعض الاستثناءات من قواعد الحي: فقد احتفظ واحد أو اثنان من المشعوذين بإيمانهما الهندوسي، وفي السياسة، كانا يناصران حزب جانا سانغ أو متطرفي أناندامارغ السيئ السمعة، كما كان بين المشعوذين أيضاً مناصرون لسوانتارا. أما السيدة العجوز ريشام بيبي، واسمحوا لي أن أبتعد قليلاً عن السياسة، فقد كانت واحدة من قلة ممن

---

(١) حيوان من فصيلة بنات عرس.

يضمهم الحي والذين ظلوا خياليين لا أمل بشفائهم يؤمنون (مثلاً) بالأسطورة التي حرمت على النساء صعود أشجار المانغا لأن شجرة المانغا التي تعلوها امرأة في يوم من الأيام تحمل ثماراً حامضة منذ تلك اللحظة وإلى الأبد. . . كذلك كان هناك الدرويش الغريب المعروف باسم تشيستي خان الذي كان وجهه أملس لامعاً إلى درجة يتعذر معها أن يعرف أي ابن انثى إن كان في التاسعة عشرة من عمره أم في التسعين، وكان قد أحاط كوخه بسياج أسطوري من قضبان الخيزران ومزق الورق ذات الألوان الزاهية بحيث كان بيته يبدو أشبه بنسخة مصغرة متعددة الألوان عن القلعة الحمراء المجاورة. وحين تعبر بوابته الواطئة، حينها فقط تدرك أن خلف السياج المزوق الزاهي الألوان ذاك كان يختفي كوخه المصنوع من التنك والورق المقوى والذي يشبه أكواخ الآخرين. كان تشيستي خان يمارس الانحراف المطلق وذلك بسماحه لخبرته في الشعوذة أن تصيب حياته بالعدوى. ولم يكن محبوباً في الحي. إذ كان السحرة يبقون على منأى منه، خشية أن تصيبهم أحلامه بالعدوى.

هكذا إذاً تدرك لماذا أبقت بارفاتي الساحرة، صاحبة قدرات السحر العجيبة الحقيقية، قدراتها تلك طي الكتمان طيلة حياتها، إذ لم يكن يغفر لها أحد ممن حولها سر الموهبة التي منحها إياها منتصف الليل، لا لشيء إلا لأنهم ينكرون على الدوام مثل هذه المواهب واحتمالات وجودها.

في الجانب المصمت من مسجد الجمعة، حيث لم يكن ثمة سحرة ولم يكن من خطر سوى خطر الباحثين عن الأنقاض والصناديق الخشب أو متصيدي التنك المموج. . . هناك أرتني بارفاتي الساحرة، الحادة كالخردل، ما تستطيع فعله، ففي كوخ متواضع مبني من بقايا عشرة أكواخ أخرى، قدمت لي ساحرة منتصف الليل بعينيها الشبيهتين بصحني فناجين قهوة، وجديلتها الأشبه بذنب الحصان وشفتيها الحمراوين الطريتين المكتنزتين عروضها بحمية وحماسة الطفل. ولم أكن لأقاومها طويلاً لولا الوجه، العينان المتلاشيتان المريضتان الأنف الشفتان. . . ـ في البداية خيل إلي أنه لا حدود لقدرات بارفاتي (إنما كان العكس هو الصحيح). حسن، إذاً، هل أغوت الشياطين؟ هل ظهر الجن، عارضين الثروات والرحلات فيما وراء البحار على بساط

ريح؟ هل انقلبت الضفادع أميرات والحجارة جواهر؟ هل حدث بيع أرواح ونشور موتى؟ لا، ليس ذلك قط. فالسحر الذي قدمت لي بارفاتي عرضاً منه ـ السحر الوحيد الذي كانت ترغب في تقديمه ـ إنما كان من النوع المعروف بالسحر الأبيض.. إذ بدا وكأن «الكتاب السري» البراهماني، كتاب الأتارفا فيدا، قد باح بكل أسراره لها، فكان باستطاعتها أن تشفي المرض وتقضي على السم (وللبرهان على ذلك، كانت تجعل الأفاعي تلدغها وتقاوم السم بتوجيه صلاة طقسية غريبة لإله الأفاعي تاكشازا)، كما كان باستطاعتها أن تشفي القروح، وكذلك كانت تعرف سحر السراكتيا وطقوس الشجرة، ولقد كشفت لي هذا كله، في سلسلة من العروض الليلية الخارقة وتحت جدران المسجد، لكنها كانت لا تزال شقية.

وكالعادة أنا مضطر لتحمل المسؤولية، فرائحة الأسى التي كانت تحوم حول بارفاتي الساحرة إنما كانت من صنعي. ذلك أنها كانت في الخامسة والعشرين من العمر وكانت تبتغي مني أكثر من أن أكون جمهورها. الله وحده يعلم السبب، لكنها كانت تريدني في فراشها، أو لنكن أكثر دقة، أن أنام معها على تلك الخرقة البالية التي تقوم بدور الفراش في الكوخ الذي كانت تشترك فيه مع عائلة من بهلوانات ثلاث قدمن من كيرالا، وكن ثلاث فتيات يتيمات مثلها ـ يتيمات مثلي.

ما فعلته لي: بقوة سحرها، بدأ الشعر ينمو حيث لم يكن له وجود مذ اقتلعه السيد زاغالو تلك الاقتلاعة الفظيعة، كما أن قوتها السحرية جعلت آثار الولادة التي يحملها وجهي تتلاشى بتأثير الأعشاب الشافية، كذلك بدا أن تقوس ساقي نفسه بدأ يتضاءل تحت رعايتها (لكنها لم تستطع فعل شيء إزاء أذني المعطوبة، إذ ما من سحر على الأرض قادر على إزالة ما يرثه المرء من أبويه). لكن بغض النظر عما فعلته لي فقد كنت عاجزاً عن فعل الشيء الوحيد الذي كانت ترغبه أكثر ما ترغب، إذ رغم أننا كنا نستلقي معاً تحت جدران الجانب المصمت من المسجد، فإن ضوء القمر كان يريني وجهها وهو يتحول دائماً إلى وجه أختي المخفية البعيدة... لا ليس وجه أختي، بل وجه جميلة المغنية المتحجر المشوه تشويهاً فظيعاً.

كانت بارفاتي تدهن جسدها بزيوت مرهمية متشربة بسحر الجنس، كما كانت تسرح شعرها ألف مرة بمشط مصنوع من عظام الغزلان الأفروديتية، كذلك كانت تجرب في غيابي (ولا أشك في ذلك) جميع أشكال السحر التي يمكن تطبيقها على المحبين لكنني كنت أسير فتنة أخرى، ولم يكن بالمستطاع تحريري، على ما يبدو، فقد حكم علي أن أرى وجوه النساء اللواتي يحببنني وقد تحولت إلى ملامح. . . لكنك تعلمين ملامح من كانت تظهر لي، مالئة خيشومي برائحتها الفظيعة الحرام؟

«مسكينة!» تتأوه بادما موافقة بهز من رأسها، لكن ما الجدوى؟ لقد بقيت، إلى أن جففتني الأرملة من كل ماض حاضر مستقبل، وأنا أسير القردة.

أخيراً، حيث اعترفت بارفاتي بالفشل اتخذ وجهها على الفور شكل تبويزة بارزة تنذر بالشر. واستغرقت في نومها في كوخ البهلوانات اليتامى ثم أقامت وقد برزت شفتاها بروزاً فظيعاً في وجهها حتى غدت أشبه بوتد ناتئ من وجه الأرض. أخبرها الثلاثي اليتيم وهو يقهقه بانزعاج، عما حدث لوجهها، فحاولت بحمية شديدة أن تعيد لسيمائها وضعها السابق، لكن لا العضلات ولا القدرات السحرية تمكنت من إعادتها إلى وضعها السابق، وأخيراً اعتزلت بارفاتي نفسها بعيداً عن الجميع كي تنفرد بمأساتها، حتى أن ريشام بيبي راحت تقول لكل من يسمع «تلك الفتاة المسكينة ـ لا بد أن الإله نفخ عليها حتى بات على وجهها تعبير الاشمئزاز ذاك».

(في تلك السنة، وبمحض المصادفة، كانت سيدات المدينة الراقيات جميعاً يتخذن مثل ذلك التعبير مع صبغة جنسية. أرقى عارضات الأزياء في مجلة الأزياء ـ أناقة ٧٣ ـ كان يبدو على وجوههن جميعاً التبويز وهن يخطون على منصات العرض، وفي حي السحرة ذي الفقر المخيف، غدا تبويز بارفاتي الزي الشائع لكل وجه).

لقد كرس السحرة الكثير من طاقاتهم لحل مشكلة بارفاتي وجعلها تبتسم. إذ كانوا يختلسون الوقت، على حساب عملهم، وكذلك على حساب شؤونهم الدنيوية من إعادة بناء لأكواخهم الكرتونية التنكية التي كانت تتطاير

مع الريح، أو قتل الجرذان، لكي يمارسوا أشد خدعهم صعوبة بغية حمل السرور إلى قلبها، لكن دون جدوى.

ريشام بيبي أعدت الشاي الأخضر الذي يفوح بالكافور وصبته في فمها رغماً عنها. غير أن الأثر الوحيد للشاي كان إصابتها بإمساك شديد إلى درجة تعذر عليها طرح فضلاتها طيلة تسعة أسابيع. اثنان من المشعوذين الشبان فكرا بأنها ربما بدأت حدادها على أبيها المتوفى مرة ثانية، فألزما نفسيهما بمهمة رسم صورته على خرقة قماش بالية علقاها فوق حصيرها القماشي. الثلاثي البهلواني راح يصنع الطرائف كما راح بيكتشر سينغ البالغ الحزن، يجعل أفاعيه تعقد نفسها عقداً، لكن لا جدوى. ذلك أنه إذا كان حب بارفاتي المحبط يفوق قدراتها هي على الشفاء، فأي أمل للآخرين في شفائه؟ وهكذا، فقد أوجد تبويز بارفاتي إحساساً من القلق في الحي لا يمكن تحديده، إحساساً عجز حقد السحرة جميعاً على كل ما هو مجهول عن طرده كلياً.

بعد ذلك خطرت في ذهن ريشام بيبي فكرة، فقد قالت لبيكتشر سينغ: «كم نحن حمقى، بلهاء لا نرى أبعد من أنفنا. الفتاة المسكينة في الخامسة والعشرين، أي أنها امرأة كبيرة، بابا! وإنها تحن للزواج!». فتأثر بيكتشر كل التأثر بالفكرة وللتو قال لها مؤيداً: «ريشام بيبي! مخك لم يمت بعد!».

بعدئذ، ألزم بيكتشر نفسه بمهمة إيجاد شاب مناسب لبارفاتي، وللوصول إلى بغيته فقد أغرى الكثير من شبان الحي كما شاكس البعض وهدد البعض الآخر. ولقد قدم بعض المرشحين لبارفاتي لكنها رفضتهم جميعاً. وفي الليلة التي قالت فيها بارفاتي لبسم الله، أكثر آكلي النار في المستوطنة قدرات وأملاً بالنجاح في المستقبل، أن يذهب عنها إلى الجحيم شعر بيكتشر سينغ نفسه باليأس. ففي تلك الليلة قال لي: «رئيس، تلك الفتاة تثير في قلبي الحزن كله، إنها صديقتك الطيبة، فهل لديك أية فكرة لمعالجتها؟». وحينذاك خطرت له فكرة، كان ينبغي أن تنتظر في ثنايا دماغه إلى أن يصيبه اليأس، ذلك أن بيكتشر نفسه كان متأثراً بالاعتبارات الطبقية أي بصورة آلية، كان يحسبني «مناسباً جداً» لبارفاتي، بسبب منبتي الطبقي

«الأرفع»... إذ لم يكن ذلك الشيوعي المتقادم في السن قد خطر بباله حتى ذلك الحين أني قد أكون... وهكذا سألني بيكتشر سينغ بشيء من الخجل «قل لي يا رئيس، هل في نيتك الزواج يوماً من الأيام؟» فشعر سليم سيناء بالخوف يتصاعد في نفسه «.. هيه، اسمع، يا رئيس، أنت تحب الفتاة آ؟» فقلت، وأنا عاجز عن الإنكار «بالطبع» حينذاك، ابتسم بيكتشر ابتسامة عريضة امتدت من أذنه اليمنى إلى اليسرى، بينما كانت الأفاعي تفح في السلال «تحبها كثيراً يا رئيس! كثيراً، كثيراً؟» لكنني كنت شارداً مع وجه جميلة في الليل، فاتخذت قراراً يائساً «بيكتشر، ليس باستطاعتي أن أتزوجها»: فرد وقد عبس أشد العبوس: «لعلك تزوجت من قبل، يا رئيس؟ ربما لديك زوجة وأطفال ينتظرونك في مكان ما؟». ولم أجبه على ذلك بل قلت بهدوء وشعور شديد بالخزي: «لا أستطيع الزواج من أحد، يا بيكتشر، لا يمكنني أن أنجب أطفالاً».

فخيم سكوت في الكوخ لم يقطعه سوى فحيح الأفاعي ونباح الكلاب البرية في الليل.

«أهذه هي الحقيقة يا رئيس؟ أهي حقيقة طبية؟».

«نعم».

«ذلك أن على المرء ألا يكذب في مسائل كهذه يا رئيس. كذب المرء في ما يتعلق برجولته أمر بالغ السوء والشر. وكل شيء جائز يا رئيس».

وهكذا وجدتني، أنا الذي تمنى لنفسه لعنة نادر خان التي كانت أيضاً لعنة خالي حنيف عزيز، وخلال فترة التجميد وما بعدها لعنة أبي أحمد سيناء أيضاً، وجدتني أندفع للكذب وبغضب أشد حتى، فقد صرخ سليم: «أقول لك، هي ذي الحقيقة، إنها كذلك».

فرد بيكتشر بحزن شديد وهو يلطم جبهته بمعصمه: «إذاً يا رئيس، لا يعلم إلا الله ما ينبغي فعله بتلك الفتاة المسكينة».

زفاف

تزوجت بارفاتي الساحرة في الثالث والعشرين من شباط عام ١٩٧٥، وهي الذكرى الثانية لعودتي كشريد إلى حي السحرة.

بادما تتصلب: تنشر زهرتي اللوتسية كحبل غسيل وتتساءل: «تزوجت؟ لكنك في الليلة الماضية فقط قلت إنك لا تستطيع.. ثم لماذا لم تقل لي طيلة هذه الأيام، الأسابيع، الأشهر...؟». فأنظر إليها أسيان، ثم أذكّرها بأنني ذكرت من قبل وفاة بارفاتي المسكينة تلك التي لم تكن وفاة طبيعية... وشيئاً فشيئاً تنفرد قسمات بادما وأنا أتابع «النساء صنعني والنساء قضين علي. من الأم المبجلة إلى الأرملة، وحتى ما بعدها، كنت تحت رحمة ما يدعى (وهو خطأ برأيي) الجنس اللطيف. ربما المسألة كلها مسألة ارتباط: ترى ألا نفكر عموماً بأمنا الهند، البهاراتماتا، بوصفها أنثى؟ إذاً، لا مفر كما تعلمون». اثنتان وثلاثون سنة مرت في هذه القصة لم أكن قد ولدت فيها بعد، وقريباً سأكمل عامي الحادي والثلاثين، أي طيلة ثلاث وستين سنة، قبل وبعد منتصف الليل ذاك، ظلت النساء، تعمل أفضل ما في وسعهن، وكذلك أسوأ ما في وسعهن، كما أراني مضطراً للقول.

في منزل إقطاعي كفيف على شواطئ بحيرة كشميرية، حكمت علي نسيم عزيز بحتمية الملاءات المثقوبة. وفي مياه تلك البحيرة ذاتها، غاصت إيليس لوبين إلى أعماق التاريخ ولم أنس قط رغبتها بالموت.

كذلك قبل أن يختبئ نادر خان في عالمه السفلي كانت جدتي، بتحولها إلى أم مبجلة، قد ابتدأت سلسلة النسوة اللواتي غيرن أسماءهن، وهي

السلسلة التي استمرت حتى هذا اليوم، والتي تسربت حتى إلى داخل نادر الذي صار قاسماً يجلس ويداه تتراقصان في مقهى الرائد، وبعد رحيل نادر، غدت أمي ممتاز عزيز ذات اسم ثان هو أمينة سيناء.

وعلياء، بكل مرارة الدهر، علياء التي ألبستني ملابس الطفولة المشبعة بسخطها كعانس كبيرة في السن وأميرالدا التي أقامت مأدبة حركت عليها مسيرة المباهر.

وهناك الراني كوش ناهين التي سببت أموالها، حين وضعت تحت تصرف رجل طنان، ظهور وباء التفاؤل، ذلك الوباء الذي كان يعاود الظهور من حين إلى آخر منذئذ، وفي الحي الإسلامي في دلهي القديمة، كانت تلك القريبة البعيدة زهرة التي سببت بمغازلتها لوالدي أن ظهر لديه ذلك الضعف تجاه الفرناندات والفلوريات.

ثم إلى بومباي. حيث لم تستطع زوجة وينكي، فانيتا، مقاومة الفرق النصفي لوليام ميثولد، وحيث خسرت نوسي البطة سباق الأطفال، في حين غيرت ماري بيريرا، باسم الحب، بطاقتي طفلتين تاريخيتين وأصبحت بذلك أمي الثانية...

نساء، نساء، نساء: توكسي كاتراك وهي تتاكد فاتحة الباب الذي سيسمح في ما بعد لأطفال منتصف الليل بالدخول، الخوف الشديد الذي كانت تبعثه مربيتها باي-آبا في نفوس الأطفال، الحب، التنافس بين أمينة وماري، وما رأيته من أمي وأنا أختبئ في صندوق الغسيل: أجل، المانغا السوداء التي أرغمتني على التنشق وبالتالي تسببت بانطلاق من ليسوا بملائكة!... بل هناك حتى إيفلين ليليث بيرنز، سبب حادثة الدراجة التي جعلتني أهوي من رابية ذات دورين إلى خضم التاريخ.

وكذلك القردة، فعلي ألا أنسى القردة وغيرها، وغيرها، فهناك ماشا مايونيك التي دفعتني لفقدان إصبعي، والخالة بينا التي ملأت قلبي بالرغبة في الانتقام وليلى سبرماتي التي أفسح طيشها المجال لانتقامي الفظيع المدبر بقصاصات الجرائد.

وكذلك السيدة دوباش التي اكتشفت موهبتي كمصدر هائل للسخرية فطورتها، بمساعدة ابنها، إلى شكل آخر هو السيد خسرو خسرو فاند.

وماري، وهي ترى الشبح.

وفي الباكستان، أرض الطهارة، موطن الخضوع، راقبت تحول القردة إلى مغنية، وجلبت لها الخبز ووقعت في هواها، كما أن من أخبرني بحقيقة نفسي إنما كان امرأة: تاي بيبي. وفي صميم ظلمتي الداخلية، التفت إلى بنات بوفز اللواتي لم أنج إلا بشق النفس من خطر زواجي بواحدة منهن، عروس ذات أسنان ذهب. ثم، وأنا بوذا، أبدأ بالنوم مع منظفة، وأتعرض نتيجة ذلك للمرور بتجربة المباول. في الشرق، أغوتني زوجة مزارع، ونتيجة لذلك تعرض زوجها، القديم كالزمان، للاغتيال. كما كانت هناك حوريات في معبد، حوريات لم ننج منهن إلا بالكاد.

وفي ظل المسجد أصدرت ريشام بيبي تحذيراً.

ثم تزودت بارفاتي الساحرة.

«أوف، يا سيدي» تصيح بادما متعجبة «إنه عدد كبير من النساء».

ولا أخالفها، ذلك أنني لم أعدها بينهم، هي التي كانت أحلامها بالزواج وكشمير قد تسربت ولا بد، إلى داخلي، صانعة بي رغبة عارمة، «ولو ـ فقط، لو ـ فقط»، حتى أنني وقد اسلمت نفسي للصدوع: أرى مخالب السخط والغضب والخوف والندم وقد بدأت تنهشني.

لكن الأرملة فوق الجميع.

فتلطم بادما ركبتها «أقسم؟ إن هذا لكثير، كثير جداً، يا سيدي؟».

كيف ينبغي أن نفهم نسائي الكثيرات جداً؟ كأوجه للبهاراتماتا[1] العديدة؟ أم أكثر..؟ أم نفهمهن يا ترى باعتبارهن الجانب الديناميكي من المايا، طاقة الكون الخلاقة التي يرمز لها بعضو المرأة؟

تدعى المايا، بجانبها الديناميكي، باسم شاكتي، وربما ليس الأمر من قبيل المصادفة أن القوة الفاعلة للإله، في الديانة الهندوسية، إنما توجد لدى

---

(١) الهند.

ملكته: أم المايا ـ شاكتي، لكنها تكتم الوعي أيضاً في شبكته الحلمية. وهناك نساء كثيرات جداً في الميثولوجيا الهندوسية: فهل هن جميعاً أوجه لديفي، الإلهة ـ التي هي شاكتي، والتي هي كالي دورغا تشاندي تشاموندا أوما ساتي وبارفاتي[1]... والتي تكون، حيث تكون، فعالة، مصطبغة باللون الأحمر؟

«أنا لا أدري شيئاً عن ذلك» تقول بادما وهي تنزل إلى الأرض «إنهن نساء وحسب».

وهكذا أتذكر من جديد، وقد هبطت من علياء خيالي، أهمية السرعة، فأتخلى، يدفعني إلى ذلك مقتضيات التصدع، التمزق، التشقق، أتخلى عن التأملات والأفكار وأبدأ راوياً كيف حدث الأمر: كيف سارت بارفاتي لحتفها بظلفها. كيف أودت بها كذبة أطلقتها شفتاي إلى حالة يائسة جعلتها، ذات ليلة، تنتزع من طيات ثيابها الرثة خصلة من شعر بطل وتشرع بالتكلم كلاماً طناناً رناناً.

لقد تذكرت بارفاتي، بعد أن خذلها سليم، ذاك الذي كان في يوم من الأيام عدوها الأكبر وهكذا أخذت قضيب خيزران فيه سبع عقد ثم صنعت كلاباً معدنياً على عجل ربطته إلى أحد طرفي القضيب، وجلست القرفصاء في كوخها وبدأت تقرأ الطلاسم، في عينيها كلاب إندرا وفي يسراها خصلة الشعر، وهي تناديه إليها. كانت بارفاتي تدعو شيفا، وسواء صدقت أم لم تصدقي يا بادما، فقد جاء شيفا.

منذ البداية، كان ثمة ركب وأنف وركب، لكن طوال هذه الرواية وأنا أدفعه، صاحب الركب ذاك إلى المؤخرة، إلى الظل (تماماً كما حرمته ذات مرة من مجلس الأطفال) لكن لم يعد بالإمكان إبعاده أكثر من ذلك، ففي ذات صباح من شهر أيار عام ١٩٧٤ ـ لا لقد نسيت التاريخ الصحيح نتيجة لتصدع ذاكرتي، فربما كان التاريخ هو الثامن عشر من أيار وربما في اللحظة ذاتها التي كانت فيها صحارى راجستان ترتج بفعل التفجير النووي الأول في

(١) أسماء ميثيولوجية لآلهة هندوسية.

الهند. دونما إنذار مسبق، عصر الذرة؟ لقد جاء إلى حي السحرة. نزل شيفا، ببزته العسكرية بنجومه ونسوره هو الذي بات رائداً في الجيش نزل عن دراجته النارية العسكرية وكان من اليسير حتى عبر بزته الخاكية العسكرية المتواضعة، أن يرى المرء البروز غير المألوف لركبتيه الفتاكتين. . . إنه بطل الحرب الأشهر في الهند، لكنه ذات يوم كان يقود عصابة من الأوباش في شوارع بومباي الخلفية، ذات يوم، وقبل أن يكتشف عنف الحرب المشروع، كانت تكتشف جثث بغايا وقد خنقن وألقين في المجارير (أنا أعلم ـ لكن لا برهان) إنه الرائد شيفا الآن، لكنه ابن وي ويلي وينكي أيضاً، الابن الذي لا يزال يتذكر كلمات أغنية اختفت منذ زمن طويل:

«**طابت ليلتكن أيتها السيدات**» أغنية لا تزال تتردد أصداؤها في أذنيه من حين إلى حين. لكن هنا ما يثير السخرية وينبغي ألا يمر دون أن يلحظه أحد. ترى ألم يرتفع شيفا مع سقوط سليم؟ من هو ساكن الحي الفقير الآن، ومن ذاك الذي ينظر من علٍ، من ذروة الأمر والنهي؟ لا شيء كالحرب لإعادة ابتكار الحياة. . . على أية حال، في ١٨ أيار على الغالب، جاء الرائد شيفا إلى حي السحرة، ومشى بخطى واسعة عابراً شوارع الحي الموحشة وعلى وجهه تعبير غريب، تعبير يجمع بين الازدراء اللامحدود للفقر وبين شيء آخر أكثر غموضاً: ذلك أن الرائد شيفا، وقد ساقته طلاسم بارفاتي الساحرة وتعاويذها إلى حينا المتواضع، لم يكن يعلم أية قوة تدفعه للمجيء.

في ما يلي أقدم لمحة عن حياة الرائد شيفا في سلكه الجديد، وقد جمعت نتفها مما روته لي بارفاتي، تلك النتف التي حصلت عليها بعد زواجي منها. كان منافسي ـ الأكبر، على ما يبدو، مغرماً بالتفاخر بمآثره، وهكذا يمكنك أن تجيز بعض تشويهات الحقيقة التي يصنعها مثل هذا التفاخر، لكن ليس ثمة داعٍ، على ما يبدو، للاعتقاد بأن ما قاله لبارفاتي وما كررته هذه لي، بعيد جداً عن الحقيقة والواقع.

حين انتهت الحرب في الشرق، كانت الأساطير التي تدور عن أعمال شيفا الخارقة على كل شفة ولسان في البلاد، تتناقلها الصحف والمجلات، وبذلك وجدت طريقها إلى الصالونات الراقية، بحيث وجد شيفا نفسه يرتفع

مكانة اجتماعية ومرتبة عسكرية أيضاً، إذ باتت الدعوات تنهال عليه من كل حدب وصوب ـ مآدب، أمسيات موسيقية، حفلات بريدج، استقبالات دبلوماسية، مؤتمرات سياسية حزبية، اجتماعات دينية كبيرة وأخرى أصغر، مهرجانات محلية، احتفالات مدرسية، أعياد. . . الخ. . . وفي كل مكان يذهب إليه يستقبل بكل ترحاب وتهليل يحيط به أنبل وأحسن الحسان اللواتي كانت تحوم حولهن أساطير مآثره وأفعاله، تطوف بمآقيهن، بحيث لا يعود بإمكانهن رؤية الضابط الشاب إلا عبر ضباب أساطيره وتغطي أطراف أصابعهن بحيث لا يعدن يلمسنه إلا عبر الطبقة السحرية الشفافة لأساطيره، وتقيم على ألسنتهن، بحيث لا يعود باستطاعتهن مخاطبته كما يخاطبن البشر العاديين. وقد أدركت قيادة الجيش الهندي، التي كانت في ذلك الحين تخوض معركة سياسية ضد مقترحات خفض نفقاتها العسكرية، أدركت قيمة سفير ذي هالة سحرية كهذا السفير، فسمحت للبطل بأن يتحرك بين معجبيه ذوي التأثير البالغ، وهكذا أقبل شيفا على حياته الجديدة بكل رغبة وشوق.

لقد ربى شارباً كثاً كان وصيفه العسكري يضع عليه كل يوم مرهماً مصنوعاً من زيت بزر الكتان والكزبرة، وهكذا كان يظهر بكامل أناقته في صالونات كبار العائلات ثم ينخرط في الأحاديث السياسية معلقاً أنه من المعجبين بالسيدة غاندي، وذلك بسبب كراهيته لخصمها موراجي ديساي الذي كان، بحسب رأيه، رجلاً بالياً لايحتمل رجلاً يشرب، بوله صدئ، جلده من شدة القدم، رجلاً كان كرئيس لوزراء بومباي ذات يوم، مسؤولاً عن حظر الكحول واضطهاد الشباب، أو بكلمة أخرى اضطهاد الطفل شيفا. . . لكن مثل هذه الأحاديث الباطلة لم تكن تشغل إلا حيزاً من تفكيره، أما البقية فقد كانت تشغلها السيدات. وهكذا كان شيفا، أيضاً، محاصراً بالكثير من النساء، وفي تلك الأيام المسكرة، أيام ما بعد النصر العسكري، اكتسب شهرة خاصة (تبجح بها لبارفاتي) شهرة نمت بسرعة وعلى نحو ينافس شهرته العسكرية العامة ـ أسطورة (سوداء) تقوم إلى جانب أسطورة «بيضاء».

ترى ما الذي تتناقله الألسن همساً في حفلات ـ النساء والأمسيات الراقية في البلاد؟ ما الذي كان يدور سراً عبر القهقهات حيثما اجتمعت سيدتان أو ثلاث

معاً؟ إنه هذا: الرائد شيفا بات مغوي سيدات شهيراً، زير نساء، مديث أغنياء، أي باختصار: فحل نساء.

وكما قال لبارفاتي، كانت ثمة نساء حيثما يحل: أجسادهن المتقوسة الطرية كأجساد الطيور ترتعش تحت ثقل حليهن وشهوتهن، أعينهن تغيم بضباب أسطورته، وكان من المتعذر عليه أن يرفضهن حتى ولو شاء ذلك، لكن الرائد شيفا لم يدر في خلده الرفض قط. وهكذا كان يصغي بتعاطف شديد لمآسيهن الصغيرة ـ أزواج مصابون بالعنة، أزواج يعضون، أزواج فقدوا كل اهتمام ـ كما كان كله آذاناً صاغية لما ترغب به تلك المخلوقات الجميلة من تعويض. ومثلما كانت تفعل الويسكي في الصالونات الزاهية الوثيرة، يرقبهن وهن يطرفن برموشهن أو يصعدن الآهة تلو الآهة بكل ما في العالم من إغراء، وغالباً ما كن ينتهين لإسقاط حقيبة يد أو إراقة كأس شراب، أو إيقاع عصاه ـ القيادية من تحت إبطه بحيث يضطر للانحناء على الأرض واستعادة ما سقط، وبالتالي لرؤية الملاحظة التي حشرت في صندل واحدتهن وإخراجها من تحت الأصابع المطلية بالطلاء. في تلك الأيام (إن كان علينا أن نصدق الرائد) باتت سيدات الهند المخزيات خرقاوات إلى حد فظيع، مفكراتهن تتحدث عن مواعيد غرامية في أنصاف الليالي، عن تعريشات البوغنفيلية خارج نوافذ مخادعهن، عن أزواج يبتعدون برضاهم لتدشين سفينة أو تصدير شاي أو شراء معدات من السويد. وفي غياب تعساء الحظ أولئك، كان الرائد يزور منازلهم ليضع يده على أثمن ما فيها: نسائهم اللواتي يلقين بأنفسهن في أحضانه. ومن المحتمل (علماً أنني قسمت الرقم الذي أعطاه الرائد على اثنين) إنه في ذروة جولاته الغرامية لم يكن هناك أقل من عشرة آلاف امرأة واقعة في غرامه.

وقد أنجب منهن أطفالاً بالتأكيد. ذرية أنصاف الليالي الحرام. أطفال رائعون يعيشون بأمان في كنف أسر غنية. أبناء زنى كثر في كل مكان من الهند، لقد شق بطل الحرب طريقه، لكنه (وهذا أيضاً ما قاله لبارفاتي) كان يعاني من خلل غريب، من عيب فاضح ألا وهو فقدانه الاهتمام بكل امرأة تحبل، ذلك أنه بغض النظر عن الحب الذي يربطه بالمرأة وعن شدته

وشهوانيته، فقد كان يهجر كل امرأة تحمل طفلاً منه، فتضطر السيدات الجميلات وقد احمرت أعينهن من شدة البكاء، لإقناع أزواجهن الديوثين بأن الجنين، أجل، بالطبع، هو ابنهم إذ تقول واحدتهن: «عزيزي، حياتي، انظر ألا يبدو شبيهاً بك، نسخة طبق الأصل عنك؟». فيرد الديوث بالطبع: «لا، أنا لست حزيناً. ولماذا ينبغي أن أكون كذلك؟ إنها دموع الفرح».

إحدى الأمهات المهجورات على هذا النحو كانت امرأة تدعى روشانارا، هذه زوجة ملك الفولاذ س. ب. شيتي الشابة وهي التي ثقبت لشيفا بالون كبريائه في مضمار سباق مهما لاكسمي في بومباي. فقد كان هناك يتجول حول حقل لترويض الخيول، وينحني بين الفينة والفينة لالتقاط شالات السيدات ومراوحهن عن الأرض تلك التي كانت تغدو وكأنها كائنات تعج بالحياة تتواثب من أيدي صاحباتها حين يمر. هنا واجهته روشا نارا، فوقفت مباشرة في طريقه رافضة أن تزيح مغمضة العينين بحدة الشباب ونزقهم هي ابنة السابعة عشرة. حياها شيفا ببرود لامساً قبعته العسكرية، محاولاً أن يمر، لكنها أنشبت أظافرها الحادة كالإبر في ذراعه وابتسمت ابتسامة باردة كالجليد، ثم بدأت تتمشى إلى جانبه. ومع خطواتها راحت المرأة تسكب سمها الطفولي في أذنه، وقد منحتها كراهيتها لعشيقها السابق كل المهارة في جعله يميل لتصديقها. بقسوة بالغة راحت المرأة تهمس أن من المضحك كثيراً السلوك الذي يسلكه في المجتمعات الراقية والطريقة التي يمشي بها. والحقيقة أن كل النساء يسخرن منه في قفاه. «أوه، أجل، يا سيدي الرائد، لا تجعل من نفسك محط هزئهن، فنساء الطبقة الراقية يستمتعن بالنوم مع الحيوانات الفلاحين البرابرة. وتلك هي الطريقة التي نراك بها في أعيننا. يا إلهي! إنه لمما يثير الاشمئزاز تماماً أن يراك المرء وأنت تأكل، يشر الدهن والزيت على ذقنك. ترى ألا تعتقد أننا نرى أنك لا تمسك بأقداح الشاي من مقابضها؟ هل تتصور أننا لا نسمع تجشؤاتك وضراطك؟ فأنت مجرد قرد مدلل لدينا، أيها السيد الرائد، قرد مفيد، لكن مفيد بشكل أساسي لتسليتنا والتهريج لنا».

بعد الغارة التي شنتها روشانارا شيتي، بدأ بطل الحرب الشاب يرى

عالمه على نحو مختلف. إذ بات يرى النساء وكأنهن يكتمن ضحكاتهن خلف مراوحهن حيثما يحل، كما بات يلاحظ نظرات جانبية ساخرة لم يكن قد لاحظها في أعينهن من قبل، ورغم أنه حاول تحسين سلوكه، إلا أن ذلك كان عبثاً. فقد بدا وكأنه يزداد خرقاً كلما حاول تهذيب حركاته أكثر، حتى أن الطعام بات يتطاير من صحنه على السجاد الغالي الثمن كما باتت التجشؤات تنطلق من فمه كهدير القطار، والأصوات تنبعث من مؤخرته بشدة الأعاصير. وهكذا باتت حياته الجديدة المتألقة، مذلة يومية في عينيه. كما غدا يفسر أي تقرب منه تقوم به السيدات الجميلات تفسيراً جديداً مدركاً أنهن بوضعهن ملاحظات حبهن تحت أصابع أقدامهن إنما كن يبتغين تركيعه وإذلاله... وحين علم أن الإنسان قد تتوفر له كل صفات الرجولة ومع ذلك يظل محتقراً لجهله بطريقة الإمساك بالشوكة والسكين فقد شعر بالعنف القديم يعاوده من جديد، بالكراهية الشديدة لعلية القوم هذه وسيطرتها. وهذا ما يفسر، وأنا متأكد من ذلك، أنه حين أتاحت حالة الطوارئ لشيفا، صاحب الركب، الفرصة بالقبض على شيء من زمام السلطة لنفسه، فإنه لم ينتظر فرصة ثانية.

في الخامس عشر من أيار، ١٩٧٤ عاد الرائد شيفا إلى فوجه في دلهي، لكنه بعد ثلاثة أيام، شعر برغبة مفاجئة تسيطر عليه، رغبة في أن يرى مرة أخرى تلك الجميلة ذات العينين الواسعتين كصحن الفنجان التي قابلها لأول مرة قبل ردح من الزمن في مؤتمر أطفال منتصف الليل، تلك المغرية ذات الجديلة التي تشبه ذيل الحصان والتي طلبت إليه، في دكا، أن يعطيها خصلة من شعره. وقد صرح الرائد شيفا لبارفاتي أن مجيئه إلى حي السحرة قد تم بدافع رغبة كان ينبغي تحقيقها مع سيدات الطبقة الراقية الهندية، أولئك اللعينات الثريات. كما صرح بأن شفتيها المبوزتين حاصرتاه في اللحظة التي وقع ناظراه عليهما وهذا هو السبب في أنه طلب إليها الذهاب معه. لكنني كنت مفرط الكرم فعلاً بالنسبة إلى الرائد شيفا. ففي هذه الرواية أعطيت لقصته حيزاً كبيراً جداً، وأصر، أياً كان تفكير شيفا أبي الركب، أن الشيء الذي ساقه إلى الحي إنما هو بكل بساطة وصراحة، سحر بارفاتي الساحرة.

لم يكن سليم موجوداً في الحي حين وصل الرائد شيفا إليه راكباً دراجته

النارية وبينما كانت الانفجارات النووية تهز القفار الراجستانية تحت السطح، بعيداً عن أنظار الجميع حدث الانفجار الذي غير حياتي وبعيداً عن ناظري أيضاً. فحين أمسك شيفا بمعصم بارفاتي، كنت أنا مع بيكتشر سينغ في مؤتمر طارئ لخلايا المدينة الحمراء الكثيرة نناقش تفاصيل اضراب لعمال السكك الحديد، وحين اتخذت بارفاتي، دون تردد، مقعداً لها على سرج دراجة البطل، كنت أنا منهمكاً أستنكر اعتقال الحكومة للقادة النقابيين. أي قصارى القول، حين كنت مشغولاً بالسياسة وبحلمي بالخلاص الوطني، كانت قدرات بارفاتي السحرية قد باشرت الخطة التي ستنتهي براحتين مضمختين بالحناء، وأغان وتوقيع صك.

. . . إذاً أنا مكره، رغماً عني، على أن أرد على قصص الآخرين. فوجد شيفا كان يمكنه القول ماذا أصابه، غير أن ريشام بيبي هي التي وصفت لي رحيل بارفاتي لدى عودتي، قائلة «فتاة مسكينة، دعها تذهب، لقد ظلت حزينة زمناً طويلاً، فعلام تلومها؟». ووحدها بارفاتي من كان بإمكانها أن تروي من جديد ما حل بها بعد أن رحلت.

كانت القيادة، بسبب المكانة الاجتماعية للرائد شيفا كبطل حرب، قد سمحت له ببعض التجاوزات للأنظمة العسكرية، لذا لم يسأله أحد عن إدخال امرأة إلى أماكن لم تكن، رغم كل شيء، أماكن خاصة بالرجال المتزوجين، أما هو الذي لم يكن يعلم ما أدى لذلك التبدل الكبير في حياته، فقد بات يجلس في كرسي من قصب، تجلب له الماء الممزوج بعصير الليمون المعصور حديثاً، ثم تصرف وصيفه، تدهن شاربيه بالزيت، تداعب ركبتيه، وبعد ذلك كله تقدم وجبة من سمك البرياني، وجبة شهية إلى درجة يكف معها عن التعجب حول ما طرأ عليه من تبديل بل يبدأ بالاستمتاع بها. لقد حولت بارفاتي الساحرة تلك الأماكن العسكرية البسيطة إلى قصر، «كيلاسا» مناسب تماماً لشيفا ـ الإله. أما الرائد شيفا، الذي كان يتيه في بحيرات عينيها المسكونتين، يثيره على نحو يتجاوز حدود التحمل بروز شفتيها الجنسي، فقد كرس اهتمامه كله لها طيلة أربعة أشهر كاملات، أو، لنكن أكثر دقة، طيلة مائة وسبع عشرة ليلة.

لكن في الثاني عشر من أيلول، تبدلت الأمور: ذلك أن بارفاتي أخبرته، وهي تركع عند قدميه وتعرف تماماً وجهة نظره حول الموضوع، بأنها حبلى.

بعدئذ أمست علاقة شيفا وبارفاتي علاقة عاصفة مليئة بالضربات واللكمات والصحاف المكسرة: صدى أرضياً لتلك المعركة الحربية الأبدية بين آلهة ـ السماء التي يقال إنها تجري فوق قمة كيلاسا في أعالي الهملايا... في ذلك الحين، بدأ الرائد شيفا يشرب الكحول، ويمارس الدعارة. وقد كان لآثار دعارة بطل الحرب في كل مكان من عاصمة الهند شبه شديد بآثار جولات الدراجة النارية التي كان يركبها سليم سيناء ذات يوم بين مواخير كراتشي. لقد اضطر الرائد شيفا، الذي حرمه من صحبة الأغنياء ما كشفت عنه روشانارا شيتي، لأن يدفع المال لقاء متعه. وبذلك كان خصبه الشديد (الذي أكده لبارفاتي وهو يضربها) مسؤولاً عن تحطيم حياة الكثيرات من تلك النساء بتلقيحهن بأطفال لم يكن يرغبن كثيراً في حملهم، وقد خلف وراءه في المدينة حشداً من أولاد الشوارع يوازي حشد أبناء الزنى الذين أنجبهم من سيدات الصالونات الراقية.

في الوقت ذاته كانت ثمة سحب سود تتكاثف في الأجواء السياسية: ففي بيهار، حيث يسود الفساد، التضخم، الجوع، الأمية، الفقر، الحرمان، قاد جاي براكاش نارايان تحالفاً بين الطلاب والعمال ضد حزب انديرا الحاكم، وفي غوجارات، ثار الكثير من أعمال الشغب، ودمرت عدة قطارات، أما موراجي ديساي فقد مضى في طريقه دون توان وقد أقسم على إسقاط حكومة المؤتمر الفاسدة في تلك الولاية المحكومة- بالجفاف... وكان ذاك سيتحقق لولا أنه اضطر لأن يموت. قصارى القول، بينما كان الغضب يغلي في صدر شيفا، كانت البلاد تغلي هي الأخرى غضباً. لكن ما الذي كان سيولد في الفترة التي كان ينمو فيها شيء ما في أحشاء بارفاتي؟ إنكم تعرفون الجواب: ففي أواخر ١٩٧٤ شكل نارايان وديساي حزب المعارضة المعروف باسم جاناتا مورشا: أي الجبهة الشعبية. وبينما كان الرائد شيفا يكر من مومس إلى مومس، كان حزب انديرا يكر القهقرى وينحل.

أخيراً حررته بارفاتي من سحرها (ولن ينفع تفسير آخر، إذ لو لم يكن مسحوراً، فلماذا لم يلقها خارجاً في اللحظة التي سمع فيها بحملها؟ ولو لم يرفع عنه السحر، كيف كان سيتسنى له فعل ذلك أصلاً؟). لقد نفض الرائد شيفا رأسه وكأنه يفيق من حلم، ليجد نفسه بصحبة فتاة فقيرة منتفخة الكرش كالبالون، فتاة غدت تمثل في نظره كل ما كان يخشاه. فهي تجسيد لطفولته البائسة التي فر منها والتي عادت، من خلالها ومن خلال طفلها اللعين، تهدد بإنزاله إلى الحضيض.... تجره من شعره مرة ثانية، وهكذا ألقى بها فوق دراجته النارية، وخلال برهة وجيزة وجدت نفسها وقد عادت من حيث ذهبت، حاملة معها الشيء الوحيد الذي لم تكن تملكه حين غادرت الحي: الشيء المختفي في داخلها كرجل خفي في سلة قصب، ذلك الشيء الذي كان ينمو وينمو تماماً وفق ما خططت له.

ترى لماذا أقول ذلك؟ بسبب صحته بالتأكيد، وبسبب ما سوف يأتي، وكذلك لأنني أعتقد أن بارفاتي الساحرة حبلت بجنينها كي تلغي دفاعي الوحيد ضد زواجي بها، لكنني سأكتفي بالوصف تاركاً التحليل للقارئ.

ففي يوم بارد من أيام كانون الثاني، حين كان أذان المؤذن المطلق من أعلى مئذنة في مسجد الجمعة يتجمد لحظة ينطلق فيها من شفتيه ويتساقط على المدينة كثلج معصوف، في ذلك اليوم عادت بارفاتي، كانت قد انتظرت حتى اليوم الذي لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك حول حالتها، فسلتها الداخلية كانت قد انتفخت عبر الحلة النظيفة القشبية لافتتان شيفا الذي زال الآن. كما كانت شفتاها، وقد امتلأتا ثقة بالنصر، قد فقدتا تبويزتهما المشهورة وفي عينيها الصحنيتين، وهي تقف على سلم مسجد الجمعة كي تضمن أن يرى أكبر عدد ممكن من الناس مظهرها المتبدل، كان يطل ألق الرضى الوضاء كالفضة. هكذا كانت الحالة التي وجدتها عليها حين عدت إلى قيلولة المسجد مع بيكتشر سينغ. كنت أشعر بقلبي يتفطر، فرؤيتي لبارفاتي- الساحرة وهي على السلم وقد طوت يديها فوق بطنها المنتفخ، وجديلتها الأشبه بذيل الحصان تتطاير بلطف مع هبات الهواء البللوري، هذه الرؤية لم تحمل لنفسي شيئاً من البهجة.

كنا أنا وبيكتشر قد ذهبنا إلى الأزقة الضيقة الواقعة خلف مكتب البريد العام، حيث كانت تحوم حول رأسي ذكريات عن عرافين وأصحاب صناديق فرجة ومعالجين من الأمراض. هناك، قام بيكتشر سينغ بالعمل الذي غدا يتسم بالسياسة أكثر فأكثر يوماً بعد يوماً. ففنه الأسطوري كان يجذب الحشود الكبيرة من الناس الطيبين، أما هو فكان يجعل ثعابينه تؤدي رسالته وهي تتمايل بتأثير موسيقى شبابته بينما كنت أقرأ، أنا الذي يقوم بدور التلميذ المساعد، خطبة معدة فتضفي الثعابين على كلامي الصيغة المسرحية المطلوبة. كنت أتحدث عن التفاوت الهائل في توزيع الثروات: فيمثل ثعبانان من نوع الكوبرا بأدائهما الصامت، دور رجل غني وهو يرفض إعطاء صدقة لشحاذ، أتحدث عن مضايقات الشرطة، الجوع، المرض، الأمية، فترقص الثعابين على إيقاع حديثي أيضاً ممثلة تلك المواقف كلها.

بعدئذ كان يبدأ بيكتشر سينغ، مختتماً العمل بالتحدث عن طبيعة الثورة الحمراء، وتبدأ الوعود بالانتشار في الجو حتى تملأه. وكان ذلك يستمر حتى اللحظة التي نشعر فيها بأن الشرطة على وشك الخروج من الأبواب الخلفية لمركز البريد كي تفض الاجتماع بالهراوات والغاز المسيل للدموع. وفي اجتماعنا الأخير هذا، حدث ذاك حين بدأ بعض المضحكين من جمهورنا يضايقون بأسئلتهم الساحر الأعظم في العالم. فقد صاح شاب، ربما لم تقنعه حركات الثعابين الغامضة، شاب ربما كان إرضاؤه، مسرحياً، أمراً صعباً بعض الشيء، صاح قائلاً: «أوه، بيكتشر، كان ينبغي أن تكون في الحكومة يا رجل، فانديرا نفسها لا تضرب وعوداً بروعة وعودك».

بعدئذ جاء الغاز المسيل للدموع، واضطررنا لأن نفر، عمي العيون نسعل ونتفتف، من قبضة الشرطة كما يفر المجرمون، وكانت الدموع الكاذبة تنهمر مدراراً ونحن نجري (تماماً كما حدث ذات مرة في جاليا نوالا باغ - لكن بغير رصاص هذه المرة). ورغم أن الدموع كانت دموع غازات، فإن بيكتشر سينغ كانت قد سيطرت عليه حالة اكتئاب شديد بسبب مضايقة ذلك المضحك الملحاح الذي شكك بواقعية بيكتشر، تلك التي كانت موضع فخاره، كذلك شعرت أنا نفسي، بعد أن ثبطت عزيمتي هراوات الشرطة

ودموع الغاز، بأن جرثومة قلق دخلت فجأة إلى نفسي، فأيقنت أن هناك شيئاً في داخلي يعترض على تصوير بيكتشر لسفالة الأغنياء عن طريق رقص الأفاعي، كما وجدت نفسي أفكر «بين الأغنياء الصالح والطالح يا بيكتشر، لقد نشأوني يا بيكتشر، اعتنوا بي وربوني». بعد ذلك بدأت أرى أن جريمة ماري بيريرا لم تسلخني عن عالم واحد بل عالمين، وأنني وقد طردت من منزل خالي، لم أكن قادراً قط على دخول العالم، بحسب رأي بيكتشر سينغ، وأن أحلامي بإنقاذ البلاد كانت، في الواقع، بعضاً من سراب، أوهام أحمق مأفون.

حينذاك رأيت بارفاتي، بمنظرها الجانبي المتبدل، وهي تقف في عز برد الشتاء، لقد كان ذلك اليوم - أم أنني على خطأ؟ لكن علي أن أمضي قدماً، فهناك أشياء تنزلق من يدي طيلة الوقت - يوم أهوال. ففي ذلك اليوم - إن لم أكن مخطئاً - وجدنا ريشام بيبي وقد فارقت الحياة من البرد، متمددة في كوخها الذي بنته من علب الرزم الخاصة بدالدا فانسباني.

كانت قد انقلبت زرقاء لامعة، زرقاء مثل كريشنا، زرقاء كيسوع المسيح، زرقاء كسماء كشمير التي تسربت إلى عيني، وعلى ضفاف جامونا بين البيوت الطينية والثيران، حرقنا جثمانها، ونتيجة لذلك فقد أضاعت من يدها فرصة حضور عرسي الذي كان حزيناً، فهي ككل النساء الطاعنات في السن، كانت تعشق الأعراس، وكانت في الماضي تشترك بإقامة طقوس - الحناء التمهيدية بغبطة بالغة، كما كانت تقود جوقة الغناء الرسمية التي كان أصدقاء العروسة يعملون فيها على إهانة العروس وعائلته. وفي إحدى المناسبات كانت إهاناتها بالغة إلى درجة ثار معها العروس وألغى الزفاف كله، لكن ريشام لم تجد في ذلك مسبة إذ قالت إن الخطأ ليس خطأها. فشباب هذه الأيام ضعاف القلوب جبناء كالصيصان.

حين رحلت بارفاتي من الحي كنت غائباً، وحين عادت لم أكن موجوداً، ولكن كانت هناك حقيقة أشد غرابة... فإن لم أكن قد نسيت، إن لم يكن ذلك في يوم آخر... على أي حال، يخيل إلي أنه في اليوم الذي رجعت فيه بارفاتي، كان ثمة وزير هندي يسافر في عربة من عربات السكة الحديد، في

سماستيبر، حين طيره انفجار إلى بطون كتب التاريخ، أجل يخيل إليَّ أن بارفاتي التي رحلت في خضم انفجارات القنابل النووية، عادت إلينا حين غادر السيد ل. ن. ميشرا وزير السكك الحديد والرشى، هذا العالم إلى الأبد. نذر والمزيد من النذر... فربما كان، في بومباي، سمك بومفريت ميت يطفو مع الموج ليرتمي على الشطآن وقد انقلب بطناً على ظهر.

***

السادس والعشرون من كانون الثاني، عيد الجمهورية، هو يوم حسن للعاملين بالوهم، فحين تتجمع الحشود الضخمة لمراقبة الفيلة والألعاب النارية، يخرج أصحاب الحيل والخداع في المدينة لكسب رزقهم. لكن هذا اليوم يحمل لي معنى آخر، ففي عيد الجمهورية هذا تم التوقيع على مصيري الزوجي.

ذلك أنه في الأيام التي أعقبت عودة بارفاتي، اتبعت عجائز الحي عادة الإمساك بآذانهن تعبيراً عن الخزي والعار كلما مررن بها، أما هي التي كانت تحمل في أحشائها طفلاً غير شرعي دونما شعور بالإثم، فكانت تبتسم ببراءة وتتابع سيرها. لكن صبيحة يوم الجمهورية، أفاقت لتجد حبلاً يتدلى فوق بابها وقد علق به حذاء ممزق، فشرعت تبكي منفطرة القلب، وقد تزعزعت أركانها بتأثير تلك الإهانة الكبرى. وهكذا بعد أن تركت أنا وبيكتشر كوخنا محملين بسلال الأفاعي، مررنا بها وهي في بأسائها هذه (محسوبة؟ أم صادقة؟) فأطبق بيكتشر فكيه إطباقة من صمم على شيء «عد إلى الكوخ يا ريّس» ألقى ساحر العالم الأعظم بتعليماته إلي، «ينبغي أن نتحدث».

وفي الكوخ تابع قائلاً: «اعذرني يا ريس لكن لا بدّ من أن أتكلم. فأنا أعتقد أنه شيء فظيع أن يمضي الرجل حياته بلا أطفال. أن لا يكون لديك ابن يا ريس: كم هو أمر محزن. أليس كذلك؟». فالتزمت، وأنا رهين كذبة العجز الجنسي التي لفقتها في الماضي، جانب الصمت. لم أحر جواباً، بينما اقترح بيكتشر عقد الزواج الذي سيحفظ شرف بارفاتي وفي الآن نفسه يحل مشكلة عجزي الذي اعترفت به أنا نفسي، ورغم خوفي من وجه جميلة المغنية الذي باتت لديه القدرة حين يتراكب مع وجه بارفاتي على تجريدي من

كل قوة جنسية، فقد وجدت نفسي عاجزاً عن الرفض.

وفي الحال، ومثلما خططت بارفاتي تماماً - أنا واثق من ذلك - قبلت بالعرض، إذ قالت «نعم» بالسهولة والسرعة التي كانت تقول بها «لا» في الماضي. بعد ذلك اكتسبت احتفالات عيد الجمهورية جواً جديداً فقد تحول إلى مسرح لصالحنا، لكن ما كان في ذهني هو أن القضاء والقدر، الحتمية، الجبرية، كل تلك الأفكار عادت مرة أخرى تهيمن على حياتي. فمرة أخرى كان سيولد طفل لأب ليس بأبيه، رغم أن الطفل، وذلك ما يثير السخرية الشديدة، سيكون الحفيد الحقيقي لوالدي أبيه، وهكذا، وقد وقعت في شراك هذه الأنساب المتشابكة المتداخلة. ربما خطر لي أن أتساءل ما تراها كانت البداية وما تراها النهاية، ما إذا كان هناك عد تنازلي سري آخر قيد البدء، وما الذي سيولد مع طفلي.

على الرغم من غياب ريشام بيبي، فقد سارت أمور الزفاف على ما يرام. إذ تم اعتناق بارفاتي الرسمي للإسلام (الأمر الذي أثار بيكتشر سينغ كل الإثارة: لكنني وجدت نفسي أصر عليه، وأنا أعيش امتدادة أخرى إلى حياة سابقة). هذا الاعتناق تم على يد حاج أحمر اللحية كان يبدو في غاية القلق لوجوده بين مثل ذلك العدد من الناس الاستفزازيين المشاكسين الكفرة. وتحت ناظري ذلك الشخص الذي كان أشبه ببصلة كبيرة ملتحية، تحت ناظريه المتنقلين باضطراب واضح، أعلنت بارفاتي إسلامها بأن شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم اتخذت اسماً اخترته لها من مخزون أحلامي ألا وهو: ليلى. وبذلك تم إلحاقها هي الأخرى بحلقات تاريخي التي لا نهاية لها، إذ غدت صدى لكل أولئك الذين اضطروا إلى تغيير أسمائهم... وهكذا، شأنها شأن أمي أمينة سيناء، اضطرت بارفاتي الساحرة لأن تصير امرأة أخرى كي تنجب طفلاً.

في حفل الحناء، اصطف نصف السحرة إلى جانبي، قائمين بذلك بدور «عائلتي»، بينما اصطف النصف الآخر إلى جانب بارفاتي، وراحت الإهانات السعيدة تتردد أغاني وأهازيج حتى وقت متأخر من الليل بينما كانت خطوط الحناء المعقدة الرسوم تجف على راحتي كفيها وأخمصي قدميها، وإذا كان

غياب ريشام بيبي قد حرمنا من إهانات قاطعة كحد الموسى، فإننا لم نأسف كثيراً على ذلك. خلال العرس جلس العروسان على مقعد أقيم بسرعة من صناديق الدالدا التي كانت ريشام قد شادت كوخها منها، ثم اصطف السحرة رتلاً مر بنا بكل رزانة ورصانة، وكل منهم يلقي ببعض القطع النقدية في حجورنا، وحين وقعت ليلى سيناء الجديدة مغشياً عليها، تبسم الجميع راضين، إذ ينبغي على كل عروس كريمة أن يغمى عليها ليلة عرسها، لكن ما من احد ذكر إمكانية المضايقة التي ربما تعرضت لها بسبب غثيان الوحام أو ربما آلام الرفس الناجمة عن طفل داخل سلتها. في ذلك المساء قدم السحرة عرضاً بالغ الروعة إلى درجة انتشرت الأقاويل عنه في أرجاء المدينة القديمة كلها، فتجمعت الحشود لترى. وكان هناك رجال أعمال مسلمون من محلة مجاورة جرى فيها ذات يوم إعلان عام، سمكريون، بائعون من تشاندني تشوك، متسكعون لا عمل لهم وسياح يابانيون يلبسون جميعاً (بهذه المناسبة) أقنعة وجوه كأقنعة الجراحين وذلك لشدة لطفهم ولكيلا يصيبونا بعدوى الجراثيم التي يستنشقونها. كما كان هناك أوروبيون ذوو بشرات وردية يتنازعون عدسات الكاميرات مع اليابانيين، وكانت هناك مصاريع تطقطق وأضواء تصوير تومض، كما قال لي أحد السياح إن الهند بلاد رائعة بالفعل لما فيها من تقاليد كثيرة تتبع، لكن قد يكون شيئاً رائعاً وعظيماً ألا يضطر المرء لتناول الطعام الهندي باستمرار، وفي «الفاليما»، ذروة الاحتفال، (التي لم تشهد، في هذه المناسبة، ملاءة سرير ملطخة بالدم وهي ترفع عالياً، بثقوب أو بلا ثقوب، نظراً لأنني قضيت ليلة عرسي وعيناي مطبقتان إطباقاً محكماً وجسمي بعيد عن جسم زوجتي، خشية أن أرى الملامح غير المحتملة لجميلة المغنية وهي تنتابني كالشبح في حلكة الظلام) في تلك الذروة، كان السحرة يبذلون أقصى ما يمكن بذله في ليلة عرس.

لكن حين خمد الاهتياج والحماس رحت أسمع (بأذن صالحة وأخرى معطوبة) صوت المستقبل الذي لا مفر منه وهو يتسلل إلينا: تك تك، ثم أعلى وأعلى إلى أن صادف مولد الطفل سيناء، وكذلك مولد والد الطفل، مرآة له في أحداث ليلة الخامس والعشرين من حزيران.

فعندما كان مجهولون يقتلون غيلة مسؤولين حكوميين ويفشلون إلا قليلاً في التخلص من رئيس المحكمة آ. ن. راي الذي اختارته السيدة غاندي شخصياً، كان حي السحرة يركز على سر غامض آخر هو سلة بارفاتي المنتفخة كالبالون.

وحين كانت «الجاناتا مورشا»، أي الجبهة الشعبية، تنمو في الاتجاهات الغربية كلها حتى أنها ضمت شيوعيين ماديين (مثل بهلواناتنا أنفسهم، ومن ضمنهم ذلك الثلاثي ذو الأطراف المطاطية الذي كانت بارفاتي تقيم معه قبل الزواج - ذلك أننا منذ ليلة العرس، انتقلنا إلى كوخ خاص بناه أهل الحي لنا كهدية عرس على أنقاض كوخ ريشام). كما ضمت أعضاء يمينيين متطرفين من حزب أناندا مارغ، بل لقد انضم تحت لوائها اشتراكيون يساريون وأعضاء من حزب سواتانترا المحافظ. . . . أي بينما كانت الجبهة الشعبية تتسع وتمتد بهذه الطريقة الغريبة، كنت، أنا سليم سيناء، أتساءل بلا توقف عما تراه ينمو خلف المقدمة المتمددة لزوجتي.

في الوقت الذي بات الاستياء الشعبي يهدد أنديرا بسحق حكومتها كالذباب، كانت ليلى سيناء، هذه الماركة الجديدة، والتي كانت عيناها قد ازدادتا اتساعاً أكثر مما مضى تجلس ساكنة كالحجر وقد تزايد ثقل الطفل إلى أن بات يهدد بسحق عظامها ذرات ذرات، وإلى أن قال بيكتشر سينغ، فجاء قوله أشبه بصدى بريء لملاحظة قديمة: «هيه، رئيس، يبدو أنه سيكبر كثيراً كثيراً: بضخامة عشرة أطفال بالتأكيد».

بعدئذ جاء اليوم الثاني عشر من حزيران.

وتخبرنا كتب التاريخ والصحف وبرامج الإذاعة أنه في الساعة الثانية من بعد ظهر الثاني عشر من حزيران، دان القاضي جاغ موهان لال سينها رئيس المحكمة العليا في الله آباد، إنديرا غاندي رئيسة الوزراء بتهمة تزوير نتائج الانتخابات في الحملة الانتخابية عام ١٩٧١، لكن ما لم يكشف عنه أبداً هو أن بارفاتي الساحرة (أو ليلى سيناء) كانت قد دخلت في الساعة الثانية تماماً من ذلك التاريخ مرحلة المخاض فعلاً.

لكن مخاض بارفاتي ـ ليلى دام ثلاثة عشر يوماً. في اليوم الأول، أي

حين رفضت رئيسة الوزراء أن تستقيل رغم أن إدانتها حملت معها عقوبة تمهيدية بحرمانها من أي منصب عام مدة ست سنوات، فإن حوض بارفاتي ـ الساحرة، رغم الطلق الشديد المؤلم كرفسات البغل، رفض بعناد وإصرار أن يتمدد، أما سليم سيناء وبيكتشر سينغ فقد حرمهما من كوخ عذابها الثلاثي البهلواني الذي كان يقوم بمهمة القابلات. وهكذا كان الرجلان مضطرين لأن يستمعا لصرخاتها التي لا جدوى منها إلى أن جاء سيل متصل من أكلة النار ـ وساحري الورق والماشين على الجمر فسطحوهما على ظهريهما مازحين معهما مزحات بذيئة لكن في أذني فقط، كان في الإمكان سماع التكتكة... عد تنازلي لشيء لا يعلمه إلا الله، إلى أن تملكني الخوف فهمست في أذن بيكتشر لا أدري ما سوف يخرج منها لكنني واثق أنه ليس خيراً... فرد بيكتشر مطمئناً: «لا تقلق يا رئيس. كل شيء سيكون على ما يرام، طفل ضخم كعشرة أطفال، أقسم على ذلك». وبارفاتي تصرخ وتصرخ وحلكة الليل تشحب متحولة إلى نهار، وفي اليوم الثاني، حين اكتسح مرشحو الجبهة الشعبية مرشحي أنديرا غاندي في غوجارات، كانت بارفاتي- ليلى لا تزال نهبة آلام شديدة إلى درجة جعلتها تتصلب كالفولاذ، فأبيت تناول الطعام قبل أن يولد الطفل وليحدث ما يحدث. وهكذا جلست متصالب الساقين خارج كوخ عذابها، أرتعش في الحر رعباً وأتضرع إلى الله ألا يميتها رغم أنني لم أكن قد مارست معها الحب خلال أشهر زواجنا كلها، ورغم تضرع بيكتشر سينغ «بحق الله يا رئيس» فقد رفضت تناول الطعام، وفي اليوم التاسع خيم على الحي كله سكون رهيب، وجوم مطلق إلى درجة لم يكن باستطاعة أذان المؤذن نفسه أن يخترقه، صمت مطبق لقوى شديدة إلى حد حجبت معه هدير مظاهرات الجبهة الشعبية خارج الراشفراباتي بهافان، مقر الرئاسة، سكون طاغ مرعب كذلك الذي ساد ذات مرة منزل جدي وجدتي في آغرا، بحيث إننا لم نستطع في اليوم التاسع أن نسمع موراجي ديساي وهو يطالب الرئيس أحمد بأن يعزل رئيسة الوزراء المدانة، بل إن الأصوات الوحيدة التي كانت مسموعة في العالم كله إنما هي الأنات الضعيفة التي كانت تطلقها بارفاتي ـ ليلى، والطلق يتزاحم عليها كالموج، يتكدس فوقها كالجبال.

كانت تبدو وكأنها تنادينا من أسفل نفق للآلام أجوف طويل، بينما كنت أجلس متصالب الساقين تتفكك مفاصلي لشدة عذابها ويملأ أذني صوت التكتكة المكتوم، أما داخل الكوخ فقد كان الثلاثي البهلواني يسكب الماء على جسم بارفاتي لتعويض السوائل التي تخرج من جسدها ينابيع ينابيع، ويولج قضيباً بين أسنانها كي يحول بينها وبين العض على لسانها، كما يحاول أن يجبرها على إطباق أجفانها فوق العينين اللتين جحظتا إلى درجة مخيفة جعلت حتى الثلاثي يخشى أن تخرجا من محجريهما وتتدحرجا على الأرض. بعد ذلك جاء اليوم الثاني عشر وكنت نصف ميت جوعاً، بينما كان هناك، في مكان آخر من المدينة، محكمة نقض تبلغ السيدة غاندي بأنها غير مضطرة لأن تستقيل قبل البت بطلبها للاستئناف، لكن ينبغي ألا تصوت في لوك سبها وألا تتلقى راتباً، وبينما بدأت رئيسة الوزراء وهي تزهو بهذا الانتصار الجزئي، تحقر خصومها بلغة تفتخر بها صيادات السمك الكوليات في بومباي، كان طلق ليلى قد دخل طوراً وجدت نفسها فيه، رغم استنفاد قواها المطلق، قادرة على إطلاق خيط من الشتائم البذيئة الكريهة الرائحة من شفتيها اللتين جف لونهما، حتى أن رائحة بذاءاتها ملأت خياشيمنا وجعلتنا نتقيأ، أما البهلوانات الثلاث فقد فررن من الكوخ وهن يصرخن أنها باتت متوسعة فاقدة اللون إلى درجة شف جسمها تماماً حتى بات بإمكانك أن ترى عبره وأنها ستموت بالتأكيد إن لم يخرج الطفل في تلك اللحظة، وفي أذني كانت تكتكة تدق: تك تك إلى أن بت متأكداً، أجل، حالاً، حالاً، حالاً، وحين عاد الثلاثي البهلواني إلى جوار سريرها مساء اليوم الثالث عشر، صرخ بصوت واحد: أجل، أجل، لقد بدأت تدفعه خارجاً، هيا بارفاتي! اطلقي اطلقي، وبينما كانت بارفاتي تطلق في الحي الفقير وتدفع ولدها خارجاً، كان نارايان وموراجي ديساي يدفعان رئيسة الوزراء ناخسيها نخساً. وبينما كان الثلاثي يصرخ اطلقي، اطلقي، اطلقي، كان زعماء الجبهة الشعبية يحثون الشرطة والجيش على عصيان الأوامر غير الشرعية الصادرة عن رئيسة وزراء لا يحق لها أن تكون رئيسة وزراء، أي بمعنى من المعاني كانوا يجبرون السيدة غاندي على الطلق. وحين كان الليل يقترب من الانتصاف، إذ لا

شيء يحدث أبداً في أي وقت آخر، بدأ الثلاثي يزعق: إنه قادم، قادم، قادم. وفي مكان آخر كانت رئيسة الوزراء تلد ولداً هي الأخرى... في الحي، وفي الكوخ الذي جلست بجواره متصالب الساقين، قاب قوسين أو أدنى من الموت جوعاً، كان ابني قادماً، قادماً، قادماً. لقد خرج الرأس، زعق الثلاثي، بينما كان أفراد من الشرطة الاحتياطية المركزية يلقون القبض على زعماء الجبهة الشعبية، ومن ضمنهم أولئك الأشخاص العتيقون إلى حد غير معقول. أولئك الأشخاص الأسطوريون تقريباً موراجي ديساي وجـ. ب. نارايان، اطلقي، اطلقي، اطلقي، وفي قلب منتصف الليل الرهيب ذاك، بينما كانت التكتكة تدق في أذني ولد طفل، طفل ضخم كعشرة أطفال تماماً، خرج في النهاية بسهولة كبيرة إلى درجة كان من المستحيل على المرء أن يفهم لماذا أثار تلك المشكلة كلها. وحين خرج بكامله أطلقت بارفاتي صرخة صغيرة أخيرة تثير الشفقة، بينما كان في أرجاء الهند كلها رجال شرطة يلقون القبض على الناس، على زعماء المعارضة جميعاً باستثناء أفراد الحزب الشيوعي المناصر لموسكو، وكذلك على معلمي مدارس، محامين، شعراء، صحافيين، نقابيين. وحين غسل الثلاثي الطفل الوليد ثم لففنه بسار عتيق وأخرجنه إلى الأب ليراه، في اللحظة نفسها تماماً كانت كلمة الطوارئ تنطلق للمرة الأولى، وكذلك تعليق الحقوق المدنية ومراقبة الصحف واستنفار الوحدات المدرعة، والقبض على العناصر الهدامة. كان شيء ينتهي وشيء يولد. ففي اللحظة عينها التي جرى فيها ميلاد الهند الجديدة وابتدأ منتصف الليل المتصل الذي لن ينتهي قبل سنتين طويلتين، فإن ابني، ابن التكتكة المتجددة، خرج إلى العالم.

لكن ثمة ما هو أكثر: ذلك أنه حينما رأى سليم سيناء ابنه لأول مرة في عتمة منتصف الليل الطويل ذاك شرع يضحك دون توقف، فدماغه الذي التهمه الجوع وخربه، وكذلك معرفته بأن قدره الذي لا يرحم قد مزح معه واحدة أخرى من مزحاته الصغيرة الغريبة كل ذلك جعله يضحك، ورغم أن بيكتشر سينغ، الذي شعر بالخزي من ضحكه على نحو متكرر: «هيا يا رئيس لا تتصرف تصرف المجانين الآن! إنه صبي يا رئيس، فكن سعيداً». رغم

ذلك استمر سليم سيناء يعترف بالميلاد عبر قهقهة هستيرية ساخرة من القدر. ذلك الصبي، الصبي الطفل، الصبي - ابني - آدم، آدم سيناء كان مكتمل الهيئة تماماً ـ ما عدا أذنيه. ففي كلا جانبي رأسه، كانت ترفرف ناتئتان سمعيتان أشبه بشراعين، أذنان هائلتا الضخامة إلى درجة قال معها الثلاثي بعدئذ إنه عندما ظهر رأس الطفل ظن للحظة من الزمن أنه رأس فيل صغير.

. . . «رئيس، رئيس سليم» كان بيكتشر سينغ يتوسل «هون عليك الآن، فالآذان ليست شيئاً يستحق أن تجن من أجله».

***

ولد في دلهي القديمة. . . مرة في قديم الزمان. لا، ذلك لا ينفع، فلا مفر من تحديد التاريخ. لقد قدم آدم سيناء في حي فقير مظلل بالليل يوم الخامس والعشرين من حزيران عام ١٩٧٥، والتوقيت؟ التوقيت مهم أيضاً. فكما قلت في الليل. لا، من المهم أن يكون أكثر. . . عند دقة منتصف الليل. وللحقيقة والتاريخ كان عقربا الساعة قد تعانقا. أوه، انطقها أخيراً: في اللحظة ذاتها التي وطئت فيها حالة الطوارئ أرض الهند، ظهر آدم. وكانت هناك شهقات، وعبر البلاد كلها كان ثمة ترقب وخشية ووجوم، وبسبب الطغيانات السرية لتلك الساعة الحالكة، فقد شد وثاقه للتاريخ على نحو غامض، وارتبط مصيره ارتباطاً لا فكاك له بمصير بلاده. لقد جاء، بلا نبوءات ولا بشائر، بلا احتفالات ولا رسائل من رؤساء وزارات، لكن تماماً في الوقت الذي كان زمن ارتباطي يقارب نهايته، كان زمانه يبتدئ. وبالطبع لم يكن يعرف كلمة واحدة حول المسألة كلها، فرغم كل شيء، كان لا يزال عاجزاً عن مسح أنفه آنذاك.

لقد كان ابن أب ليس بأبيه، لكنه أيضاً ابن الزمان الذي دمر الحقيقة إلى درجة لم يكن بمستطاع أحد أن يلم أشتاتها معاً.

كذلك ولد وأذناه ترفرفان على نحو عال وواسع إلى درجة كان باستطاعتهما، ولا شك، سماع طلقات النار في بيهار وصرخات عمال الميناء وقد داهمتهم القوات السرية. . . طفل يسمع كثيراً ونتيجة لذلك لم يتكلم أبداً، فقد جعله فرط ما يسمع من أصوات أبكم لا يحسن النطق حتى أنني

منذ ذلك الحين وحتى الآن، أي بين الحي الفقير ومصنع المخللات لم أسمعه ينطق كلمة واحدة.

إنه صاحب السرة التي شاءت أن تبرز إلى الخارج بدلاً من أن تختفي في الداخل، حتى أن بيكتشر سينغ صاح مذعوراً: «سرته يا رئيس، سرته، انظر!». وأصبح، منذ أيامه الأولى تلك مبعث رعبنا الدائم.

إنه طفل ذو طبع هادئ حسن حتى أن رفضه المطلق للبكاء أو التوجع طغى تماماً على أبيه بالتبني، أبيه الذي أقلع عن الضحك الهستيري من أذنيه الغريبتين وبدأ يهدهد الطفل الصامت بين ذراعيه.

إنه الطفل الذي سمع أغنية وأبوه يهدهده بين ذراعيه، أغنية تغنى بالنبرات التاريخية لمربية مجللة بالخزي:

كل ما تبتغي أن تكون سوف تكون

ولسوف تكون كل ما تبتغي أن تكون

لكنني وقد أعطيت الفرصة لأن يولد ابني الصامت ذو الأذنين المرفرفتين ـ أجد أن هناك أسئلة ينبغي الإجابة عليها، أسئلة حول ولادة أخرى متزامنة مع هذه الولادة. أسئلة فظيعة غير مستساغة: هل تسربت أحلام سليم بإنقاذ الأمة، عبر أغشية التاريخ النفاذة، إلى أفكار رئيسة الوزراء نفسها؟ هل كان إيماني طيلة حياتي بالتطابق التام بيني أنا نفسي وبين الدولة قد تحول، في ذهن «المدام» إلى ذلك التطابق الذي تعبر عنه عبارة تلك الأيام الشهيرة «الهند هي أنديرا وأنديرا هي الهند؟» هل كنا نتنافس على المركزية ـ هل كانت نهبة لشهوة عميقة كشهوتي في البحث عن المعنى والهدف ـهل كان ذلك هو السبب... تأثير تسريحات الشعر على مسار التاريخ: فها هنا قضية صغيرة أخرى اذ لو كان وليام ميثولد بلا فرق نصفي ما كنت لأوجد هنا هذا اليوم، ولو أن أم البلاد كان لشعرها تسريحة ذات خضاب واحد، فربما كانت الطوارئ التي أنسلتها في البلاد ستفتقر بسهولة لجانبها الأسود. ولكنها كانت ذات شعر أسود في جانب وأبيض في الجانب الآخر، وكان للطوارئ، هي الأخرى، فرقها النصفي، وبالتالي جانبها الأبيض - العام، المرئي، الموثق

بالوثائق والمزود بالمادة التي تقدم للمؤرخين ـ وجانبها الأسود، وهو الجانب الخفي الرهيب الذي لا تتناوله الألسن والذي ينبغي أن يكون موضوعنا.

ولدت السيدة انديرا غاندي في تشرين الثاني عام ١٩٢٧ لوالدين هما كمالا وجواهر لال نهرو. اسمها الوسط هو بربارا دارشيني. وهي لا تمت بصلة قربى للمهاتما م. ل. غاندي، لكن كنيتها هذه أخذتها بعد زواجها عام ١٩٥٢ من رجل يدعى فيروز غاندي بات يعرف باسم «صهر الأمة». وقد أنجبا ولدين: راجيف وسانجاي، لكنها في عام ١٩٤٩ عادت إلى بيت أهلها لتصير «مضيفته الرسمية». وقد بذل فيروز محاولة جاهدة ذات مرة ليعيش هناك أيضاً، لكن المحاولة باءت بالفشل. فأصبح ناقداً مراً لحكومة نهرو كاشفاً لفضيحة الموندرا، مرغماً على الاستقالة وزير المالية حينذاك ت. ت. كريشناماري- ت.ت.ك. نفسه. توفي فيروز غاندي بنوبة قلبية عام ١٩٦٠ وهو في السابعة والأربعين ويقال إن ابن السيدة غاندي الأصغر، سانجاي، اتهم أمه بموت أبيه محملاً إياها المسؤولية نتيجة إهمالها. كما يقال إن تلك التهمة جعلت قبضته عليها شديدة لا فكاك لها، حتى باتت عاجزة عن رفض أي طلب له. برز سانجاي غاندي وزوجته ميناكا، عارضة الأزياء السابقة، كل البروز إبان فترة الطوارئ، كما أن حركة سانجاي للشباب كانت شديدة النشاط والفعالية أثناء حملة التعقيم ضد الإنجاب.

لقد أوردت هذا الموجز الأولي نوعاً ما خشية أن تكون أيها القارئ العزيز، غير عارف أن رئيسة وزراء الهند كانت، عام ١٩٧٥، أرملة منذ خمسة عشر عاماً، أو، بأحرف سود: الأرملة.

نعم يا بادما: الأم أنديرا كانت فعلاً تضمر لي الأذى.

منتصف الليل

لا؟ لكن لا بد مما ليس منه بد.

أنا لا أود التكلم - لكنني أقسمت أن أحكي كل شيء - لا، إنني أستنكر، ينبغي ألا أتكلم عن ذلك فثمة أور أفضل يمكن التكلم عنها، غير ان ذلك لا يكفي، وما لا يمكن شفاؤه ينبغي تحمله - لكن، بالتأكيد، ليس التكلم عن الجدران الهامسة والخيانة العظمى والقص، القص والنساء ذوات الصدور المكدمة؟ بل خصوصاً تلك الأمور. فانظر إلي كيف يمكنني أن أمزق نفسي شطرين، كيف أستطيع الاتفاق حتى مع نفسي. إنني أتكلم أجادل مثل إنسان مجنون، أتصدع، الذاكرة تمضي، أجل، الذاكرة تغوص في مهاوٍ، يبتلعها الظلام، لا يبقى إلا نتف منها، وليس لنتفة منها معنى بعد! لكن ينبغي ألا أتنطح لإصدار الأحكام، بل ببساطة ينبغي أن أستمر (لأنني بدأت ذات مرة) حتى النهاية، هراء ـ أم ـ غير هراء. لم يعد من حقي تقويم ذلك (وربما لم يكن ذلك من حقي أصلاً) لكن يا لهول ذلك! أنا لا أستطيع التكلم. لن أتكلم. لن أتكلم. ينبغي ألا. . . لن. . لا. . كلا ـ كف عن هذا، أبداً ـ لا ـ نعم.

ترى، ما رأيك بالحلم، ربما كان باستطاعتك أن ترويه كحلم. أجل، ربما هو كابوس. شعر الأرملة أخضر وأسود. يد تقبض وأطفال تنكتم أنفاسهم وكرات صغيرة تلقى واحدة بعد الأخرى، تمزق إلى نصفين ثم تطير، تطير خضراء وسوداء يدها خضراء أظافرها سوداء كالليل لكن لا، لا أحلام. فلا الزمن زمن حلم ولا المكان مكانه. الوقائع كما أتذكرها وأنا أبذل

قصارى جهدي. فلأبداً ـ لا خيار؟ أبداً متى كان ذلك؟ هناك أوامر ونتائج منطقية وحتميات وتكرارات، وهناك أمور ينبغي القيام بها وأحداث وتفتق لبراعم القدر، فمتى كان ثمة خيار، متى كان بإمكان المرء أن يتخذ قراراً بحرية مطلقة في فعل هذا أو ذاك للآخرين؟ لا، لا خيار، فلأبداً.

ـ نعم.

أنصتي.

ليل طويل بلا فجر، أيام، أسابيع، شهور بلا شمس أو بالأحرى (إذ من المهم كثيراً أن نكون دقيقين) بشمس باردة كطبق شطفته مياه الجدول، شمس تسكب علينا ضوءاً مجنوناً من أضواء منتصف الليل، فأنا أتحدث عن شتاء ١٩٧٥- ١٩٧٦. وفي الشتاء الظلمة وكذلك داء السل.

ذات يوم، في غرفة زرقاء تطل على البحر، وتحت إصبع الصياد المؤشرة، دخلت في معركة حامية الوطيس مع التيفوئيد وأنقذني سم الأفعى، والآن، وأنا أسير شباك التكرار التي أوقعتني فيها معرفتي لنبوته، يضطر ابننا آدم سيناء لقضاء شهوره الأولى وهو في عراك مع أفاعي المرض الخفية. فأفاعي السل تلتف حول عنقه وتجعله يشهق طلباً للهواء... لكنه طفل يتميز بأذنيه وصمته، فحين يتناثر البصاق من فمه يتم ذلك دونما صوت، وحين يتنفس بجهد جهيد، لا تصدر من حنجرته أدنى خشخشة. باختصار، وقع ابني طريح الفراش، ورغم أن أمه بارفاتي أو ليلى، كانت تبحث له عن أعشاب موهبتها السحرية - وتضيف الأعشاب للماء المغلي جيداً باستمرار، فقد ظلت ديدان السل الأشبه بالأشباح تأبى الخروج بعناد. لقد ارتبت، منذ البداية، بوجود شيء مجازي غامض في هذا المرض ـ معتقداً، في شهور منتصف الليل تلك حين كان عصر ارتباطي ـ بالتاريخ قد تراكب مع عصره، أن طوارئنا الخاصة لم تكن منفصلة عن الطوارئ الكبرى، مرض ابننا غير منفصل عن المرض الأكبر الذي أضحت الشمس بتأثيره شاحبة مريضة كوجه ابننا. لقد نبذت بارفاتي ـ حينذاك (مثلما فعلت بادما الآن) تلك الأفكار التجريدية مهاجمة إياها بوصفها أفكاراً حمقاء، مهاجمة كذلك هاجسي المتنامي، هاجس الضوء، فبدأت، وأنا رهن قبضته، أشعل مصابيح صغيرة

في الكوخ الذي يؤوي ابني المريض، مالئاً كوخنا بلهب الشموع عند الظهيرة... لكنني أصر على دقة تشخيصي، فقد كنت أصر حينذاك قائلاً: «أؤكد لكم أنه ما دامت الطوارئ قائمة لن يشفى ابننا قط».

أما ليلاي، التي ساقها إلى نوع من الخبل العقلي إخفاقها في شفاء ذلك الطفل الرزين الصامت أبداً، فقد أبت أن تصدق نظرياتي التشاؤمية، لكنها باتت تتقبل أية فكرة تافهة أخرى. فحيت قالت لها إحدى عجائز مستوطنة السحرة ـ مثلما كان من المحتمل أن تقول لها ريشام بيبي ـ أن جني المرض لن يخرج من جسم ابنها ما دام صامتاً أبكم، فقد بدا على بارفاتي وكأن ذلك لقي استحساناً منها. إذ بدأت تحاضر بي قائلة: «المرض ترح من أتراح الجسم ولا بد من طرح ذلك الترح على شكل دموع وآهات». وفي تلك الليلة عادت إلى الكوخ وهي تمسك برزمة صغيرة من المسحوق الأخضر الملفوف بجريدة ربطت بخيط زهري باهت اللون ثم قالت لي إن ذلك هو مستحضر المسحوق الذي يرغم حتى الحجر على الصراخ. وحين أعطت الدواء للطفل شرعت وجنتاه تنتفخان كما لو أن فمه مليء بالطعام. كانت أصوات طفولته التي انحبست طويلاً في صدره تمور خلف شفتيه. لكنه أبقى فمه مطبقاً بشدة وبنوع من الغضب. كما بات واضحاً أن الطفل يوشك على الاختناق وهو يحاول استعادة كتلة الأصوات المتصاعدة إلى الأعلى تلك التي أثارها المسحوق، وفي تلك اللحظة أيقنا أننا في حضرة واحدة من أشد الإرادات على وجه الأرض. ففي نهاية الساعة التي انقلب فيها لونه إلى الزعفران أولاً ثم إلى الزعفران والأخضر وأخيراً إلى لون العشب، لم أستطع التحمل أكثر فجأرت «يا امرأة، إن كان الطفل الصغير يرغب في البقاء صامتاً، فعلينا ألا نقتله كي ينطق». ثم رفعت آدم بين ذراعي ورحت أهدهده وقد شعرت أن جسمه الصغير متصلب وأن ركبتيه ومرفقيه ورقبته كلها ممتلئة بجيشان الأصوات المرتدة المسترجعة، لكن في النهاية لان قلب بارفاتي فاستحضرت دواء مضاداً من جذور البابونج والمرنطة بعد سحنها في وعاء من الصفيح وهي تتمتم بتعاويذ وطلاسم غريبة لا تفصح عنها. بعد ذلك، لم نراقبه وهو يخوض معركته ضد السل وكنا نحاول إيجاد عزاء لنا في الفكرة

القائلة إن إرادة فولاذية كهذه ستأبى بالتأكيد إنه يهزمها أي مرض على الإطلاق.

في الأيام الأخيرة تلك، كان ينهش صدر بارفاتي أيضاً وساوس اليأس الداخلية، ذلك انها حين كانت تتجه إلي طلباً للراحة أو الدفء في ساعات عزلتنا وهجوعنا، كنت أرى ملامحها تتراكب مع ملامح جميلة المغنية التي باتت تمحي على نحو مخيف، ورغم أنني اعترفت لبارفاتي بسر الشبح، مواسياً إياها بأنه، إذا ما استمر تفسخ ذلك الشبح بالمعدل ذاته، فإنه سيتلاشى كلياً خلال برهة وجيزة، إلا أنها قالت لي بأسى شديد إن المباصق والحرب قد أصابتني بالتخنث ثم أفصحت عن يأسها من زيجتها التي، كما تبين، لن تتحقق الغاية منها، وشيئاً فشيئاً بدأت تظهر على شفتيها تلك الملامح المشؤومة لتبويزة بأسائها. . . لكن ما تراني أفعل، أي عزاء يمكنني تقديمه ـ أنا، سليم ذو الأنف الخرطومي الذي كنت قد عدت لأحضان الفقر بعد أن حرمت من حمايتي العائلية، أنا الذي كنت قد اخترت (إن كان ثمة خيار) أن أعيش بمواهبي الشمية، أكسب بعض القروش في اليوم بالكشف عن طريق الشم ما تناوله الناس من طعام، عشاء اليوم السابق ومن منهم واقع في الغرام. ترى أي عزاء كنت أستطيع تقديمه لها، إن كنت أنا نفسي أسير القبضة الباردة لمنتصف الليل الطويل ذاك، ولا بارقة أمل في الجو؟

كان باستطاعة أنف سليم (وعليك ألا تنسى ذلك) أن يشم روائح أشياء أغرب من روث الخيل: روائح العواطف والأفكار، روائح مجريات الأمور: كل هذه كان باستطاعة أنفي أن يتبينها بسهولة. وهكذا حين عدل الدستور كي يمنح رئيسة الوزراء صلاحيات شبه مطلقة شممت رائحة أشباح الإمبراطوريات القديمة في الجو. . . جو تلك المدينة المزروعة بأشباح ملوك العبيد وأباطرة المغول، أورانجزيب الذي لا يرحم والغزاة الأخيرين ذوي الجلود الوردية، كما استنشقت مرة أخرى رائحة الاستبداد اللاذعة، إذ كانت تبدو مثل خرق مبللة بالزيت تحترق.

لكن، حتى المصابون بضعف حاسة الشم كان باستطاعتهم أن يتبينوا أن شيئاً ما يفوح برائحة التعفن في العاصمة، إبان شتاء ٧٥ ـ ٧٦، غير أن ما

أخافني أكثر هو النتن الأشد شخصانية وغرابة: رائحة الخطر الشخصي الذي رأيت فيه مثول زوج من الركب الغادرة المحبة للانتقام. . . فتصورت بادئ ذي بدء أن صراعاً قديماً، صراعاً بدأ من نوبة مسعورة من الخيانة العظمى والارتكابات. ربما كان علي، وقد جاءني ذلك التحذير الناخس إلى منخري، أن أفر ـ أن أطلق ساقي للريح. لكن كان هناك اعتراضات عملية: فأين أذهب يا ترى؟ ما هي السرعة التي يمكن لرجل مثلي، محمل بعبء زوجة وطفل، أن يتحرك بها؟ كما ينبغي ألا ننسى أنني فررت ذات مرة، فانظروا أين انتهيت: في السندربانز، غابة الأشباح والانتقام التي لم أنج منها إلا بشق النفس. . . على أي حال، أنا لم أفر.

وربما لم أهتم، فشيفا ـ المعصوم عن الخطأ، الغدار، عدوي منذ الولادة، كان سيجدني في النهاية. إذ رغم أن الأنف يوجد لشم رائحة ما يجري، فإنه حين يأتي دور العمل لا ينكر أحد مزايا زوج من الركب القابضة الخانقة.

هنا سأبيح لنفسي إيراد ملاحظة أخيرة حول هذا الموضوع، مثيرة للمفارقة. ذلك أنني، إن كنت قد عرفت في منزل النساء المولولات جواب السؤال الذي سبق لي وطرحته عن الهدف من حياتي، ذلك السؤال الذي ظل بلواي الدائمة المستمرة، فإنني بإنقاذ نفسي من قصر الإبادات ذاك، انكرت على نفسي أيضاً حق الاستفادة من ذلك بلغة أكثر فلسفية أقول: لكل غيمة حواشيها الفضية.

سليم وشيفا، أنف وركب. . . لقد كنا نتشارك في أمور ثلاثة فقط: لحظة ميلادنا (ونتائجها)، جريمة الخيانة، وابننا آدم، تركيبتنا المشتركة، ذلك الرزين المتجهم بأذنيه كليتي ـ السمع. كان آدم سيناء، في نواح كثيرة، نقيض سليم تماماً. فأنا، في بدايتي، كنت أنمو بسرعة هائلة، أما آدم فقد كان يتصارع مع ثعابين المرض، وبصعوبة بالغة كان ينمو أو بالأحرى لم يكن ينمو البتة. وكان سليم يبتسم ابتسامة مرضية منذ البداية، أما آدم فقد كان أكثر رفعة ورزانة من أن يبتسم للآخرين، وبينما كان سليم يكيف رغباته مع المشيئة المشتركة لأسرته وقدره، فإن آدم كان يكافح بعنف وشراسة، رافضاً

الاستسلام حتى للمسحوق الأخضر ذي المفعول القسري. وبينما كان سليم مصمماً على تمثل الكون إلى درجة عجز معها عن أن يطرف بأجفانه وهلة من الزمن، فإن آدم فضل إبقاء عينيه مغمضتين تماماً... رغم أنه حين كان يتنازل، من حين إلى آخر، ويفتحهما، فقد كنت ألحظ أن لونهما أزرق، أزرق ـ جليدي زرقة التكرار، زرقة السماء الكشميرية المهلكة... لكن لا داعي لتعقيد الأمور أكثر.

لقد اندفعنا، نحن أطفال الاستقلال، بحيوية وسرعة هائلتين إلى المستقبل الذي كان ينتظرنا، أما هو، ابن الطوارئ، فإنه سيكون أكثر حذراً ولا شك. سينتظر أوانه، لكنه حين يعمل سيكون من المستحيل مقاومته. فهو بالفعل، أقوى، أصلب عوداً وأشد عزيمة مني. مقلتاه، حين ينام، لا تتحركان البتة. فآدم سيناء، ابن ـ الأنف ـ والركب، لا يستسلم (بقدر ما أعلم) لأية أحلام.

كم من أشياء كثيرة سمعتها تانك الأذنان المرفرفتان اللتان كانتا تبدوان أحياناً، وكأنهما تحترقان بحرارة معرفتهما؟ لو كان باستطاعته التكلم، هل كان سيحذرني من الخيانة والخونة؟ ربما. ففي بلاد يهيمن عليه توأما الصمت والرائحة بجموعهما الهائلة، كان بوسعنا أن نشكل فريقاً كاملاً، لكن ابني الصغير أبى النطق بينما أخفقت أنا في تنفيذ إرادة أنفي.

«حسبك، بابا» تصرخ بادما «ارو فقط ما حدث، يا سيدي! فما وجه الغرابة في أن الطفل لم يكن قادراً على محادثتكم؟».

ومرة ثانية أشعر بالتردد في داخلي: لا أستطيع ـ يجب أن ـ نعم.

في نيسان ١٩٧٦، كنت ما أزال أقطن في مستوطنة السحرة وكان ابني آدم لا يزال في قبضة السل الذي بدا وكأنه يرفض الاستجابة لأي شكل من أشكال العلاج وكنت أتوقع الكثير من الشرور والمصائب (كما كنت مشبعاً بأفكار الهروب)، لكن إن كان هناك من سبب واحد لبقائي في ذلك الحي، فإنما كان بيكتشر سينغ ذلك السبب. ذلك أنني كنت قد فقدت، يا بادما، حين عشت مع سحرة دلهي، جزءاً من إحساسي بالتلاؤم ـ وهو اعتقاد يجلد- الذات، حين يكون المرء منحدراً انحداراً لعيناً إلى حضيض الفقر

(فحين غادرت منزل خالي، لم يكن معي سوى قميصين أبيضين وبنطلونين أبيضين أيضاً وكنزة واحدة مزينة بصورة غيتار وحذاء واحد أسود. وكنت جزيئاً قد خرجت من دائرة ولائي، أنا الذي تشدني روابط الامتنان لمنقذتي، بارفاتي الساحرة، لكنني مكثت ـ رغم أنني، كشاب متعلم، كنت أستطيع العمل كموظف مصرفي أو معلم مدرسة على الأقل ـ ظللت طيلة حياتي أبحث، بوعي أو لا وعي، عن آباء. أحمد سيناء، حنيف عزيز، السيد شابستيكر، الجنرال ذو الفقار، كلهم ضغطوا علي بغية القيام بالدور في غياب وليام ميثولد، وكان بيكتشر سينغ آخر تلك السلسلة النبيلة). ولعلي في شهوتي المزدوجة من سعي إلى آباء ورغبة في إنقاذ الوطن، كنت قد بالغت قليلاً بوصف بيكتشر سينغ، بل ثمة إمكانية مخيفة في أن أكون قد شوهته بما لفقته مخيلتي عنه (وشوهته مرة ثانية على هذه الصفحات)... لكن الصحيح فعلاً أنني كلما كنت أتساءل: «متى ستقودنا يا بيكتشر ـ متى سيأتي اليوم العظيم؟». كان يجيب وهو يرتد مذعوراً: «أخرج أموراً كهذه من رأسك يا رئيس، أنا امرؤ مسكين من راجستان»، لكنني كنت أحثه بإلحاح «هناك سابقة لك ـ هناك ميان عبد الله الطنان..». غير أن بيكتشر كان يرد: «لديك بعض الأفكار الحمقاء يا رئيس».

إبان الشهور الأولى من إعلان الطوارئ، ظل بيكتشر سينغ نهبة صمت كئيب ذكرني (مرة ثانية) بالصمت الكبير الذي التزمته الأم المبجلة (والذي تسرب أيضاً إلى ابني) فأهمل إلقاء المحاضرات على جمهوره في شوارع وأزقة المدينة الجديدة والقديمة، كما فعل ذات مرة، لكن رغم أنه كان يقول: «هذا زمن الصمت يا رئيس» فقد ظل سليم مقتنعاً أنه ذات يوم، في الفجر السعيد الذي سيعقب منتصف الليل الطويل، وعلى رأس موكب عظيم من المحرومين، ربما وهو يعزف على شبابته ويبعث الأفاعي الميتة إلى الحياة، ربما سيكون بيكتشر سينغ من يقودنا إلى النور.. لكن، لم يكن أكثر من حاوٍ، فأنا لا أنكر هذا الاحتمال. كل ما أود قوله هنا هو أنه كان بالنسبة إلي، آخر أب من آبائي، رجلاً ذا لحية، نحيلاً طويلاً يرتد شعره إلى الوراء على شكل عقدة ربطها على قذاله، وكان يبدو صورة طبق الأصل عن ميان

عبد الله، لكن ربما كان ذلك، وليد محاولة مني لأن أربطه بخيوط تاريخي، وهي المحاولة التي بذلتها بكل ما لدي من جهد. ربما كان ذلك وهماً وثمة أوهام كثيرة في حياتي، فلا تحسبن أنني لا أعرف الحقيقة. لكننا نصل إلى زمن ما وراء الأوهام ولأنني لا أملك خياراً آخر، فعلي أن أسجل أخيراً، بالأبيض والأسود، ذروة الأحداث التي تحاشيت التطرق إليها طيلة المساء.

نتف من الذاكرة: علماً بأن هذا ليس هو الأسلوب الذي ينبغي تسجيل ذروة أحداث به، فلكي تصل إلى ذروة ينبغي أن تنطلق من الأسفل إلى الأعلى باتجاه قمة تشبه قمم الهملايا. لكنني هنا، وليس لدي سوى النتف لا بد لي من التحرك نحو ذروتي مثل دمية تقطعت خيوطها. لكن ليس هذا ما خططت له، بل لعل القصة التي سأنتهي بها ليست هي القصة التي بدأت (ذات يوم، في غرفة زرقاء كان أحمد سيناء، يرتجل نهايات لحكايات ـ نسي نهايتها منذ زمن طويل، وكنت أنا والقردة النحاسية نسمع، بمرور السنين، أصنافاً مختلفة من حكايات رحلة السندباد، ومغامرات حاتم الطائي... فإذا بدأت مرة ثانية، هل سأنتهي أيضاً في مكان مختلف؟) حسن، إذاً: علي أن أقنع بالنتف والمزق: فكما كتبت قبل قرون من الزمن، اللعبة هي أن تسد الفجوات، تهديك المفاتيح القليلة المتوفرة لك. إن معظم الأشياء المهمة في حياتنا تجري في غيابنا. ويتعين علي أن تهديني ذكرى منتصف لمحته مرة واحدة يحمل حروفاً أولية تحكي حكايات طويلة علاوة على النتف الأخرى المتبقية من الماضي والماكثة في تجاويف ذاكرتي المهشمة كزجاجة محطمة على شاطئ... فمثل نتف الذاكرة، بدأت صحائف الأخبار تنطلق بسرعة عبر مستوطنة السحرة مع ريح منتصف الليل الصامت.

ولقد زارت كوخي صحف حملتها الريح كي تعلمني أن خالي مصطفى عزيز كان ضحية سفاحين مجهولين فتعمدت ألا أذرف دمعة واحدة. لكن كانت ثمة نتف أخرى من المعلومات ومن تلك النتف علي أن أتوصل إلى تركيب الواقع.

فعلى صفحة إحدى الجرائد (التي تفوح منها رائحة اللفت) قرأت نبأ مفاده أن رئيسة وزراء الهند لا تقصد مكاناً إلا برفقة منجمها الشخصي. وفي

هذا النبأ، رأيت أكثر من هبة لرائحة اللفت. فعلى نحو غامض استطاع أنفي، مرة أخرى، أن يميز رائحة خطر شخصي ما ينبغي استنتاجه من تلك الرائحة المنذرة: العرافون تنبأوا بي، ترى أليس من المعقول أن يبطل العرافون وجودي أيضاً؟ أليس محتملاً أن تكون الأرملة، يتملكها هاجس النجوم، قد علمت من المنجمين بالإمكانات السرية لأي طفل ولد في ساعة منتصف الليل القديمة تلك؟ وهل كان ذلك هو السبب في أن موظفاً مدنياً، خبيراً في علم الانساب، قد كلف بمهمة التقصي..؟ ولماذا تراه نظر إلي تلك النظرة الغريبة في ذلك الصباح؟ نعم، أنت ترين النتف بدأت تتركب معاً! بادما، ألا يتضح الأمر؟ أنديرا هي الهند والهند هي أنديرا.. لكن أليس من المحتمل أنها قرأت رسالة أبيها إلى طفل منتصف الليل تلك الرسالة التي تنكر مركزيتها المبالغ بها؟ هل ترين يا بادما؟ هل ترين؟... لكن ثمة ما هو أكثر، بل ثمة برهان أشد وضوحاً حتى. فهنا توجد مزقة أخرى من «التايمز» الهندية اقتبست منها وكالة أنباء «الأرملة» «ساماشار» بعض كلماتها وهي تتحدث عن «تصميمها على مكافحة التآمر الشديد الواسع الانتشار والمتزايد». وإنني أقول: انها لم تكن تقصد الجبهة الشعبية! لا، فالطوارئ كان لها شقان أبيض وأسود، وهنا يكمن السر الذي ظل مختفياً زماناً طويلاً تحت قناع تلك الأيام المكممة الفم: فالدافع الحقيقي العميق الذي كان يكمن خلف إعلان حالة الطوارئ إنما هو تحطيم، سحق، تفتيت أطفال منتصف الليل (الذين كان مؤتمرهم قد تمزق قبل سنوات بالطبع، لكن مجرد الاحتمال في إعادة ـ اتحادهم كان كافياً لإطلاق نفير الخطر).

والمنجمون ـ ولا ريب ـ هم الذين أطلقوا صفارة الإنذار، ففي مصنف أسود عليه أحرف «م ث ث» كانت ثمة أسماء جمعة من سجلات بعيدة، لكن كان هناك ما هو أكثر من ذلك. فقد كانت هنالك أيضاً إنشاءات واعترافات كان هنالك ركب وأنف ـ أنف وركب أيضاً.

* * *

نتف، مزق، نثرات: ويخيل إلي أنني، قبل أن أفيق مباشرة وفي خيشومي رائحة الخطر، حلمت وكان ذلك الحلم من أشد الأحلام تثبيطاً

للهمم. فقد حلمت بأنني كنت نائماً ولكنني حين أفقت وجدت غريباً في كوخي: شخصاً ذا مظهر شاعري وشعر ينسدل حتى أذنيه (لكنه كان رقيقاً جداً في الأعلى). نعم، خلال هجعتي الأخيرة وقبل أن يحدث ما ـ ينبغي- وصفه، زارني طيف نادر خان الذي كان يحملق مذهولاً بمبصقة فضية مطعمة بالحجر اللازوردي، متسائلاً كالمجنون «هل اختلست هذه؟ فإن لم يكن كذلك، إذاً لا بد من أن تكون ابن ممتازي ـ لكن هل هذا معقول؟». وحين أجبت بالإيجاب «نعم ولا أحد آخر، فأنا هو». حينذاك صدر عن شبح نادر خان تحذيراً؛ «اختف. أمامك فرصة صغيرة، فاختف حيثما تستطيع».

لقد جاء إلي نادر، الذي اختفى تحت سجادة جدي، كي ينصحني بأن أفعل على غراره لكن كان الأوان قد فات. فآنذاك أفقت تماماً، شممت رائحة خطر تدق نواقيسها في أنفي.. هببت على قدمي، يملأني الرعب دون أن أعرف السبب، ثم، هل كان ذلك من صنع مخيلتي، أم أن آدم سيناء كان يفتح عينيه الزرقاوين ليحدق بجد وتجهم بالغين إلى عيني؟ هل كانت عينا ابني ممتلئتين ذعراً أيضاً؟ هل كانت الأذنان الفيليتان قد سمعتا ما شم الأنف رائحته؟ هل تواصل الأب والابن من غير كلام في تلك اللحظة قبل أن يبدأ الأمر كله؟ علي أن أدع علامات الاستفهام معلقة دون جواب، لكن الأمر المؤكد الوحيد هو أن بارفاتي، زوجتي ليلى سيناء، قد أفاقت هي الأخرى ثم سألت: «ما الأمر يا سيدي؟ ما الذي أيقظك؟» فقلت، دون أن أعرف السبب تماماً: «سأختفي، أما أنت فامكثي هنا ولا تخرجي».

بعدئذ مضيت خارجاً.

ولا بد أنه كان الصباح، رغم أن عتمة الليل الطويل كانت لا تزال مخيمة على الحي كالضباب... وعبر ضوء الطوارئ الخافت، شاهدت أطفالاً يلعبون لعبة الآجرات السبع، وبيكتشر سينغ، وقد طوى مظلته تحت إبطه الأيسر، يبول على جدار كوخه. كما شاهدت مشعوذاً أصلع ضئيل الجسم يمارس غرز السكاكين في رقبة تلميذه ابن السنوات العشر، ومشعوذاً آخر وجد جمهوراً فراح يغري كرات صوفية صغيرة بأن تسقط من آباط الغرباء، بينما كان في ركن آخر من الحي، الموسيقار السيد تشاند يمارس عزفه على

البوق، واضعاً الفوهة القديمة للقرن المهشم على عنقه ليعزف عليه ببساطة وذلك باستخدام عضلات حنجرته. . . وكان هناك أيضاً ثلاث من الثلاثيات البهلوانية، يوازنّ سطول الماء على رؤوسن وهن يعدن إلى أكواخهن من صنبور المستوطنة الوحيد. . . باختصار، كان كل شيء يبدو كالمعتاد. وشرعت أوبخ نفسي على أحلامي وإنذاراتي الأنفية، لكن حينذاك بدأ كل شيء.

في البداية جاءت الشاحنات والجرافات وهي تهدر على طول الطريق، ثم وقفت قبالة حي السحرة. بعدئذ لعلع مكبر صوت: «برنامج تجميل المدينة. . . عملية اللجنة المركزية لشبيبة سانجاي. . . استعدوا حالاً للاخلاء إلى موقع جديد. . . هذا الحي القذر مؤذ للعين، لا يمكن تحمله بعد الآن. . . على الجميع تنفيذ الأوامر دون تردد». وبينما كان المكبر يلعلع، كان هنالك أشخاص ينزلون من الشاحنات: وبسرعة نصبت خيمة زاهية الألوان ثم وضعت فيها أسرة ميدانية ومعدات طبية. . . بعد ذلك تدفق من الشاحنات سيل من السيدات ذوات الثياب الجميلة والمنشأ الطبقي الرفيع والثقافة الأجنبية، تلاه سيل ثان من شبان مماثلين أيضاً: إنهم متطوعون، متطوعو شبيبة سانجاي، وهم يؤدون واجبهم تجاه مجتمعهم. . . لكنني حينذاك أدركت أنه ليس هناك متطوعون، فكافة الرجال كان لهم الشعر الأجعد ذاته والشفاه ـ الأشبه - بأشفار النساء، وكانت السيدات الأنيقات كلهن متماثلات أيضاً، ملامحهن تتطابق تماماً مع ملامح ميناكا، زوجة سانجاي، التي كانت الصحف تصفها بـ: «الجمال الطويل الضامر» والتي عملت في الماضي كعارضة أزياء لشركة تصنع الفرش. . . لقد رأيت بأم عيني، وأنا أقف في قلب الفوضى التي سببها برنامج إخلاء الحي، أن السلالة الحاكمة في الهند قد تعلمت كيف تصنع نسخاً عن ذاتها، لكن حينذاك لم يكن ثمة وقت للتفكير، فأصحاب الشفاه ـ الأشفار الذين لا عد لهم ولا حصر وكذلك ذوات الجمال الطويل الضامر كانوا يمسكون بالسحرة والمتسولين المسنين، ثم يجرونهم إلى الشاحنات، وكانت قد انتشرت في تلك اللحظة شائعة في مستوطنة السحرة تقول: «إنهم يقومون بالتعقيم - يطبقون التعقيم بالإكراه»؛

كما انطلقت صرخة ثانية «انقذوا نساءكم وأطفالكم!» وبدأ الشعب، الأطفال الذين كانوا يلعبون لعبة الآجرات السبع بدأوا يقذفون آجرهم وحجارتهم على الغزاة المتأنقين، ثم جاء بيكتشر سينغ وقد جمع السحرة حوله وشرع يلوح بمظلته الغاصبة التي كانت في الماضي تخلق التناغم والألفة، أما في تلك اللحظة فقد تحولت إلى سلاح، رمح دونكيشوتي بعيد المرمى، كما تحول السحرة إلى جيش مدافع، يصنع زجاجات مولوتوف بطريقته السحرية ويلقيها على الخصوم، ينتزع الآجر من أكواخ المشعوذين ويقذفها على المعتدين، حتى امتلأ الجو كله بالصيحات والقذائف الصاروخية الأمر الذي أدى بذوي الشفاه ـ الأشفار وذوات الجمال الطويل الضامر إلى التراجع أمام غضبة السحرة والمشعوذين، وجعل بيكتشر سينغ يمضي قدماً على رأس الهجوم المتجه إلى خيمة العدوان... أما بارفاتي التي عصت أوامري والتي جاءت إلى جواري فقد هتفت: «يا إلهي! ماذا يفـ...». لكن تلك اللحظة كان هجوم جديد وأشد مضاء قد شن على الحي: لقد انقض الجند على السحرة، النساء منهم والأطفال، الشيب والشبان.

ذات يوم كان المشعوذون وساحرو الورق والمنومون المغناطيسيون يسيرون مزهوين بالنصر إلى جانب الجيش المنتصر، لكن ذلك كله بات طي النسيان الآن وقد هجمت البنادق الروسية الصنع على سكان الحي: أي حظ بقي للسحرة الشيوعيين ضد البنادق الاشتراكية؟ هم، نحن نجري الآن، كل في طريقه. أما أنا وبارفاتي فننفصل لدى هجوم الجند، يغيب بيكتشر سينغ عن ناظري وهناك تبدو أخامص بنادق تدق وتسحق. وأرى واحدة من الثلاثي البهلواني تسقط تحت الأقدام كما أرى أناساً يجرون من شعورهم باتجاه الشاحنات المنتظرة الفاغرة الأفواه، فأجدني، لكن بعد فوات الأوان، أتطلع من فوق كتفي الملقاة، أرضاً، ومن فوق كتفي عبر ليل الطوارئ المعتم، أرى أن كل ما يجري ستارة دخان، قبضة ثانوية، إذ ينقض عبر فوضى الشغب شخص أسطوري، تجسيد القضاء والقدر، تجسيد الدمار: لقد انضم الرائد شيفا إلى العراك. إنه يبحث عني فقط، ينطلق خلفي إذ أشعر وأنا أجري أن ورائي ركبتين عجراوين نافرتين تحملان هلاكي...

وتخطر في بالي صورة للكوخ: لا، ليس لابني فقط، بل للمبصقة الفضية المطعمة بالحجر اللازوردي! ففي مكان ما من الحي المضطرب الهائج بقي طفل وحيداً. . . وفي ذلك المكان كان الطلسم الذي حرسني مدة طويلة من الزمن، قد بات مهجوراً. مسجد الجمعة يراقب بلا مبالاة وأنا أروغ، أنحني، أجري بين الأكواخ المائلة، قدماي تقودانني صوب الابن ذي الأذنين الفيليتين، صوب المبصقة الفضية. . . لكن أية فرصة لي تجاه تينك الركبتين؟ ركبتا بطل الحرب تقتربان وتقتربان وأنا أفر، مفاصل عدوي ترعد مقتربة مني ثم تقفز، ساقا بطل الحرب تطيران في الهواء، تنطبقان كالفكين حول عنقي، تشددان الخناق علي فأسقط متلوياً غير أن الركبتين تشددان قبضتهما وحينذاك ينطلق صوت ـ صوت الخيانة، الغدر، الحقد ـ إنه يقول والركبتان تستقران على صدري تمرغانني بالتراب (هكذا إذن أيها الصبي الغني: ها نحن نلتقي ثانية، سلاما). وأتخبط متفتفاً، بينما يكتفي شيفا بالابتسام.

يا للأزرار اللامعة على بزة خائن وهي تومض وتومض كالفضة!!

لماذا فعل ذلك؟ لماذا تحول، هو الذي كان في الماضي يقود عصابات الفوضى في أنحاء بومباي، إلى سيد حرب منتصف الليل، وساقني إلى مصيري؟ أحباً بالعنف وإضفاء الشرعية على ألق أزراره اللامعة؟ أم بسبب حقده القديم علي؟ أم ـ وأجد هذا معقولاً أكثر ـ بحثاً عن الحصانة من العقوبات التي كنا نتمتع بها كلنا. .؟ أجل، هو ذاك، يا بطل الحرب الناكر ـ الحق ـ ميلاده! يا أيها المنافس الفاسد القميء. . . لكن، لا ينبغي أن أكف عن هذا كله، وأن أحكي القصة بأبسط شكل ممكن: فبينما كان الجنود يطاردون ويعتقلون ويجرون السحرة من حيهم، كان الرائد يركز علي. كنت، أنا الآخر، أنجر بقسوة بالغة صوب شاحنة، وبينما كانت جرافات تتحرك قدماً في الحي، كان ينطبق بشدة. . وفي الظلمة صرخت: «لكن ابني! ـ بارفاتي أين هي، أين ليلاي؟ ـ بيكتشر سينغ! أنقذني، يا بيكتشر!» إنما كانت هناك جرافات فقط، ولم يكن أحد يسمع صراخي.

لقد وقعت بارفاتي الساحرة، بزواجها بي، ضحية لعنة الموت العنيف

الذي يحوم حول كل من يمت بالقرابة إلي. . فلا أدري ما إذا كان شيفا، وقد أقفل علي باب شاحنة مظلمة لا منفذ لها، قد مضى يبحث عنها أم أنه تركها للجرافات. . . ذلك أن آلات الدمار في تلك اللحظة كانت قد شرعت بالعمل، وكانت الأكواخ الصغيرة التي تتشكل منها البلدة العتيقة الفقيرة تتهاوى، تنسحق بشدة تحت قبضة المخلوقات التي لا تقاوم: الأكواخ تتقصف كالأغصان، رزم لاعبي الدمى الورقية الصغيرة وسلاسل المشعوذين السحرية كلها تنسحق معاً لتتخذ شكل كتلة هلامية، فقد كان البرنامج يقضي بتجميل المدينة، وإذا ما حدثت بعض الوفيات، إذا ما سقطت فتاة ذات عينين كصحن الفنجان وتبويزة حزن على شفتيها، تحت سلاسل الجرافات فلا بأس، ليس الأمر بذي بال، فالحي يؤذي النظر، ينبغي مسحه عن وجه الأرض. وكذلك ترددت شائعة تقول إنه خلال حمى ـ الموت التي طغت على حي السحرة ذاك، راح عملاق ملتح يجري وقد التفت عليه الأفاعي (لكن قد يكون هذا مجرد مبالغة) راح يجري ـ بأقصى سرعة - عبر الأنقاض - يجري بعنف أمام الجرافات المتقدمة، ممسكاً بيده مقبض مظلة وقد هشمت تهشيماً لا إصلاح بعده، ثم مضى يبحث ويفتش، كما لو أن حياته متوقفة على البحث والتفتيش.

لكن لم تغب شمس ذلك اليوم حتى كان الحي المتكوم في ظل مسجد الجمعة قد زال عن وجه الأرض، غير أنه لم يتم القبض على جميع السحرة، لم يتم نقلهم جميعاً إلى المخيم المحاط بالأسلاك الشائكة الذي يعرف باسم خشريبور، وهو بلدة مختلطة تقع في الطرف القصي من نهر جامونا. كان بيكتشر سينغ قد أفلت ويقال إنه في اليوم الذي أعقب جرف حي السحرة، كان حي جديد مماثل يقام في قلب المدينة، حي محاذ تماماً لمحطة سكك الحديد في دلهي، وحين اندفعت الجرافات إلى مكان الأكواخ المذكور، لم تجد شيئاً. بعد ذلك صار الحي المتنقل للسحرة الهاربين حقيقة معروفة لدى سكان المدينة جميعاً، غير أن أصحاب الجرافات لم يكتشفوه قط. فقد ذكر ذات مرة أنه في مهرولي، لكن حين جاءت أدوات الهدم والتدمير وجدت أن المنطقة خاوية على عروشها. بعدئذ قال المخبرون إن الحي ظهر في حدائق

جنتار منتار وفي مرصد جاي سينغ، غير أن آلات التدمير التي انطلقت إلى المكان المذكور لم تجد إلا الببغاوات والساعات الشمسية. فالحي المتنقل لم يستقر له مقام حتى انتهاء الطوارئ، لكن لا بد لهذا من أن ينتظر قليلاً. فقد آن الأوان، بعد ذلك الانتظار الطويل، للتحدث عن اعتقالي في نزل الأرامل في بينارز.

ذات مرة ولولت ريشام بيبي صائحة: «ويلاه... ويلي..» وكانت على حق: ذلك أنني أنا الذي جلب الدمار لحي أولئك الذين أنقذوني. لقد جاء الرائد شيفا، بناء على أوامر صريحة من الأرملة ولا شك، إلى المستوطنة لإلقاء القبض علي، بينما كان ابن الأرملة يرتب الأمور بحيث يتخذ مشروعه في تجميل المدينة شكل مناورة مختلفة. أجل، لقد تم التخطيط بهذه الطريقة طبعاً كي يكون الأمر (واسمحوا لي أن أقول) أشد فعالية.

ما تحقق خلال أعمال الشغب التي قام بها السحرة: لا مأثرة أقل من ذلك الاعتقال الذي لم يلحظه أحد، اعتقال الشخص الوحيد على وجه الأرض الذي يمسك بالمفتاح الموصل إلى موقع كل طفل من أطفال منتصف الليل ـ ترى ألم أكن أنا من يولف، ليلة بعد ليلة، أذنه الداخلية لكل بث صادر عن أي منهم؟ ألم أكن أحمل، طيلة ذلك الوقت، أسماءهم، ملامحهم، عناوينهم في ذاكرتي؟ ولسوف أجيب على ذلك السؤال: نعم لقد كنت، وبناء على ذلك فقد تم اعتقالي.

نعم، طبعاً، لقد تم التخطيط لذلك كله بتلك الطريقة. فقد أخبرتني بارفاتي الساحرة بكل شيء عن منافسي، لكن هل يعقل أنها لم تذكرني له؟ سأجيب على هذا السؤال أيضاً. لا، أمر لا يعقل البتة. إذاً، كان بطلنا الحربي يعرف مكان اختفائي في العاصمة، أنا الوحيد الذي كان سادته يودون وضع يدهم عليه أكثر من أي امرئ آخر (إذ حتى خالي لم يكن يعلم المكان الذي اتجهت إليه بعد مغادرتي لمنزله، لكن شيفا كان يعرف). وفي اللحظة التي انقلب فيها إلى خائن تغريه، ولا شك، أشياء كثيرة من وعود بالترقية إلى ضمانات للسلامة الشخصية، كان من السهل عليه تسليمي ليدي سيدته، المدام، الأرملة ذات الشعر ذي اللونين.

شيفا وسليم، مفترس وضحية، افهموا التنافس بيننا وسوف تفهمون العصر الذي تعيشون فيه (عكس هذه المقولة صحيح أيضاً).

لكنني في ذلك اليوم خسرت شيئاً آخر، علاوة على حريتي: لقد التهمت الجرافات المبصقة الفضية. وهكذا ساقوني، وقد حرمت من آخر شيء يربطني بماضي الأكثر محسوسية ودقة تاريخية، ساقوني إلى حيث أواجه العواقب المترتبة على حياتي الداخلية التي منحنيها منتصف الليل.

نعم، في ذلك المكان حدث، في قصر الأرامل الواقع على شاطئ الغانج، في أقدم مدينة في العالم، في المدينة التي كانت في غاية القدم حينما كان بوذا يافعاً، كازي بينارز فرانازي، مدينة النور الإلهي، موطن الكتاب النبوي، برج البروج الفلكية التي يسجل فيها حياة كل شخص، وكل ماض وحاضر ومستقبل. الإلهة غانجا تسيل إلى الأرض عبر شعر شيفا... بينارز، مقام شيفا ـ الإله هو المكان الذي ساقني إليه شيفا ـ البطل كي أواجه مصيري. وفي موطن البروج الفلكية ذاك بلغت النقطة التي تنبأ لي بها رامرام سيث في غرفة فوق السطوح: «جنود سيحاكمونه... طغاة سيقتلونه!» هكذا ترنم العراف. حسن، الحقيقة، لم يكن هناك محاكمة رسمية - فركبتا شيفا التفتا حول عنقي، وكان ذلك كافياً - لكنني شممت، ذات يوم من أيام الشتاء، رائحة شيء يقلى في مقلاة حديد...

سر بمحاذاة النهر، اعبر سينداياغات، حيث يؤدي لاعبو الجمباز بملابسهم البيض حركاتهم الرياضية، ثم اعبر بمانيكا ـ نيكاغات، مكان الجنائز، حيث يمكنك أن تشتري النار المقدسة من حفظة اللهب، واعبر بجثث الكلاب والبقر العائمة ـ تلك السيئة الحظ، التي لم يشتر لها أحد ناراً، ثم مر بالراهمانيين وهم تحت المظلات القشية في دازا شواميض ـ بت يكسوهم الزعفران، وينثرون البركات... هنا يغدو مسموعاً، صوت غريب، صوت يتخذ شكلاً فتدرك أنه عويل هائل لا يتوقف، عويل منبعث من تلك النوافذ المحجوبة للقصر المحاذي للنهر. إنه نزل الأرامل! ذاك الذي كان في قديم الزمان مقراً لمهرجان بيد أن الهند اليوم بلد عصري، وأمكنة كهذه تضع الدولة يدها عليها. فالقصر الآن مأوى للنساء المحرومات، واللواتي لم يعد

يسمح لهن بالبحث عن الخلاص، عن الساتي[1]، فجئن إلى المدينة المقدسة كي يمضين أيامهن الباقية في ولولات تقطع نياط القلب. في قصر الأمل تعيش طائفة من النساء اللواتي تكدمت صدورهن بكدمات لا علاج لها، نظراً للقوة التي يضربن بها صدورهن باستمرار، كما نتفت شعورهن بطريقة لا إصلاح لها، وبحثت أصواتهن نتيجة التعبير المستمر عن أحزانهن، إنه بناء ضخم متاهة من الحجرات الصغيرة في الطوابق العلوية تتراجع في الأسفل لتصبح قاعات انتخابات واسعة، نعم ذلك هو المكان الذي حدث أن امتصتني الأرملة فيه إلى قلب إمبراطوريتها الرهيبة ذاته، حيث عزلوني في حجرة علوية وغدت النساء المحرومات يجلبن طعام السجن لي، إنما كان لدي أيضاً زوار آخرون: فقد جاء بطل الحرب باثنين من زملائه معي لأغراض المحادثة لا غير. أي بعبارة أخرى: كان يشجعني على التكلم اثنان بالغا التناقض، فالأول بدين والثاني نحيل وقد أطلقت عليهما اسم آبوت وكوستيلو نظراً لأنهما لم يفلحا قط في دفعي إلى الضحك.

هنا دعوني أسجل وجود فراغ يثير الشفقة في ذاكرتي. إذ لا شيء يجعلني أتذكر أساليب الحوار التي كان يستخدمها معي ذلك الثنائي ذو النبرة الرسمية والذي لا يعرف المزاح قط. ما من صلصة ولا مخللات يمكنها أن تفتح أقفال الأبواب التي حبست خلفها في تلك الأيام! لا، لقد نسيت، فأنا لا أستطيع ولن أقول كيف جعلوني أريق الفاصولياء ـ لكن لا مفر لي من المرور على لب المسألة المخجل وهو أنه رغم افتقاد محققي ذي الرأسين لأسلوب النكت والمزاح والتعاطف الإنساني عموماً، فقد تكلمت بالتأكيد. بل وأكثر من التكلم: ذلك أنني تحت ضغوطهم المنسية - والتي لا يمكن ذكرها، وبتأثير أساليبهم الشيطانية، بت فصيحاً تماماً. وما انسكب من شفتي بانسياب شديد (لا يمكن أن يحدث مثله الآن) إنما هو: أسماء عناوين أوصاف جسدية. أجل، لقد قلت لهم كل شيء، سميت الخمسمائة والثمانية والسبعين جميعاً (إذ إن بارفاتي كانت قد لقيت مصرعها، كما أخبروني

---

(١) لجوء الأرملة الهندوسية إلى حرق نفسها على محرقة زوجها ذاتها تأكيداً لإخلاصها له.

بروحهم الظريفة، وشيفا انقلب خصماً ورقم الخمسمائة وواحد وثمانين كان هو المتكلم..). لقد أرغمتني على الخيانة خيانة شخص آخر، وهكذا غدرت بأطفال منتصف الليل. أشرفت أنا، مؤسس المؤتمر، على وضع نهايته بينما كان آبوت وكوستيلو بوجهيهما المتجهمين يصيحان متعجبين بين الفينة والفينة «أوه؟ رائع، رائع! كنت تعرفها!»، «أوه! أنت متعاون للغاية! هذا الرجل جديد علينا!».

أمور كهذه تحدث، الاحصاءات قد تنظر إلى اعتقالي كأمر مألوف، رغم أن هناك خلافاً كبيراً حول عدد المعتقلين «السياسيين» الذين تم اعتقالهم إبان الطوارئ، لكن، إما ثلاثون ألفاً أو ربع مليون شخص كانوا قد فقدوا حريتهم آنذاك بالتأكيد. الأرملة قالت: «إنها نسبة ضئيلة جداً من عدد سكان الهند». وإبان الطوارئ تحدث جميع ضروب الأشياء: قطارات تنطلق في مواعيدها، أثرياء بطريقة الكسب غير المشروع يتخوفون من دفع الضرائب، بل حتى الطقس ينقلب وتجنى غلات هائلة، فهناك، كما قلت، شطران للمسألة: أبيض وأسود. لكن في الشطر الأسود، كنت أقبع خلف قضبان حجرتي الصغيرة، على فراش من قش هو قطعة الأثاث الوحيدة المسموح بها في تلك الحجرة، حيث كنت أشارك النمل والصراصير طبقي اليومي من الأرز، أما بالنسبة إلى أطفال منتصف الليل - ذلك التآمر المخيف الذي كان ينبغي القضاء عليه مهما كلف الثمن - تلك العصبة من الهدامين السفاحين الذين كانت رئيسة الوزراء المسكونة بهوس التنجيم - ترتعش أمامهم خوفاً، أولئك الوحوش المنحرفون الشاذون، وحوش الاستقلال الذين لا تملك حيالهم دولة ـ الأمة العصرية وقتاً ولا رأفة. فإنهم، بعمرهم البالغ تسعة وعشرين عاماً بزيادة أو نقصان شهر أو شهرين، قد جاؤوا إلى نزل الأرامل ما بين نيسان وكانون الأول، ثم بدأت همساتهم تملأ الجدران، أجل، جدران زنزانتي (العارية، المتقشرة، الرقيقة كالورق). بدأت تهمس في أذني المعطوبة وأذني الصالحة، نتائج اعترافاتي المخزية. كما أن سجيناً ذا أنف كالخيارة مكبلاً بقضبان الحديد وأطواقه، تلك التي تجعل مختلف الوظائف الطبيعية مستحيلة ـ كالمشي، استخدام صفيحة ـ المرحاض التنكية،

القرفصة، النوم ـ ذلك السجين كان يتكوم على جص متقشر، يهمس للجدار.

وحلت النهاية، فقد استسلم سليم لحزنه. طيلة حياتي، وخلال القسم الأعظم من هذه الذكريات، كنت أحول بينها وبين تلويث جملي بملوحتها ورطوبتها، لكن حسبي ذلك. فليس ثمة سبب واحد (إلى أن جاءت يد الأرملة...). يدعو لحبسي لكن من الثلاثين ألفاً أو ربع المليون كله، قيل له لماذا سُجن أو ما هي الدوافع؟ من كان بحاجة لأن يقال له ذلك؟ فعبر الجدران، كنت أسمع الأصوات المكتومة لأطفال منتصف الليل: ولا داعي لحواش أخرى، فقد كنت أهذر مع الجص المتقشر.

ما همس به سليم للجدار ما بين نيسان وكانون الأول من عام ١٩٧٦: ... أيها الأطفال الأعزاء. كيف يمكنني قول هذا؟ إنها جريمتي، وصمة عاري ورغم أن هناك احتمالاً بوجود أعذار فينبغي ألا ألام بشأن شيفا. أناس من مختلف الأصناف زجوا خلف الأقفال. إذاً لم لا يسري ذلك علينا والجرم مسألة معقدة؟ ترى ألسنا جميعاً، أليس كل منا، بشكل من الأشكال، مسؤولاً عن...؟ ترى ألا يقول المثل: كما تكونون يولى عليكم؟ لكم ما من أحد قدم لنا أعذاراً كهذه، فقدمتها أنا لنفسي بنفسي. أيها الأطفال الأعزاء: بارفاتي أصبحت في ذمة الله. وجميلتي اختفت، كذلك الجميع. فالاختفاء يبدو وكأنه خاصة أخرى من تلك الخصائص التي تتكرر في تاريخي: نادر خان اختفى من العالم السفلي، مخلفاً وراءه ورقة مكتوبة، آدم عزيز اختفى أيضاً قبل أن تنهض جدتي من فراشها لتطعمه الإوز. كذلك أين ماري بيريرا يا ترى؟ أنا نفسي اختفيت في سلة. لكن ليلى أو بارفاتي ذهبت هباء بغير مساعدة من سحر وطلاسم. والآن، ها نحن أيضاً نختفي عن وجه الأرض. لعنة الاختفاء، يا أعزائي، تلاحقني، تتسرب بوضوح إليكم. لا، فيما يخص مسألة الجرم، أرفض رفضاً باتاً أن آخذ بوجهة النظر الأشمل، فنحن شديدو الالتصاق بما يحدث. إذاً المنظور الواسع الشامل مستحيل، ربما سيقول المحللون في ما بعد الأسباب والحيثيات، ربما سيستخلصون الاتجاهات الاقتصادية والتطورات السياسية الأساسية، لكن الآن، وفي هذه اللحظة، نحن بالغو القرب من شاشة السينما، حيث الصورة تتحلل إلى ذرات

ونقاط صغيرة، وبالتالي فإن الأحكام الذاتية وحدها هي الممكنة. بصورة ذاتية إذاً، أطأطئ رأسي حزناً. فاغفروا لي: أيها الأطفال الأعزاء اغفروا لي لكن، لا، فأنا لا أظنكم فاعلين.

السياسة، يا أطفال: هي في أحسن الأزمنة عمل قذر فاسد، علينا أن نتجنبها وألا نحلم يوماً بهدف، فقد توصلت إلى نتيجة هي أن الخصوصية، غرق الفرد في حياته الخاصة، خير من كل ذلك النشاط المضخم المتعلق بالأمور الكبرى العامة. لكن الأوان قد فات، لا فائدة من هذا الكلام. وما لا يمكن شفاؤه ينبغي تحمله.

سؤال معقول يا أطفال: ما الذي ينبغي تحمله؟ لماذا نحشر هنا على هذا النحو واحداً بجانب الآخر؟ لماذا تتدلى القضبان والأطواق من أعناقنا؟ بل ثمة قيود أخرى أشد غرابة (إن كان ينبغي تصديق همس الجدران): فمن لديه موهبة السباحة في الهواء لخفة وزنه يقيد من كاحليه إلى الأرض، والمذؤوب يرغم على ارتداء كمامة لخطم الحيوان ومن يمكنه الفرار عبر المرايا يتعين عليه أن يشرب الماء من ثقب في علبة ذات غطاء، بحيث يتعذر عليه الاختفاء، عبر سطح الماء العاكس، وتلك التي يمكن لنظراتها أن تقتل وضع رأسها في كيس، كما أن جميلات بود الفاتنات وضعت رؤوسهن في أكياس أيضاً. واحد منا يستطيع أن يأكل المعدن فحشر رأسه في مشد حديد لا يفك رتاجه إلا وقت الطعام... لكن ماذا يحضر لنا أيضاً؟ شيء أشد سوءاً يا أطفال. أنا لا أعلم ما هو تماماً، لكنه في الطريق إلينا. أيها الأطفال: نحن أيضاً، علينا أن نستعيد.

ولأصارحكم: خبر جيد يا أطفال! فهم لم يستطيعوا وضع يدهم علينا جميعاً. سوميترا، رحالة ـ الزمن مثلاً ـ آه يا لطيش الشباب! يا لنا من أغبياء نحن الذين جحدنا بتنبؤاته هكذا! سوميترا هذا ليس هنا، لعله يتجول في زمن ما أكثر سعادة من الزمن الذي نعيش فيه. لقد تملص من زمر ـ البحث والتفتيش إلى الأبد؟. لا، لا تحسده، رغم أنني أنا، أيضاً، أحن من حين إلى آخر لأن أفر إلى الوراء، وأنا طفل في قصور وليام ميثولد ـ آه يا للحنين الشديد لأيام الإمكانات الأعظم، قبل التاريخ، تلك الأيام التي تشبه شارعاً

خلف مركز البريد العام في دلهي يضيق إلى أن يصل إلى نهاية مسدودة - لكننا هنا الآن، واستبطان كهذا يقتل الروح المعنوية، فافرح يا سليم! افرح ببساطة لأن بعضنا حر طليق!

وبعضنا قضى نحبه. لقد أخبروني عن بارفاتي ـ ليلى تلك التي كان يلوح لي، من خلال ملامحها وحتى آخر لحظة وجه الشبح المتداعي، لا . . لا، نحن لم نعد خمسمائة وواحداً وثمانين. إنني أرتعش في قرس كانون، فكم واحداً منا يجلس مثلي رهين الجدران والانتظار؟ إنني أسأل أنفي فيجيب: أربعمائة وعشرون، رقم الغش والزيف. أربعمائة وعشرون تسجنهم الأرامل، وهناك واحد آخر. ذلك الذي يتبختر بجزمته العسكرية حول النزل ـ إنني أشم رائحته النتنة وهو يقترب ويبتعد، حمأة للخيانة؟- فالرائد شيفا، بطل الحرب، شيفا أو الركب هو الذي أشرف على اعتقالنا لكن هل سيقنعون بالأربعمائة والعشرين يا ترى؟ أيها الأطفال: أنا لا أعلم كما أنني لا أعلم كم من الزمن ستنتظرون.

. . . لا، أنتم تهزأون بي، كفى، كفى مزاحاً. لماذا، من أين كيف بحق الله جاءت هذه الطبيعة الجيدة، هذه الوداعة، إلى همساتكم التي تتناقلونها؟ لا، عليكم أن تدينوني، في الحال وبلا استئناف ـ لا تعذبوني بتحياتكم، وأنا أمر بكم واحداً تلو الآخر في زنزاناتكم، هل هذا هو المكان أو الزمان الملائم للسلامات والتحيات والاستفسارات عن الصحة! أيها الأطفال، ألا تفهمون أن بإمكانهم أن يفعلوا بنا أي شيء، أي شيء ـ لا، كيف يمكننا قول ذلك، ماذا تقصد بقولك يمكنهم فعل أي شيء؟ دعوني أقل لكم يا أصدقائي، القضبان الفولاذية موجعة حين تشد على الكواحل، كذلك فإن أخمص البندقية يترك كدمات على الجباه. ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟ أسلاك كهربائية تولج في الشرج؟ حسن يا أطفال، ذلك ليس الاحتمال الوحيد فهناك أيضاً التعليق من الأقدام، والشموع آه يا للألق الرومانسي العذب الذي ينبعث من ضوء الشموع. إنها أقل من مريحة حين توضع وهي مشتعلة، على الجلد! كفاكم الآن، أوقفوا تلك المودة كلها، ألستم خائفين! ألا تودون أن ترفسوني، تطأوني بأقدامكم، تسحقوني فتاتاً فتاتاً؟ لماذا! هذه الذكريات التي

تتهامسونها باستمرار، هذا الحنين للمشاجرات القديمة، لحرب الأفكار والأشياء، لماذا تعذبونني بهدوئكم، بتعابيركم المألوفة، بقدراتكم على الارتفاع فوق الأزمة؟ بصراحة، أنا محتار يا أطفال كيف يمكنكم، وأنتم في التاسعة والعشرين، أن تجلسوا وتتهامسوا بتحبب في زنزاناتكم؟ يا للعنة؟ هذا ليس ملتقى اجتماعياً.

أطفال، أنا آسف، يا أطفال، بل أنا أعترف بصراحة أنني لم أعد في الفترة الأخيرة أنا نفسي. لقد كنا بوذا، وشبحاً مختفياً في سلة، ومنقذ الأمة المرتجى.. كان سليم يندفع منحدراً، في الأزقة الضيقة، لديه مشكلات لا بأس بها مع الواقع، مذ هوت مبصقة وكأنها فلقة قمر... ارثوا لحالي: لقد فقدت حتى مبصقتي. لكنني أخطئ مرة ثانية، فأنا لم أكن أنوي قط أن أطلب الشفقة أو الرثاء. بل كان في نيتي أن أقول إنني ربما أرى. فأنا، ولستم أنتم، من أخفق في فهم ما يحدث. شيء لا يصدق يا أطفال: فنحن لا نستطيع التكلم خمس دقائق من غير خصام: نحن، الذين كنا، كأطفال، نتشاجر نتعارك، ينقسم بعضنا على البعض الآخر، يشك بعضنا في البعض الآخر، نتباعد، نحن أولاً نجد أنفسنا فجأة وقد اجتمعنا مرة ثانية واتحدنا ككل واحد! يا للسخرية العجيبة: الحقيقة لقد جمعتنا الأرملة معاً حين جلبتنا هنا بغية تحطيمنا! فيا لجنون العظمة المدمر لذاته، يا لجنون عظمة الطغاة!!! إذ ما تراهم يستطيعون فعله بنا، وقد بتنا جميعاً في صف واحد، بلا خلافات لغوية، ولا أهواء دينية: فرغم كل شيء، نحن في التاسعة والعشرين الآن وينبغي ألا أناديكم بالأطفال بعد هذه اللحظة...! أجل، هنا التفاؤل كالآفة: فذات يوم ستضطر لاخراجنا وحينذاك انظروا وسوف ترون، ربما سنشكل، لا أدري، حزباً سياسياً جديداً، أجل حزب منتصف الليل، فأي حظ تملكه السياسة إزاء أناس يمكنهم أن يكثروا الأسماك أضعافاً مضاعفة ويقلبوا المعادن الخسيسة إلى ذهب؟ يا أطفال، شيء ما يولد هنا، في حلكة سجننا هذا، فلتفعل الأرامل شر ما يستطعن، الوحدة لا يغلبها غلاب! يا أطفال: لقد انتصرنا.

موجع جداً. التفاؤل ينمو مثل خضراء الدمن: ويؤلمني أن أتذكره.

كفى: إنني أنسى البقية. لا، لا، حسناً جداً، ها أنذا أتذكر... ترى ما هو أسوأ من القضبان، القيود، الأصفاد، الشموع على الجلد؟ الضرب، اقتلاع الأظافر والموت جوعاً؟ سأكشف عن أرق وألطف مزحة من مزحات الأرملة: لقد كانت تمنحنا الأمل بدلاً من تعذيبنا. الأمر الذي كان يعني أن ثمة شيئاً، لا، بل أكثر من شيء: أروع الأشياء على الإطلاق ـ تود أخذه، والآن، حالاً، مباشرة، سأعمل على وصف الطريقة التي اقتطعته بها.

الطريقة التي امتصت بها كل أمل.

في عيد رأس السنة، جاءني زائر، صرير باب، حفيف ثوب هفهاف غال. النموذج أخضر وأسود. نظارتاها خضراوان، حذاؤها أسود كالليل الأسود.... وفي مقالات الصحف كانت هذه المرأة تدعى «المرأة البهية ذات الردفين الكبيرين الرجراجين».. كانت تدير محل مجوهرات قبل توليها عملاً اجتماعياً... وخلال فترة الطوارئ، كانت هي المسؤولة بصورة شبه رسمية، عن التعقيم. «لكن، لدي أنا، لها اسم خاص: يد الأرملة». تلك اليد التي كانت تتناول الرجال واحداً إثر الآخر فتنكتم أنفاس أطفال، وتولي خصى، وتتمزق... هكذا بالأخضر والأسود دلفت إلى زنزانتي، يا أطفال: هكذا البداية. استعدوا يا أطفال، لنقف صفاً واحداً. دعوا يد الأرملة تنفذ ما تريده لكن بعد، بعد... فكروا بحينذاك، الآن لا يحمل تفكيراً بـ... أما هي فتقول بعذوبة ومعقولية «أساساً، القضية برمتها، هي قضية الله».

(هل تنصتون يا أطفال؟ تجاوزوا ذلك).

«فشعب الهند» تابعت يد الهند مفسرة «يعبد سيدتنا كما يعبد الإله. والهنود هم الوحيدون القادرون على عبادة إله واحد».

لكنني كنت قد نشأت في بومباي حيث يجد المرء لكل من شيفا فيشنو غانيش أهو ما زادا الله والآلهة الآخرين الذين لا حصر لهم ولا عد، أتباعاً وعباداً... فجادلتها «لكن ماذا عن آلهة شعبنا؟ ماذا عن الثلاثمائة والثلاثين مليون إله الذين تدين بهم الهندوسية وحدها؟ والإسلام والبوذية...؟». فجاءني الجواب: «أوه، أجل، يا إلهي؟ ملايين الآلهة! أنت على صواب. لكنها جميعاً تجليات للإله كلي القوة نفسه... أنت مسلم: إذاً أنت تعلم ماذا

أعني بالإله الكلي القوة؟ حسن جداً. بالنسبة إلى الجماهير. سيدتنا هي تجلٍ من تجليات الإله الكلي القوة».

كما هناك أربعمائة وعشرون، أي مجرد ٠,٠٠٠٠٧ من مجموع سكان الهند الذين يبلغون ستمائة مليون. أي، إحصائياً، نسبة تافهة لا تؤخذ بالحسبان بل حتى لو كنا نشكل نسبة معتبرة من المعتقلين الثلاثين ألفاً (أو المائتين والخمسين ألفاً) فإننا لم نكن نشكل إلا ١,٤ بالمائة (أو ١٦٨وَ). لكن ما عرفته من يد الأرملة هو أن الآخرين الذين يودون أن يكونوا آلهة لا يخشون أحداً بقدر ما يخشون الآخرين الذين يحتمل أن يكونوا آلهة، وذلك، ذلك فقط، هو السبب في أننا، نحن أطفال منتصف الليل السحريين، كنا موضع كراهية الأرملة، وموضع خوفها وتدميرها، تلك الأرملة التي لم تكن إلا رئيسة وزراء الهند، لكن أوحي لها أيضاً أن تكون ديفي، أم الآلهة في أشد جوانبها هولاً، إلهة متعددة الأطراف ذات فرق نصفي وشعر يعاني من الفصام... هكذا عرفت معناي في ذلك القصر المتداعي، قصر النساء ذوات الصدور المكدمة.

من أنا؟ من نحن؟ لقد كنا، نكون، وسنكون الآلهة الذين لم تعرفهم من قبل. كنا سنكون شيئاً آخر، لكن لكي أفسر ذلك ينبغي أن أروي الجزء الأصعب أخيراً.

دفعة واحدة، إذاً، فبغير هذه الطريقة لن أستطيع قول شيء، دفعة واحدة أقول لكم انه في عيد رأس السنة من عام ١٩٧٧، قالت لي فتاة بهية رائعة الجمال ذات ردفين رجراجين إنهم، سيكتفون بأربعمائة وعشرين، بعد أن تأكدوا من أن مائة وتسعة وثلاثين قد ماتوا، وحفنة صغيرة فقط تمكنت من الفرار، وهكذا يمكن أن يبدأ الآن، القص القص، وسوف يكون هنالك مخدر وعد حتى العاشرة وهكذا مضت الأعداد قدماً: واحد، اثنان، ثلاثة وأنت أهمس إلى الجدار دعهم دعهم فطالما نعيش ونبقى معاً من يمكنه الوقوف في وجهنا؟... لكن من قادنا، واحداً تلو الآخر إلى غرفة القبو تلك حيث أقيمت يا سيدي - لأننا لسنا برابرة متوحشين يا سيدي - وحدات لتكييف الهواء، كما نصبت طاولة عليها مصباح متدلٍ، وحولها أطباء

وممرضات بالأخضر والأسود، أثوابهم خضر وعيونهم سود...؟ من رافقني، بركبتيه العجراوين اللتين تتعذر مقاومتهما، إلى الغرفة التي تم فيها إلغائي؟ لكنكم تعرفون. يمكنكم أن تخمنوا، فليس هناك سوى بطل حرب واحد في هذه القصة، سرت معه، غير قادر على مقاومة سم ركبتيه، حيثما أراد... بعدئذ كنت هناك، وفتاة بهية ذات ردفين كبيرين رجراجين تقول: «رغم كل شيء، ليس باستطاعتك أن تتذمر، فأنت لا تنكر أنك ذات يوم أكدت النبوءة؟» لقد كانوا يعرفون كل شيء يا بادما، كل شيء، لذلك مددوني على الطاولة، ثم نزل قناع على وجهي، بعدئذ بدأ العد حتى العاشرة وبدأت الأعداد تنط سبعة ثمانية تسعة... عشرة...

واحد يقول: «يا الله، لا يزال واعياً. لكن كن فتىً طيباً، تابع حتى العشرين..».

... ثمانية عشر، تسعة عشر، عشرو...

وكانوا أطباء نطاسيين: فلم يتركوا شيئاً للحظ، لم يعاملوني كما يعاملون الجماهير الحاشدة بقطع القناة الدافقة، إذ تظل هناك فرصة، فرصة انعكاس مثل هذه العمليات... لقد تمت عملية القطع إنما على نحو غير قابل للانعكاس: الخصى تنتزع من أكياس الصفن، الأرحام تختفي إلى الأبد.

وهكذا، حرم أطفال منتصف الليل من إمكانية التكاثر... لكن ذلك لم يكن إلا أثراً جانبياً، ذلك أنهم كانوا أطباء نطاسيين حقاً، وقد استخلصوا منا ما هو أكثر من ذلك: الأمل، أيضاً، تم استخلاصه ولا أدري كيف فعلوا ذلك، فالأعداد كانت تمضي قدماً، ثم توقف العد، وكل ما يسعني قوله هو أننا، في نهاية الأيام الثمانية عشر التي أجريت فيها عمليات الخصي بمعدل وسطي هو ٢٣,٣٣ عملية يومياً، لم نكن قد فقدنا الخصى والأرحام وحسب بل أشياء أخرى أيضاً: لكن في هذه الناحية، كنت أفضل من سواي، ذلك أن التصريف العلوي الذي أجري لي سابقاً قد خلصني من موهبة التخاطر التي منحنيها منتصف الليل، ولم يكن لدي ما أفقده، فحساسية الأنف لا يمكن انتزاعها قط.. أما بالنسبة إلى الآخرين، كل من جاؤوا إلى قصر الأرامل المعولات ولم تمس مواهبهم السحرية بعد، فإن استعادة الوعي بعد زوال

المخدر كانت ذات وطء شديد بالحقيقة، فقد بات الهمس عبر الجدران يصلني كي يروي لي حكاية إلغائهم، حكاية القضاء عليهم، إذ بات يصلني صراخ الأطفال المعذبين الذين فقدوا قدراتهم السحرية: لقد جردتنا منها، تلك الفتاة البهية ذات الردفين العريضين الرجراجين، دبرت عملية إبادتنا، والآن ها نحن لا شيء، نحن الذين كنا مجرد ٠,٠٠٠٠٧، بتنا أسماكاً لا يمكنها التكاثر ولا تحويل المعادن الخسيسة، ضعنا، ولت إلى الأبد إمكانات الطيران وإتيان المعجزات التي منحنا إياها منتصف الليل.

التصريف في الأسفل، ليس عملية قابلة للانعكاس
فمن نحن؟ أحلام منكسرة وجدت لكي تنكسر
والآن علي أن أحكي لكم عن الرائحة

أجل، ينبغي أن تعرفوا كل شيء: مهما بدا ذلك مضخماً ميلودرامياً كأفلام بومباي. عليكم أن تتلقوه حتى النهاية، عليكم أن تروا! ما الذي شم سليم رائحته في مساء الثامن من كانون الثاني ١٩٧٧: شيء ما يقلى في مقلاة حديد، أشياء طرية لا يمكن ذكرها تبهّر بالكمون والكزبرة والقرفة والزنجبيل... أبخرة لاذعة الرائحة ولا مفر منها لأشياء ـ تم ـ انتزاعها وهي تطهى فوق نار هادئة هادئة.

حين جرت علينا ـ نحن الأربعمائة والعشرين ـ عمليات الاقتطاع، تكفلت إلهة الانتقام بأن تطهو بعض الأجزاء المقتطعة مع البصل والفلفل الأخضر وأن تقدم إلى كلاب ـ بينارز المرقشة (وقد تم تنفيذ أربعمائة وإحدى وعشرين عملية اقتطاع: لأن واحداً منا، هو نارادا أو ماركانادايا كانت لديه القدرة على تغيير جنسه: لذا توجب إجراء العملية مرتين له: كذكر وأنثى).

لا، ليس باستطاعتي إثبات ذلك، بل ولا أي جزء منه. فالدليل تصاعد مع الدخان: الأجزاء المقتطعة منا أطعمت للكلاب المرقشة، وفي ما بعد، في العشرين من آذار، حرقت المصنفات تلك الأم ذات الشعر الملون بلونين ومعها ابنها المحبوب.

لكن بادما تعلم ما الذي لا أستطيع فعله الآن، بادما التي صرخت ذات مرة وهي في سورة غضب: «أية فائدة ترجى منك، يا إلهي، كمضاجع؟»

ذلك الجزء، على الأقل يمكن التحقق منه: ففي كوخ بيكتشر سينغ كنت قد استنزلت على نفسي اللعنة بادعائي العجز زوراً وبهتاناً، ولا أستطيع القول إنه لم يحذرني، فالحقيقة أنه قال لي: «يمكن أن يحدث أي شيء يا رئيس» ولقد حدث.

أحياناً أشعر أن عمري ألف عام: أو لأكن أكثر دقة (فأنا لا أستطيع، حتى في هذه اللحظة أن أهمل الشكل) ألف عام وعام.

كان ليد الأرملة ردفان رجراجان وكانت في الماضي تملك محل مجوهرات وبدايتي أنا بين الجواهر: ففي كشمير، عام ١٩١٥، كان هنالك ياقوت وماس، جداي الأكبران كانا يديران مخزن أحجار كريمة. الشكل ـ ومرة أخرى، التكرار والشكل ـ أمر لا مفر منه.

بين الجدران، الهمسات البائسة المنبعثة عن الأربعمائة والتسعة عشر المنذهلين، بينما كان رقم العشرين بعد الأربعمائة يفسح المجال ـ ومرة واحدة، لحظة واحدة من التبجح مسموح بها ـ للسؤال الوقح التالي... إذ صرخت بأعلى صوتي: «وماذا بشأنه؟ ماذا بشأن الرائد شيفا، الخائن؟ ألا تبالون؟» فجاء الجواب من البهية ذات الردفين الكبيرين الرجراجين: «الرائد أجرى بملء اختياره عملية الإخصاء».

حينذاك، شرع سليم يضحك في زنزانته المعتمة المنعزلة، يضحك من صميم قلبه، «لم أكن أضحك كل ذلك الضحك على منافسي الرئيسي ولم أكن أترجم على نحو سوداوي عبارة «ملء اختياره»، بل كنت أتذكر قصصاً حكتها لي بارفاتي، لبلاي، قصصاً أسطورية عن جولات بطل الحرب الغرامية، عن أفواج أبناء الزنى الذين جعل بطون السيدات الراقيات والبغايا على حد سواء تنتفخ بهم: كنت أضحك لأن شيفا، مدمر أطفال منتصف الليل، كان أيضاً قد قام بالدور الآخر الكامن في اسمه ذاته، دور شيفا ـ الخصب، شيفا ـ المنجاب، بحيث إنه يوجد في هذه اللحظة بذاتها، في قصور وأكواخ البلاد، جيل جديد من الأطفال الذين أنجبهم أحد أطفال منتصف الليل، والذين يندفعون باتجاه المستقبل. لكن لا بد لكل أرملة من أن تنسى أمراً هاماً، وقد نسيت أرملتنا هذا الأمر».

في أواخر آذار ١٩٧٧، أطلق سراحي على نحو غير متوقع من قصر الأرامل المعولات فوقفت أطرف بأجفاني كبوم وجد نفسه بغتة في ضوء الشمس، دون أن اعرف كيف وماذا أو لماذا. بعدئذٍ، وحين تذكرت كيف تطرح الأسئلة، اكتشفت أنه في الثامن عشر من كانون الثاني (أي في اليوم نفسه الذي انتهى فيه القص ـ الاقتطاع، اليوم نفسه الذي جرى فيه قلي مواد ما في مقلاة حديد، وأي برهان آخر تود أن أقدمه لك على أننا، نحن الأربعمائة والعشرين، كنا من تخشاهم الأرملة أكثر من الجميع؟) في ذلك اليوم، كانت رئيسة الوزراء وبصوت أثار دهشة الجميع، قد دعت إلى انتخابات عامة. (باستطاعتك الآن بعد أن علمت ما جرى لنا أن تفهم سر ثقتها المفرطة بنفسها). لكن في ذلك اليوم، لم أعرف شيئاً عن هزيمتها الساحقة ولا عن المصنفات التي حرقت، إنما في وقت لاحق فقط عرفت كيف كانت آمال الأمة المهشمة قد وُضِعت في قبضة عجوز خرف يأكل الفستق وحب البلاذر ويشرب يومياً كأساً من «مائه الخاص». لقد جاء شاربو البول إلى الحكم. الجبهة الشعبية، لم تبد لي (حين سمعت بها) تمثل فجراً جديداً، لكن ربما سأتدبر أمر معالجة نفسي من فيروس التفاؤل أخيراً ـ ربما الآخرون، الذين لا يزال المرض في دمهم، يشعرون على نحو مغاير. على أي حال، كنت قد لقيت ـ في ذلك اليوم من آذار ـ ما فيه الكفاية من السياسة، بل وأكثر من الكفاية.

أربعمائة وعشرون وقفوا يطرفون بأجفانهم في نور الشمس وصخب نوارس بينارز. أربعمائة وعشرون كانوا يتطلعون بعضهم إلى البعض الآخر ويرى بعضهم في أعين البعض الآخر ذكرى خصيه ثم يتمتمون، وهم عاجزن عن تحمل المشهد، كلمات وداع ويفترقون، لآخر مرة، في زحمة الحشود التي تنسي الأوجاع.

لكن ماذا بشأن شيفا؟ لقد وضع النظام الجديد الرائد شيفا تحت الحجز العسكري لكنه لم يبق هناك طويلاً، فقد سمح له باستقبال زيارة واحدة: ذلك أن روشاناراشيتي، وعن طريق الرشوة، الإغواء، وجدت طريقها إلى زنزانته، روشانارا نفسها التي سكبت ذات مرة السم في أذنيه وهما في مضمار سباق

ماها لاكسمي، روشانارا التي دفعها إلى الجنون منذئذٍ ابن حرام أنجبته منه، ابن حرام يرفض التكلم أو فعل شيء لا يرغب به. هناك، استلت زوجة ملك الفولاذ من حقيبتها مسدساً ألمانياً ضخماً كان زوجها يملكه، ثم أطلقت النار على قلب بطل الحرب، وحدثت الوفاة، كما يقال، في اللحظة والتو.

قضى الرائد نحبه دون أن يعرف أنه ذات مرة، وفي مستشفى توليد ذي لونين زعفراني وأخضر، وفي غمرة الفوضى الأسطورية لمنتصف ليل لا ينسى، قامت امرأة ضئيلة الحجم مخبولة العقل بتبديل بطاقتي أسماء حارمة إياه من حق مولده، ذاك الذي كان يخص عالماً في أعلى رابية غارقاً بالمال والملابس البيض المنشاة وأشياء وأشياء ـ عالماً كان يحب امتلاكه كثيراً كثيراً.

وسليم؟ لا، لا صلة لي بالتاريخ بعد ذاك، فقد جففوني من فوق ومن تحت، وهكذا شققت طريقي عائداً إلى العاصمة مدركاً أن العصر الذي بدأ في منتصف الليل القديم ذاك، بلغ نهايته بشكل من الأشكال. كيف تنقلت؟ انتظرت خلف رصيف محطة بينارز أو فارا نازي وليس معي سوى بطاقة رصيف، ثم وثبت على سلم عربة من الدرجة الأولى وقطار البريد منطلق نحو الغرب. الآن أخيراً عرفت كيف يشعر المرء حين تتوقف على قبضة يده حياته الغالية، بينما تتناثر ذرات الغبار، الدخان، الرماد في عينيه، وهو مضطر لأن يدق على الباب ويصيح: «أوه! مهراجا! افتح! دعني أدخل أيها السيد العظيم، يا مهراجا؟» بينما تأتي من الداخل كلمات مألوفة: «لن أفتح لأحد أياً كان. متهربون من الأجرة لا غير».

في دلهي، يطرح سليم أسئلة: أرأيتم أين؟ هل تعرفون إن كان السحرة..؟ من يعرف بيكتشر سينغ؟ ويشير ساعي بريد، في عينيه ذكرى باهتة عن الحاوي، باتجاه الشمال. وفيما بعد يرجعني ماضغ ـ بان مسود اللسان من حيث جئت. أخيراً، يكف الأثر عن الاضمحلال. ممارسو التسليات في الشوارع يهدونني إليه. رجل يحمل صندوق دنيا ومدرب نمس وكوبرا يلبس قبعة ورقية كأنها زورق شراعي لطفل من الأطفال، فتاة في كشك سينما تحتفظ بحنينها لطفولتها كتلميذة ـ ساحر... جميعهم، وكصيادي السمك، يشيرون بأصابعهم. الغرب الغرب الغرب إلى أن يصل

سليم أخيراً إلى باص شاديبور، ذلك المستودع القابع في الأطراف الغربية من المدينة. جائعاً ظامئاً. خائر القوى، مريضاً، موهناً أعبر ممرات الباصات الهادرة داخل وخارج المستودع ـ باصات مطلية طلاء ساراً، حاملة أحرف كتابة في مقدماتها مثل «ما شاء الله» وعلى مؤخراتها عبارات أخرى مثل «الحمد لله!» ـ وهكذا يصل سليم إلى حفنة من الخيام المشعثة البالية المتجمعة حول جسر إسمنتي لسكة حديد، فيرى في ظل الجسر الإسمنتي العملاق، ساحر ـ الأفاعي القديم وقد تحلل إلى ابتسامة ضخمة تكشفت عن أسنان مهترئة، وبين ذراعيه طفل صغير عمره واحد وعشرون شهراً، أذناه كأذني الفيلة وعيناه واسعتان كصحون الفناجين ووجهه جاد متجهم كالقبر.

تعويذة

الحقيقة أنني كذبت، في ما يتعلق بموت شيفا، كذبتي المباشرة الأولى رغم أن تمثيلي للطوارئ بزي ستمائة وخمسة وثلاثين يوماً ـ طويلاً ـ كمنتصف الليل ربما هو مفرط الرومانتيكية كما يتناقض بالتأكيد مع البيانات التقويمية المتاحة. مع ذلك، وأياً كان تفكير المرء، فإن الكذب ليس مما يفعله سليم عادة فأطأطئ رأسي خجلاً وأنا أعترف. . . لم إذاً هذه الكذبة المفضوحة؟ (لأنني بالحقيقة لا أملك أية فكرة عن المكان الذي توجه إليه منافسي الخطير بعد نزل الأرامل فقد يكون في الجحيم أو في ماخور قرب الطريق ولا فرق لدي). بادما، حاولي أن تفهمي: فأنا ما زلت خائفاً منه ـ ثمة قضية لم تنته بيننا، وإنني أقضي أياماً وأنا مرتعد الفرائص خشية أن يكون بطل الحرب قد اكتشف بشكل ما سر مولده ـ هل عرض عليه أحدهم يا ترى مصنفاً في يوم من الأيام عنوانه ثلاثة أحرف تحكي الحكايات؟ وكذلك خشية أن يستفزه فقدانه لماضيّ الذي لا يعوض فيأتي عني كي ينفذ انتقاماً خانقاً. . .

هل هكذا سينتهي الأمر، فينتزع الحياة مني زوج من الركب الخارقة للعادة والتي لا تعرف الرحمة.

هذا هو السبب في أنني كذبت على أي حال. فللمرة الأولى أجدني ضحية الإغراء الذي يتعرض له كل كاتب لسيرة ذاتية، ضحية الوهم القائل بأنه طالما أن الماضي غير موجود إلا في ذاكرة المرء وفي الكلمات التي تجاهد عبثاً لاحتواء هذه الذكريات، فمن الممكن اختراع أحداث ماضية لمجرد القول بأنها وقعت. لقد وضع خوفي الحالي مسدساً في يد روشانارا

شيتي، ومع إطلالة شبح المقدم سبرماتي، مكنتها من أن ترشو، تغوي، وتنسل إلى زنزانته. . قصارى القول أن ذكرى جريمة من جرائم حياتي الأولى قد خلقت الظروف (الخرافية) الأخيرة للجريمة الأخيرة.

نهاية اعتراف: الآن أوشك تماماً على بلوغ نهاية ذكرياتي. إنه الليل. بادما في موقعها، وفوق رأسي على الجدار ثمة عظاءة تلتهم ذبابة، وحرارة آب الخانقة التي تكفي لسلق مخ المرء تمور مرحة بين أذني، وقبل خمس دقائق شق القطار المحلي الأخير ذو اللونين الأصفر والبني، طريقه جنوباً إلى محطة تشيرتشجيت، بحيث لم أسمع ما قالته بادما بتصميم وخجل. وهكذا تعين علي أن أطلب إليها تكرار ما قالته، فبدأت عضلات الاستنكار ترتعش في ربلتي ساقيها. وفي الحال ينبغي أن أسجل أن زهرتنا، زهرة اللوتس الروثية، اقترحت علي الزواج «بحيث تمكنني رعايتك دون أن يجللني العار في نظر العالم».

ذلك ما كنت أخشاه تماماً! لكنه ظهر الآن للعيان، وبادما (يمكنني القول) لن ترضى أن يكون جوابي بالنفي. لقد احتججت احتجاج عذراء خجلى: «غير متوقع أبداً ـ وماذا بشأن الخصى، وما أطعموه للكلاب المرتعشة؟ ألا تبالين؟» ـ و«بادما، بادما، ثمة أيضاً ـ ما ينهش العظام، وما سيحولك ذات يوم إلى أرملة؟» ـ و«فكري فقط لحظة واحدة، فهناك لعنة الموت العنيف، فكري ببارفاتي ـ هل أنت متأكدة؟ هل أنت متأكدة؟ متأكدة أنت؟. . ». لكن بادما أجابت وفكاها مطبقان ككتلة اسمنت من التصميم الذي لا يتزعزع قط: «اصغ إلي يا سيدي بلا اعتراضات! دعك من ذلك الكلام الخيالي كله ولا تبال به بعد الآن: فثمة المستقبل الذي ينبغي أن تفكر به. شهر العسل ينبغي أن يكون في كشمير».

في الحر الخانق الذي أسلمني إليه قرار بادما، تهاجمني فكرة مجنونة وهي أن من المحتمل، رغم كل شيء، أن تغير بادما نهاية قصتي بقوة إرادتها الخارقة للعادة، وأن الصدوع ـ والمنية نفسها ـ قد ترفع الرايات البيض أمام رعايتها المفرطة. . . «هناك المستقبل الذي ينبغي التفكير به» (هكذا حذرتني) ـ وربما هناك مستقبل! لا نهائية النهايات الجديدة تتحلق حول رأسي، تطن

كأنها حشرات الصيف. . «دعنا نتزوج يا سيدي» قالت لي فتحركت ديدان الاهتياج في أمعائي، وكأنما كانت بادما تنطق ببعض التعابير السرية، بعض التعاويذ المخيفة وتحررني من قدري ـ لكن الحقيقة تشاكسني، تضايقني. الحب لا يقهر كل شيء، إلا في أفلام بومباي، التشقق، التمزق، التصدع، كلها لم تهزم أمام الاحتفاء فقط، بيد أن التفاؤل مرض من أخطر الأمراض.

«في عيد ميلادك، ما رأيك؟» تقترح بادما «في الواحدة والثلاثين الرجل رجل ويفترض أن تكون له زوجة».

كيف ينبغي أن أخبرها؟ كيف يمكنني أن أوضح، وهناك خطط أخرى لذلك اليوم، إنني كنت دائماً في قبضة قدر مهووس ـ بالشكل يستمتع بإنزال كوارثه في الأيام المشهودة. . باختصار، كيف يمكنني أن اخبرها عن الموت؟ لا، لا يمكنني ذلك، بل بدلاً من ذلك أبدي لها ضروب الامتنان جميعاً وأوافق على اقتراحها. أنا، هذا المساء، رجل خطب لتوه، فلا يقسُ علي أحد بالتفكير لأنني سمحت لنفسي ـ ولخطيبتي زهرة اللوتس. . . بهذه المتعة الأخيرة الصغيرة التي لا تترتب عليها أية عواقب.

باقتراحها الزواج، كشفت بادما عن تصميمها في أن تتجاوز كل ما رويته لها عن ماضيّ باعتباره كلاماً خيالياً، وحين عدت لأجد بيكتشر سينغ متألقاً في ظلال جسر سكة الحديد، أصبح واضحاً تماماً أن السحرة أيضاً يفقدون ذاكرتهم. ففي مكان ما، وفي أحد الانتقالات الكثيرة التي قام بها الحي الفقير الجوال، أضاعوا قدراتهم على الاحتفاظ بشيء، حتى باتوا عاجزين عن الحكم على أي شيء، فقد نسوا كل ما يمكنهم أن يقارنوا به ما يحدث، حتى فترة الطوارئ كان مصيرها النسيان. على غرار ماضيهم تماماً، كان السحرة يركزون على الحاضر تركيز القواقع المفرط ذاك. ولم يكونوا يلحظون أنهم قد تغيروا، بل لقد نسوا أنهم كانوا في يوم من الأيام على نحو مغاير، لقد تسربت الشيوعية منهم لتمتصها التربة العطشى بسرعة شديدة، وقد بدأوا ينسون مهاراتهم وهم رهن الجوع، المرض، العطش، مضايقات الشرطة التي باتت تشكل الحاضر (كالمعتاد). لكن، بالنسبة إلي: فقد رأيت ذلك التغير الذي طرأ على زملائي القدامى ضرباً من القذارة. لقد مر سليم

بحالة فقدان ذاكرة ورأى بأم عينه مدى لا أخلاقيتها، ففي ذهنه كان الماضي يزداد وضوحاً يوماً بعد يوم بينما بدا الحاضر (الذي كانت قد فصلته عنه سكاكين إلى الأبد)، مضطرباً مشوشاً، بلا لون، شيئاً لا جدوى منه، وأنا الذي يمكنني أن أتذكر كل شعرة على رؤوس جلادي وسجاني، صدمني أيما صدمة عزوف السحرة عن النظر إلى الوراء. «الناس كالقطط» قلت لابني «ليس باستطاعتك أن تفهم شيئاً». فتطلع برصانة مناسبة إنما أمسك لسانه عن الكلام.

حين اكتشفت المستوطنة الشبحية لأصحاب الوهم المشعوذين، كان ابني آدم سيناء قد تخلص من كل أثر من آثار السل الذي أصابه في أيامه الأولى. وبالطبع، كنت أنا موقناً أن المرض إنما زال بسقوط الأرملة، غير أن بيكتشر سينغ أخبرني أن الفضل بشفائه إنما يعود لامرأة غسالة تدعى دورغا، كانت قد اعتنت به خلال مرضه معطية إياه ما يدره ثدياها الهائلان اللذان لا ينضبان. «دورغا تلك يا رئيس» قال الحاوي العجوز وصوته يشير إلى حقيقة أخرى هي أنه، في شيخوخته، وقع ضحية السحر الأفعواني للغسالة «يا لها من امرأة!».

وكانت امرأة مفتولة العضلات، ثدياها الخارقان للطبيعة يطلقان سيلاً من الحليب يمكنه تغذية فوج من الجند، امرأة يشاع عنها في السر (وأشك أنها هي التي أطلقت تلك الإشاعة) أن لها رحمين. إنها تمشي محملة بالقيل والقال بقدر ما هي محملة بالحليب: ففي كل يوم تنطلق من شفتيها دزينة من القصص الجديدة. كما أنها تمتلك طاقة لا حدود لها، كتلك التي يمتلكها كل من يمتهنون مهنتها، إذ كانت، وهي تفرك القمصان والساريات وتجلد الحياة منها على حجر غسيلها، تبدو وكأنها تزداد قوة، كما لو أنها تمتص قوة الملابس التي تغسلها والتي تغدو في النهاية مسطحة بلا أزرار مخنوقة حتى الموت. كانت دورغا وحشاً بشرياً ينسى كل يوم لحظة انتهائه، وبنفور بالغ وافقت على التعرف إليها وبنفور أشد وافقت على إيراد ذكرها في هذه الصفحات. إذ كان لاسمها، حتى قبل مقابلتي لها، رائحة الشيء الجديد. كانت تمثل الجدة، البدايات، مطالع القصص، الأحداث، الحبكات الجديدة

ولم أكن معنياً بأي شيء جديد بعد. لكن، حين أعلمني بيكتشر أن في نيته الزواج بها، وجدتني بلا خيار. مع ذلك فإنني سأتناول قصتها بكل الاختصار الذي تسمح الدقة لي به.

باختصار، إذن: دورغا الغسالة كانت سقوبة[١]. غولة مصاصة للدماء بهيئة بشرية. وتأثيرها على بيكتشر سينغ لم يكن يضاهيه إلا تأثيرها على القمصان المسحوقة تحت مخباطها: أي بكلمة واحدة، كانت قد سطحته تماماً. فما إن قابلتها مرة واحدة، حتى فهمت لماذا كان بيكتشر سينغ يبدو عجوزاً مهدماً. فهو المحروم من مظلمة التآلف التي كان يجتمع الرجال والنساء تحتها طلباً لمشورة وفيء، بدا وكأنه يتقلص يوماً بعد يوم، كما كان الاحتمال أن يصير «طناناً» ثانياً، يتضاءل أمام ناظري ذاتهما. أما دورغا فقد كانت تزدهر: إشاعاتها تزداد فحشاً، وصوتها يشتد ارتفاعاً وحدَّة إلى أن باتت تذكرني بالأم المبجلة في أخريات أيامها حين كانت تتمدد وجدّي يتقلص. على أن صدى الحنين هذا لجدي وجدتي هو الشيء الوحيد المهم، بالنسبة إلي، في شخصية تلك الغسالة الصخابة.

لكن ينبغي ألا ننكر سخاء غددها الأمومية: فقد كان آدم، وهو في شهره الحادي والعشرين لا يزال يرضع قانعاً بحلمتيها. بادئ ذي بدء فكرت بأن أصر على فطامه لكنني تذكرت بعدئذٍ أن ابني لا يعمل إلا على هواه، وعلى هواه تماماً، فقررت ألا أضغط كثيراً على هذه النقطة (وكما اتضح فقد كنت مصيباً في ذلك). أما في ما يخص رحمها المزدوج المزعوم، فلم تكن لدي أدنى رغبة في معرفة حقيقة القصة أو سواها ولم أطرح أي سؤال حول الموضوع.

لقد أتيت على ذكر دورغا الغسالة بصورة رئيسية لأنها هي التي تنبأت لأول مرة بموتي ونحن نتناول ذات مساء وجبة مؤلفة من سبع وعشرين حبة رز لكل منا. فهتفت تعجباً، أنا المتضايق من سيل أخبارها وثرثراتها، ذلك السيل الذي لا ينقطع: «سليم، بابا، لقد أحسنت معاملتك لأن بيكتشر يقول

(١) السقوبة: امرأة زعم أنها تجامع الرجال وهم نائمون.

إن اعتقالك حطمك تماماً، لكن، لنتكلم بصراحة، لا يبدو عليك أنك مهتم هذه الأيام بشيء سوى التسكع هنا وهناك إنما عليك أن تدرك أن المرء حين يفقد اهتمامه بالقضايا الجديدة، إنما يفتح الباب لعزرائيل».

ورغم أن بيكتشر سينغ قال ملطفاً الجو: «هلمي، رئيسة، هيا الآن، لا تكوني قاسية على الولد» رغم ذلك فقد نفذ سهم دورغا إلى مرماه.

كنت أشعر، وأنا مستنفد القوى مجفف تماماً بعد عودتي، أن خواء الأيام يكسونني طبقة هلامية كثيفة، ورغم أن دورغا عرضت في الصباح التالي، وربما بروح من الندم الصادق على كلماتها القاسية، أن تعيد لي قوتي بأن تدعني أرضع ثديها الأسمر، في الوقت الذي يرضع فيه ابني ثديها الأيمن، «وبعد ذلك ربما تبدأ التفكير على نحو مستقيم مرة ثانية»، فإن تصورات الموت والفناء بدأت تشغل الحيز الأكبر من تفكيري، ثم اكتشفت بعدئذٍ مرآة الضعة في مستودع باصات شاديبور، فصرت أشد اقتناعًا بنهايتي الوشيكة.

لقد كانت مرآة مثلثية الشكل في مدخل مرأب الباصات، وقد وجدت، وأنا أتجول على غير هدى في ساحة المستودع الأمامية، أن شيئاً يلفت انتباهي بما ينعكس عليه من نور الشمس. فأيقنت أنني لم أر نفسي في المرآة منذ أشهر، بل ربما سنين، وهكذا اجتزت الفاصل بيني وبينها ثم وقفت تحتها. وحين تطلعت إلى الأعلى، رأيت نفسي في المرآة وقد تحولت إلى مسخ كبير الرأس ثقيل الجمجمة، كما رأيت في تلك اللمحة السريعة المقتضبة، أن شعر رأسي قد صار رمادياً كغيوم المطر. القزم في المرآة بوجهه المتغضن وعينيه المكتئبتين، ذكرني على الفور بجدي آدم عزيز يوم حكى لنا عن رؤيته الله. في تلك الأيام كانت كل الأمراض التي شفيت منها على يدي بارفاتي الساحرة قد عادت إليّ (نتيجة لعملية التصريف الأخيرة). وهكذا، بأصابعي التسع وصدغي القرنيين وبقعة الشعر الجرداء كبقعة الراهب ووجهي المبقع وساقي المعوجتين وأنفي الأشبه بالخيارة وخصائي وشيخوختي السابقة لأوانها، رأيت في المرآة تلك، مرآة الضعة والمذلة، كائناً بشرياً لا يمكن للتاريخ أن يفعل شيئاً آخر له، مخلوقاً غريباً تم تحريره

من القدر المحتوم، القدر الذي أشبعه ضربات إلى أن تركه شبه فاقد للحس، وفي تلك اللحظة سمعت بأذني المعطوبة والأذن الأخرى الصالحة ذلك الوقع الخفيف لخطا ملك الموت الأسود.

فطغى على محيا المسخ العجوز ـ الشاب في المرآة سيماء انتعاش عميق.

أراني وقد صرت كئيباً فلأغير الموضوع... قبل أربع وعشرين ساعة تماماً من إثارة غلام البان، تلك الإثارة التي جعلت بيكتشر سينغ يرحل إلى بومباي، اتخذ ابني آدم سيماء القرار الذي سمح لنا بمصاحبة ساحر ـ الأفاعي في رحلته.. ففي الحال ودون أي إنذار وعلى نحو أثار المرأة الغسالة ـ المربية التي أرغمت على إراقة حليبها المتبقي في أوعية سعة واحدها خمسة ليترات، على هذا النحو فطم آدم ذو الأذنين الفيليتين نفسه. لقد رفض، بلا صوت، الحلمة طالباً (بغير كلام) طعاماً مما يأكله الناس: دقيقاً أرزاً مطهواً، عدساً سلق كثيراً، وبسكويتاً، فبدا وكأنه قرر أن يسمح لي بالوصول إلى خط نهايتي الخالص والوشيك.

حكم فردي صامت مطلق لطفل عمره أقل من عامين: إذ لم يكن آدم يقول لنا متى يجوع أو ينعس أو يحتاج لقضاء حاجته الطبيعية. كان يتوقع منا أن نعرف. ولعل الانتباه الدائم الذي كان يتطلبه هو أحد الأسباب التي تفسر لماذا عملت، رغم كل المؤشرات الدالة على العكس، على أن أبقى على قيد الحياة... فقد ركزت، أنا العاجز عن فعل أي شيء آخر في الأيام التي أعقبت إطلاق سراحي، على رعاية ابني «أقول لك يا رئيس، إنه لمن حسن الحظ أنك عدت»، صرح بيكتشر ذات يوم، «وإلا لكان هذا الصغير قد حولنا جميعاً إلى مربيات». ففهمت مرة ثانية أن آدم هو أحد أفراد ثانٍ من الأطفال السحريين الذين سيفوقون بشدتهم وبأسهم أفراد الجيل الأول، والذين لم يبحثوا عن مصائرهم في النبوءات أو النجوم، بل يصهرونها في أفران إرادتهم التي لا تبقي شائبة. وحين نظرت إلى عيني الطفل الذي لم يكن ابني والذي كان في الوقت ذاته يرثني أكثر مما يمكن «لأي طفل من لحمي ودمي» أن يفعل ذلك، وجدت في بؤبؤيهما الخاويين الباهتين مرآة ثانية لضعتي، مرآة

رأيت فيها أن دوري من تلك للحظة فصاعداً، سيكون دوراً ثانوياً، دور عجوز لا حاجة له: أي، ربما، ذلك الدور التقليدي لمن يذكر الآخرين بالمضي، لمن يروي الحكايات. . . فتساءلت إن كان أبناء الحرام الذين أنجبهم شيفا في جميع أنحاء البلاد يمارسون طغياناً مشابهاً على الكبار العاثري الحظ وتصورت للمرة الثانية أن قبيلة من الأطفال الشديدي البأس ينمون ويتعلمون ويكبرون بانتظار اللحظة التي سيكون فيها العالم لعبة بين أيديهم (كيف يمكن التعرف إلى هؤلاء الأطفال في المستقبل: سراتهم تبرز إلى الخارج بدلاً من الداخل).

لكن ها قد آن الأوان لتحرك الأشياء: تعبير وسخرية، قطار أخير يتجه صوب الجنوب، معركة نهائية. . في اليوم الذي أعقب فطام آدم، رافق سليم بيكتشر سينغ إلى ساحة كونوت ليساعده في عمله كحاو. أما دورغا فقد وافقت على أن تأخذ ابني معها إلى غوط[1] الغسيل: فقضى آدم النهار وهو يشهد بأم عينه كم تنتزع المرأة من ثياب الأغنياء من القوة لتتشربها، هي المرأة السقوبة. في ذلك اليوم الحاسم حين عاد الطقس يطغى على المدينة كأسراب النحل، كان الحنين يتآكلني لمبصقتي الفضية التي سحقتها الجرافات. لقد قدم لي بيكتشر سينغ مبصقة ـ بديلة علبة فارغة من علب دالدا فانا سباتي، ورغم أنني استخدمتها لتسلية ابني وأنا أطبق خبرتي في فن إصابة المبصقة النبيل، مرسلاً نفثات طويلة من عصير الفوفل عبر الجو القاتم لمستوطنة السحرة إلا أنني لم أجد عزاء عن مبصقتي تلك. سؤال: لم كل هذا الأسى على وعاء يتلقى بصاقاً لا غير؟ جوابي أنه يتعين عليك ألا تستهين بالمبصقة. فهي ببهائها وروعتها في صالون الراني كوش ناهين، كانت تتيح لنخبة القوم أن يمارسوا الأشكال الفنية التي تمارسها الجماهير. وهي، بألقها في القبو، حولت عالم نادر خان السفلي إلى تاج محل ثان، وبالتقاطها الغبار في حقيبة صفيحية عتيقة ظلت رمزاً للبقاء. لقد كانت موجودة في تاريخي كله، وظلت على نحو صريح، تتمثل الأحداث في صناديق الغسيل، رؤى ـ الأشباح، التجمد ـ عدم

(١) الغوط: درج ينزل عليه الناس إلى مكان الغسيل على النهر.

التجمد، عمليات التصريف، حالات النفي، إلى أن سقطت من السماء مثل فلقة من القمر، وتمثلت تحولاً أبدياً دائماً. آه يا للمبصقة الطلسمية! يا لحافظة الذكريات المفقودة الجميلة وكذلك حافظة عصارة البصاق! ليت شعري أي شخص حساس يتعاطف معي في لوعتي وحسرتي على فقدانها؟

. . . إلى جواري في مؤخرة حافلة مكتظة بالبشر، كان بيكتشر سينغ يجلس وسلة الأفاعي تتكوم فوق حجره ببراءة تامة. ومع قعقعة الباص وطقطقته عبر شوارع المدينة التي كانت ملأى أيضاً بأشباح مدن دلهي الأسطورية الأقدم، تلك الأشباح المنبعثة من جديد، كانت سيماء الساحر الأعظم في العالم تكتسي بهيئة القنوط، وكأنه خرج لتوه من معركة في غرفة معتمة بعيدة. . . فحتى عودتي لم يكن أحد قد فهم أن خوف بيكتشر الحقيقي الضمني يتجسد في أنه بدأ يشيخ، وأن قدراته بدأت تتضاءل، وأنه في القريب العاجل يغدو عاجزاً مرمياً في عالم لم يفهمه: وعلى غراري، كان بيكتشر سينغ متعلقاً بالطفل آدم حريصاً على وجوده وكأن الطفل مشعل نور في نفق طويل مظلم. لقد قال لي ذات مرة «طفل رائع يا رئيس، طفل ذو رفعة: إنك لا تلحظ أذنيه إلا بالكاد».

غير أن ابني لم يكن معنا في ذلك اليوم.

روائح نيودلهي هاجمتني في ساحة كونوت ـ الرائحة البسكويتية المنبعثة من إعلانات مانغرام، الرائحة الحوارية المخزنة والمنبعثة من الجص المتداعي، وكانت هناك أيضاً آثار الروائح المأسوية المنبعثة من سائقي السيارات المهددين بالموت جوعاً بعد ارتفاع أسعار النفط، والروائح العشبية الخضراء المنبعثة من الحديقة الدائرية التي تتوسط حركة المرور الدائرة وقد اختلطت برائحة رجال السوق السوداء وهم يقنعون الأجانب بصرف نقودهم في جنبات الطريق المعتمة، وكذلك من مقهى الهند، حيث يمكن سماع مختلف الأقاويل والشائعات في الكواليس، من هناك كانت تجيء رائحة أقل إمتاعاً، رائحة قصص جديدة في بداياتها: مؤامرات، زيجات، مشاجرات، وكانت روائحها كلها تختلط بروائح الشاي والتوابل. الأشياء التي شممت رائحتها في ساحة كونوت: وجود فتاة متسولة قريبة شوهت وجهها ضربات

السكاكين، فتاة كانت ذات يوم سونداري الباهرة الجمال، وكذلك فقدان الذاكرة، والالتفات إلى المستقبل وشيء يتغير ـ حقاً. . . وبإشاحة وجهي عن هذه الروائح، ركزت كل التركيز على الروائح الأبسط النافذة في كل مكان، روائح البول (البشري) والروث الحيواني.

تحت أروقة المبنى الكبير المحاذي لساحة كونوت، وإلى جوار كشك الكتب القائم على الرصيف كان بائع بان قد أقام عشه الصغير. وهناك جلس متصالب الساقين وراء طاولة زجاجية خضراء أشبه بإله صغير للمكان كله: وإنني آتي على ذكره في الصفحات الأخيرة هذه لأنه، رغم روائح الفقر المنبعثة منه، كان في الحقيقة شخصاً ذا أهمية خاصة، مالك سيارة لينكولن كونتيننتال تلك التي غاب بها عن النظر في سيرك كونوت والتي دفع ثمنها من الثروة التي حصل عليها من بيعه الدخان المهرب وأجهزة راديو الترانزستور. ففي كل سنة كان يقضي أسبوعين في السجن كما يقضي الناس العطل، أما بقية السنة فكان يدفع فيها لعدد من رجال الشرطة راتباً محترماً. وفي السجن يعامل معاملة الملوك، لكن خلف طاولته الزجاجية الخضراء كان يبدو كأي إنسان آخر، عادياً، بريئاً غير مؤذ، حتى أنه كان من الصعب (لولا وجود انف حساس كأنف سليم) أن يقول المرء إن ذلك هو الرجل نفسه الذي يعرف كل شيء عن كل شيء، الرجل الثري الذي جعلته شبكة اتصالاته اللامحدودة مطلعاً على معلومات سرية. . . بالنسبة إلي، كان ذلك الرجل يمثل صدى إضافياً ليس مزعجاً لشخصية ممثلة عرفتها في كراتشي إبان الفترة التي كنت أقوم فيها بجولاتي على اللامبريتا، وكنت منهمكاً إلى حد باغتني معه تماماً حين تكلم.

لقد شرعنا بعملنا بجوار عشه، وبينما كان بيكتشر مشغولاً بتلميع الشبابات ولف عمامة زعفرانية ضخمة حول رأسه، كنت أنا أقوم بدور المنادي «هلموا، هلموا ـ مرة واحدة في العمر تحظون بمثل هذه الفرصة ـ سيداتي سادتي، تعالوا تفرجوا، تعالو تفرجوا، انظروا من هنا، ليس حاوياً عادياً، ليس نصاباً في الشوارع، بل هذا، أيها المواطنون، الساحر الأعظم في العالم، أجل، تعالوا انظروا، تعالوا تفرجوا: صورته أخذتها شركة إيستمان

كوداك المحدودة! قربوا! قربوا! لا تخافوا ـ بيكتشر سينغ هنا؟». . . وكنت أنوي ألا أستمر في هذا النوع، لكن بائع البان قاطعني قائلاً: «أنا أعرف حاوياً أفضل. أجل فهذا الشخص ليس الحاوي رقم واحد. لا، بالتأكيد، ففي بومباي رجل أفضل».

بهذه الطريقة عرف بيكتشر سينغ بوجود منافسه، وبذلك تخلى عن خططه جميعاً بتقديم العرض بل بدلاً من ذلك سار نحو بائع البان ذي الابتسامة الطيبة، باحثاً في أعماقه عن صوته الآمر القديم، ثم قال: «قل لي الحقيقة عن ذلك الدجال، يا رئيس، أو بعثت بأسنانك إلى معدتك حتى تنهشها». فهمس بائع البان بلا خوف، هو العارف بوجود رجال الشرطة الثلاثة المتخفّين في مكان قريب والجاهزين للتحرك سريعاً لحماية رواتبهم إذا اقتضت الحاجة، همس لنا بأسرار حضوره الكلي خاكياً لنا من هو ومتى صار وأين يعيش إلى أن قال بيكتشر بصوت رابط الجأش إنما يخفي خوفه في أعماقه: «لأذهبن إلى بومباي وأري ذلك الغلام من هو الأفضل. ففي دنيانا هذه، أيها الرؤساء، لا مكان لرجلين يحملان لقب الساحر الأعظم».

وهز بائع الفوفل كتفيه هزّاً لطيفاً، ثم تنخم في إثرنا وقد انفتلنا على أعقابنا.

* * *

مثل طلسم سحري، فتحت سخريات بائع البان المهينة الباب الذي عاد منه سليم إلى مدينته، مسقط رأسه، وموطن حنينه الأشد. أجل، لقد كانت تلك السخرية أشبه بـ «افتح يا سمسم». فحين عدنا إلى الخيام البالية المنصوبة تحت جسر سكة الحديد، نقب بيكتشر سينغ في التربة ثم أخرج منديلاً معقوداً على محفوظاته، قماشة وسخة حائلة اللون كان قد خبأ فيها قروشه البيضاء لأيامه السوداء وحين رفضت دورغا الغسالة أن تصحبه قائلة: «ماذا تظن يا بيكتشر، هل أنا امرأة كثيرة الملايين حتى أتمكن من أخذ عطل وما إلى ذلك؟». حينها التفت وفي عينيه شيء أشبه بالتضرع ثم طلب إلي أن أرافقه، بحيث لا يضطر لخوض معركته الأشد، معركة اختبار شيخوخته، بلا صديق. . . نعم، ولقد سمعه آدم أيضاً، بأذنيه الفيليتين، سمع نغمة السحر،

فرأيت عينيه تشعان ألقاً حين قبلت. بعدئذٍ وجدنا أنفسنا في عربة من عربات سكة الحديد من الدرجة الثالثة ونحن نتجه جنوباً جنوباً، فسمعت في قعقعة العجلات الرتيبة كلمة السر: ابراكادابرا... ابراكدابرا[1]... هكذا كانت تردد العجلات وهي تحملنا في طريق العودة إلى بومباي.

نعم، لقد غادرت مستوطنة السحرة إلى الأبد. كنت أدفع التعويذة قدماً إلى قلب الحنين الذي أبقاني حياً مدّة تكفي لأن أكتب هذه الصفحات (وأن أصنع عدداً مماثلاً من المخللات). آدم وسليم وبيكتشر ينحشرون في عربة من الدرجة الثالثة، آخذين معهم عدداً من السلال المربوطة بخيوط، تلك السلال التي أخافت بحفيفها المستمر البشر المعلبين كالسردين في العربة، حتى راحت الحشود تتراجع وتتراجع بعيداً عن خطر الأفاعي، الأمر الذي أتاح لنا قدراً من الراحة والفراغ، بينما كانت العجلات تغني تعويذته لأذني آدم الفيليتين.

مع رحيلنا إلى بومباي، بدأت تشاؤمية بيكتشر تكبر وتمتد إلى أن بدت وكأنها أمست كلاً مادياً له شكل الحاوي فقط: في ماثورا، دخل شاب أمريكي ذو ذقن مكسوة بالبثور ورأس حُلق حتى بات أصلع كالبيضة، دخل إلى عربتنا وسط موجة من الباعة الجوالين الذين يبيعون تماثيل الحيوانات وكؤوس الشاي وكان يهوّي على وجهه بمروحة من ريش الطاووس، فجعل الحظ السيئ الذي يحمله ريش الطاووس بيكتشر سينغ مكتئباً إلى درجة تفوق التصور. وبينما كان القطار يطوي سهول الهند الغانجية التي لا حدود لها والتي تبعث إلينا عبر النوافذ بحرّ الأصيل اللامعقول لكي يعذبنا، كان الأمريكي الحليق يحاضر بركاب العربة عن خصائص الهندوسية كما بدأ يعلمهم ترانيم وهو يمد طاسة شحاذة مصنوعة من خشب الجوز، غير أن بيكتشر سينغ كان أعمى تجاه هذا المشهد الغريب وأصم أيضاً إزاء تعويذة العجلات. «الأمر سيئ يا رئيس» أسر إلي مكتئباً «غلام بومباي هذا، لا بدّ أنه شاب وقوي وأنا محكوم علي بأن أكون الثاني بين الساحرين الأعظمين من

(١) أي: تعويذة.. تعويذة.

اليوم فصاعداً». وحين وصلنا إلى محطة كوتاه كانت روائح سوء الحظ المنبعثة من ريش المروحة الطاووسية قد تملكت بيكتشر تملكاً تاماً، مسحته على نحو مخيف إلى درجة ظل معها في العربة دون حراك بينما خرج الجميع إلى الأرصفة والشوارع، وفي محطة راتلام، حين كان اهتياجي يتصاعد، وجدته غارقاً في غيبوبة ليست نوماً بل هي شلل التشاؤمية المتصاعد. ففكرت «على هذا المعدل، لن يكون بمقدوره أن يتحدى منافسه حتى». وعبرنا باارودا لكن لا تغير. وفي سورات، مستودع شركة جون القديمة، فكرت أن علي أن أفعل شيئاً على الفور، ذلك أن التعويذة كانت تدنو بنا أكثر وأكثر من محطة بومباي المركزية، وهكذا التقطت شبابة بيكتشر الخشبية العتيقة، وشرعت أعزف عليها بغير مهارة على نحو مخيف إلى درجة بدأت الأفاعي معها تخرج وهي تتلوى في حالة من العذاب الشديد وجعلت الشاب الأمريكي يلتزم الصمت، وكان العزف جهنمياً إلى درجة لم يلحظ معها أحد مرورنا بشارع: باسين، كورلا، ماهيم، وبذلك تغلبت على سحر ريش الطاووس، أخيراً نفض بيكتشر سينغ عنه القنوط مبتسماً ابتسامة واهية ثم قال: «الأفضل أن تكف، يا رئيس، دعني أعزف أنا، أو كن على يقين أن بعض الناس سيموتون من الألم».

وعادت الأفاعي تلتف على نفسها في سلالها، ثم توقفت العجلات عن الغناء، فقد وصلنا بومباي! واحتضنت آدم بشدة. كنت غير قادر على مقاومة حاجة في نفسي تدفعني لإطلاق صيحة قديمة «عدنا إلى بومباي» وهتفت، رغم دهشة الشاب الأمريكي الذي لم يكن قد سمع هذه الترنيمة: ومرة أخرى . . . مرة أخرى: «عدنا إلى بومباي».

وبحافلة تنحدر مع شارع بيلاسيس، باتجاه دوار تارديو، كنا ننتقل مارين بفارسيين ذوي عيون غائرة، بمحلات إصلاح الدراجات والمقاهي الإيرانية، بعد ذاك كان هورنبي فيلارد إلى يميننا ـ حيث شاهد المتنزهون ذات يوم الكلبة شيري الهجينة وقد تركناها تلفظ أنفاسها، حيث لا تزال صور المصارعين الكرتونية تطل من على مداخل ملعب فلابهبهاي باتيل ـ وكانت الحافلة تقعقع وتطقطق وهي تمر بشرطة المرور والواقيات الشمسية ومعبد

ماها لاكسمي ومن ثم شارع واردن! أحواض بريتش كاندي الخاصة بالسباحة! ثم انظر! ها هي ذي الحوانيت. . . لكن الأسماء تغيرت. ترى أين فردوس القارئ بمعروضاته من كتيبات السوبرمان الهزلية؟ أين مصبغة باندبوكس ومحل بومبيلي وألواح الشوكولا؟ أوه، يا إلهي، انظر في أعلى رابية ذات دورين حيث كانت تقوم ذات مرة قصور وليام ميثولد تعرش عليها البوغنفيلية وتحدق بكبرياء إلى البحر. . . يقوم الآن وحش هائل زهري اللون على شكل مبنى كبير، مسلة وردية ناطحة للسحاب، مسلة نساء نارليكار تمتد عالياً في السماء ماحية حلقة سيرك طفولتنا. . أجل تلك هي مدينتي بومباي، لكنها ليست بومباي في الآن نفسه، فقد وصلنا منعطف كيمب لنجد اللوحات الإعلانية الخاصة بشركة طيران الهند وطفل كولينوس قد ولت، زالت تماماً بل إن شركة توماس كيمب ذاتها قد تبخرت في الهواء. . . لتتقاطع معابر وجسور فوقية حيث كانت، في يوم من الأيام، توزع الأدوية كما تتألق جنية صغيرة ذات قبعة كلوروفيلية وهي تشرف على حركة المرور. وبلوعة رثائية غمغمت بين أسناني: «أبق أسنانك نظيفة أبق أسنانك لامعة! كولينوس يجعل أسنانك ناصعة البياض». لكن رغم التعويذة التي غمغمتها فقد عجز الماضي عن الظهور ثانية، وكانت الحافلة تخشخش وهي تنحدر على شارع جيبس ثم قرب شاطئ تشوباتي حيث غادرناها.

تشوباتي، على الأقل، لم تتغير: إنها شريط وسخ من الرمل الغاص بالنشالين والمتسكعين وبائعي الحمص الساخن وما هب ودب من أصناف المرطبات والمأكولات الشعبية، لكن بعد ذلك، في الممر البحري شاهدت ما كانت قد حققته رباعيات الأرجل، فعلى الأرض التي استصلحتها وريثات نارليكار من البحر، كانت تحلق في السماء كتل هائلة تحمل أسماء غريبة عجيبة: أوبيراي ـ شيراتون تصرخ بي من بعيد. إذاً أين لافتة الجيب النيونية؟ . . «هلم بيكتشر»، قلت أخيراً وأنا أشد آدم إلى صدري: «دعنا نمض بسرعة، دعنا ننهِ الأمر كله، فقد تغيرت المدينة».

لكن ما عساي أقول عن نادي منتصف الليل السري؟ ذاك الذي يقع في مكان سري تحت الأرض (رغم أن باعة البان ذوي الحضور الكلي يعرفونه)،

بابه بلا علامة تميزه، مرتادوه صفوة مجتمع بومباي. أي شيء آخر؟ آه. أجل: يديره شخص ما يدعى آناد (آندي) شروف، فتى مستهتر ورجل أعمال يتعين عليه أن يتواجد معظم الأيام كي يعرض جلده لأشعة الشمس عند فندق «ساند» على شاطئ جوهو وسط نجوم السينما والأميرات المتحررات. وأسألك: حمام شمس هندي؟ لكن ذلك يبدو عادياً تماماً، الأحكام الدولية لفن الانغماس في الملذات ينبغي إطاعتها حرفياً، بما في ذلك، على ما أظن، عبادة الشمس اليومية التي لا بدّ منها.

كم كنت ساذجاً (وكنت أعتقد في الماضي أن سوني، ذا الأخاديد الملقطة، هو الساذج) حين لم يراودني شك في أن أمكنة كنادي منتصف الليل السري موجودة! لكنها موجودة بالطبع، وهكذا قرعنا على أبوابه نحن الثلاثة وفي أيدينا الشبابات وسلال الأفاعي.

حركات مرئية تظهر عبر شبك حديد صغير على مستوى العين: صوت أنثوي ذواب يطلب إلينا أن نذكر طبيعة عملنا، فيعلن بيكتشر سينغ «أنا أعظم ساحر في العالم. وفي الملهى هنا يشتغل ساحر أفاع آخر لذلك فإنني أتحداه كي أثبت لكم تفوقي عليه، وأنا لا أطلب مقابلاً لذلك. فهي مسألة شرف يا رئيسة».

كان الوقت مساء، ولحسن الحظ كان السيد آناد (آندي) شروف موجوداً، ولكي لا أطيل السيرة أقول إنه تم قبول التحدي فدلفنا إلى ذلك المكان الذي كان اسمه ذاته يثير أعصابي بشكل من الأشكال، إذ كان يحوي كلمة منتصف الليل، كما أن الحروف الأولية التي ترمز لاسمه كانت هي نفسها تخفي ذات يوم السري م. أ.م. تلك التي ترمز لمؤتمر أطفال منتصف الليل، والآن ها قد اغتصبها ناد ليلي سري. أي باختصار شعرت أنني قد تعرضت للغزو.

مشكلتان متلازمتان كان يعاني منهم شباب المدينة الكوزموبوليتاني الراقي: كيف يستهلكون الكحول وهو في حالته الجافة، وكيف يفتنون البنات بحسب أفضل التقاليد الغربية وذلك بأخذهن إلى الخارج لطلي المدينة باللون الأحمر، وفي الوقت ذاته يحافظون على السرية التامة لتحاشي عار الفضيحة.

ذلك العار الشرقي إياه؟ وكان نادي منتصف الليل السري هو الحل الذي قدمه السيد شروف للمشكلات المضنية التي يعاني منها شباب المدينة المترف. ففي ذلك المستراح السري المجهول، كان قد أوجد عالماً مظلماً كجهنم، وفي ثنايا ظلمة منتصف الليل تلك كان العشاق يلتقون، يشربون الكحول المستورد، يتغازلون، يعششون في زوايا الليل الاصطناعي العازل ويتبادلون الهوى في أحضان حصانة مطلقة، جهنم هي من خيال الناس الآخرين وكل قصة أسطورية تتطلب الهبوط، مرة واحدة على الأقل، إلى جهنم وقد سرت خلف بيكتشر سينغ إلى قلب الظلمة الحالكة للنادي، ممسكاً ابني الصغير بين ذراعيّ.

في إثر دليل سرنا منحدرين على سجادة ناعمة سوداء ـ سواد منتصف الليل، سواد الكذب، سواد العذاب، سواد الغضب، سواد «النصب والابتزاز»، باختصار سجادة سوداء ـ وكان دليلنا فتاة ذات فتنة جنسية آسرة، ترتدي ساريها وقد انحسر إلى منطقة منخفضة من وركيها على نحو مثير للغاية، بينما شكت ياسمينة في سرتها، لكنها التفتت، ونحن ننحدر إلى قلب الظلمة، باتجاهنا وعلى شفتيها ابتسامة مطمئنة فرأيت أن عينيها مغمضتان، وأن عينين مشعتين روحانيتين قد رسمتا على أجفانهما، فلم أستطع منع نفسي من السؤال «لماذا؟» وعلى ذلك السؤال أجابت ببساطة «إني عمياء، فضلاً عن ذلك ما من أحد يجيء هنا ويرغب في أن يراه أحد. هنا، أنتم في عالم بلا وجوه ولا أسماء، هنا ناس بلا ذاكرات أو عائلات أو ماض، فهذا المكان خلق من أجل اللحظة الحاضرة، ولا شيء سوى اللحظة الحاضرة» كانت الظلمة قد ابتلعتنا، فقادتنا الفتاة عبر تلك الهوة الكابوسية التي فرضت فيها على الأنوار أصفاد وقيود، ذلك المكان الواقع خارج الزمان، ذلك النفي للتاريخ. . «اجلسوا هنا» قالت الفتاة: «الحاوي الآخر سيأتي في الحال. وحين يحين الأوان سيشتعل ضوء لكم، وعند ذاك تبدأ المباراة».

وهكذا جلسنا هناك ـ ماذا؟ دقائق، ساعات، أسابيع؟ من يدري؟ لكن كانت هناك أعين براقة لنساء بلا عيون يقدن ضيوفاً غير مرئيين إلى مقاعدهم، وشيئاً فشيئاً، وأنا في قلب الظلمة، أدركت أنني محاط بهمسات حب رقيقة

أشبه بزقاءات فئران مخملية، كما سمعت صليل كؤوس تمسكها أذرع متشابكة ومرور لطيف لشفاه على شفاه، وبأذني الصالحة والأخرى المعطوبة سمعت صوت الجنس الحرام يملأ منتصف الليل... لكن لا، أنا لم أرغب في معرفة ما يحدث، رغم أن أنفي كان قادراً على أن يشم، في صمت النادي الذي لا يعرف إلا الهمس، كل ضروب القصص الجديدة والبدايات، كل أنواع الحب المحرم الغريب، كل الأحداث الخفية الصغيرة المؤسفة وكل التماديات وتجاوزات الحد، إلى أن يشتم، بالحقيقة، رائحة كل أنواع الحلمات ذات العصارة، فقررت أن أتجاهلها جميعاً، إذ إن ذلك العالم كان عالماً جديداً لا مكان لي فيه. غير أن ابني آدم، كان يجلس إلى جواري، أذناه تتحرقان لهفة، وعيناه تتوهجان في قلب الظلمة وهو يصغي ويحفظ ويتعلم... ثم اشتعل ضوء.

حزمة وحيدة من الضوء انسكبت على شكل بركة، على أرض النادي، ومن الظلال الواقعة على أطراف المنطقة المضاءة رأيت أنا وآدم بيكتشر سينغ وهو يجلس متصلباً تماماً متصالب الساقين إلى جوار شاب جميل دهن شعره بالمرهم، تحيط بهما كلاهما أدوات موسيقية وسلال فنهما المغلقة. بعدئذٍ أعلن مكبر صوت عن بداية تلك المباراة الأسطورية على لقب الساحر الأعظم في العالم، لكن من تراه كان يصغي؟ هل من أحد أعار اهتمامه أم تراهم كانوا جميعاً منهمكين شفاهاً وألسنة وأيدي؟ لقد كان لخصم بيكتشر سينغ اسم طنان هو: المهراجا كوش ناهين.

(لا أدري: من السهل ادعاء أي لقب. لكن ربما، ربما كان حقاً سليل تلك الراني القديمة التي كانت ذات يوم، صديقة الدكتور عزيز، ربما كان نفسه وريث تلك الأميرة التي آزرت «الطنان» وناصرته، وقد وضع، ويا لسخرية القدر، قبالة الرجل الذي كان من المحتمل أن يصبح ميان عبد الله الثاني! الأمر محتمل دائماً، فكثير من المهراجات انحدروا إلى مهاوي الفقر مذ ألغت الأرملة رواتبهم).

كم من الزمن ظلا يتباريان في ذلك الكهف الذي لا يعرف الشمس؟ شهوراً، سنين، قروناً؟ ذلك ما لا أستطيع البت فيه: فقد كنت أراقب كالمنوم

مغناطيسياً، وكلاهما يسعى لإبطال سحر الآخر، مجرباً كل نوع من أنواع سحر الأفاعي التي لا يتخيلها عقل، باحثاً عن مختلف الأنواع التي يمكن بعثها من مزرعة، أفاعي بومباي (التي كانت للدكتور شابستيكر ذات يوم. .). وكان المهراجا يقابل كل أفعى يأتي بها بيكتشر بأفعى تضاهيها، بل يفلح في أن يسحر حتى الأفاعي العاصرة التي لم يتمكن بيكتشر من سحرها إلا قبل ذلك بوقت قصير. في ذلك النادي الجهنمي الذي كانت ظلمته تشكل جانباً من جوانب هاجس صاحبه ذي اللون الأسود (والذي كان جلده يصطبغ بتأثيره ويزداد سواداً أكثر وأكثر كل يوم تحت شمس فندق الساند). في ذلك النادي كان الحاويان يدفعان بالأفاعي للقيام بأعمال خارقة لا يصدقها عقل، كأن تعقد الأفعى نفسها عقداً عقداً أو تصنع من نفسها أقواساً أو ترشف الشراب من كؤوس الخمر أو تقفز عبر أنشوطات من نار. . . وكان بيكتشر سينغ يتحدى تحت وطأة التعب والجوع والهرم، كان يقدم ـ عرض العمر (لكن هل كان ثمة من يرى! هل من أحد على الإطلاق؟). أخيراً بات واضحاً أن الشاب تعب أولاً، فأفاعيه لم تعد ترقص بإيقاع منتظم مع لحن شبابته. وهكذا تمكن بيكتشر سينغ أخيراً، وبيد خفية إلى درجة لم أستطع رؤية ما حدث، من أن يعقد أفعى من نوع الكوبرا حول عنق المهراجا.

ثم قال: «قل إنني الأفضل يا رئيس أو جعلتها تلدغك».

وكانت تلك نهاية المباراة. إذ ترك الأمير الذليل النادي وقيل فيما بعد إنه أطلق النار على نفسه في سيارة أجرة. لكن على أرض معركته الأخيرة الكبيرة، كان بيكتشر سينغ قد هوى مثل شجرة اقتلعتها الريح. . . وقد ساعدنا الحضور العميان (الذين سلمت آدم إلى واحد منهم) في حمله من ساحة الوغى. .

بيد أن نادي منتصف الليل كانت لديه خدعة أخرى خبأها في طيات كمه. فمن قلب الظلمة ولإضافة نوع من التوابل للمشهد ـ كانت بقعة ضوء جوالة تبحث عن زوج من الأزواج السريين بغية كشفه لأعين بقية الأزواج المختفية: لمسة تبعث الحياة في شباب المدينة الكوزموبوليتاني. لكن من

تراه كان الضحية المختارة في تلك الليلة؟ من تراه، بصدغيه القرنيين ووجهه المبقع وأنفه الأشبه بالخيارة، وجد نفسه يغرقه النور الفاضح؟ من هو ذاك الذي جعله نور المصابيح الباهر أعمى كالمضيفات، فسقط أرضاً عند رجلي صديقه الفاقد وعيه؟

لقد عاد سليم إلى مسقط رأسه كي يقف تحت بقعة النور في قبو من الأقبية بينما راح البومباويون يضحكون عليه من أماكنهم المظلمة. . .

الآن، ولأننا بلغنا نهاية الأحداث، أسجل بسرعة أن بيكتشر سينغ عاد إلى وعيه في غرفة خلفية يسمح فيها بالضوء، بعد نوبة إغمائه، وفيما كان آدم، يستغرق في سبات عميق، أتت لنا إحدى النادلات العمياوات بوجه إنعاش لها صفة التهنئة والتبريك. فكان على طبق النصر هذا: شتى أطايب المأكولات ومن بينها صلصة خضراء كالجندب. . وبلمحة عين أتيت على الصلصة حتى كدت أحاكي بيكتشر سينغ في إغمائه، إذ أعادني ذلك إلى اليوم الذي خرجت فيه من المستشفى بتسع أصابع ومضيت إلى المنفى، لدى خالي حنيف عزيز، حيث قدمت إلي أفضل صلصة في الدنيا. . . كان مذاق الصلصة أكثر من مجرد صدى لذلك المذاق القديم. . لقد كان المذاق عينه. هو بالذات وبكل ما لديه من قدرة على إرجاع الماضي وكأنه لم يبتعد أبداً. . . وفي نوبة مسعورة من الهياج أمسكت بالنادلة العمياء من ذراعها، وقد تعذر علي ضبط نفسي، ثم تمتمت متلعثماً: «الصلصة من أعدها؟» ولابد أنني كنت أصرخ، إذ إن بيكتشر قال لي: «اهدأ يا رئيس، سوف توقظ الصبي فما المسألة؟ إنك تبدو وكأنك رأيت شبح أعدى أعدائك!». فردت النادلة بشيء من البرود: «ماذا؟ ألم تعجبك الصلصة؟» عندها اضطررت لأن أجأر عالياً بصوت كأنه مؤطر بقضبان فولاذ: «بل أعجبتني، أعجبتني، والآن، ستقولين لي من أين هي؟». فقالت، بشيء من الخوف والكثير من اللهفة لأن تبتعد: «إنها من مخللات براغانزا، أفضل مخللات في بومباي، والجميع يعرف ذلك».

طلبت إليها أن تأتيني بالمرطبان وهناك، على البطاقة، كان العنوان:

عنوان مبنى على بوابته إلهة نيونية خضراء وصفراء دائمة الوميض، مصنع تكلؤه برعايتها مومباديفي نيونية، فيما تمر به القطارات المحلية صفراء وبنية: شركة مخللات براغانزا (الخاصة) المحدودة، والواقعة في شمال المدينة الممتد.

ومرة أخرى أجدني أمام تعويذة «افتح يا سمسم» كلمات مطبوعة على مرطبان صلصة تفتح الباب الأخير في حياتي. . . فقد وجدت نفسي رهن تصميم لا يقاوم يدفعني للذهاب إلى صانع تلك الصلصة غير المعقولة، صلصة الذكريات تلك، فقلت: «بيكتشر، ينبغي أن أذهب. .».

ولا أعلم نهاية قصة بيكتشر. . . فقد أبى أن يرافقني في بحثي، كما رأيت في عينيه أن الجهود التي بذلها في كفاحه قد حطمت شيئاً في داخله، وأن انتصاره كان، بالحقيقة، نوعاً من الهزيمة، لكن إن كان لا يزال في بومباي (ربما يعمل لدى السيد شروف) أم عاد إلى امرأته ـ الغسالة إن كان لا يزال على قيد الحياة أم لا، فذاك أمر يتعذر علي البت فيه. . «كيف أتركك؟» سألته يائساً حزيناً لكنه أجاب: «لا تكن أحمق يا رئيس، فأنت لديك ما ينبغي فعله، إذاً ليس هناك ما تفعله سوى ذلك. فاذهب، اذهب، ثم ما حاجتي إليك؟ وكما قالت لك ريشام العجوز اذهب، اذهب بسرعة، هيا امض».

نهاية رحلة: وهكذا أخذت آدم ومضيت من العالم السفلي لنادلات عمياوات سرت شمالاً شمالاً، حاملاً ابني بين ذراعي حتى وصلت أخيراً إلى حيث تلتهم السحالي الذباب وتبقبق الرواقيد وتحكي نسوة شديدات البأس نكتاً بذيئة، إلى هذا العالم، عالم العرافين ذوي الشفاه الرقيقة والصدور المخروطية وصليل مرطبانات ـ المخللات النافذ إلى كل مكان والمنبعث من منشأة التعليب. . . لكن، في نهاية مطافي، من التي زُرعت في طريقي، وذراعاها في خصرها، وشعر ذراعيها يلمع بالعرق؟ من التي سألت، وبصورة مباشرة كما هو شأنها دائماً: «أنت يا سيد. ما الذي تبتغيه؟».

«أنا!» تصرخ بادما، وقد أثارتها الذكرى وضايقتها قليلاً «طبعاً، أنا، من سواي؟ أنا أنا أنا» مساء سعيداً يا بيجوم «قلت آنذاك (فتشهق بادما: أوه أنت ـ

دائماً في غاية التهذيب) مساء سعيداً، هل يمكنني التكلم مع المدير؟».

أوه، يا لبادما العنيدة الحذرة المتجهمة! «غير ممكن، السيدة المديرة مشغولة. عليك أن تأخذ موعداً. عد فيما بعد، أما الآن فأرجو أن تذهب».

اسمعوا: الحقيقة أنني كنت سأبقى وأماحك وأشاكس بل وأستخدم القوة علّي أتخطى ذراعي بادما، إنما جاءت صرخة من الممشى ـ هذا الممشى يا بادما، خارج المكاتب ـ الممشى الذي كان يطل منه إلى الأسفل شخص لم أرغب بتسميته حتى الآن، الممشى الذي يعبر رواقيد المخللات العملاقة والصلصة المتناثرة الرذاذ وعبر ذلك الممشى اندفع شخص إلى الأسفل بخطا معدنية ذات وقع عال وجاء صوت يصرخ بأعلى طبقة له: «أوه يا إلهي! يا إلهي! يا يسوع المسيح، بابا، بني، أيتها الفتيات انظرن من جاء هنا. هيه بابا، ألا تراني، انظر كم نحل جسدك، تعال، تعال، دعني أقبلك، دعني أقدم لك قرصاً من الكعك!».

وكما خمنت تماماً، فقد كانت السيدة المديرة لشركة مخللات براغانزا (الخاصة) المحدودة هي بالطبع مربيتي الفائقة القيمة وقد أطلقت على نفسها اسم السيدة براغانزا. كانت هي نفسها مجرمة منتصف الليل، الآنسة ماري بيريرا، الأم الوحيدة التي بقيت لي في الدنيا.

منتصف الليل أو حوالى ذلك. رجل يحمل مظلة سوداء مطوية (لم تمس) يمشي باتجاه نافذتي من ناحية سكة الحديد، يتوقف، يقرفص، يقضي حاجة. بعدئذٍ يرى ظلي على الجدار وبدلاً من أن يشعر بالإهانة لرؤيتي، ينادي «انظر إلى هذا. ويعمل على إبراز أطول قضيب رأيته في حياتي، خمس عشرة بوصة» يصرخ بأعلى صوته «فكم يبلغ طول قضيبك؟». في الماضي حين كنت ما أزال أكثر تمتعاً بطاقتي، كنت سأرغب في رواية قصة حياته، فالساعة وامتلاكه لمظلة لهما كل الصلات التي أحتاجها لابتداء عملية إدخاله في حياتي، وليس لدي شك في أنني كنت سأنتهي إلى ضرورته وأساسيته بالنسبة لكل من يود فهم حياتي وأيامي المظلمة، لكن الآن وقد فصمت روابطي وصلاتي، ولم يبق لي سوى أن أكتب قبريات، الآن أكتفي بالتلويح لقاهري البطل وأرد: «سبع بوصات في أحسن أحواله» ثم أنساه.

غداً أو بعد غد. الشروخ تنتظر الخامس عشر من آب، لا يزال أمامي القليل من الوقت، سوف أنتهي غداً.

* * *

هذا اليوم، منحت نفسي فرصة للقيام بزيارة ماري. أركب بحافلة مسافة طويلة يحف بي الغبار والحر عبر شوارع توشك أن تفور بفرح عيد الاستقلال القادم، رغم أنني أستطيع شم روائح أخرى أشد قتامة: انقشاع الوهم، الفساد، التشاؤم.. فأسطورة الحرية بعد إحدى وثلاثين سنة لم تعد كما كانت. لقد باتت الحاجة ماسة لأساطير جديدة، لكن ذلك ليس من شأني.

تقطن ماري بيريرا التي تدعو نفسها الآن سيدة براغانزا مع أختها أليس، واسمها الآن السيدة فرناندز، في شقة تقع في المسلة الزهرية التابعة لنسوة نارليكار على الرابية ذات الدورين حيث كانت في الماضي، وفي قصر أزيل عن وجه الأرض، تنام على حصير الخدم. مخدعها يشغل تقريباً الحيز نفسه الذي كانت معلقة فيه إصبع الصياد المؤشرة وهي تقود زوجاً من عيون صبيانية نحو الأفق، وفي كرسي هزاز، تهدهد ماري ابني مغنية له «أشرعة حمراء عند الغروب» أشرعة قوارب حمراء، تنتشر قبالة الأفق البعيد.

يوم سار تماماً، تستعاد فيه ذكرى الأيام الخوالي، ففي هذا اليوم تحققت من أن حوض صبار قديم قد بقي على قيد الحياة بعد الثورة التي شنتها نسوة نارليكار، فاستعرت رفشاً من الجنائني ونبشت عالماً دفن منذ زمن طويل: كرة صفيحية تحتوي على صورة طفل بحجم الجامبو أكلها النمل، ورسالة رئيس وزراء. بعد أيام: للمرة العاشرة نثرثر حول التغير الذي طرأ على ثروة ماري بيريرا، وكيف أنها كانت مدينة كلها لأختها أليس التي كان المرحوم زوجها السيد فرناندز قد توفي بسبب عمى الألوان، إذ اضطرب في سيارته الفورد القديمة عند إحدى إشارات المرور واصطدم بعمود كهرباء. ثم، كيف زارتها أليس في غوا حاملة معها خبراً بأن معلماتها، نسوة نارليكار، يرغبن باستثمار بعض أموالهن العائدة من رباعيات القوائم في مصنع مخللات «لقد قلت لهن، لا أحد يصنع صلصة مخللات كماري أختي». ثم قالت أليس بدقة تامة: «فهي تسكب أحاسيسها فيها». وهكذا تبين في النهاية أن أليس فتاة

طيبة. وتقول ماري: «بابا، ماذا تظن؟ كيف كنت سأصدق أن العالم كله يود أكل مخللاتي المسكينة؟ إنهم يأكلونها حتى في إنكلترا. والآن، فكر فقط، فكر أنني أجلس هنا حيث كان منزلكم العزيز تماماً، فيما لا يعلم إلا الله ما حدث لك أنت الذي تعيش مثل شحاذ طول الوقت. فأي عالم هذا يا رب؟».

وتنطلق انتحابات عذبة ـ مرة: آه يا للبابا والماما المسكينين. تلك السيدة الرقيقة ماتت! ذلك الرجل المسكين الذي لم يعرف أبداً من يحب ولا كيف يحب! وحتى القردة.. لكنني أقاطعها! «لا، ليست ميتة: لا ليس صحيحاً، لم تمت، بل تختفي في دير، بالسر، تأكل الخبز».

لقد علمتني ماري، التي سرقت تركة الملكة المرحومة كاثرين تلك التي منحت البريطانيين هذه الجزر، علمتني أسرار عملية التخليل (وبذلك تنهي دورة تعليمية بدأتها في هذا الحيز المكاني نفسه حين كانت تقف في المطبخ وهي تحرك إثمها في قلب الصلصة الخضراء). والآن تلتزم ماري المنزل متقاعدة بشيخوختها ذات الشعر المبيض، سعيدة مرة أخرى وقد عادت مربية تتحمل مسؤولية طفل صغير «الآن وقد انتهيت من كتابتك، يا بابا، عليك أن تخصص المزيد من الوقت لابنك» لكنني فعلت ذلك يا ماري. فترد، مغيرة الموضوع لأن ذهنها يقوم هذه الأيام بكل أصناف النطات ـ البرغوثية، قائلة: «أوه، بابا، بابا، انظر إلى نفسك! كم كبرت!!».

ماري الثرية التي لم تحلم يوماً من الأيام بأن تكون ثرية، لا يزال صعباً عليها أن تنام في السرير. لكنها تشرب ست عشرة زجاجة كوكاكولا يومياً. دون أن تقلق على أسنانها التي سقطت كلها بشكل أو بآخر. نطة برغوثية: «لماذا تزوجت على هذا النحو المفاجئ للغاية؟» لأن بادما تريد ذلك، لا، بالطبع، هي ليست في ورطة وأنى يكون ذلك وأنا في حالتي؟ «حسناً، بابا إنه مجرد سؤال».

الأيام تمضي بسلام، وأخيراً مع شفق يوم من الأيام، وحين بلغ من العمر ثلاث سنوات وشهراً وأسبوعين نطق آدم سيناء.

«آبـ. . .» «أوه يا إلهي، انصت، بابا، الغلام يقول شيئاً!». ويتابع آدم بحذر شديد «آبـ. . .ـا» أبي. أوه إنه يناديني بأبي. لكن لا، لم ينتبه الغلام بعد، ثمة توتر في وجهه وفي النهاية يكمل ابني الذي سيتعين عليه أن يكون ساحراً كي يتكيف مع العالم الذي أتركه فيه، يكمل كلمته الأولى الرهيبة. . . كادابا!.

ابراكادابرا[1]! لكن لا يحدث شيء، فنحن لا ننقلب إلى ضفادع، الملائكة لا تحط في الغرفة من السماء: الغلام يمرن عضلات لسانه وحسب. لا، لن أرى معجزاته. . وفي غمرة احتفالات ماري بالإنجاز الذي حققه آدم، أرجع إلى بادما والمصنع. فرحلة ابني الأولى المبهمة في عالم اللغة تركت رائحة مقلقة في خيشومي.

ابراكادابرا: ليست كلمة هندية على الإطلاق، بل هي صيغة من صيغ الفلسفة القبلانية[2] مشتقة من اسم كبير آلهة الغنوطية البازيليدية وتحوي العدد ٣٦٥ وهو عدد أيام السنة وعدد السماوات وعدد الأرواح المنبعثة من الإله أبراكساز فأتساءل في سري وللمرة الألف: «هذا الغلام من يظن نفسه يا ترى؟».

مزائجي الخاصة: إنني أوفرها. أما القيمة الرمزية لعملية التخليل فهذه هي: الستمائة مليون بويضة جميعاً، تلك التي انبثق منها سكان الهند يمكن إدخالها جميعاً في مرطبان مخللات واحد ذي حجم نموذجي، ستمائة مليون حيوان منوي يمكن حملها بملعقة واحدة ونتيجة لذلك فإن مرطبان مخللات (واسمحوا لي أن أصير ميالاً للتنميق لحظة من الزمن) يحوي أرفع الاحتمالات: احتمال جعل التاريخ صلصة، الأمل الكبير بتخليل الزمن! لكنني خللت الفصول هذه الليلة، وبفتح الغطاء المثبت بإحكام على مرطبان يحمل العنوان:

«صيغة خاصة رقم ٣٠: تعويذة» أصل إلى نهاية سيرتي الذاتية ذات

---

(١) آثرنا إبقاءها بالانكليزية وتعني: تعويذة.

(٢) فلسفة دينية سرية لدى أحبار اليهود وبعض نصارى العصر الوسيط.

الالتفافات الطويلة. بالكلمات والمخللات خلدت ذكرياتي رغم أنه لا بدّ من حدوث بعض التشوهات في كلتا الحالتين إذ علينا أن نعيش، كما أرى، مع ظلال اللاكمال.

إنني أدير في هذه الأيام مصنع ماري. أما أليس ـ السيدة فرناندز ـ فتشرف على الحسابات المالية، وبذلك تنحصر مسؤوليتي بالنواحي الإبداعية من عملنا (ولقد صفحت عن ماري، غفرت لها جرمها، فأنا بحاجة للأمهات حاجتي للآباء، والأم لا تلام). وهكذا، بين العلامات في مصنع براغانزا، وتحت الومضات الخضراء والزعفرانية التي تومضها مومباديفي النيونية، أعمل على اختيار المانغا والبندورة والليمون من النساء اللواتي يأتين مع الفجر والسلال على رؤوسهن. فماري، بكراهيتها القديمة «للرجال»، لا تسمح بأن يدخل إلى عالمها الجديد المريح أي ذكر سواي أنا وابني بالطبع. أما أليس فأشك بأنه لا يزال لها حتى اليوم بعض العلاقات الخفيفة، بينما وقعت بادما في هواي من النظرة الأولى، وقد رأت بي منفذاً لخزانها الهائل من الرعاية والاهتمام، ورغم أنه لا يسعني التحدث عن البقية جميعاً، لكنني أقول إن الكفاءة الهائلة لنسوة نارليكار قد انعكست، في هذا المصنع، بتكريس محركات ـ الرواقيد أنفسهن للعمل بكل ما يملكن من بأس.

ما هو المطلوب لصنع الصلصة؟ مواد خام، طبعاً ـ فواكه، خضار، سمك، خل، توابل. زيارات يومية من نساء كوليات وقد شمرن سواريهن عن سيقانهن، خيار، قثاء، باذنجان، نعنع. لكن أيضاً: عيون زرقاء زرقة الصقيع لا تغشها أبداً زخرفات الفواكه الخادعة. عيون ترى الفساد تحت قشرة الليمون، وأصابع، بلمستها الخفيفة كالريش، يمكنها تحري أقراص البندورة حتى لبها الخفي، وفوق ذلك كله أنف قادر على تمييز متطلبات السوق، معرفة كل ما يقال في الخفاء، عما يجب أن يخلل، عن كل ما تحمل المخللات من أمزجة وعواطف وأحاسيس. . . في معمل براغانزا، أشرف على إنتاج الصيغة الطهوية الأسطورية فيها، بفضل القدرات التي تتمتع بها المجاري الأنفية المجففة، أن أسرب ذكريات، أحلاماً، أفكاراً بحيث أنها

ما إن تدخل مرحلة إنتاج ـ الجملة حتى يعرف كل من يستهلكها ماذا فعلت المباهر في الباكستان، أو كيف كان طعم الضياع في السندربانز. . . صدق أو لا تصدق لكن هي ذي الحقيقة. فعلى الرف ينتصب ثلاثون مرطباناً بانتظار إطلاقها على الأمة المصابة بفقدان الذاكرة.

(وإضافة إليها، ثمة مرطبان فارغ).

عملية التنقيح ينبغي أن تكون مستمرة لا تنتهي، فلا تظنن أنني راض عما أنجزت! فبين الأشياء التي تعكرني: النكهة اللاذعة للغاية لتلك المرطبانات المتضمنة ذكريات أبي وذلك الالتباس في نكهة ـ حب «جميلة المغنية» (لاسيما الصيغة رقم ٢٢) التي قد تؤدي بغير المتفهم لأن يستنتج أنني ربما اخترعت قصة تبديل ـ الطفل كلها لأبرر حباً محرماً: كذلك أشياء غامضة غير مستحبة في المرطبان المعنون «حادثة في صندوق الغسيل». كما أن المخللات تثير أسئلة لم تتم الإجابة عنها على نحو كامل، مثلاً: لماذا كان سليم بحاجة للمحادثة كي يكسب قدراته السحرية ومعظم الأطفال الآخرين لم يكونوا كذلك. .؟ أو مرة ثانية في «إذاعة عموم الهند» ومرطبانات أخرى، ثمة مذاق غير متجانس مع مجموع المذاقات: هل يمكن لاعتراف ماري أن يشكل صدمة لصاحب تخاطر حقيقي؟ أحياناً، وفي نسخة التاريخ المخللاتية، يبدو سليم وكأنه لا يعرف إلا القليل، بينما يعرف الكثير الكثير في أحيان أخرى. . أجل، علي أن أنقح وأنقح، أحسِّن وأحسِّن، لكن لم يعد ثمة وقت ولا طاقة، وإنني مضطر لأن أقدم هذه الجملة التي تدل على العناد ولا شيء سواها: لقد كتبت كذلك لأنه حدث كذلك.

هناك أيضاً مسألة الأسس التوابلية. تعقيدات الكركم والكمون، حدة الحلبة متى تستخدم مقادير كبيرة من حب الهال (ومتى تستخدم مقادير صغيرة) والآثار المحتملة العديدة للثوم، لأعواد القرفة، للكزبرة، للزنجبيل. . هذا إن لم نذكر النكهة التي يمكن أن تقدمها نتفة من القذارة في بعض الأحيان (فسليم لم يعد مهووساً بالنقاء والطهر). في الأسس التوابلية، أجدني متكيفاً مع تشويهات عملية التخليل التي لا مناص منها. أن تخلل

يعني أن تهب الخلود. بالنتيجة: سمك، خضراوات، ثمار، تسبح في ماء الخل والتوابل وتغيير معين، زيادة حدة الطعم قليلاً مسألة تافهة بالتأكيد؟ فالفن هو أن تغير النكهة من حيث الدرجة لا من حيث النوع، وقبل كل شيء (في مرطباناتي الواحد والثلاثين) أن تعطيها صيغة وشكلاً ـ أي معنى ـ (وقد ذكرت من قبل، خوفي من الوقوع في التفاهة).

ذات يوم، قد يتذوق العالم مخللات التاريخ. وهي قد تكون لاذعة جداً لبعض الحلوق، رائحتها قد تكون طاغية جداً، قد تدفع بالدموع إلى العيون. مع ذلك آمل أن يكون في الإمكان القول عنها إن فيها طعم الحقيقة الصادقة وأنها، رغم كل شيء، نابعة عن حب.

مرطبان واحد فارغ.. كيف ينتهي؟ بسعادة، مع ماري في كرسيها الهزاز المصنوع من خشب الساج والطفل الذي بدأ النطق؟ أم وسط صيغ طهوية وثلاثين مرطباناً أسماؤها عناوين فصول، أم بأسى واكتئاب، غارقاً في ذكريات جميلة وبارفاتي بل حتى ايفي بيرنز؟ أم مع اطفال السحر... لكن الآن، هل يسرني أن البعض فروا أو انتهوا إلى المأساة الناجمة عن آثار التصريف التفكيكية؟ (ذلك أنه في التصريف تكمن أصول الشروخ: جسمي البائس المفتت إلى ذرات، جسمي المجفف من فوق ومن تحت، بدأ يتصدع لأنه جفف. أخيراً استسلم، هو المتيبس، لآثار تهشيم دام العمر كله. والآن ها هو ذا يتمزق، يتشقق، يتصدع، يبعث رائحة كريهة عبر الشقوق لا بدّ أنها رائحة الموت. السيطرة: ينبغي أن أحتفظ بالسيطرة ما أمكنني ذلك).

أم تراه ينتهي بتساؤلات: وباستطاعتي الآن، أقسم على ذلك أن أرى صدوعاً في قفا يدي، صدوعاً بمحاذاة خط الشعر في رأسي، بين أصابع قدمي، لكن لم لا أنزف دماً؟ أتراني بت فعلاً ضرباً من المخللات المجففة المفرغة؟ مومياء نفسي؟

أم ينتهي بأحلام: ذلك أن طيف الأم المبجلة ظهر لي ليلة أمس وهو يحدق إليّ عبر فتحة في غيمة مثقوبة منتظراً موتي كي تتاح له فرصة البكاء أربعين يوماً علي، شآبيب من الدموع كأمطار الخماسين... والآن، وأنا

أسبح خارج جسدي أنظر إلى الأسفل، إلى الصورة المختزلة عن نفسي، فأرى مسخاً رمادي الشعر بدا، ذات مرة، في المرآة وكأنه قد انتعش.

لا، هذا لا ينفع، فسوف يتعين عليّ أن أكتب عن المستقبل كما كتبت عن الماضي، أن أذوقه بيقينية النبي المطلقة. لكن من المستحيل حفظ المستقبل في مرطبان. إذاً لا بدّ من أن يبقى مرطبان واحد فارغاً. كذلك ما لا يمكن تخليله، لأنه لم يجر، هو أنني سأبلغ عيد ميلادي الحادي والثلاثين هذا اليوم، ولا شك أن الزواج سيتم وأنهم سيضمخون راحتي بادما وأخمصيها بالحناء، وسيكون لها اسم جديد أيضاً، ربما نسيم، ذكرى لطيفة الأم المبجلة الساهرة علي، وخارج النافذة سيكون ثمة ألعاب نارية وحشود. فذلك اليوم سيكون عيد الاستقلال، وفي الشوارع سوف يكون الوحش المتعدد الرؤوس كما ستكون كشمير بالانتظار. كذلك ستكون في جيبي بطاقات ـ قطارات، وسوف يكون هنالك سيارة أجرة يسوقها ابن بلد حلم ذات مرة، وفي مقهى الرائد، بأن يكون نجماً سينمائياً، ولسوف تنطلق بنا السيارة جنوباً جنوباً جنوباً إلى قلب الحشود الصاخبة التي تقذف بعضها بعضاً بالبالونات الملونة، كما ستقذفها على نوافذ السيارة المرفوعة ـ الزجاج، وكأن ذلك هو مهرجان «هولي» للطلاء، وعلى طول هورنبي فيلارد، حيث ترك أحدهم كلبة كي تلقى مصرعها، يتزايد الحشد، الحشد الكثيف، الحشد الذي لا حدود له إلى أن يمل العالم جاعلاً تقدم السيارة أمراً مستحيلاً، فنهجر سيارتنا وأحلام سائقها، لنمضي على أقدامنا في قلب الحشد الصاخب، ثم أنفصل عن بادما، أجل، عن زهرة الروث اللوتسية وتمتد ذراعها نحوي عبر أمواج البحر المتلاطم إلى أن تغرق في خضم الحشد وأظل وحيداً في زحمة الأعداد الماضية قدماً: واحد، اثنان، ثلاثة، ويأخذني الموج إلى اليمين والشمال بينما يبلغ التشقق التصدع التمزق ذروته، فيصرخ جسمي، لم يعد باستطاعتي تحمل هذا الضرب من المعاملة، لكنني آنذاك أرى وجوهاً مألوفة في الحشد، كلها هنا، جدي آدم وزوجته نسيم، علياء ومصطفى، حنيف وأميرالدا أمينة التي كان اسمها «ممتازا» ذات يوم ونادر الذي صار قاسماً وبيا

وظافر الذي كان يبلل فراشه وكذلك الجنرال ذو الفقار، إنهم يزدحمون حولي، يدفعون يجرفون يسحقون والشروخ تتسع، قطع من جسدي تتهاوى، الليل يخيم بل لقد خيم، وهناك عد تنازلي يتكتك باتجاه منتصف الليل، ألعاب نارية ونجوم، رسوم المصارعين على لوحات الإعلانات فأرى أنني أصل كشمير، على غرار جيهانجير، إمبراطور المغول. سوف أموت وكشمير على شفتي، عاجزاً عن رؤية وادي المباهج والمسرات الذي يمضي الناس إليه كي يستمتعوا بالحياة أو يتخلصوا منها أو كلاهما، فأنا الآن أرى شخوصاً آخرين في الحشد، ذلك الشبح المخيف لبطل الحرب أبي الركب الفاتكة، ذاك الذي اكتشف كيف حرمته بالخداع من حق ـ مولده. إنه يندفع صوبي عبر الحشد الذي يتكون الآن برمته من وجوه أليفة، فهناك رشيد خادم العربة، يشبك ذراعه بذراع الراني كوتش ناهين وكذلك أيوب شهيد فاروق مع معتصم الجميل، ومن اتجاه آخر، اتجاه الجزيرة التي يقع فيها ضريح الحاج علي، أرى طبقاً أسطورياً قادماً، الملاك الأسود، غير أنني أرى وهو يدنو مني أن وجهه أخضر وعينيه سوداوان، وفي منتصف شعره فرق مركزي، إلى اليسار شعر أخضر وإلى اليمين شعر أسود، عيناه عينا أرملة، شيفا والملاك يقتربان يقتربان، أسمع كذبات تروى في الليل، كل ما تبتغي أن تكون سوف تكون أكبر كذبة على الإطلاق، التصدع الآن، انشطار سليم، أنا قنبلة بومباي، راقبني وأنا أنفجر، العظام تتشظى، يتحطم تحت ضغط الحشد الرهيب كيس العظام يتداعى يتداعى، تماماً كما حدث ذات يوم في جاليانوالا، لكن يبدو أن الصابغ غير موجود اليوم، كما لا يوجد مركوروكروم، فقط ثمة مخلوق محطم يتفتت إرباً إرباً في الشارع، ذلك أنني كنت عدداً من الأشخاص كبيراً جداً جداً فالحياة بخلاف بناء الجملة تسمح لي بأكثر من ثلاثة، وأخيراً تأتي من مكان ما دقة الساعة الثانية عشرة، فأتحرر.

أجل، سيطأونني تحت أقدامهم، الأعداد تمضي قدماً واحد، اثنان، ثلاثة، أربعمائة مليون، خمسمائة ستمائة، تحولني إلى ذرات غبار لا صوت لها، تماماً كما ستطأ ذات يوم، وكل شيء في أوانه، ابني الذي ليس بابني

وابنه الذي لن يكون ابنه وابن ابنه الذي لن يكون ابن ابنه حتى الجيل الواحد بعد الألف وحتى يكون ألف منتصف ليل ومنتصف ليل قد وهب أطفاله هباته المخيفة ويكون ألف طفل وطفل قد مات، ذلك أن الامتياز الذي يمتاز به أطفال منتصف الليل وكذلك اللعنة التي يحملونها على كواهلهم إنما هي أن يكونوا سادة زمانهم وضحاياه في آن معاً، أن يتخلوا عن كل ما هو شخصي خصوصي لتمتصهم دوامة الجماهير الكاسحة، وأن يكون محالاً عليهم أن يعيشوا أو يموتوا بسلام.

المحتويات

الكتاب الأول ٥

الملاءة المثقوبة ٧

مركوروكروم ٢٩

لعبة إصابة المبصقة ٤٨

تحت السجادة ٦٩

إعلان عام ٨٨

وحوش متعددة الرؤوس ١٠٩

ميثولد ١٢٩

تكتكة ١٥٠

الكتاب الثاني ١٧١

إصبع الصياد المؤشرة ١٧٣

أفاعٍ وسلالم ١٩٥

حادثة في صندوق الغسيل ٢١٤

إذاعة عموم الهند ٢٣٧

حب في بومباي ٢٥٨
عيد ميلادي العاشر ٢٧٦
في مقهى الرائد ٢٩٨
ألف وياء ٣٢٠
فتى الكولينوس ٣٤١
عصا المقدم سبرماتي ٣٦٢
ظهورات ٣٨٣
تحركات تقوم بها مباهر ٤٠٤
التصريف والصحراء ٤٢٢
جميلة المغنية ٤٤٠
كيف توصل سليم إلى الطهارة ٤٧٠

الكتاب الثالث ٤٩٧
البوذا ٤٩٩
في السندربانز ٥٢١
سام والنمر ٥٤١
ظل المسجد ٥٥٦
زفاف ٥٨٤
منتصف الليل ٦٠٨
تعويذة ٦٣٨

هذا الكتاب

لم يقرأ كثيرون رائعة رشدي «أطفال منتصف الليل» التي صدرت مطلع الثمانينات وعُرّبت في دمشق. ولم تترجم أعماله اللاحقة إلى لغة الضاد، من «هارون وبحر الحكايا» إلى «شاليمار المهرّج». لقد توقف العرب عند «الآيات الشيطانيّة» ذات يوم من ١٩٨٩، ولم يخرجوا منه إلى اليوم. وإذا كان لهذه الرواية «الملعونة» من فضل علينا، فكونها طرحت على الضمير العربي المعاصر سؤالاً يتردّد على مرّ العصور: مَن يرسم حدود الابداع؟ حفنة من المثقفين العرب انتصرت لحريّة التعبير، وأعلنت تضامنها مع الكاتب البريطاني بمعزل عن الموقف من روايته الإشكاليّة. فالرواية ـ كما ذكّر صادق جلال العظم ـ عمل أدبي، متخيّل ومبتكر، يقيم مع الواقع الصِلات التي يريد، لكن لا نستطيع محاسبته على أنّه الواقع.

جريدة الأخبار ـ بيروت

علي مولا

التكوين